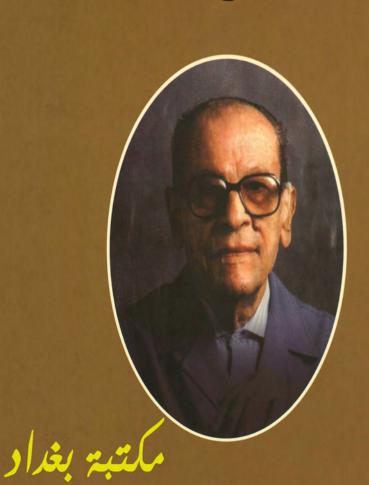


الأعمال الكاملة



دار الشروق

الغلاف والتصميم للفنان حلمي التوني

طبعَة دَارالشتروقالاُولت ۱٤۲۷هـ-۲۰۰۶م

جميسٌع جسُقوق الطنبيع محسّفوظة . . . .

© دارالشروة\_\_

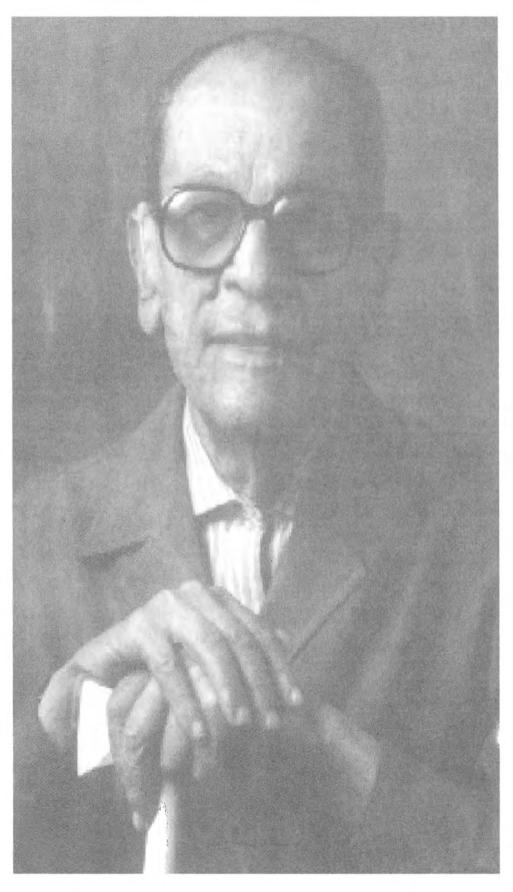
۸ شارع سیبویه المصری مدینة نصر –القاهرة – مصر تلیفون : ۴۰۲۳۹۹

فاکس : ۲۰۳۷ ۱۹ (۲۰۲) email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

# الأعمال الكامسلة في المحافظ في ال

دار الشروقــــ



# الأعمال الكاملة

مِيٽرَامَار ٧ اُولادحَارتنِ

171

خمّارةالقِ<u>ط</u>َالاُسُود ٥٧٤

> تحتالمِظلة ٧١١



# المحتويسات

117	سرحان البحيري	٧	عامر وجدی
101	عامر وجدي	۲٥	حسني علام
	سرحان البحيريعامر وجدي	۸١	منصور باهی

# عامــــر وجــــدى

الإسكندرية أخيرًا.

الإسكندرية قطر الندى، نفثة السحابة البيضاء، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع .

### \* \* \*

العمارة الضخمة الشاهقة تطالعك كوجه قديم، يستقر في ذاكرتك فأنت تعرفه ولكنه ينظر إلى لا شيء في لا مبالاة فلا يعرفك. كلحت الجدران المقشرة من طول ما استكنت بها الرطوبة. وأطلت بجماع بنيانها على اللسان المغروس في البحر الأبيض، يجلل جنباته النخيل وأشجار البلح، ثم يمتد طرف قصى حيث تفرقع في المواسم بنادق الصيد. والهواء المنعش القوى يكاد يقوض قامتي النحيلة المقوسة، ولا مقاومة جدية كالأيام الخالية.

ماريانا، عزيزتي ماريانا، أرجو أن تكوني بمعقلك التاريخي، كالظن وكالمأمول، وإلا فعلي وعلى صورة غريبة للعين الكليلة المظللة بحاجب أبيض منجرد الشعر.

ها أنا أرجع إليك أخيرا يا إسكندرية .

ضغطت على جرس الشقة بالدور الرابع. فتحت شراعة الباب. فتحت شراعة الباب عن

وجه ماريانا. تغيرت كثيرًا يا عزيزتي. ولم تعرفني في الطرقة المظلمة. أما بشرتها البيضاء الناصعة وشعرها الذهبي فقد توهجا تحت ضوء ينتشر من نافذة بالداخل.

- \_ بنسيون ميرامار؟
  - \_ نعم يا فندم .
- ـ أريد حجرة خالية .

الباب فتح. استقبلنى تمثال العذراء البرونزى. ثمة رائحة ما لعلى أفتقدها أحيانًا. وقفنا نتبادل النظر. طويلة رشيقة، الشعر ذهبى، والصحة لا بأس بها، ولكن بأعلى الظهر أحديداب، والشعر مصبوغ حتمًا، واليد المعروقة وتجاعيد زاويتى الفم تشى بالعجز والكبر. إنك يا عزيزتى فى الخامسة والستين رغم أن الروعة لم تسحب منك جميع أذيالها. ولكن هل تتذكريننى؟

نظرت باهتمام تجارى بادئ الأمر، ودققت النظر، ثم اختلجت العينان الزرقاوان. ها أنت تتذكرين، وها أنا أسترد وجودي الضائع.

\_أوه . . أنت!

\_مدام!

تصافحنا بحرارة، غلبها الانفعال فقهقهت ضاحكة. كنساء الأنفوشي قهقهت. وأطاحت بالوقار بضربة واحدة.

\_يا خبر أبيض، عامر بك، أستاذ عامر، ها. . ها. .

جلسنا على كنبة الأبنوس تحت العذراء وشبحانا يتخايلان في زجاج صوان المكتب القائم للزينة .

نظرت فيما حولي وقلت:

ـ مدخل البنسيون هو هو لم يتغير .

فقالت محتجة ، ملوحة بيدها بفخار:

- ـ بل تجدد وطلى مرات، وعندك أشياء جديدة كالنجفة والبارفان والراديو..
  - \_إنى سعيديا مريانا، الشكر لله على أنك في صحة جيدة. .
    - \_وأنت أيضايا مسيوعامر، ألمس الخشب...
  - ـ عندي المصران الغليظ والبروستاتا، نحمده على أي حال. .
    - \_أتجىء بعد زوال الصيف؟

قلت باهتمام:

- بل جئت للإقامة، متى تلاقينا آخر مرة؟

\_منذ. . منذ . . أقلت للإقامة؟

ـ نعم يا عزيزتي، رأيتك آخر مرة منذ حوالي عشرين عاما. .

\_واختفيت طيلة ذلك العمر!

ـ العمل، والهموم..

-أراهن على أنك زرت الإسكندرية مرات ومرات في تلك الأعوام. .

\_أحيانا، ولكن وطأة العمل كانت شديدة، وأنت أدرى بالصحافة. .

ـ وأعرف أيضا جحود الرجال..

\_ماريانا يا عزيزة ، أنت أنت الإسكندرية . .

ـ تزوجت طبعا. .

\_كلا بعد!

تساءلت مقهقهة:

\_ومتى تتم النية وتقدم؟

قلت بنبرة لم تخل من امتعاض:

ـ لا زواج، لا أبناء، اعتزلت العمل، انتهيت يا ماريانا. .

شجعتني بحركة من يدها فواصلت قائلا:

عند ذاك نادتني الإسكندرية، مسقط رأسي، ولما لم يكن لي فيها من قريب حي فقدقصدت الصديق الباقي لي في دنياي.

\_ جميل أن يجد الإنسان صديقا يقاسمه وحدته .

\_أتذكرين أيام زمان؟

قالت بصوت مأساوي:

ـ ذهبت بكل جميل.

ثم في شبه غمغمة:

\_ولكن علينا أن نعيش. .

وجاء وقت الحساب والمساومة. قالت: إنه لم يعد لها من مورد إلا البنسيون، ولذلك فهى ترحب بنزلاء فصل الشتاء ولو كانوا من الطلبة المزعجين، وفي سبيل ذلك تستعين بالسماسرة وبعض خدم الفنادق. رددت ذلك بحزن عزيز قوم ذل. واختارت لى الحجرة رقم ٦ في الجناح البعيد عن البحر. واتفقنا على أجرة معقولة تصلح لشهور العام عدا فصل الصيف، على أن يكون لى حق الاستمرار في الإقامة صيفا إذا دفعت أجرة المصيفين. تم الاتفاق على كل شيء بما فيه الفطور الإجباري، وأثبتت المدام أنها تستطيع

في الوقت المناسب أن تستنقذ قلبها من الذكريات لتحسن المساومة والتدبير. وسألتني عن حقائبي فأجبت بأنها في أمانات المحطة. فقالت ضاحكة:

ـ لم تكن متأكدا من وجود ماريانا.

ثم واصلت بحماس:

\_ لتكن إقامة دائمة.

فنظرت إلى يدى التي ذكرتني بيد مومياء في المتحف المصرى.

\* \* \*

لا تقل حجرتى في شيء عن الحجرات المطلة على البحر. مستوفية لحاجتها من الأثاث والمقاعد المريحة ذات الطابع القديم. ولتبق الكتب في صندوقها إلا ما ندر مما قد أراجعه فيمكن وضعه فوق الترابيزة أو التسريحة. لا يعيبها شيء إلا أن جوها يسبح في مغيب دائم لأنها تطل على منور كبير يتسلق على جدرانه سلم الخدم حيث تهر القطط ويتناجى العاملون. وزرت الحجرات كلها. الوردية والبنفسجية والسماوية وكانت جميعها خالية. في كل أقمت صيفا أو أكثر في زمن مضى. ورغم اختفاء المرايا القديمة والسجاجيد الفاخرة والقناديل المفضضة والفنايير البلورية فما زالت مسحة أرستقراطية باهتة تعلق بالجدران المورقة والأسقف العالية الموشاة بصور الملائكة.

قالت وهي تتنهد وقد لمحت لأول مرة طاقم أسنانها:

\_كان بنسيون السادة!

فقلت مواسيا:

\_ سبحان من له الدوام.

فعادت تقول وهي تلوي بوزها:

\_أكثر النزلاء شتاء من الطلبة، وأما في الصيف فأستقبل كل من هب ودب.

\* \* \*

\_عامر بك، كن شفيعي عند دولة الباشا.

وقلت للباشا:

\_ يا دولة الزعيم، ليس الرجل ذا كفاءة ممتازة ولكنه فقد ابنه في الجهاد وهو جدير لذلك بأن يرشح عن الدائرة.

وافق على اقتراحى أسكنه الله أعز مكان في جنته. كان يحبني ويتابع مقالاتي باهتمام صادق. ومرة قال لي:

\_أنت كلب الأمة الخافك.

كان رحمه الله ينطق القاف كافا . وسمع بها بعض الزملاء القدامي من رجال الحزب الوطني فكانوا كلما رأوني صاح صائحهم : «أهلا بكلب الأمة» .

لكنها كانت أيام المجد والجهاد والبطولة.

كان عامر وجدى شخصا فريدا، له في الرجاء جانب يرده الأصدقاء، وفي الخوف جانب يتجنبه الأعداء.

\* \* \*

فى الحجرة أتذكر أو أقرأ أو أستسلم للنعاس. وفى المدخل مجال سمر مع الراديو وماريانا. وإن شئت تنويعا فى التسلية ففى أسفل العمارة مقهى الميرامار. من البعيد جدا أن أعثر على أحد أعرفه أو يعرفنى، ولا فى التريانون نفسه. ذهب الأصدقاء وذهب زمانهم. وإنى لأعرفك يا إسكندرية الشتاء. تخلين ميادينك وشوارعك مع المغيب فيمرح فيها الهواء والمطر والوحشة، وتعمر حجراتك بالمناجاة والسمر.

\* \* \*

\_ ذلك العجوز الذي يخفي جسده المحنط تحت بدلة سوداء من عهد نوح.

وقال من عينه الزمن الهازل رئيسا للتحرير:

\_زمن البلاغة ولى، هل عندك عبارة تصلح لراكب طيارة؟!

راكب طيارة! . أيها القره جوز المفعم شحما وغباء . . إنما خلق القلم لأصحاب العقول والأذواق لا للمجانين المعربدين من ضحايا الملاهي والحانات . . ولكن قضي علينا طول العمر بالسير في ركاب زملاء جدد في المهنة ، لقنوا علمهم في السيرك ثم اجتاحوا الصحافة ليلعبوا دور البهلوانات .

\* \* \*

جلست على الفوتيل مرتديا الروب، استسلمت ماريانا إلى مسند الكنبة الأبنوس تحت تمثال العذراء، وانبعث من المحطة الأفرنجية موسيقى راقصة. وددت أن أسمع لونا آخر ولكنى تجنبت إزعاجها. استرخت جفونها كمن تحلم وحركت رأسها في طرب كأيام زمان.

- \_كنا وما زلنا أصدقاء يا عزيزتي .
  - \_طول العمر.
  - \_لم نتبادل العشق ولا مرة!
- ضحكت ضحكة عالية وقالت:
  - ـ ذوقك بلدى، لا تنكر..

\_عدا مرة عابرة، هل تذكرين؟

ضحكت طويلا ثم قالت:

ـ نعم جئت مرة بخواجاية فاشترطت عليك أن تكتب في السجل «عامر وجدى وحرمه».

\_وسبب آخر أبعدني عنك، كنت حسناء فاخرة يحتكرك الوجهاء. .

تهلل وجهها في سعادة شاملة، ماريانا، مهم عندى جدا أن يمتد بك العمر بعدى ولو يوما واحد حتى لا أضطر إلى البحث عن مأوى جديد. ماريانا إنك شاهد حي على أن التاريخ ليس وهما، من عهد الإمام إلى اليوم.

\* \* \*

\_سيدى الأستاذ، أستودعك الله.

رمقنی فی ضجر، وهو یضیق بی کلما رآنی . قلت:

\_آن لي أن أعتزل

قال وهو يداري ارتياحه:

ـ خسارة كبيرة ولكنني أرجو لك حياة طيبة .

انتهى كل شيء .

انطوت صفحة تاريخ بلا كلمة وداع ولا حفلة تكريم ولا حتى مقال من عصر الطائرة. أيها الأنذال. أيها اللوطيون ألا كرامة لإنسان عندكم إن لم يكن لاعب كرة؟!

\* \* \*

قلت وأنا أرنو إليها تحت تمثال العذراء:

\_ولا هيلانة في زمانها!

ضحكت وقالت:

ـ قبل أن تجيء كنت أجلس وحدى، لا أنتظر أحدًا أعرفه. مهددة دائما بأزمة كلي.

ـ سلامتك ، ولكن أين أهلك؟

وهي تتنهد:

\_هاجر النساء والرجال.

ولوت بوزها المجعد ثم واصلت:

\_قلت أين أذهب؟ لقد ولدت هنا لم أر أثينا أبدا في حياتي، ثم إن البنسيونات الصغيرة لن تؤم على أي حال.

يعجبني الصدق في القول والإخلاص في العمل وأن تقوم المحبة بين الناس مكان القانون. لا فض فوك. لقد أكرمك الله بتمثالين والموت.

\_مصر وطنك والإسكندرية ليس كمثلها شيء

عزف الهواء في الخارج. والظلام يهبط خلسة. قامت فأشعلت من النجفة ثلاثة مصابيح في أسفلها مثل عنقود العنب. عادت إلى مجلسها وهي تقول:

\_ كنت سيدة ، سيدة بكل معنى الكلمة .

\_مازلت سيدة يا عزيزتي.

ـ هل تشرب كأيام زمان؟

\_كأس واحدة عند العشاء، طعامي خفيف جدا، وذاك سر حيويتي رغم تقدم العمر.

آه يا مسيو عامر، تقول: إن الإسكندرية ليس كمثلها شيء؟ كلا لم تعد كما كانت على أيامنا، الزبالة ترى الآن في طرقاتها!

قلت بإشفاق:

\_عزيزتي، كان لابدأن تعود إلى أهلها.

قالت بحدة:

ـ ولكننا نحن الذين خلقناها .

\_عزيزتي ماريانا ألا تشربين كأيام زمان؟

\_كلا، ولا كأس واحدة، عندي ضغط من الكلي.

ما أجمل أن نوضع في متحف جنبا إلى جنب، ولكن عديني بألا تموتى قبلي:

\_مسيو عامر، قتلت الثورة الأولى زوجى الأول، أما الثورة الثانية فجردتني من مالى وأهلى ، ولماذا؟

- إنك مستورة والحمد لله، ونحن أهلك، والعالم يشهد أمثال هذه الحوادث كل شروق شمس.

\_يا له من عالم!

\_ ألا نغير المحطة الإفرنجية؟

\_عدا ليلة أم كلثوم فلا محطة غيرها!

\_أمرك يا عزيزتي.

\_خبرني لماذا يعذب الناس بعضهم البعض، ولماذا يتقدم بنا العمر؟

ضحكت دون أن أنبس.

أجلت البصر في الجدران المنقوش عليها تاريخها. هاك صورة الكابتن بقبعته العالية وشاربه الغزير في البدلة العسكرية، زوجها الأول، ولعله حبيبها الأول والأخير، الذي قتل في ثورة ١٩١٩. في الجدار المقابل وفوق المكتبة صورة أمها العجوز، كانت مدرسة. على مرمى البصر في الصالة فيما وراء البارفان صورة الزوج الثاني ملك البطارخ وصاحب قصر الإبراهيمية، أفلس ذات يوم فانتحر.

- ـ متى فتحت البنسيون؟
- \_قل متى اضطررت لفتحه من فضلك!
  - ثم أجابت:
  - \_عام ١٩٢٥.
  - عام محنة وكدر . .

\* \* \*

- ـ ها أنا شبه سجين في بيتي وعرائض التأييد تزف إلى الملك.
  - \_ زيف وكذب يا دولة الزعيم.
  - ـ حسبت الثورة قد طهرت النفوس من ضعفها.
  - \_الجو سليم والحمد لله. . سأسمع دولتكم مقالة الغد.

\* \* \*

راحت تدلك بشرة وجهها بليمونة وهي تقول:

- \_كنت سيدة يا مسيو عامر، أحب الحياة الحلوة والنور والفخامة والأبهة والملابس والصالونات، وكنت أهل على المدعوين كالشمس . .
  - ـ رأيت ذلك بعيني. .
  - ـ لكنك لم تر إلا صاحبة البنسيون.
    - \_كانت تهل أيضا كالشمس. .
  - \_وكان النزلاء من السادة ولكن لم يعزني ذلك عن تدهوري. .
    - \_ مازلت سيدة بكل معنى الكلمة.

هزت رأسها ثم سألت:

- \_ والأصدقاء القدامي ماذا حل بهم؟
  - ـ حل بهم المكتوب عليهم.
  - ـ لماذا لم تتزوج يا مسيو عامر؟

ـ سوء الحظ، ليتنا أنجبنا ذرية.

\_أوه . . كان كلا الزوجين عاقرا!

يغلب عملى الظن أنك أنت العاقر، إنه أمر مؤسف إذ إننا لم نوجد إلا لكي نجب.

# \* \* \*

ذلك البيت الكبير الذى تحول مع الأيام إلى فندق، يراه السائر فى خان جعفر كقلعة صغيرة، وحوشه القديم الذى شق فيه طريق إلى خان الخليلى، قد نقش فى قلبى هو وما يكتنفه من بيوت قديمة والكلوب العتيق، صورة تذكارية لنشوة الحب المشبوب المرتطم بخيبة الأمل. العمامة واللحية البيضاء وقسوة الشفتين وهما تلفظان «لا» فتقضى فى تعصب أعمى على الحب الذى هبط إلى الدنيا قبل الأديان بمليون سنة.

\_مولاي، إني أنشد القرب منكم على سنة الله ورسوله.

صمت وبيننا فنجال قهوة لم يمس، فقلت:

- إنى صحفى، ذو مال، وابن شيخ كان خادما لمسجد سيدى أبى العباس المرسى.

# قال:

\_رحمه الله كان من التقاة المؤمنين.

وقبض على المسبحة ثم استطرد:

ـ يا بني، كنت منا، جاورت الأزهر زمنا.

ذاك التاريخ متى ينسى! . قال:

ـ ثم طردت من الأزهر، أنت تذكر..؟

ـ مولاى، ذاك تاريخ قد انقضى، لأتفه الأسباب كان يحق الطرد، شاب هزه الشباب فاشترك في تخت مطرب ذات ليلة، أو طرح بعض أسئلة ببراءة. .

# قال بامتعاض:

\_قضى عليه قوم عقلاء بتهمة شنيعة.

ـ مولاي منذا يستطيع أن يقضى على إنسان بتهمة كالالحاد، ولا مطلع على الفؤاد إلا الله؟

\_ يستطيع ذلك من يسترشد بالله .

اللعنة. منذا يزعم أنه عرف الإيمان. قد تجلى الله للأنبياء ونحن أحوج منهم إلى ذاك

التجلى. وعندما نتحسس موضعنا في البيت الكبير المسمى بالعالم فلن يصيبنا إلا الدوار.

# \* \* \*

لنحذر الكسل. لا بأس من تجربة المشى فى الصباح المشمس. ما أحلى أيام الدفء فى البالما والبجعة. ولو وجدت نفسك وحيدا بين أسر تعمر بالأجيال. الأب يطالع جريدة والأم تطرز رقعة والأبناء يلعبون. لو يخترع المخترعون للمعتزلين جهازا يبادلهم الحديث والسمر، أو شخصا ألكترونيا يلاعبهم النرد، أو يركب لهم عينا جديدة تولع مرة أخرى ببنات الأرض وألوان السماء.

وقد عشنا دهرا طويلا حافلا بالأحداث والأفكار، نوينا أكثر من مرة أن نسجله في مذكرات \_ كما فعل الصديق القديم أحمد شفيق باشا \_ ولكن لم تصدق النية ثم تبددت بين إمهال وإرجاء. اليوم لم يبق من النية القديمة إلا الحسرة بعد أن وهنت اليد وضعفت الذاكرة واضمحلت القوة. ففي ذمة الله ذكريات الأزهر، وصحبة الشيخ على محمود وزكريا أحمد وسيد درويش، حزب الأمة ما أعجبني فيه وما نفرني منه، الحزب الوطني بحماساته وحماقاته، الوفد بثورته العالمية الخالدة، الخلافات الحزبية التي قوقعتني في حياد بارد لا معنى له، الإخوان الذين لم أحبهم، الشيوعيون الذين لم أفهمهم ، الثورة ومغزاها وامتصاصها للتيارات السابقة، غرامياتي وشارع محمد على، موقفي العنيد من الزواج. لو قيض لذكرياتي أن تكتب لكانت عجبا حقا.

زرت بحنان أثنيوس وباستوريدس وأنطونيادس. جلست وقتا في بهو وندسور وسيسل، ملتقى الباشوات والساسة والأجانب في الزمن القديم، وخير مجال لالتقاط الأخبار ومتابعة الأحداث، فلم أر إلا قلة من الأجانب شرقيين وغربيين. رجعت ولى عند الله دعاءان: دعاء بأن يمن على بحل مشكلة الإيمان، ودعاء بالأ يصيبني بمرض يقعدني عن الحركة فلا أجد من يأخذ بيدى.

### \* \* \*

ما أجمل هذه الصورة النابضة بالشباب. قد وضعت على المقعد ركبة الساق اليمنى وأراحت الأخرى على الأرض، ومالت بجذعها نحو مسند المقعد ملقية معصميها عليه، واستدار وجهها ليواجه الكاميرا باسما معتزا بملاحته وقد انحسر ديكولتيه الفستان الكلاسيكي الفضفاضي عن قاعدة العنق الطويل ونحر منبسط كالمرمر.

كانت قد ارتدت معطفها الأسود والإشارب الكحلى تأهبا لزيارة الطبيب، وجلست تنتظر الوقت المناسب للذهاب. سألتها:

\_ أقلت إن الثورة قد جردتك من مالك؟

فرفعت حاجبيها المزججين وقالت:

\_ألم تسمع بكارثة الأسهم؟

لعلها قرأت في عيني تساؤلا ففطنت إلى ما يدور بخلدي فقالت:

-ضاع ما ربحته أيام الحرب الثانية، صدقنى لقد ربحته بشجاعتى إذ أصررت على البقاء في الإسكندرية عندما هاجر الكثيرون إلى القاهرة والأرياف خوفا من غارات الألمان، طليت النوافذ باللون الأزرق وأسدلت الستائر، ودار الرقص على ضوء الشموع، ولن تجد من يضاهى ضباط الإمبراطورية في البذل والكرم.

وجدتنى وحيدا بعد ذهابها أنظر إلى عينى زوجها الأول وينظر إلى . ترى من قتلك وبأى سلاح؟ . وكم من جيلنا قتلت قبل أن تقتل؟ . جيلنا العتيد الذى فاق الأجيال جميعا في غزارة ضحاياه .

### \* \* \*

الغناء الأفرنجي لا ينقطع. أقسى ما حكم الزمان به على في عزلتي ماريانا أخذت حماما ساخنا عقب عودتها من عند الطبيب، هاهي تجلس ملفوفة في برنس أبيض وقد عقصت شعرها المصبوغ غارسة فيه عشرات المشابك المعدنية البيضاء. خفضت صوت الراديو إلى حد الهمس لتبدأ هي إذاعتها وقالت:

\_مسيو عامر . . لا شك أن لديك مالا وفيرا؟

فسألتها بشيء من الحذر:

\_ هل عندك مشروعات؟

\_كلا، ولكن في مثل عمرك\_وعمري أيضا مع الفارق الكبير\_لا يتهددنا شيء مثل الفقر والمرض.

قلت والحذر لم يفارقني بعد:

\_لقد عشت مستورا وأرجو أن أموت مستورا.

\_ لا أذكر أنك كنت مسرفا قط.

ترددت قليلا ثم قلت:

- أرجو أن يكون عمر المدخر من نقودي أطول من عمري . . لوحت بيدها باستهانة وقالت :

- الطبيب شجعني هذه المرة فوعدته بألا أحمل هما.

\_جميل ألا نحمل هما.

ـ يجب أن نفرح ونلهو عندما تأتي ليلة رأس السنة .

قلت ضاحكا:

ـ نعم، على قدر ما تسمح قلوبنا.

راحت تهز رأسها في تلذذ وتقول في مناجاة:

يا ليالي رأس السنة . .

فقلت منفعلا بذكريات بعيدة:

\_كم أحبك الكبراء!

ـ لم أعرف الحب إلا مرة واحدة. .

ثم أشارت إلى صورة الكابتن. وعادت تقول:

ـ قتله طالب من الطلبة الذين أخدمهم اليوم!

ثم قالت بخيلاء:

ـ كان بنسيون السادة! . . يعمل به طاه ومرمطون وسفرجي وغسالة وخادمان ، لا أحد يخدم به اليوم سوى غسالة أسبوعية!

\_ كبراء كثيرون يغبطونك على ما أنت فيه.

\_أهذا عدل يا مسيو عامر؟

هوعلى أي حال طبيعي يا مدام.

اربد وجهها فضحكت متوددا وملاطفا.

\* \* \*

﴿ الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۞ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۞ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۞ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾.

مضيت أقرأ سورة الرحمن الحبيبة إلى قلبي مذكنت في الأزهر . كنت غائصا في مقعد كبير طارحا قدمي على وسادة . هطل المطر بغزارة فارتفع رنينه فوق درجات السلم المعدني في المنور .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٦٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ .

ثمة أصوات تقتحم الصمت خارج الحجرة في البنسيون. رفعت رأسي عن الكتاب وأنصت. ضيف أم نزيل جديد؟. صوت ماريانا يرحب بحرارة لا تليق إلا بصديق حميم. وثمة ضحك أيضا. ثم وضحت نبرة غليظة من صوت أجوف. ترى من القادم. الوقت بعد العصر بقليل. والمطرينهل بشدة، والغيوم تريق في الحجرة ظلمة كالليل. ضغطت على زر الأباجورة حين لمع برق خاطف نضح به الشيش، وهزم الرعد.

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَان ۚ ﴾.

\* \* \*

يميل إلى القصر والبدانة، منتفخ الشدقين واللغد، وله عينان زرقاوان رغم سمرة بشرته، ذو طابع أرستقراطى لا تخطئه العين وينم عنه صمته المتكبر إذا صمت وحركات رأسه ويديه المتزنة المرسومة بدقة إذا تكلم. قدمته المدام باسم «طلبة بك مرزوق» في مجلس المساء، ثم قالت تزيدني معرفة به:

\_ كان وكيلا لوزارة الأوقاف ومن الأعيان الكبار.

لم يكن عندى في حاجة إلى تعريف. عرفته من بعيد بحكم مهنتى على عهد النضال السياسي والحزبي. كان من المنتمين إلى أحزاب السراى وبطبيعة الحال من أعداء الوفد. وتذكرت أيضا أنه وضع تحت الحراسة منذ عام أو أكثر وأنه جرد من موارده عدا القدر المعلوم. أما المدام فقد تبدت في أحسن أحوالها مرحا وعاطفية، نوهت مرارا بصداقتها القديمة لطلبة بك. وبرز حماسها المتدفق عندما دعته بمحبها القديم.

وقال لى الرجل ونحن نتبادل الحديث:

\_قرأت لك كثيرا فيما مضي . .

فضحكت ضحكة ذات مغزى فضحك بدوره قائلا:

\_كنت تعطيني مثلاحيا لقوة البلاغة عندما تتصدى للدفاع عن باطل!

وضحك طويلا ولكنني لم أجادله. وقالت المدام تخاطبني بشماتة:

\_طلبة بك تلميذ قديم للجزويت، سنسمع الأغاني الأفرنجية معا ونتركك لتتعذب وحدك. .

ثم بسطت راحتيها في ترحيب وقالت:

\_ جاء ليقيم معنا . .

فرحبت به فعادت تقول في رثاء:

\_ كان يملك ألف فدان، كان يلعب بالمال لعبا. .

هنا قال الرجل بامتعاض:

\_انقضى عهد اللعب. .

\_وأين كريمتك يا طلبة بك؟

ـ في الكويت مع زوجها المقاول.

وكنت أعلم أن الحراسة قد فرضت عليه لشبهة تهريب بيد أنه فسر مأساته قائلا:

ـ خسرت أموالي جميعا ثمنا لنكتة عابرة!

فسألته:

\_ هل دعيت إلى تحقيق؟

فقال بازدراء:

- المسألة بكل بساطة أنهم كانوا في حاجة إلى مالى . .

وكانت المرأة تنظر إليه بإمعان فقالت:

\_ تغيرت كثيرا يا طلبة بك.

ابتسم فوه الصغير المطوق بشدقيه ثم قال:

\_أصابتني جلطة كادت تقضى عليّ. .

ثم بشيء من العزاء:

\_ ولكنني أستطيع أن أشرب الويسكي في حدود الاعتدال.

\* \* \*

غمس الكروسان في الشاى الممزوج باللبن ثم أكل بأناة من لم يألف الطاقم الجديد بعد. لم يكن على مائدة الإفطار سوانا وكانت الأيام القلائل الماضية قد قربت بيننا وأزالت حواجز الحذر فغلب الأنس بروح الجيل الواحد على الخلافات البالية، وإن انطوى كل منا في أعماقه على مزاج متفرد مناقض لصاحبه: ولكن تجيء أوقات يبرز فيها المزاج الثاوى في الأعماق ليثير الغبار والتحديات. أجل قد سألنى بلا مناسبة:

\_ أتدرى ما السبب وراء المصائب التي حلت بنا؟

فتساءلت بدهشة:

- \_ أي مصائب تعني؟
- \_أيها الثعلب، إنك تعرف تماما ما أعنى.
- \_ولكن لم تحل بي المصائب من أي نوع كان . .
  - رفع حاجبيه الأشيبين وقال:
  - لقد اغتيلت شعبيتكم كما اغتيلت أموالنا. .
- \_لعلك تذكر أنني خرجت من الوفد، بل من الأحزاب جـميعا، منذ حادث ٤ فبراير..
  - \_ ولو . . ثمة لطمة قد أطاحت بكبرياء الجيل كله . .

فقلت زاهدا في الجدل:

ـ بصرف النظر عن موقفي فإني مشوق إلى معرفة رأيك. .

قال بهدوء وازدراء:

ـ يوجد سبب بعيد في طرف الحبل المشدود حول أعناقنا، شخص لا يكاد يذكره أحد. .

\_من هو؟

\_سعدزغلول!

لم أتمالك من الضحك فراح يقول بحدة:

\_ أجل، منذ دأب على إثارة الإحن بين الناس، والتطاول على الملك، وتملق الجماهير، رمى في الأرض ببذرة خبيثة، مازالت تنمو وتتضخم كسرطان لا علاج له حتى قضى علينا. .

\* \* \*

لم يكن بالبالما إلا آحاد مضى طلبة مرزوق ينظر إلى ماء النيل شبه الساكن فى ترعة المحمودية على حين مددت ساقى واستلقيت على مسند الكرسى كأنما أضطجع تحت شعاع الشمس النقى الدافئ. هاجرنا إلى أطراف الإسكندرية المزدحمة بالنبات والأزهار، التى تنعم أيام الصحو بالدفء والسلام، فأوينا إلى ركن من الجنة عامر بالبركات.

مهما يكن من غلو صاحبي وعصبيته فهو يستحق قدرا من الرثاء. عليه أن يبدأ حياة جديدة مريرة بعد الستين. إنه يغبط كريمته في مهجرها ويرى أحلاما غريبة، لايطيق أن يسمع عن نظرية تبرر مأساته التاريخية. ويؤمن بأن الاعتداء على ماله إنما كان اعتداء على كون الله وسننه وحكمته.

\_كدت أعدل عن الإقامة في البنسيون عندما علمت بوجودك. .

لم أصدق وسألته عن السبب:

ـ وقع اختياري على بنسيون ميرامار بأمل ألا أجد فيه إلا صاحبته الخواجاية.

فسألته عما بدد سوء ظنه بي:

\_ فكرت، ثم اقتنعت بأن التاريخ لم يعرف عميلا فوق الثمانين!

ضحكت طويلا ثم سألته:

\_ولم تخاف العملاء؟

ـ لا شيء في الحقيقة غير أني أروح عن نفسي أحيانا بالكلام.

ثم واصل حديثه بعصبية:

ـ لم يعدلى مقام فى الريف، وجو القاهرة يصر على إشعارى بهوانى. عند ذاك فكرت فى عشيقتى القديمة، وقلت لقدفقدت زوجها فى ثورة ومالها فى الثورة الأخرى، وإذن فسوف نعزف لحنا واحدا.

وأثنى على صحتى رغم طعوني في السن وجعل يغريني على مصاحبته في دور السينما والمقاهي الشتوية. ثم تساءل:

\_ لماذا عدل الله عن سياسة القوة؟

لم أدرك مرماه قال متبسطا في الشرح:

\_ أعنى الطوفان والرياح وغيرها .

فسألته بدوري:

\_ أتحسب أن الطوفان قد أهلك من البشر أكثر ممن أهلكتهم قنبلة هيروشيما؟

فلوح بيده ساخطا وقال:

ردد دعايات الشيوعيين أيها الثعلب؟ إن أكبر خطأ في حق البشرية قد وقع لدى تردد أمريكا في الاستيلاء على سلطان العالم عندما كانت تملك وحدها القنبلة الذرية!

ـ خبرني هل تجدد غرامياتك مع ماريانا؟

ضحك عاليا وقال:

ـ يا لها من فكرة جنونية، إنى شيخ هدمه العمر والسياسة وهيهات أن تحركني إلا المعجزات، وأما هي فلم يبق لها من الأنوثة إلا ألوانها المجردة. .

وضحك مرة أخرى ثم قال:

ـ وأنت هل نسيت تاريخك؟ لقد قرأت عن فضائحك في مـجلة الكشكول، عن جريك وراء الملاءات اللف بشارع محمد على. .

ضحكت بلا تعليق فتساءل:

ـ هل رجعت أخيرا إلى الدين؟

\_وأنت؟ . . يخيل إلى أحيانا أنك لا تؤمن بشيء؟

فقال بحنق:

ـ كيف لا أومن بالله وأنا أحترق في جحيمه؟!

\* \* \*

لقد خلق أمثالك للجحيم، لن يبارك الله لك في شيء، اخرج مطرودا من هذا المكان الطاهر، كما طرد إبليس من رحمة الله. دقت الساعة الكبيرة في الصالة معلنة انتصاف الليل. تجاوبت أركان المنور بصفير هواء قوى. أقعدني الكسل والدفء وأنا غائص في المقعد الكبير عن القيام إلى الفراش. وثقلت على وحدتى بعد أن انفردت بي في الحجرة الخالية فقلت لنفسى ما جدوى الندم بعد الثمانين.

وإذا بالباب يفتح دون استئذان ويقف طلبة مرزوق على عتبته قائلا:

\_معذرة، أدركت من ضوء الحجرة أنك لم تنم.

نظرت نحوه باستغراب. لقد شرب الليلة أكثر مما يشرب عادة. وسألني متهكما وحركات رأسه تواكب نبرته:

- أتعلم كم كان يكلفني في الشهر الواحد الدواء والفيتامينات والهرمونات والروائح والدهون وخلافه؟!

انتظرت أن يتكلم ولكنه أغمض عينيه كأن الجهد أرهقه، ثم تراجع فأغلق الباب ومضى .

# \* \* \*

السرادق مكتظ بالخلق، ساحة المولد كيوم الحشر، والصواريخ تنطلق في الفضاء. انشق النور وانعدم الظلام لمولد أحمد. وتهادت الرولزرويس حتى وقفت أمام السرادق. هبط منها طلبة مرزوق فخف لاستقباله أقوام وأقوام من السادة الدمرداشية. طريقة الرجل الذي جمع في قلبه بين الرسول والمندوب السامي. ولمحنى صاحب الرولزرويس فأعرض عنى في كبرياء. وقيل ليلتها إنك جئت ثملا كما جئتني الليلة. ودعى سيد المطربين إلى وسط السرادق فأنشد «ياسماء ما علتك سماء». وفي الهزيع الأخير من الليل غنى «أحب اشوفك» فأطاح بعقول المريدين. متى كانت تلك الليلة العجيبة؟. على التحديد لا أذكر ولكنها حتما سبقت وفاة الرجل الجليل وإلا ما صفالي الطرب.

\* \* \*

كنت أجلس في المدخل ولا أحد معى في البنسيون عندما دق الجرس. فتحت الشراعة على طريقة المدام فرأيت أمامي وجها انشرح لمرآه صدرى. من النظرة الأولى انشرح له صدرى. وجه أسمر لفلاحة مطوقة الرأس ولوجه بطرحة سوداء: أصيلة الملامح مؤثرة جدا بنظرة عينيها الحلوة المترقبة:

\_ من أنت؟

\_أنا زهرة!

قالتها ببراءة وثقة كأنما تنطق باسم علم من الأعلام. سألتها وأنا أبتسم:

\_ماذا تريدين يا زهرة؟

\_الست ماريانا.

فتحت لها الباب فدخلت حاملة بقجة صغيرة. نظرت فيما حولها ثم سألت:

- \_أين الست؟
- \_ستجيء بعد قليل، اجلسي.

جلست على مقعد واضعة البقجة على حجرها فعدت إلى مجلسي في نشاط جديد. جعلت أنظر إليها، إلى تكوينها القوى الرشيق، وملاحتها الفائقة، وشبابها الغض، وأنا في غاية من الارتياح.

واستسلمت لرغبة في محادثتها فقلت:

- \_قلت إن اسمك زهرة؟
  - \_زهرة سلامة .
  - \_من أين يا زهرة؟
  - \_ من الزيادية بحيرة .
  - \_على ميعاد مع المدام؟
    - ـلا..
    - \_إذن؟
    - \_ جئت لأقابلها.
      - \_ تعرفك طبعا؟
        - \_نعم.

تمليت جمالها وشبابها بارتياح لم أشعر بمثله من دهر ثم عدت أسألها:

- \_هل تعيشين في الإسكندرية من زمن طويل؟
- لم أعش في الإسكندرية ، ولكن زرتها مرارا مع المرحوم أبي .
  - \_وكيف عرفت المدام؟
- ـ كان أبي يجيئها بالجبن والزبد والسمن والدجاج، وكنت أجيء معه أحيانا.
  - \_فهمت، تنوين يا زهرة أن تحلى محل أبيك.
    - ـلا. .

حولت عينيها إلى البارفان كأنما لتتفادى من المزيد فاحترمت سرها وازددت لها حبا . وبكل حنان دعوت لها في سرى أن يحفظها الله . قلت وأنا أقبل يدها المعروقة المدبوغة «ببركة دعواتك أصبحت رجلا ولا كل الرجال، هلمي معى إلى القاهرة» فقالت وهي تتطلع نحوى بحنان: «فليزدك الله من خيره وبركاته، أما أنا فلن أغادر البيت، إنه حياتي وعمرى».

بيت نحيل ، مقشر الجدران، تلطمه الرياح وتستقر أملاح البحر على أحجاره، وتلفحه روائح السمك المكدس على شاطئ الأنفوشي.

قلت: «لكنك تعيشين هنا وحدك».

فقالت: «معى خالق الليل والنهار».

\* \* \*

دق الجرس فقامت زهرة ففتحت الباب. نظرت إليها المدام بدهشة ثم هتفت:

\_زهرة! . . غيرمعقول . .

لثمت الفتاة يدها مشرقة الوجه لحرارة الترحيب.

ـ جميل أن أراك، الله يرحم والدك، تزوجت يا زهرة.

\_کلا .

\_غير معقول!

وضحكت عاليا ثم التفتت إلى قائلة:

\_زهرة بنت رجل طيب يا مسيو عامر . .

ومضتا معا إلى الداخل حين جاش صدري بحنان وأبوة.

\* \* \*

ولما جمعنا مجلس الليل \_ أنا وطلبة وماريانا \_ قالت المدام:

\_أخيرا ارتحت.

وسكتت لحظة ثم واصلت:

\_زهرة ستعمل عندي.

اجتاحني إحساس غريب بالفرح والضيق معا ثم سألت:

\_أجاءت لتعمل خادمة؟

ـ نعم، لم لا، ستكون على أي حال في مركز ممتاز.

\_ولكن ما. .

\_كانت تستأجر نصف فدان وتزرعه بنفسها، ما رأيك في ذلك؟

\_ جميل ولكن لم تركت أرضها؟

نظرت إلى مليا ثم قالت:

\_لقد هربت.

\_هربت!

قال طلبة ساخرا:

\_اعتبروها إقطاعية!

\_أراد جدها أن يزوجها من عجوز مثله لتخدمه، والباقي معروف. .

قلت بحزن:

\_حدث خطير لا تهضمه القرية.

ـ لا أحد لها بعد جدها إلا شقيقتها الكبرى وزوجها . .

\_ وإذا عرفوا أنها هنا؟

\_محتمل ولكن ماذا يهم؟

\_ألا تخشين . .

\_ليست صغيرة، وما فعلت إلا أنني آويتها وأعطيت لها عملا شريفا. .

ثم بإصرار:

\_مسيو عامر . لن أتخلى عنها . .

لن أتخلى عن واجبي مادام في عرق ينبض، ولتفعل بنا القوة ما تشاء.

\* \* \*

وراحت تعلمها وزهرة تتعلم بسرعة فائقة وماريانا تقول بسرور:

- البنت مدهشة يا عامر بك، مدهشة، ذكيةوقوية، من مرةواحدة تعرف المطلوب، أنا بختى عال.

وقالت لي في مرة أخرى:

\_ما رأيك، خمسة جنيهات غير الأكل واللبس.

أعلنت ارتياحي ثم قلت برجاء:

ـ لا تلبسيها بطريقة عصرية!

\_أتريدها أن تلبس كالفلاحات؟

\_عزيزتي ، البنت جميلة ، فكّرى في الأمر .

\_أنا عيني مفتوحة دائما. ، والبنت طيبة يا مسيو عامر.

هكذا خطرت زهرة في فستان من الكستور فصل على جسمها الرشيق ليبرز محاسنه،

ربما لأول مرة، بعد طول اختفاء تحت الجلباب الفضفاض المسترسل حتى الكعبين، ومشط شعرها جيدا بعد أن غسل بالجاز ثم فرق في وسط الدماغ ليجتمع في ضفيرتين انسابتا في امتلاء وراء الأذنين.

ورآها طلبة مرزوق فنظر إليها متفرسا ثم مال نحوى بعد ذهابها وهمس قائلا:

ـ سنشاهدها في الصيف القادم في الجنفواز أو مونت كارلو.

فقلت باستياء:

\_ فال الله و لا فالك يا شيخ!

ثم مر بها وهو في طريقه إلى الخارج فسألها مداعبا:

\_هل فيك عرق أجنبي يا زهرة؟

شيعته بنظرة متسائلة. واضح أنها لن تستلطفه. ونظرت نحوى فقلت لها:

\_ إنه يداعبك ، فاعتبرى قوله نوعا من الثناء. .

ثم قلت باسما:

\_وأنا أيضا من عشاقك يا زهرة. .

فابتسمت ابتسامة صافية فلم أشك في أنها تبادلني مودة بمودة وسررت بذلك جدا. وكانت المدام تدعوها \_ بعد انتهاء العمل \_ للجلوس معنا في المدخل حول الراديو، فكانت تختار مقعدا بعيدا بعض الشيء عنا وعلى كثب من البارفان وتتابع أحاديثنا برغبة جادة في الاستطلاع والفهم، واستأنستها بمودتي فصرنا صديقين، وتبادلنا الكلام كثيرا في الفرص المتاحة.

وقصت علينا ذات ليلة قصتها بنفسها وهي تظن أننا نسمعها لأول مرة. ثم قالت تعليقا على بعض ظروفها:

\_أراد زوج أختى أن يأكلني فزرعت أرضي بنفسي!

\_ألم يشق عليك ذلك يا زهرة؟

ـكلا ، إنى قـوية بحـمدالله، لم يغلبني أحـد في المعـاملة، لا في الحقل ولا في السوق.

فقال طلبة مرزوق ضاحكا:

\_ولكن الرجال يهتمون بأمور أخرى أيضا؟

فقالت بتحد لطيف:

ـ أكون رجلا عند الضرورة. .

فأمنت على قولها بحماس. وقالت المدام:

\_زهرة ليست غشيمة، كانت تصحب أباها في جولاته ، كان يحبها جدا. .

فقالت بحزن:

ـ وكنت أحبه أكثر من عيني، أما جدى فلا يفكر إلا في الانتفاع من ورائي. .

ولكن طلبة عاد إلى معاكستها قائلا:

ـ لو كان باستطاعتك أن تكوني رجلا فلم اضطررت إلى الهرب؟

فقلت مدافعا عنها:

- يا طلبة بك، أنت أدرى بجو القرى، وقداسة الأجداد، والتقاليد الرهيبة، كان عليها أن تبقى لتصير زوجة زائفة أو أن تهرب. .

رمقتنى بامتنان، ثم قالت بأسف:

ـ تركت أرضى . .

وإذا بطلبة يقول:

ـ سيقولون إنك هربت لكيت وكيت . .

حدجته بنظرة غاضبة، واكفهر وجهها كأنما اتخذ من ماء الفيضان بشرة جديدة، وفردت سبابتها والوسطى وهي تقول بخشونة:

\_ أغرزهما في عين من تقول على بالباطل . .

هتفت المدام:

ـزهرة ألا تفرقين بين الجد والدعابة؟

وقلت بدوري ملاطفا وقد أخذت بغضبتها:

\_إنه يداعبك يا زهرة. .

وملت نحوه متسائلا:

\_أين لباقتك يا عزيزي؟

فأجابني باستهانة:

\_موضوعة تحت الحراسة!

\* \* \*

عيناها عسليتان، وجنتاها دسمتان موردتان، في ذقنها غمازة. بالكاد حفيدتي الصغرى، أما جدتها المحتملة فقد مرت في لمح البصر. لم يدركها حب ولا زواج. المستحيل تذكر ملامحها. بيرجوان والدرب الأحمر وسيدى أبو السعود طبيب الجراح.

\_حتى متى تبقى هنا يا سيدى؟

كانت تجيئني في حجرتي بقهوة العصر فأستبقيها حتى أفرغ رغبة في حديثها.

\_إنى مقيم هنا يا زهرة.

ـوأسرتك؟

قلت ضاحكا:

ـ لا أحد لي في الدنيا سواك.

فضحكت من أعماق قلبها في مرح. يدها صغيرة صلبة خشنة الأنامل. قدماها مفلطحتان كبيرتان. أما الجسم والوجه فسبحان الله العظيم.

ومرة همست لي:

\_إنه ثقيل الدم!

قلت لها مستعطفا:

ـ إنه رجل كبير سيئ الحظ، وبه مرض. .

\_يظن نفسه باشا وقد مضى عهد الباشوات.

وقع قولها من أذني موقعا غريبا فدار رأسي في دائرة سحرية قطرها قرن كامل.

\* \* \*

\_يأبون زيارة وزير الحقانية لأنه أفندى. .

\_يا دولة الزعيم، لرجال القضاء مهابتهم!

\_ إنى فلاح قبل كل شيء أما هم فشراكسة. .

ثم ماضيا في تصميم:

- اسمع، طالما عيروني بالغوغاء ففاخرتهم بأنني زعيم الرعاع ذوى الجلاليب الزرق، اسمع. لابد أن تتم الزيارة. . وبكل احترام. .

\* \* \*

حتى أنواع الويسكى حفظت أسماءها وهي تبتاعها من بقالة الهاى لايف. وكانت تقول لى:

\_كلما طلبتها رمقتني الأبصار وضحكت الوجوه. .

فرددت في نفسى «ليحفظك الله».

\* \* \*

يا لها من ضوضاء. الأصوات ليست بالغريبة ولكنها تصرخ محتدمة. ماذا يجرى خارج الغرفة؟. غادرت الفراش والساعة تدق الخامسة مساء. تلفعت بالروب ومضيت إلى الخارج. لمحت طلبة وهو يختفى فى حجرته ضاربا كفا على كف. رأيت زهرة جالسة مقطبة وشبه باكية مقوسة الظهر والمدام واقفة أمامها فى غاية من الكدر. ماذا هناك؟. قالت المدام لما رأتنى:

\_زهرة سيئة الظن جدايا عامر بك!

تشجعت زهرة بحضوري فقالت بخشونة:

\_أراد أن أدلكه!

بادرتها المدام:

\_ إنك لا تفهمين، إنه مريض، كلنا نعلم ذلك، في حاجة إلى تدليك، كان يسافر كل سنة إلى أوروبا، ومادمت لا تريدين فلن يرغمك أحد. .

قالت زهرة بحدة:

ـ لم أسمع عن ذلك من قبل، دخلت حجرته بنية سليمة فرأيته منطرحا على وجهه شبه عار!

ـ كفي يا زهرة، الرجل كبير، أكبر من والدك، ليس إلا سوء تفاهم، قومي فاغسلي وجهك وانسى الأمر كله. .

جلسنا على كنبة من الآبنوس وحدنا. الهواء يصرخ في الخارج والنوافذ تصطك. غشانا صمت ثقيل مرهق فقالت المدام:

ـ هو الذي طلب، وأنا لا أشك في نيته. .

تمتمت بلهجة ذات معنى:

\_ماريانا!

تساءلت بحدة:

\_أتشك في نيته؟

- العبث لا حدود له!

\_لكنه شيخ كما تعلم؟

\_وللشيوخ عبثهم أيضا!

ـ قلت إنها أولى بالنقود من أخرى غريبة!

\_إنها فلاحة. .

ثم ذكرتها قائلا:

\_ وقد وضعتها في حماك!

وجاء طلبة فاتخذ مجلسه في بساطة البريء وانطلاقته. وراح يقول:

\_الفلاح يعيش فلاحا ويموت فلاحا. .

فقلت بضيق:

\_ دعها تعيش وتموت على ما فطرها الله عليه . .

قال بامتعاض:

ـ قطة متوحشة، لا يغرك منظرها في الفستان، وجاكتة المدام الرمادية، إنها قطة متوحشة. .

إنى حزين من أجلك يا زهرة. أدرك الآن مدى وحدتك.

وليس البنسيون بالمكان المناسب لك. والمدام ـ حاميتك ـ لن تتورع عند أول فرصة عن اتهام براءتك. .

وتساءل طلبة مرزوق بعد الكأس الأولى قائلا:

\_منذا يحدثني عن حكمة الله في خلقه؟

فهتفت ماريانا مرحبة بتغيير مجرى الحديث:

\_حاسب أن تكفريا طلبة بك!

فأشار إلى تمثال العذراء وسأل:

\_خبريني يا سيدتي لماذا رضي الله بأن يصلب ابنه؟

فقالت بجد:

\_ لو لا ذلك لحلت بنا اللعنة!

فضحك طويلا ثم قال:

\_ألم تحل بنا اللعنة بعد؟

وكان يسترق إلى النظر وأنا أتجاهله حتى لكزني بكوعه وهو يقول:

\_أيها الثعلب، عليك أن تصالحني مع زهرة...

\* \* \*

نزيل جديد؟

شيء في وجهه الأسمر الواضح الملامح يشى بأنه فلاح معتدل القامة في غير امتلاء سمرته أميل إلى العمق، له نظرة قوية، في الثلاثين من عمره. دعته المدام إلى مقعد من مائدة الإفطار وهي تقول:

\_مسيو سرحان البحيري.

ثم قدمتنا إليه، وطلبت منه أن يزيدنا تعريفا بنفسه إن شاء فقال بصوت قوى ذى طعم ريفي متمدن:

\_ وكيل حسابات شركة الإسكندرية للغزل.

وعقب خروجه ضحكت المدام معلنة عن سرورها وقالت:

ـ نزيل مقيم أيضا وبنفس الشروط!

ولم يكد يمضى أسبوع حتى جاء حسنى علام للإقامة أيضا: وهو شاب يصغر سرحان بقليل، ربعة أبيض اللون، ذو بنيان متين يليق بمصارع، وقالت المدام: إنه من أعيان طنطا.

وأخيراً جاء منصور باهى مذيع بمحطة الإسكندرية، في الخامسة والعشرين، وقد أثر في وجهه الرقيق وقسماته الصغيرة الجميلة، أجل فيه شيء من الطفولة ولا أقول الأنوثة ولكن بدا من أول الأمر أنه يعيش في ذاته عسير الألفة.

إذن قد شمل العمران الحجرات جميعا وطارت المدام من الفرح، وتوثب قلبي للترحيب والتعارف ولإشباع عواطفه المتعطشة. وقلت للمدام:

\_شباب مرح جميل فلعلهم لايزهدون في مجلسنا العجوز!

فقالت بسرور:

ـ وليسوا طلبة على أي حال.

لم يتجاوز التعارف حدوده الرسمية ، حتى اقتربت الليلة الأولى لموسم أم كلثوم فعلمت أنهم سيسهرون معنا حول الراديو وأنها ستكون ليلة طيبة عامرة بالشباب والغناء .

# \* \* \*

أعدوا فيما بينهم عشاء من الشواء وشرابا من الويسكى. . جلسنا حول الراديو وزهرة تقوم على خدمتنا كنحلة . الليلة باردة ولكنها صامتة لم نسمع للرياح فيها صوتا وقالت زهرة: إن السماء صافية وإنك تستطيع أن تعد النجوم . ودارت الكئوس وزهرة جالسة عند البارفان تراقبنا بنظرة باسمة . عانى طلبة مرزوق وحده قلقا خفيا . قال لى قبل السهر بأيام : «سينقلب البنسيون جحيما» . إنه يخاف الأغراب، ولم يشك في أنهم يحيطون بتاريخه وظروف حراسته علما ، إن لم يكن عن طريق الصحف فعن سبيل المذيع منصور باهى .

وكانت المدام كعادتها قد استخلصت منهم المعلومات الخليقة بأن تشبع تطفلها الأبدى:

\_مسيو سرحان البحيري من أسرة البحيري!

لم أسمع عن الأسرة من قبل ولا بد على طلبة مرزوق نفسه أنه سمع بها.

\_ وقد دله صديق على البنسيون لما علم بضيقه بشقته القديمة. .

وحسني علام؟

\_ مسيو حسني من أسرة علام بطنطا. .

وخيل إلىّ أن طلبة يعرفها، ولكنه تجنب الحديث ما أمكنه.

\_وهو يملك مائة فدان. .

قالتها بزهو كأنها هي المالكة .

\_لم تزد ولم تنقص فالثورة لم تمسه. .

وتهلل وجهها كأنما النجاة كانت لها .

\_ وقد جاء الإسكندرية لينشئ لنفسه عملا. .

هنا سأله سرحان:

\_ولم لا تزرع أرضك؟

فقال باقتضاب:

\_مؤجرة.

فتفحصه سرحان بنظرة مداعبة ثم قال:

\_قل إنك لم تزرع في حياتك قيراطا. .

وضحك ثلاثتهم ولكن برزت ضحكة حسني المجلجلة.

ثم أشارت المدام إلى منصور باهي وقالت:

- أما هذا فهو شقيق صديق قديم يعتبر من أحسن ضباط البوليس الذين عرفتهم الإسكندرية . .

خيل إلى أن أشداق طلبة قد ازدادت انتفاخا.

\_ وقد أشار عليه لدى نقله من الإسكندرية قريبا بالإقامة في بنسيون ميرامار . .

مال طلبة نحوى منتهزا فرصة انشغالهم بالشراب وهمس:

\_وقعنا في وكر للجواسيس!

فهمست له بدوري:

لقد ولت أيام الوحشية فلا تكن سخيفا.

وإذا بالسياسة تفرقع في السمر. وبدا سرحان متحمسا بلا حدود:

\_لقد خلق الريف خلقا جديدا. .

كان صوته يتغير تبعا لامتلائه بالطعام أو خلوه منه:

ـ كذلك العمال، إني أعيش بينهم في الشركة فتعالوا وانظروا بأنفسكم.

وسأله منصور باهي\_إنه أميلهم للصمت وقد ينفجر ضاحكا كأنه شخص آخر . .

\_أتشتغل بالسياسة بالفعل؟

ـ من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومي، واليوم فأنا عضو بلجنة العشرين وعضو مجلس الإدارة المنتخب عن الموظفين . .

\_ ألم تشتغل بالسياسة من قبل؟

\_کلا. .

# وقال حسني علام:

\_ إنى مقتنع تماما بالثورة. لذلك أعتبر ثائرا على طبقتي التي جاءت الثورة لتصفيتها. .

فقال منصور باهي:

\_على أي حال فالثورة لم تمسك.

\_ليس ذاك هو السبب، فحتى فقراء طبقتنا قد لا يحبون الثورة. .

وأخيرا قال منصور باهي:

\_ إنى مقتنع تماما بأن الثورة كانت أرفق بأعدائها مما يجب!

والظاهر أن طلبة مرزوق ظن أنه إن لزم الصمت فقد يضره الصمت، لذلك قال:

لقد حاق بي ضرر بالغ فأكون منافقا لو قلت إنني لم أتألم، ولكنني أكون أنانيا كذلك لو أنكرت أن ما عمل هوما كان ينبغي أن يعمل. .

عندما آویت إلى حجرتي قبيل الفجر لحق بي فسألني عن رأيي فيما قال فأجبته بصوت غريب بعد أن نزعت طاقم أسناني :

\_رائع . .

\_ أتظن أن أحدا صدقنى؟

- لا يهم . .

\_يحسن بي أن أبحث عن مقام آخر . .

ـ لا تكن سخيفا.

ـ كلما سمعت ثناء على إجراءات قتلى تعرضت لأزمة روماتزم!

ـ عليك أن تروض نفسك عليه.

\_كما تفعل أنت؟!

فقلت ضاحكا:

\_ إننا مختلفان منذ الأزل كما تعلم .

فمضى وهو يقول لي:

\_أتمنى لك أحلاما مزعجة!

\* \* \*

وقالت المدام ولم تكن تشارك في الشراب وقنعت من الطعام بشريحة شواء وكوب حليب دافئ:

\_عيب ثومة أنها تبدأ في وقت متأخر!

ولكن الشبان نجحوا في التغلب على آلام الانتظار . وفاجأني منصور باهي قائلا :

\_ إنى أعرف من تاريخك الشيء الكثير.

اجتاحني فرح صبياني كأنما رددت إلى فترة من فترات الشباب فمضى يفسر قوله:

\_راجعت الصحف القديمة مرات وأنا بصدد إعداد برنامج إذاعي. .

تطلعت إليه مستزيدا في اهتمام فقال:

ـ تاريخ طويل حقا، أسهمت بقدر ملحوظ في شتى تياراته، حزب الأمة، الحزب الوطني، الوفد، الثورة..

قبضت على الفرصة بجنون، مضيت به إلى رحلة في رحاب التاريخ نوهت بمواقف لا يجوز أن تنسى، استعرضنا الأحزاب. حزب الأمة ما له وما عليه، والحزب الوطنى ما له وما عليه، والوفد وحله للمتناقضات القديمة وقاعدته الشعبية من الطلبة والعمال والفلاحين لماذا جنحت بعد ذلك للاستقلال، ثم لماذا أيدت الثورة..

\_ولكنك لم تهتم بالمشكلة الاجتماعية الجوهرية؟

فقلت ضاحكا:

\_لقد نشأت عهدا بالأزهر فلم يكن غريبا أن أعمل كمأذون شرعى رسالته في الحياة أن يوفق بين الشرق والغرب في الحلال!

\_أليس غريبا أن تحمل على النقيضين معا، أعنى الإخوان والشيوعيين؟

\_كلا، كانت فترة حيرة، ثم جاءت الثورة لتمتص خير ما فيهما معا.

\_إذن فقد انتهت حيرتك؟

أجبت بالإيجاب. ثم تذكرت حيرتي الخاصة التي لا تحل بحزب أو ثورة فرددت في نفسي الدعاء الذي لا يدري به أحد.

وآن الأوان فدفعت بقاربي المضطرب إلى بحر الأنغام والطرب نشدته أن يكون من

الأعضاء المتنافرة المتناحرة جسما ينبض بالروح والانسجام. نشدته أن يعلمني التوافق والتوازن في بناء ترعاه عين الحب والسلام. أن يصهر عذاباتي في نغمة تنعش القلب والعقل بجمال البصيرة. أن يسكب الشهد المصفى على عناد الوجود.

ألم تسمع بالخبر العجيب؟ . . لقد اجتمع مجلس النظار أمس بعوامة منيرة المهدية . .

\* \* \*

\_شبان ظرفاء وأغنياء!

هكذا جعلت تردد ماريانا. وقد زادت أعباء زهرة ولكنها حملتها بهمة عالية حقا. أما طلبة مرزوق فراح يقول:

\_ إنى لا أطمئن إلى أحد منهم.

فسألته ماريانا:

\_ولاحسني علام؟

فواصل حديثه قائلا:

ـ سرحان البحيرى أشدهم خطورة، لقد انتفع بالثورة إلى أقصى حد، ودعك من أسرة البحيرى التى لم يسمع بها أحد، ثم إن كل مولود فى البحيرة فهو بحيرى، حتى زهرة فهى زهرة البحيرى . .

ضحكت كما ضحكت المدام. ومرت بنا زهرة في طريقها إلى الخارج لأداء واجب من واجباتها، فرأيتها مطوقة الرأس بإيشارب أزرق ابتاعته بنقودها، تخطر في جاكتة المدام الرمادية، فاتنة من فاتنات الأعشاب الندية والزهور البرية. وعدت أقول:

\_منصور باهي فتي ذكي، ما رأيك؟ . . لا يحب الكلمات الجوفاء، ويخيل إلى أنه ممن يعملون في صمت، ثم إنه من جيل الثورة الخالص . .

ما الذي يدعوه، هو أو غيره، إلى الالتصاق بالثورة؟

\_إنك تتكلم كأنما لا يوجد بالوطن فلاحون ولا عمال ولا شبان!

ـ لقد سلبت البعض أموالهم وسلبت الجميع حريتهم!

فقلت ساخرا:

\_إنك تتكلم عن حرية بالية، وحتى هذه لم تحظ باحترامكم أيام سطوتكم. .

\* \* \*

وأنا خارج من الحمام رأيت في الطرقة شبحين، زهرة وسرحان البحيري. في مهامسة أو مناجاة. لعله أراد أن يداري موقفه فرفع صوته متحدثا في بعض الشئون التي تعد الفتاة مسئولة عنها. مضيت إلى حجرتي كأنما لا أرى ولا أسمع ولكن اجتاحني

القلق. كيف تحافظ زهرة على راحة بالها في خلية غاصة بالشبان؟. وعندما جاءتني بقهوة العصر سألتها:

\_ أين تقضين عطلتك الأسبوعية مساء الأحد؟

أجابت بابتهاج:

\_ في السينما .

\_ وحدك؟

\_مع المدام.

قلت من قلب محب:

\_ فليحفظك الله. .

التسمت قائلة:

\_ إنك تخاف على كما لو كنت طفلة.

ـ وإنك لطفلة يا زهرة.

ـكلا، تجدني في وقت الشدة كالرجال.

قربت وجهي من وجهها الجميل المحبوب وقلت:

\_ زهرة. هؤلاء الشبان لا يعرفون للهو حدودا، أما عند الجد. .

وفرقعت بأصابعي، ولكنها قالت:

\_حدثني أبي عن كل شيء. .

- إنى في الواقع أحبك وأخاف عليك.

\_أنا فاهمة، لم أعرف رجلا مثلك منذ أبي، وأنا أحبك أيضا.

لم أسمع بكلمة الحب من قبل بهذه النعومة الرائقة. وكان من الجائز أن تخاطبني بها عشرات الأفواه البريئة لولا تهمة ألقيت بغباء، تهمة لا يمكن أن يقضى فيها أحد من الناس.

\* \* \*

البرقع الأبيض.

خرجت العجوز من الباب إلى الحارة وهي تقول:

ـ هلمي قد كف المطر.

تبعتها صاحبة البرقع الأبيض تمشى في حذر على أرض زلقة متجنبة نقرة مملوءة بماء المطر. عفى الزمان على ذكريات جمالها إلا الأثر تنحيت جانبا وأنا أردد في نفسى

سبحان الخلاق ذو النعم. واهتز الفؤاد من أعماقه فقلت أتوكل على الله وخير البر عاجله.

\* \* \*

في المدخل وحدنا وقد جلست تحت العذراء تعكس عيناها الزرقاوان نظرة مثقلة بالفكر . وكان المطر يهطل بلا توقف منذ الظهر والسحب تنتابها نوبات رعدية متفجرة . قالت المدام :

\_مسيو عامر، إني أشم رائحة غريبة!

رمقتها بحذر فقالت باستياء:

\_زهرة!

ثم بعد وقفة قصيرة:

\_وسرحان البحيري!

انقبض صدري ولكنني تساءلت بسذاجة:

\_ماذا تعنين؟

\_أنت تفهم تماما ما أعنى . .

\_ولكن الفتاة . .

\_قلبي لا يخونني في هذه الأمور!

\_البنت طيبة وشريفة يا عزيزتي ماريانا.

\_ مهما يكن من أمرها فإني لا أحب أن يلعب أحد من وراء ظهرى!

إما أن تبقى زهرة شريفة وإما أن تعمل لحسابك. إني أفهمك تماما أيتها العجوز.

\* \* \*

حلمت ـ وأنا مستغرق في القيلولة ـ بالمظاهرة الدامية التي اقتحم الإنجليز على أثرها ساحة الأزهر، وفتحت عيني وأصوات المتظاهرين وطلقات الرصاص تدوى في رأسي. كلا إنها أصوات من نوع آخر تجتاح البنسيون خارج حجرتي. ارتديت الروب وغادرت الحجرة وأنا من الانزعاج في نهاية. وجدت الجميع قد سبقوني إلى المدخل. البعض في حال استطلاع مثلي أما سرحان البحيري فكان ثائرا متسخطا وهو يسوى الكرافتة وياقة القميص، كذلك زهرة كانت مصفرة الوجه من الغضب وقد تمزقت طاقة فستانها وراح صدرها يعلو وينخفض، على حين مضى حسنى علام إلى الخارج بالروب آخذا معه امرأة غريبة وهي تصرخ وتسب وقد بصقت في وجه سرحان البحيري قبل أن يغيبها الباب. وصاحت المدام:

ـ لا يجوز هذا في بنسيون محترم. .

وجعلت تردد بحدة «لا . . لا . . لا » .

ثم خلا المدخل إلا من ثلاثتنا أنا وهي وطلبة مرزوق. سألت ولما أفق من النوم تماما:

\_ماذاحدث؟

فأجابني طلبة مرزوق:

\_لم أر أكثر مما رأيت إلا القليل..

وذهبت المدام إلى حجرة سرحان للاستماع فيما بدا أما طلبة فواصل الحديث قائلا:

ـ يبدو أن صاحبنا البحيري دون جوان عتيد!

\_ما الذي حملك على هذا الظن؟

\_ ألم تر إلى المرأة وهي تبصق عليه؟

\_ولكن من المرأة الغريبة؟

- امرأة، أي امرأة!

ثم وهو يضحك:

\_امرأة جاءت تسعى وراء رجلها الهاجر!

وجاءت زهرة وهي ما زالت منفعلة فمضت تقول دون سؤال من أحد:

\_فتحت الباب للأستاذ سرحان وإذا بامرأة تتبعه وهو لا يدرى ثم اشتبكا في عراك حام.

ورجعت المدام فقالت وهي واقفة:

\_الفتاة كانت خطيبته، أو هذا ما فهمته. .

وضح كل شيء فيما أعتقد غير أن طلبة مرزوق سأل بخبث:

ـ وما دخل زهرة في الموضوع؟

فأجابت زهرة:

\_أردت أن أخلص بينهما فتحولت إلى ثم كان ما كان!

فقال الرجل:

\_إنك ملاكمة جبارة يا زهرة!

فقلت برجاء:

ـ فلنعتبر الموضوع منتهيا من فضلكم . .

\* \* \*

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طَسَّمَ ﴿ نَبُا مُوسَىٰ وَفُرْعَوْنَ بِالْحَقَّابِ الْمُبِينِ ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبًا مُوسَىٰ وَفُرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمُ يُؤْمِنُونَ ﴿ إِنَّ فَرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيَعًا يَسْتَضْعَفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَوْمِنَونَ ﴾ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَتُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ .

سمعت يدا تنقر على الباب مستأذنة في الدخول. دخلت المدام باسمة ثم جلست أمامي على مقعد بلا ظهر أطرح عليه ساقي أحيانا. ثمة زوبعة كانت تعوى في المنور وأنا مدثر بالروب، والحجرة نعسانة في جوها شبه المظلم الذي لا يدل على وقت. قالت وهي تغالب ضحكة:

\_إليك نبأ عجيبًا...

أغلقت الكتاب ووضعته على الكوميدينو وأنا أغمغم:

\_ليكن سارا يا عزيزتي . .

\_زهرة قررت أن تتعلم. .

نظرت إليها ببلاهة ولم أفهم شيئا.

ـ حقا قررت أن تتعلم، قالت لي إنها ستغيب ساعة كل يوم لتتلقى درسا. .

## قلت:

ـ هذا مذهل حقا . .

ـ عندنا في العمارة بالدور الخامس أسرة فيها ابنة مدرسة اتفقت معها. .

\_أكرر أنه قرار مذهل حقا!

\_ من جانبي لم أعارضها وإن أشفقت على أجرتها التي ستستولى عليها المدرسة. .

\_ جميل منك هذا يا مدام ولكني مذهول بكل معنى الكلمة!

ولما جاءتني زهرة بقهوة العصر قلت لها:

\_ تخفين عني أسرارك يا ماكرة!

قالت بحياء:

ـ لا أسرار تخفي عليك.

\_ وقرارك عن التعليم؟ . . خبريني كيف فكرت في ذلك؟

\_كل البنات تتعلم، إنهن يملأن الشوارع. .

\_ولكنك لم تفكري في ذلك من قبل . .

ضحكت بسرور فقلت:

\_إنك قلت لنفسك إنك أجمل منهن فلم يتعلمن ولا تتعلمين . . هه؟

جعلت تنظر إلى بابتهاج دون أن تنبس فقلت:

ـ ولكن ليس ذاك بكل شيء . .

\_ماذا هناك أيضا؟

ترددت لحظة ثم قلت:

\_ هناك صاحبنا سرحان البحيري . .

تورد وجهها وغضت البصر فقلت بإشفاق:

ـ أما التعليم ففكرة مدهشة وأما سرحان. .

ترددت في الإفصاح فتساءلت:

\_ماله؟

\_هؤلاء الشبان طموحون!

قالت بامتعاض:

\_كلنا أبناء حواء وآدم. .

هذا حق ولكن. .

\_الدنيا تغيرت، أليس كذلك؟

\_الدنيا تغيرت ولكنهم لم يتغيروا بعد. .

امتلأت نظرتها بالتفكير وهي تقول:

\_ بعد الكتابة والقراءة سأتعلم مهنة كالخياطة .

خفت إن تكلمت أكثر أن أجرح مشاعرها فسألتها:

\_ هل يحبك حقا؟

\_ فأحنت رأسها بالإيجاب فقلت:

\_ليحفظك الله ويسعدك.

ورحت أساعدها من حين لآخر وهي تدق باب المجهول، عالم الكلمات والأعداد. وعلم الجميع بقرارها وناقشوه طويلا ولكن لم يسخر منها أحد. على الأقل أمامها. كان الجميع يميلون إليها فيما أعتقد. كل على طريقته. وتابع طلبة مرزوق القضية فلم يخف عليه شيءمن أسرارها، ثم قال لي:

\_ ما هو الحل السعيد لمشكلة زهرة؟ . . أن ينزل عندنا يوما منتج سينمائي . ما رأيك؟ فلعنت رأيه .

وذات أصيل ذهبت كالعادة إلى مجلسى بالمدخل فرأيت زهرة جالسة إلى جانب فتاة غريبة على الكنبة. من لمحة أدركت أنها المدرسة. فتاة ريفية وجميلة. وقد تكرمت بالحضور إليها بسبب وجود زوار في شقتها. وكالعادة كانت المدام قد استجوبتها وعرفت عنها بعض ما تتطلع إليه فأخبرت بأنها تقيم مع والديها وأن لها أخا يعمل في السعودية. وتكرر حضور المدرسة للبنسيون، وكانت تثنى على اجتهاد تلميذتها.

ولاحظت مرة ـ وزهرة قادمة بقهوة العصر ـ أنها متجهمة فسألتها عن الصحة فأجابتني بفتور :

- \_كالبغل!
- \_والدروس؟
- ـ لا شكوى من هذه الناحية.
  - فقلت بقلق:
- ـ لم يبق إلا صديقنا البحيري!
- وصمتنا بعض الوقت كأنما لنصغى إلى صوت المطر المنهمر، ثم قلت:
  - لا أطيق أن أراك متألمة.
    - فقالت بامتنان:
    - \_إنى أصدقك.
    - \_ماذاحدث؟
    - \_الحظ يعاندني.
  - ـ قلت لك من أول يوم. .
  - ـ ليس الأمر بالسهولة التي تتصورها!
  - ثم نظرت إلى بكآبة وقالت بانفعال:
    - \_ما العمل؟ إنى أحبه، ما العمل؟
      - \_ هل تبين لك كذبه؟
  - ـ كلا، إنه يحبني أيضا، ولكنه يتكلم دائما عن العقبات.
    - \_لكن الرجل إذا أحب.
      - فقالت بإصرار:
    - \_ إنه يحبني ولكنه دائما يتكلم عن العقبات.
      - فقلت بحنان:

\_ولكن ما ذنبك أنت؟ . يجب أن تعرفي لنفسك طريقا .

فمضت وهي تقول:

\_ ما قيمة أن أعرف ما يجب عمله مادمت الأستطيعه!

\* \* \*

\_ يا سعادة الباشا كيف هان عليك .

فقاطعني قائلا:

ـ كان على أن أختار بين أمرين، فإما الانتفاع ببنك التسليف الزراعي مع إعلان خروجي على الوفد وإما الخراب.

ـ ولكن الكثيرين فضلوا الخراب!

فصاح غاضبا:

- صه. . إنك لا تملك قيراطا ولاابن لك ولا بنت، ولقد ضربت واعتقلت في قشلاق قصر النيل، ولكن ابنتي أعز على من الدنيا والآخرة!

\* \* \*

قالت لى المدام هامسة:

ـ تعال معي، أهل زهرة حضروا.

مضيت معها إلى المدخل فرأيت شقيقة زهرة وزوجها جالسين والفتاة واقفة في وسط المكان تنظر إليهما في صلابة وعناد. وكان الرجل يقول:

\_حسن أن تذهبي إلى المدام ولكن عار أن تهربي.

وقالت أختها:

\_ فضحتينا يا زهرة في الزيادية كلها.

فقالت زهرة بغضب وحدة:

\_أنا حرة ولا شأن لأحدبي.

\_لوكان جدك يستطيع السفر!

ـ لا أحد لي بعد أبي.

\_ يا للعيب. . هل كفر لأنه أراد أن يزوجك من رجل مستور؟

\_أراد أن يبيعني .

\_الله يسامحك . . قومي معنا . .

ـ لن أرجع ولو رجع الأموات.

وهم زوج أختها بالكلام ولكنها بادرته:

\_ لا شأن لك بي!

وأشارت إلى المدام قائلة:

\_إني أعمل هنا كما يعمل الشرفاء وأعيش من عرق جبيني!

خيل إلى أنهما يودان أن يصارحاها برأيهما في المدام والبنسيون وتمثال العذراء ولكنهما لا يمتطيعان. وقالت المدام:

\_زهرة ابنة رجل كنت أحترمه، إنى أعاملها كابنة، فأهلا بها إن أرادت البقاء.

ونظرت المدام إلى كأنما تستحثني على الكلام فقلت:

\_ فكرى يا زهرة واختارى!

لكنها قالت بإصرار:

ـ لن أرجع ولو رجع الأموات!

انتهت الرحلة بالفشل فمضى الرجل بزوجته وهو يقول لزهرة:

\_القتل لك حق وعدل.

وجعلنا نناقش الموضوع، ونقول ونعيد، حتى قالت لى زهرة:

ـ خبرني عن رأيك صراحة؟

فقلت:

\_أتمنى أن ترجعي إلى قريتك!

\_أرجع للهوان؟

ـ قلت « أتمني » يا زهرة . . أقصد أن ترجعي وأن يكون في الرجوع سعادتك .

\_إنى أحب الأرض والقرية ولكنى لا أحب الشقاء!

وانتهزت فرصة ذهاب المدام إلى بعض شأنها فقالت بحزن:

ـ هنا الحب والتعليم والنظافة والأمل!

أدركت أشجانها. لقد هاجرت مثلها مع والدى من القرية وأحببت القرية مثلها ولكنى ضقت بالعيش فيها. وعلمت نفسى كما تود أن تفعل. ورميت مثلها بتهمة باطلة فقال أقوام إنى أستحق القتل. ومثلها فتننى الحب والتعليم والنظافة والأمل.

الله أسأل أن يجعل حظك أسعد من حظى يا زهرة.

دنا الخريف من نهايته ولكن جو الإسكندرية يسير على هواه. وقد أنعمت بركاته علينا بصباح مضيء دافئ فابتهج ميدان الرمل تحت أشعة الشمس الهابطة من سماء صافية الزرقة. ابتسم إلى محمود أبو العباس بائع الجرائد وأنا أقف أمام معرضه الملون بأغلفة المجلات والكتب، ابتسم وقال لي:

\_سعادة البك؟

ظننت أن ثمة خطأ في الحساب. نظرت إليه متسائلا وهو قائم أمامي بجسمه الفارع فقال:

\_ سعادتك تقيم في بنسيون ميرامار؟

أجبت بهزة من رأسي فقال:

ـ لا مؤاخذة ، توجد في البنسيون بنت اسمها زهرة؟

أجبت بانتباه مفاجئ:

\_نعم.

\_أين أهلها؟

\_لكن لماذا تسأل؟

\_ لا مؤاخذة ، أريد أن أخطبها .

فكرت قليلا ثم قلت:

\_أهلها في الريف وأظنها على خلاف معهم، هل فاتحتها في الأمر؟

\_ إنها تجيء أحيانا لشراء الجرائد ولكنها لا تشجعني على الكلام.

وزار المدام مساء اليوم نفسه ليطلب يد زهرة. وخاطبت المدام زهرة في الأمر بعد ذهابه. ولكنها رفضته بلا تردد ولا تفكير. ولما أعادت على مسمعنا أنا وطلبة الحكاية قال الرجل:

- لقد أفسدتها يا ماريانا، نظفتها ولبستها ملابسك، وها هي تختلط بالشبان الممتازين فتلعب بعقولها الأحلام، وليس لذلك كله إلا نهاية محتومة واحدة!

وفي خلوتنا اليومية \_ عندما جاءتني بقهوة العصر \_ تحادثنا في الموضوع. قلت لها:

\_ كان يجب أن تفكري في الأمر.

فقالت محتجة:

\_ولكنك تعرف كل شيء!

ـ لا ضرر ألبتة من التفكير والمشاورة.

فقالت معاتبة:

\_إنك ترانى شيئا حقيرا لا يجوز له أن ينظر إلى فوق!

فلوحت بيدي معترضا وقلت:

\_المسألة أنني أراه زوجا كفئا، هذا كل ما هناك.

\_سأعود معه إلى مثل حياة القرية التي هربت منها!

لم أرتح إلى حجتها فواصلت حديثها قائلة:

ـ ومرة سمعته يتكلم مع صاحب له وهو لا يراني فيقول له إن النساء تختلف في الألوان ولكنها تتفق على حقيقة واحدة ، فكل امرأة حيوان لطيف بلا عقل ولا دين . والوسيلة الوحيدة التي تجعل منهن حيوانات أليفة هي الحذاء!

نظرت إلى كالمتحدية ثم تساءلت:

\_أمن العيب أن أحب لنفسى حياة كريمة؟

لم أجد ما أقوله. ورغم تظاهري بالأسف فإنني شعرت بإعجاب بها لا يحد. لن أضايقك بنصائح العجائز. لقد كان سعد زغلول يستمع إلى نصائح الشيوخ ولكنه اتبع غالبا آراء الشباب. ليحفظك الله يا زهرة.

\* \* \*

\_أحداث هامة تقع من حولك وأنت لا تدرى أيها العجوز!

قال طلبة مرزوق ذلك وهو يبتسم ابتسامة خبيثة. كنا نجلس في المدخل وحدنا ولا أنيس لنا إلا صوت هطول المطر. سألته وأنا أتوقع أنباء سوء:

\_ماذا هناك؟

ـ دون جوان البحيرة يدبر انقلابا في الخفاء.

همنى الأمر لصلته بزهرة فسألته عما يعنى فقال:

عير الهدف القديم، وهو يسدد الآن بإحكام نحو هدف جديد!

\_ تكلم بلا تلذذ بالمصائب.

ـ حسن، جاء دور الأستاذة!

-المدرسة؟

ـ بالضبط، لمحت نظرات متبادلة وأنا كما تعلم لي خبرة قديمة بهذه اللغة.

\_ يالك من رجل تتجسد له أفكاره الشريرة في صورة حقائق. .

قال وهو يسخر ضاحكا، وشامتا:

ـبابا عامر . . أدعوك إلى متابعة ألطف دراما في ميرامار!

عزمت على ألا أصدقه ولكن كدر صفوى القلق. وإذا بحسنى علام يحدثنا في نفس اليوم عن معركة دارت بين سرحان البحيري ومحمود أبو العباس بائع الجرائد في ميدان

الرمل. خمنت ما وراء المعركة من أسباب ولكن تخيل تطوراتها كان فوق المستطاع. وقال حسني:

\_ تبادلا الضرب حتى خلص الناس بينهما.

فسأله طلبة مرزوق:

ـ هل شاهدتهما وهما يتضاربان؟

\_كلا، علمت بماكان بعد وقوعه بفترة وجيزة.

وتساءلت المدام بإشفاق:

ـ وهل وصل الأمر إلى القسم؟

-كلا، انتهى بسيل من السباب والوعيد.

ولم يشر سرحان إلى الواقعة فتجنبنا ذكرها. ورجعت أفكر فيما قال طلبة عن سرحان والمدرسة فاعتراني غم ونكد.

#### \* \* \*

# الوفاء عند الملاح صدف أسعفيني يا دموع العين

واستعدناها مرات ومرات بالتصفيق والهتاف فراح يغنى جنى مطلع الفجر . كنت ليلتها مكتظا بالشباب والقوة والطعام والخمر . والقلب يعاني وحده أسرار الشجن .

حلمت بوفاة أبي .

كنت مستغرقا في النوم في الهزيع الأخير من الليل. رأيتهم وهم يحملونه من رواق مسجد أبي العباس حيث أدركته الوفاة ثم يمضون به إلى البيت. بكيت. ودوى في أذنى صوات أمي. ومضى يدوى حتى فتحت عيني.

یا إلهی ماذا يحدث فی الخارج؟ . كالمرة السابقة؟ . لقد انقلب بنسيون ميرامار إلی ميدان قتال . ولكن عندما غادرت حجرتی كان كل شیء قد انتهی . ولمحتنی ماريانا فأقبلت نحوی كالمستغیثة فدخلنا الحجرة وهی تهتف :

- لا . . لا . . فليذهبوا جميعا إلى الجحيم .

نظرت إليها بعيني المثقلتين بالنوم فقصت على القصة الجديدة. استيقظت على صوت عراك، غادرت حجرتها فوجدت سرحان البحيري وحسني علام وهما يتضاربان.

\_حسنى علام؟!

ـ نعم، لم لا، يجب أن يأخذ كل نصيبه من الجنون!

فسألتها بامتعاض:

- \_ولكن ما السبب؟
- ـ آه، فلنرجع خطوة إلى الوراء، إلى حادثة لم أشهدها لأنى كنت مثلكم مستغرقة في النوم.
  - \_وهى؟
  - ـ قالت زهرة إن حسني علام رجع من الخارج سكران فحاول أن. .
    - !.......
    - \_ إنى أصدقها يا مسيو عامر .
    - \_وأنا أيضا، ولكن حسني لم يلاحظ عليه أنه. .
- ـ لا يمكن أن نلاحظ كل شيء. وقد استيقظ سرحان في الوقت المناسب فكان ما كان.
  - \_ياللأسف!

مسحت على عنقها كأنما لتزيل عنه الألم الذي ألمّ بأوتار صوتها من الزعق، ورجعت تقول:

ـ لا . . فليذهبوا إلى الجحيم .

فقلت بامتعاض:

\_على الأقل يجب أن يذهب حسنى علام.

لم تعلق على قولى، بل ولم تتحمس له، ثم غادرت الحجرة متجهمة.

ولما جاءتني زهرة عصر اليوم التالي تبادلنا نظرات ذات معنى. غمغمت:

ـ أسفت جدا يا زهرة.

فقالت بسخط:

- \_رجال بلا شهامة .
- \_للحق إن المكان لا يليق بك.
- ـ بوسعى دائما أن أدافع عن نفسى ، وقد فعلت .
- ـ ولكن ليست هذه بالحياة المطمئنة التي ترجى لبنت طيبةمثلك.

فقالت بعناد:

\_ يوجد أرذال في كل مكان، حتى في القرية!

\* \* \*

غادرت البنسيون عقب أيام حبست فيها داخله لشدة البرد وثورة الرياح وانهلال المطر. كانت أياما فظيعة فانطوينا على أنفسنا في الحجرات، ولكن لم يكف الجو عن

مهاجمتنا في قواقعنا، لطمت المياه النوافذ، وزلزلت الجدران بصواعق الرعد، وومض البرق كالنذر، وصرخت الرياح كعزيف الجان.

ولما غادرت البنسيون استقبلنى الوجه الآخر للإسكندرية، الذى أفرخ غضبه. وثاب إلى وداعته، تلقيت الشعاع الذهبى المغسول بامتنان، نظرت إلى الأمواج وهى تتتابع فى براءة، على حين نقشت السماء بسحائب صغيرة متهافتة كالأنفاس المترددة. جلست فى التريانون لأشرب القهوة باللبن. كما كنت أجلس فى الأيام الخالية مع الغرابلى باشا والشيخ جاويش، ومدام لبراسكا الأفرنجية الوحيدة التى جربتها وسط طوفان من الملاءات اللف!. جلس معى طلبة مرزوق بعض الوقت ثم انصرف إلى بهو وندسور لمقابلة صديق قديم. وإذا بسرحان البحيرى يقبل نحوى فيسلم ويجلس ثم يقول:

\_فرصة سعيدة. دعني أودعك فقد لا ألقاك وأنا أغادر البنسيون!

سألته بدهشة:

\_هل عزمت على الرحيل؟

فأجاب بصوته العريض:

ـ نعم، انتهت الإقامة ، ولو ذهبت دون أن أودعك لأسفت على ذلك طيلة العمر! شكرت له رقته، ولكني وجدت أسئلة تلح على، غير أنه لم يهبني فرصة لمزيد من الكلام إذ يلوح بيده لشخص قادم ثم صافحني وذهب.

وسألت نفسي في قلق وكآبة: ماذا عن زهرة؟

\* \* \*

قبض بشدة على قضبان قفص الاتهام وهو يستمع إلى النطق بالحكم ثم صاح بأعلى صوته في المحكمة:

ـ يا فرحتك في يا دنف، يا فرحتك في يا نعيمة يا ضباطي!

\* \* \*

ولما رجعت إلى البنسيون وجدت المدام وطلبة مرزوق وزهرة مجتمعين في المدخل، مغلفين بكابة أبلغ في إفصاحها عن أى تفجع أو ندب! . جلست صامتا وقد وضح لى ما وددت أن أسأل الآخر عنه. قالت المدام:

\_ تكشف أخيرا ذاك السرحان عن حقيقته.

تمتمت:

ـ قابلني منذ ساعات في التريانون فأخبرني بأنه سيغادر البنسيون!

\_الحق أنى طردته!

ثم وهي تشير نحو زهرة:

\_هاجمها بلا حياء، ثم أعلن بأنه ذاهب ليتزوج من المدرسة!

نظرت إلى طلبة فنظر إلى وقال ساخرا:

\_أخيرا استقر رأيه على الزواج!

وقالت المدام:

لم يرتح له قلبي أبدا، من أول نظرة فهمته، شرير لا أخلاق له!

ثم واصلت حديثها:

- أراد مسيو منصور باهي أن يناقشه وإذا بمعركة جديدة تنشب فجأة ، عند ذاك صرخت في وجهه أن يخرج إلى غير رجعة!

نظرت إلى زهرة بإشفاق . أيقنت أن اللعبة قد انتهت، وأن الوغد قد ذهب بلا جزاء.

وغضبت غضبة كغضبات الأيام المريرة ثم قلت لزهرة:

\_إنه وغد لا يستحق أن تأسفي عليه!

ولما خلوت إلى طلبة قلت له:

ـ ليتها تقبل الزواج من محمود أبو العباس!

فقال لي بلهجة من يوقظ محدثه من غفلة:

\_ يا رجل ، أي محمود! ألم تدرك بعد أنها فقدت الشيء الذي لا يعوض؟

قطبت محتجا، وقد أخذت في الوقت نفسه، فقال ساخرا:

\_أين عقلك أيها العجوز؟ . . وأين فطنتك؟

ـ ليست زهرة كالأخريات.

-الله يرحمك.

وبقدر ما حنقت عليه بقدر ما اجتاحني الشك. وقلت لنفسي بحزن عميق: يا للخسارة!

وعاد طلبة يقول:

ـ المدام أول من نبهني ولكني لم أكن في حاجة إلى تنبيه!

\_امرأة سوء!

\_إنها كما تعلم على استعداد دائما لحمايتها أو لاستغلالها. .

فقلت بغيظ:

ـ لا هذا و لا ذاك ، أقسم على ذلك.

وجاء لقاء العصر حزينا مؤثرا. رجتني ألا أذكرها بنصائحي القديمة وألا ألوم أو

أعتب. تبرأت من ذلك كله وقلت إن عليها أن تواجه مستقبلها بشجاعة هي جديرة بها.

\_ ترى هل يفتر حماسك للتعليم؟

فقالت بتصميم وبلا أدني ابتهاج:

\_سأجد مدرسة أخرى!

فهمست:

\_ وإن احتجت إلى أي مساعدة . .

مالت نحوى حتى لثمت منكبي ثم عضت على شفتها لتمنع الدموع. مددت يدى المعروقة المدبوغة حتى مسحت بحنان شعرها الأسود وتمتمت:

\_ليحفظك الله يا زهرة.

\* \* \*

لزمت حجرتى تلك الليلة مذعنا لإحساس شامل بالإعياء. وأقعدنى التعب بضعة أيام أخر. وجعلت المدام تحثني على مقاومة الضعف لأشهد ليلة رأس السنة الجديدة. وفي سياق ذلك سألتني:

ـ نقضيها في المونسنيير كما يقترح طلبة بك أم نقضيها هنا؟

غمغمت في فتور:

\_ هنا أفضل يا عزيزتي.

كما احتفلت بها في صولت وجروبي وألف ليلة وحديقة لبتون. وقد مرت بي عاما وأنا معتقل في سجن القلعة الحربي.

\* \* \*

وفي صباح اليوم الثالث لاعتكافي اقتحمت المدام غرفتي في غاية من الانزعاج ثم قالت لاهثة :

\_أما سمعت بالخبر؟

ثم وهي تغوص في المقعد الكبير:

\_قتل سرحان البحيري!

هتفت:

\_هه؟!

ـ وجد قتيلا في طريق البالما!

ولحق بها طلبة مرزوق قابضا بعصبية على الجريدة وهو يقول:

ـ خبر مزعج جدا، وقد يجر علينا متاعب لم تكن في الحسبان!

وجعلنا نتبادل النظر والرأى دون جدوى. استعرضنا كافة الاحتمالات، فكرنا في خطيبته الأولى، حسني علام، منصور باهي، محمود أبو العباس، حتى قالت المدام:

ـ قد يكون القاتل شخصا آخر لا يخطر لنا ببال.

#### فقلت:

ـ لم لا، نحن لا نكاد نعرف عن الشاب شيئا، لا عن حياته ولا علاقاته ولاظروفه. . فقالت المدام بقلق:

- كم أتمنى أن يكتشفوا القاتل عاجلا وأن يكون بعيدا عنا كل البعد، وألا أرى وجه رجل من البوليس. .

فأيدها طلبة مرزوق قائلا:

ـ كم أتمنى ذلك أيضا!

وسألت عن زهرة فتنهدت المدام قائلة:

- صعقت المسكينة، صعقت بكل معنى الكلمة. .

## قلت بحزن:

\_ألا يمكن أن أراها؟

\_إنها منهارة تماما في حجرتها وقد أغلقت الباب.

وعدنا نتبادل الرأي والنظر دون جدوي.

أخيرا أغمضت عيني فتردد في خاطرى:

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَان ۚ ﴿ ٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴿ ٣٧ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذّبَان ﴾ .

# 

فريكيكو . . لا تلمني!

وجه البحر أسود محتقن بزرقة. يتميز غيظًا. يكظم غيظه. تتلاطم أمواجه في اختناق. يغلى بغضب أبدى لا متنفس له.

ثورة . لم لا. كى تؤدبكم وتفقركم وتمرغ أنوفكم فى التراب. يا سلالة الجوارى. إنى منكم وهو قضاء لاحيلة لى فيه. وقد عرفتنى ذات العين الزرقاء بقولها «غير مثقف، والمائة الفدان على كف عفريت». وقبعت تنتظر ثوراً آخر.

الكورنيش لا يرى من شرفة سيسل . إن لم أنحن فوق السور فلا سبيل لرؤيته . البحر يمتد مباشرة كأنما أراه من سفينة . وهو يترامى حتى قلعة قايتباى محصوراً بين سياج الكورنيش وذراع حجرى يضرب في الماء كالغول . بينهما يختنق البحر . يتلاطم موجه في تثاقل وهو كظيم . بوجه أسود ضارب للزرقة منذر بالغضب . يضطرم بباطن محشو بأسرار الموت ونفاياته .

أما الغرفة فتنطبع بسحنة كلاسيكية. تذكرنى بسراى آل علام بطنطا. لذلك أضيق بها. وقد غرب مجد الريف وجاء عصر الشهادات يحملها أبناء السفلة. حسن، لتكن ثورة. ولتدككم دكًا. إنى أتبرأ منكم. سأنشىء عملاً. أتبرأ منكم يا فتات العصور البالية.

فريكيكو . . لا تلمني .

ذات يوم \_ ومحمد النوبي يقدم لي الإفطار في الحجرة \_ خطر لي أن أقول له:

ـ كم أشعر بالضجر في فندقكم العظيم!

عادة قديمة لى أن أقيم علاقات طيبة مع خدم الفنادق التي أنزل بها بالمؤانسة والسخاء، لحين الحاجة إليهم!. وإذا بالرجل يسألني:

\_ هل تقيم في الإسكندرية مدة طويلة؟

\_جدًا!

\_ أليست الإقامة في بنسيون معقول أفضل لك في تلك الحال؟

نظرت إليه مستطلعًا فقال:

ـ هناك بنسيون نظيف ومعقول. ستجد فيه تسلية أكثر ونفقات أقل، ولكن ليكن ذلك سراً بيننا!

ظريف ومفيد وخائن. يخدم في جهة ويعمل لحساب أخرى ككثيرين من مواطني الأعزاء. وحق أن للبنسيون جواً عائليًا حميماً. وهو أنسب لمن يفكر في مشروع جديد. وهل ساقني إلى سيسل إلا عادة قديمة متأصلة وكبرياء لم يخفف من غلوائه بعد؟!

\* \* \*

فتحت شراعة الباب عن وجه جميل. أجمل مما يليق بخادمة. أجمل مما يليق بسيدة. يا لها من شابة مليحة. وسوف تعشقني من النظرة الأولى.

\_نعم؟

فلاحة؟ . عجبًا . ليدفن سيسل في جوف الأمواج السوداء .

\_من طرف محمد كامل بفندق سيسل.

أجلستنى فى المدخل ومضت إلى الداخل. جعلت أنظر إلى الصور كمقدمة لمعرفة أصحابها. من هذا الضابط الإنجليزى؟ ومن الحسناء المتكئة على ظهر الكرسى؟. جميلة ومثيرة. ولكنها قديمة!. موضة الفستان تقطع بأنها كانت معاصرة للعذراء!

وجاءت عجوز مضيئة مذهبة. صاحبة البنسيون بلا ريب. الطراز الكامل لقوادة إفرنجية متقاعدة. أو غير متقاعدة كما أرجو. وتلك صورتها قبل أن يخربها الزمن. ها هي الأمور تتضح. لقد ترجم محمد كامل شكواي من الضجر بلغته الخاصة. وخيرًا فعل. وكلما توفر الترفيه تهيأ الجو للتفكير في المشروعات الجديدة.

\_حجرة خالية يا مدام.

\_ كنت تقيم في سيسل؟

بهرها ذلك بلا شك. تمنيت أن ترجع إلى الوراء أربعين عامًا. وأجبت بالإيجاب السألت:

\_كم يومًا؟

\_على الأقل شهروقد يمتدعامًا.

\_ إلا أشهر الصيف فلا بد من اتفاق خاص.

ـ ليكن . .

ـ طالب؟

\_ من الأعيان.

جاءت بالسجل وهي تسألني عن اسمى فقلت:

ـ حسني علام.

غير مثقف وذو مائة فدان على كف عفريت وسعيد الحظ لأنه لم يعرف الحب الذي يتغنى به المطربون.

\* \* \*

حجرة مقبولة بنفسجية الجدران. ها هو البحر يترامى فى زرقة صافية حتى الأفق. ونسائم الخريف تلاعب الستائر، وفى السماء قطعان مبعثرة من السحائب. التفت نحو الفلاحة وهى تفرش السرير بالملاءات والأغطية. جسمها قوى رشيق مفصل المحاسن،

وإن صدق ظنى فهى لم تحبل، ولم تجهض بعد! . على أى حال من المستحسن أن أتأنى حتى أحيط بأسرار المكان.

\_اسمك يا حلوة؟

أجابت بوجه جاد:

\_زهرة.

\_عاش من سمى .

شكرتني برأسها وبلا ابتسامة.

ـ يوجد في البنسيون نزلاء آخرون؟

\_رجلان وشاب مثل حضرتك..

\_وأي اسم أختار لك للدلاعة؟

أجابت بأدب ودون تشجيع:

\_اسمى زهرة.

جادة أكثر مما يليق. سوف تكون زينة أى شقة أستأجرها فى المستقبل. وهى أجمل من قريبتى الحمقاء التى قررت أن تختار عريسها على ضوء الميثاق.

فريكيكو . . لا تلمني . .

\* \* \*

\_أأنت جاد فيما تقول؟

\_طبعًا يا عزيزتي. .

\_ولكنك في رأيي لا تعرف الحب!

ـ أريد أن أتزوج كما ترين. .

\_ يخيل إلى أنك لا يمكن أن تحب.

\_أريد أن أتزوج منك، ألا يعنى هذا أنني أحبك؟

ثم قلت وأنا أراوغ الغيظ والغضب:

ـ وإنى كفء للزواج، أليس كذلك؟

بعد تردد قالت:

\_ما قيمة الأرض الآن؟

حملت نفسي مسئولية الموقف المهين ثم مضيت وأنا أقول:

ـ سأتركك لتفكري في هدوء . .

على مائدة الإفطارتم التعارف بينى وبين النزلاء الآخرين. عامر وجدى صحفى متقاعد فى الثمانين على أقل تقدير، نحيل مع ميل إلى الطول، وذو صحة يحسد عليها، ووجهه المتجعد الغائر العينين البارز العظام لم يدع للموت شيئًا يلتهمه. كرهت منظره، وعجبت كيف يبقى حيًا على حين تهلك أجيال من الشباب كل يوم.

طلبة مرزوق لم يكن بالغريب على". وقد علق عمى ذات يوم بعطف على وضعه تحت الحراسة، ولكنى لم أشر إلى ذلك بطبيعة الحال. كنا ومازلنا نتابع أخبار الحراسة بشغف شهواني مخيف كأفلام الرعب. وقد سألنى:

\_ من آل علام بطنطا؟

أجبت بالإيجاب. وبسرور خفى . فقال:

\_عرفت والدك. كان مزارعًا ممتازًا. .

ثم التفت إلى عامر وجدى ـ وكان يغادر المائدة ـ وقال ضاحكًا:

\_ ولم يقع رحمه الله طويلاً تحت تأثير المهرجين!

ولما أدرك أنني لم أفهم ما يعنيه قال:

\_ أقصد الوفديين .

فقلت بعدم اكتراث:

\_مدى علمي أنه كان وفديًا عندما كانت البلاد كلها وفدية . .

أمن على قولى ثم عاد يسألني:

\_أظن لك إخوة وأخوات؟

- أخى قنصل بإيطاليا وأختى زوجة لسفيرنا في الحبشة!

فتحرك شدقاه حركة راقصة ثم سألني:

\_وأنت؟

كرهته في تلك اللحظة حتى وددت له الموت غرقًا أو حرقًا، ولكنني أجبت باستهانة:

- لا شيء . . .

\_ألا تزرع أرضك؟

\_ إنها مؤجرة كما تعلم ولكني أفكر في إنشاء عمل جديد. .

كان يتابعنا سرحان البحيري النزيل الثالث ووكيل حسابات شركة الإسكندرية للغزل وكذلك المدام العجوز . وسألني سرحان :

\_أي عمل؟

\_لم أستقر على رأى بعد.

\_ أليس الأضمن أن تبحث لك عن وظيفة؟

كرهته في تلك اللحظة هو الآخر. به لهجة ريفية خفيفة لصقت به كرائحة طعام في إناء لم يحسن غسله. وهو حيوان لا يسع مرفت أن تصمه بأنه غير متعلم أو غير مثقف. وإذا سولت له نفسه أن يسألني عن شهادتي فسأقذفه بقدح الشاي.

\* \* \*

\_من أين جاءك هذا الحماس للثورة؟

\_هذا ما أعتقده يا عمى . .

\_ لا أصدقك . .

ـ بل صدقنی بلا تردد.

ضحك ضحكة فاترة وقال:

\_الظاهر أن اعتذار مرفت قد أطاح بعقلك!

فقلت باستياء:

\_الزواج كان فكرة عابرة!

فقال باستياء أيضًا:

\_رحم الله والدك، أورثك عناده دون حكمته!

\* \* \*

وكم أغراني الغيظ بالهجوم على الثورة ممثلة في شخص سرحان المنتفع بها بلا شك ولكني لم أستسلم للتهور . وسألتني المدام العجوز :

\_لم لا تحدثنا عن مشروعك؟

\_لم أجده بعد.

\_إذن فأنت غنى؟

ابتسمت بثقة دون أن أجيب فراحت تنظر إلى باهتمام.

\* \* \*

غادرت البنسيون أنا وسرحان فحملنا المصعد معًا. جعل ينظر إلى بعينين باسمتين داعيتين إلى مزيد من التعارف فخف سخطى عليه درجات. وقال وكأنه يصحح خطأه دون شعور منه:

\_الوظيفة اليوم أضمن مما عداها ولكن العمل الحر إذا اختير بحكمة. .

تركنا المصعد قبل أن يتم جملته ولكن لهجته المؤيدة أغنت عن الكلام. وافترقنا فمضى نحو محطة الترام، ومضيت نحو الجراج. مررت أمام مقهى الميرامار القائم أسفل العمارة فتذكرت جلوسي به مع عمى في الأيام الخالية، وقبل وقوع الكارثة. كان يذهب إليه في الأصائل ليدخن النارجيلة، فيجلس متلفعًا بعباءته الخفيفة كملك متنكر في ثياب العامة، يتوسط مجموعة من الشيوخ والنواب والأعيان!. أجل تلك أيام خلت، ولكنه يستحق أكثر مما حاق به.

استقللت سيارتى الفورد بلا هدف معين سوى رغبتى الأبدية فى التجوال والسرعة . وقلت لنفسى: إنه من المستحسن ألا أنبذ سرحان البحيرى فقد أجد نفعًا فى خبرته ومعارفه بالمدينة . وانطلقت بالسيارة إلى الأزاريطة فالشاطبى فالإبراهيمية إلخ، فى سرعة خاطفة استجابت لها أعصابى المتوثبة . اخترقت هواء نشيطًا لطيفًا منعشًا تحت سماء ظللها الغمام . وبدا الكورنيش المحفوف بزرقة البحر نظيفًا نقيًا، قد تطهر من عرق المصيفين وصخبهم ، وقلت بتصميم لن أعود إليك يا طنطا إلا لأقبض نقودًا أو لأبيع أرضًا ، فلتذهبي بذكرياتك إلى الجحيم .

ملت إلى مستعمرة السيوف ثم مرقت إلى شارع أبى قير، سيد الشوارع، فازددت سرعة وطربًا وتحديًا. وتساءلت بأسى أين الأوروبيات. . أين الجمال. . أين سبائك الذهب. وحضرت الحفلة الصباحية بسينما مترو. غازلت فتاة في الاستراحة أمام البوفيه. تناولنا الغداء في عمر الخيام. غنا القيلولة معًا في مسكنها بالإبراهيمية . عدت إلى البنسيون عصرًا وقد نسيت اسمها تمامًا. كان المدخل والصالة خاليين فأخذت دشًا، تحت الماء تذكرت الفلاحة المليحة . ولما عدت إلى حجرتي طلبت قدح شاى لأراها من جديد. وقدمت لها قطعة شيكولاتة فترددت ولكني ألحجت عليها قائلاً:

\_كيف لا ونحن أسرة واحدة!

وجعلت أنظر إليها بسرور وهي تنظر إلى بلا ارتباك أو تنظر إلى الأرض. خائفة؟ . . ماكرة؟ .

\_ زهرة، هل يوجد مثلك كثيرات في الريف؟

قالت متجاهلة مقصدى:

ـ لا عد لهن و لاحصر.

\_ولكن كم منهن جميلة مثلك؟!

فشكرت لى هدية الشيكولاتة وذهبت . خائفة؟ . ماكرة؟ . على أى حال لست بحاجة إليها الآن . ومن حقها كذلك أن أعترف بأنها فائقة الجمال .

فريكيكو . . لا تلمني .

نظرت طويلاً إلى صورة المدام القديمة حتى ضحكت متسائلة:

\_ تعجبك؟

وقصت على قصة زواجها الأول، ثم الثاني.

\_ كيف ترانى الآن؟

فقلت وأنا أرى عروق معصمها النافرة وبشرتها المتكاثفة كقشرة السمكة:

\_ جميلة كما كنت!

فقالت بتسليم:

- المرض كبرني قبل الأوان.

ثم بلا تمهيد:

\_ولكن هل من الحكمة أن تجازف بنقودك في مشروع جديد؟

\_ لا بأس بذلك أبدًا.

\_ وإذا استولت عليه الحكومة؟

\_ توجد أعمال مضمونة؟

خمنت أنها تتردد في زحزحة البلاطة فقلت معابثًا:

\_ما أجمل أن نشترك معًا في عمل مثمر!

تظاهرت بالدهشة وقالت ضاحكة:

\_أنا! . . أوه . . البنسيون لا يجيء إلا بالكفاف!

وانضم إلى مجلسنا قلاوون الصحافة. جاء متدثرًا في روب سميك. ووجدته بشوشًا رغم شيخوخته الكريهة. وقال كمن يعلق على حالى وحاله:

- الشباب يبحث عن المغامرة، الشيخوخة تنشد السلامة.

تمنيت له صحة طيبة فسألني:

\_ أجئت الإسكندرية من أجل المشروع؟

فأجبته بالإيجاب فعاد يسأل:

\_وهل أنت جاد في سعيك؟

\_لقد ضقت بالفراغ.

فردد قائلاً:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

ولكني أكره الشعر كما أكره سيرة الشهادات. وشعرت باستعلاء فارس تر كماني

يعيش بين رعاع. حق قد صقل الحظ بعضهم. نفس الحظ الذى ينفخ شمعتنا لتنطفئ. وقلت لنفسى: إن الثورة ظاهرة غريبة مثل الكوارث الطبيعية. وإننى كمن يستقل سيارة فارغة البطارية.

وإذا بشاب جديد يظهر من وراء البارفان متجهًا نحو الباب الخارجي فدعته المدام للجلوس وقدمته إلينا قائلة :

\_مسيو منصور باهي.

مذيع في محطة الإسكندرية. شهادة عالية جديدة، ووجه وسيم دقيق ولكنه خلو من الرجولة. وهو أيضا من الرعاع المصقولين. وفي تحفظه ما يغرى بلكمة. وقد سألت المدام بعد ذهابه:

- نزيل عابر أم مقيم؟

ققالت بتيه:

\_مقيم يا عزيزي، أنا لا ينزل عندي العابرون!

ورجعت زهرة من الخارج بحافظة من البلاستيك مثقلة بالبقالة. تابعتها وهي تمضى بنهم. البلد مكتظة بالنسوان ولكن البنت مثيرة لغرائزي.

فريكيكو . . لا تلمني .

\* \* \*

\_أخيرا وقعت في الحب؟

\_طانط. . لا حب ولا هيام. . لكنها فتاة ممتازة. . ومن لحمى ودمى. . وأنا أريد أن أتزوج .

ـ على أى حال فأنت شاب تتمناك أى فتاة .

\* \* \*

ليلة أم كلثوم متوجة حتى في بنسيون ميرامار. أكلنا وشربنا وضحكنا. خضنا في كل موضوع حتى في السياسة. لكن الخمر نفسها لم تستطع أن تقهر عاطفة الخوف. صال عامر وجدى وجال فحكى على الربابة أساطير مجد لا شاهد عليها إلا ضميره. صمم الرجل الخرب على إقناعنا بأنه بطل قديم، وإذن فلا يوجد إنسان عادى في هذه الدنيا اللعينة. كذلك لا يوجد فرد واحد غير متحمس للثورة. حتى طلبة مرزوق، حتى طفينا بالحذر. سرحان منتفع ومنصور غالباً مرشد، حتى العجوز فمن يدرى، والمدام نفسها لا يبعد أن تكلفها جهات الأمن بنوع من المراقبة. ولما جاءتني زهرة بزجاجة صودا سألتها:

ـ وأنت يا زهرة. . تحبين الثورة؟

فقالت المدام:

\_أوه. . انظر إلى الصورة المعلقة في حجرتها!

هل أعتبر ذلك إذنًا بالتسلل إلى الحجرة!. ورغم أن الويسكى صهرنا في بوتقة ألفة حميمة إلا أننى شعرت بأنها عابرة، وستظل عابرة. لن تقوم صداقة حقيقية بينى وبين سرحان أو منصور. مودة عابرة ستمضى كما مضت البنت التى التقطتها من بوفيه مترو. وقلت لنفسى إن على أن أجد عملاً أفرغ فيه طاقتى وأملاً به وقتى وإلا تعرضت لأن أرتكب حماقة خرقاء أو جريمة قتل تناسب المقام. ومن المسلم به أننى سأبقى عازبًا إلى الأبد كيلا أرتطم بلفظة «لا» مرة أخرى، ولأنه لن توجد الفتاة الكفء لى في مجتمعنا النامى. يكن بعد ذلك أن أعتبر جميع النساء حريًا متنقلاً لمزاجى، إلى خادمة ممتازة لمل فراغ شقتى المستقبلة. خادمة مثل زهرة. بل هى زهرة بالذات. وسوف ترحب بذلك بكل امتنان. ستمارس مهنة ست البيت مع الإعفاء من متاعب الحمل والولادة والتربية. وهى جميلة، وسوف تروضها حقارة أصلها على تحمل نزواتى وغرامياتى اللامتناهية. وإذن فالحياة مقبولة رغم كل شىء، وواعدة بمسرات لا بأس بها.

وبالغ سرحان في حكى النوادر حتى سقطت قلوبنا من الضحك. ومنصور قد ينفجر ضاحكًا ثم سرعان ما يتقهقر إلى قوقعته.

\* \* \*

اسمعوا. . اقرءوا. . هذا حكم بالإعدام . . هل يقف الإنجليز مكتوفي الأيدى حتى تجتاحنا الشيوعية!

\* \* \*

بدأ الغناء. بدأ السماع. كالعادة شملنى توتر. أجل إنى أستطيع أن أتابع مقطعًا أو مقطعين ثم يدركنى التشتت والملل. هاهم يهيمون فى الطرب، وها أنا أغرق فى وحدة. والذى أدهشنى حقًا أن المدام تحب أم كلثوم كالآخرين. ولعلها لاحظت دهشتى فقالت:

\_سمعتها عمرًا طويلاً.

وراح طلبة مرزوق يستمع بعمق، ثم مال إلى أذني هامسًا:

ــ من نعم الله أنهم لم يصادروا أذني!

أما قلاوون فقد أغمض عينيه وراح يسمع أو راح في سبات. استرقت النظر إلى زهرة فوق مقعدها عند البرافان. جميلة حقًا ولكن هل تسمع؟ فيم تفكر؟ أي أمل يراودها؟ هل تحيرها الحياة كما تحيرنا؟ . مضت بغتة إلى الداخل والجميع بالطرب سكاري، فقمت إلى الحمام لألتقى بها في الطرقة . داعبت ضفيرها وهمست :

ـ لا شيء أجمل من الطرب إلا وجهك.

جفلت في صلابة فتقدمت منها لأضمها إلى صدري ولكني توقفت أمام نظرة باردة منذرة.

ـ طال انتظاري يا زهرة!

تراجعت بخفة ثم ذهبت إلى مقعدها. حسن. في سراى علام بطنطا عشرات من أمثالك ألا تفهمين؟. أم ترين ثقافتي دون الكفاية يا روث الجاموسة؟. رجعت إلى مجلسي. وبتأوهات مفتعلة إعجابا بغناء لا أتابعه داريت غيظي. ثم وثبت بي رغبة ملحة في الجهر برأيي لأكون صادقًا مع نفسي ولو مرة واحدة في السهرة الطويلة، ولكني لم أفعل. وفي الاستراحة انتهزت فرصة التفرق المؤقت للمجتمعين فغادرت البنسيون.

انطلقت بالسيارة إلى كليوباطرة. كان الجو باردًا عاصفًا ولكنني كنت مشتعلاً بحرارة الخمر. قصدت مسكن قوادة ملطية كنت أتردد عليها في ليالي الصيف. وقد دهشت لحضوري بعد انتصاف الليل وفي ذلك الوقت الموحش المقفر من العام. وقالت لي :

ـ لا أحد في البيت سواى، ولا أستطيع أن أدعو واحدة الآن.

وقفت أمامى فى قميص النوم، فى الخمسين أو أكثر، بدينة مترهلة، لا تخلو من مسحة أنثوية، وثمة زغب يعلو شفتها كالشارب. دفعتها إلى حجرتها وهى تقول بدهشة:

\_ما هذا! . . لست مستعدة .

فقلت ضاحكًا:

ـ لا أهمية لذلك، ولا أهمية لشيء.

ثم أمضينا ساعة أخرى في ثرثرة حتى سألتني عما جاء بي إلى الإسكندرية. ولما حدثتها عن هدفي قالت:

\_إنهم الآن يصفون أعمالهم ويذهبون.

فقلت لها وأنا أتثاءب:

- لن أنشئ شركة ولا مصنعًا.
- \_إذن فابحث عن خواجة مناسب لتحل محله.
- \_ فكرة لا بأس بها ولكن على ان أدرس كل شيء .

وفى طريق العودة هطل المطر بشدة. رأيت طريقي بصعوبة رغم نشاط ماسحة المطر. وقلت لنفسي بغضب إن الوقت يتبدد سدى!

\* \* \*

جميلة . . رغم رائحة المطبخ جميلة .

\_قطعتان من السكر من فضلك.

دعوتها بذلك لإذابة السكر في الشاي، وللبقاء دقيقة.

ـ كنت جافة معى يا زهرة.

\_كلا، ولكنك جاوزت الحدود.

\_أردت أن أعرب لك عن مشاعري.

فقالت بصراحة حادة:

\_إنى هنا للعمل وحده.

ـ هذا أمر مفروغ منه. .

\_الظاهر أنك لا تصدقه. .

\_اخطأت فهمي يا زهرة!

\_إنك سيد طيب فكن طيبًا معى . .

وذهبت فطاردها صوتى قائلاً:

\_سأحبك إلى الأبد!

\* \* \*

هلم معى إلى رحلة غريبة. يوم رهيب، زجر وتأنيب من أخى، تأنيب من عمى، المدرسة المدرسة، بنا إلى الطريق الزراعى، رحلة طويلة وغريبة، شمالاً وجنوبًا، ليلاً ونهارًا، عند كل بلدة نتزود بالطعام والشراب، لم أعد قاصرًا.

\* \* \*

إنى رأيتكما معًا.

فى الطرقة أمام الحمام رأيتكما معا. إذن فهو ذلك السرحان. قرص خدك بحنان. لم يرتفع رأسك فى غضب. وجهك الجميل ابتسم وشع منه نور أسمر. وتحركت ضفيرتك فى دلال كالحال فى حقول الذرة. سبقنى الفلاح بأيام. لا ضير من ذلك ألبتة إذا روعيت العدالة فى التوزيع. ولو يكن لى يوم وله يومان.

ضحكت طويلاً وأنا أستقل الفورد. وهتفت:

فريكيكو . . لا تلمني .

\* \* \*

أوصلت طلبة مرزوق بالسيارة إلى التريانون فدعاني للجلوس معه. مررنا في طريقنا إلى مجلسنا بسرحان البحيري وهو ينفرد بشخص آخر فتبادلنا التحية. سألني طلبة كيف أمضى وقتى فأجبته بأنني أتجول بالسيارة وأفكر في المشروع الجديد. سألني:

\_ألك خبرة في نشاط معين؟

أجبت بالنفي، فقال:

ـ لا تلق بنقودك في بئر .

\_ولكنني مصمم . .

ـ تزوج لتتعلم الحكمة!

فقلت وأنا أكظم غيظي متورمًا:

\_إنني مصمم على العزوبة والمشروع.

أشار صوب سرحان البحيري وقال:

ـ ولد ذكى . .

فسألته باهتمام:

\_ أعرفت عنه شيئًا؟

- ثمة صديق قديم على صلة بالشركة يصفونه هناك بأنه شاب ثوري، وفي هذا الكفاية. .

\_أتظنه مخلصًا؟

ـ نحن نعيش في غابة يتعارك وحوشها على أسلابنا. .

داخلني ارتياح خفي فمضى يقول:

\_ما تحت البدلة إلا مجنون بالترف!

فقلت بتسليم وأنا مطمئن إلى وحدتنا:

\_ولكن ثمة إصلاحات لا يمكن إنكارها؟

حرك شدقيه حركة غريبة وقال:

\_قصد بها أناس لم يرتقوا بعد إلى درجة الوعى. وهم\_مثلنا\_تحت رحمة البدل.

ولما أن لي أن أرجع إلى البنسيون لحق بي سرحان في الخارج فأركبته معي في السيارة.

كأنما خلق اللعين لكي يألف ويؤلف. ورغم ازدرائي له فإني أَبقى عليه لعلى أنتفع به في وقت الحاجة. وقد لكزته بكوعي وأنا أقول ضاحكًا:

\_حلال عليك يا عم . . !

نظر إلى باسمًا ومستطلعًا فقلت:

\_زهرة!

رفع حاجبيه الكثيفين ولكنه أرخى عينيه في تسليم، فقلت:

\_إنك فلاح كريم فلا تبخل على". .

فقال بوجوم:

\_ الحق أنى لا أفهمك . .

ضحكت ساخراً وقلت:

\_سأكون صريحًا معك كما يجدر بالأصحاب، أتعطيها نقودًا أم تعطى المدام؟ فقال بإنكار:

ـ لا . . لا . . ليس الأمر كما تتصور . .

\_إذن فكيف أتصوره على حقيقته؟

\_إنها فلاحة طيبة، ليست. . صدقني. .

\_ليكن. الظاهر أنى استوقفت سيارة «ملاكي» بظن أنها تاكسى. .

فريكيكو، لا تشغل بالك بأشياء تافهة. الخطأ أننى صادقت زمنًا عدوًا وأنا أحسبه الصديق. ولكنى سعيد بحريتى. لقد قذفت بى طبقتى إلى الماء والقارب يميل إلى الغرق، ولكنى سعيد بحريتى. لا ولاء عندك لشيء. سعادة عظمى ألا يكون لك ولاء لشيء. لا ولاء لطبقة أو وطن أو واجب. لا أعرف عن ديني إلا أن الله غفور رحيم.

فريكيكو . . لا تلمني . .

### \* \* \*

انفجرت في الخارج ضجة لا عهد للبنسيون بها.

كنت مستيقظًا لتوى من القيلولة فخرجت إلى الصالة. وضح لى أن ثمة معركة فى المدخل. نظرت من فرجة البارفان فرأيت مشهدًا مسليًا حقًا. امرأة غريبة ممسكة بتلابيب صديقنا البحيرى تنهال عليه ضربًا وسبًا. وزهرة واقفة متوترة الأعصاب تنطق بكلمات سريعة وتحاول التخليص بينهما. المرأة تنقض على زهرة فجأة ولكن زهرة أثبتت أنها مصارعة ذات جبروت. لكمتها مرتين، وفي كل مرة أطاحت بها حتى ألصقتها بالجدار. إنها جميلة ولكنها خفير ذو قبضة حديدية. لبثت متواريًا لأتيح لنفسى أكبر قدرمن تسلية فريدة حقًا. ولكنى عندما ترامى إلى صرير أبواب خرجت من مكمنى، فأخذت المرأة الغريبة من معصمها، وذهبت بها خارجًا وليس على عدا البيجاما - إلا الروب. دفعتها

برقة أمامى، معلنًا لها عن أسفى، واضعًا نفسى فى خدمتها. كانت تغلى بالغضب غليانًا، وتسب وتلعن، ولم يبد عليها أنها أحست بوجودى بعد. إنها امرأة لا بأس بها وقد أوقفتها عند بسطة السلم بالدور الثاني وأنا أقول:

\_انتظرى لحظة، يجب أن تصلحي حالك قبل الخروج إلى الشارع. .

سوت شعرها، وشبكت طوق فستانها الممزق بمشبك من شعرها، ثم أعطيتها منديلاً معطراً لتمسح به وجهها.

ـ سيارتي أمام العمارة سأوصلك إذا سمحت بها . .

نظرت إلى لأول مرة. شكرتني بعجلة، ثم نزلنا معًا جلست في السيارة إلى جانبي فسألتها عن المكان الذي تود الذهاب إليه فتمتمت بصوت مبحوح:

ـ الأزاريطة . .

سرنا تحت سماء ملبدة بالغيوم وقد عاجلنا الظلام قبل أوانه. قلت مستدرجًا:

\_ لعنة الله على الغضب. .

## فهتفت:

- السافل الحقير!

\_يبدو أنه فلاح طيب؟

\_ سافل حقير . .

تساءلت بسخرية خفية:

\_خطيبك؟

لكنها لم تجب. مازالت مشتعلة. هي امرأة لا بأس بها، ومحترفة بطريقة ما على وجه اليقين. أوقفت السيارة أمام عمارة بشارع الليدو فقالت وهي تفتح الباب:

\_أشكرك، إنك رجل كريم. .

ـ لا أريد أن أتركك وحدك لأطمئن عليك!

\_أشكرك، إنى على خير حال. .

\_إذن فهو الوداع؟

مدت يداً لتصافحني ثم قالت:

\_إنى أشتغل في الجنفواز!

درت بالسيارة وأنا متحمس لمعرفة مزيد من المعلومات بيد أن تحمسي فتر قبل أن أبلغ العمارة. الأمر واضح وتافه. عشق وهجر ثم معركة تقليدية. وها هو يلقي زهرة فيبدأ

حكاية جديدة. والمرأة لا بأس بها وقد أحتاج إليها ذات ليلة. ولكن ما الذي دفعني إلى تكبد مشاق هذه الرحلة السخيفة؟!

فريكيكو . . لا تلمني . .

\* \* \*

السيارة تطير فوق أرض الشوارع السنجابية، المصابيح وأشجار الكافور تركض في الاتجاه المضاد. السرعة الانسيابية تنعش القلب فتنفض عنه الخمول والملال. ويزمر الهواء ويرعش الأغصان فتشتت في انتشارات جنونية. أو ينهمر المطر فيغسل الزرع فتضيء الحقول بخضرة متألقة. من قايتباى إلى أبي قير، من بحرى حتى السيوف، البطن والأطراف، وكل أرض ممهدة: أهيم فوقها بسيارتي.

والوقت يمر ولا خطوة جدية أخطوها لتحقيق المشروع .

وخطر لى أن أقوم بجولة استكشافية فى مراكز الإشعاع الأصيلة. زرت قوادة قديمة بالشاطبى فجاءتنى بفتاة مقبولة للصبوح. وتناولت الغداء عند قوادة ثانية باسبورتنج فأمدتنى بامرأة أرمنية فوق المتوسط. أما قوادة سيدى جابر فأهدت إلى قناة رائعة من أم إيطالية وأب سورى فأصررت على دعوتها إلى سيارتى حذرتنى من الغيوم المنذرة بالمطر فقلت لها إنى أتمنى أن يهطل المطر وفى الطريق الزراعى إلى أبى قير هطل المطر واختفى البشر فأحكمت إغلاق النوافذ ورحت أنظر إلى الماء المنسكب والأشجار الراقصة والخلاء النقى الذى لا نهاية له وقد ذعرت الجميلة وقالت: إن هذا جنون فقلت لها: تصورى مخلوقين مثلنا عاريين تمامًا فى سيارة وآمنين رغم ذلك من أى تطفل يتبادلان القبل على انفجارات الرعد ووميض البرق وانهلال المطر فقالت إنه المحال فقلت ألا تودين أن تخرجى اللسان للدنيا ومن عليها وأنت فى حماية هذه الغضبة الكونية فقالت محال. . محال . . فقلت ولكنه سيتحقق بعد ثوان وشربت من فوهة الزجاجة وكلما جعجع الرعد استحثثته على المزيد وتوسلت إلى السماء أن تفرغ مدخرها من الماء فقالت الجميلة قد تتعطل السيارة فقلت لها: آمين . . آمين . . فقالت وقد يدركنا الظلام فقلت وليدم إلى الأبد فقالت إنك مجنون . . مجنون . . فصحت بأعلى صوتى : فريكيكو . . لا تلمنى . . .

\* \* \*

على مائدة الإفطار بلغتنى الأنباء العجيبة على القرار الذى اتخذته زهرة للتعلم. سمعت تعليقات شتى لم تخل من مزاح، ولكن غلبت عليها روح تشجيع. حز فى نفسى الخبر فنكأ الجرح القديم. لقد نشأت بلا رقيب حقيقى فاجتاحنى اللهو. ما أسفت على شيء وقت ذاك ولكننى أدركت متأخراً أن الزمن عدو وليس بالصديق الذى توهمته. وها هى الفلاحة تقرر أن تتعلم. وقد شرحت لى المدام ظروفها ما بين القرية

والإسكندرية. تؤكد لى أنها ليست من توابع المدام، ولعلها ماتزال عذراء إلا يكن سرحان ممن يضيقون بالعذاري، ولكنني قلت للمدام بخبث:

ـ ظننت زهرة. .

وأشرت بيدي إشارة، فقالت:

- 12 . . 12 . .

فتجاهلت الموضوع بغتة قائلاً:

\_يجب أن تفكري في المشروع المشترك!

فتساءلت بدهاء قوادة:

\_ من أين لي بالمال؟

فهمست باهتمام مصطنع:

\_ماذا لو أردت أن أدعو صديقة إلى هنا؟

هزت رأسها آسفة وقالت:

- البنسيون مشغول كله، وإذا سمحت لواحد فكيف أرفض لآخر؟ ولكن يمكن أن أدلك على مكان إذا أردت. .

ولما صادفت زهرة في الصالة هنأتها على قرارها وقلت لها ضاحكًا:

ـ شدى حيلك، فعندما يتحقق مشروعي سأكون في حاجة إلى سكرتيرة!.

فابتسمت في ابتهاج حتى أطلت أي الملاحة من قسماتها. الحق أن رغبتي فيها لم تمت. ومع سابق علمي بأنني سأشبع منها في أسبوع إلا أنه أسبوع ضروري فيما بدا لي.

#### \* \* \*

راحت السيارة تجوب الشوارع والأحياء، في جو صاف هادئ معتدل لدرجة أثارت أعصابي. ولكي أستمتع بأكبر قدر من السرعة الجنونية بلا عائق اتجهت إلى الطريق الصحراوي فانطلقت فيه بسرعة مائة وعشرين ك، مقدار ساعة، ثم رجعت بنفس السرعة. تناولت الغداء في «بام بام». والتقطت فتاة لدى مغادرتها لمحل حلاق. ثم رجعت إلى البنسيون حوالي العصر. رأيت زهرة جالسة إلى فتاة بالمدخل فأدركت من النظرة الأولى أنها المدرسة. جالست المدام واسترقت إلى المدرسة النظر. لا بأس بها. ثمة احديداب خفيف لا يكاد يلحظ، وفطس بالأنف مقبول بل ومثير. من المؤسف أن فتاة مثلها لا تقبل ليلة حب عابرة. لابد لأمثالها من علاقة وطيدة طويلة. وقد لا ترضى بذلك أيضًا فترمى بنظرها البعيد إلى الزواج متخطية دعوة الثورة إلى تحديد النسل.

تم التعارف عن طريق المدام. وقد قدمتني كعادتها بالكامل، أي بالمائة فدان والمشروع،

فسررت لذلك وحمدت لها لباقتها المستقاة من خبرة السنين. وركزت في جولاتي على حي محرم بك حيث تقع مدرستها. وأثمرت خطتي فرأيتها مرة قبيل العصر واقفة في محطة الباص. أوقفت السيارة ودعوتها إلى الركوب. ترددت قليلاً ولكن شجعها على قبول دعوتي تلبد السماء بالغيوم. أوصلتها إلى عمارتنا وأنا أشكو لها وحدتي في الإسكندرية، وحاجتي إلى المشورة والرأى فيما يتعلق بمشروعي، وقلت لها وأنا أودعها:

\_ أظنني بحاجة إلى لقاء آخر؟

فقالت بترحيب:

ـ تفضل بزيارتنا!

الحق يا فريكيكو أن سنى وثروتى يرشحاننى بمنطق حاسم للزواج. لذلك يتعذر على أن أرافق مدرسة أو طبيبة أو مذيعة أو موظفة. وعلى إن أردت توسيع مجالى الحيوى أن أخدع الأبصار بدبلة زواج وهمى.

ولم أجد ما أشغل به نفسى بقية اليوم إلا أن قصدت القوادة المالطية بكليوباطرة فطلبت منها أن تدعو أكبر عدد ممكن من بناتها ، وسهرت سهرة عجيبة معربدة موشاة بأبهج الحماقات التى لم يعرف التاريخ لها مثيلاً منذع هد خليفتنا خالد الذكر هارون الرشيد.

\* \* \*

\_إنه لم ير أمه. . وتركه أبوه وهو في السادسة. . لذلك لا أقسو عليه. .

كان يتكلم بهدوء أما أخى فكان ينتفض من الغضب.

\* \* \*

حوصرت بالعجائز . الواقع أننى لا أحب قلاوون الصحافة وهيهات أن أوفق إلى خير ما دمت أصبح على وجهه . وسألنى طلبة مرزوق عن مدى تقدمى فى مشروعى . وتشممت فى الجو رائحة بخور فتساءلت عنها فضحك طلبة بك وقال :

\_كان يجب أن ترى المدام وهي تطوف بالحجرات حاملة المبخرة!

نظرت إليها قائلاً:

\_إذن فأنت تحبين أم كلثوم وتؤمنين بالبخور؟

ابتسمت ابتسامة عابرة لشدة متابعتها لأغنية يونانية . وقلت لطلبة بك :

\_يجب أن أجد خواجا بمن ينوون الهجرة لأشتري عمله.

\_فكرة حسنة، ما رأيك يا ماريانا؟

أجابت بعجلة حتى لا تنقطع عن الأغنية:

ـ نعم، انتظر، أظن صاحب مقهى ميرامار يفكر في ذلك.

فسألتها:

\_ماذا تعنى الأغنية؟

أجابت بدلال:

- عن البنت في سن الزواج، ماما تسألها وهي تجيب معددة المزايا التي تتطلبها في العريس!

نقلت بصرى بين صورة الكابتن وصورة شبابها فغمغمت:

\_كان من الممكن أن أبقى سيدة حتى اليوم . .

\_إنك سيدة تمامًا.

فقالت محتجة:

\_أعنى سيدة في قصر الإبراهيمية!

والتفت نحوى قلاوون الصحافة وقال:

ـ لا تدع الوقت يمر دون أن تفعل شيئًا. .

لعنته في سرى. كان الجو قارص البرودة صامتًا. وكنت على موعد من الفتاة الإيطاسورية في سكن القوادة بسيدي جابر.

فريكيكو . . لا تلمني .

\* \* \*

علمت بزيارة شفيقة زهرة وزوجها على مائدة الإفطار.

\_قررت البقاء معنا بصفة نهائبة . .

قالت المدام ذلك بارتياح ، فقلت:

ـ لنحمد الله على أن المقابلة مرت بسلام، أعنى دون شروع في القتل!

ثم قلت لسرحان البحيري ساخرًا:

\_الظاهر أن البحيرة خرعة!

\_خرعة؟!

\_يقال إن قربها من الإسكندرية قد أضعف من ضراوة تقاليدها الريفية . .

فقال بصوته الرنان متباهيًا:

\_ذاك يعنى أنها أعظم تمدينًا من سائر الريف!

\* \* \*

ركب طلبة مرزوق معى لكى أوصله إلى فندق وندسور لمقابلة صديق قديم. إنه الشخص الوحيد الذى أضمر له حبًا واحترامًا. وهو يقوم أمام عينى كتمثال أثرى لملك قديم، دالت دولته وولى زمانه، ولكنه يحتفظ بكافة مزاياه الذاتية. قلت له والخبث يسيطر على أفكارى:

- ألم يكن الأجدر بالفلاحة أن تذهب مع أهلها؟

## فقال ضاحكًا:

- \_كان الأجدر بها ألا تهرب من أول الأمر.
- \_ أعنى أن لديها من الأسباب ما يمنعها من العودة حتى لوتمنتها!
  - ـ تقصد الفتى البحيرى؟
  - ـ ليس هذا بالضبط ما أعنيه، ولكنه يرجع إليه على أي حال!

## ضحك الرجل وقال:

\_محتمل جدًا، ومحتمل أنه برىء مما تظن، وأن آخر كان وراء الدافع لهربها من القرية!

وقد تضاعف سوء ظنى عندما علمت عقب ذلك بأيام - برفضها الزواج من محمود أبو العباس بياع الجرائد. وكان محمود قد شاورنى فى الأمر - كزبون قديم له - قبل أن يقدم على الذهاب إلى المدام لطلب يد الفتاة . وعندما وقفت أمام معرضه فى اليوم التالى لمسعاه الفاشل كنت واثقًا من مناقشته للموضوع ومتأهبًا له . كان يبدو ممتعضًا وحانقًا . تبادلنا نظرات تغنى عن قول الكثير ، ثم قلت له مواسيًا :

\_هاك عينة من بنات اليوم.

## فقال بغضب:

- ـ هيهات أن تجد مثلى الحمقاء . .
- ـ سيعوضك الله بخير منها، وإن أردت الحق فليس البنسيون بالمكان المناسب لاختيار عروسك . .
  - \_ ظننتها بنتًا طيبة . .
  - ـ أنا لم أقل إنها ليست كذلك ولكن. .
    - فسألني باهتمام:
      - \_ولكن ماذا؟
  - \_ماذا يهمك منها وقد انتهى أمرها بالنسبة إليك؟
    - \_ليرتاح قلبي.

- \_ أيرتاح قلبك لو قلت لك إنها تحب سرحان البحيرى؟
  - \_المجنونة! . . وهل سيتزوج الأستاذ سرحان منها؟
    - فقلت وأنا أودعه:
    - تكلمت عن الحب لا الزواج!

كنت أكره سرحان من أول يوم. أجل قد تهبط كراهيتي له لدرجة الصفر في الأوقات التي يفتح لى قلبه المطبوع على الألفة والمعاشرة ولكن سرعان ما يرجع الحال إلى أصله. ولا دخل لزهرة في هذه الكراهية فهي أتفه من أن تجعلني أكره أو أحب إنسانًا. ربحا لصراحته العمياء أحيانًا، وربما لإصراره على الإشادة بالثورة لمناسبة ولغير مناسبة. لذلك فكثيرًا ما أرغمني على مجاراته ولو بالسكوت. وقد فاض بي الكيل مرة فقلت له:

ـ نحن مؤمنون بالثورة ولكن لم يكن ما سبقها فراغًا كله.

فقال بعناد مثير:

- ـ بل كان فراغًا. .
- ـ كان الكورنيش موجودًا قبلها، كذلك جامعة الإسكندرية!
  - ـ لم يكن الكورنيش للشعب، ولا الجامعة...
    - ثم سألني ضاحكًا، وبلا حقد ظاهر:
- ـ خبرني لم تملك وحدك مائة فدان على حين أن كل ما تملكه أسرتي عشرة فقط؟ فسألته وأنا أكظم غيظي:
  - \_ ولم تملك عشرة على حين لا يملك ملايين من الفلاحين قيراطًا واحدًا!!

#### \* \* \*

مهما تقل فلن أصدق كلمة واحدة مما تقول، إن رفض مرفت لك أطاح بعقلك، ولا تصدق ما يقال عن العدالة والاشتراكية، المسألة تتلخص في كلمة واحدة: القوة، إن من يملك القوة يملك كل شيء، ولا بأس بعد ذلك من أن يتغنى أمام الناس بالعدالة والاشتراكية، وإلا فخبرني بالله هل رأيت أحدًا منهم يسير في الأسواق شبه جائع مثل سيدنا عمر؟!

#### \* \* \*

على أى حال سرعان ما بلغنى الخبر اللذيذ عن القتال بين محمود أبو العباس وسرحان البحيرى يا بصل! وتجاهلت الأمر احترامًا لصمته، بل انتهزت فرصة اجتماعى به في مدخل البنسيون فسألته الرأى عن المشروع، وإذا به يقول لي في اهتمام: -اصرف النظر عن مشروع المقهى وما شاكل ذلك، إنك ابن ناس، وعليك أن تختار مشروعًا مناسبًا.

\_مثل ماذا؟

ـ أنا أقول لك، مشروع تربية دواجن وعجول مثلاً، إنه يدر ذهبًا.

ئم بعد تفكير قليل:

- ممكن أن نؤجر قطعة أرض في منطقة سموحة، وممكن أن أساعدك بما لي من خبرة وأصدقاء وربما شاركتك إذا ما أسعفتني الظروف.

\* \* \*

ما أضيق الإسكندرية في عيني سيارة مجنونة. إني أمرق فيها كالهواء ولكنها انقلبت علية سردين. الليل يتبع النهار في إصرار غبى ولكن لا شيء يحدث على الإطلاق. ورغم أن السماء تتزين كل يوم برداء. والطقس كالبهلوان لا يمكن التنبؤ بحركته التالية، والنساء يقبلن في ألوان لا حصر لها، فلا شيء يحدث على الإطلاق. الكون في الحقيقة قد مات وما هذه الحركات إلا الانتفاضات الأخيرة التي تند عن الجثة قبل السكون الأبدى.

وتذكرت الجنفواز.

إنه يقع على الكورنيش متحديًا البحر والشتاء ولكن بابه يقع في شارع خلفي ضيق. له مسرح للغناء والرقص، وتتوسطه باحة للرقص المشترك، وينتشر اللون الأحمر الكابي في السقف والجدران والمصابيح كأنه مأوى للجان، ومن نظرة إلى فتياته وزبائنه يتسرب إلى النفس إحساس محتوم بأنه ماخور.

رأيت فتاة البحيرى ترقص رقصة فولكورية مبتذلة. دعوتها إلى مائدتى فلم تعرفنى بادئ الأمر ثم اعتذرت بحالها يوم التعارف. وسرعان ما قالت إنها انتظرت مقدمى طويلاً فاعتذرت بضيق الوقت وكثرة المشاغل. عرفت أن اسمها صفية بركات والله أعلم باسمها الحقيقى. وهى أجمل من المدرسة ولكن يعيبها ميل إلى البدانة، وتستقر في وجهها الملىء نظرة محترفة. شربت كثيراً حتى أوشكت أن أفقد الوعى ثم دعوتها إلى سيارتى ومضيت بها إلى شارع الليدو بالأزاريطة، ولما هممت بمصاحبتها اعتذرت بعذر قهرى فرجعت إلى البنسيون وأنا من السكر وسوء المآل في حال.

التقيت وأنا ذاهب إلى حجرتي بزهرة وهي راجعة من الحمام في قميص النوم. اعترضت سبيلها مفتوح الذراعين. توقفت متوثبة. اقتربت منها فقالت بحزم:

\_ أبعد. .

أشرت بأصبعي إلى حجرتي فقالت متوعدة:

\_ابعد واذهب لحالك.

انقضضت عليها بالرغبة والسكر فضربتني بقبضتها في صدري ضربة مذهلة أشعلتني بالغضب. جن جنوني فلطمتها بوحشية. وصممت على الانقضاض حتى النهاية ولكن يداً وضعت على كتفي وجاءني صوت سرحان اللاهث وهو يقول:

\_حسنى . . أجننت؟

دفعته بوحشية ولكنه شد على كتفي قائلاً:

\_ ادخل الحمام وضع إصبعك في فمك.

استدرت نحوه ولطمته بشدة على غرة منه. تراجع وهو يهدر ثم لطمني بقوة. وإذا بالمدام قادمة وهي تحبك حولها الروب متسائلة في جزع:

\_ماذا يحدث؟!

ثم دخلت بيني وبين سرحان وهي تقول بغضب:

ـ لا، هذا تخريب، ولا يمكن أن أقبله.

\* \* \*

الملائكة تسبح أو ترقص في السقف. المطر يعزف فوق النوافذ وهدير الأمواج يصك الأذنين بانفجارات معركة محتدمة. أغمضت عيني مرة أخرى تحت لطمات الصداع. تأوهت ثم لعنت كل شيء. ثم اكتشفت أنني نمت بقية الليل بالبدلة والمعطف والحذاء. وانهالت على ذكريات الليلة الماضية فلعنت كل شيء.

وجاءت المدام بعـد أن أذنت لهـا بالدخـول. وقفت تنظر إلى وأنا أتزحزح مـتـثـاقـلاً متكاسلاً إلى الوراء لأجلس مستندًا إلى رأس الفراش، وقالت:

\_ تأخرت عن موعدك؟

ثم غاصت في المقعد الكبير وهي تقول في عتاب:

ـ ها هي عاقبة السكر الشديد.

تلاقت عينانا فابتسمت وقالت:

\_إنك أعز من عندي ولكن لا تعد للسكر .

رفعت عيني إلى السقف المزركش بصور الملائكة وتمتمت:

\_ إنى آسف.

ثم بعد فترة صمت:

\_يجب أن أعتذر لزهرة.

ـ حسن ولكن عدني بأن تسلك السلوك اللائق بأسرتك.

\_اعتذري عني لزهرة حتى أعتذر لها بنفسي.

وقد انقطع ما بينى وبين سرحان أما زهرة فصالحتها بعد إباء وتمنع. ولا أنكر أن مخاصمة سرحان قد خلقت فراغًا فى نفسى. الآخر \_ منصورباهى \_ لا أكاد أعرفه، ولا علاقة لى به سوى كلمات عابرة نتبادلها على مائدة الإفطار فلا يبقى منها فى الذاكرة شيء. إننا نتبادل \_ بلا شك \_ كراهية صامتة. وإنى أحتقر انطواءه وغروره وأنوثته وما يحلى به نفسه من أدب ظاهرى رخيص. وقد سمعته مرة فى الراديو فهالنى صوته لكاذب مثله \_ الذى تحسبه صادرًا عن فارس خطيب. ومن عجب أنه لم تنشأ مودة بينه وبين أحد سوى قلاوون الصحافة مما جعلنى أقطع بأن العجوز الأعزب لوطى سابق!

\* \* \*

يحسن بى ألا أغادر الحجرة!. ولكن ثمة حادث سعيد يقع فى الخارج. فى حجرة البحيرى؟!. أجل. مناقرة.. بل مشاجرة.. بل معركة.. بين روميو البحيرى وجولييت البحيرية.. ما معنى ذلك؟ هل طالبته بإصلاح غلطته؟. هل رام التملص والهرب كما فعل مع صفية؟. إنه لأمر بالغ اللذة ولكن يحسن بى ألا أغادر الحجرة. أين كانت تختبئ جميع تلك المسرات؟. فريكيكو انتبه جيداً واستمتع باللحظة البديعة. وصاح الصوت الرنان:

ـ أنا حر. . أتزوج بمن أشاء . . سأتزوج من علية .

يا سيديا بدوى! . علية! . الأستاذة؟ . هل لبى الدعوة لزيارة بيتها؟ . هل تحول من التلميذة إلى الأستاذة؟ . أشهديا فريكيكو . أى يوم بهيج يا إسكندرية . لتحيا الثورة . ولتحيا قوانين يوليو . ها هو صوت المدام يرطن بالعربية . وها هو صوت المذيع الهمام بلحمه ودمه ، أخيرًا تنازل بالاهتمام بشئون الرعية . وسيجد ولا شك حلاً لهذه المشكلة الريفية . يا أهلاً بالمعارك . فريكيكو . . يجب أن تتحرك . احذر أن تسبقك الأحداث .

وقد سمعت القصة مرة أخرى على ربابة المدام. وقالت لي في الختام:

\_لقد طردته، ما كان يجب أن يقيم بيننا يومًا واحدًا!

أثنيت على شهامتها، ثم سألت عن زهرة فقالت بأسف:

ـ معتكفة في حجرتها متوعكة .

أجل. القصة القديمة. المتجددة مثل فصول السنة. وقد هنأ البحيري بالطرد. فاز بترقية إلى الدور الخامس. ولا يدري أحد أين ينتهي به الطريق.

وقالت المدام:

\_إن صاحب الميرامار يفكر جديًا في بيعها.

فقلت بثقة:

\_إنى على استعداد لمفاوضته.

وغادرت البنسيون مدفوعًا برغبة حامية في مسح الإسكندرية بالطول والعرض.

فريكيكو . . لا تلمني . .

### \* \* \*

لأول مرة أراها منهزمة منسحقة. شحب لونها الخمرى وفقدت عيناها العسليتان الرونق والبريق. صبت لى الشاى وهمت بالانصراف فرجوتها أن تبقى. كان الهواء يزأر في هبات متقطعة، وجو الحجرة القاتم يشي بتجمع السحب.

\_زهرة. . الدنيا مليئة بالسفالات ولكنها لا تخلو من خير . .

لم يبد عليها أنها تهتم بالإصغاء إلى او أنها تهتم بأي شيء.

- انظرى ماذا فعلت أنا، ضاق بي العيش بين أهلى في طنطا فهاجرت إلى الإسكندرية.

لم تنبس ولا دبت فيها نسمة اهتمام.

\_أقول لك إنه لا حزن يدوم ولا فرح، وأن على الإنسان أن يجد طريقه، وإذا ساقه الحظ إلى طريق مسدودة فعليه أن يتحول إلى أخرى.

- كل شيء طيب، لست آسفة على شيء.

- بل أنت حزينة ، حزينة جدًا يا زهرة ، ولك حق ، ولكن عليك أن تختاري النجاة ، هذا الاختيار نصف النجاة إن لم يكن النجاة كلها .

قاومت التأثر بإرادة جبارة طبعت وجهها بطابع دميم عابر، فقلت:

\_أصغى إلى، إليك اقتراحًا، لا تبتى فيه برأى الآن، ولكن فكرى فيه على مهل.

وتريثت لحظات ثم قلت:

\_عما قريب سيكون لدى عمل.

تململت، فقلت:

\_ستجدين عندي إذا شئت وظيفة محترمة!

ارتسم سوء الظن في عينيها فقلت:

ـ هذا المكان لا يصلح لك . . بنت محترمة بين أشكال وألوان من مريدي اللهـ و والتسلية ، من يقر ذلك؟

لم تأخذ كلمة من قولي مأخذ الجد، ذلك واضح جدًا، فقلت:

ـ ستكونين عندي في حصن . . عمل شريف وحياة ممتازة .

غمغمت بما لم أسمع ثم حملت الصينية وذهبت.

غضبت. عليها وعلى نفسى غضبت لحد المقت. شهوات المحرومين أعمتها عن حقارتها. ملعونة الأرض التي أنبتتك في طينها. وقلت بذلة ومرارة:

فريكيكو . . لا تلمني . .

\* \* \*

سهرت بين الجدران الحمراء الكابية في الجنفواز . دعتني صفية إلى المبيت في بيتها فلبيت . عرضت همومي للمناقشة وأنا سكران تمامًا . ولما جاء ذكر المشروع وثب صوتها قائلاً:

\_جاء الفرج!

ثم قالت وهي تشعل سيجارة:

- الجنفواز . . صاحبه يرغب في بيعه .

فقلت بلسان مخمور:

\_ولكنه حقير كئيب!

ـ فكر في موقعه الممتاز . . ممكن أن يصير ملهي ومطعمًا ممتازًا!

وأكدت أنه يدر ربحًا كثيرًا وهو بحالته الراهنة وتنبأت له بمزيد من النجاح إذا جدد.

قالت :

- أنت ابن ناس، وسيضع البوليس ذلك في اعتباره، وعندى خبرة لا حد لها، الصيف مضمون، وبقية العام مضمونة كذلك بفضل الليبيين الذين يفدون علينا محملين بنقود البترول.

قلت وكأني في حلم:

رتبي لي مقابلة مع الخواجا.

ـ في أقرب فرصة وسوف أختص أنا بالجانب النسائي.

ـ اتفقنا .

قبلتني وهي تتساءل:

\_لم لا تجيء للإقامة معي؟

ـ فكرة، ولكن يجب أن تعرفيني على حقيقتي من أجل تعاون دائم ، أنا لا أعرف ذلك الشيء الذي تسمونه الحب.

\* \* \*

حوالي العاشرة صباحًا عدت إلى البنسيون. التقيت بسرحان البحيري في مدخل

العمارة، تجاهلته كماتجاهلني ووقفنا ننتظر هبوط المصعد وأنا أقول لنفسي لعله جاء لزيارة آل عروسه. وفجأة التفت نحوي وقال:

- إنك كنت السبب فيما وقع بيني وبين محمود أبوالعباس!

تجاهلته تمامًا كأنني لم أسمع صوتًا، فاستمر يقول:

لقد اعترف لي بذلك.

ولما أصررت على تجاهله في احتقار وبرود قال بعصبية:

\_على أي حال فقد خلا سلوكك من شهامة الرجال.

تحولت إليه بغضب صائحًا:

\_اخرس يا ابن الكلب!

وسرعان ما تبادلنا الضربات حتى جاء البواب ورفاق له فخلصوا بيننا. توقف الضرب وبدأ السباب. حتى هتف:

\_سأؤدبك . . انتظرني .

فهتفت بدوري:

ـ تعال لأريحك من حياتك القذرة.

\* \* \*

في مجلس الأصيل حول الراديو وجدت المدام وطلبة بك، فقالت لي المدام:

\_اشترك معنا في التفكير، كيف نقضى ليلة رأس السنة؟

ثم أشارت إلى طلبة بك وقالت:

- من رأيه أن نسهر في المونسنيير ولكن عامر بك يفضل البقاء هنا؟

\_أين عامر بك؟

\_إنه معتكف، عنده برد.

دعيه في اعتكافه، ولنذهب إلى المونسنيير، يجب أن نلهو بعنف حتى الصباح! وبعد صمت قليل قلت لها:

-. - أخيرًا تحقق المشروع!

وقصصت عليها الخبر حتى عكس وجهها خيبة أمل واضحة، ثم قالت:

ـ لا تتسرع . . يجب أن تفكر .

\_ كفانى تفكير .

ثم صرحت قائلة بعد تردد:

ـ مقهى الميرامار أفضل . . وإنى أفكر جديًا في مشاركتك . .

فقلت ضاحكًا:

\_ربما فكرت في التوسع مستقبلاً.

وانبعثت من أعماقي رغبة جامحة في الاستمتاع لأقصى حد بليلة رأس السنة الجديدة.

### \* \* \*

وقد تعرفت بصاحب الجنفواز في نفس الليلة في حجرة مكتبه بالملهى. وتم الاتفاق على البيع من حيث المبدأ، ثم دعاني إلى سهرة في مسكنه بكامب شيزار بعد موعد الإغلاق. وشهدت صفية السهرة واشتركت في مناقشة التفاصيل. وجاء ذكر لليلة رأس السنة فاتفقنا أيضًا على الاحتفال بها معًا في الجنفواز على أن نكمل السهرة في بيت الخواجا أو في أي مكان آخر، فهنأت نفسى على الخلاص من سهرة العجائز.

وفى صباح اليوم التالى لاحظت أن حجرة الإفطار تطالعنى بوجه غريب. أجل كان قلاوون الصحافة معتكفًا فى حجرته مايزال، ولكن منصور باهى لم يفارق حجرته أيضًا، ولم أر أثرا لزهرة. وقرأت فى وجهى المدام وطلبة بك وجومًا ينذر بالشر، وإذا بالرجل يقول:

\_أما علمت بالخبر؟

رمقته بنظرة متسائلة فقال:

ـ لقد عثر على سرحان البحيري جثة هامدة في طريق البالما. .

لبثت لحظات ذاه الاً قبل أن يستقر الخبر في وعيى وإدراكي. واكتسحني شعور من الانزعاج والإشفاق، والقلق حيال طبيعة الموت الغامضة المقتحمة. وسألت:

\_ميتًا؟

ـ بل قتيلاً .

ـ ولكن .

فقاطعتني المدام:

ـ اقرأ الجريدة، إنه خبر مزعج، وقلبي يحدثني بمتاعب كثيرة.

تذكرت المعركة الأخيرة أمام المصعد فامتعضت نفسى. وخشيت أن تمتد إلى المتاعب التي تنبأت بها المدام. وسألت وأنا أدرك سخف السؤال وعمقه:

ـ ترى من يكون القاتل؟

فقالت المدام:

\_هذا هو السؤال طبعًا.

وقال طلبة مرزوق:

\_وعندما يسألون عن أعدائه. . ؟!

أجبت وقد استعدت شيئًا من روح السخرية:

\_في الحق لم يكن له صديق بيننا!

فقال طلبة مرزوق:

\_وهل يكون له أعداء آخرون.

\_ستعرف الحقيقة عاجلاً أو آجلاً.

وسألت عن زهرة فأجابت المدام:

\_ في حجرتها على أسوأ حال . .

أفقت من وقع الخبر فرددت قائلاً:

\_ لتكن مشيئة الله .

كان في نيتي أن أخبر المدام بما استقر عليه رأيي من الانتقال من البنسيون ولكني أجلت ذلك إلى وقت آخر . ولما هممت بالخروج قال لي طلبة بك :

\_محتمل أن ندعى جميعًا لسماع أقوالنا.

فقلت وأنا أمضى:

\_ فليدعنا من يشاء .

صممت على غسل رأسى بجولة من جولاتي الانطلاقية في أنحاء الإسكندرية . كانت السحب البيضاء دانية يقطر منها لون رائق، والهواء خفيفًا سريعًا لاذعًا .

إنه آخر يوم في السنة وقد تضاعفت رغبتي في إحياء ليلة جنونية حتى الصباح.

ولقد وضحت لي معالم الطريق، فليمت من يموت وليعش من يعيش.

دفعت السيارة وأنا أقول لصورتي في المرآة الصغيرة:

فريكيكو . . لا تلمني .

# ۳ منصور باهی

قضى على بالسجن في الإسكندرية وبأن أمضى العمر في انتحال الأعذار .

قلت ذلك لأخى وأنا أودعه، ثم ذهبت رأسًا إلى بنسيون ميرامار فتحت شراعة الباب عن وجه عجوز ذي طابع أنيق متعال، رغم الكبر ورغم المهنة ، فسألتها:

\_مدام ماریانا؟

أجابت بالإيجاب فقلت:

\_منصور باهي. .

فتحت لي الباب مرحبة وهي تقول:

\_أهلاً. . حدثني أخوك بالتليفون . . اعتبر نفسك في بيتك .

انتظرت عند الباب حتى وصل البواب حاملاً الحقيبتين، ثم دعتني إلى الجلوس وجلست هي على كنبة تحت تمثال للعذراء:

- أخموك ضابط بوليس عظيم، كان ينزل عندى قبل أن يتروج، وقد أقام في الإسكندرية عمراً وها هو ينتقل إلى القاهرة. .

تبادلنا نظرات مودة وهي تتفحصني بدقة وعناية ثم سألتني:

\_كنت تقيم معه؟

\_نعم.

ـ طالب؟ . . موظف؟

\_مذيع في محطة الإسكندرية.

ـ ولكنك أصلا من القاهرة؟

\_نعم . .

ـ اعتبر نفسك في بيتك و لا تحدثني عن الإيجار . .

ضحكت مستنكراً، ولكنى شعرت أنها على استعداد لقبولى بالمجان لــو أردت. حسـن، العفن يجرى مع الهواء ولعله يصدر أصلاً من ذاتي أنا.

\_ وأي مدة ستقيم معنا؟

\_ غير محدودة . .

ـ سنتفق على أجرة مناسبة ولن أطالب برفعها في الصيف. .

\_شكراً، لقد أرشدني أخى إلى ما يجب عمله وسوف أدفع في المصيف كالمصيفين. .

انتقلت بلباقة إلى موضوع آخر فتساءلت:

\_أعزب؟

\_نعم.

ـ متى تفكر في الزواج؟

\_ليس الآن على أي حال.

فضحكت عاليًا وهي تسأل:

\_فيم تفكر إذن؟

جاريتها في الضحك بلا روح. ودق الجرس فقامت ففتحت الباب فدخلت فتاة حاملة لفة كبيرة من البقالة أو غيرها ثم مضت إلى الداخل. من نظرة أدركت أنها خادمة وأنها جميلة. ثم عرفت والمدام تخاطبها أن اسمها زهرة. وهي في سن طالبة جامعية وكان ينبغي أن تكون كذلك.

قادتني المدام إلى إحدى الحجرتين المطلتين على البحر وهي تقول:

ـ هذا الجانب غير مناسب للشتاء ولكنها الحجرة الوحيدة الخالية. .

فقلت بلا اكتراث:

\_إنى أحب الشتاء. .

\* \* \*

وقفت في الشرفة وحيداً. ترامى البحر تحتى إلى غير نهاية، ينبسط في زرقة صافية بديعة، وتلعب أمواجه الهادئة بلآلئ الشمس. غمرتني ريح خفيفة في ملاطفة منعشة ولم يكن في السماء إلا سحابات متفرقة. كاد يغلبني الحزن ولكن سمعت حركة خفيفة في الحجرة فالتفت مستطلعاً فرأيت زهرة وهي تفرش السرير بالملاءات والأغطية. عملت بهمة دون أن تنظر نحوى فتمليتها على مهل وسرعان ما أكبرت ملاحتها الريفية الباهرة. وقلت راغباً في إنشاء علاقة ومودة:

\_أشكرك يا زهرة.

فابتسمت إلى ابتسامة تشرح الصدر، فطلبت فنجال قهوة فجاءتني به بعد دقائق معدودة. وقلت:

\_انتظري من فضلك حتى أفرغ. .

وضعت طبق الفنجال على سور الشرفة ومضيت أحتسيه فاقتربت حتى وقفت عند العتبة رانية إلى البحر فسألتها:

\_ تحبين الطبيعة؟

لم تجب. ولكنها لم تفهم. ترى ماذا يشغل بالها؟ ولكن لا ريب أنها بالغريزة المرتوية من الأرض تتحفز للعمل الأول الذي تهتم به الطبيعة الخلابة. قلت:

ـ لدى في الحقيبة الكبرى كتب ولا صوان لها في الحجرة.

استعرضت قطع الأثاث بعينيها ثم قالت ببساطة:

ـ دعها في الحقيبة.

ابتسمت ثم سألتها:

\_ تعملين هنا من قديم؟

\_کلا .

\_والمكان أهو مناسب لراحتك؟

\_نعم.

ـ ألا يضايقك الرجال الذين يجيئون ويذهبون؟

هزت منكبيها ولم تجب بلا أو نعم فقلت:

\_إنهم مخيفون أحيانًا، أليس كذلك؟

تناولت الفنجال ثم قالت وهي تهم بالذهاب:

\_أنا لا أخاف!

أعجبت بثقتها بنفسها. وإذا بي أعاني إحساسًا بالحسرة. وكعادتي جعلت أفكر فيما هو كائن وما ينبغي أن يكون. وتهددني الحزن مرة أخرى.

تفقدت قطع الأثاث ثم قر عزمي على شراء مكتبة صغيرة للكتب، أما الترابيزة المستديرة القائمة بين صوان الملابس والشزلونج فصالحة للكتابة.

\* \* \*

لبثت فى دار الإذاعة بضع ساعات لتسجيل البرنامج الأسبوعى. تناولت الغداء فى مطعم بترو بشارع صفية زغلول. جلست فى على كيفك لأحتسى فنجالاً من القهوة. مضيت أتسلى بمشاهدة الميدان المغطى بمظلة من السحب. وقد انتشرت معاطف المطوية على الأذرع. وفجأة دق قلبى عندما مر أمامى ذاك الرجل. فوزى! انحنيت إلى الأمام قليلاً حتى أوشك جبينى أن يمس الزجاج لأتأكد من هويته. كلا، ليس بفوزى، ليس بفوزى على وجه اليقين. ولكن ما أعظم التماثل بينهما ودرية حضرت بالتداعى كما

يقال. وهى تحضر بلا قانون إلا قانونها الأزلى. أجل درية. ماذا لو كان هو فوزى حقًا؟. وماذا لو تلاقت الأعين؟. إذا رأيت صديقًا حميمًا وجبت عليك معانقته. وهو أيضًا بمنزلة الأستاذ. لتكن معانقة حارة وإن أدمتك الأشواك. وادعه إلى فنجال قهوة فبذلك تقضى آداب الضيافة.

- \_أهلاً. . أهلاً. . ماذا جاء بك إلى الإسكندرية في هذا الوقت من العام؟
  - \_زيارة عائلية!

هذا يعني أنه جاء ليمارس نشاطًا ولكنه يخفيه عني كما يجدر به. على أنني قلت:

\_ أتمنى لك إقامة دائمة.

ـ لم نرك منذ عامين، وبالدقة منذ تخرجك.

- بلى، فقد عينت في محطة الإسكندرية كما تعلم!

\_ أعنى أنك هجرتنا تمامًا.

\_بعض المتاعب. . أعنى صادفتني بعض المتاعب.

ـ قد يكون من الحكمة ألا يستمر الإنسان في عمل لا يناسبه.

اجتاحتني كبرياء عمياء فقلت:

- وقد لا يستمر في العمل أيضًا إذا كف عن الإيمان به.

تمهل كعادته ليزن كلماته ثم قال:

\_قيل إن أخاك. .

قاطعته باستياء:

\_ لست قاصراً . .

فضحك قائلاً:

\_أعضبتك؟ . . معذرة . .

توترت أعصابى. درية. وتساقط رذاذ فتمنيت أن ينهل المطر ليخلو الميدان من البشر. عزيزتى. لا تصدقى. قديمًا قال حكيم إننا قد نكذب أحيانًا لنقنع الآخرين بأننا صادقون. وعددت الحظ صديقى المخيف فسألنى:

\_ألم تعد تهتم بشيء؟

فضحكت. كادت تندعني ضحكة. وقلت:

\_ ما دمت أحيا فلا بد أن أهتم بشيء .

\_مثل ماذا؟

\_ألا ترى أنني حلقت ذقني وأنني أحكمت عقد الكرافتة؟

فسألني جادًا:

\_وماذا أيضًا؟

\_هل شاهدت فيلم مترو الجديد؟

ابتسم ثم قال:

\_ فكرة . . فلنشاهد فيلمًا رأسماليًا!

\* \* \*

زارتنى مدام ماريانا فى حجرتى زيارة مجاملة. ينقصك شىء؟. أى خدمة؟. كن صريحًا، كان أخوك صريحًا وكان شهمًا بكل معنى الكلمة، وهو قوى ضخم عملاق، أما أنت فدقيق متناسق ولكنك قوى أيضًا، اعتبر البنسيون بيتك. واعتبرنى صديقة، صديقة بكل معنى الكلمة.

ولكنها لم تأت في الحقيقة للمجاملة، أو لم تكن المجاملة إلا وسيلة فحسب، لقد جاءت أصلاً للاعتراف، أو لتحقيق الذات عن طريق شفوى. هكذا تطوعت برواية تاريخ حياتها، نشأتها الناعمة المنعمة، حبها وزواجها الأول من كابتن إنجليزى، زواجها الثانى من ملك البطارخ وقصر الإبراهيمية، ثم فترة الانحدار، ولكن أى انحدار؟! كان بنسيون السادة، الباشوات والبكوات، أيام الحرب.

ودعتنى إلى البوح بأسرار حياتى، طوفان من الأسئلة، امرأة غريبة ومسلية ومرهقة، امرأة عند الزوال، لم أشهدها وهى عروس الصالونات، ولكن يمكن تخيلها، على ضوء الفاتنات والطغاة يمكن تخيلها، ولكنى لم أعرفها إلا وهى خرابة أثرية تتعلق عبثا بأذيال الحياة.

وعلى مائدة الإفطار تعرفت بالنزلاء. أسرة متنافرة غريبة. وإنى لفى حاجة إلى تسلية. إذا تغلبت على ما يشدنى إلى الداخل فقد أنعم بصاحب أو بصديق. لم لا؟ لنطرح جانبا عامر وجدى وطلبة مرزوق فهما من جيل راحل. ولكن ماذا عن سرحان البحيرى وحسنى علام؟. في عيني سرحان جاذبية فطرية وهو ودود فيما يبدو رغم صوته المزعج ولكن ماذا عن اهتماماته؟. أما الآخر. . حسنى علام. . فهو مثير للأعصاب، هكذا يبدو لأول وهلة على الأقل، متغطرس الصمت والتحفظ، غاظنى بنيانه المحكم ورأسه الكبيرة المرتفع وتربعه على كرسيه كأنه حاكم، أجل حاكم ولكن بلا ولاية وبلا محتوى، ولعله لا يتبسط في الحديث مع أحد إلا إذا وثق من أنه أتفه منه وقلت لنفسى . على الذي يرضى بهجر الدير أن يوطن النفس على معاشرة الأراذل. وكالعادة تملكنى الانطواء حيال الغرباء. وقلت سيقولون . . سيظنون . وقديما خسرت بذلك الفرض حياتي .

دهشت عندما رأيت سرحان البحيري داخلا على في حجرة مكتبى بالإذاعة. تألق وجهه ببشاشة صديق قديم، ثم صافحني بحرارة وهو يقول:

\_كنت مارا تحت الإذاعة فقلت أسلم وأشرب القهوة!

رحبت به، وطلبت القهوة ، فقال:

\_سأطالبك يوما بإطلاعي على أسرار الإذاعة!

بكل سرور يا رجل المصطبة العتيدة التى لم أنعم بالجلوس عليها. . وبإيجاز حدثنى عن عملـه بشركة الإسكندرية وعضوية مجلس الإدارة وعضوية الوحدة الأساسية . وقلت له :

\_ يا له من حماس جميل يعد درسا للمتواكلين.

فنظر إلى بإمعان، ثم قال:

- إنه طريقنا للمشاركة في بناء عالمنا الجديد.

- آمنت بالاشتراكية من قبل الثورة؟

\_ الحق أني آمنت بها مع الثورة .

ودغدغني ميل إلى مناقشة إيمانه ولكنني كبحته. وجرى الحديث إلى البنسيون فقال:

\_إنه أسرة طريفة لا يشبع الإنسان منها.

فسألته بعد تردد:

\_وحسني علام؟

ـ شاب ظريف هو الآخر.

ـ يبدو كأنه أبو الهول.

ـ في الظاهر فقط، ولكنه ظريف، وذو استعداد أصيل للعربدة!

ضحكنا معا. لم يدر أنه يعرفني بنفسه أكثر مما يعرفني بالآخر. وعاد يقول محذرا:

\_إنه من الأعيان ، بلا وظيفة، فيمكن القول إنه بلا شهادة، خذ بالك من هذه النقطة.

ثم واصل بلهجته الحكيمة المحذرة:

\_ إنه يملك مائة فدان، فهو يخندق في الخطوط الأمامية، ولا يحمل شهادة علمية، وعليك أن تفهم البقية . .

\_ ولماذا أقام في الإسكندرية؟

\_إنه ولد حكيم، يبحث عن مشروع تجاري ناجح!

فقلت ضاحكا:

\_عليه أن يغير سحنته المتعجرفة وإلا هرب الزبائن.

ثم خطر لى أن أسأله عما يدعوه إلى الإقامة في بنسيون رغم أنه قديم عهد بالإسكندرية، فتفكر قليلا ثم قال:

\_ فضلت بنسيونا عامرا بالناس عن شقة موحشة داخل البلد!

\* \* \*

ليلة أم كلثوم ، ليلة الخمر والطرب، فيها تزحزح النقاب عن أشياء من خبايا النفوس.

إلى سرحان البحيرى يعود أكبر الفضل في إحيائها ولعله تكلف أقل نصيب من نفقاتها! . استرقت نظرات إلى طلبة مرزوق لم يقرأ معانيها أحد . أجل ، عاودتنى ذكريات حميمة ، أحلام دموية ، صراعات طبقية ، كتب وتجمعات ، بنيان من الأفكار راسخ الأساس . راعنى ترهله وانكساره . وحركات شدقيه ، وقبوعه فوق مقعده في استسلام ، وتودده إلى الثورة بلا إيمان ، وكأنه لم يكن من السلالة التي شيدت قلاعها من اللحم والدماء . أخيرا جاء دوره ليمارس النفاق بعد أن خلف مجده المتدهم الذابل أمة من المنافقين . وما حسنى إلا جناح من النسر المهيض ، لكنه جناح مازال يرفرف ولا يخلو من قدرة على الطيران .

\* \* \*

\_ أقول إن تلك التناقضات قد محيت تماما .

ـ كلا . . إنها أزيحت بتناقضات جديدة، وسوف تثبت لك الأيام . .

\* \* \*

أما سرحان البحيرى فسرى فينا كالروح بمرح حار لا يفتر وهو طيب القلب، ومخلص، لم لا، طموح بلا ريب، إنه التفسير المادى للثورة، وسرعان ما تبين لى أن عامر وجدى هو أعظم الحاضرين فتنة وأحقهم بالتقدير والحب. عرفت أنه عامر وجدى الذى راجعت العديد من مقالاته عند إعدادى لبرنامج «أجيال من الثورة». لقد استولت على أفكاره المتطورة بل والمتناقضة، وسحرنى أسلوبه الذى بدأ بالسجع وانتهى إلى بساطة نسبية لا تخلو من فخامة وجزالة. وقد سر باطلاعى على مقالاته سرورا دل على عمق إحساسه بالزوال والنسيان والجحود فأثر ذلك في نفسى تأثيرا حادا محزنا. وقبض على القشة التى ألقيتها إليه في الماء فمضى يقص على تاريخه الطويل، جهاده المستمر، التيارات التي لاطمته، والأبطال الذين آمن بهم.

- \_وسعد زغلول؟ . . لقد عبده الجيل السابق عبادة . .
- ـ ما قيمة المعبودات القديمة! . لقد طعن الرجل الثورة الحقيقية وهي في مهدها . .

\* \* \*

ولكن ما بال طلبة مرزوق يرمقنى بحذر؟ . لقد ضبطت عينيه المرتابتين الكارهتين فى مرآة المشجب. لا يهم. ومثله خليق بأن يخاف خياله. وقد صببت له كأسا فشكرنى فسألته عن رأيه فى نظرات عامر وجدى التاريخية ولكنه قال كالمعتذر:

\_ما مضى قد مضى، دعنا نتهيأ للسماع.

أعجبت بزهرة وهي تقوم على خدمتنا ولكنها لا تكاد تبتسم إلا للنادر من نكاتنا، وتجلس عند البرافان لتراقبنا من بعيد بعينين جميلتين غير مبينتين. وقد سألها حسني علام وهي تقدم له شيئا:

\_وأنت يا زهرة. . هل تحبين الثورة؟

فتراجعت في حياء عن دائرة المعربدين ولكن المدام أجابت عنها إجابة شافية. وقد بدا أنه يحييها بسؤاله ويدعوها إلى المشاركة في الحديث ولكنى لمحت في أعماقه ضيقا يداريه فقلت:

\_إنها تحبها بالفطرة!

ولكنه لم يسمعنى أو أنه \_ الوغد \_ تجاهلنى . وقد اختفى قبل نهاية السهرة ، وأخبرت زهرة بأنه غادر البنسيون ، وقد أعجبت بعامر وجدى الذى ظل ساهرا يسمع ويطرب حتى مطلع الفجر . وسألته وقد نهضنا للنوم :

\_ هل سمعت في ماضيك صوتا كهذا الصوت؟

فأجاب باسما:

\_ إنه الشيء الوحيد الذي لانظير له في الماضي . .

\* \* \*

رجوتها أن تجلس ولكنها لبثت واقفة مستندة إلى صوان الملابس، تنظر معى إلى الأفق الملبد بالغيوم من زجاج الشرفة المغلق، وتنتظر أن أفرغ من احتساء الشاى. وكنت أعطيها قطعة من البسكوت الذى أحتفظ بقدر منه فتقبلها عربونا لصداقة نامية. إن قلبها الأبيض يشعر بمودتى واحترامى وإعجابى وكنت بذلك سعيدا. وتساقط رذاذ، فانسابت قطراته على الزجاج فاهتزت صورة العالم الخارجى. سألتها عن بلدتها فأجابت. خمنت السبب الذى اقتلعها من أرضها، ولكنى قلت:

ـ لو بقيت في قريتك لسارع إليك ابن الحلال.

فقصت على قصة ضارية، عن الجد والزوج العجوز . . ثم قالت :

\_وهربت.

انزعجت للخبر فقلت:

\_ولكنك لن تسلمي من الألسنة .

فقالت باستهانة:

\_إنه خير مما هربت منه!

أعجبت بها لحد الإكبار ولكن أشجتني وحدتها، غير أنها كانت تقف مليئة بالثقة كمعدن غير قابل للكسر. وكان الرذاذ قد نقش الزجاج بالغبش فاختفى العالم أو كاد.

\* \* \*

قنبلة؟. صاروخ؟. فكرة جنونية. كلا، إنها سيارة، الأحمق، يا للشيطان إنه حسنى علام، ماذا يدفعه إلى الطيران؟. سر لا يعلمه إلا هو، كلا. . فإلى جانبه تجلس فتاة ، كأنها صونيا، أهى صونيا، صونيا أو غيرها فليذهب إلى الجحيم.

وما كدت أجلس في مكتبي حتى لحق بي زميلي وهو يقول:

\_ قبض على أصحابك أمس!

غشيتني لحظة غيبوبة. خجلت من أن أعلق بكلمة واحدة فقال:

\_والسبب فيما يقال . . .

قاطعته بحدة:

ـ لا أهمية لذلك.

ـ ثمة همس *عن* . .

\_ قلت لا أهمية لذلك. .

اعتمد على مكتبى بذراعيه الممدودتين وقال:

\_كان أخوك حكيما.

فقلت وأنا أنفخ:

- نعم الحكيم أخى . .

وقلت لنفسى لا شك أن حسنى علام قد بلغ الآن أقصى الأرض، وأن صونيا ترتعد من الخوف واللذة .

\* \* \*

\_ولا كلمة ، سأقتلعك من الوكر!

- ـ ولكني لم أعد طفلا. .
- \_ألم تسرع بأمك إلى القبر؟
- اتفقنا على ألا نذكر ذلك الماضي البعيد.
- \_ولكنى أراه حاضرا، ستذهب معى إلى الإسكندرية ولواضطررت إلى أخذك بالقوة.
  - ـ عاملني كرجل من فضلك.
  - \_إنك ساذج، أتظننا غافلين، لسنا غافلين.

وتفرس في وجهي بقوة ثم قال:

- إنك غير جاهل، ماذا تحسبهم؟ أبطالا. . هه؟ إنى أعرفهم خيرا منك، وستذهب معى طوعا أو كرها. .

\* \* \*

فتحت لى الباب. كنت خافق القلب جاف الحلق مشتت الفكر. برز لى وجهها من الدهليز القاتم أبيض شاحبا. حدقت في بعينين جامدتين، لم تعرفني أول الأمر، ثم اتسعت عيناها لوقع مفاجأة غير متوقعة، وهمست:

\_أستاذ منصور!

تنحت جانبا فدخلت وأنا أقول:

\_كيف حالك يا درية؟

تقدمتنى إلى حجرة الجلوس، وقد أضفى منظرها الحزين على كل شىء كآبة وتجهما. جلسنا على مقعدين متقاربين، وعلى الحائط أمامنا صورته تطل علينا من إطار أسود وهو يسدد إلينا الفوتوغرافيا كأنما يلتقط لنا صورة، تبادلنا نظرات صامتة حزينة، ثم سألت:

- \_ متى جئت إلى القاهرة؟
- ـ جئت من المحطة رأسا.
  - \_إذن علمت . . ؟
- \_أجل، في مكتبى، ثم أخذت ديزل الساعة الثانية مساء.

ونظرت إلى صورته وأنا أتشمم رائحة التبغ الذي يدخنه وهي مستكنة ماتزال في جو الحجرة، ثم سألت:

- ـ هل قبض عليهم جميعا؟
  - ـ أظن ذلك.
  - \_وأين ذهبوا بهم؟

ـ لا أدرى.

تشعث شعرها في إهمال، وشحبت بشرتها البيضاء، وضعضعت عينيها نظرة ذابلة مسهدة.

\_وأنت؟

\_كما ترى.

وحيدة بلا مورد. كان أستاذا مساعدا بكلية الاقتصاد ولكن بلا مدخرات. كل شيء واضح وضوح الكآبة التي تخنق المكان كله.

\_درية، أنت زميلة قديمة، وهو صديق، أعز صديق رغم كل شيء.

ثم استجمعت شجاعتي وواصلت:

- أنا موظف، ولي إيراد لا بأس به أيضا، ولست مسئولا عن أحد كما تعلمين.

حركت رأسها في ضيق. وتمتمت:

\_ولكنك تعلم أنني لا. .

قاطعتها بحرارة:

ـ لا أظنك ترفضين مساعدة تافهة من صديق قديم.

- الطبيعي أن أجد عملا مناسبا .

ـ عندما يتيسر ذلك، ولن يتيسر قبل مضى وقت.

مازالت الحجرة مطبوعة بروحه. كعهدى بها في الأيام الخالية. الكنبة الاستديو ومكتبتها العامرة، المسجل، الجرامفون، التليفزيون والراديو، الفوتوغرافيا والأفلام وألبوم الصور، ولكن أين الصورة التي جمعت بيننا في أوبرج الفيوم؟. لا شك أنه رمى بها في لحظة الغضب. وكانت عينانا تلتقيان ثم تنفصلان في حذر، ولا شك أن مشاعر متجانسة طاردتنا، وأن ذكريات مشتركة ناوشتنا، وأن الماضي والحاضر والمستقبل يتمثل في صورة طريق مجهول. وسألتها:

\_لديك خطة؟

ـ لم أجمع أفكاري بعد.

ترددت قليلا ثم سألت:

\_ ألم تفكرى في الكتابة إلى؟

ترددت قليلا ثم أجابت:

\_کلا.

\_ولكن احتمال حضوري لا شك خطر ببالك.

لم تجب. قامت فغابت دقائق ثم رجعت بالشاى، وأشعلنا سيجارتين. خيل إلى أنى أسترجع رائحة قديمة مفتقدة. وكان لابد مما ليس منه بد فقلت وعذاباتي القديمة تجتاحني:

\_ أظنك علمت بمحاولاتي الفاشلة في العودة؟

لازمت الصمت فقلت:

ـ لم ألق أي تشجيع، وهذا أخف تعبير يمكن اختياره.

تمتمت برجاء:

\_لننس الماضي.

\_حتى فوزى نفسه تجاهلني!

\_قلت لننس الماضي.

ـ كلا يا درية.

ثم قلت بامتعاض وألم:

\_ولست أجهل ما قيل عني، قالوا إنني أسعى للعودة لأعمل عينا لأخي!

هتفت بتبرم وضيق:

\_ألا يكفيني ما بي من حزن!

اعتذرت إليها بنظرة ذليلة وقلت:

ـ درية إنك تدركين شعوري تماما.

ـ إنى ممتنة .

فهتفت كالملدوغ:

\_أعنى شعورى بأننى كان يجب أن أكون معهم!

فقالت بحزن:

ـ لا جدوى من تعذيب نفسك.

\_أود. . أود أن أعرف رأيك في بصراحة؟

ساد الصمت فترة قصيرة مشحونة بالعذاب ثم تمتمت:

لقد استقبلتك في بيتي، أو إن شئت في بيته، وفي هذا الكفاية!

تنهدت بصوت مسموع. لم يطمئن قلبي تماما. وكنت على ثقة من أنى سأرد إلى الجحيم كما كنت، ولكن لم يكن الوقت مناسبا لتبرير الأخطاء. وقلت:

\_سأزورك بين حين وآخر، وعليك أن تكتبي لي لدى أي طارئ.

أرهقنى السفر ذهابا وإيابا فقررت البقاء في البنسيون. انضممت إلى الجالسين حول الراديو في المدخل، ومن حسن الحظ أنهم كانوا أحب أهل الدار إلى نفسى: عامر وجدى والمدام وزهرة. شغلتني أفكاري عن الحديث حولي حتى سمعت المدام وهي تقول لي:

\_إنك دائما غائب عنا بأفكارك!

فقال عامر وجدي وهو يرمقني بمودة:

\_ذاك شأن الأذكياء!

وظل يرمقني بعينيه الغائمتين ثم تساءل:

\_ألا تفكر في استخلاص مادة كتاب من برامجك الثقافية؟

فقلت دون مبالاة بالحقيقة:

ـ إنى أفكر في كتابة برنامج عن تاريخ الخيانة في مصر !

\_الخيانة! . . يا له من موضوع غزير متشعب!

وضحك طويلا ثم عاد يقول:

\_عليك أن ترجع إلى ، سأمدك بالمراجع والذكريات.

\* \* \*

\_أنا أحبك، وأنت نحبينني، دعيني أكلمه.

\_إنك مجنون!

\_إنه عاقل ومعقول وسيفهمنا تماما، وسيغفر لنا.

لكنه يحبني، ويعدك صديقه الأوحد، ألا تفهم؟

\_ إنه يكره الزيف، إني أفهمه تماما.

\* \* \*

واستمر عامر وجدى قائلا:

ـ برنامج عن الخيانة، يا له من برنامج، ولكن احرص في النهاية على أن تؤلف كتابا وإلا نسيك الناس كما نسوني، لم يبق من الذين لم يدونوا أفكارهم إلا سقراط.

وكانت المدام تتابع أغنية يونانية طلبتها فيما يطلبه المستمعون، أغنية على لسان عذراء تعدد المزايا التى تتمناها في فتى الأحلام أو هكذا قالت المدام. إن منظرها وهى تستمع إلى الأغنية مغمضة العينين من الطرب منظر مؤثر حقا، خلاصة مبكية مضحكة لحب الحياة.

وقال عامر وجدى:

ـ وقد خلد بفضل تلميذه أفلاطون. ولكن غريب أن رضى بتجرع السم متجاهلا فرص الهرب!

فقلت بمرارة:

- أجل، ورغم أنه لم يكن يعاني شعورا بالإثم أو الخطأ.

\_وكم من أناس إذا قارنتهم بسقراط اقتنعت بأنهم لا يمكن أن يرجعوا معه إلى أصل جنسي واحد!

فقلت بمرارة وجنون:

\_ أولئك هم الخونة.

ثمة حقائق وثمة أساطير ، الحياة يا بني محيرة حقا.

\_ولكنك من جيل الإيمان؟

فضحك وهو يقول:

- الإيمان . . الشك . . إنهما مثل النار والليل .

\_ ماذا تعنى من فضلك؟

فسكت لحظات ثم قال:

\_أعنى أنهما لا ينفصلان. وأنت يا بني من أي جيل؟

فقلت بضجر:

ـ العبرة بما نعمل لا بما نفكر ، وإذن فأنا مجرد مشروع .

وضحكت المدام قائلة:

\_نعمل . . نفكر . . ما هذا؟!

وضحك العجوز أيضا وقال:

ـ في كثير من الأحيان يخيل إلى المفكر المرهق أن أثمن ما في الوجود يتلخص في أكلة شهية وامرأة جميلة .

قهقهت المدام وقالت:

ـ برافو . . برافو .

وضحكت زهرة أيضا فسمعت ضحكتها لأول مرة فانجابت عنى الهموم إلى حين . وأعقب ذلك دقائق صمت فتجلى صوت الهواء وهو يدوى فى الخارج ويلطم الجدران فتصطك النوافذ المغلقة . وعاودني القلق والكآبة فقلت مخاطبا عامر وجدى :

ـ أن تؤمن وأنَ تعمل فهذا هو المثل الأعلى، ألا تؤمن فذاك طريق آخر اسمه الضياع، أن تؤمن وتعجز عن العمل فهذا هو الجحيم. \_أجل، إنك لم تشهد سعد في شيخوخته وهو يتحدى النفي والموت.

نظرت إلى زهرة، المنفية الوحيدة، وهي تجلس مفعمة ثقة وأملا فغبطتها، بل حسدتها! .

### \* \* \*

زرت درية بعد مضى أسبوع من الزيارة الأولى. استعاد مسكنها أناقته المعهودة، وتبدت هي في مظهر لا تعوزه العناية، ولكني قرأت في عينيها السقم. أجل، وحيدة وبلا عمل أو أمل، قلت لها:

\_أرجو ألا تضايقك زياراتي.

فقالت بصوت لم أتبين فيه معنى:

- على الأقل فهي تشعرني بأنني مازلت على قيد الحياة.

تقبض قلبى ألما. تخيلت الحال على حقيقتها الخشنة الجرداء. وددت أن أعرب عن عواطفى ولكن الماضى عقد لسانى. واتفق رأينًا على أن فى العمل النجاة من السقم ولكن كيف؟. إنها تحمل ليسانس آداب فى اللغات القديمة ولكن ثمة عقبات لا يستهان بها.

ـ لا تحبسى نفسك في البيت.

\_ فكرت في ذلك ولكني لم أتحرك بعد.

لو كان في الإمكان أن أزورك كل يوم.

ابتسمت. تفكرت. ثم قالت:

\_يحسن أن نتقابل خارج البيت!

لم أرتح لقولها ولكني اقتنعت به فقلت:

\_ فكرة مقبولة! .

وتم اللقاء الثالث في حديقة الحيوان. طالعني وجه الزمان الأول عدا نظرة العين. بجماله ورونقه وإن خلا من روح المرح والبهجة. وسرنا دقائق إلى جانب السور المطل على طريق الجامعة، طريق ذكريات مشتركة لا يمكن أن تنسى. وقالت:

\_إنك تكلف نفسك ما لا يطاق.

- أنت لا تدرين كم أنى سعيد بذلك .

أكان أجدر بي أن أصرح بالسعادة المزعومة؟ . وعدت أقول :

- الوحدة يا درية ، إنها شر ما يبتلي به إنسان .

قلت ذلك بنبرة المجرب، وربما عن قصد، فقالت:

- \_لم أزر الحديقة منذ أيام الجامعة!
- ـ فقلت دون مبالاة بجملتها الاعتراضية:
- \_إنى وحيد أيضا، وأعرف مذاق الوحدة.

بدت كالمحاصرة. ضايقني ذلك وزاد عواطفي تعقيدا والتواء. ورغم ذلك أوشك الفيضان أن يجرف السد. وعندما التقت عينانا خيل إلى أنها جفلت. وإذا بها تقول:

\_ يحزنني أنني أتريض على حين أنه. . هناك.

ولحظت وجومي فتساءلت:

- \_مالك؟
- ـ لا أكاد أتحرر من الإحساس بالذنب.
- \_أخشى أن تجد في صحبتي مصدرا للعذاب.
- -كلا. ولكن ذلك الإحساس الجهنمي يتغذى على اليأس.
  - \_علينا أن نجد في اللقاء شيئا من العزاء.
  - ـ واليأس يدفع للتهور، ولأن يداوي المريض الداء بالداء!
    - \_ماذا تعنى؟
      - \_أعنى.

ترددت قليلا ثم واصلت:

\_أعنى . . أن تعذرى حماقتى لو قلت لك يوما تحت دفعة تيار جارف إنى أحبك، كما أحببتك في زماننا الأول .

وأفقت من تهوري. أي حماقة، أي جنون، ما أبغي؟. كنت مندفعا وراء غاية محددة. كمن يلقي بنفسه في الماء ليطفئ ملابسه المشتعلة. وقالت بعتاب:

\_منصور!

فتراجعت كمن تلقى لطمة شديدة، وقلت بخذلان:

ـ لا أدرى ماذا قلت، ولا كيف قلته. ولكن ثقى من أننى لا يمكن أن أسعى للسعادة! وقلت لنفسى وأنا أستقل الديزل «في الرسائل يجد الإنسان شجاعة أكثر».

\* \* \*

استيقظت على ضوضاء وصخب. . أهو صوت يند عن الصراع الذى يتلاطم فى باطنى؟ . كلا . . هناك صراع من نوع آخر فى البنسيون . غادرت حجرتى فرأيت المنظر الأخير من معركة . أدركت من آثارها المطبوعة على الوجوه أن سرحان وامرأة غريبة وزهرة كانوا أبطالها أو ضحاياها . ولكن من المرأة؟ . . وما علاقة زهرة بالأمر كله؟

وجاءتنى زهرة بالشاى كالعادة، فراحت تقص على الواقعة كما وقعت، باندفاع امرأة وراء سرحان وهو عائد إلى البنسيون، واشتباكها معه في عراق. وكيف جرت إلى العراك وهي تخلص بينهما.

ـ ولكن من المرأة يا زهرة؟

ـ لا أعرف.

ـ سمعت من المدام أنها كانت خطيبة لسرحان؟

ترددت مليا ثم قالت:

\_ربما.

\_ولم انقضت عليك أنت؟

\_قلت إنى أردت التخليص بينهما .

\_ولكن ذلك لا يبرر اشتباكها معك؟

- حصل .

نظرت إليها برقة ومودة ثم سألتها:

ـ هل بينك وبين. .

لكنها تجاهلت سؤالي فقلت:

ـ لا عيب في ذلك، وأنا صديق، وباسم الصداقة أسألك.

فأحنت رأسها بالإيجاب.

\_إذن فأنت مخطوبة وتخفين عنى؟

حركت رأسها نفيا فقلت:

ـ لم تعلن الخطوبة بعد؟

وأقلقني سكوتها فسألت:

\_متى تعلن؟

أجابت بثقة:

\_كل شيء بأوانه .

هجس هاجس الخوف في صدري فقلت:

ـ لكنه هجر الأخرى كما رأيت؟

فقالت ببراءة:

- إنه لا يحبها .

\_ فلم خطبها إذن؟

نظرت إلى بإشفاق ثم تشجعت قائلة:

ـ لم تكن في الحقيقة خطيبته، إنها امرأة ساقطة!

\_ الخيانة هي الخيانة على أي حال!

وقع القول من مسمعي موقعا غريبا فاجعا فوجدت له في فمي طعم السم وعواقبه . وحنقت على سرحان ضمن حنقي على نفسي فلعنته ألف لعنة .

وعندما جاءتني في نفس الموعد بعد ذلك بأيام قالت لي بروح مرحة عالية:

\_أستاذ. . هل أبوح لك بسر؟

نظرت إليها مستطلعا، ومتوقعا المزيد عن علاقتها بسرحان ولكنها قالت لي:

\_سأتعلم!

لم أفهم في الواقع شيئا وظللت أنظر إليها مستطلعا. فقالت:

- اتفقت مع جارتنا ست علية محمد المدرسة على تعليمي.

ذهلت. . وهتفت:

\_حقا؟

\_نعم. . اتفقنا على كل شيء . .

\_شيء رائع يا زهرة، كيف فكرت في ذلك؟

قالت بفخار:

\_ فكرت فيه بنفسى . .

ـ نعم. . ولكن ماذا جعلك تفكرين فيه؟

- قلت لن أبقى جاهلة إلى الأبد، ثم إن لي غرضا آخر!

غرض آخر؟

\_نعم. . سأتعلم مهنة!

رمقتها بإكبار وسعادة وهتفت:

ـرائع . . رائع . . رائع يا زهرة . .

لبثت منفعلا بالسعادة والإكبار وأنا منفرد بنفسى فى الحجرة المغلقة. كان المطريهطل، وهدير الأمواج يتتابع فى دفعات مدوية متقطعة راطنا بلغته المجهولة. ثم مضى الانفعال يهدأ وينخفض ويبرد حتى انداح فى مستنقع من ماء آسن يغشاه زبد الكآبة. إن الصعود يذكر بالهبوط، والقوة بالضعف، والبراءة بالعفن، والأمل باليأس. وللمرة الثانية لم أجد من أصب عليه جام غضبى إلا شخصية سرحان البحيرى!

اخترنا مجلسنا تحت شجرة كافور بكازينو الشاطئ. وكانت الشمس المائلة عن السمت تريق علينا شعاعها الدافيء فتذيب برد القاهرة القارص. وقالت وهي تتفادى طيلة الوقت من تلاقي عينينا:

\_ماكان يجب أن أجيء!

فقلت بطمأنينة:

\_ولكنك جئت فحسم مجيئك التردد!

\_لم يحسم شيئا، ثق من ذلك!

نظرت إليها وبي تصميم على القفز إلى الهاوية:

\_إنى مقتنع بأن مجيئك..

\_ كلا، المسألة أنى لم أرض أن أبقى وحيدة مع رسائلك.

ـ لا أظن أن رسائلي تتضمن جديدا.

\_ولكنك أرسلتها لشخص لا وجود له!

فلمست يدها المطروحة على المائدة كأنما لأثبت لها الوجود ولكنها سحبتها وهي نقول:

ـ لقد أرسلتها بعد زمانها بأربع سنوات!

\_إنها تتضمن أشياء تجاوز بطبعها الزمان والمكان!

\_ألا ترى أنني ضعيفة وتعيسة!

ـ وأنا كذلك، إنى في رأى أصحابنا جاسوس. وفي رأى نفسى خائن. و لا ملجأ لى الا أنت. .

\_ أي دواء!

ـ لا يبقى غيره إلا الموت أو الجنون.

نفخت في توتر معذب ثم تمتمت:

\_إنى خائنة من قديم الزمان.

ـ بل كنت مثال الإخلاص الزائف. .

\_ تعريف آخر للخيانة التي مزقتني . .

فقلت بغضب :

\_ إننا نتمزق بلا سبب حقيقي، وذاك جوهر المأساة. .

ونظرنا إلى النيل بلونه الرصاصي وأمواجه شبه الساكنة. ثم تسللت يدى من وراء المائدة إلى يدها فاحتوتها بحنان، وشدت قليلا لتسكت مقاومتها الضعيفة. وهمست:

ـ لا يجوز أن نذعن لرواسب غير صحية!

فقالت بحزن:

\_إننا نتدهور معا بأكثر مما تصورت.

\_ لكنا سنخرج من التجربة كالمعدن النقى . .

ووجدت رغبة طاغية تدفعني إلى الحضيض كأنما الحضيض غاية منشودة تطلب لذاتها، أو كأنما الجحيم أمسى هدف الإنسان النهم إلى السعادة.

\* \* \*

التقيت في محطة مصر بصديق قديم. صحفى وذى ميول تقدمية ولكنه لم يشتغل بالسياسة. جلسنا في البوفيه، أنا في انتظار الديزل وهو في انتظار شخص قادم من القنال. قال:

\_على أن أشكر هذه الفرصة الطيبة فقد كنت أود أن أقابلك . .

حسن، ماذا تريد، إنني لم أره منذ تعييني في الإسكندرية. وإذا به يسألني:

\_ماذا يجيء بك إلى القاهرة؟

حدجته بدهشة . أجل . . وكان يدرك أن سؤاله سيثير دهشتى . . فقال :

ـ لتشفع صداقتنا لصراحتي، يقولون إنك تجيء من أجل مدام فوزي!

لم أنزعج الانزعاج الذي توقعه. فقد ساورتنا\_أنا ودرية\_الشكوك من قبل، فقلت بفتور :

\_إنها في حاجة إلى صديق كما تعلم.

\_وأعلم أيضا. .

فقاطعته باستهانة:

ـ وتعلم أنني أحبها من قديم!

فتساءل بإشفاق:

\_وفوزى؟!

\_إنه أعظم مما يظن الآخرون.

فقال بضيق:

\_إنى\_كصديق\_غير سعيد بما يقال!

\_حدثني عما يقال؟

ولكنه سكت . . فقلت بعصبية :

- إننى جاسوس، إننى هربت في الوقت المناسب، ثم تسللت إلى بيت الصديق القديم!

- \_لم أقصد إلا..
- \_وأنت تصدق ذلك!
- ـ لا. . لا. . ولن أسامحك إذا توهمت ذلك . .

\* \* \*

تساءلت في طريق عودتي إلى الإسكندرية: هل أستحق نعمة الحياة؟. إنى أبحث عن حل لمتناقضات شتى، حل عسير فيما يبدو. فلم لا يكون الموت هو الحل الأخير؟. وأردت أن أجلس بعض الوقت في التريانون ولكنني لمحت من الخارج سرحان البحيرى وحسني علام جالسين يتحادثان فعافتهما نفسي وعدلت عن الدخول. كانت سحب متقاربة الألوان تركض بسرعة ملحوظة وهي دانية، والهواء يهب في دفعات منعشة. سرت والكورنيش متحديا وقد ارتفع الماء وتطاير رشاشه إلى الطريق. وقلت لو أنني كنت أملك أشياء ثمينة لحطمتها. وقلت إن التوازن لن يرجع إلى الأشياء إلا بزلزال شامل.

وجاءتني زهرة بالشاي. قالت لي باعتداد الواثق من اهتمامي بشئونها:

\_ جاء أهلي ليأخذوني ولكنني رفضت. .

ورغم فتور مشاعري عامة فإن اهتمامي بزهرة لم يمت، فقلت لها:

\_أحسنت!

- حتى الرجل الطيب، عامر بك، نصحني بالرجوع إلى القرية. .

\_إنه يخاف عليك، هذا كل ما هنالك.

فرمقتني بإمعان ثم قالت:

ـ ولكنك لا تبتسم كعادتك!

ابتسمت إليها بلا روح فقالت:

\_أنا فاهمة!

\_ فاهمة؟

ـ نعم، سفرك كل أسبوع وانشغال بالك؟

ضحكت على رغمي فقالت بسعادة:

\_أتمنى أن أشهد فرحك!

ـربنا يسمع منك يا زهرة. .

وتم التفاهم على ضوء نظرة متبادلة. وأشارت بيدها كأنما تدعوني إلى المرح فقلت:

\_هناك شخص ينغص على صفوى . .

\_من هو؟

\_شخص خان دينه!

فحركت يدها مستنكرة.

\_وخان صديقه وأستاذه!

واصلت حركتها الاستنكارية فسألتها:

\_ هل يغفر له الذنب أنه يحب؟

فقالت مستفظعة:

\_حب الخائن نجس مثله!

انغمست فى العمل. وكلما اضطربت أعصابى أو تشتت فكرى سافرت إلى القاهرة. هنالك سعادة الحب. ولكن أى سعادة؟ لقد سعدت حقا عندما كفت عن المقاومة فتركت يدها فى يدى. ولكنى عانيت بعد ذلك شعورا محموما قلقا، وسيطرت على فكرة غريبة وهى أن الحب طريق الموت، وأننى بالإفراط فى كل شىء قد أبلغ نهاية الطريق. وقلت لها مرة:

\_أحببتك من قديم، إنك تذكرين ذلك، ثم فوجئت بخطوبتك!

فقالت بحزن:

\_ إنك تبدو مترددا فيسهل إساءة فهمك.

ثم قالت بنبرات اعتراف:

ـ قبلت فوزي تأثرا بشخصيته. إنه كما تعلم يستحق كل إكبار. .

وكان يجلس حولنا كثيرون من العشاق فسألتها:

\_وهل نحن سعداء؟

فحدجتني باستغراب وقالت:

\_ يا له من سؤال يا منصور!

\_أعنى ربما ساءك أنني جعلت منك حديث المجالس!

ـ لا يهمني ذلك أما فوزي . .

أرادت بلا شك أن تردد ما قلته مرات عن سعة إدراكه وكبر قلبه ولكنها سكتت.

وكرهت إدارة الأسطوانة من جديد. وإذا بي أسألها:

ـ درية هل داخلك الشك في كالآخرين؟

قطبت في استياء لأنها حذرتني أكثر من مرة من طرق ذلك الموضوع ولكني قلت برغبة ملحة :

\_لو فعلت لكان أمرا طبيعيا!

تحولت إلى محتجة وسألت:

ـ لم تنبش عن العذاب؟

تراجعت باسما وأنا أقول:

\_طالما أسأل نفسي عما دعاك للخروج عن الإجماع؟

فقالت بضجر:

\_الحق أنه ليس لك طبيعة الخونة!

\_ وما طبيعة الخونة؟ إنى ضعيف، إذعاني لأخى ضعف لا شك فيه، وإنى أرشح الضعفاء للخبانة. .

تناولت يدى بين يديها وقالت برجاء!

ـ لا تعذب نفسك . . لا تعذبنا . .

وقلت لنفسي إنها لا تدرى أنها أداة من أدوات التعذيب!

\* \* \*

دخلت المدام حجرتى فأيقنت من أننى سأسمع أنباء. إنها تطير بالأخبار \_ كفراشة \_ من ناحية إلى أخرى . حسن . أما سمعت يا مسيو منصور؟! . محمود أبو العباس بياع الجرائد خطب زهرة ، ولكنها رفضته!

ـ هو الجنون نفسه يا مسيو منصور!

فقلت سساطة:

\_إنها لاتحبه يا مدام . .

\_قلبها سائر في طريق خاطئ!

وغمزت بعينها. وقلت لنفسى الويل له إذا غدر بها. وتملكتني بغتة فكرة غريبة، أو رغبة منحرفة، وهي أن يغدر بها لأنزل به العقاب الذي يستحقه!

ومالت نحوي هامسة:

- انصحها من فضلك، ستعمل برأيك. . إنها تحبك. .

وأثارني فعل الحب فبذلت أقصى جهدى لكي أكظم غضبي.

\* \* \*

- إنها من أصل طيب، شبه أرستقراطي، ولكنها لم تعد قديسة،

للعمل ظروفه القهرية كما تعلم، ولولاي لأخليت شقتها وصودرت أموالها. .

\* \* \*

الريح تسفع النوافذ بوابل المطر. هدير الأمواج يقتحم أعماقى. لم أشعر بدخول زهرة حتى وضعت قدح الشاى على الترابيزة أمامى. رحبت بها لتنتشلنى من أفكارى السوداء. تبادلنا ابتسامة. قدمت لها قطعة البسكوت. وقلت ضاحكا:

ـ ها هو ثاني عريس ترفضينه!

رمقتني بحذر فواصلت قائلا:

\_ أتريدين رأيي يا زهرة؟ . إني أفضل «محمود» عَلَى «سرحان»! فقطبت قائلة :

ـ لأنك لا تعرفه. .

\_وهل عرفت الآخر كما يجب؟

فقالت بحدة:

ـ لا أحد يصدق أننى كفء له!

\_قولى ذلك لغير أصدقائك!

\_إنه لا يفرق بين المرأة وبين الحذاء!

وضحكت فقصت على نادرة من تصرفاته وآرائه. فقلت:

\_إنك تستطيعين أن تردى له التحية بأحسن منها . .

ولكنها تحب سرحان وستظل تحبه حتى يتزوج بها أو يغدر بها.

وقلت:

\_زهرة . . إني أحترم رأيك وفعلك ، بودي أن أهنئك في القريب!

\* \* \*

تخلفت عن السفر إلى القاهرة لإنجاز أعمال عاجلة وهامة. اتصلت بي درية بالتليفون مستغيثة من وحدتها المضنية.

ـ جاء دوري لمطاردتك!

فقبلت يدها، ونحن نستقل بحجرة منفردة بفلورينا، ثم أوجزت لها أخبارى المتضمنة عذرى. وكانت قلقة متوترة الأعصاب فأكثرت من التدخين، ولم أكن على حال أحسن. وقلت لها:

ـ كنت أدفن نفسي في العمل ولكني أطفو رغم إرادتي ويهمس لي صوت غريب بأن

ثمة خطأ في العمل، أو أن أمرا هاما فاتنى تدبره، وكثيرا ما أكتشف أننى نسيت شيئا ضروريا في البنسيون أو في المكتب. .

## فقالت بلهفة:

- \_ولكنني وحيدة، ولم أعد أحتمل وحدتي..
- ـ نحن في دوامة، ولا نحرك يدا لحل مشكلتنا. .
  - \_والعمل؟

تفكرت قليلا. مطاوعا المنطق وحده. ولكن أي منطق؟. لا منطق لمن تعتصره الانفعالات. كأنما كنت أنقب عن تحديات جديدة. قلت:

\_ لو سألنا العقل لأجاب بأن علينا أن نفترق أو أن نسعى إلى الطلاق!

اتسعت عيناها الرماديتان في فزع، ربما لاستجابتها لا لنفورها، وهتفت:

\_الطلاق!

فقلت بهدوء:

ثم نبدأ حياة جديدة..

\_تصرف خارق!

ـ لكنه طبيعي، وأخلاقي إن شئت. .

أسندت رأسها إلى يدها ثم سكتت معلنة إفلاسها، فقلت:

\_ألم أقل إننا لا نحرك يدا؟

ثم بعد فترة صمت:

\_ خبرینی عن فوزی لو کان مکانی؟

فقالت بصوت متهافت:

\_أنت تعلم أنه يحبني . .

\_ ولكنه لن يبقى عليك إذا علم أنك تحبينني. .

\_ألا يتسم تفكيرك بطابع نظرى جدا؟

\_ولكني أعرف فوزي، وهذا واقع!

\_تصور . . تصور أن يقول . .

\_ إنك تخليت عنه وهو في السجن، أليس كذلك؟ لا قيمة لذلك تتخلين عنه لا عن مادئه. .

تخيلته وهو مستلق على الكنبة الاستديو، يرمقني بعينيه اللوزيتين السوداوين،

ويدخن غليونه، يعالج هموما لاحصر لها ولكنه لا يشك في سعادته الزوجية! وسألتني:

- \_فيم تفكر؟
  - \_ فقلت :
- \_إن الحياة الحقة لا تجود بنفسها إلا للأكفاء . .
  - ثم تناولت يدها وأنا أقول:
  - \_ لنشرب كأسين ولنكف عن التفكير . .

\* \* \*

غبت عما حولى. صهرنى الغضب. مذ علمت بتهجم حسنى علام على زهرة صهرنى الغضب. كان يجلس معى فى المدخل عامر وجدى والمدام ولكنى لم أسمع من حديثهما إلا وشا. وعلمت أيضا بمشاجرة سرحان وحسنى فتمنيت لو أنها استمرت حتى الموت، الموت لكليهما. تمنيت أيضا أن أؤدب حسنى ولكن لم يداخلنى شك فى قدرته على سحقى فكرهته حتى الجنون. وغادرت المدام المكان فنبهتنى إلى ما حولى. نظرت إلى عامر وجدى فرأيته يرنو إلى باهتمام ومحبة فتخففت من انفعالات القتال المحتدمة فى صدرى، وتلقيت فكرة عجيبة بأن الرجل العجوز كان صديقا حميما لأبى أو لجدى. وراح يسألنى عن أحلامى فقلت باقتضاب:

\_ يخيل إلى أنه لا مستقبل لى .

فابتسم ابتسامة مجرب لكل شيء، وكأنما مر به سخطى مرات بشتى الصور، ثم قال: \_الشباب عدو الرضى، هذا كل ما هنالك.

\_لقد استغرقني الماضي فبت أعتقد أنه لا يوجد مستقبل!

قال بجدية وقد زايل الابتسام وجهه:

ـ ثمة صدمة، عثرة، سوء حظ، ولكنك تستحق الحياة بكل جدارة. .

كرهت أن أناقش معه همومي، حتى المشروع منها، فتساءلت متهربا:

\_ماذا عن أحلامك أنت يا أستاذ؟

ضحك طويلا ثم قال:

ـ نوم الشيوخ يقل للدرجة التي تنعدم فيها الأحلام، غير أني أتمني ميتة رفيقة.

\_إذن فالموت أنواع؟

\_ ماأسعد الرجل الذي نام عقب سهرة طيبة ثم لم يصح إلى الأبد!

فسألته مأخو ذا بلذة محادثته:

\_ أتعتقد أنك ستبعث ذات يوم؟

ضحك مرة أخرى وقال:

\_أجل، إذا جمعت برامجك في كتاب!

\* \* \*

يعجبنى جو الإسكندرية. . لا فى صفائه وإشعاعاته الذهبية الدافئة . . ولكن فى غضباته الموسمية . . عندما تتراكم السحب وتنعقد جبال الغيوم . . ويكتسى لون الصباح المشرق بدكنة المغيب . . ويمتلئ رواق السماء بلحظة صمت مريب . . ثم تتهادى دفقة هواء فتجوب الفراغ كنذير أو كنحنحة الخطيب . عند ذاك يتمايل غصن أو ينحسر ذيل . وتتتابع الدفقات ثم تنقض الرياح ثملة بالجنون . . ويدوى عزيفها فى الآفاق . . ويجلجل الهدير ويعلو الزبد حتى حافة الطريق . . ويجعجع الرعد حاملا نشوات فائرة من عالم مجهول . . وتندلع شرارات البرق فتخطف الأبصار وتكهرب القلوب . . وينهل المطر فى هوس فيضم الأرض والسماء فى عناق ندى . . عند ذاك تختلط عناصر الكون وتموج وتتلاطم أخلاطها كأنما يعاد الخلق من جديد .

وعند ذاك فقط يجلو الصفاء ويطيب. . إذا انقشعت الظلمات. . وأسفرت الإسكندرية عن وجه مغسول . . وخضرة يانعة . وطرقات متألقة . ونسائم نقية . وشعاع دافئ . وصحوة ناعمة . .

عايشت العاصفة من وراء الزجاج. حتى نعمت بالصفاء. شيء حدثني بأن تلك الدراما إنما تحكى أسطورة مطمورة في قلبي . . . وتخط طريقا مازال غامض الهدف . . أو تضرب موعدا في غمغمة لم تفهم بعد .

دقت الساعة الكبيرة فوضعت أصبعى فى أذنى حتى لا أعرف الوقت. ثم ترامت إلى أصوات غريبة. استمرت فى إصرار وارتفعت. مشاحنة؟.. شجار؟. إن الأحداث التى تقع فى البنسيون تكفى قارة بأكملها. وحدث قلبى بأن زهرة محورها كالعادة. وفتح باب بعنف فوضحت الأصوات تماما. زهرة وسرحان!. وثبت إلى الباب ففتحته. رأيتهما فى الصالة وجها لوجه كديكين والمدام تحول بينهما. وكان سرحان يصرخ فى غضب هادر:

\_أنا حر. . أتزوج بمن أشاء . . سأتزوج من علية!

زهرة غاضبة كبركان، عز عليها أن يعبث بها، أن تنهار آمالها ثم ترتد وهي الخاسرة. إذن قد نال أربه ويريد أن يولى وجهة أخرى. اقتربت منه ثم أخذته من يده عائدا إلى حجرتى. كان ممزق البيجاما في أكثر من موضع، دامي الشفتين. وراح يصيح:

\_شريرة متوحشة!

فطالبته بالهدوء ولكنه تمادي في الغضب وهو يقول:

\_تصور . . تريد حضرتها أن تتزوج مني!

فعدت أنصحه بالهدوء فصاح:

\_مجنونة فاجرة!

وضقت به فسألته:

\_لم أرادت أن تتزوج منك؟

- اسألها . . اسألها . .

\_إنى أسألك أنت.

نظر إلى لأول مرة في انتباه فقلت:

ـ لابد من سبب يبرر طلبها؟

تحول الانتباه في عينيه إلى حذر ثم سألني:

\_ماذا تعنى؟

فقلت بغضب:

\_أعنى أنك وغد. . .

\_أستاذ!

فبصقت في وجهه وأنا أصرخ:

\_على وجهك، ووجه كل وغد، وكل خائن. .

وسرعان ما اشتبكنا في عراك عنيف. بيد أن المدام اقتحمت الحجرة قبل أن يستفحل الضرب.

دخلت بيننا وهي تقول:

ـ من فضلكم . لقد ضقت بذلك كله . سووا خلافاتكم في الخارج لا في بيتي! وذهبت به خارج الحجرة .

\* \* \*

مظلم الرأس، مثقل القلب. مشتت الفكر، هكذا ذهبت إلى دار الإذاعة. ولما دخلت حجرتي رأيت امرأة جالسة أمام مكتبي. امرأة؟! درية!. أجل درية دون غيرها. عقدت الدهشة لساني، تسمرت أمامها لحظات، ثم انجابت الظلمات عن رأسي فهتفت:

\_ درية!

وابتسمت . يجب أن أبتسم . بل يجب أن أتهلل . وأخذت يدها بين يدى فضغطت

عليها بحنو، واجتاحتني عاطفة ثرية بالفرح، اكتسحت القلق والمخاوف التي تنهش قلبي، وقلت:

\_ يا لها من مفاجأة . . أي سعادة يا درية . .

قالت وهي تطالعني بوجه شاحب:

ـ كـان يمكن أن أنتظر يومين حـتى نلتقى ولكننى لم أسـتطع الانتظار ، واتصلت بك تليفونيا فلم أجدك!

وساورني قلق لم أعرف كنهه. جئت بكرسي فجلست قبالتها وأنا أقول:

ـ ليكن خيرا ما جاء بك يا درية. .

قالت وهي تغض البصر:

ـ بلغتني رسالة من فوزي عن طريق صحفي صديق. .

خفق قلبي. إنه الصحفى الصديق. لا خير هناك على وجه اليقين.

قالت:

- إنه يمنحني الحرية للتصرف في مستقبلي كما أشاء!

اشتد خفقان قلبى. وضح الأمر بحذافيره ولكنى صممت على تقطيره نقطة نقطة. والعجب أن الاضطراب شملنى لدرجة لم أنعم فيها بأى شعور مريح أو سعيد. بل خيل إلى أننى غير سعيد. وسألت بعناد:

\_ماذا يعنى؟

\_واضح أنه علم بأمرنا!

\_ولكن كيف؟

ـ بأى طريق كان، ليس ذلك بالمهم!

تبادلنا نظرا حائرا. شعرت بأنني أكبل بالحديد. وقلت

لنفسي كان يجب أن أحظى بقدر من السعادة أو الارتياح، فماذا جرى؟

و سألت:

ـ ترى هل غضب؟

فقالت بعصبية:

\_لقد تصرف على أي حال كما توقعت أنت!

أحنيت رأسى في تسليم ذاهل، فقالت:

\_عليك الآن أن تمدني برأيك؟!

أجل، لا يبقى إلا أن أعطيها إشارة البدء، أن تمضى الإجراءات في سبيلها. أن أبنى عش الزوجية كما اقترحت وتمنيت. ها هو الحلم يستأذنني ليتسرب إلى عالم الحقيقة. ولكنني غير سعيد، يجب أن أكون صريحا مع نفسى، بل أبعد ما يكون عن السعادة!. إنى قلق وخائف. وليس ما بي شعور بالندم أو الخجل. إنه ملتصق بذاتي دون غيرى. ملكى الشخصى. وإذا لم أكن في موقف دفاع عن سعادتي ففي أي موقف أكون؟

وقالت بنبرة لا تخلو من استياء:

\_كلما فكرت وأمسكت عن الجواب. أشعرتني بأنني منبوذة في وحدة قاتلة!

ولكنى كنت فى حاجة إلى المزيد من التدبر. وكان الخوف والقلق قد بلغا بى مبلغا لم أعد أكترث فيه لعواطفها أو حتى مجاملتها. أفقت من سحرها كأن هراوة صكت رأسى. تحررت من سيطرتها. وارتفعت فى باطنى المضطرب القلق المذعور موجة سوداء من النفور والتمرد والقسوة. لم أجد لذلك تفسيرا إلا يكن الجنون نفسه.

وتساءلت هي بحدة:

\_لم لا تتكلم؟

قلت بهدوء مخيف:

\_درية . . لا تقبلي هبته الكريمة!

حملقت في وجهي. حملقت في وجهى ذابلة غير مصدقة تعيسة غاضبة، فقلت ممعنا في وحشيتي:

- افعلى ذلك بلا تردد!

\_أنت تقول ذلك؟!

\_نعم..

\_إنه لمضحك، إنه لمبك، إنى لا أفهم شيئا. .

فقلت بيأس:

ـ فلنؤجل الفهم إلى حين . .

ـ لا يمكن أن تدعني بلا تفسير!

ـ لا أملك أي تفسير . .

انبثق شعاع غضب من أعماق عينيها الرماديتين وقالت:

\_إنك تجعلني أشك في عقلك!

\_ أعتقد أنني أستحق ذلك!

فصاحت بحنق:

- \_ أكنت تعبث بي طيلة الوقت؟
  - \_درية!
- \_صارحني . . أكنت تكذب على ؟
  - \_ أبدا. .
  - \_إذن هل مات حبك فجأة؟
    - \_أبدا . . أبدا . .
  - \_إنك تصر على العبث بي!
- ليس عندي ما أقوله، إني أكره نفسي، هذا ما يجب أن أصارحك به، وعليك ألا تقتربي من رجل يكره نفسه.
- عكست عيناها المحملقتان هبوطا في قواها الداخلية. ثم انتزعت بصرها من وجهى بازدراء وحنق. ولبثت فترة صامتة كأنما لا تدرى ماذا تصنع بنفسها. ثم تمتمت وكأنما تحادث نفسها:
- \_ إنى حمقاء. وعلى أن أدفع ثمن حماقتى. لم تشعرنى بالثقة قط، ولا الأمان، كيف تجاهلت ذلك؟. لقد دستنى في اندفاعك المجنون. أجل إنك مجنون.

تخشعت كطفل مذنب مطيع. ولذت بالصمت كذريعة أخيرة لإنهاء الموقف المعذب. تجنبت النظر نحوها. تجاهلت وقع عينيها. صوت أصابعها فوق حافة المكتب. نفخها المضطرم، تحولت إلى جثة هامدة..

وجاءني صوتها متهافتا:

\_أليس لديك ما تقول؟

فثابرت على الموت. قامت بشىء من العنف فقمت بدورى. غادرت المكان فتبعتها حتى بلغنا الطريق. وعبرناه معا. ثم أوسعت خطاها معلنة رفضها لمرافقتى فتوقفت. أتبعتها عينى كمن ينظر فى حلم. وتضخم الحلم وامتد رواقه. وتراجع الواقع حتى توارى وراء الأفق. رنوت إلى مشيتها المألوفة المحبوبة بغرابة، وبحزن، وحتى تلك اللحظة الجنونية لم يغب عنى أن ذاك الكائن المخلخل المقهور الذى يختفى رويدا فى تيار السابلة. لم يغب عنى إنه حبى الأول وربما الأخير فى هذه الدنيا. وباختفائها هويت إلى الحضيض. ورغم شقائى المؤكد فقد داخلنى ارتياح غامض غريب.

\* \* \*

البحر يترامى تحت سطح أملس باسم الزرقة فأين العاصفة الهوجاء؟ . والشمس تهوى إلى المغيب مرسلة شعاعا ماسيا يلتحم بأهداب سحائب رقيقة فأين جبال الغيوم؟ .

والهواء يلاعب سعف النخيل في غابة السلسلة بمداعبات شفافة رقيقة فأين الرياح الهوج المزلزلة؟

ونظرت إلى وجه زهرة الشاحب، ودموعها الجافة على الوجنتين. ونظرتها الكسيرة الذابلة، فخيل إلى أننى أنظر في مرآة، وأن الحياة تطالعني بفطرتها الخشنة الفظة الرهيبة، بإمكانياتها المجردة، بصمودها الصلب المغطى بالأشواك، بآمالها الخبيثة في قوقعة مسمومة الأطراف، بروحها الأبدية التي تجذب إليها المغامرين واليائسين فتقدم لكل غذاءه لقد سلبت الشرف وهجرت بلا كبرياء. أجل إني أنظر في مرآة.

رمقتني بتحذير وقالت:

ـ لا لوم ولا عتاب من فضلك.

فقلت بحزن:

\_سمعا وطاعة.

لم أكن أفقت بعد من تجربة درية المريرة، ولا وجدت الوقت الهادئ لتحليلها وفهمها. ولكنى كنت ممتلئا بها حتى الجنون. وكنت على يقين من أن العاصفة آتية لا ريب فيها. وأن ثمة ذروة للمأساة لم أبلغها بعد. وكان من المستحيل أن أبقى صامتا فقلت مواسا:

ـ قد يكون الخير فيما حصل. .

لم تنبس . . فسألتها :

\_ماذا عن المستقبل؟

تمتمت بلا روح:

\_ إنى أحيا كما ترى . .

\_وأحلامك يا زهرة؟

\_سأستمر..

قالتها بعناد وإصرار ولكن أين الروح؟ . قلت :

ـ سيذهب الحزن كأن لم يكن، وسوف تتزوجين وتنجبين أطفالا. .

قالت بمرارة:

\_ خير ما أفعل أن أتجنب جنس الرجال . .

ضحکت . أول ضحکة منذ دهر . إنهـا لا تدرى بالدوامـة التى تعـصف بى، ولا بالجنون الذى يتربص بى .

وخطرت لى فكرة، أخطرت فجأة وبلا مقدمات؟ . كلا لا شك أن لها جذورا

مطمورة لم أفطن لها. إنها جنونية ولذلك فهي مغرية. فكرة غريبة باهرة وأصيلة. وغير بعيد أن تكون هي ما أبحث عنه. أن تكون البلسم لالتهاباتي المزمنة. نظرت إليها بحنان، وقلت:

\_ زهرة، لن تطيب لي الحياة وأنت حزينة . .

اغتصبت من شفتيها ابتسامة شكر فقلت وموجة الحماس ترتفع بي درجة جديدة:

رهرة . . اطردي الأحزان . . كوني كما كنت دائما . خبريني متى أرى ابتسامة السعادة على شفتيك!

ابتسمت برأس حان. ارتفعت موجة الحماس درجة جديدة. ها هي الفتاة المنفية الوحيدة المهجورة المسلوبة الشرف. وقلت بانفعال غريب:

ــزهرة. . لعلك تجهلين كم أنك عزيزة عندى. . زهرة. . اقبليني زوجا لك!

التفتت نحوى بحركة سريعة . ذاهلة وغير مصدقة . انفرجت شفتاها لتتكلم ولكنها لم تنبس بحرف .

قلت وأنا واقع تحت سيطرة انفعالي الغريب:

- اقبليني يا زهرة . . إنى أعنى ما أقول!

قالت ولما تفق من دهشتها:

. . . . \_

ـ فلنتزوج في أقرب فرصة. .

تحركت أصابعها القوية بعصبية وهي تقول:

ـ إنك تحب واحدة أخرى!

ـ لم يكن هناك حب، إنها حكاية اختلقها خيالك، فأسمعيني جوابك يا زهرة!

تنهدت. . تنهدت وهي ترمقني في ارتياب وقالت:

ـ أنت كريم نبيل، وعطفك يدفعك في طريقه بلا تفكير، كلا، لن أقبل ذلك، وأنت لا تعنيه، كلا، لا تعد إلى ذلك. .

\_إذن ترفضينني يا زهرة؟

\_إنى أشكرك، ولكن ليس هناك طلب حتى أرفضه أو أقبله. .

\_صدقيني، أقسم لك، امنحيني وعدا. . أملا. . وسأنتظر!

قالت بإصرار ودون أن تأخذ كلامي مأخذ التصديق الحقيقي:

ـ كلا، إنى أشكر عطفك وأقدره، ولكننى لا أستطيع أن أقبله. عد إلى فتاتك، إن كان هناك خطأ فلا شك أنها هي المخطئة ولكنك ستسامحها. .

\_زهرة . . صدقيني . .

\_كلا . . لا تعد إلى ذلك من فضلك .

قالتها بإصرار رهيب، ثم تبدى الإعياء في أعماق عينيها، وكأنما ضاقت بالموقف كله فشكرتني بإيماءة وهي تمضى خارجا بتصميم قاطع.

ارتددت إلى الفراغ. نظرت فيما حولى كأنما أبحث عن غوث. متى يقع الزلزال؟ متى تهب العاصفة؟. وماذا قلت؟. كيف قلته؟. ولم؟. أيوجد شخص آخر يتخذ منى وسيطا له كلما شاء هواه؟. وكيف يمكن أن أضع حدا لذلك كله؟

\* \* \*

كيف يمكن أن أضع حدا لذلك كله ؟

كررت السؤال وأنا أغادر الحجرة بجنونى. رأيت فى الصالة سرحان البحيرى وهو يتكلم فى التليفون، ولمحت حقيبته وراء الباب مؤذنة برحيله الأبدى. نظرت إلى مؤخر رأسه المائل إلى سماعة التليفون بمقت. كأنما أنظر إلى عدو لدود ورائى. إنه يملأ حياتى أكثر مما تصورت. وإذا اختفى حقا إلى الأبد فماذا أصنع بحياتى؟. وكيف أعثر عليه مرة أخرى؟. إنه يشدنى إليه شدا. كالنور والفراشة. إنه الجرعة السامة التى قد أتداوى بها.

وارتفع صوته الرنان وهو يقول للتليفون.

\_طيب. . الساعة الثامنة مساء. . سأنتظرك في كازينو البجعة!

إنه يضرب لى موعدا. . وربما يحدد لى هدفا . إنه يدعو جنونى إلى الرقص . صوته الرنان يغريني بالانتحار . إنه يأمرني بأن أتبعه وسيمن على بانتشالي من الفراغ .

تراجعت إلى حجرتي خشية أن أندفع مع عواطفي الجامحة. ولما غادرت البنسيون لم يكن به أثر لسرحان.

ذهبت إلى أثنيوس. فكرت أن أكتب رسالة إلى درية ولكن الجنون عصف برغبتي كما عصف بعقلي.

واتخذت مجلسا في ركن البهو الداخلي بكازينو البجعة. كمن قرر الهجرة فودع المدينة وهمومها جميعا. وجدت شيئا من الراحة وشيئا من صفاء الذهن. توارى الركن وراء موائد مشغولة برجال ونساء. وطلبت كأسا من الكونياك ثم أتبعتها بأخرى وعيناى مصوبتان نحو المدخل. وقبيل الثامنة بربع ساعة جاء البطل المنشود. جاء يتقدمه طلبة مرزوق!. أكان هو الشخص الذي كلمه في التليفون؟. ومتى جمعت بينهما هذه الصداقة الطارئة؟. جلسنا على مبعدة عشر موائد من مجلسي، وجاءهما الجرسون بكونياك كذلك. وتذكرت أنني وافقت صباحا على مائدة الإفطار على اقتراح لطلبة مرزوق بأن نمضى سهرة رأس السنة في المونسنيير!. أجل وعدت بالاحتفال بليلة رأس

السنة الجديدة. ومضيت أنظر إليهما من وراء وهما يشربان ويتبادلان الحديث والضحك.

\* \* \*

حرصت على ألا يرانى ولكنه لمحنى في المرآة. تجاهلته ومضيت وأنا ألعن سوء الحظ. كانت الطريق خالية تماما وكنت أسمع أطيط حذائه ورائى. وأبطأت في السير حتى أوشك أن يدركني وكنا أوغلنا في الطريق الخالية، وحاذاني وهو يرمقني بارتياب، وتباطأ في السير حتى لا يعرض لى ظهره بلا دفاع، وقال:

-إنك تتبعنى . . لقد رأيتك من البداية!

فقلت ببرود:

\_نعم..

ازداد حذرا وهو يتساءل:

\_ لماذا؟

نزعت المقص من معطفي وأنا أقول:

\_ لأقتلك . .

تحجرت عيناه على المقص وهو يقول:

\_أنت مجنون بلا شك. .

وتوثب كلانا سواء للهجوم أو للدفاع، ومضى يقول:

\_لست بولي أمرها!

\_ليس من أجل زهرة . . ليس من أجل زهرة فقط . .

\_إذن لماذا؟

ـ لا حياة لي إلا بقتلك!

\_ولكنك ستقتل أيضا، أنسيت!

فاجتاحني شعور المهاجر الذي ودع المدينة بكافة همومها، وثملت.به . وإذا به يسألني :

\_ كيف عرفت مكانى؟

ـ سمعتك في البنسيون وأنت تتكلم في التليفون.

ـ وعزمت عند ذاك على قتلى؟

ـُ أجل .

\_ألم تعزم على ذلك من قبل؟

ذهلت، لم أجب، ولكنني لم أتراجع.

\_إنك في الواقع لا تريد قتلي!

ـ بل أريده وسأقتلك . .

ـ هبك لم ترنى ولم تسمعنى في تلك اللحظة؟

\_ولكني رأيتك وسمعتك. . وسأقتلك.

ـ ولكن لماذا؟

ذهلت مرة أخرى ولكن تأكدت نيتي على القتل ورسخت إلى الأبد. وصحت به:

\_لذلك أقتلك، خذ. . خذ. .

# \* \* \*

ترامت إلىّ ضحكة سرحان وهو يحادث طلبة مرزوق. وأكثر من مرة غادر مكانه ثم رجع إليه.

لعنت طلبة مرزوق وقلت إن مجيئه قد أفسد كل شيء. غير أنه قام بعد مضى ساعة أو نحوها فصافح سرحان مودعا وذهب. بقى سرحان وحده فتلهفت على اللحظة التى يمحى فيها العذاب. وواصل الشراب ولكنه كان يتلفت كثيرا نحو مدخل المكان. ووضح في لفتاته التوتر والقلق. أينتظر شخصا آخر؟. هل يجيء الآخر فيضيع الفرصة إلى الأبد؟

ودعاه الجرسون إلى التليفون فمضى مسرعا ملهوفا. غاب بعض الوقت ثم رجع إلى مجلسه واجما متجهما. رجع فى الحقيقة متهدما. ماذا حدث؟. لم يجلس، دفع حسابه ثم غادر المكان. راقبته من الزجاج الفاصل بين البهو والداخل فرأيته متجها نحو البار، ربما لمزيد من الشراب. تربصت به حتى فارق مكانه ماضيا نحو الباب الخارجى فغادرت مجلسى فى هدوء وتمهل. ولدى خروجى كان قد عبر الطريق. أحكمت المعطف حولى اتقاء لهواء خفيف ولكن لاسع كالسياط. الطريق خال تماما، وأضواء المصابيح متلفعة بهالات من الضباب، وهسيس النبات على الجانبين يخرق الصمت الشامل. سرت حذرا، أكاد ألاصق الجدران، ولكنه بدا غائبا فى أفكاره ذاهلا عما حوله منهمكا بكليته فى عالم وحده، حتى إنه نسى المعطف مطروحا على ذراعه. ماذا حصل؟. لقد ظل طيلة الوقت يتحدث ويضحك فماذا قلبه؟. أما أنا فقد تركزت فى فكرة واحدة كأنما هى وجه الحلاص الوحيد لى. وإذا به يميل إلى الطريق الزراعي الموصل للبالما. طريق خال ومظلم، مهجور تماما فى تلك الساعة، ماذا يروم منه؟ وأى قضاء يتصرف كأنما ليسلم عنقه بين يدى؟!. أسرعت قليلا حتى لا أضله وأنا ألامس سياج الحدائق، وقد غرقنا معا عنقه بين يدى؟!. أسرعت قليلا حتى لا أضله وأنا ألامس سياج الحدائق، وقد غرقنا معا فى الظلام. وجعلت أتوثب وأنا أتابع شبحه، ولكنه توقف فجأة فوقفت عن التقدم وأنا

أرتعد. سيقع شيء ما. ربما جاء شخص غريب، على أن أنتظر. وإذا بصوت يندعنه كلمة . . إشارة صوتية . قيء! . وتحرك ببطء مسافة قصيرة ثم سقط على الأرض . سكران مخمور . لقد شرب فوق طاقته وها هو يفقد الوعي . وانتظرت وأنا أرهف السمع ولكن لم يقع شيء. اقتربت منه حتى كدت أعثر به. انحنيت فوقه، أردت أن أناديه ولكن صوتى انحبس. لمست جسمه ووجهه فلم يستجب غرق تماما في غيبوبة الخمر، وسوف يفارق العالم بلا ألم أو خوف. كما يتمنى عامر وجدى العجوز. هززته برفق فلم ينتبه، هززته بشيء من الشدة فلم ينتبه أيضا، حركته بعنف فلم تبدر منه بادرة أمل في إفاقة. انتصبت قامتي في حنق. دسست يدى لأستخرج المقص ولكني لم أجد له أثرا. فتشت عنه في جميع مظانه عبثا. أسهى على أن آخذه! . كنت مضطربا، متأزما، يائسا، ثم جاءت المدام لتستطلع رأيي في سهرة رأس السنة. أجل، لقد غادرت الحجرة دون أن أحقق الغرض الوحيد من رجوعي إليها. تضاعف غضبي على نفسي، تضاعف غضبي على السكران المنعم بغيبوبة لا يستحقها. ركلته في جنبه. ركلته مرة أخرى بقوة أشد. ركلته الثالثة بعنف. وجن جنوني فانهلت عليه بطرف الحذاء في شتى أطرافه حتى أفرغت غضبي وهياجي. تراجعت إلى السياج وأنا أترنح من الإعياء مرددا: «لقد قضيت عليه». كنت أتنفس بصعوبة وأشعر بتقزز، وسيطر على إحساس مضن بأنني مجنون يمارس حركات جنونية عنيفة في الظلام. وتذكرت درية. تذكرتها وهي تنظر في أعماق عيني، وهي تضيع في زحمة الطريق. .

ورجعت إلى البنسيون مشيا على الأقدام. تخيلت زهرة وهي تغط في نوم مرهق ثقيل خانق.

وتناولت حبة منومة ثم استلقيت على الفراش.

\* \* \*

دفعنى بإصرار وهو يقبض على منكبى فصرخت غاضبا: \_ إنك تقضى على إلى الأبد.

# ع سرحان البحيسري

هاى لايف.

معرض أشكال وألوان مثير للشغب، شغب البطون والقلوب. موجة هائلة من

الأنوار الباهرة تسبح فيها قدور فواتح الشهية، العلب الحريفة والمسكرة، اللحوم المقددة والمدخنة والطازجة، الألبان ومستخرجاتها، القوارير المضلعة والمنبسطة والمبططة والمربعة والمنبعجة المترعة بشتى الخمور من مختلف الجنسيات.

لذلك تتوقف قدماي بطريقة أتوماتيكية أمام كل بقالة يونانية.

- وهواء الخريف يلفحنى بدسامته الجنسية. وعيناى ترنوان إلى الفلاحة بين الزبائن أمام الطاولة. طوبى للأرض التى غذت وجنتيك ونهديك. وأنا أراجع أسعار القوارير لمحتها. امتد إليها بصرى من موقفى فوق الطوار، مارا فوق برميل الزيتون، نافذا من فرجة بين الهيج والديوارس، مائلا عن قطاعة البسطرمة، حتى استقر على عارض وجهها الأسمر المرفوع إلى البقال ذى الشارب البلقاني. وقد تأبطت حقيبة من القش المجدول ملئت بالمشتريات، وقد برزت من جانب غطائها رأس زجاجة الجوني ووكر.

تصديت لها وهي تغادر المحل فتلاقت عينانا، ارتطمت نظرتها المستطلعة الصلبة بنظرتي الضاحكة المعجبة. سارت في طريقها فسرت وراءها ولا غاية لي إلا تحية الجمال ذي العبير الريفي الذي أحبه. تعرضنا في طريق الكورنيش لدفقات هواء الخريف المشعشع بالشعاع الواني الغارب، وهي تتقدمني في مشية عسكرية سريعة حتى انعطفت فيما وراء عمارة الميرامار. التفتت ناحيتي وهي تمرق إلى مدخل العمارة فتلقيت نظرة عسلية محايدة!

وتذكرت موسم جني القطن في قريتنا. .

\* \* \*

كان عبيرها قد تبخر من نفسي أو كاد عندما رأيتها للمرة الثانية في نهاية الأسبوع. لمحتها أمام معرض محمود أبو العباس وهي تبتاع الجرائد. أدركتها قبل أن تذهب وأنا أقول:

ـ صباح الفل. .

رد محمود أبو العباس التحية دونها ولكنها نظرت نحوى فتلقيت نظرتها بعين صقر تود أن تشدها إليها إلى الأبد. سرعان ماذهبت وقد هيجت عبيرها من جديد فملأ حواسي جميعا، وقلت لمحمود:

\_ هنيئا لك!

فضحك في براءة فسألته:

\_ من أين؟

فأجاب دون مبالاة:

\_ تعمل في بنسيون ميرامار!

رددت إليه مبلغا كنت اقترضته في زنقة من مطالب الأسرة ثم مضيت أتمشى حول الفسقية في انتظار المهندس على بكير. فلاحة حلوة، حلوة بكل معنى الكلمة، وها هي تسلب لبي. انتشيت بالانفعال وشعاع الشمس وبالوجوه الكثيرة الواقعة في حبائل الانتظار حولي.

وتذكرت موسم جنى القطن في قريتنا.

\* \* \*

جاء على بكير حوالى العاشرة صباحا فذهبنا إلى مسكنى بشارع الليدو بالأزاريطة. كانت صفية قد ارتدت ملابسها فذهبنا إلى سينما مترو. غادرنا السينما في الواحدة بعد الظهر فسبقاني إلى الشقة وذهبت إلى هاى لايف لابتياع زجاجة نبيذ قبرصى.

رأيت الفلاحة واقفة تستبضع. كملاطفة الأحلام وابتسام الحظ. شيء نبهها إلى وقفتى فيما وراءها فالتفتت مستطلعة فرأت وجهى المبتهج. أرجعت رأسها ولكننى لمحت في مرآة تتوسط أسرابا من قوارير الخمر ابتسامة انفرجت عنها شفتاها الورديتان. رأيت فيما يرى الحالم اليقظان نفسى مقيما في البنسيون، أستمتع فيه بالدفء والحب. لقد تسللت إلى نفسى أنعشت قلبى كما حدث له مرة في كلية التجارة. وهذه الابتسامة صريحة كشمس النهار المشرق. فلاحة. . بعيدة عن منبتها . غريبة في بنسيون . . غريبة كالكلب الضال الأمين في سعيه وراء صاحب .

وقلت لها ونحن نغادر المحل:

\_لولا ضوء النهار لأوصلتك. .

فقطبت ساخرة وهي تقول دون غضب حقيقي:

\_دمك خفيف!

فحلمت أحلاما سعيدة بعبير الريف والحب البكر . .

\* \* \*

وجدت على بكير متربعا فوق شلتة بحجرة الشلت، وصفية تعد الطعام في المطبخ. ارتميت إلى جانبه ثم وضعت الزجاجة أمامي وأنا أقول:

ـ نار . . هذا هو آخر تعريف علمي للأسعار . .

شد على ذراعى ثم سألنى:

ـ مرت أزمة العام الدراسي الجديد؟

\_مرت ولكن بغير سلام . .

أخبرته ذات يوم بتنازلي لأمي وإخوتي عن إيراد ميراثي من الأرض البالغ أربعة أفدنة ولكن ما الفائدة؟!

وقال مشجعا:

\_مازلت في مقتبل العمر والحياة، وأمامك مستقبل باهر..

فقلت في ضجر:

ـ حدثني عن الحاضر من فضلك، وخبرني بالله عن معنى الحياة بلا فيللا وسيارة وامرأة؟

ضحك على بكير موافقا، وسمعت صفية حديثي وهي قادمة بالصينية فرمتني بنظرة ضارية وخاطبت المهندس قائلة:

ـ لا ينقصه شيء ولكنه جاحد ابن جاحدة!

فتراجعت قائلا:

ـ لا أملك في الواقع إلا المرأة!

قالت صفية متشكية:

- نحن نعيش عيشة مشتركة منذ أكثر من عام، عزمت على تعليمه الاقتصاد فجرفنى معه إلى التبذير!

شربنا وأكلنا ونمنا.

وغادر ثلاثتنا المسكن قبيل الغروب فذهبت صفية إلى الجنفواز، وذهبت وعلى بكير إلى الكافيه دى لابيه. سألني ونحن نحتسى القهوة:

ـ أما زالت تطمح إلى الزواج منك؟

\_مجنونة . . ماذا تتوقع من مجنونة ؟

\_ أخاف أن . .

- نجوم السما أقرب إليها مني، ثم إنني مللتها جدا. .

نظرنا من الزجـاج إلى جـو رائق . شـعـرت بعـينى على بكيـر وهـمـا تتـحـولان إلىّ فتجاهلتهما وأنا أستشعر نذير الخطر . ومالبث أن قال :

\_لندخل في الجد. .

حولت نظري إليه. صرنا وجها لوجه. لا مفر الآن ولا مهرب. قلت:

لندخل في الجد. .

فقال في هدوء غريب:

\_حسن ، تمت دراسة الموضوع بدقائقه!

انقبض قلبي.

انقبض قلبي. نظرت إليه بتسليم واهتمام وقلق. قال:

ـ أنا المهندس المختص وأنت المشرف على حسابات القسم، سواق اللوري مضمون، وكذلك الخفير، لم يبق إلا أن نجتمع للقسم على القرآن. .

ضحكت رغما عنى. نظر إلى متسائلا، ثم أدركت النكتة التى أفلتت منه بلا قصد. ضحك أيضا، ثم قطب قائلا:

\_ليكن، إنه مال بلا صاحب، تصور ما يعنيه لورى من الغزل في السوق السوداء، عملية مأمونة ويمكن أن تتكرر أربع مرات في الشهر. .

رحت أفكر وأحلم. وواصل على حديثه قائلا:

- الخطوات المشروعة سراب، صدقنى. ترقيات وعلاوات ثم ماذا؟ بكم البيضة؟ . . بكم البدلة؟ وها أنت تتحدث عن فيللا وسيارة وامرأة، حسن، أفتنى إذن؟ وقد انتخبت عضوا فى مجلس الإدارة فماذا أنتخبت عضوا فى مجلس الإدارة فماذا جد؟ وتطوعت لحل مشكلات العمال فهل فتحوا لك أبواب السماء؟ والأسعار ترتفع والمرتبات تنخفض والعمر يجرى، حسن، ما الخطأ؟ كيف وقع؟ أنحن أرانب معمل؟! عزيزى . . اعدلنى على القبلة . .

سألته وصوتي يقع من سمعي موقع الصوت الغريب:

\_متى نشرع في العمل؟

ـ لن نبدأ قبل شهرين وربما ثلاثة، يجب أن يكون التخطيط أساس عملنا، وبعدها حياة خالد الذكر هارون الرشيد!

رغم أن مقاومتي الحقيقية كانت قد انهارت من زمن بعيد إلا أن قلبي ناء بهم ثقيل. وجعل ينظر في عيني ببصر حاد. ثم سألني:

\_هه؟

فانفجرت ضاحكا. ضحكت حتى دمعت عيناي، وطالعني وجهه طيلة الوقت صلبا باردا متسائلا. ملت نحوه فوق المائدة ثم همست:

ـ أوكى أيها الزميل العزيز . .

شد على يدى ثم ذهب. لبثت وحدى موزعا بين أفكارى.

\_أستاذ. . سأحتاج قريبا إلى خبرتك . .

سألته عما يريد فقال:

\_سأشترى\_إن شاء الكريم\_مطعم بنيوتي عندما يقرر السفر إلى الخارج. .

ذهلت حقا. نظرت إلى معرضه المكتظ بالكتب والجرائد والمجلات، هل مكنه حقا من ادخار ما يبتاع به مطعم بنيوتي؟ . وسألته:

\_ماذا تريد منى وأنا لا أعرف عن الطعام إلا أنه يؤكل؟

\_أن تساعدني في الحسابات . .

وعدته خيرا، ثم خطر لي أن أبيع الأفدنة وأشاركه، فسألته:

\_لعلك تحتاج إلى شريك؟

فأجاب بنفور واضح:

\_كلا، لا أحب الشركة، ولا أريد للمطعم أن يكبر فيلفت نظر الحكومة!

\* \* \*

ذهبت إلى المقر العام للاتحاد الاشتراكي فاستمعت إلى محاضرة عن السوق السوداء، أعقبتها مناقشة عامة. ولما انفض الاجتماع سمعت صوتا يناديني وأنا ماض نحو الباب الخارجي. توقفت في تيار الزحام وأنا أتلفت فرأيت رأفت أمين مقبلا نحوى. لم أكن رأيته منذ عهد الدراسة بالجامعة فتصافحنا بحرارة، وسرنا في الزحام حتى خرجنا إلى الطريق. أخبرني بأنه حضر الاجتماع باعتباره مثلى عضوا في الوحدة الأساسية لشركة المعادن المتحدة. واتجهنا نحو الكورنيش بإغراء من لطافة الجو، ولما خلونا إلى أنفسنا أو كدنا أغرقنا في الضحك معا. ضحكنا بلا مناسبة ظاهرة ولكن بدافع من ذكريات مشتركة لم يكن في الإمكان نسيانها أو تجاهلها. ذكريات اجتماعية مماثلة، شهدناها جنبا لجنب، فصفقنا معا وهتفنا معا. حدث ذلك عندما كنا عضوين في لجنة الطلبة الوفديين بالكلية. أتذكر؟. طبعا منذا ينسي؟ كنا وقتذاك أعداء الدولة. أجل. . أما اليوم فنحن الدولة. وجرى الحديث هكذا بين الماضي والحاضر حتى قلت له:

ـ لا أصدق أنك \_ أنت بالذات \_ تبرأت من وفديتك؟

فعاوده الضحك وهو يقول:

ـ وأنت لم تكن وفديا مخلصا، واحدة بواحدة والبادي أظلم. .

ثم لكزني بكوعه متسائلا:

\_ولكن أأنت اشتراكي مخلص؟

ـ طبعا. .

\_لم من فضك؟

ـ للثورة أعمال لا يسع الأعمى إلا الإقرار بها.

\_والبصير؟

فقلت بجدية:

\_ إنى أعنى ما أقول.

\_إذن فأنت ثورى اشتراكى؟

ـ بلا أدنى شك .

\_مبارك، خبرني الآن أين نقضي ليلتنا؟

فدعوته إلى الجنفواز. سهرنا حتى منتصف الليل. أردت أن انتظر صفية ولكنها أخبرتني بأنها مدعوة للذهاب مع زبون ليبي.

\* \* \*

كنت خارجا من سينما ستراند عندما رأيت الفلاحة الحلوة. كانت قادمة من شارع صفية زغلول بصحبة عجوز يونانية. رائقة السمرة ساحرة النظرة ريانة الشباب. كان الطوار مكتظا بالخلق، والهواء يهب منعشا حاملا رائحة البحر، وهالة ضخمة من القطن المندوف تغشى القبة فتضفى على الجو لونا أبيض ناعسا ناعما كبهجة الرضى. مضتا تشقان طريقهما وسط الزحام فتراجعت خطوة موسعا وأنا أحيى بإغماضة من عينى. ابتسمت بحذر، أجل. استجابت باسمة فى حذر. وقلت لنفسى إن الصنارة قد نشبت. وشاع فى نفسى سرور كالسائل العذب الذى يخالط الريق بعد مضغ الفول الأخضر البكر الطازج المقطوف لتوه من الأرض الخضراء.

\* \* \*

اختلست من وجهها نظرة وأنا أحتسى قهوة الأصيل. كانت عيناها منتفختين محمرتين من أثر النوم العميق، وشفتاها الغليظتان منفرجتين، في أقبح أحوالها كالعادة، وغافلة تماما عما دبرت لها. فقلت بلهجة أسيفة مصطنعة:

ـ صفية . .

رمقتني مستطلعة فقلت:

\_جدت ظروف سخيفة ولكن علينا أن نتوافق معها؟

فاستقرت في عينيها نظرة حذرة، وهزت رأسها داعية إياى إلى الإفصاح فقلت:

ـ سنضطر إلى تغيير نظام حياتنا، أعنى الإقامة في شقة واحدة!

قطبت فتجمع الغضب بين حاجبيها كما يتجمع ماء المطر في نقرة مطينة وتحفزت للنضال، فقلت :

-إنها كارثة ، كارثة تماما بالنظر إلى أزمة المساكن ، ولكن زميلا في الشركة لمح

لى، أجل، حدثتك مرة عن الرقابة الإدارية، ولا شك أن مستقبلك يهمك كما يهمنى.

قالت بضيق محتجة:

ـ ولكن مضى على حياتنا المشتركة حوالي عام ونصف.

ـ كانت أهنأ أيام حياتي، وكان يمكن أن تمتد إلى الأبد دون أن يدري بها أحد. .

ونظرت في قعر الفنجال كأنما أقرأ البخت ثم واصلت قائلا:

\_ولكن سوء الحظ أدركني، سأرجع إلى شقة العازب المبعثرة، وربما اضطررت إلى الإقامة في فندق حقير أو بنسيون مزعج . .

نفخت بوحشية وقالت:

. يوجد حل، يوجد حل، ولكنك خسيس ابن حرام!

- أنا رجل صريح، أحبك حقا، وسأحبك حتى آخر يوم في حياتي، ولكني قلت لك من أول يوم إن الله لم يخلقني للزواج. .

ـ لأنه خلقك ناقص المروءة. .

ـ وإذن فلا داعي للرجوع إلى مناقشات لا خير فيها. .

تفرست في عيني كأنما لتنفذ إلى أغوارهما، ثم قالت:

ـ تريد أن تهجرني . .

فبادرتها:

ـ صفية ، أنا رجل صريح، لو في نيتي أن أهجرك لقلتها بصريح العبارة وذهبت. .

ران الكدر على روحها ووجهها، وضاعف العبوس من دمامتها العابرة، فتمنيت أن تعافني وتكرهني ليذهب كل منا إلى حال سبيله.

وقلت لنفسى إنه عند الحساب ستتعادل كفتانا. كانت حياتنا مشتركة بكل معنى الكلمة عدا المجاملات التى كانت تنفحنى بها فى المناسبات والتى عجزت لظروفى الخاصة عن ردها. غيرى آخرون يستغلون عشيقاتهم استغلالا فاحشا. الحق أنى لم أعتد بذل النقود للنساء. وعلى أى حال فإنى أتوقع معركة ختامية، وقد جربت ذلك أكثر من مرة. وقد عرفت الحب فى الكلية ولكنى جئت متأخرا فضاعت الفرصة. فرصة سعيدة كانت. جميلة وذات مستقبل وكريمة لطبيب تتدفق عليه أموال المرضى، ولكن ما فائدة «لو»؟

ها هو قلبي يخفق مرة أخرى. أجل. . إنى أحب الفلاحة. مجرد شهوة كالتي ساقتني إلى صفية في الجنفواز.

\_أريد حجرة لإقامة طويلة.

تجلت نظرة ارتياح في العينين الزرقاوين المستطلعتين، ثم تراخت مستندة إلى ظهر الكنبة تحت تمثال العذراء. في لفتاتها رشاقة متخلفة عن ماض سعيد، وشعرها الذهبي المصبوغ يشي برغبة مزمنة في التشبث بذلك الماضي. ساومتني بصراحة تجارية مؤكدة الأسعار الخاصة بالصيف.

\_ ولكن أأنت قادم جديد إلى الإسكندرية؟

لم يكن سؤالا عارضا ولكنه حلقة من سلسلة استجواب طويل مفهوم. جاريتها لأوثق علاقتى بها فقدمت لها اعترافا بعملى وسنى وبلدتى وحالتى الاجتماعية. فى أثناء ذلك رجعت الفلاحة من مشوار خارجى، رأتنى فخفضت عينيها، أدركت حقيقة الموقف بنظرة واحدة، ومضت متعثرة فى ارتباكها، ولكن المدام لم تفطن بطبيعة الحال إلى ارتباكها، ولا رأت تورد خديها. وعندما تقدمتنى إلى الحجرة الخالية \_ آخر حجرة خالية مطلة على الشارع \_ كنا بمثابة صديقين ترجع صداقتهما إلى عهد غابر فى الزمان.

\* \* \*

تفقدت الحجرة بارتياح ثم جلست على المقعد الكبير مستبشرا. عرفت من مجلسى ودون سؤال اسم الفلاحة وهي تنادى. وما لبثت أن دخلت حجرتي حاملة الملاءات والأغطية لتعد السرير. مضيت أراقبها بسعادة متفحصا أجزاءها بعناية وشغف، الشعر والقسمات والقامة. يا سيدى أبو العباس البنت جميلة، جميلة لدرجة السحر، وتملك شخصية أيضا. أرادت أن تختلس منى نظرة ولكن عيني كانتا لها بالمرصاد. وابتسمت قائلا:

\_أنا سعيديا زهرة. .

استمرت في عملها كأنها لم تسمعني فقلت:

ربنا يطول عمرك فقد أرجعت إلى الريف الذي جئت منه. .

ابتسمت فقلت:

\_محسوبك سرحان البحيري يا زهرة. .

فلم تملك أن سألت:

\_بحيرى؟

ـ من فرقاصة بالبحيرة . .

كتمت ضحكتها وهي تقول:

\_أنا من الزيادية . .

فهتفت بنشوة كأنما وحدة المحافظة معجزة قد وجدت لضمان سعادتي وحبى:

ـ يا ربنا . .

وكانت انتهت من عملها فهمت بمغادرة الحجرة فرجوتها قائلا:

- ابقى قليلا فلدى الكثير مما أو د قوله .

ولكنها حركت رأسها بدلال برىء ثم ذهبت. سعدت بتنكرها لرجائي واعتدته معاملة «خاصة» لا يمكن أن تعامل بها «زبونا» مجردا. نعم إنها ثمرة ناضجة وما على إلا أن أقطفها ولكن جسمها برىء فيما يبدو ولا علم لى باستعداداتها. إنى أحبها، ولا غنى لى عنها. وددت أن يضمنا مسكن واحد بعيدا عن هذا البنسيون الذي لا يخلو عادة من متطفلين ثقلاء.

# \* \* \*

على مائدة الإفطار تعرفت بعجوزين غريبين. أكبرهما حى ميت، مومياء، ولكنه لا يخلو من مرح، وهو \_ كما قيل \_ صحفى قديم. والآخر طلبة مرزوق ، ليس اسمه بالغريب على أذنى وإن كاديمحى، وهو ممن وضعوا تحت الحراسة، ولا علم لى بما جاء به إلى هذا البنسيون. وقد أثار تطلعى من أول الأمر، فكل شاذ مثير سواء كان مجرما أو مجنونا أو محكوما عليه أو موضوعا تحت الحراسة، إلى ذلك كله فقد كان من الطبقة التى علينا أن نرثها بطريقة ما. ها هو يخفى عينيه فى قدح الشاى، متجنبا النظر نحوى، عن حذر أو كبرياء. وتلاطمت فى نفسى \_ حياله \_ أحاسيس متباينة تتراوح ما بين الشماتة من ناحية والرثاء من ناحية أخرى، غير أن إحساسا منها استقر فى وضوح وهو ذعرى الغريب من فكرة مصادرة الثروات، كأنما أومن بأن من يقتل مرة قد يعتاد القتل!.

وأراد عامر وجدى أن يجاملني فقال:

\_ يسرني أنك من رجال الاقتصاد، إن الدولة اليوم تعتمد أول ما تعتمد على الاقتصاديين والمهندسين. .

تذكرت على بكير فلم أهنأ بالثناء. وعاد العجوز يقول:

ـ على أيامنا كان جل اعتمادها على بلاغة البلغاء!

ضحکت هازئا متوهما أنى بذلك أجارى رأيه غير أنه استاء فيما بدا فأدركت أنه لم يكن ينتقد، ولكنه كان يؤرخ. وراح يقول مدافعا عن جيله:

\_ يا بنى. كان هدفنا إيقاظ الشعب، والشعوب تستيقظ بالكلمات، لا بالمهندسين ولا بالاقتصاديين!

وسرعان ما تراجعت قائلا في اعتذار:

ـ لو لم يقم جيلكم بواجبه لما تحقق لجيلنا وجود! وظل طلبة مرزوق ملازما الصمت.

\* \* \*

قلبى يستيعد براءته وفتوته. مثل هذا الصباح المشرق. مثل زرقة البحر صافية. مثل هذا الدفء المبارك. وحب الحياة يتردد مع أنفاسى، يجرى مع ريقى، ينعش روحى بفرح ونهم. عملت نهارا طيبا بالشركة ثم تناولت الغداء مع صفية فى مسكنى القديم. نظرت إلى ببصر فأسدلت على وجهى قناع الكآبة. شكوت إليها وحشة البنسيون وبرودته. حياة لا تحتمل يا عزيزتى ولذلك وصيت سمسارا بالبحث لى عن شقة.

وترددت ألفاظ مألوفة مثل خسيس وابن حرام، ولما آن لنا أن نستريح بعد الغداء ساءلت نفسي متى أتحرر من السخرة؟ .

ولمحت زهرة وهي تحمل القهوة إلى حجرة عامر وجدى. دقت الساعة الكبيرة الخامسة مساء فطلبت قدحا من الشاي. جاءتني منورة كالنرجسة. أو أغنية تتغنى بسواد الشعر وصفاء السمرة وشهد العين. لمست يدها وأنا أتناول القدح وهمست:

\_ من أجلك سجنت نفسي في هذه الحجرة. .

قطبت لتدارى عواطفها ثم استدارت لتذهب فقلت لها قبل أن تختفي عن ناظرى:

\_أحبك . . لا تنسى ذلك أبدا . .

ولكنها استجابت لمحادثتي عصر اليوم التالي. رغبت أن أعرف عنها أقصى ما يسعني معرفته فسألتها:

\_ماذا جاء بك من الزيادية إلى هنا؟

أجابت باللهجة الريفية الأليفة .

\_الرزق. .

وحدثتني عن أهلها، وظروف هربها، والتجائها أخيرا إلى المدام بوصفها عميلة أبيها. قلت بإشفاق:

\_ولكنها خواجاية . . والبنسيون كما تعلمين سوق!

قالت بثقة واعتزاز:

\_عرفت الحقل والسوق!

ليست بالغرة ولا بالهشة. ولكن هل آخذ القصة بحرفيتها. إن اللاتي يهربن من القرية إنما يهربن من القرية إنما يهربن . . هه؟! وقلت وأنا أرامقها مفتونا بها:

\_حدث ذلك كله لكى نلتقى هنا!

رمتني بنظرة مستطلعة لا تخلو من ارتياب ولكنها ندية بالميل، فقلت:

\_أحبك. هذا ما أود قوله ولا أمله يازهرة. .

قتمت:

\_ كفاية!

لن أكف حتى أسمع مثلها من شفتيك، حتى تطمئن إلى حضني . .

\_أهذا ما تفكر فيه؟

ـ لن يكون لشيء طعم حتى أناله . .

ذهبت بوجه صاف لا أثر فيه للكدر أو الغضب. هنأت نفسي على بلوغ المراد. . ووجدتني أجتر حنيني القديم إلى الزواج، إنه لحنين قديم، وقد فاض من جديد كنبع يتفجر. أود من أعماقي يا زهرة لولا. . أجل لولا، سحقا للبديهيات السخيفة القاتلة!

# \* \* \*

انضم إلينا شابان جديدان. حسنى علام ومنصور باهى. تطلعت إلى التعرف بهما بغريزة لا تنهى عن الإكثار من المعارف والصحاب، ودائما تنظر إلى الوجه الجديد بعين صياد. وحسنى علام من أسرة قديمة بطنطا، وجيه من الوجهاء، ومالك لمائة فدان، جميل الوجه قوى البنيان، كما يتمنى أى واحد منا أن يكون. وأنا قد أكره فكرة طبقته ولكنى أفتن بأى شخص منها إذا ساقتنى الظروف الممتازة إلى صحبته. ومن السهل تخيل الحياة التى يمارسها شاب مثله رغم تغير الأحوال، فإن يكن بعد ذلك كريما كما ينبغى له فحدث عن الليالى الملاح بغير حساب.

أما منصور باهى فنوع آخر من الشبان. إذاعى بمحطة الإسكندرية وشقيق ضابط كبير من رجال الأمن. ذاك جميل ومفيد أيضا ولكنه يبدو ملتصقا بذاته فوق ما يتصور العقل. إنه تمثال دقيق جيد الصنع ذو ملامح بريئة لا يحظى بها عادة إلا طفل. أين يمكن العثور على مفتاحه أو الاهتداء إلى الدرب الضيق الوعر الموصل إلى قلبه. ما أكثر الذين يفدون من القرية سعيا وراء عمل، وما أكثر المشكلات التى يتطلب حلها الاستعانة بضابط كبير من رجال الأمن!

#### \* \* \*

جذبتها من ساعدها بغتة. انتظرت حتى وضعت قدح الشاى على الترابيزة ثم جذبتها من ساعدها بغتة. اختل توازنها فتهاوت على بمجلسى على المقعد الكبير فاحتويتها بذراعى وقبلت خدها - المتاح لى من وجهها - قبلة خاطفة متوترة نهمة متعجلة. اعترضت ساعدى بيدين قويتين ثم تملصت منى. انتصبت متراجعة مقطبة. نظرت نحوها فى حذر وتوقع ثم ابتسمت مستعطفا. تجملت بالصبر فيما بدا. ثم راق وجهها وصفا كالبحر فى صباح خريف دميث. توسلت إليها بإشارة أن تقترب فلم

تلب ولم تذهب. وثبت إليها محموما برغبة مجنونة فضممتها إلى صدرى بلا مقاومة تذكر، ثم التقت شفتانا في قبلة طويلة نهمة. وهمست في أذنها ورائحة شعرها الآدمية تملأ أنفي:

\_ تعالى إلى ليلا . .

تفرست في وجهى قليلا ثم سألتني:

\_ماذا تريد؟

\_أريدك أنت يا زهرة. .

لاحظت نظرة جادة في عينيها وهي تفكر، فسألتها:

\_ستأتين؟

سألتني بمرارة:

\_ماذا تريد مني؟

أفقت قليلا من سكرتي وقلت بحذر:

\_نتحادث ونتبادل الحب!

\_لكننا نفعل ذلك الآن. .

\_ في عجلة وخوف يفسدان السرور!

\_ لا أرتاح لأفكارك!

\_إنك تسيئين فهمى!

هزت رأسها كأنما تؤكد فهمها. وذهبت وهي تبتسم رغم ذلك.

داخلني حزن وتعاسة. جعلت أقول متحسرا: لو كانت من أسرة. . لو كانت على علم أو مال! . وانهمر من لساني سيل من اللعنات. .

\* \* \*

وكانت ليلة أم كلثوم.

نازعنى المزاج إلى قضائها فى بيت على بكير لنتلقى السماع فى جو هادىء جدير به، كما دعانى رأفت أمين إلى السماع فى مسكنه، ولكنى فضلت بعد تفكير السهرة فى أسرة البنسيون لأوثق علاقاتى بأفرادها. رأيت صينية كبيرة مليئة بالشواء فتعجلت الشراب لأتزود بالشجاعة الضرورية للهجوم. وهيمن علينا جو أسطورى فأنشدت أسطورة عن «آل البحيرى» ومركز وكيل الحسابات، لا على سبيل الفخر الكاذب وحده ولكن تمهيدا للطريق أمام الثروة المنتظرة من مغامرة على بكير. وانقض علينا حديث السياسة كالقضاء المحتوم. أما سمعتم؟ . . ما قولكم؟ . . أتريدون رأيي صراحة؟ .

أدركت بالغريزة أننى ممثل الثورة، مع احتمال مشاركة منصور في ذلك. وانهال الثناء وتبادلنا الأنخاب. ولمحت زهرة فقلت لنفسى: إنها ممثلة الثورة الأولى، وتذكرت كيف دعت لها أمامى مرة وكيف لفحنى صدق الدعاء وحماسه البرىء. ترى أيرتاب منصور باهى في صدقى؟. يا صاحبى إنى بطبعى عدو أعداء الشورة ألا تفهم؟. وإنى من الموعودين ببركاتها ألا تفهم؟

# \* \* \*

لقد أغلقت من الأبواب بقدر ما فتحت..

ـ تذكر الملايين ثم احكم من جديد.

ـ حسن وما رأيك في المنعمين الجشعين؟

\_ رأيي أنهم أعداء للثورة فلا يحكم بهم عليها . .

#### \* \* \*

وقد عشقت مدام ماريانا، لا لأنها تحب غناءنا فحسب ولكنها لخفة روحها، ولأنها شريط مسجل يعيد ذكرياتها الخاصة بحنين يوناني عتيد. ومن خلال ذكرياتها رأيت لمحات من حياتي الخاصة، كالحب القديم، كحب الحياة الطيبة الناعمة. وهي ترجع في الأصل إلى قوم مهاجرين، والمهاجرون قوم وطنهم هو البلد الذي يوفر لهم السعادة.

وعامر وجدى أثر قديم اكتشفه منصور باهي. فترة جذابة من تاريخنا الذي لا نكاد نعرف منه شيئا.

وعندما نوه طلبة مرزوق بمآثر الثورة لم أملك إلا أن أحيى في نفسى نفاقه الممتع. واقتنعت بأن الإنسان رغم ابتكاراته وانتصاراته مازال غارقا حتى أذنيه في الحماقة والسخف. ولعله من المفيد أن نجمع الأعداء على فترات ليقضوا معا ليلا طويلا وهم يسكرون ويطربون ويملأون أنفسهم بأعذب الألحان.

#### \* \* \*

\_إذن فأنت لا تؤمن بوجود الجنة والنار؟

- الجنة هي المكان الذي يتمتع فيه الإنسان بالأمن والكرامة ، أما النار فهي ما ليس كذلك . .

وعندما يضحك منصور لقفشاتي يتبدى كطفل رائع، فراودني أمل بأنني سأهتدى إلى الدرب الموصل إلى قلبه، وبأن صداقة حارة ترصدنا في نهاية السهرة. أما حسني علام!، ليحيا حسنى علام، قدم وحده للسهرة زجاجتين من الديوارس. تسلطن على مقعده كعمدة، يملأ الكئوس ويوزعها، ويجلجل بضحكاته، وعندما اختفى فجأة عقب منتصف الليل منيت الجلسة بخسارة فادحة. ولم أستمتع بأم كلثوم كالعادة، ولا رددت معها بعض المقاطع، ولكن نشواتي تفاعلت كسيال كهربائي مع زهرة. عندما تجيء وعندما تذهب، وهي جالسة عند البارفان تتفرج على عربدتنا بعين داهشة باسمة. وبالنظرات المختلسة تعانقنا، وتبادلنا القبلات والأشجان

# \* \* \*

لاشك أننى رأيت هذا الرجل من قبل. كلا كان مقبلا على التريانون من ناحية شارع سعد وكنت مقبلا عليه من ناحية الميدان. سرعان ما عرفت طلبة مرزوق!. رأيته لأول مرة بملابسه الكاملة متدثرا بمعطفه والكوفية مغطيا رأسه بطربوش غامق الحمرة. صافحته بإجلال ثم دعوته إلى فنجال قهوة. أذعن لإلحاحي فجلسنا معا إلى مائدة خلف الزجاج المغلق المطل على البحر. كان الهواء يلعب بسعف النخيل المحدق بتمثال سعد وفي السماء غيم رقيق تضيء الشمس أطرافه بلون ماسي. تبادلنا حديثا عاديا لا معنى له ولا طعم، ولكني حرصت طيلة الوقت على احترامه ومجاملته والتودد إليه. شيء في أعماقي قال لي إنه لا يمكن أن يكون خالى الوفاض تماما. أجل هناك طريقة أو أخرى، ولعله يود أن يستثمر ما لديه ولكن الخوف يكبله. وقلت تفريعا عن حديث عن المعيشة:

- \_ من العبث أن يعتمد شاب مثلي على مرتب وظيفته.
  - \_وما حيلته في ذلك؟
  - خفضت صوتى كأنما أو دعه سرى وأنا أقول:
    - ـ مشروع تجارى. . هذا ما أفكر فيه. .
      - \_ومن أين لك بالمال؟
    - \_ فقلت وأنا أداري أفكاري بابتسامة بريئة:
    - \_ أبيع بضعة أفدنة ثم أبحث عن شريك . .
  - ـ ولكن هل يمكن أن تجمع بين الوظيفة والتجارة؟

# قلت ضاحكا:

- ـ على المشروع أن يبقى سرا من الأسرار .
- تمنى لى التوفيق ثم بسط الجريدة ليلقى عليها نظرة. كأنما قد نسى الموضوع تماما. جائز أن يكون صادقا، ومحتمل أن تكون مناورة، ولكن أدركني إحساس باليأس منه.
  - وأشار إلى عنوان أحمر عن ألمانيا الشرقية وقال:
- ـ لا شك أنك سمعت بعض ما يقال عن بؤس تلك المنطقة، وبخاصة إذا قورنت بالمنطقة الغربية. .

ها هو يتحدث في السياسة الداخلية بلغة السياسة الخارجية . أجبته موافقا فعاد يقول :

ـ ليس لدى روسيا ما تقدمه إلى بلد يدور في فلكها، أما أمريكا. .

\_ولكن روسيا قدمت لنا بالفعل مساعدات قيمة!

فقال بعجلة:

- الوضع مختلف، نحن لا ندور في فلكها. .

وبدا حذرا حتى ندمت على اعتراضي. وراح يقول:

- الحق أنهما - روسيا وأمريكا - سيان في رغبة التسلط على العالم، لذلك فموقف عدم الانحياز الذي اعتنقناه حكمة وأي حكمة . .

أسفت على أنه أفلت من يدى، وأنه لا سبيل إلى استرداد الأرض المفقودة قريبا. وقلت:

- الحق أنه لولا ثورة يوليو لاجتاحت البلد ثورة دموية لا تبقى ولا تذر!

فوافقني بطربوشه وهو يقول:

\_الله كبير ، وقد أنقذنا بحكمته!

\* \* \*

أين كنت؟ . لم تشرفنا منذ ثلاثة أيام . كيف تذكرتنى أخيرا؟ . لماذا تعود إلى الأشياء القديمة الموضوعة على الرف؟ . ألم أقل لك إنك خسيس وابن حرام؟ . لا توجع رأسى بالأعذار السخيفة . لا تحدثنى عن عملك الخطير بالشركة . لو كان لوزير رفيقة لما أهملها كما تهملنى . جعلت أبتسم وأصب النبيذ في كوبين وباطنى يضيق بها لحد التقزز ، ها هي تلعب معى دور الطاغية فلا بد من التخلص منها . يجب أن أتحرر منها إلى الأبد . ولكن انجابت جميعا بمقدم زهرة حاملة الشاى إلى . تعانقنا طويلا . قبلت شفتيها وخديها وجبينها وعنقها . استمتعت بشفتيها بوعى مركز وهى تطبع شفتيها على شفتى . ثم ابتعدت قيراطين عنى وهى تتنهد وتقول هامسة متشكية :

\_يخيل إلى أحيانا أنهم يعرفون . .

فقلت باستهانة ممسوس بنشوة الحب:

- لا يهمك . .

\_أنت لا يهمك شيء ولكن. .

ـ يهمني شيء واحديا زهرة..

ورنوت إليها مليا لأترجم لها ما أعنيه بعيني ثم قلت برغبة صادقة:

\_لنعش معا بعيدا عن هنا!

فتساءلت بارتياب:

\_أين؟

\_ في مسكن خاص بنا . .

لاذت بصمت متلهف على مزيد من القول، ولما لم تلق منى ما يشبع لهفتها غامت عيناها بخيبة أمل، وتساءلت:

\_عم تتحدث؟

- إنك تحبينني كما أحبك. .

قالت بصوت خافت:

\_أنا أحبك ولكنك لا تحبني. .

\_زهرة!

\_ إنك تنظر إلى من فوق كالآخرين. .

قلت بصدق كامل:

\_ إنى أحبك يا زهرة، من كل قلبي أحبك والله شهيد.

فكرت قليلا بكدر ثم ساءلتني:

\_ أتعتبرني إنسانة مثلك؟

\_وهل في ذلك من شك؟

هزت رأسها نفيا. أدركت بطبيعة الحال ما يدور بخلدها فقلت:

ـ توجد مشاكل لا حل لها. .

واصلت هز رأسها مقطبة هذه المرة عن غضب وقالت:

ـ واجهتني مشاكل كذلك وأنا في القرية ولكنني لم أخضع لها. .

لم أتصور أنها معتزة بنفسها لذاك الحد. شعرت بأن الحب يجرفني معه إلى الهاوية فغرزت قدمي في الحافة راميا بثقلي إلى الوراء. تناولت يدها بين يدى، قبلت ظهرها وبطنها، وهمست في أذنها:

ـ أحبك يا زهرة. .

كلما نظرت إلى وجه حسنى علام القوى الجميل حلمت بالليالى الملاح. ولكننى علمت ذات يوم بالمشروع الذى جاء الإسكندرية من أجل دراسته وتنفيذه فتغيرت نظرتى إليه. طلبة مرزوق وهم مناقض للواقع ومن المستحسن أن أسقطه من الحساب أما حسنى علام فرجل قد عقد العزم على العمل، وعلى أن أجد لنفسى دورا فى ذلك المشروع. ليس الأمر مجرد عمل ونجاح ولكنه قد ينقذنى فى اللحظة الأخيرة من أفكار على بكير

الجهنمية. المؤسف حقا أن حسنى علام مثل الزئبق لا يسهل القبض عليه. إنه يتحدث أحيانا عن المشروع ولكنه يهيم على وجهه طيلة الوقت دافعا بسيارته في سرعة جنونية ولا يخلو المقعد جنبه من امرأة. قلت له مرة:

\_الرجل العملي لا يضيع وقته في اللهو .

فضحك وسألني:

\_ كيف يضيعه إذن؟

فقلت بلهجة من يغير على مصلحته:

\_يدرس ويفكر ثم ينفذ.

\_جميل ما تقول، ولكنني لا يحلو لي الدرس والتفكير إلا وأنا ألهو!

ثم وهو يقهقه:

\_نحن نعيش الأيام التي تسبق مباشرة يوم القيامة!

تركته وأنا أحدث نفسى قائلا: «ياربى . . أريد أن أفيد وأن أستفيد فما عساى أن أصنع؟» .

# \* \* \*

تطايرت الشتائم بيننا كالأحجار أو كالشظايا. وصحت غاضبا:

\_كل مرة! . . هو حساب الملكين؟!

وتطايرت الشتائم بيننا. وقد ذهل محمود أبو العباس الذى صحبنى إلى بيتها ليأخذ درسه الثالث في الحساب ومسك الدفاتر. وقمت مصمما على الذهاب فمضى الرجل معى. وعند باب العمارة رجوته أن يرجع فيعلنها بأننى قررت الذهاب بغير رجعة.

ومضيت إلى ميرامار ولكنني أم أدرك أنني مطارد إلا وزهرة تفتح لى الباب. عند ذاك شعرت بيد تقبض على قفاي وصوت صفية يزعق:

ـ تريد أن تهجرني؟ . . تظنني طفلة أو لعبة؟!

تخلصت منها بجهد ولكنها كانت قد اقتحمت الشقة. قلت لها هامسا ولاهثا:

\_اذهبى . . الناس نيام!

فصرخت بصوت غليظ:

ـ تنهبني وتهرب! . . أكلتك وشربتك وكسوتك وتريد أن تهرب يا ابن الحرام!

لطمتها فلطمتني. اشتبكنا في صراع مرير. حاولت زهرة التخليص بيننا فلم تفلح فقالت لها:

\_ من فضلك . . هذا بيت محترم . .

ولما لم يجد القول صاحت بها:

\_اذهبي وإلا استدعيت البوليس!

تراجعت خطوة وهي تلتفت نحو زهرة. دهشت لنظرها.

رددت عينيها بيني وبينها، ثم هتفت بها بعجرفة:

\_أنت يا خدامة كيف. .

قبل أن تكمل عبارتها كانت يد زهرة قد صكت فاها. انقضت على زهرة فانهالت عليها لكمات الفتاة القوية حتى انهارت أو كادت. واستيقظ البنسيون ففتحت الأبواب ودبت الأقدام، وإذا بحسنى علام يسبقهم إلينا فيأخذ صفية من يدها ويذهب بها خارجا.

ذهبت إلى حجرتي أعمى من الغضب. لحقت بي المدام وهي تتساءل عما جرى في انزعاج. أعلنت لها أسفى ولكنها سألتني:

\_ من هي؟

قلت مختلقا كذبة إنقاذا للموقف:

\_كانت خطيبتي ثم فسخت خطبتها!

قالت وهي تهز رأسها:

\_إن سلوكها يثبت أنك كنت على حق في معاملتها ولكن. .

وسكتت لحظات ثم استأنفت قائلة:

\_ولكن أرجو أن تسوى حسابك معها بعيدا عن هنا!

ثم قالت وهي تغادر البنسيون:

- إنى أعيش بفضل سمعتى الطيبة!

ولما جاءت زهرة في موعدها كان وجهها ما يزال منطبعا بآثار الحادث، وقد شكرتها، واعتذرت لها عما أصابها. تبادلنا نظرات عميقة أليمة حتى اضطررت أن أقول لها:

\_لقد هجرتها من أجلك . .

سألتني بخشونة:

\_ من هي؟

ـ امرأة ساقطة، من الماضي، اضطررت إلى أن أكذب على المدام فأقول لها إنها كانت خطيبتي!

لثمت خدها في امتنان وأسف. .

صوت الريح ينطلق في الخارج كرعد متصل، جو الحجرة يقطر عصارة المساء رغم أن النهار لم يشارف الأصيل بعد، فتخيلت الغيوم المتراكمة في السماء وتخيلت جبال الأمواج. ولما جاءت زهرة ولم أكن رأيتها منذ لقاء أمس أضاءت المصباح. كنت أعاني انتظارها طيلة الوقت فبادرتها بحرارة ورجاء:

\_لنذهب يا زهرة!

وضعت القدح على الترابيزة وهي ترمقني بعتاب مر فقلت:

\_ سنعيش معا إلى الأبد، إلى الأبد. .

سألتني متهكمة:

ـ ولا توجد مشاكل في تلك الحال؟

أجبت بصراحة مؤسفة:

- المشاكل التي أعنيها إنما يخلقها الزواج!

تتمت بغضب مكتوم:

\_يجب أن أندم على حبى لك. .

فقلت بحرارة وصدق وإخلاص:

ـ لا تقولى ذلك يا زهرة، عليك أن تفهمينى، أنا أحبك، ومن غير حبك فلا معنى للحياة ولا طعم، ولكن الزواج سيخلق لى مشاكل من ناحية الأسرة ومن ناحية العمل، إنه يهدد مستقبلي فضلا عن أنه سيهدد حياتنا المشتركة، فما العمل؟

قالت بغضب أشد من الأول:

ـ لم أكن أعرف أنني يمكن أن أخلق جميع تلك المصائب:

ـ ليس أنت، لكنه الغباء، الحواجز الصلبة، الحقائق العفنة، ما العمل؟

ضيقت عينيها بحنق وقالت:

\_ما العمل حقا؟ . . أن تجعل مني امرأة مثل امرأة أمس!

هتفت بيأس:

\_ زهرة . . لو كنت تحبينني كما أحبك لفهمتني بوضوح لا لبس فيه!

فقالت بحدة :

\_إنى أحبك، خطأ لا حيلة لى فيه.

\_الحب أقوى من كل شيء، من كل شيء. .

فاعترضت ساخرة:

\_ لكنه ليس أقوى من المشاكل!

تبادلنا نظرات صامتة . أنا محموم يائس وهي عنيدة غاضبة . ولولا قوة إرادتي ، أو لولا خوفي لانهرت تماما . وفكرت بسرعة أشد من البرق ثم قلت :

\_زهرة، توجد طرق وسطى، مثل الزواج الإسلامي الأصلى!

حل التساؤل في عينيها محل الغضب فقلت وأنا لا أعرف عن الموضوع أكثر من ذكريات غامضة:

- ـ نتزوج كما كان يتزوج المسلمون الأوائل. .
  - \_كيف كانوا يتزوجون؟
- \_ أعلن بيني وبينك أنني أقبلك زوجة على سنة الله ورسوله!
  - \_ بلا شهود؟
  - \_ أمام الله وحده!

فقالت محتجة في استياء:

\_ جميع من حولنا يتصرفون وكأنهم لا يؤمنون بأن الله موجود!

ثم هزت رأسها وقالت بإصرار:

ـ لا. .

#### \* \* \*

هى عنيدة كالصلب. ليست رحلة سهلة كما حلمت. ويئست من إقناعها تماما. إنى على استعداد إذا وافقت أن أعاشرها إلى الأبد مضحيا بالزواج وآمالى المعقودة عليه. وفكرت أن أهجر البنسيون كخطوة أولى للنسيان ولكن حبها بقى عنيدا مثلها ومتشبثا بقلبى. ولم تقع بيننا جفوة. كانت تجيئنى بالشاى فى وقته ولا تصدنى إذا قبلتها أو ضممتها إلى صدرى. وقد أذهلنى أن أراها فى المدخل مكبة على كتاب المطالعة لتلاميذ السنة الأولى الابتدائية. ثبتت عيناى عليها غير مصدقتين. وكانت المدام جالسة تحت العذراء كما كان عامر وجدى مستسلما للفوتيل، فقالت لى المدام باسمة:

- انظر إلى التلميذة يا مسيو سرحان!
- وألقت عليها نظرة تشجيع وهي تقول:
- \_اتفقت مع جارتنا المدرسة . . ما رأيك؟

إنه لحدث. أو شكت لحظة على الضحك ولكن سرعان ما أخذت به فقلت بحماس:

ـ برافو! . . برافو زهرة!

وكان العجوز يرمقنى بعينيه الغائمتين فداخلنى منه خوف لا أدريه فغادرت البنسيون. بلغ بى التأثر مبلغا هز أعماقى. وصوت باطنى قال لى: إننى إذا استهنت بحب الفتاة فإن الله لن يبارك لى قط. ولكننى لم أهادن فكرة الزواج المرعبة. الحب عاطفة يمكن معالجتها على نحو أو آخر. أما الزواج فهو مؤسسة، شركة كالشركة التى أعمل وكيلا لحساباتها، له لوائح ومؤهلات وإجراءات. إذا لم يرفعنى من ناحية الأسرة درجة فما جدواه؟. إذا لم تكن العروس موظفة على الأقل فكيف أفتح بيتا جديدا يستحق هذا الاسم في زماننا المتوحش العسير؟! أما مرجع تعاستى فهو أننى أحب فتاة غير مستوفية لشروط الزواج. ولو قبلت حبى بلا قيد لضحيت في سبيلها بالزواج الذي أحن إليه منذ البلوغ!

\_همتك عالية يا زهرة!

قلت لها ذلك وأنا أرمقها بإعجاب، ثم قلت بأسف:

\_ولكنك ترهقين نفسك وتبددين أجرك!

قالت بكبرياء وهي واقفة أمامي تفصل بيننا الترابيزة:

ـ لن أبقى جاهلة!

\_وما فائدة العلم؟

\_سأتعلم بعد ذلك مهنة فلن أبقى خادمة . .

عض الألم قلبي وعقد لساني، أما هي فقالت بنبرة جديدة:

\_ جاء أهلى اليوم ليقنعوني بالرجوع إلى القرية!

رفعت إليها عيني مستطلعا وأنا أداري قلقي بابتسامة فتجاهلتني خافضة جفنيها .

\_ وماذا كان جوابك؟

\_اتفقنا على الرجوع في أوائل الشهر القادم!

قلت بجزع:

\_حقا! . . ترجعين إلى العجوز؟!

\_كلا، لقد تزوج!

ثم بصوت خافت:

ـ تقدم لي رجل غيره.

قبضت على يدها بشدة وتوسلت قائلا:

\_لنذهب معا، غدا، اليوم إن شئت. .

\_اتفقنا على الرجوع أول الشهر. .

\_زهرة هل قد قلبك من حديد؟

\_إنه حل بلا مشاكل!

ـ ولكنك تحبينني يا زهرة!

فقالت بامتعاض:

\_الحب شيء والزواج شيء آخر، أنت علمتني ذلك.

عند ذاك خانتها شفتاها فو شتا بابتسامة خفيفة فهتفت:

ـ يا لك من شيطانة يا زهرة!

وغمرنى فيض من الارتياح والفرح. ودخلت الحجرة عند ذاك المدام وهى تحتسى الشاى من قدح في يدها. جلست على حافة الفراش وهى تقص على قصة أهل زهرة وكيف رفضت الفتاة العودة. وتساءلتُ بمكر كاذب:

- ألم يكن من الأفضل أن ترجع إلى أهلها؟

فابتسمت المدام ابتسامة قوادة عالمة ببواطن الأمور ثم قالت:

\_أهلها الحقيقيون هنا يا مسيو سرحان!

تجنبت النظر إلى عينيها. تجاهلت مغزى قولها تماما. ولكنى خمنت أن الفراشة تطير بالأنباء من حجرة إلى حجرة. ولعل سوء ظنها قد جاوز الحدود. ووجدتنى فى النهاية سعيدا بنصر وهمى أما فى الواقع فإن العناد الذى سد فى وجهى باب الأمل لم يلن لحظة واحدة. وساءلت نفسى متى أجد الشجاعة لأهجر البنسيون نهائيا؟!

#### \* \* \*

بدا المنظر مألوفا وفاترا إلى حدما. المدام تجلس لصق الراديو تكاد تطرح رأسها وهى تتابع أغنية أفرنجية. أما عامر وجدى فقد راح يسمّع لزهرة بعض الكلمات. ودق الجرس فإذا بالقادمة مدرسة زهرة. معذرة. الشقة مزدحمة بالضيوف، فإذا سمحتم أعطيت الدرس هنا. كرم منها بلا ريب. واستقبلناها بترحاب وأدب. وهى وسيمة وأنيقة وموظفة. راقبتها وهى تدرس لزهرة، وجدتنى منساقا للمقارنة بينهما بتأمل وأسى. هنا الفطرة والجمال والفقر والجهل وهناك الثقافة والأناقة والوظيفة. آه لو تحل شخصية زهرة في بيئة الأخرى وإمكانياتها. وتطفلت المدام على الدرس لتشبع حب استطلاعها الأبدى فعرفنا الاسم والأسرة وحتى الأخ المنتدب للعمل في السعودية. وإذا بي أسألها:

\_أمن الممكن أن يرسل لنا بعض البضائع النادرة من هناك؟

فأجابت في تحفظ بأنها ستسأل عن إمكان ذلك.

وغادرت البنسيون إلى كافيه دى لا بيه لمقابلة المهندس على بكير . نظر إلى بثقة وقال :

\_كل خطوة ترسم بدقة، والنتائج مضمونة!

حسن، فلنثب وثبة موفقة تجعل من زيارتنا للدنيا رحلة لها معناها وقيمتها. ثم سألنى على بكير:

\_قابلت صفية بركات في ديليس فهل حقا . . ؟

قلت بامتعاض:

\_عليها اللعنة!

ضحك وهو ينظر في عيني باهتمام ثم عاد يسألني:

\_ولكن هل هجرتها حقيقة من أجل . . ؟

ـ لا تصدقها من فضلك، متى كانت ممن يعتمد الإنسان على صدقهن؟!

فازداد اهتماما وتفكيرا وهو يقول:

\_ إن سرنا من الأسرار التي يضن بها حتى على الزوجة والابن!

فهتفت به مؤنبا:

\_الله بسامحك!

#### \* \* \*

قلت لنفسى يا للعجب. إنها نظرة يطيب بها غرور الرجل. لم تلح فيها ابتسامة ولا رعش هدب، ولكنها المدرسة حولت رأسها بغتة عن زهرة وكتابها ورشقتنى بها. لم تدم أكثر من ثوان. هربتها إلى في غفلة من زهرة وعامر وجدى. لم تدم أكثر من ثوان. وقد أتلقى عشرات مثلها فلا تهزنى شعرة وأعتدها نظرة عابرة، غير أنها عكست ومضة معبرة لا توصف وكأنما أبلغتنى رسالة كاملة. غيرت خط سيرى فقبعت وراء الزجاج بمقهى الميرامار أراقب السحب وأنتظر. تدبير بلا هدف، وليس وراءه عاطفة، ولكنه تطلع من فراغ ويأس إلى مغامرة، أية مغامرة. ولم تكن بالمثال الذى يمكن أن يفتتنى ولا حتى يثيرنى ولكنها في فيما بدا دعتنى إلى نزهة في يوم عطلة شديد الملالة.

وإذا بها تمر أمام المقهى واضعة يديها فى جيبى معطفها الرمادى. تبعتها عن بعد حتى لحقت بها فى أثنيوس. ابتاعت بعض الحلوى ووقفت كالمترددة فاقتربت منها وحييتها. ردت التحية فدعوتها إلى قدح شاى فقالت لى: إنها كانت تفكر فى الجلوس بعض الوقت. احتسينا الشاى وتناولنا قطعتين من الجاتوه، ثم دار حديث تعارف سطحى ولكن لا يخلو من معلومات مفيدة عن الأسرة والعمل. وسياق الحديث وحده هو الذى جعلنى أطالب بموعد قريب. وتقابلنا فى بوفيه سينما أمير، ثم شهدنا الفيلم معا، وكان على أن أحدد نوع المغامرة ولونها، ولم أجدها بالقياس إلى قلبى جديرة بالمثابرة والتعب،

ورغم ذلك فعندما دعتنى إلى زيارة أسرتها قبلت! . أدركت أنها تبحث عن زوج. وزنتها بعقل بارد، قدرت المرتب والدروس الخصوصية وتذكرت فى ذات الوقت يأسى المتزايد من زهرة، وفى أسرتها عثرت على إغراء جديد وهى ملكية والديها لعمارة متوسطة بكرموز. وجدتنى أفكر فى الأمر بجدية لا طمعا فى مالها ولا حبا فيها ولكن انسياقا لحنينى القديم إلى الزواج. وزهرة؟! . قد أجد شيئا من عزاء عن غدرى بها فى الزواج نفسه الذى سيربطنى إلى الأبد بامرأة لا أحبها، ولكن هل أستطيع حقا أن أقهر الحب المشبوب فى قلبى؟!

# \* \* \*

أشار إلى راجيا أن انتظر. كنت هممت بالانصراف بعد شراء الجريدة وكان يحاسب زبونا، فلما فرغ منه أقبل على وهو يقول:

\_أستاذ.. سأخطب زهرة!

داريت انزعاجي بابتسامة وسألته:

\_مبارك، هل تم الاتفاق بينكما؟

أجاب منتفخا بالثقة:

\_ تقريبا!

نبض قلبي بألم أليم وأنا أسأله:

\_ماذا تعنى بقولك «تقريبا»؟

ـ هي زبونة يومية، لم نطرق الموضوع صراحة. ولكني خير من يفهم النسوان! كرهته في تلك اللحظة لحد الموت، أما هو فسألني:

\_ما رأيك يا أستاذ في أخلاقها؟

\_طيبة جدا والحق يقال.

سأخطبها من مدام ماريانا حتى أهتدى إلى أهلها.

تمنيت له التوفيق ثم ذهبت ولكنه لحق بي بعد خطوتين وهو يسأل:

\_ماذا تعرف عن الخلاف بينها وبين أهلها؟

\_كيف علمت به؟

\_أنبأني به عامر بك، العجوز. .

\_ جملة ما أعرفه أنها عنيدة وأبية النفس.

فضحك وهو يقول في مباهاة:

\_إنى أعرف الدواء لكل داء..

كانت خطبة . . وكان رفض .

وبقدر ما أرضاني ذلك بقدر ما ضاعف من إحساسي بالمسئولية. مزقني القلق، اجتاحني الحب، تراجعت علية من مقدم الصورة حتى لاحت خلفية باهتة.

وقبضت على معصمي زهرة بحنان وضراعة وقلت بحرارة وتوسل:

\_أنقذيني . . ولنذهب في الحال!

تخلصت منى بجفاء وهي تقول:

ـ لا تعد إلى ذلك، إنى أكره سماعه!

لن نتلاقى أبدا. هى تحبنى ولكنها ترفض التسليم بلا قيد، وأنا أحبها ولكنى أرفض القيد. ولا هذا ولا ذاك بالحب الحقيقي الذي تمحى عنده الإرادة والعقل.

وقد دعانى السيد محمد والدعلية للغداء فلبيت الدعوة. ودعوت الأسرة في نهاية الأسبوع للعشاء في باستوريدس. انقلب الجو بعد أن استقر بنا المجلس فصفرت الريح وانهمر المطر. ومضيت أقنع نفسى طوال الوقت بأن علية فتاة ممتازة وأنها تعد بزواج موفق. وسيمة. أنيقة جدا. موظفة. مثقفة. ماذا تريد أفضل من ذلك؟ ولو لم أرق في عينيها. ما لى أتحفظ لهذا الحد؟ إنها تحبنى بلا ريب، الراغبة في الزواج راغبة في الخب أيضا. ثم ما هذا الذي يعدنا بالفراديس دون أن يفي ولو بشيء من وعده؟ واشتدت العاصفة في الخارج حتى خيل إلى أنها ستقلع المدينة الجميلة من جذورها فتضاعف شعورنا بنعمة الدفء والأمان في الداخل. وقلت لنفسي إنني اقتحمت أبواب هذه الأسرة المحترمة مدفوعا بانفعالات عفوية ولكن بلا خطة موضوعة أو نية صادقة، وبلا إمكانية مالية مناسبة، وأن على أن أصارحهم بحقيقة مركزي وبمسئوليتي العائلية تاركا لهم بعد ذلك الخيار. وقد جر الحديث المتشعب إلى «الزواج» كموضوع عام فقال والد علية:

ـ على أيامنا كنا نتزوج مبكرين فنهنأ برؤية أولادنا وهم رجال مسئولون! فحركت رأسي حركة تنم عن الحسرة وأنا أقول:

ـ تلك أيام خلت، أما هذه الأيام فهي منحوتة من العسر والصخر. .

فمال نحوى قليلا ثم قال بصوت كالهمس:

- ابن الحلال ثروة في ذاته، وعلى الأمناء من الناس أن يذللوا له العقبات. .

\* \* \*

یا له من وجه مکفهر . کان قد انتبه إلى اقترابى من معرضه وأنا على بعد خطوتین منه فسرعان ما اکفهر وجهه . رمانى بنظرات غاضبة حتى عجبت لشأنه . ثم تساءل متهكما دون أن يقدم لى الجريدة كعادته كل يوم :

\_لم أخفيت عنى أنك عشقتها؟

بوغت بقوله، ولهجته الوقحة، وهتفت به:

\_أنت مجنون!

فصاح بي:

\_أنت جبان!

فقدت صوابى فلطمت وجهه بظهر كفى. وإذا به يهوى براحته الكبيرة على خدى. وتبادلنا الضرب بلا وعى ولا رحمة حتى فرق الواقفون بيننا. انفصلنا ونحن نتبادل أقذع الشتائم. وسرت وقتا على غير هدى وأنا أسائل نفسى عمن وضع تلك الفكرة الخبيثة فى رأسه الخاوى.

وقد مضى زمن طويل قبل أن أراه مرة أخرى. دخلت آنذاك لأتناول عشاء خفيفا فى مطعم بانيوتى فوجدته جالسا فى مقعد صاحب المحل وراء صندوق الماركات. هممت بالتراجع فوثب من مجلسه إلى ثم احتوانى بين ذراعيه وهو يقبل رأسى، وأبى إلا أن يدعونى للعشاء على حسابه!. واعتذر إلى عما سلف ثم اعترف لى بأن حسنى علام هو الذى افترى على تلك الكذبة!

\* \* \*

\_عزيزتي. . أرجو ألا تعلم زهرة بما بيننا!

كنا نجلس على شاطئ المحمودية بكازينو البالما تحت الشعاع الدافئ. وكان اتصالها المنتظم بزهرة يقلق خيالى. إنها لا تدرى شيئا عن الأسباب الحقيقية التى ساقت زهرة إلى التتلمذ عليها، كما أن زهرة لا تتصور أن مدرستها قررت الاستيلاء على رجلها. وقد رمقتنى عليه بارتياب وهي تسأل:

\_لم؟

\_إنها ثرثارة! . . والثرثرة غير مستحبة في اللحظة الراهنة من علاقتنا. .

لم تزايل الريبة نظراتها وقالت:

\_ولكن علاقتنا ستعرف عاجلا أو آجلا. .

فقلت بصراحة فجة:

\_ يخيل إلى أحيانا أنها تنظر إلى نظرة خاصة. .

قالت وهي تبتسم ابتسامة شاحبة فاترة:

\_لعل لديها من الأسباب. .

فقلت بجدية:

ـ جميع النزلاء بمازحونها أحيانا، وقد فعلت مثلهم، هذا كل ما هنالك. .

كانت العلاقة قد تطورت من ناحيتها إلى حب. ولم يكن يهمنى أن تصدقنى بالكامل بقدر ما يهمنى أن تأخذ حذرها من زهرة!. وإذن فقد انتصر العقل على القلب ولم يبق إلا أن أعلن الخطبة. على ذلك ترددت، وجعلت أؤجل اليوم الموعود بحجة الرجوع إلى القرية ليلعب الأهل دورهم التقليدى. وكلما مريوم توترت مشاعرى حيال زهرة وحز في نفسى غدرى المخزى بها. وكنت أتنهد بحسرة وأقول: آه لو تلين. . لو تذعن . . فأهبها قلبى إلى الأبد. .

\* \* \*

رعد! . . زلزال؟ . . مظاهرة؟ . . سقوط جسم بالحجرة؟!

أخرجت رأسي من تحت الغطاء إلى ظلام دامس. أنا هو أنا. . هذا فراشي ببنسيون ميرامار. . ولكن ما هذا؟ . . رباه . . إنه صوت زهرة . . إنه يطرق بابي .

هرعت إلى الخارج. رأيتها على ضوء المصباح السهرى مشتبكة مع حسنى علام فى صراع مميت. من نظرة واحدة أدركت حقيقة الموقف كله. أردت أن أنقذها بلا فضيحة ومع الإبقاء على علاقتى بحسنى. وضعت يدى على كتفه برفق هامسا:

\_حسني!

لكنه لم يسمعني فشددت على كتفه وأنا أقول بنبرة أقوى :

ـ حسني . . أجننت؟!

دفعني بظهره بوحشية ولكني قبضت على منكبه وقلت له بحزم:

\_ادخل الحمام وضع إصبعك في فمك!

وإذا به يستدير نحوى ويلطمنى على جبهتى. جننت من الغضب فانهلت عليه ضربا. ولم يقف الضرب بيننا حتى أدركتنا المدام. وقد عاملت المدام المعتدى برفق لا يستحقه. إنى أفهم العجوز جيدا. من خلال نفسى أفهمها حقا. كلانا حام حول حسنى ممنيا النفس بالاستفادة من مشروعه الخيالى. وهى مترددة تقدم رجلا وتؤخر أخرى، وأنا متحفز طيلة الوقت للوثوب. ها هو الباب يغلق فى وجهى نهائيا، أما هى فتكاد تعنف المضروب من أجل خاطر الضارب.

وعقب ذلك بأيام رأيته حسنى علام خارجا من الجنفواز حوالى الواحدة صباحا مصطحبا معه صفية بركات. لم أدهش إلا قليلا ثم تذكرت يوم مضى بها من البنسيون. إنها تماثله في التهور والحلم بالمشاريع، وسيجمع بينهما الحب والأحلام. وكنت تلك الليلة قد سهرت في حانة جورج مع على بكير ورأفت أمين. وسرنا في الكورنيش متشجعين بصفاء الجو وحرارة الخمر. ولا حديث لرأفت أمين وبخاصة إذا سكر إلا

الوفد. وقد وضح لى أن على بكير لا يكاد يعرف الفارق بين الوفد والنادى الأهلى. من ناحية أخرى لم أكن أهتم في أعماقي بالسياسة رغم نشاطي الموفور فيها.

أما رأفت أمين فراح يتحدث بلسان مخمور عن الوفد وأيامه. وسألته ساخرا:

\_ألا تعترف بالموت؟

فقال بصوت دوى في الطريق الخالية:

\_قل فى الثورة ماتشاء، لا أنكر قوتها الشاملة، ولكن الشعب مات بموت الوفد! عند ذاك وقع بصرى على حسنى علام وصفية بركات وهما ينحدران إلى الكورنيش كدبين قويين، قلت ضاحكا وأنا أشير إليهما من بعيد:

ـ ها هو شعب الوفد يواصل جهاده بعد منتصف الليل!

وعندما أن لنا أن نفترق همس على بكير في أذني:

\_عما قريب سنعطى إشارة البدء في العمل.

\* \* \*

دخلت البنسيون والنوم يخيم على أرجائه. وتراءى لى باب منصور باهى الزجاجى وهو ينضح بالضوء فاندفعت بسحر الخمر إلى الاستئذان فالدخول، بلا باعث حقيقى. نظر إلى بشيء من الدهشة وهو جالس على المقعد الكبير. تتجلى في عينيه الصغيرتين الجميلتين كآبة وتفكير. قلت وأنا أتخذ مجلسا على كرسى قريب:

ـ لا تؤاخذني . . أنا سكران!

فقال دون مبالاة:

\_هذا واضح..

ضحكت، ثم قلت معاتبا:

\_الحق أني عجزت عن جذبك إلى، يبدو أنك شديد الانطواء!

أجاب بأدب ولكن دون تشجيع ما:

ـ لكل طبعه . .

ـ لا شك أن رأسك يرهقك!

أجاب بغموض:

\_الرأس أصل البلاء!

فقلت ضاحكا:

ـ طوبي لنا نحن أصحاب الرءوس الفارغة!

ـ لا تبالغ فإنك مركز نشاط لا يخمد . .

\_حقا؟

\_نشاطك السياسي . . أفكارك الثورية . . غرامياتك!

صدمتني العبارة الأخيرة من قوله ولكن ضاعت الصدمة في مد الموجة الخمرية. ووضح لي أنه لا يرحب بي\_إنه لا يرحب بأحد\_فصافحته ثم ذهبت.

\* \* \*

عندما تجيء زهرة إلى حجرتي بالشاى أتخلى عن أفكارى ومشروعاتي ويتفرغ قلبى للحب الحقيقي وحده. ولكن وجهها تبدى صلبا متحجرا مصفرا من الغضب. ونظرتها الثابتة الكالحة المتحفزة المخيفة ملأت قلبي بالقلق والتشاؤم. قلت بإشفاق:

\_زهرة . . لست كعادتك!

قالت بحنق مفترس:

ـ لولا أن لله حكمته التي هي فوق العقول لكفرت!

ماج صدري بالقلق فسألتها:

ـ هل من هم جديد يضاف إلى همومنا المستعصية؟!

قالت باقتضاب وازدراء:

\_بعيني رأيتكما. .

عرفت من تعنى فغاص قلبي في هاوية عميقة من صدري وسألت بيأس:

\_من تعنين؟

\_ الأستاذة!

ثم بضراوة وحقد:

\_ الخطافة الداعرة . .

ضحكت. يجب أن أضحك. وأن أضحك ضحكة الاستهانة التي نواجه بها عادة غضبة خاطئة في غير محلها. ضحكت وأنا أقول:

\_ يا لك من. . صادفت أستاذتك في طريقي فأديت لها ما. .

قاطعتني بقسوة:

\_كذاب. . لم تكن مصادفة . . وقد عرفت ذلك منها اليوم!

هتفت بانزعاج:

<u>-</u> *Y*!

- اعترفت الخنزيرة بمقابلتك، ولم يدهش أحد من والديها، ولكنهم دهشوا جميعا لتطفلي أنا!

خرست، خرست تماما، وقالت هي بتقزز وغضب:

ـ لم يخلق الله أمثالك من الجبناء؟

انهزمت . . تهدمت . . ومن أعماق هاوية اليأس توسلت إليها قائلا :

ـزهرة! . . كل ذلك يقوم على غير أساس . . إن هو إلا تخبط يائس . . راجعى نفسك يا زهرة . . يجب أن نذهب معا .

لم تسمع كلمة مما قلت إذ واصلت كلامها قائلة:

ـ ماذا أفعل؟ . . لا حق لي عليك . . وغد حقير . . غر في ألف داهية!

وبصقت في وجهي!

غضبت . رغم موقفي المخزى غضبت . ثم صحت بها :

\_زهرة!

فبصقت في وجهي مرة أخرى. أعماني الغضب فصرخت:

\_اذهبي وإلا كسرت رأسك.

انقضت على ولطمتنى على وجهى بقوة مذهلة. انتترت واقفا وقد جن جنونى. قبضت على يدها بقسوة ولكنها انتزعتها بعنف ولطمتنى للمرة الثانية. فقدت وعيى فانهلت عليها ضربا وصفعا وهى تبادلنى الضرب والصفع بقوة فاقت تصورى. وإذا بالمدام تهرول نحونا وهى ترطن بألف لسان. أبعدتها عنى فصحت فى جنون الغضب:

\_أناحر. . أتزوج بمن أشاء . . وسأتزوج علية!

وجاء منصور باهى فمضى بى إلى حجرته. لا أذكر أى حديث تبادلنا ولكنى أذكر تهجمه على بوقاحة غريبة، وكيف اشتبكنا فى صراع جديد. جاء موقفه مفاجأة لى وأى مفاجأة. لم يجر لى فى خاطر أنه أيضا من عشاق زهرة!. هكذا عرفت سر نفوره الغريب منى. ولحقت بنا المدام. قررت أن تجعل منى كبش الفداء، العجوز القوادة. قالت إن البنسيون لم يعرف الهدوء منذ جئته، وإننى قلبته إلى سوق همجية للمعارك وقلة الأدب. وبصراحة وقحة قالت لى متحدية:

- ابحث لك عن مسكن آخر!

لم يعد ثمة ما يدعوني للبقاء، ولكني أصررت على الإقامة حتى عصر الغد، آخر

الأسبوع الذي دفعت إيجاره مقدما، وهو إصرار يرجع أولا وأخيراً إلى العناد والكبرياء.

وغادرت البنسيون فهمت على وجهى طويلا تحت سماء ملبدة بالغيوم متعرضا لدفقات متواصلة من الهواء البارد. وجعلت أتسلى بمشاهدة معارض الحوانيت المتلألئة بهدايا السنة الجديدة وانظر بفتور إلى بابا نويل العتيد!

وذهبت إلى بدر ولموعد سابق مع المهندس على بكير. وقد سألنى:

\_ هل دبرت مسألة الاستثمارات؟

فأجبته بالإيجاب فقال لي:

\_ فجر الغد، سوف نبدأ مع فجر الغد.

\* \* \*

قلت لنفسى وأنا ذاهب إلى الشركة في الصباح الباكر: «مضى الفجر.. وتمت اللعبة».

كنت مضطربا، ونهما إلى الأخبار. اتصلت بالمصنع تليفونيا طالبا على بكير فقيل لى إنه في المرور. إذن فقد نفذ التدبير بإحكام ونجاح وها هو يزاول عمله اليومى. واجتاحنى الاضطراب فغادرت الشركة قبل الميعاد متعللا بعذر ما ولدى مرورى أمام دار الإذاعة لمحت منصور باهى وفتاة حسناء يغادرانها معا. ترى من تكون؟ . . خطيبة؟ . . عشيقة؟ . . هل تجد زهرة نفسها على الرف مرة أخرى؟ . تذكرت زهرة بحزن . لم أبرأ تماما من حبها، وهو العاطفة الصادقة الوحيدة التى خفق بها قلبى الممزق بالأهواء .

ومضيت لزيارة علية محمد وأسرتها فاستقبلت استقبالا فاترا، بل متجهما. هممت بطرح بعض الأكاذيب كالعادة ولكن والدها قال لي بغضب:

ـ تصور موقفنا وتلك الخادمة تناقشنا الحساب!

ولما جاء ميعاد الغداء لم أدع له. غادرت الشقة بلا أمل في وصل ما انقطع من الأسباب. والحق أنى لم أكترث لذلك كثيرا. لم يعد يفصل بيني وبين الثراء إلا ساعات، وسوف أجد الزوجة الفاخرة المناسبة.

تناولت الغداء عند بنايوتي (محمود أبو العباس) ثم ذهبت إلى مسكن على بكير ولكني لم أجده. مضيت إلى البنسيون والنهم إلى الأخبار يحرقني حرقا. أعددت حقيبتي وحملتها إلى المدخل. وتلفت إلى على بكير وكم غمرني الارتياح الساحر وصوته يرد على قائلا: «آلو».

\_ سرحان يقدم تحياته . . كيف الحال؟

\_كل شيء طيب . . لم أقابل السواق بعد!

\_متى نعرف النتيجة النهائية؟

\_ قابلني مساء اليوم الساعة الثامنة بكازينو البجعة!

فقلت باستجابة متلهفة:

ـ طيب. . الساعة الثامنة مساء . . سأنتظرك في كازينو البجعة . .

\_إلى اللقاء.

\_ إلى اللقاء.

غادرت بنسيون ميرامار إلى بنسيون إيفا. تسكعت بين المقاهى أشرب كأسا هنا وكأسا هناك، مبذرا نقودى بلا حساب. بالشراب أسكت وساوس القلق وأنات الحب المحتضر. ووعدت أهلى بخير لم يحلموا به منذ وفاة أبى. وذهبت إلى كازينو البجعة قبل الموعد بقليل. التقيت عند المدخل بطلبة مرزوق فضايقني ذلك جدا ولكني صافحته متظاهرا بالارتياح. وقد سألني:

\_ماذا جاء بك إلى هنا؟

\_موعدهام..

ـ دعني أرد إليك تحية من تحياتك فلنجلس معا حتى يجيء صاحبك.

جلسنا في البهو الشتوي وهو يسألني بصوته الأجوف من انتفاخ شدقيه:

\_ كونياك؟

كنت ثملا ولكن كانت بي رغبة في المزيد. شربنا وتحادثنا وضحكنا. وإذا به يسألني:

ـ ترى هل يسمح لى بالسفر إلى الكويت لزيارة كريمتى؟

\_أعتقد ذلك، أتريد أن تبدأ من جديد؟

\_كلا ولكن زوج كريمتى\_هو ابن أخى أيضا\_قد أثرى ثراء كبيرا.

\_لعلك تفكر في الهجرة؟

لاحت في عينيه نظرة حذرة ثم قال:

\_كلا . . أريد فقط أن أرى ابنتي .

قربت رأسي منه وأنا أقول:

ـ هل أدلك على عزاء حقيقى؟

\_ما هو؟

- البعض يضيقون بالثورة، ولكن أى نظام يمكن أن يحل محلها؟ فكر قليلا أو كثيرا فلن تجده خارجا عن واحد من اثنين، فإما الشيوعية وإما الإخوان، فأيهما تفضل على الثورة؟!

قال بعجلة:

\_ لا هذا ولا ذاك!

فقلت وأنا أبتسم في ثقة وانتصار:

ـ هذا هو يقيني، فليكن لك في ذلك عزاء.

وأزف الميعاد ولم يجىء على بكير. انتظرت نصف ساعة أخرى مرت فى عذاب أليم. قمت إلى التليفون وطلبت مسكنه فلم يرد أحد. لعله فى طريقه إلى هنا ولكن ماذا أخره؟ ألا يقدر ما يفعله التأخير بى؟ ونظر طلبة مرزوق فى ساعته ثم قال: «آن لى أن أذهب» ثم صافحنى وذهب. ولم أكف عن الشراب. وأخيرا جاء الجرسون ليخبرنى بأن شخصا يطلبنى فى التليفون. وثبت واقفا ثم هرعت إلى التليفون. تناولت السماعة وقلبى يضرب بشدة:

\_ آلو . . على ؟ . . لم لم تجئ؟

\_سرحان. . أصغ إلى". . انكشف الأمر!

تفاعلت كلماته مع وش الكحول في أذني وانداحت جميعا في دوران شمل السماء والأرض:

\_ ماذا قلت؟

\_قضى علينا!

\_ولكن كيف؟ . . قل ما عندك دفعة واحدة!

ـ ما الفائدة؟ . . أراد السواق أن يفوز بالغنيمة وحده فوقع في شر عمله . . سيعترف بكل شيء . . إن لم يكن قد اعترف بالفعل . .

سألت بريق جاف:

\_والعمل؟ . . ماذا أنت صانع؟

\_قضى علينا . . سأفعل ما يمليه على الشيطان .

وأغلق السكة .

إنى أرتجف ولا تكاد تحملنى قدماى. فكرت لحظة فى الهرب ولكنى عدت - تحت عينى الجرسون - إلى المائدة. لم أجلس. شربت الكأس. أديت الحساب. اليأس يزحف بسرعة مذهلة. وخوف مثل الشيطان. فارقت موقفى إلى البار رأسا. بطريقة غير شعورية. طلبت من البارمان زجاجة واندفعت فى الشرب بلا وعى وهو يرمقنى بقلق. أصب وأشرب ثم أصب. دون كلمة أو لفتة أو تريث. ثم رفعت رأسى إليه قائلا: \_ موسى حلاقة من فضلك؟

تردد قليلا، ولما قرأ الإصرار في وجهى نادى الجرسون وسأله عن موسى. رجع الجرسون بموسى مستعملة عارية فتقبلتها شاكرا ثم أودعتها جيبى. انفصلت عن البار بشيء من المشقة ثم مضيت نحو الباب الخارجي. مترنحا. . يائسا. . متعجلا عبرت الطريق وبودى لو أركض ركضا.

كنت يائسا . . يائسا . . يائسا . .

# ٥ عـــامـر وجـــدى

تنغص على صفوى بالأحداث التى ألمت بالبنسيون. لقد ركنت إليه لأنعم بشىء من الهدوء الضرورى لشيخوختى. وبشىء من عزاء الذكريات عن الخيبة المريرة التى منيت بها فى ختام حياتى العملية. لم يجر لى فى الظن أنه سينقلب ميدانا لمعارك وحشية قدر لها أن تنتهى بجريمة قتل دامية.

ودب فى بعض نشاط فغادرت حجرتى منضما إلى ماريانا وطلبة مرزوق بمجلسنا المعهود بالمدخل. وددت أن أرى زهرة ولكن اضطراب ماريانا وتهجم طلبة منعانى من استدعائها إلى جو سيضيق حتما بأحزانها ولن يوليها الاحترام اللائق. وعلمت أن حسنى علام قد غادر البنسيون في ميعاده المألوف تقريبا. إنه انفعل ساعة بالخبر الدامى ثم مضى إلى حال سبيله، أما منصور باهى فقد تأخر به النوم على خلاف عادته. وقالت ماريانا بتأفف:

ـ ها هو اليوم الأخير من السنة، ختمها أسوأ ختام، فماذا يخبئ لنا العام الجديد؟! فتساءل طلبة مرزوق في ضجر عصبي:

\_أى متاعب ستلاحقنا هنا!

فتمتمت بصوت واهن:

\_ ما دمنا أبرياء . .

فقاطعني بحدة:

\_أنت متحصن بشيخوختك فلن يضيرك شيء. .

وترامى إلينا صوت باب منصور وهو يفتح. ذهب إلى الحمام رجع إلى حجرته بعد نصف ساعة. وما لبث أن ظهر من وراء البارفان، مرتديا بدلته ومعطفه، ولكنه طالعنا بوجه شديد الشحوب ونظرة معتمة وقسمات متصلبة. أخبرته المدام بأن إفطاره معد ولكنه رفضه بهزة من رأسه دون أن ينبس. أقلقنا منظره بلا شك، وكانت المدام أسرعنا في الإفصاح عن ذاك القلق فقالت له:

\_اجلس يا مسيو منصور . . أأنت على ما يرام؟

قال دون أن يجلس:

ـعلى خير ما يرام، لقد نمت أكثر من المعتاد، هذا كل ما هنالك!

فقالت وهي تشير إلى الجريدة المطروحة على الكنبة:

\_أما سمعت الخبر؟

لم يبدأي اهتمام بشيء فقالت:

ـ سرحان البحيري . . وجد قتيلا في طريق البالما . .

نظر إليها طويلا. لم يدهش، لم ينزعج، ولكنه ظل ينظر في عينيها كأنما لم يسمع قولها، أو لم يفهمه، أو أنه يعاني مرضا أخطر مما نتصور. ودعته ماريانا إلى قراءة الخبر في الجريدة فألقى عليه نظرة متمهلة هادئة، وأبصارنا مركزة عليه، ثم رفع رأسه وهو يقول:

\_أجل. . وجد قتيلا. .

قلت له بإشفاق:

\_إنك متعب فلتجلس..

فقال ببرود أو لعله ذهول:

ـ إنى بخير . .

فقالت ماريانا:

- نحن كما ترى في غاية من الاضطراب. .

نقل بصره بين وجوهنا ثم سأل:

\_لم؟!

ـ نتوقع أن يجيء البوليس فيقلق راحتنا. .

ـ لن يجيء . .

فقال طلبة مرزوق:

\_ولكن البوليس كما تعلم. .

فقاطعه قائلا بهدوء:

```
_أنا قاتل سرحان البحيري . . !
```

ومضى نحو الباب قبل أن نفقه قوله ففتحه ثم نظر إلينا قائلا:

\_ سأذهب إلى البوليس بنفسى . .

وأغلق الباب وراءه. . تبادلنا نظرات ذاهلة ، مضى وقت ونحن نترامق في ذهول وصمت. ثم هتفت ماريانا بخوف:

\_إنه مجنون!

فقلت:

ـ بل إنه مريض. .

تفكر طلبة مليا ثم قال:

\_ولعله هو القاتل!

فصاحت ماريانا:

\_ذلك الشاب المهذب الخجول!

وقلت بإشفاق:

\_إنه مريض بلا شك.

وتساءلت ماريانا:

\_ولم يقتله؟

فتساءل طلبة بدوره:

\_ولمَ يعترف بأنه القاتل؟

قالت ماريانا:

لن أنسى صورة وجهه، لقد مس عقله شيء...

فقال طلبة مؤيدا رأيه:

\_لقد كان آخر المتشاجرين معه. .

فقلت معترضا:

\_ما من أحد إلا وتشاجر معه. .

فأشار ناحية حجرة زهرة وقال:

\_هناك يستقر السبب..

فقلت محتدا:

ـ ولكنه الوحيد الذي لم يبد نحوها أي اهتمام خاص .

- ـ لا يعنى ذاك أنه لم يحبها، أو أنه لم يرغب في الانتقام من غريمه فيها. .
  - ـ يا سيدي لقد تركها سرحان وذهب. .
    - \_ولكنه أخذ قلبها، كما أخذ شرفها!
  - \_صه. . لا تفتري على الناس بغير يقين . .

وتساءلت ماريانا:

- ترى هل يذهب حقا إلى البوليس؟

وتواصل الحديث محموما حتى أرهقنا، وعند ذاك هتفت:

\_ فلنكف . . كفاية . . ولنسلم إلى المقادر . .

\* \* \*

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتِ فِي بَحْرِ لَجِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْق بَعْضُهَا إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴿ أَلَمْ تَرَ فَوْقَ بَعْضُهَا اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَاقًاتٍ كُلِّ قَدْ عَلَمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۚ ﴿ كَلَّ قَدْ عَلَمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۚ ﴿ وَلِلَٰهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾.

سرعان ما تعبت عيناي من القراءة . غادرت الحجرة إلى المدخل والساعة تدق الرابعة مساء . وجدت ماريانا غارقة في الكتابة فراحت تقول لي :

\_أول ليلة رأس السنة تمربي وكأنها ليلة مأتم.

فقال طلبة مرزوق بحزم:

\_إياكم والعودة إلى حديث الهم والكدر.

فقالت المدام بغضب:

لقد سقط النحس على البنسيون، إنى واثقة من ذلك، وعلى زهرة أن تذهب، فلتبحث عن رزقها في مكان آخر.

أصابت غضبتها قلبي فقلت بإشفاق:

- \_إنها بريئة يا ماريانا، سيئة الحظ، وقد لجأت إليك في محنتها.
  - \_أصبحت أتشاءم منها.

فرقع طلبة بأصابعه كأنما قد تلقى فكرة جديدة سعيدة وقال:

ـ ماذا يمنعنا من الاحتفال بليلة رأس السنة؟

فقلت بدهشة:

\_ماذا يمنعنا! . . يا له من قول مضحك .

تجاهلني . . وقال لماريانا:

\_استعدى يا عزيزتي . . سنسهر معا كما اتفقنا!

تشكت المرأة قائلة:

\_أعصابي . . أعصابي يا مسيو طلبة .

\_لذلك أدعوك للسهر.

تغير الجو. بالقياس إليهما على الأقل. وراحا يناقشان الاقتراح بجدية. وجاء آنذاك حسنى علام من الخارج فأعلن على عزمه على الانتقال من البنسيون إلى مقام جديد. وقصت عليه المدام قصة منصور باهى الغريبة فتلقاها بدهشة كبيرة وناقشها وقتا، ثم هز كتفيه العريضين كأنما ينفضهما عنه، وراح يعد حقيبته، ثم ودعنا وانصرف.

وتمتمت عقب انصرافه بحزن:

\_عدنا وحدنا كماكنا. .

فقال طلبة بمرح:

\_لنحمد الله على ذلك. .

انبعثت فيهما روح نشاط دفاق جرفت من قلبيهما شوائب القلق والكآبة. ازينت ماريانا كالأيام الخالية.

ارتدت فستان سهرة كحلى اللون فأضفى على بياض بشرتها نصاعة وبهاء، ومعطفا أسود ذا طوق من الفرو الأصيل. وانتعلت حذاء مذهبا. وتحلت بقرط من الماس وعقد من اللؤلؤ. ارتدت غانية جذابة نبيلة وتوارت أمارات الكبر تحت قناع المساحيق. ترامقنا هنيهة وهى واقفة وسط المدخل وقفة استعراضية. ثم ضحكت بفرح بنت مراهقة ومضت هي تقول لطلبة:

\_ سأنتظرك عند الحلاق.

\* \* \*

وجدت نفسى وحيدا، لا أنيس لى إلا عواء ريح عاتية. ناديت زهرة. ثلاث مرات ناديتها قبل أن تظهر من وراء البارفان. وقفت تعلوها مظاهر الحزن والهزيمة والانكسار حتى خيل إلى أنها ضؤلت واحدودبت.

أشرت إلى الكنبة فدلفت إليها في صمت ثم استقرت تحت تمثال العذراء. شبكت ذراعيها على صدرها ورنت إلى الأرض. عصر قلبي عطف وحنان حتى امتلأت قنوات عيني بدمع غدة مضمحلة لم يعد من المسور لها أن تروح عن صاحبها بالبكاء. قلت:

ـ لماذا تبقين وحدك كأنك بلا صديق؟ أصغى إلىّ، أنا رجل عجوز بل عجوز جدا كما

ترين، وقد تعثر تيار حياتي ثلاث مرات أو أربع، تمنيت عند كل مرة أن أقتل نفسي، وكنت أهتف من قلب مكلوم «لقد انتهى كل شيء»، وها أنت ترينني على رأس عمر مديد لا يظفر به إلا الأقلون، ولم يبق من عثرات اليأس إلا ذكريات غامضة بلا طعم ولا رائحة ولا معنى كأنما كانت من تجارب شخص آخر!

استقبلت كلماتي بلا حماس وبلا فتور. قلت:

لنترك أحزاننا لزمن يبرى الحديد ويفتت الحجر، ولكن عليك أن تفكري في مستقبلك، الحق يا زهرة أن المرأة لم تعد تريدك.

فبادرتنی بشدة:

ـ لا يهمني ذلك . .

\_ماذا أعددت للمستقبل؟

قالت وهي ترنو إلى الأرض ما تزال:

\_كالماضي تماما حتى أحقق ما أريد. .

تنسمت في قولها عزيمة ردت إلى الروح فقلت:

\_حسن أن تواصلي تعليمك وأن تتدربي على مهنة، ولكن كيف توفرين لنفسك الأمن والرزق؟

قالت بثقة وتحد:

ـ في كل خطوة أجد من يعرض عليّ عملا. .

قلت برقة أستعين بها على إقناعها:

\_ والقرية . . ألا تفكرين في العودة إليها؟

\_كلا . . إنهم يسيئون بي الظن .

فقلت فيما يشبه التوسل:

\_ ومحمود أبو العباس؟ . . له عيوبه بلا شك ولكنك قوية وستستطيعين أن تقوميه وأن تدفعيه إلى ما هو خير .

\_ليس دونهم سوء ظن بي . .

تنهدت في تسليم أسيف وقلت:

\_ أود أن أطمئن عليك يا زهرة، إنى أحبك. هو حب متبادل فيما أعتقد. وباسمه سأرجوك أن تقصديني عند الشدة. .

رمقتنى بامتنان وحب فقلت:

- مهما يكن من مرارة التجربة الماضية فلن تغير مرارتها من طبيعة الأشياء ، ستظل غايتك المنشودة هي العثور على ابن الحلال!

أحنت رأسها وهي تتنهد. .

\_وستجدين حتما ابن الحلال الجدير بك . . إنه موجود الآن في مكان ما ولعله يتحين اللحظة المناسبة!

غمغمت بكلام لم أتبينه ولكن حدثني قلبي بأنه كلام طيب، فقلت:

ـ ما تزال الدنيا بخير، وستكون كذلك إلى الأبد!

لبثنا جالسين نراوح بين الصمت والمناجاة. وبعد وقت غير قصير استأذنت في الانصراف ثم ذهبت إلى حجرتها.

مكثت وحدى طويلا حتى استيقظت ـ تسلل النوم إلى وأنا لا أدرى ـ على صوت الباب وهو يفتح.

دخلت ماريانا وطلبة مرزوق ثملين وهما يغنيان، وصاح بي الرجل:

\_ماذا أبقاك هنا أيها العجوز؟

تثاءبت في ذهول وأنا أتساءل:

\_كم الساعة؟

فأجابت ماريانا بلسان مخمور:

\_مضت ساعتان من العام الجديد.

وإذا بالرجل يشدها إلى حجرته وهو يقبلها فتطاوعه بعد تمنع لاخطورة له، ثم أغلق الباب وراءهما. جعلت أنظر إلى الباب المغلق وكأنني في حلم!

\* \* \*

جمعتنا مائدة الإفطار صباحا وكنا وحدنا. لم تظهر ماريانا على حين ذهبت زهرة بعد إعداد المائدة.

نظرت إليه فوجدته مريضا أو كالمريض. قلت له مداعبا:

ـ صباحية مباركة!

تجاهلني مليا، ثم تمتم:

\_ يا لك من نحس!

رفعت إليه عيني مستطلعا فضحك رغما منه وقال:

\_كان فشلا مزريا ومضحكا معا.

تساءلت متغابيا:

\_عم تتحدث؟

\_إنك تعرف تماما عما أتحدث يا ثعلب!

\_ماريانا؟

غلبه الضحك مرة أخرى ثم قال:

ـ حـاولنا المسـتـحـيل ، فعلنا كل مـا يمكن تخيله، ولكن بلا فـائدة، ولما تجردت من ملابسها تبدت كمومياء من شمع مذاب فقلت لنفسى يا للتعاسة!

\_لقد جننت!

\_ وإذا بآلام الكلى تنتابها! تصور ، وبكت ، واتهمتنى بأننى أمثل بها!

\* \* \*

تبعنى إلى حجرتي بعد الإفطار . جلس على كرسى أمامي مباشرة وهو يقول :

ـ يخيل إلى أنني سأسافر إلى الكويت قريبا، أفتاني المرحوم بذلك.

-المرحوم؟

ـ سرحان البحيري.

وضحك ضحكة قصيرة ثم قال بلا مناسبة ظاهرة على الأقل:

- أراد أن يقنعني بالثورة بمنطق غريب.

نظرت إليه متسائلا فقال:

- أكد لى أنه لا بديل للثورة إلا واحد من اثنين. . الشيوعيين أو الإخوان! فظن أنه دفعني إلى ركن مسدود. .

فقلت بإيمان:

ـ ولكن ذلك هو الحق!

ضحك ساخرا ثم قال:

ـ بل يوجد بديل ثالث!

\_ما هو؟

\_أمريكا!

هتفت بغيظ:

\_أمريكا تحكمنا؟

فقال بهدوء حالم:

\_عن طريق يمينيين معقولين، لم لا؟

ضقت بأحلامه فقلت:

- اذهب إلى الكويت قبل أن تجن!

\* \* \*

ها هى الصحف تحمل إلينا أنباء الجريمة. إنها تترادف غريبة ومتناقضة. لقد اعترف منصور باهى بالقتل ولكنه لم يقنع أحدا بالباعث عليه. قال إنه قتل سرحان البحيرى لأنه \_ فى نظره \_ يستحق القتل. ولماذا يستحق سرحان البحيرى القتل؟ لصفات وتصرفات هى مرذولة فى ذاتها ولكنها ليست بقاصرة عليه، فلم اختاره بالذات؟ بمحض الصدفة وكان من المحتمل أن يختار غيره. هكذا أجاب. منذا الذى يقتنع بذلك الكلام؟ أيكون الفتى مجنونا؟! هل يدعى الجنون؟

وإذا بتقرير الطبيب الشرعى يؤكد أن الوفاة نتجت عن قطع شرايين رسغ اليد اليسرى بموسى حلاقة، وليس بضرب الحذاء كما اعترف القاتل، وبذلك رجع أن تكون الوفاة نتيجة انتحار لا قتل..

وأخيرا اكتشفت العلاقة بين القتيل وبين جريمة تهريب الغزل وبذلك تؤكد الانتحار .

وتساءلنا عن العقوبة التي يستحقها منصور باهي. أجل. . ستكون حتما عقوبة طفيفة، وسوف يستأنف حياته ولكن بأي قلب وبأي عقل؟ وقد قلت بحزن:

\_إنه فتى رائع ولكنه يعانى داء خفيفا، عليه أن يبرأ منه.

\* \* \*

ها هي زهرة كما رأيتها أول مرة لولا مسحة من الحزن. أنضجتها الأيام الأخيرة أكثر ما أنضجتها أعوام العمر السابقة جميعا. تناولت الفنجال من يدها وأنا أداري انقباضي بابتسامة.

قالت بصوت طبيعي:

\_سأذهب صباح الغد. .

كنت حاولت إثناء ماريانا عن رأيها ولكنها أصرت عليه بعناد. ومن الناحية الأخرى صارحتني زهرة بأنها لن تقبل البقاء حتى لو عدلت المدام عن رأيها.

وعادت تقول بثقة:

\_سأكون أحسن مما كنت هنا.

فقلت بحرارة:

\_حمدالله.

فافتر ثغرها عن ابتسامة حنون وهي تقول:

ـ ولن أنساك ما حييت أبدا. .

أشرت إليها أن تقرب وجهها مني، ثم قبلت خديها بامتنان وأنا أقول:

\_أشكرك يا زهرة..

ثم همست في أذنها:

ـ ثقى من أن وقتك لم يضع سدى، فإن من يعرف من لا يصلحون له فقد عرف بطريقة سحرية الصالح المنشود. .

وكعادتى لدى جيشان الصدر هرعت إلى سورة الرحمن فرحت أتلو: ﴿ الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۞ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَان ۞ وَالنَّجْمُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَان ۞ وَالنَّجْمُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَان ۞ وَالنَّجْمُ وَالشَّمْتُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَان ۞ وَالنَّجْمُ وَالشَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَان ۞ وَالشَّمُوا الْوَزْنَ بِالْقَسْطُ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۞ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا للأَنَامِ ۞ فَيهَا فَاكهة وَالنَّحْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ۞ وَالْحَبُ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۞ فَإِلَيَّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذَّبُانِ ﴾.

(تـــت)



### المحتويسات

410	رفاعة	171	افتتاحية
۳۸۷	قاسم	١٦٣	أدهــم
193	عرفة	727	جـبل

### افتتـــاحيـــة

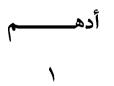
هذه حكاية حارتنا، أو حكايات حارتنا وهو الأصدق. لم أشهد من واقعها إلا طوره الأخير الذي عاصرته، ولكني سجلتها جميعًا كما يرويها الرواة وما أكثرهم. جميع أبناء حارتنا يروون هذه الحكايات، يرويها كلٌّ كما يسمعها في قهوة حيّه أو كما نقلت إليه خلال الأجيال، ولا سندلى فيما كتبت إلا هذه المصادر. وما أكثر المناسبات التي تدعو إلى ترديد الحكايات! كلما ضاق أحد بحاله، أو ناء بظلم أو سوء معاملة، أشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناصيتها المتصلة بالصحراء وقال في حسرة: «هذا بيت جدّنا، جميعنا من صلبه، ونحن مستحقو أوقافه، فلماذا نجوع؟ وكيف نضام؟!». ثم يأخذ في قص القصص والاستشهاد بسير أدهم وجبل ورفاعة وقاسم من أولاد حارتنا الأمجاد. وجدّنا هذا لغز من الألغاز. عمّر فوق ما يطمع إنسان أو يتصور حتى ضُرب المثل بطول عمره. واعتزل في بيته لكبره منذ عهد بعيد، فلم يره منذ اعتزاله أحد. وقصة اعتزاله وكبره مما يحير العقول، ولعل الخيال أو الأغراض قد اشتركت في إنشائها. على أي حال، كان يدعى الجبلاوي وباسمه سميت حارتنا. وهو صاحب أوقافها وكل قائم فوق أرضها والأحكار المحيطة بها في الخلاء. سمعت مرة رجلاً يتحدث عنه فيقول: «هو أصل حارتنا، وحارتنا أصل مصر أمّ الدنيا، عاش فيها وحده وهي خلاء خراب، ثم امتلكها بقوة ساعده ومنزلته عند الوالي. كان رجلاً لا يجود الزمان بمثله، وفتوة تهاب الوحوش ذكره». وسمعت آخر يقول عنه: «كان فتوة حقًّا، ولكنه لم يكن كالفتوات الآخرين، فلم يفرض على أحد إتاوة، ولم يستكبر في الأرض، وكان بالضعفاء رحيمًا». ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره ومكانته، وهكذا حال الدنيا. وكنت وما زلت أجد الحديث عنه شائقًا لا يمل. وكم دفعني ذاك إلى الطواف ببيته الكبير لعلى أفوز بنظرة منه ولكن من دون جدوى. وكم وقفت أمام بابه الضخم أرنو إلى التمساح المحنط المركب أعلاه، وكم جلست في صحراء المقطم غير بعيد من سوره الكبير فلا أرى إلا رءوس أشجار التوت والجميز والنخيل تكتنف البيت، ونوافذ مغلقة لا تنم على أى أثر لحياة. أليس من المحزن أن يكون لنا جد مثل هذا الجد دون أن نراه أو يرانا؟ أليس من الغريب أن يختفي هو في هذا البيت الكبير المغلق وأن نعيش نحن في التراب؟! وإذا تساءلت عما صار به وبنا إلى هذا الحال سمعت من فورك القصص، وترددت على أذنيك أسماء أدهم وجبل ورفاعة وقاسم، ولن تظفر بما يبل الصدر أو يريح العقل.

قلت إن أحدًا لم يره منذ اعتزاله. ولم يكن هذا بذى بال عند أكثر الناس، فلم يهتموا منذ بادئ الأمر إلا بأوقافه وبشروطه العشرة التى كثر القيل والقال عنها، ومن هنا ولد النزاع فى حارتنا منذ ولدت، ومضى خطره يستفحل بتعاقب الأجيال حتى اليوم، والغد. ولذلك فليس أدعى إلى السخرية المريرة من الإشارة إلى صلة القربى التى تجمع بين أبناء حارتنا. كنا ومازلنا أسرة واحدة لم يدخلها غريب. وكل فرد فى حارتنا يعرف سكانها جميعًا نساء ورجالاً. ومع ذلك فلم تعرف حارةٌ حدة الخصام كما عرفناها، ولا فرق بين أبنائها النزاع كما فرق بيننا، ونظير كل ساع إلى الخير تجد عشرة فتوات يلوحون بالنبابيت ويدعون إلى القتال. حتى اعتاد الناس أن يشتروا السلامة بالإتاوة، والأمن بالخضوع والمهانة، ولاحقتهم العقوبات الصارمة لأدنى هفوة فى القول أو فى الفعل بل الخاطرة تخطر فيشى بها الوجه.

وأعجب شيء أن الناس في الحارات القريبة منا كالعطوف وكفر الزغارى والدراسة والحسينية يحسدوننا على أوقاف حارتنا ورجالنا الأشداء، فيقولون: حارة منيعة وأوقاف تدر الخيرات وفتوات لا يغلبون. كل هذا حق، ولكنهم لا يعلمون أننا بتنا من الفقر كالمتسولين، نعيش في القاذورات بين الذباب والقمل، نقنع بالفتات، ونسعى بأجساد شبه عارية. وهؤلاء الفتوات يرونهم وهم يتبخترون فوق صدورنا، فيأخذهم الإعجاب، ولكنهم ينسون أنهم إنما يتبخترون فوق صدورنا، ولا عزاء لنا إلا أن نتطلع إلى البيت الكبير ونقول في حزن وحسرة: «هنا يقيم الجبلاوى، صاحب الأوقاف، هو الجدونحن الأحفاد».

شهدت العهد الأخير من حياة حارتنا، وعاصرت الأحداث التي دفع بها إلى الوجود «عرفة» ابن حارتنا البار. وإلى أحد أصحاب عرفة يرجع الفضل في تسجيل حكايات حارتنا على يدى، إذ قال لى يومًا: "إنك من القلة التى تعرف الكتابة، فلماذا لا تكتب حكايات حارتنا؟ إنها تروى بغير نظام، وتخضع لأهواء الرواة وتحزّباتهم، ومن المفيد أن تسجل بأمانة فى وحدة متكاملة ليحسن الانتفاع بها، وسوف أمدك بما لا تعلم من الأخبار والأسرار». ونشطت إلى تنفيذ الفكرة، اقتناعًا بوجاهتها من ناحية، وحبّا فيمن اقترحها من ناحية أخرى.

وكنت أول من اتخذ من الكتابة حرفةً في حارتنا على رغم ما جرّه ذلك على من تحقير وسخرية. وكانت مهمتى أن أكتب العرائض والشكاوى للمظلومين وأصحاب الحاجات. وعلى كثرة المتظلمين الذين يقصدوننى فإن عملى لم يستطع أن يرفعنى عن المستوى العام للمتسولين في حارتنا، إلى ما أطلعنى عليه من أسرار الناس وأحزانهم حتى ضيق صدرى وأشجن قلبى. ولكن مهلاً، فإننى لا أكتب عن نفسى ولا عن متاعبى، وما أهون متاعبى إذا قيست بمتاعب حارتنا! حارتنا العجيبة ذات الأحداث العجيبة. كيف وجدت؟ وماذا كان من أمرها؟ ومن هم أولاد حارتنا؟



كان مكان حارتنا خلاء. فهو امتداد لصحراء المقطم الذى يربض فى الأفق. ولم يكن بالخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذى شيده الجبلاوى كأنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطاع الطريق. كان سوره الكبير العالى يتحلق مساحة واسعة، نصفها الغربى حديقة، والشرقى مسكن مكون من أدوار ثلاثة.

ويومًا دعا الواقف أبناءه إلى مجلسه بالبهو التحتاني المتصل بسلاملك الحديقة. وجاء الأبناء جميعًا، إدريس وعباس ورضوان وجليل وأدهم، في جلابيبهم الحريرية، فوقفوا بين يديه وهم من إجلاله لا يكادون ينظرون نحوه إلا خلسة. وأمرهم بالجلوس فجلسوا على المقاعد من حوله، وراح يتفحصهم هنيهة بعينيه النافذتين كعيني الصقر، ثم قام متجهًا نحو باب السلاملك. ووقف وسط الباب الكبير ينظر إلى الحديقة المترامية التي تزحمها أشجار التوت والجميز والنخيل، وتعترش في جنباتها الحناء والياسمين، وتثب فوق غصونها مزقزقة العصافير. ضجت الحديقة بالحياة والغناء على حين ساد الصمت بالبهو. وخيل إلى الإخوة أن فتوة الخلاء قد نسيهم، وهو يبدو بطوله وعرضه خلقًا فوق

الآدميين كأنما من كوكب هبط. وتبادلوا نظرات متسائلة. إن هذا شأنه إذا قرر أمرًا ذا خطر، وما يقلقهم إلا أنه جبار في البيت كما هو جبار في الخلاء وإنهم حياله لا شيء. التفت الرجل نحوهم دون أن يبرح مكانه وقال بصوت خشن عميق تردد بقوة في أنحاء البهو الذي توارت جدرانه العالية وراء ستائر وطنافس:

ـ أرى من المستحسن أن يقوم غيرى بإدارة الوقف. . .

وتفحّص وجوههم مرة أخرى، ولكن لم تنم وجوههم على شيء. لم تكن إدارة الوقف مما يغرى قومًا استحبوا الفراغ والدعة وعربدة الشباب. وفضلاً عن هذا فإدريس الأخ الأكبر هو المرشح الطبيعي للمنصب، فلم يعد أحد منهم يتساءل عما هنالك. وقال إدريس لنفسه: «يا له من عبء! هذه الأحكار لا حصر لها، وهؤلاء المستأجرون المناكيد!». أما الجبلاوي فاستطرد قائلاً:

\_ وقد وقع اختياري على أخيكم أدهم ليدير الوقف تحت إشرافي. .

عكست الوجوه وقع مفاجأة غير متوقعة، فتبودلت النظرات في سرعة وانفعال، إلا أدهم فقد غض بصره حياء وارتباكًا، وولاهم الجبلاوي ظهره وهو يقول في عدم اكتراث:

\_لهذا دعوتكم. .

تفجر الغضب في باطن إدريس، فبدا كالثمل من شدة مقاومته، ونظر إليه إخوته بحرج، ودارى كل منهم عدا أدهم طبعًا خضبه لكرامته باحتجاجه الصامت على تخطى إدريس، الذى كان تخطيًا مضاعفًا لهم. أما إدريس فقال بصوت هادئ كأنما يخرج من جسم آخر:

ـ ولكن يا أبي. . . .

قاطعه الأب ببرود وهو يلتفت نحوهم:

\_ولكن؟!

فغضّوا الأبصار حذرًا من أن يقرأ ما في نفوسهم ، إلا إدريس فقد قال بإصرار :

ـ ولكننى الأخ الأكبر . .

فقال الجبلاوي مستاء:

\_ أظن أنني أعلم ذلك، فأنا الذي أنجبتك.

فقال إدريس وحرارة غضبه آخذة في الارتفاع:

\_ للأخ الأكبر حقوق لا تهضم إلا لسبب . .

فحدجه الرجل بنظرة طويلة كأنما يمنحه فرصة طيبة لتدبّر أمره وقال:

\_ أؤكد لكم أني راعيت في اختياري مصلحة الجميع . .

تلقى إدريس اللطمة بصبر ينفد. إنه يعلم كم يضيق أبوه بالمعارضة، وإن عليه أن يتوقع لطمات أشد إذا تمادى فيها، ولكن الغضب لم يدع له فرصة لتدبّر العواقب، فاندفع خطوات حتى كاد يلاصق أدهم، وانتفخ كالديك المزهو ليعلن للأبصار فوارق الحجم واللون والبهاء بينه وبين أخيه، وانطلق الكلام من فيه كما ينطلق نثار الريق عند العطس بغير ضابط:

\_ إنى وأشقائي أبناء هانم من خيرة النساء. أما هذا فابن جارية سوداء. .

شحب وجه أدهم الأسمر دون أن تندّ عنه حركة ، على حين لوح الجبلاوي بيده قائلا بنبرات الوعيد:

\_ تأدب يا إدريس . .

ولكن إدريس كانت تعصف به عواصف الغضب المجنونة فهتف:

ـ وهو أصغرنا أيضًا، فدلني على سبب يرجحني به إلا أن يكون زماننا زمان الخدم والعبيد. .

- اقطع لسانك رحمة بنفسك يا جاهل..

- إن قطع رأسى أحب إلى من الهوان . .

ورفع رضوان رأسه نحو أبيه وقال برقة باسمة:

ـ نحن جميعًا أبناؤك، ومن حقنا أن نحزن إذا افتقدنا رضاك عنا، والأمر لك على أى حال. . وغاية مرامنا أن نعرف السبب. .

وعدل الجبلاوي عن إدريس إلى رضوان، مروّضًا، غضبه لغاية في نفسه، فقال:

- أدهم على دراية بطباع المستأجرين، ويعرف أكثرهم بأسمائهم، ثم إنه على علم بالكتابة والحساب. .

وعجب إدريس من قول أبيه كما عجب إخوته. متى كانت معرفة الأوشاب ميزة يفضل من أجلها إنسان؟! ودخول الكتّاب، أهو ميزة أخرى؟! وهل كانت أم أدهم تدفع به إلى الكتّاب لولا يأسها من فلاحه في دنيا الفتونة؟! وتساءل إدريس متهكمًا:

- أتكفى هذه الأسباب لتبرير ما يراد بي من مذلة؟

فأشار الجبلاوي نحوه بضجر وقال:

ـ هذه إرادتي ، وما عليك إلا السمع والطاعة. .

والتفت الرجل التفاتة حادة صوب أشقاء إدريس وهو يسأل:

\_ما قولكم؟

فلم يحتمل عباس نظرة أبيه، وقال وهو واجم:

\_سمعًا وطاعة . .

وسرعان ما قال جليل وهو يغض طرفه:

\_أمرك يا أبى . .

وقال رضوان وهو يزدرد ريقه الجاف:

ـ على العين والرأس. .

عند ذاك ضحك إدريس ضحكة غضب تقلصت لها أساريره حتى قبحت وجهه وهتف:

- يا جبناء، ما توقعت منكم إلا الهزيمة المزرية. وبالجبن يتحكم فيكم ابن الجارية السوداء..

فصاح الجبلاوي مقطبا عن عينين تتطاير منهما النذر:

\_إدريس!

ولكن الغضب كان قد اقتلع جذور عقله فصاح بدوره:

\_ما أهون الأبوة عليك، خلقت فتوة جبارا فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جبارًا، ونحن أبناءك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين. .

اقترب الجبلاوي خطوتين في بطء كالتوثب، وقال بصوت منخفض وقد أنذرت أساريره المتقبضة بانشر:

\_اقطع لسانك!

ولكن إدريس واصل صياحه قائلاً:

ـ لن ترعبني. أنت تعلم أنني لا أرتعب، وأنك إذا أردت أن ترفع ابن الجارية على فلن أسمعك لحن السمع والطاعة.

\_ ألا تدرك عاقبة التحدي يا ملعون؟

ـ الملعون حقًّا ابن الجارية . .

فعكت نبرات الرجل واخشوشنت وهو يقول:

\_إنها زوجتي يا عربيد، فتأدّب وإلا سويت بك الأرض. .

وفزع الإخوة وأولهم أدهم لدرايتهم ببطش أبيهم الجبار، ولكن إدريس كان قد بلغ من الغضب درجة لم يعد يدرك معها خطرًا كأنه مجنون يهاجم نارًا مندلعة، فصاح:

\_إنك تبغضني، لم أكن أعلم هذا، ولكنك تبغضني دون ريب، لعل الجارية هي التي

بغّضتنا إليك، سيد الخلاء وصاحب الأوقاف والفتوة الرهيب، ولكن جارية استطاعت أن تعبث بك، وغدًا يتحدث عنك الناس بكل عجيبة يا سيد الخلاء.

ـ قلت لك اقطع لسانك يا ملعون.

ـ لا تسـبّني من أجل أدهم، طوب الأرض يأبي ذلك ويلعنه، وقـرارك الغـريب سيجعلنا أحدوثة الأحياء والحواري. .

فصاح الجبلاوي بصوت صك الأسماع في الحديقة والحريم:

\_ اغرب بعيدًا عن وجهي. .

ـ هذا بیتی، فیه أمی، وهی سیدته دون منازع.

ـ لن تُرى فيه بعد اليوم، وإلى الأبد. .

واكفهر الوجه الكبير حتى حاكى لونه النيل فى احتدام فيضانه، وتحرك صاحبه كالبنيان، مكورًا قبضة من صوان. وأيقن الجميع أن إدريس قد انتهى. ما هو إلا مأساة جديدة من المآسى التى يشهدها هذا البيت صامتًا. كم من سيدة مصونة تحولت بكلمة إلى متسولة تعيسة. وكم من رجل غادره بعد خدمة طويلة مترنحًا يحمل على ظهره العارى آثار سياط حملت أطرافها بالرصاص والدم يطفح من فيه وأنفه. والرعاية التى تحوط الجميع عند الرضا لا تشفع لأحد وإن عز جانبه عند الغضب. لهذا أيقن الجميع أن إدريس قد انتهى. وتقدم قد انتهى. حتى إدريس بكرى الواقف ومثيله فى القوة والجمال قد انتهى. وتقدم الجبلاوى خطوتين أخريين وهو يقول:

ـ لا أنت ابنى ولا أنا أبوك، ولا هذا البيت بيتك، ولا أم لك فيه ولا أخ ولا تابع، أمامك الأرض الواسعة فاذهب مصحوبًا بغضبى ولعنتى، وستعلمك الأيام حقيقة قدرك وأنت تهيم على وجهك محرومًا من عطفى ورعايتى!

فضرب إدريس البساط الفارسي بقدمه وصاح:

ـ هذا بيتي، ولن أغادره. .

فانقض عليه الأب قبل أن يتقيه، وقبض على منكبه بقبضة كالمعصرة، ودفعه أمامه والآخر يتراجع مقهقرًا، فعبرا باب السلاملك، وهبطا السلم وإدريس يتعثر، ثم اخترق به ممراً تكتنفه شجيرات الورد والحناء مفروشًا بالياسمين حتى البوابة الكبيرة فدفعه خارجًا وأغلق الباب. وصاح بصوت سمعه كل من يقيم في البيت:

-الهلاك لمن يسمح له بالعودة أو يعينه عليها. .

ورفع رأسه صوب نوافذ الحريم المغلقة وصاح مرة أخرى:

\_وطالقة ثلاثا من تجترئ على هذا. .

۲

منذ ذلك اليوم الكئيب وأدهم يذهب كل صباح إلى إدارة الوقف في المنظرة الواقعة إلى يمين باب البيت الكبير. وعمل بهمة في تحصيل أجور الأحكار وتوزيع أنصبة المستحقين وتقديم الحساب إلى أبيه. وأبدى في معاملة المستأجرين لباقة وسياسة، فرضوا عنه على رغم ما عرف عنهم من مشاكسة وفظاظة. وكانت شروط الواقف سرا لا يدرى به أحد سوى الأب، فبعث اختيار أدهم للإدارة الخوف أن يكون هذا مقدمة لإيثاره في الوصية. والحق أنه لم يبد من الأب قبل ذلك اليوم ما ينم عن التحيز في معاملته لأبنائه. وعاش الإخوة في وئام وانسجام بفضل مهابة الأب وعدالته. حتى إدريس على قوته وجماله وإسرافه أحيانًا في اللهو لم يسئ قبل ذلك اليوم إلى أحد من إخوته. كان شابًا كريمًا حلو المعشر حائزًا الود والإعجاب. ولعل الأشقاء الأربعة كانوا يضمرون لأدهم شيئا من الإحساس بالفارق بينهم وبينه، ولكن أحدًا منهم لم يعلن هذا ولا اشتم منه في كلمة أو إشارة أو سلوك. ولعل أدهم كان أشد إحساسًا منهم بهذا الفارق، ولعله قارن كثيرًا بين لونهم المضيء ولونه الأسمر، بين قوتهم ورقته، بين سمو أمهم ووضاعة أمه، ولعله عانى من ذلك أسى مكتومًا وألمًا دفينًا، ولكن جو البيت المعبق بشذا الرياحين، الخاضع لقوة الأب وحكمته، لم يسمح لشعور سيئ بالاستقرار في نفسه، الرياحين، الخاضع لقوة الأب وحكمته، لم يسمح لشعور سيئ بالاستقرار في نفسه، فنشأ صافي القلب والعقل.

وقال أدهم لأمه قبيل ذهابه إلى إدارة الوقف:

- باركيني يا أمى، فما هذا العمل الذي عهد به إلى ّ إلا امتحان شديد لي ولك . . فقالت الأم بضراعة :

ليكن التوفيق ظلك يا بني، أنت ولد طيِّب والعقبي للطيبين . .

ومضى أدهم إلى المنظرة ترمقه العيون من السلاملك والحديقة ومن وراء النوافذ، وجلس على مقعد ناظر الوقف وبدأ عمله. وكان عمله أخطر نشاط إنساني يزاول في تلك البقعة الصحراوية ما بين المقطم شرقًا والقاهرة القديمة غربًا. واتخذ أدهم من الأمانة شعارًا، وسجل كل مليم في الدفتر لأول مرة في تاريخ الوقف. وكان يسلم إخوته رواتبهم في أدب ينسيهم مرارة الحنق ثم يقصد أباه بحصيلة الأموال. وسأله أبوه مما:

\_كيف تجد العمل يا أدهم؟

فقال أدهم بخشوع:

ـ ما دمت قد عهدت به إلى فهو أعظم ما في حياتي .

فشاعت فى الوجه العظيم البشاشة، إذ إنه على جبروته كان يستخفّه طرب الثناء. وكان أدهم يحب مجلسه. وإذا جلس إليه اختلس منه نظرات الإعجاب والحب. وكم كان يسعده أن يتابع أحاديثه وهو يروى له ولإخوته حكايات الزمان الأول، ومغامرات الفتوة والشباب، إذ هو ينطلق فى تلك البقاع ملوحًا بنبوته المخيف غازيًا كل موضع تطؤه قدماه. وبعد طرد إدريس ظل عباس ورضوان وجليل على عادتهم من الاجتماع فوق سطح البيت، يأكلون ويشربون ويقامرون. أما أدهم فلم يكن يطيب له المجلوس إلا فى الحديقة. كان عاشقًا للحديقة منذ درج، وكان عاشقًا للناى. ولازمته تلك العادة بعد اضطلاعه بشئون الوقف وإن لم تعد تستأثر بجل وقته. فكان إذا فرغ من عمله فى الوقف افترش سجادة على حافة جدول، وأسند ظهره إلى جذع نخلة أو عميزة، أو استلقى تحت عريشة الياسمين، وراح يرنو إلى العصافير وما أكثر العصافير! أو يتابع اليمام وما أحلى اليمام! ثم ينفخ فى الناى محاكيًا الزقزقة والهديل والتغريد وما أبدع المحاكاة! أو يمد الطرف نحو السماء خلال الغصون وما أجمل السماء! ومر" به أخوه رضوان وهو على تلك الحال فرمقه بنظرة ساخرة وقال:

\_ ما أضيع الوقت الذي تنفقه في إدارة الوقف!

فقال أدهم باسمًا:

\_ لولا إشفاقي من إغضاب أبي لشكوت . .

\_ فلنحمد نحن المولى على الفراغ!

فقال أدهم ببساطة:

\_هنيئًا لكم..

فسأله رضوان وهو يداري الامتعاض بالابتسام:

\_أتود أن تعود مثلنا؟

ـ خير ما تمضى الحياة في الحديقة والناي . .

فقال رضوان بمرارة:

\_كان إدريس يود أن يعمل . .

فغض أدهم بصره وهو يقول:

ـ لم يكن عند إدريس وقت للعمل، ولاعتبارات أخرى غضب، أما السعادة الحقة ففي هذه الحديقة تجدها. . ولما ذهب رضوان قال أدهم لنفسه: «الحديقة، وسكانها المغردون، والماء، والسماء، ونفسى النشوى، هذه هى الحياة الحقة. كأننى أجدّ فى البحث عن شىء. ما هذا الشىء؟ الناى أحيانًا يكاد يجيب. ولكن السؤال يظل بلا جواب. لو تكلمت هذه العصفورة بلغتى لشفت قلبى باليقين. وللنجوم الزاهرة حديث كذلك. أما تحصيل الإيجار فنشاز بين الأنغام».

ووقف أدهم يومًا ينظر إلى ظله الملقى على الممشى بين الورود، فإذا بظل جديد يمتد من ظله واشيًا بقدوم شخص من المنعطف خلفه. بدا الظل الجديد كأنما يخرج من موضع ضلوعه. والتفت وراءه فرأى فتاة سمراء وهى تهمّ بالتراجع عندما اكتشفت وجوده، فأشار إليها بالوقوف فوقفت، وتفحصها مليًا، ثم سألها برقة:

\_ من أنت؟

فأجابت بصوت ملعثم:

\_ أميمة . .

إنه يذكر الاسم، فهو لجارية، قريبة لأمه، وكما كانت أمه قبل أن يتزوج منها أبوه. ومال إلى محادثتها أكثر، فسألها:

\_ماذا جاء بك إلى الحديقة؟

فأجابت مسبلة الجفنين:

\_حسبتها خالية . . .

\_لكن ذلك محرم عليكن. .

فقالت بصوت لم يكد يسمع:

\_أخطأت يا سيدى . .

وتراجعت حتى توارت وراء المنعطف، ثم ترامى إلى أذنيه وقع أقدامها المسرعة، وإذا به يغمغم متأثرًا: «ما أملحك!». وشعر بأنه لم يكن قط أدخل فى خلائق الحديقة منه فى هذه اللحظة. وإن الورد والياسمين والقرنفل والعصافير واليمام ونفسه نغمة واحدة. وقال لنفسه: «أميمة مليحة، حتى شفتاها الغليظتان مليحتان، وجميع إخوتى متزوجون عدا إدريس المتكبر، وما أشبه لونها بلونى! وما أجمل منظر ظلها وهو مفروش فى ظلى كأنه جزء من جسدى المضطرب بالرغبات! ولن يسخر أبى من اختيارى وإلا فكيف جاز له أن يتزوج من أمى؟!».

### ٣

رجع أدهم إلى إدارة الوقف بقلب مفعم بجمال غامض كالعبير. وحاول كثيراً أن يرى يراجع حساب اليوم، ولكنه لم ير في صفحة عقله إلا السمراء. ولم يكن عجيباً أن يرى أميمة اليوم لأول مرة، فالحريم في هذا البيت كالأعضاء الباطنية يعرفها صاحبها على نحو ويعيش بفضلها ولكنه لا يراها. واستسلم أدهم إلى تيار أفكاره الوردية حتى انتزع منه على صوت مرعد قريب كأنما انفجر في المنظرة نفسها وهو يصيح: «أنا هنا، في الخلاء يا جبلاوي، ألعن الكل، اللعنة على رءوسكم نساء ورجالاً، وأتحدى من لم تعجبه كلماتي، سامعني يا جبلاوي؟!». وهتف أدهم: «إدريس!» وغادر المنظرة إلى الحديقة فرأى أخاه رضوان متجهاً نحوه في اضطراب ظاهر، وبادره قائلاً:

\_إدريس سكران، رأيته من النافذة مختل التوازن من السكر، أي فضائح تخبئ الأقدار لأسرتنا؟

فقال أدهم وهو يغضى ألما:

\_قلبي يتقطع أسفًا يا أخي . .

\_وما العمل؟! إن كارثة تتهددنا!

ـ ألا ترى يا أخى أنه يجب علينا أن نحدث أبانا في الأمر . . ؟

فقطب رضوان قائلاً:

\_أبوك لا يراجع في أمر، وحال إدريس هذه لا شك ضاعفت من غضبه عليه. .

فغمغم أدهم في كآبة:

\_ما كان أغنانا عن هذه الأحزان!

ـ نعم، النساء يبكين في الحريم، عباس وجليل معتكفان من الكدر، وأبونا وحده في حجرته لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه. .

فتساءل أدهم في قلق وهو يشعر بأن ملابسات الحديث تدفعه إلى مأزق:

\_ألا ترى أنه ينبغى أن نعمل شيئًا؟

ـ يبدو أن كل واحد منا يود أن يلوذ بالسلامة ، ولا يهدد السلامة مثل طلبها بأى ثمن ، غير أنى لن أجازف بمركزى ولو انطبقت السماء على الأرض ، أما كرامة أسرتنا فتتمرغ الساعة في التراب في ثوب إدريس . .

لماذا قصدتني إذن؟! بين يوم وليلة انقلب أدهم غراب بين ينعق! وتنهد قائلاً:

\_ إنى برىء من كل هذا، ولكن لن تطيب لى الحياة إن سكتّ. . فقال رضوان وهو يهم بالذهاب:

\_لديك من الأسباب ما يوجب عليك العمل . . !

ومضى راجعًا. ولبث أدهم وحده وأذناه ترددان هذه العبارة: «لديك من الأسباب..». نعم. إنه المتهم دون ذنب جناه. كالقلة التى تسقط على رأس لأن الريح أطاحت بها. وكلما أسف أحد على إدريس لعن أدهم. واتجه أدهم نحو الباب ففتحه فى رفق ومرق منه. رأى إدريس غير بعيد يترنح دائراً حول نفسه، يقلب عينين زائغتين، وقد تشعث رأسه وانحسر جيب جلبابه عن شعر صدره. ولما عثرت عيناه على أدهم توثب للانقضاض كأنه قطة لمحت فأراً، ولكن أعجزه السكر فمال نحو الأرض وملاً قبضته تراباً ورمى به أدهم فأصاب صدره وانتثر على عباءته. وناداه أدهم برقة:

\_أخى . .

فزمجر إدريس وهو يترنح:

\_اخرس يا كلب يا بن الكلب، لا أنت أخى ولا أبوك أبى، ولأدكّن هذا البيت فوق رءوسكم . .

فقال أدهم متوددًا:

ـ بل أنت أكرم هذا البيت وأنبله . .

فقهقه إدريس من فيه دون قلبه وصاح:

ـ لماذا جئت يا بن الجارية؟ عد إلى أمك وأنزلها إلى بدروم الخدم. .

فقال أدهم دون أن تتغير مودته:

ـ لا تستسلم للغضب، ولا توصد الأبواب في وجه الساعين لخيرك. .

فلوَّح إدريس بيده ثائرًا وصاح:

ملعون البيت الذي لا يطمئن فيه إلا الجبناء، الذين يغمسون اللقمة في ذل الخنوع، ويعبدون مذلهم. لن أعود إلى بيت أنت فيه رئيس، فقل لأبيك إنني أعيش في الخلاء الذي جاء منه، وإنني عدت قاطع طريق كما كان، وعربيداً أثيماً عاتيا كما يكون، وسيشيرون إلى في كل مكان أعيث فيه فساداً ويقولون: «ابن الجبلاوي»، بذلك أمر غكم في التراب يا من تظنون أنفسكم سادة وأنتم لصوص. .

وتوسل أدهم قائلا:

ـ أخى أفق، حاسب نفسك على كل كلمة توجب اللوم، ليس الطريق مسدودًا في وجهك إلا أن تسده بيديك، وإني أعدك بأن يعود كل شيء طيب إلى أصله. . فخطا إدريس نحوه بصعوبة كأن ريحًا ترجعه وقال:

ـ بأي قوة تعدني يا بن الجارية؟

فقال وهو يرمقه بحذر:

\_ بقوة الأخوة .

\_الأخوة؟! قذفت بها في أول مرحاض صادفني . .

فقال أدهم متألًا:

\_ما سمعت منك من قبل إلا الجميل . .

\_ طغيان أبيك أنطقني بالحق. .

ـ لا أحب أن يراك الناس على هذه الحال.

فأرسل إدريس ضحكة معربدة وصاح:

ـ وسيرونني على أسوأ منها كل يوم، العار والفضيحة والجريمة ستحلّ بكم على يدى، طردني أبوك دون حياء فليتحمل العواقب. .

ورمى بنفسه نحو أدهم فتنحى هذا عن موقفه دون تردد، فكاد إدريس يهوى على الأرض لولا أن استند إلى الجدار، ولبث يلهث حانقًا، وينظر في الأرض مفتشًا عن حجر، فتراجع أدهم بخفة إلى الباب و دخل. واغرورقت عيناه من الحزن. وكان صياح إدريس ما زال صاخبًا. وحانت منه التفاتة نحو السلاملك فلمح أباه خلال الباب وهو يعبر البهو، فمضى نحوه وهو لا يدرى، متغلبًا على خوفه بحزنه. ونظر إليه الجبلاوى بعينين لا تفصحان عن شيء. وكان يقف بقامته المديدة ومنكبيه العريضين أمام صورة محراب نقشت على جدار البهو خلفه. وأحنى أدهم رأسه قائلا:

\_السلام عليكم . .

فتفحصه الجبلاوي بنظرة عميقة، ثم قال بصوت نفذ إلى أعماق قلبه:

\_صرِّح بما جئت من أجله. .

فقال أدهم بصوت مهموس:

\_أبى، إن أخى إدريس.

فقاطعه الأب بصوت كضربة الفأس في الحجر:

ـ لا تذكر اسمه أمامي. .

ثم وهو يمضى إلى الداخل:

- اذهب إلى عملك!

٤

توالى مشرق الشمس ومغيبها على هذه البقعة الخلاء وإدريس يتردى في مهاوى الشقاوة. في كل يوم يسجل في كتابه حماقة جديدة. كان يدور حول البيت ليقذفه بأقذع الشتائم. أو يجلس على كثب من الباب، عاريًا كما ولدته أمه كأنما يتشمس، وهو يترنم بأفحش الأغاني. وكان يتجول في الأحياء القريبة في خيلاء الفتوات، يتحدى كل عابر بنظرات هجومية، ويتحرش بكل من يعترض سبيله، والناس يتحاشونه كاظمين، وهم يتهامسون: «ابن الجبلاوي!». ولم يحمل لغذائه هما، فكان يمد يده بكل بساطة إلى الطعام حيث وجده، في مطعم أو على عربة، فيأكل حتى يكتظ ثم يمضى دون شكر من ناحيته أو محاسبة من الآخرين. وإذا تاقت نفسه إلى العربدة مال إلى أول حانة تصادفه، فتقدم إليه البوظة حتى يسكر، ثم ينطلق لسانه كالنافورة بأسرار أسرته وأعاجيبها، وتقاليدها السخيفة وجبنها المهين، منوهًا بثورته على أبيه، جبار هذه الأحياء جميعًا، ثم يدخل في قافية ليغرق في الضحك، ويغني إذا لزم الحال ويرقص، وتتناهي مسرته إذا يدمت السهرة بمعركة، ثم يذهب مشيعًا بالتحيات.

وفى كل مكان اشتهر بهذه السيرة، فتحاماه الناس ما استطاعوا، ولكنهم سلموا بأمره كأنه مصيبة من مصائب الدهر. ونال الأسرة من ذلك ما نالها من الغم والكرب. وغلب الحزن أم إدريس فشلت واحتضرت. وجاء الجبلاوى ليودعها فأشارت نحوه بيدها السليمة محتجة وفاضت روحها في أسى وغضب. وخيم الحزن على الأسرة كخيوط العنكبوت، فتوقف سمر الإخوة فوق السطح، وسكت ناى أدهم في الحديقة.

ويومًا تفجر الأب عن ثورة جديدة كانت ضحيتها تلك المرة امرأة. إذ تعالى صوته الجهير وهو يلعن نرجس الخادمة ويطردها من البيت. وعُلم في نفس اليوم أن أعراض الحمل ظهرت على المرأة، فقُررت حتى أقرت بأن إدريس اعتدى عليها قبل طرده. وغادرت نرجس البيت وهي تصوت وتلطم خديها. وهامت على وجهها سحابة النهار حتى عثر عليها إدريس فألحقها بركابه دون ترحيب، ودون جفاء كذلك إذ لم تكن تخلو من نفع عند الحاجة.

على أن كل مصيبة وإن جلّت لابد يومًا أن تُؤلف. لذلك أخذت الحياة تعود إلى مجراها المألوف في البيت الكبير كما يعود السكان إلى ديارهم عقب زلزال أكرههم على الفرار منها. عاد رضوان وعباس وجليل إلى ندوة السطح، كما عاد أدهم إلى سهرة

الحديقة يناجى الناى فيناجيه. ووجد أميمة تضىء خواطره وتدفئ مشاعره، وصورة ظلها المعانق لظله ترتسم بوضوح في مخيلته، فقصد مجلس أمه في حجرتها حيث كانت تطرز شالا، فأفضى إليها بذات نفسه، إلى أن قال:

\_ إنها أميمة يا أمى، قريبتك. .

فابتسمت أمه ابتسامة باهتة دلت على أن فرحة الخبر لم تستطع التغلب على عناء مرضها وقالت:

\_ نعم يا أدهم، إنها فتاة طيبة، تصلح لك كما تصلح لها، وستسعدك بمشيئة المولى. . ولما رأت تورد البهجة في وجنتيه استدركت قائلة :

ـ لا ينبغى أن تدللها يا بنى حتى لا تفسد حياتك، وسأخاطب أباك في الأمر لعلى أنعم برؤية ذريتك قبل أن يدركني الموت. .

وعندما دعاه الجبلاوي إلى مقابلته وجده يبتسم ابتسامة لطيفة حتى قال لنفسه: «لا شيء يعادل شدة أبي إلا رحمته». وقال الأب:

ـ ها أنت ذا تطلب زوجـة يا أدهـم، ما أسرع الزمـن! وهـذا البيت يحتقر المساكين، ولكنك باختيار أميمة تكرم أمك، لعلك تنجـب ذرية صالحة. لقد ضاع إدريس، وعباس وجليل عقيمان، ورضوان لم يعش له ولد حتى اليوم، وجميعهم لم يرثوا عنى إلا كبريائى، فاملأ هذا البيت بذريتك، وإلا ذهب عمرى هباء.

وكانت زفة أدهم التى لم يشهد لها الحى نظيرًا من قبل. وحتى اليوم يجرى ذكرها مجرى الأمثال في حارتنا. تدلت ليلتذاك الكلوبات من غصون الأشجار ومن فوق السور حتى بدا البيت بحيرة من نور وسط الخلاء المظلم. وأقيم سرادق فوق السطح للمغنين والمغنيات. وامتدت موائد الطعام والشراب في البهو والحديقة والخلاء المتصل بمدخل البيت الكبير. وبدأت زفة أدهم من أقصى الجمالية عقب منتصف الليل. سار فيها كل من يحب الجبلاوي أو يخافه حتى انتظمت الجميع. وخطر أدهم في جلباب حريرى ولاسة مزركشة بين عباس وجليل، أما رضوان فسار في المقدمة، وعلى اليمين وعلى اليسار حاملو الشموع والورود، وتقدم الموكب مجموعة ضخمة من المنشدين والراقصين، وتعالى الغناء، وتبعته تأوهات المطربين وتحيات المعجبين بالجبلاوي وأدهم، حتى استيقظ الحي ودوت الزغاريد. وسار الموكب من الجمالية فالعطوف ثم ورقص من رقص، ووزعت الحانات البوظة مجانًا فسكر حتى الغلمان، وتهادت الجوز من جميع الغرز في طريق الموكب هدية للمحتفلين فعبق الجو بحسن كيف والهندى.

وفجأة لاح إدريس كمارد انشقت عنه الظلمة في آخر الطريق. لاح عند المنعطف

المفضى إلى الخلاء على ضوء الكلوبات التى تتقدم الموكب فتوقف حاملو الكلوبات عن السير وانتشر التهامس باسم إدريس. ولمحته أعين المنشدين فاعترض الخوف حناجرهم فكفّت عن الغناء، ورآه الراقصون فجمدت أوساطهم. وسرعان ما سكتت المزامير وخرست الطبول، وغاضت الضحكات. وتساءل كثيرون عم يفعلون، فهم إن استكانوا لم يأمنوا الأذى وإن ضربوا لم يضربوا إلا ابن الجبلاوى. ولوح إدريس بنبوته وهو يصيح:

ـ لمن الزفة يا حثالة الجبناء؟

فساد الصمت واشرأبت الأعناق نحو أدهم وإخوته، وعاد إدريس يتساءل:

\_متى كنتم لابن الجارية أو لأبيه أصدقاء؟

عند ذاك تقدم رضوان خطوات وهتف قائلاً:

\_أخى، من الحكمة أن تدع الزفة تمر . .

فصاح إدريس مقطبًا:

- أنت آخر من يتكلم يا رضوان، أنت أخ خائن وابنٌ جبان، وذليل يشتري رغد العيش بالكرامة والأخوة. .

فقال رضوان بإشفاق:

ـ لا شأن للناس باختلافاتنا. .

فقهقه إدريس قائلا:

-الناس يعلمون بخزيكم، ولولا جبنهم العريق ما وجدت هذه الزفة زامرًا أو منشدًا. .

فقال رضوان بعزم ثابت:

ـ أبوك عهد إلينا بأخيك، ولابد أن نحفظه. .

فعاد إدريس يقهقه وهو يتساءل:

- أرأيت أنك تدافع عن نفسك لا عن ابن الجارية؟

\_أين رشادك يا أخى؟ بالحكمة وحدها تعود إلى بيتك.

\_إنك كاذب، وأنت تعلم أنك كاذب. .

فقال رضوان في حزن:

ـ لن ألومك فيما يخصني، ولكن دع الزفة تمر بسلام. .

فكان جوابه أن انقض على الموكب كالثور الهائج. وأخذ نبّوته يرتفع ويهوى فتتحطم

الكلوبات وتتصدع الطبول وتتبعثر الورود؛ وراح الناس يولون مذعورين كالرمال أمام العاصفة. وتكاتف رضوان وعباس وجليل أمام أدهم فتضاعف غضب إدريس:

\_ يا أنذال، تدافعون عمن تكرهون خوفًا على الطعام والشراب. .

وهجم عليهم، فتلقّوا ضرباته بنبابيتهم دون أن يردوا عليها وهم يتراجعون. وإذا به يرمى بنفسه فجأة بينهم فيشق سبيلا إلى موقف أدهم، فعلا الصوات في النوافذ، وهتف أدهم وهو يتحفز للدفاع عن نفسه:

\_إدريس، لستُ عدوا لك فارجع إلى عقلك.

ورفع إدريس نبوته. وهنا صاح صائح: «الجبلاوى!». وصاح رضوان مخاطبًا إدريس:

\_ أبوك قادم . .

فوثب إدريس إلى جانب الطريق والتفت إلى الوراء فرأى الجبلاوي قادمًا وسط هالة من الخدم يحملون المشاعل. وعض إدريس على أسنانه ثم هتف ساخرًا:

\_سأهبك عما قريب حفيدًا من الزنا تقرّ به عينك.

واندفع نحو الجمالية والناس توسع له على الجانبين حتى ابتلعته الظلمة. وبلغ الأب موقف الأخوة وهو يتظاهر بهدوء تحت آلاف الأعين المحدقة فيه، ثم قال بلهجة آمرة:

\_ليعد كل شيء إلى أصله. .

ورجع حملة الكلوبات إلى مواقعهم، ودقت الطبول، وعزفت المزامير، ثم غنى المنشدون، ورقص الراقصون، واستأنفت الزفة مسيرها. .

وسهر البيت الكبير حتى الصباح في طرب وشراب وغناء. وعندما دخل أدهم حجرته المطلة على خلاء المقطم وجد أميمة واقفة إلى جانب المرآة والنقاب الأبيض لا يزال يغطى وجهها. كان مخموراً مسطولا لا تكاد قدماه تحملانه، فاقترب منها وهو يبذل جهداً شديداً ليتمالك أعصابه. ورفع النقاب عن وجهها الذي طالعه في أحسن رواء، وهوى برأسه حتى لثم شفتيها المكتنزتين، ثم قال بلسان مخمور:

\_لتهن الهموم جميعًا ما دمت حسن الختام. .

واتجه نحو الفراش، يستقيم خطوة ويترنح خطوة، حتى استلقى على عرض السرير باللاسة والمركوب، وكانت أميمة تنظر إلى صورته المنعكسة على المرآة وهي تبتسم في إشفاق وحنان. ٥

وجد أدهم في أميمة سعادة لم يعرفها من قبل. ولبساطته أعلن عن سعادته بأقواله وأحواله حتى تندر به إخوته. وعند ختام كل صلاة كان يبسط يديه هاتفًا: «الحمد لصاحب المنن؛ على رضا أبى الحمد له، على حب زوجتى الحمد له، على المنزلة التى أحظى بها دون من هم أجدر منى بها الحمد له، على الحديقة الغناء والناى الرفيق الحمد له». وقالت كل امرأة من نساء البيت الكبير: إن أميمة زوجة واعية، فهى ترعى زوجها كأنه ابنها، وتتودّد حماتها وتخدمها حتى أسرَتْها، وتولى مسكنها العناية التامة كأنه قطعة من جسدها. أما أدهم فكان زوجًا مترع القلب بالمحبة وحسن المعاشرة. وكما شغلته إدارة الوقف عن جزء من ملاهيه البريئة في الحديقة من قبل، فقد شغل الحب بقية يومه، واستبد به حتى نسى نفسه.

وتوالت أيام هانئة، وامتدت فوق ما قدر رضوان وعباس وجليل الساخرون، ولكنها ارتطمت في النهاية بذاك الهدوء الحكيم كما تنتهى مياه الشلال المتدفقة الراغية المزبدة في النهر الرصين. وعاد التساؤل يحتل مكانه في قلب أدهم، فشعر بأن الزمن لا يمر في غمضة عين، وأن النهار يعقبه الليل، وأن المناجاة إذا تواصلت إلى غير نهاية فقدت كل معنى، وأن الحديقة ملهاة صادقة لا يجدر به أن يهجرها، وأن شيئا من هذا لا يعنى بحال أن قلبه تحول عن أميمة، فلا تزال في صميمه، ولكن للحياة أطواراً لا يخبرها المرء إلا يومًا بيوم. وعاد إلى مجلسه عند القناة، وأجال بصره في الأزهار والعصافير عتنا ومعتذراً. وإذا بأميمة تلحق به مشرقة بالبهجة، فجلست إلى جانبه وهي تقول:

\_نظرت من النافذة لأرى ما أخّرك، لماذا لم تدعُني معك؟

فقال باسمًا:

- \_خفت أن أتعبك..
- \_ تتعبنى؟ طالما أحببت هذه الحديقة ، أتذكر أول لقاء لنا هنا؟

وأخذ يدها في يده، وأسند رأسه إلى جذع النخلة مرسلاً طرفه إلى الغصون، وإلى السماء خلال الغصون، وعادت هي تؤكد له حبها للحديقة، وكلما أمعن في الصمت أمعنت في التوكيد، إذ إنها كانت تكره الصمت بقدر ما تحب الحديقة، وكان حديث حياتها أطيب حديث. ولا بأس بالوقوف بعض الوقت عند أهم الأحداث في البيت

الكبير، وبخاصة ما يتعلق بزوجات رضوان وعباس وجليل، ثم تغير صوتها مائلا نحو العتاب وهي تقول:

\_أنت تغيب عنى يا أدهم . . !

فابتسم إليها قائلاً:

\_كيف وأنت ملء القلب؟!

ـ ولكنك لا تصغى إلى. . !

هذا حق. ومع أنه لم يرحب بمقدمها فإنه لم يضق به. ولو همت بالرجوع لأمسك بها صادقًا. والحق أنه يشعر بأنها جزء لا يتجزأ منه. وقال كالمعتذر:

- إنى أحب هذه الحديقة، لم يكن في حياتي الماضية أطيب من جلستها، وتكاد أشجارها الباسقة ومياهها المفضضة وعصافيرها المزقزقة تعرفني كما أعرفها، وأود أن تقاسميني حبها. أرأيت إلى السماء كيف تبدو خلال الغصون؟

فرفعت عينيها مقدار لحظة ثم نظرت إليه باسمة وقالت:

\_إنها جميلة حقًّا، وجديرة بأن تكون أطيب ما في حياتك.

فآنس من قولها العتاب دون إفصاح، وبادرها قائلاً:

- بل كانت كذلك قبل أن أعرفك . .

\_والآن؟

فضغط على يدها بحنو قائلا:

ـ لا يتم جمالها إلا بك. .

فقالت وهي تحدّ بصرها نحوه:

\_من حسن الحظ أنها لا تؤاخذك على انصرافك عنها إلىّ. .

فضحك أدهم وجذبها نحوه حتى التصق خدها بشفتيه، ثم سألها:

\_ أليست هذه الأزهار أجدر بالتفاتنا من الكلام عن زوجات إخوتي؟!

فقالت أميمة باهتمام:

- الأزهار أجمل، ولكن زوجات إخوتك لا يكففن عن الحديث عنك. . إدارة الوقف، دائمًا إدارة الوقف، وثقة أبيك فيك، يُبدئن ويُعدن في هذا. .

وقطب أدهم غائبًا عن الحديقة، وقال بحدة:

ـ لا شيء ينقصهن!

\_ الحق أنى أخاف عليك العين. .

## فهتف أدهم غاضبًا:

\_لعنة الله على الوقف، أرهقني وغيّر القلوب على وسلبني راحة البال، فليذهب في داهية. .

فوضعت أصبعها على شفتيه وهي تقول:

ـ لا تكفر بالنعمة يا أدهم، إن إدارة الوقف شأن خطير، وقد تجر وراءها نفعًا لا يخطر بالبال . .

ـ جرت حتى الآن المتاعب. . ، وحسبنا مأساة إدريس. .

فابتسمت، لكن ابتسامتها لم تنمّ عن بهجة وإنما دارت بها اهتمامًا جديا تجلى في نظرة عينيها، وقالت:

ـ انظر إلى مستقبلنا كما تنظر إلى الغصون والسماء والعصافير . .

وواظبت أميمة على مشاركته جلسته فى الحديقة. ولم تكن تعرف الصمت إلا فى النادر. لكنه اعتادها، كما اعتاد الإصغاء بنصف انتباه أو من دون ذلك، وعند الحاجة يتناول الناى لينفخ فيه ما شاء له الطرب. واستطاع أن يقول فى رضا تام إن كل شىء طيب. حتى شقاوة إدريس باتت شيئا مألوفًا. لكن المرض اشتد على أمه. وعانت آلامًا لم تعرفها من قبل تقطع لها قلبه. وكانت تدعوه إلى جانبها كثيرًا فتسبغ عليه أكرم الدعاء. ومرة قالت له بتوسل حار: «ادع ربك دائمًا أن يقيك الشر ويه ديك سواء السبيل». ولم تدعه يذهب. وظلت تراوح بين الأنين وبين مخاطبته وتذكيره بوصيتها حتى فاضت روحها بين بديه. وبكاها أدهم، وبكتها أميمة، وجاء الجبلاوى فنظر فى وجهها مليًا ثم سجاها باحترام وقد تجلت فى عينيه الحادتين نظرة كئيبة مليئة بالشجن.

وما كاد أدهم يعود رويدًا إلى مألوف الحياة حتى ارتطم بتغير طارئ على أميمة لم يعرف له علة. بدأ بانقطاعها عن مجلسه في الحديقة فلم يسر بذلك كما كان يتوهم أحيانًا. وسألها عن سر انقطاعها فاعتلّت بأعذار شتى كالعمل أو التعب. ولاحظ أنها لم تعد تقبل عليه بالاندفاع المعهود، فإذا أقبل هو عليها لاقته دون عاطفة حقيقية، كأنما تجامله، وكأنما مجاملته عناء. وتساءل عما هنالك! لقد مر بشيء شبيه بهذا، ولكن حبه صمد له وتغلب عليه. وكان بوسعه أن يقسو عليها، وود أحيانًا لو يفعل ذلك ولكن منعه انكسارها وشحوبها ومغالاتها في التأدب معه. أحيانًا تبدو حزينة، وأحيانًا تبدو حائرة، ومرة باغت في عينيها نظرة نافرة حتى ركبه الغضب والجزع معًا. وقال لنفسه: «فلأصبر عليها قليلاً، إما ينصلح حالها أو فلتذهب في ألف داهية!».

وجلس إلى أبيه في مخدع الرجل ليعرض عليه حساب الشهر الختامي. وتفحصه الأب دون أن يعني بمتابعته وسأله:

\_مالك؟

فرفع أدهم رأسه نحوه في دهش وقال:

ـ لا شيء يا أبي . .

فضيق الرجل عينيه وتمتم:

\_ خبرني عن أميمة . .

فانخذلت عيناه تحت نظرة أبيه النافذة وقال:

\_بخير، كل شيء طيب.

فقال الجبلاوي بضجر:

\_صارحني بما عندك.

فصمت أدهم مليًّا، وهو يؤمن بأن أباه قادر على معرفة كل شيء، ثم قال معترفًا:

ـ تغيرت كثيرًا، وتبدو كالنافرة.

فتجلت في عيني الأب نظرة غريبة وقال:

\_هل وقع بينكما خلاف . . ؟

\_ أبدًا .

فقال الجبلاوي في ارتياح وهو يبتسم:

\_ يا جاهل، ترفّق بها، لا تقترب منها حتى تدعوك، سوف تكون أبا عما قريب.

٦

جلس أدهم في إدارة الوقف يستقبل مستأجرى الأحكار الجدد، واحدًا بعد آخر، وقد وقفوا طابورًا، أوله أمامه وآخره في نهاية المنظرة الكبيرة. ولما جاء آخر المستأجرين سأله أدهم دون أن يرفع رأسه عن دفتره في عجلة وضجر:

\_اسمك يا معلم؟

فجاءه صوت يقول:

\_إدريس الجبلاوي.

فرفع أدهم رأسه في فزع فرأى أخاه واقفًا أمامه، ثم وقف متوثبًا للدفاع عن نفسه وهو ينظر نحوه بحذر. لكن إدريس بدا في مظهر جديد لا عهد لأحدبه. بدا رث الهيئة، هادئًا، متواضعًا، حزين الطرف، مأمون الجانب، كالثوب المنشى بعد نقعه في الماء. ومع أن هذا المنظر استل من نفس أدهم كل حنق قديم إلا أنه لم يطمئن إلى السلامة كل الاطمئنان، فقال في تحذير مشوب بالرجاء:

\_إدريس!

فأحنى إدريس رأسه قائلاً في رقة عجيبة:

ـ لا تخف، لست إلا ضيفك في هذا البيت إذا وسعني كرم أخلاقك.

أهذا الكلام اللطيف يصدر عن إدريس حقا؟! هل أدبته الآلام؟ الحق إن خشوعه محزن كفجوره. وألا تعد استضافته له تحديًا للأب؟ لكنه جاء دون دعوة منه. ووجد نفسه يشير إليه بالجلوس على مقعد قريب من مقعده، فجلسا معًا وهما يتبادلان النظر في غرابة حتى قال إدريس:

\_اندسست في جموع المستأجرين لأتمكن من الانفراد بك.

فتساءل أدهم في قلق:

\_ألم يرك أحد؟

- لم يرنى أحد من البيت، اطمئن إلى هذا، لم أجئ لأكدر صفوك، ولكنى ألجأ إلى لطف أخلاقك.

فغض أدهم عينيه متأثرًا وقد تصاعد الدم إلى وجهه، فقال إدريس:

\_ لعلك تعجب لما غيّرني، لعلك تتساءل أين ذهب تكبره وصلفه؟ فاعلم أنني قاسيت آلامًا لا يقدر عليها أحد، وعلى رغم هذا كله فإنني لا أقف موقفي هذا من أحد سواك إذ إن مثلي لا ينسى كبرياءه إلا حيال الخلق اللطيف.

# فغمغم أدهم قائلاً:

ـ خفف الله عنك وعنا، فكم نغص مصيرك حياتي وكدرها.

ـ كان ينبغى أن أعرف هذا من أول الأمر، ولكن الغضب جننى، وفتكت الخمر بكرامتى: ثم أجهزت حياة التشرد والبلطجة على الرمق الأخير من إنسانيتى، أعهدت مثل ذاك السلوك في أخيك الأول؟!

\_أبدًا، كنت خير أخ وأنبل إنسان!

فقال إدريس بصوت المتوجع:

ـ حسـرة على تلك الأيام، لست اليوم إلا شـقيّا أخبط في الخلاء جـارّا ورائي امرأة حبلي، أشيع في كل مكان باللعنات، وأشترى رزقي بالمنكر والعدوان.

ـ إنك تمزق قلبي يا أخي.

ـ معذرة يا أدهم، لكن هذه هي طويتك التي خبرتها منذ قديم، ألم أحملك صغيراً

على يدى؟ ألم أشهد صباك ويفاعتك وألمس فيها نبلك وسجاياك الحميدة؟ لعن الله الغضب حيثما احترق.

\_لعنة أبدية يا أخي.

وتنهد إدريس وهو يقول وكأنما يخاطب نفسه:

\_شد ما أسأت إليك، إن ما حاق بي من شر وما سيحيق لهو دون ما أستحق من جزاء.

ـ خفف الله عنك، أتدرى أنني لم أيأس أبدًا من عودتك؟ حتى في إبان غضب أبينا جازفت بمخاطبته في شأنك.

فابتسم إدريس عن أسنان علاها الاصفرار والقذارة وقال:

\_هذا ما حدثتني به نفسي، قلت إن يكن ثمة رجاء في مراجعة أبي فلن يتأتى عن سبيل سواك.

فلمعت عينا أدهم وهو يقول:

- إنى ألمس الهداية في روحك الكريم، ألا ترى أنه قد آن الأوان لكى نخاطب والدنا في الأمر؟

فهز إدريس رأسه الأشعث في يأس وقال:

- أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة، وأنا أكبرك بعشر سنوات لا بسنة واحدة، فاعلم أن أبانا يغفر كل شيء إلا أن يهينه أحد. لن يعفو عنى أبوك بعد ما كان، ولا أمل لى في العودة إلى البيت الكبير.

لا شك فيما قاله إدريس، وهذا ما زاده حرجًا وضيقًا، وتمتم في كأبة:

\_ماذا في وسعى أن أفعل من أجلك؟

فابتسم إدريس مرة أخرى قائلاً:

ـ لا تفكر في مساعدات مالية، فإني واثق من أمانتك كمدير للوقف، واعلم أنك إذا مددت لى يد المعونة فسيكون من حر مالك وهو ما لا أقبله، إنك اليوم زوج وغدًا أب، وأنا لم أجئك مدفوعًا بفقرى ، ولكنى جئت لأعلن لك ندمى عما فرط منى في حقك، ولأسترد مودتك، ثم إن لى رجاء.

فتطلع إليه أدهم باهتمام وتساءل:

\_قل يا أخى ما رجاؤك؟

فأدنى إدريس رأسه من أخيه كأنما يخشى أن تسمعه الجدران وقال:

- أريد أن أطمئن على مستقبلي بعد أن خسرت حاضري. سأكون أبا مثلك، فما مصير ذريتي؟
  - ـ ستجدني رهن إشارتك في كل ما أستطيع . .

فربت إدريس كتف أدهم بامتنان وقال:

- \_أريد أن أعرف هل حرمني أبي حقى في الميراث؟
- \_كيف لي بمعرفة هذا؟! ولكن إن سألتني عن رأيي. .

## فقاطعه إدريس قلقًا:

- \_إنى لا أسأل عن رأيك ولكن عن رأى أبيك . .
- \_إنه كما تعلم لا يصارح أحدًا بما يدور في رأسه. .
  - \_ولكنه دون شك قد سجله في حجة الوقف. .

فهز أدهم رأسه دون أن ينبس، فعاد إدريس يقول:

- كل شيء في الحجة . .
- ـ لا علم لى بها، وأنت تعلم أن أحدًا في بيتنا لا يدرى عنها شيئًا، وعملى في الإدارة يسير تحت إشراف أبي الكامل. .

فحدجه إدريس بنظرة حزينة وقال:

- الحجة في مجلد ضخم، وقد لمحته مرة في صباى وسألت أبي عما فيه ـ وكنت وقتذاك قرة عينه ـ فقال لي إنه يضم كل شيء عنا، ولم نعد إلى الحديث عنه، ولم يسمح لي بذلك حين بدا لي أن أسأل عن بعض ما جاء فيه، ولا أشك الآن في أن مصيري قد تقرر فيه . .

فقال أدهم وهو يشعر بأنه ينحصر في ركن ضيق:

\_الله أعلم.

- إنه في الخلوة المتصلة بمخدع أبيك، ولا شك في أنك رأيت بابها الصغير في نهاية الجدار الأيسر. وهو باب مغلق دائمًا، لكن مفتاحه مودع في صندوق فضى صغير في درج الخوان القريب من الفراش، أما المجلد الضخم فعلى ترابيزة في الخلوة الضيقة..

فرفع أدهم حاجبيه الخفيفين في انزعاج وتمتم:

\_ماذا تريد؟

فقال إدريس متنهدًا:

\_ إن كان ثمة راحة بال باقية لي في هذه الدنيا فهي رهن بمعرفتي ما سجّل في الحجة عني . .

فقال أدهم في ارتياع:

ـ أهون على أن أسأله عما في الشروط العشرة صراحة!

- لن يجيب، وسيغضب، وربما أساء بك الظن، أو خمن الدافع الحقيقي وراء سؤالك فثار سخطه، وكم أكره أن تخسر ثقة أبيك جزاء إحسانك إلى، وهو لا شك لا يريد أن يذيع شروطه العشرة، ولو أراد ذلك لعرفناها جميعًا، فلا سبيل مأمونًا إلى الحجة إلا السبيل الذي وصفته لك، وهو ميسور جدا عند الفجر حين يتجول أبوك في الحديقة..

فامتقع وجه أدهم وهو يقول:

\_ما أفظع ما تدعوني إليه يا أخي!

فداري إدريس خيبته بابتسامة شاحبة وقال:

ليس جريمة أن يطلع ابن على ما يخصه في حجة أبيه.

\_لكنك تطلب إلى سرقة سريحرص أبونا على صونه . .

فتنهد إدريس بصوت مسموع وقال:

- قلت لنفسى عندما قررت اللجوء إليك: «ما أصعب أن أقنع أدهم بعمل يعتبره مخالفًا لإرادة الأب!»، ولكن داعبنى أمل قوى فقلت: «لعله يقدم إذا لمس مدى حاجتى إلى معونته»، وليس في الأمر جريمة، وسيمر بسلام، وستجد أنك انتشلت روحًا من الجحيم دون أدنى خسارة..

ـ ليحفظنا المولى من الأخطار . .

- آمين، لكنى أتوسل إليك أن تنقذني من العذاب. .

نهض أدهم في جزع واضطراب، فنهض إدريس في أثره، وابتسم ابتسامة دلت على تسليمه باليأس، وقال:

\_ أزعجتك حقا يا أدهم؛ من أمارات تعاستي أنني لا ألقى شخصًا حتى تدركه المتاعب على وجه أو آخر . بات إدريس لعنة ساخرة . . .

\_كم يعذبني عجزي عن مساعدتك، إنه عذاب ما بعده عذاب. .

فدنا منه حتى وضع يده على منكبه في رقة ، ثم لثم جبينه في عطف ، وقال :

ـ لا يسأل عن تعاستي إلا نفسي، لماذا أحملك فوق ما تطيق؟ دعني أتركك بسلام وليفعل الله ما يشاء. .

قال إدريس ذلك ثم ذهب. .

٧

دبت الحيوية في وجه أميمة لأول مرة منذ عهد قصير، فسألت أدهم باهتمام:

\_ألم يحدثك أبوك عن الحجة من قبل؟

كان أدهم متربعًا على الكنبة، ينظر من النافذة إلى الخلاء الغارق في الظلمة. فأجابها:

\_لم يحدث أحدًا عنها قط. .

ـ لكن أنت..

\_ لست إلا أحد أبنائه الكثيرين. .

فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت:

\_لكنه اختارك أنت لتدير الوقف. .

فالتفت نحوها قائلا بحدة:

\_قلت إنه لم يحدث أحدًا عنها قط . .

فابتسمت مرة أخرى كأنما لتلطف حدته، ثم قالت بمكر:

ـ لا تشغل بالك، إدريس لا يستحق ذلك، إن إساءاته لك لا تُنسى أبدًا. .

فحول أدهم رأسه نحو النافذة، وقال بحزن:

\_إدريس الذي جاءني اليوم غير إدريس الذي أساء إليّ، إن منظره النادم الحزين لا يبرح مخيلتي . .

فقالت بارتياح ظافر:

\_هذا ما أدركته من حديثك، وهو سر اهتمامي بالأمر، ولكنك تبدو ضيق الصدر بخلاف عادتك. .

كان ينظر إلى ظلام الليل الكثيف، لكن رأسه المشغول لم يستجب له، فقال:

- لا فائدة ترجى من الاهتمام. .

ـ لكن أخاك النادم يسألك الرحمة . .

ـ العين بصيرة واليد قصيرة. .

ـ يجب أن تحسن علاقتك به، وبإخوته، وإلا وجدت نفسك يومًا وحيدًا أمامهم. .

-إنك تهتمين بنفسك لا بإدريس. .

فهزت رأسها كأنما تزيح عنه نقاب المكر وقالت:

\_من حقى أن أهتم بنفسى، ومعنى هذا أن أهتم بك وبما في بطني. .

ماذا تريد المرأة؟ وهذا الظلام ما أشد كثافته! حتى المقطم العظيم قد ابتلعه. وأراح نفسه بالصمت. وإذا بها تسأله:

\_ألا تذكر أنك دخلت الخلوة أبداً؟

فأجاب خارجًا من صمته القصير:

ـ أبدًا، أحببت في صباي أن أدخلها فمنعني أبي، ولم تكن أمي تسمح لي بالاقتراب منها. .

ـ لا شك في أنك كنت تتمنى دخولها. .

ما حادثها في الأمر إلا وهو ينتظر أن تدفعه عنه لا أن تجيز به إليه. كان بحاجة إلى من يؤكد له صواب موقفه من أخيه. كان بحاجة ماسة إلى ذلك ولكنه كمن كان ينادى في الظلام خفيرًا فيخرج إليه قطاع طريق. وعادت أميمة تسأله:

\_والخوان الذي به الصندوق الفضى هل تعرفه؟

\_كل من دخل الحجرة يعرفه، لماذا تسألين عنه؟

تزحزحت من مجلسها على الكنبة مقتربة منه وسألته بإغراء:

ـ بربك ألا تود أن تطلع على الحجة؟

فأجاب بحدة :

\_كلا، لماذا أود ذلك؟

\_منذا يقاوم الرغبة في الاطلاع على المستقبل؟

\_ تعنين مستقبلك أنت؟!

\_مستقبلي ومستقبلك، ومستقبل إدريس الذي حزنت عليه على رغم ما سبق منه ضدك!

المرأة تعرب عما في نفسه. وهذا ما يثير حنقه. ومد رأسه نحو النافذة كأنما يهرب منها وهو يقول:

\_ لا أود ما لا يود أبي. .

فرفعت حاجبيها المزججين متسائلة:

ـ لماذا يخفى هذا الأمر؟

\_ذلك شأنه، ما أكثر أسئلتك الليلة!

#### فقالت وكأنما تخاطب نفسها:

- المستقبل! نعرف مستقبلنا ونقدم إحسانًا كبيرًا إلى إدريس التعيس، لن يكلفنا هذا كله إلا قراءة ورقة دون أن يدرى أحد، وأتحدى أى صديق أو عدو أن يثبت علينا سوء نية في عملنا هذا أو أنه يمس من قريب أو من بعيد والدك المحبوب!

وكان أدهم يراقب نجمًا فاق الأنجم بضيائه اللامع فقال متجاهلا قولها:

ـ ما أجمل السماء! لولا رطوبة الليل لجلست في الحديقة أراقبها من خلل الغصون. .

ـ لا شك في أنه ميّز البعض في شروطه. .

## فهتف أدهم:

ـ ما أزهدني في امتياز لا يجر وراءه إلا المتاعب. .

#### فقالت متنهدة:

لو كنت أعرف القراءة لذهبت بنفسي إلى الصندوق الفضى . .

تمنى لو كان ذلك كذلك. وتضاعف حنقه عليها وعلى نفسه. بل شعر بأنه قد وقع فى المحظور فعلاً وأنه يفكر فيه كحدث مضى. وتحول نحوها مقطبًا فبدا وجهه على ضوء المصباح المرتعش بالنسيم المتسلل من النافذة متجهما، ضعيفًا على رغم تجهمه وقال:

\_لعنت حين أفضيت إليك بالخبر!

ـ لا أريد بك شراً، ومحبتي لوالدك مثل محبتك له. .

- دعيك من هذا الحديث المتعب، في هذه الساعة تستحب الراحة.

\_يبدو أن قلبي لن يرتاح قبل الإقدام على هذا العمل السهل . .

## فنفخ قائلاً:

- اللهم أرجع إليها عقلها!

فرمقته بنظرة المتحفز ثم سألته:

- ألم تخالف أباك باستقبالك إدريس في المنظرة؟!

فاتسعت عيناه دهشة وقال:

\_وجدته أمامي فلم يسعني إلا استقباله. .

\_ هل أخبرت والدك بنبأ زيارته؟

\_ما أثقلك الليلة يا أميمة!

## فقالت بصوت الظافر:

\_إذا جاز لك أن تخالفه فيما قد يضرك فكيف لا تخالفه فيما يفيدك ويفيد أخاك ولا يضر أحدًا. . ؟! بوسعه أن يقطع الحديث لو شاء. ولكن المنحدر كان شديد الانحدار. والحق أنه لم يتركها تسترسل في حديثها إلا لأن جزءا من نفسه كان بحاجة إلى تأييدها. وتساءل فيما يشبه الغضب:

\_ماذا تعنين؟

\_أعنى أن تسهر حتى الفجر، أو حتى يخلو المكان لنا. .

فقال بامتعاض :

\_ ظننت الحمل قد أفقدك عاطفتك وحدها، ولكن ها هو ذا يفقدك عقلك أيضا. .

\_أنت مقتنع بما أقول وحق من خلق الروح في بطنى، ولكنك خائف، والخوف لا يليق بك. .

فاكفهر وجهه اكفهرارًا منقطع الأسباب بالتراخي الساري في داخله وقال:

ـ سنذكر بهذه الليلة أول زعل فرق بيننا.

فقالت برقة عجيبة:

\_أدهم، دعنا نفكر جادين في الأمر . .

ـ لن نجني خيرًا. .

\_هذا قولك ولكنك سترى . .

شعر بوهج النار وهو يقترب منها. قال لنفسه: «إذا احترقت فلن تُجدى دموعى في إخمادها». وحول رأسه إلى النافذة فخيل إليه أن سكان ذلك النجم اللامع سعداء لبعدهم عن هذا البيت. وتمتم بصوت ضعيف:

\_لم يحب أحد أباه كما أحبه . .

\_ما أبعدك عما يسيئه.

\_أميمة، ما أحوجك إلى النوم!

\_أنت الذي طيرت النوم عن عيني . .

\_ أمّلت أن أسمع عندك صوت العقل . .

\_ما أسمعتك غيره. .

وساءل نفسه بصوت منخفض كالهمس:

\_ ترى هل أندفع نحو الخراب؟!

فربتت يده الملقاة على مسند الكنبة وقالت بعتاب:

\_مصيرنا واحديا ناكر الحب!

فقال في استسلام دل على أنه اتخذ قراره:

\_ولا هذا النجم يدري ما مصيري!

فقالت بانطلاق:

ـ ستقرأ مصيرك في الحجة . .

ومدّ بصره نحو النجوم الساهرة، وقطع السحاب المستضيئة بنورها الهادئ، وخيل إليه أنها مطلعة على نجواه فغمغم: «يا لطف السماء!». ثم سمع أميمة وهي تقول في نبرات مداعبة:

- أنت علمتنى حب الحديقة، دعنى أرد إليك الجميل..

#### ٨

وعند الفجر غادر الأب حجرته قاصدًا الحديقة. كان أدهم بأقصى الردهة يترقب وأميمة خلفه ممسكة بكتفه في الظلام. تابعا وقع الأقدام الثقيل المتزن ولكنهما لم يتبينا اتجاهها في الظلام، وكان من عادة الجبلاوي أن يسير في هذه الساعة دون حاجة إلى ضوء أو رفيق. وسكت الصوت فالتفت أدهم نحو زوجه هامسًا:

\_ألا يحسن بنا أن نعود؟

فدفعته وهي تهمس في أذنه:

\_علىَّ اللعنة إن كنت أضمر سوءا لإنسان.

فتقدم بخطوات حذرة، في اضطراب أليم، ويده قابضة على شمعة صغيرة في جيبه، وجعل يتحسس الجدار حتى مست يده مصراع الباب. وهمست أميمة:

ـ سأبقى هنا لأرقب المكان، اذهب مصحوبًا بالعناية.

ومدت يدها فدفعت الباب حتى انفتح ثم تراجعت. ومضى أدهم نحو الحجرة بخطواته الحذرة فتلقى من داخلها رائحة مسكية شديدة النفاذ. ورد الباب وراءه ووقف يحملق فى الظلام حتى تبين له خصاص النوافذ المطلة على الخلاء وهى تنضح بنور الفجر. شعر أدهم بأن الجريمة \_ إن كان ثمة جريمة \_ قد وقعت بدخوله الحجرة وأن عليه أن يتم عمله. سار مع الجدار الأيسر، مرتطمًا أحيانًا بالمقاعد، مارًا فى طريقه بباب الخلوة، حتى بلغ نهايته، ثم مال مع الجدار الأوسط، وما لبث أن عثر على الخوان. جذب الدرج، وتحسس ما بداخله حتى وجد الصندوق، ثم شعر بحاجة إلى الراحة

ليأخذ نفسه. ورجع إلى باب الخلوة، ففتش عن ثقبه، ثم وضع فيه المفتاح وأداره، وفتح الباب، وإذا به يتسلل إلى الخلوة التي لم يدخلها أحد قبله إلا الأب.

رد الباب، وأخرج الشمعة، ثم أشعلها، فرأى مربعًا ذا سقف عال لا منفذ فيه إلا الباب، مفروش الأرض بسجادة صغيرة، وعند ضلعه الأيمن ترابيزة أنيقة عليها المجلد الكبير الذى ثبت في الجدار بعلاقة من صلب. ازدرد أدهم ريقه الجاف بشيء من الألم كأن وعكة أصابت اللوزتين، وعض على أسنانه، كأنما ليعصر الخوف السارى في أوصاله والمرعش للشمعة في يده. واقترب من الترابيزة وهو يحملق في غلاف المجلد المزخرف بخطوط محوهة بالذهب، ثم مديده ففتحه. وجد مشقة في تركيز ذهنه ونفض الاضطراب عنه. وبدأ يقرأ بالخط الفارسي «باسم الله..».

لكنه سمع الباب وهو يفتح بغتة. انجذب رأسه نحو الصوت بقوة ومن دون وعى كأن الباب شده إليه وهو ينفتح. رأى الجبلاوى على ضوء شمعته يسد الباب بجسمه الكبير ملقيًا عليه نظرة باردة قاسية. حملق أدهم في عيني أبيه في صمت وجمود، وتخلت عنه قوى الكلام والحركة والتفكير. وأمره الجبلاوي قائلاً:

\_اخرج.

لكن أدهم لم يستطع حراكًا. بقى في موقفه كالجماد إلا أن الجماد لا يشعر بالقنوط. وهتف الأب:

\_ اخرج .

أيقظه الرعب من تجمده فتحرك، وتخلى الأب عن الباب، فغادر أدهم الخلوة والشمعة لا تزال تحترق في يده. ورأى أميمة واقفة وسط الحجرة صامتة، والدمع ينحدر تباعًا من مقلتيها. وأشار له الأب أن يقف إلى جانب زوجته ففعل، ثم خاطبه بصرامة قائلاً:

\_عليك أن تجيب عن أسئلتي بالصدق.

فنطقت أساريره بالامتثال. وسأله الرجل:

\_من الذي أخبرك بالكتاب؟

فقال أدهم دون تردد كوعاء تحطم فسال ما فيه:

ـ إدريس .

\_ متى؟

\_ صباح الأمس.

\_كيف تم اللقاء بينكما؟

ـ اندس بين المستأجرين الجدد وانتظر حتى انفرد بي .

```
ـ لماذا لم تطرده؟
```

ـ عز على طرده يا أبي.

فقال الجبلاوي بحدة:

ـ لا تخاطبني بالأبوة .

فاستجمع أدهم قواه قائلاً:

\_إنك أبي على رغم غضبك وعلى رغم حماقتي.

\_أهو الذي أغراك بفعلتك؟

وأجابت أميمة دون أن يوجه إليها السؤال:

\_نعم يا سيدى .

-اخرسي يا حشرة . . (ثم موجهًا الخطاب إلى أدهم) . . أجب!

ـ كان يائسًا حزينًا نادمًا وود لو يطمئن على مستقبل ذريته.

\_وفعلت هذا من أجله!

\_كلا. . اعتذرت له عن عجزي .

\_وماذا غيَّرك؟

فتنهد أدهم يائسًا وتمتم:

\_الشيطان!

فسأله ساخرًا:

ـ هل أخبرت زوجتك بما جرى بينك وبينه؟

هنا انتحبت أميمة فنهرها الجبلاوي أن تخرس، وحث أدهم على الإجابة بإشارة من أصبعه، فقال:

\_نعم.

\_ وماذا قالت لك؟

لاذ أدهم بالصمت كي يزدرد ريقه فصاح به:

\_أجب يا وضيع.

ـ وجدت بها رغبة في الاطلاع على الوصية وظنت أن ذلك لن يضر أحدًا .

فحدجه باحتقار شديد وقال:

\_وهكذا انصعت إلى خيانة من فضّلك على من هم خير منك.

فقال أدهم بصوت كالأنين:

لن يسعفني دفاع عن ذنبي، لكن مغفرتك أكبر من الذنب والدفاع.

ـ تتآمر على مع إدريس الذي طردته إكرامًا لك؟

ـلم أتآمر مع إدريس، لقد أخطأت، ولا نجاة لي إلا بمغفرتك. وهتفت أميمة بتوسل:

\_ سيدى . .

فقاطعها قائلاً:

\_ اخرسي يا حشرة.

وجعل يردد عينيه بينهما عابسًا، ثم قال بصوت رهيب:

- اخرجا من البيت.

وهتف أدهم:

\_ أبى . .

فقال الرجل بصوت غليظ:

\_غادرا البيت قبل أن تلقيا خارجًا.

٩

فتح باب البيت الكبير ليشهد هذه المرة خروج أدهم وأميمة مطرودين. خرج أدهم يحمل بقجة ملابس، وتبعته أميمة حاملة بقجة ثانية وأطعمة خفيفة. خرجا ذليلين حزينين باكيين بلا أمل. وعندما سمعا صوت الباب وهو يغلق خلفهما ارتفع صوتاهما بالنحيب. وقالت أميمة وهي تنشج:

\_الموت دون ما أستحق من جزاء!

فقال أدهم بصوت متهدج:

ـ لأول مرة تصدقين، ولكن الموت دون ما أستحق كذلك!

وما كادا يبتعدان قليلاً عن البيت حتى دوت ضحكة ساخرة مخمورة، فنظرا نحو مصدرها، فرأيا إدريس أمام كوخه الذى بناه من الصفائح والأخشاب وقد جلست امرأته نرجس وهى تغزل صامتة. كان إدريس يضحك فى سخرية وشماتة حتى ذهل أدهم وأميمة فوقفا يحملقان فيه. وراح إدريس يرقص ويفرقع بأصابعه حتى ضجرت نرجس فآوت إلى الكوخ. تابعه أدهم بعينين محمرتين من البكاء والغضب. أدرك فى لحظة المكر الذى مكره فتكشف له عن حقيقته الخبيثة المجرمة. وأدرك أيضاً مدى حمقه وغبائه

الذى يرقص له المجرم شماتة وفرحًا. هذا هو إدريس الذى استحال شرّا مجسدًا. وغلى دمه حتى فار فأغرق مخه. وقبض على حفنة من تراب ورماه بها وهو يصيح بصوت مختنق بالغضب:

\_يا قذر، يا لعين، إن العقرب بالقياس إليك حشرة مستأنسة!

فأجاب إدريس بمزيد من حركاته الراقصة؛ هز رقبته يمنة ويسرة، ولعّب حاجبيه وما زال يفرقع بأصابعه . وتضاعف غضب أدهم فصاح :

-الفساد والدناءة والوضاعة هذه هي صفات المخادعين الكاذبين.

فراح إدريس يهز وسطه بمثل الرشاقة التي هز بها رقبته ويرسم بفيه ضحكة صامتة قبيحة، فصاح أدهم دون التفات إلى أميمة التي حاولت أن تدفعه إلى المسير:

\_حتى الدعارة تجربها يا أقذر من خلق!

فمضى إدريس يهز عجيزته وهو يدور حول نفسه فى بطء ودلال فأعمى الغضب أدهم فرمى بالبقجة أرضًا ودفع أميمة التى همت بالتعلق به وجرى نحوه حتى قبض على عنقه وشد عليه بكل قوته. لم يبد على إدريس أنه تأثر بالمنقض ولا بقبضته. وواصل الرقص وهو يتأنق فى تأوده. وجن جنون أدهم فانهال على إدريس ضربًا ولكن إدريس ازداد عبثًا وراح يغنى بصوت كريه:

# حطة يابطة يادقن القطة

وتوقف بغتة وهو يزمجر، ثم دفع أدهم في صدره دفعة قوية تقهقر على أثرها يترنح ثم اختل توازنه فسقط على ظهره. وهرعت إليه أميمة صارخة فساعدته على النهوض وأخذت تنفض الغبار عن ثوبه وتقول:

\_ما لك أنت وهذا الوحش؟! فلنبتعد عنه. .!

وتناول البقجة صامتًا، وحملت زوجه بقجتها وابتعدا حتى طرف البيت الآخر، وكان الإعياء قد نال منه فرمى بالبقجة وجلس عليها وهو يقول: «لنسترح قليلاً». فجلست المرأة قبالته وقد رجعت تبكى. وإذا بصوت إدريس يترامى إليهما قويّا كالرعد وصاحبه يقف ناظرًا إلى البيت الكبير نظرة التحدى ويصيح:

- طردتنى إكرامًا لأحقر من أنجبت، أرأيت كيف كان سلوكه نحوك؟! ها أنت ذا ترميه بنفسك إلى التراب. عقاب بعقاب والبادى أظلم، كى تعلم أن إدريس لا يقهر، فلتبق وحدك مع أبنائك العقماء الجبناء. لن يكون لك حفيد إلا من يسعى فى التراب ويتقلب فى القاذورات. غدًا يسرحون بالبطاطة واللب، غدًا يتعرضون لصفعات الفتوات فى العطوف وكفر الزغارى، غدًا يمتزج دمك بأحقر الدماء، وتقبع أنت وحيدًا فى حجرتك تبدل وتغير فى كتابك كيف شاء لك الغضب

والفشل، وتعانى وحدة الشيخوخة في الظلام، حتى إذا جاء الأجل فلن تجدعينًا تبكيك.

ثم التفت صوب أدهم وواصل صياحه الجنوني:

- وأنت أيها الضعيف كيف تلقى الحياة وحدك؟! لا قوة فيك تؤيدك ولا قوى قدا قوى الخياء والحساب في هذا الخلاء؟! ها. . ها. . ها. .

ولم تزل أميمة تبكى حتى ضاق بها أدهم فقال في فتور:

\_ كفّى عن البكاء.

فقالت وهي تجفف عينيها:

\_سأبكى كثيراً، أنا الآثمة يا أدهم.

ـ لست دونك إثمًا، لو لم تلقى منى ضعيفًا نذلاً ما وقع الذي وقع.

\_الذنب ذنبي وحدي.

فهتف بغيظ:

\_إنك تحملين على نفسك لتتقى حملتى عليك. .

فباخت حميتها في اتهام نفسها وأحنت رأسها مليًّا، ثم عادت تقول بصوت ضعيف:

ــلم أكن أتصور أن تبلغ قسوته هذا الحد!

\_إنى أعرفه ولا عذر لي.

فترددت قليلاً ثم قالت:

\_كيف أعيش هنا وأنا حبلي؟!

- في هذا الخلاء نعيش بعد البيت الكبير ، ليت للدموع جدوى ، ولكن ليس أمامنا إلا أن نقيم كوخًا لنا .

\_أين؟

فنظر فيما حوله، ووقف نظرُه قليلاً صوب كوخ إدريس، ثم قال بقلق:

ـ لا يجوز أن نبتعد كثيرًا عن البيت الكبير ولو اضطررنا إلى البقاء غير بعيد من كوخ إدريس، وإلا هلكنا وحدنا في أطراف هذا الخلاء.

ففكرت أميمة قليلاً ثم قالت بوجه مال إلى الاقتناع برأيه:

ـ نعم، ولكي نبقي على مرمي بصره لعلّه يرق لحالنا.

فتأوه أدهم قائلاً:

-الحسرة تقتلني، ولولاك لتوهمت ما بي كابوسًا، هل يجفوني قلبه إلى الأبد؟ لن أتطاول عليه كإدريس، هيهات، لست كإدريس في شيء، فهل ألقى المعاملة نفسها؟

فقالت أميمة في حنق:

\_لم تعرف هذه الأحياء أبا مثل أبيك.

فتساءل بعينين حادتين:

\_متى يتوب لسانك؟!

فانفعلت قائلة:

- والله ما ارتكبت جريمة ولا إثمًا، خبّر من تشاء بما فعلت وبما نلت جزاء ما فعلت وأراهنك على أنه سيضرب كفّا بكف، والله ما عرفت الأبوة أبًا كأبيك.

ـ ولا عرفت الدنيا رجلاً مثله، هذا الجبل وهذه الصحراء وهذه السماء تعرفه، ومثله يُجنّ عند التحدي.

- بهذا الجبروت لن يبقى في البيت أحد من أبنائه.

\_نحن أول الخارجين فنحن شر من فيه .

فقالت بامتعاض:

\_لست كذلك، لسنا كذلك.

\_الحكم الصحيح لن يكون إلا عند الامتحان.

لاذ كلاهما بالصمت. لم يكن بالخلاء حى يُرى، إلا بعض العابرين عن بعد عند سفح الجبل. وكانت الشمس ترسل أشعة حامية من سماء صافية فتغمر الرمال المترامية حيث يلمع الحصى أو قطع الزجاج المتناثرة. ولم يكن من قائم إلا الجبل فى الأفق، وصخرة كبيرة فى الشرق كأنها رأس جسم مطمور فى الرمال، وكوخ إدريس عند الطرف الشرقى للبيت الكبير ينغرس فى الأرض متحديًا بهيئته الزرية. كان الجو كله ينذر بالشقاء والتعب والخوف. وتنهدت أميمة بصوت مسموع وقالت:

\_ سنتعب كثيراً حتى تتيسر لنا الحياة .

فرنا أدهم إلى البيت الكبير وقال:

\_وسنتعب أكثر حتى يفتح لنا هذا الباب مرة أخرى .

## ١.

شرع أدهم وأميمة فى إقامة كوخ لهما عند الطرف الغربى للبيت الكبير. كانا يجيئان بالأحجار من المقطم، ويجمعان الصفائح من سفح الجبل، ويلتقطان الأخشاب من مشارف العطوف والجمالية وباب النصر. وتبين لهما أن بناء الكوخ سيستغرق وقتًا أطول مما قدرا، وصادف ذلك نفاد الزاد الذى حملته أميمة من البيت من جبن وبيض وعسل أسود، فقرر أدهم أن يبدأ بالسعى فى سبيل رزقه. ورأى أن يبيع بعض ثيابه الثمينة ليشترى بثمنها عربة يد لبيع البطاطة والملانة والخيار وغيرها على حسب المواسم. وعندما أخذ فى جمع ثيابه أجهشت أميمة فى البكاء من شدة التأثر، ولكنه لم يستجب لعواطفها، فقال وهو بين السخط والسخرية:

ـ لم تعد هذه الثياب تناسبني، أليس من المضحك أن أسرح ببطاطة وأنا متلفع بعباءة مزركشة من وبر الجمل؟!

ثم شهده الخلاء وهو يدفع عربته نحو الجمالية، الجمالية التي لم تنس بعد زفته، وانقبض قلبه وانحبس صوته فكف عن النداء، وكادت تغرورق عيناه. واتجه نحو الأحياء البعيدة متهرباً. وكان يواظب على المشي والنداء من الصباح إلى المساء حتى كلت يداه وانجرد نعلاه وسرت الأوجاع في قدميه ومفاصله. وكم كان يشق عليه مساومات النسوان، أو أن يضطره الإعياء إلى افتراش الأرض لصق جدار، أو أن يقف في ركن ليفك حصره. بدت الحياة غير حقيقية، وأيام الحديقة وإدارة الوقف والمخدع المطل على المقطم كالأساطير. وجعل يقول لنفسه: «لاشيء حقيقي في هذه الدنيا، هي البيت الكبير، هي الكوخ الذي لم يتم، هي الحديقة، هي عربة اليد، هي الأمس واليوم والغد، لعلى أحسنت صنعًا بالإقامة قبالة البيت حتى لا أفقد الماضي كما فقدت الحاضر والمستقبل، وهل من عجب أن أخسر الذاكرة كما خسرت أبي وكما خسرت نفسي؟!». فإذا عاد أول الليل إلى أميمة فليس إلى الراحة يعود، ولكن ليواصل العمل في بناء فاكوخ.

ومرة جلس فى حارة الوطاويط عند الظهر ليستريح فنعس. واستيقظ على حركة فرأى غلمانًا يسرقون عربته فنهض مهددًا. ورآه غلام فنبه أقرانه بصفير ودفع العربة ليشغله بها عن مطاردتهم فاندلق الخيار على الأرض على حين تفرق الغلمان مسرعين كالجراد. وغضب أدهم غضبًا شديدًا حتى قذف فوه المهذب بسيل من أقذع الشتائم، ثم انكب على الأرض يجمع الخيار الذى لوث بالطين. وتضاعف غضبه دون أن يجد له

متنفسًا فراح يقول بتأثر وانفعال: «لماذا كان غضبك كالنار تحرق بلا رحمة؟ لماذا كانت كبرياؤك أحب إليك من لحمك ودمك؟ وكيف تنعم بالحياة الرغيدة وأنت تعلم أننا نداس بالأقدام كالحشرات؟ والعفو واللين والتسامح ما شأنها في بيتك الكبير أيها الجبار؟!». وقبض على يدى العربة وهم يدفعها بعيداً عن الحارة اللعينة، وإذا بصوت يقول متهكمًا:

- بكم الخياريا عم؟

رأى إدريس واقفًا يبتسم ابتسامة ساخرة، رافلاً في جلباب مقلم بألوان زاهية، وعلى رأسه لاسة بيضاء. رآه باسمًا ساخرًا لا تأثرًا ولا هائجًا فضاقت لمنظره الدنيا في عينيه على رغم ذلك. ودفع العربة ليذهب، ولكن إدريس اعترض سبيله وهو يقول في دهشة:

\_ألا يستحق زبون مثلى حسن المعاملة؟

فارتفع رأس أدهم في عصبية وهو يقول:

ـ دعني وشأني .

فأمعن إدريس في السخرية متسائلاً:

\_ألم تجد خيرًا من هذه اللهجة تخاطب بها أخاك الأكبر؟

فقال أدهم بلهجة المتصبر:

\_يا إدريس أما كفاك ما فعلت بي؟ لا أريد أن تعرفني أو أن أعرفك!

\_كيف يتأتى هذا ونحن في حكم الجيران؟!

\_ما أردت جوارك ولكني قصدت أن أبقى قريبًا من البيت الذي . .

فقاطعه هازئًا:

\_الذي طردت منه!

فسكت أدهم وقد تجلى الضيق في شحوب وجهه، فاستطرد الآخر قائلاً:

\_النفس تتعلق بالمكان الذي تطرد منه، أليس كذلك؟

فلم يخرج أدهم عن صمته، فقال الآخر:

\_ إنك تطمع في العودة إلى البيت يا ماكر ، إنك ضعيف حقا ولكنك ملى عبالمكر . ألا فاعلم بأنى لن أسمح لك بالعودة وحدك ولو انطبقت السماء على الأرض .

فتساءل أدهم ومنخراه يتحركان من الحنق:

\_ألم يكفك ما فعلت بي؟

\_ ألم يكفك أنت ما فعلت بي؟ من أجلك طردت وكنت كوكب البيت المنير.

ـ بل طردت بسبب نفسك المتعجرفة.

فقهقه إدريس قائلاً:

- وطردت أنت بسبب نفسك الضعيفة، فلا مكان في البيت الكبير للقوة ولا للضعف! فانظر إلى استبداد أبيك. إنه لا يسمح باجتماع القوة والضعف في نفس إلا نفسه هو، إنه القوى لحد الفتك بفلذات كبده، الضعيف لحد التزوج من أم كأمك.

فقطب أدهم غاضبًا وقال بتهدج:

\_ دعنى أذهب، وتحرش إذا شئت بقوى مثلك.

\_أبوك يتحرش بالأقوياء والضعفاء.

فصمت أدهم وازداد وجهه عبوسًا فقال إدريس هازئًا:

ـ لا تريد أن تتورط في تجريحه! هذا مكر من مكرك، ودليل على أنك ما زلت تحلم بالعودة.

ثم تناول خيارة وأخذ ينظر إليها باشمئزاز ثم قال:

ـ كيف سولت لك نفسك أن تسرح بهذا الخيار الملوث؟! ألم تجد عملاً أشرف من هذا؟

\_إنى راض عنه!

- بل اضطرتك الحاجة إليه، على حين ينعم أبوك بالعيش الرغيد. فكّر قليلاً في الأمر، أليس من الأكرم لك أن تنضم إلى ؟!

فقال أدهم في ضجر:

\_لم أخلق لحياتك!

انظر إلى جلبابي! كان صاحبه يرفل فيه أمس دون وجه حق!

فلاح التساؤل في عيني أدهم وقال:

ـ وكيف حصلت عليه؟

\_كما يفعل الأقوياء!

أسرق أم قتل؟! وقال بحزن:

ـ لا أصدق أنك أخي إدريس!

فقال وهو يقهقه:

ـ لا تعجب ما دمت تعلم أنني ابن الجبلاوي!

فهتف أدهم في نفاد صبر:

\_هلا أوسعت لي الطريق؟

\_كما تشاء لك حماقتك!

وملأ جيبه بالخيار، وألقى عليه نظرة ازدراء، ثم بصق على العربة ومضى.

ووقفت أميمة تستقبله وهو يقترب من الكوخ. كانت الظلمة تغشى الخلاء. وفى داخل الكوخ شمعة تحترق كأنها رمق فى صدر محتضر. أما فى السماء فالنجوم تزهر، وعلى ضوئها يبدو البيت الكبير كشبح عملاق. أدركت أميمة من صمته أنه على حال يستحسن معها تجنبه. قدمت إليه كوز ماء ليغسل أطرافه وجاءته بجلباب نظيف. وغسل وجهه وقدميه وبدل جلبابه ثم جلس على الأرض ومدّ ساقيه. واقتربت منه فى حذر فجلست وهى تقول بلهجة الاسترضاء:

\_ليتني أتحمل عنك بعض تعبك.

وكأنها حكت أجرب فصاح:

\_اخرسي يا أصل الشر والتعاسة .

فتزحزحت بعيدًا عنه حتى كادت تختفي، ولكنه صاح:

\_ إنك خير من يذكرني بغفلتي وحماقتي، ملعون اليوم الذي رأيتك فيه.

فجاءه في الظلام انتحابها ولكنه ضاعف من غضبه فقال:

ـ سحقًا لدموعك! إن هي إلا عَرق الخبث الذي يمتلئ به جسدك.

فجاءه صوتها الباكي قائلاً:

- كل قول يهون بالقياس إلى عذابي.

ـ لا تسمعيني صوتك، وابعدي عن وجهي.

وكور ثوبه المخلوع ورماها به، فتأوهت قائلة: «بطنى!». وسرعان ما برد غضبه، وأشفق من العواقب. وآنست هي من صمته تراجعًا فقالت بصوت المتوجع:

\_سأذهب بعيدًا كما تريد.

وقامت فمضت تبتعد حتى صاح بها:

ـ هل ترين الوقت مناسبًا للدلال؟

ثم تحفّز للقيام وهو يصيح:

-ارجعي لا رجعت إليك الراحة.

وأحد بصره في الظلام حتى رأى شبحها يعود فأسند ظهره إلى جدار الكوخ ورفع رأسه نحو السماء. وود لو يطمئن على بطنها ولكن أبت كبرياؤه. أجل ذلك إلى أجل قريب. ثم مهد له بقوله:

- اغسلي بعض الخيار للعشاء.

## 11

مجلس لا يخلو من الراحة. لا نبت فيه ولا ماء، ولا عصافير تزقزق فوق الغصون، لكن أرض الخلاء الجرداء المشاكسة تكتسى في الليل حلة غامضة يخالها الحالم ما يشاء. وفوقه قبة السماء المرصعة بالنجوم والمرأة داخل الكوخ، والوحدة ناطقة، والحزن كالجمر المدفون تحت الرماد. وسور البيت العالى يعاند المشتاق، وهذا الأب الجبار كيف السبيل إلى إسماعه أنيني. ومن الحكمة نسيان الماضي، لكن ليس لنا من زمن غيره، لذلك كرهت ضعفي ولعنت نذالتي ورضيت الشقاء رفيقًا وسألد له أبناء. والعصفورة التي لا تصدها قوة عن الحديقة أسعد من أحلامي، وعيناي احترقتا شوقًا إلى المياه الجارية بين شجيرات الورد، وأين عبير الحناء والياسمين؟ أين؟ أين خلو البال والناي؟ أين أيها القاسي؟ مضى نصف عام فمتى يذوب ثلج قسوتك؟!

وعن بعد ترامى صوت إدريس مغنيًا بصوت كريه: «عجايب والله عجايب». وإذا به يوقد نارًا أمام كوخه فاشتعلت كأنها شهاب هوى فانغرس فى الأرض، وكانت زوجه تذهب وتجىء ببطنها المتدلى لتقدم طعامًا أو شرابًا. ولطمته موجة سكر فصاح فى السكون موجهًا الخطاب إلى البيت الكبير: «هذا أوان الملوخية والفراخ المحمرة، اطفحوها سما يأهل البيت!». ثم عاد إلى الغناء.

وقال أدهم لنفسه متأسفًا: «كلما خلوت إلى نفسى فى الظلام جاء الشيطان فأشعل ناره وعربد فأفسد على خلوتى!». وظهرت أميمة عند باب الكوخ فعلم أنها لم تنم على خلاف ظنه. وكانت من الحمل فى إعياء، ومن الجهد والفقر على حال لا تسر. وقالت برقة وإشفاق:

\_ألا تنام؟!

فقال في ضجر:

- دعيني للساعة الوحيدة التي تطيب فيها الحياة . .
- ـ ستسعى بعربتك مع الصباح الباكر ، فما أحوجك إلى الراحة!
- ـ في وحدتي أرتد سيدًا أو شبه سيد، أتأمل السماء وأتذكر الأيام الخالية.
  - فتنهدت بصوت مسموع وقالت:
- ـ أود لو رأيت أباك ذاهبًا من البيت أو راجعًا إليه أن أرمى بنفسى تحت أقدامه وأن أستغفره .

# فقال أدهم في جزع:

\_قلت لك مرارًا أن تقلعي عن هذه الأفكار، فليس بهذه الوسيلة يمكن أن نسترد عطفه.

فصمتت مليًّا، ثم قالت همسًا:

\_إنى أفكر في مصير الشيء الذي في بطني.

\_ولا شغل لي إلا هذا على رغم أنى لم أعد إلا حيوانًا قذرًا.

فتمتمت بحزن:

ـ والله إنك خير الرجال جميعًا.

فضحك أدهم ساخرًا وقال:

ـ لم أعد إنسانًا، فالحيوان وحده هو الذي لا يهمه إلا الغذاء.

ـ لا تحزن، كم من رجل بدأ مثلك، ثم تيسر له العيش الرغيد فملك الدكاكين والبيوت!

-أراهن على أن أوجاع الحبل قد بلغت رأسك!

فقالت بإصرار:

ـ ستكون رجلاً ذا شأن، وسينشأ وليدنا في أحضان النعيم. .

فضرب أدهم كفّا بكف وتساءل ساخراً:

ـ أأبلغ ذلك بالبوظة أم بالحشيش؟

\_بالعمل يا أدهم.

## فقال في سخط:

- العمل من أجل القوت لعنة اللعنات، كنت في الحديقة أعيش، لا عمل لي إلا أن أنظر إلى السماء أو أنفخ في الناي، أما اليوم فلست إلا حيوانًا، أدفع العربة أمامي ليل نهار في سبيل شيء حقير نأكله مساء ليلفظه جسمي صباحًا، العمل من أجل القوت لعنة اللعنات، الحياة الحقة في البيت الكبير، حيث لا عمل للقوت، وحيث المرح والجمال والغناء.

## وإذا بصوت إدريس يقول:

ـ نطقت بالحق يا أدهم، العمل لعنة، وهو ذل لم نعتده، ألم أعرض عليك الانضمام إلى ؟!

التفت أدهم نحو الصوت فرأى شبح إدريس واقفًا على قرب منه. هكذا يتسلل في

الظلام دون أن يشعر به فيتنصت إلى الحديث ما شاء له التنصت، ويشترك فيه إذا حلا له ذلك. ووقف أدهم منفعلاً وهو يقول:

ـ عد إلى كوخك.

فقال إدريس بلهجة جدية مفتعلة:

\_إنى مثلك أقول إن العمل لعنة لا تليق بكرامة الإنسان.

\_إنك تدعوني إلى البلطجة وهي أقذر من اللعنة .

\_إذا كان العمل لعنة والبلطجة قذارة فكيف يعيش الإنسان؟

فلم يرتح إلى محادثته فصمت، وانتظر إدريس أن يتكلم فلم يتكلم، فقال:

\_لعلك تريد رزقًا بلا عمل؟ ولكن ذلك سيكون حتمًا على حساب الآخرين!

وثابر أدهم على صمته فعاد الآخر يقول:

\_أم لعلك تريد رزقًا بلا عمل دون أن يضار به أحد؟!

وضحك ضحكة كريهة وقال:

ـ هذه فزورة يابن الجارية!

وصاحت أميمة بغضب:

ـ عد إلى كوخك واخز الشيطان.

ونادته امرأته بحدة، فرجع من حيث أتى وهو يترخم: «عجايب والله عجايب».

وتوسلت أميمة إلى زوجها قائلة:

\_ تجنب الاشتباك معه بأى ثمن.

\_إنى أجده فجأة فوق رأسي دون أن أدرى كيف جاء.

وساد صمت اتخذا منه مسكنًا لانفعالهما. وعادت أميمة تقول برقة:

ـ قلبي يحدثني بأنني سأجعل من كوخنا بيتًا شبيهًا بالبيت الذي طردنا منه، لن تنقصه الحديقة ولا البلابل، وسيلقي وليدنا فيه كل راحة ومتعة.

فوقف أدهم وهو يبتسم ابتسامة لم ترها في الظلام، وقال ساخرًا وهو ينفض التراب عن جلبابه:

- الخيار القشطة! . . الخيار السكر! والعرق يتصبب من جسدى والغلمان يتسلون عماكستي، والأرض تأكل قدمي، في سبيل ملاليم . .

ودخل الكوخ فتبعته وهي تقول:

ـ لكن سيأتي يوم المرح والغناء .

ـ لو كنت تشقين ما وجدت وقتًا للأحلام.

ورقد كل منهما على خيشة محشوة بالقش، وهي تقول:

\_ أليس الله بقادر على أن يجعل من كوخنا بيتًا كالبيت الذي طردنا منه . . ؟

فقال أدهم وهو يتثاءب:

\_ أمنيتي أن أعود إلى البيت الكبير.

ثم وهو يتثاءب بدرجة أعلى:

\_العمل لعنة!

فقالت بصوت هامس:

\_ربما، ولكنها لعنة لا تزول إلا بالعمل!

#### 17

وذات ليلة استيقظ أدهم على تأوهات عميقة. ولبث وهو بين النوم واليقظة حتى تبين صوت أميمة وهى تتوجع هاتفة: «آه يا ظهرى.. آه يا بطنى»، فجلس من فوره وهو يحملق صوبها، ثم قال:

\_هذا حالك هذه الأيام ثم ينجلي عن لا شيء، أشعلي الشمعة.

فقالت وهي تئن:

\_أشعلها بنفسك، هذه المرة جدّ.

فقام يتحسس موضع الشمعة بين أدوات الطهى حتى عثر عليها، فأشعلها، وثبتها على الطبلية، فبدت أميمة على الضوء الخافت جالسة متكئة على ساعديها، تئن، وترفع رأسها لتتنفس بصعوبة ظاهرة. وقال الرجل بقلق:

\_هذا ما تظنينه كلما شعرت بوجع .

فقالت بوجه متقلص:

\_كلا، أنا متأكدة أن هذه المرة جدّ.

وساعدها حتى أسند ظهرها إلى جدار الكوخ، ثم قال:

ـ هو شهرك على أيّ حال. تجلَّدى حتى أذهب إلى الجمالية لأحضر لك الداية.

\_صحبتك السلامة. ما الوقت الآن؟

مضى أدهم خارج الكوخ، وجعل ينظر إلى السماء، ثم قال:

- الفجر قريب، لن أغيب إلا مسير الطريق.

واندفع يسير على عجل نحو الجمالية. ثم عاد يشق الظلام وهو قابض على يد الداية العجوز ليهديها السبيل. وعند اقترابه من الكوخ ترامى إليه صراخ أميمة الذى مزق السكون، فخفق قلبه وأوسع خطاه حتى تشكت الداية. ودخلا الكوخ معًا، فخلعت المرأة ملاءتها وهي تقول لأميمة ضاحكة:

ـجاء الفرج، وما بعد الصبر إلا الراحة.

وسألها أدهم:

\_كيف حالك؟

فقالت في صوت كالأنين:

\_أكاد أموت من الألم، جسمي يتفكك، وعظامي تتكسر، لا تذهب.

فقالت الداية :

ـ بل ينتظر في الخارج بسلام.

وغادر أدهم الكوخ إلى العراء فلمح شبحًا واقفًا عن قرب، عرفه قبل أن يتبينه، فانقبض صدره، ولكن إدريس قال مصطنعًا لهجة الأدب:

ـ جاءها الطلق؟ مسكينة، مرت زوجي بهذه الحالة كما تعلم منذ زمن قصير، إنه ألم كاذب لا يلبث أن يزول، ثم تتلقى نصيبك من عالم الغيب كما تلقيت هند. إنها طفلة ساحرة ولكنها لا تكف عن التبول والبكاء، تجلّد.

فقال أدهم على مضض وضيق:

-الأمر لصاحب الأمر.

فصدرت عن إدريس ضحكة خشنة وتساءل:

- جئت لها بداية الجمالية؟

\_نعم.

ـ امرأة قذرة، طماعة، جئتُ بها أيضًا فغالت في تقدير أتعابها فطردتها، ولا تزال تدعو على كلما رأتني مارا ببيتها.

فقال أدهم بعد تردد:

\_ما ينبغي أن تعامل الناس هكذا.

ـ يا بن الأكابر ، علمني أبوك أن أعامل الناس بالفظاظة والقسوة .

وارتفع صوت أميمة بصراخ كأنما هو صدى للتمزق الذى يقع فى جوفها، فانطبقت شفتا أدهم على ما همّ بقوله، واقترب من الكوخ قلقًا، وهتف بصوت رقيق:

ـ شدى حيلك.

فردد إدريس قوله بصوت مرتفع:

ـ شدى حيلك يا امرأة أخى.

فأشفق أدهم من سماع زوجه هذا الصوت، لكنه داري حنقه قائلا:

\_يحسن بنا أن نقف بعيدًا عن الكوخ.

ـ تعال بنا إلى كوخي أقدم لك الشاي، وترى هند وهي تغط في النوم.

لكن أدهم ابتعد عن كوخه دون أن يتجه نحو كوخ الآخر ، وهو يلعنه في سره في غيظ مكتوم، فتبعه إدريس وهو يقول:

ـ ستكون أبا قبل طلوع الصبح. إنه تغيُّر خطير، من فوائده أن تشعر بالرابطة التي يمزقها أبوك في يسر وبلادة.

فنفس أدهم عن ضيقه بقوله:

\_هذا الكلام يضايقني.

ربما، لكن لا هم لنا غيره.

فسكت أدهم مترددًا، ثم قال بشيء من الإشفاق:

\_إدريس، لماذا تتبعني وأنت تعلم ألا مودة بيننا؟!

فقهقه إدريس عاليًا وقال:

\_ يا لك من طفل قليل الحياء! لقد أيقظني صراخ زوجك من أحلى نومة فلم أسمح لنفسى بالغضب، وعلى العكس جئت لأقدم لك المعونة إن كنت في حاجة إليها، وإن أباك ليسمع الصراخ كما سمعته ولكنه عاود النوم كمن لا قلب له.

فقال أدهم في ضجر:

ـ حسبنا ما كتب لنا من مصير ، ألا تستطيع أن تتجاهلني كما أتجاهلك؟

- إنك تكرهني يا أدهم لا لأنني كنت السبب في طردك، ولكن لأنني أذكرك بضعفك. إنك تكره في نفسك الآثمة، أما أنا فلم يعد لي من مبرر لكراهيتك؛ بل أنت اليوم عزائي وتسليني، ولا تنس أننا جيران، وأول من سكن هذا الخلاء من الأحياء، وسيدب عليه أولادنا جنبًا إلى جنب.

\_إنك تتلذذ بتعذيبي.

فصمت إدريس مليًا حتى منّى أدهم نفسه بالخلاص، ولكنه عاد يسأل بلهجة جدية:

\_ لماذا لا نتفق؟

فقال أدهم وهو يتنهد:

ـ لأننى بياع على قد حالى وأنت رجل هوايتك الضرب والاعتداء.

وعاد صراخ أميمة يعلو ويشتد فرفع أدهم رأسه متوسلاً، فأدرك من توه أن كثافة الظلام قد خفّت، وأن الفجر تسلّق الجبل. وهتف أدهم:

\_ما ألعن الألم!

فقال إدريس ضاحكًا:

ـ ما أجمل الرقة! خلقتَ لإدارة الوقف والنفخ في الناي.

\_اسخر ما شئت، إنى متألم.

\_ لماذا؟ حسبت امرأتك هي المتألمة!

فصاح أدهم من فرط جزعه:

\_دعني وشأني .

فتساءل الآخر في هدوء مغيظ:

\_أتريد أن تصير أبا بلا ثمن؟

فلزم أدهم الصمت وهو ينفخ فقال إدريس متعطفًا:

- أنت حكيم، وقد جئت أعرض عليك عملاً تستعين به على إسعاد المخلوقات القادمة، إن هذا الذي نسمع مقدمات تشريفه الأول وليس الأخير، فإن شهواتنا لا تقنع إلا بأن تبني فوقنا تلاّ من الذرية الصاخبة، ما رأيك؟

- الضياء يلوح فاذهب لتستوفي نومك.

وتعالى الصراخ، متتابعًا متواصلاً حتى ضاق أدهم بموقفه فرجع إلى الكوخ الذى شق عنه الظلام، وبلغه وأميمة ترسل تنهدة عميقة مثل ختام أغنية حزينة. اقترب من باب الكوخ وهو يتساءل:

- كيف الحال عندكم؟

فجاءه صوت الداية وهو يقول: «انتظر». تحفز قلبه للارتياح عندما خيل إليه أن الصوت يوحى بالظفر. وما لبث أن لاحت المرأة في الباب وهي تقول:

\_رزقت بذكرين!

\_ توءمين؟

\_ فليرزقك الله برزقهما.

وصكّت أذنيه ضحكة إدريس من وراء ظهره وسمعه يقول:

\_إدريس الآن أب لأنثى وعم لذكرين.

ومضى نحو كوخه وهو يغنى: «البخت والقسمة فين يا دى الزمان قلّى». وعادت الداية تقول:

ـ ترغب الأم في أن يسميا قدري وهمام.

فراح أدهم يغمغم وقد استخفه السرور:

قدري وهمام، قدري وهمام.

## 18

قال قدري وهو يجفف وجهه بذيل جلبابه:

\_ فلنجلس لتناول طعامنا .

فقال همام وهو ينظر نحو الشمس المائلة للغروب:

\_نعم، سرقنا الوقت.

تربعاً على الرمال تحت سفح المقطم. وحل همام عقدة المنديل الأحمر المخطط فكشف عن خبز وطعمية وكراث، وراحا يأكلان، وينظران بين حين وآخر نحو أغنامهما، التى هام بعضها على وجهه، وقعد البعض ليجتر في راحة وسلام. لم يكن ثمة ما يميز بين الشقيقين في الملامح والقسمات، غير أن نظرة الصائد المتجلية في عيني قدرى أضفت على سحنته حدة ميزته بطابع خاص. وعاد قدرى يقول وهو يطحن الطعام المحتشد في فه:

\_لو كان هذا الخلاء لنا دون شريك لرعينا أغنامنا مرتاحي البال.

فقال همام باسمًا:

\_ولكن هذا الخلاء مقصد الرعاة من العطوف وكفر الزغاري والحسينية، ومن الممكن أن نصادقهم فنتقى شرهم.

فضحك قدري ضحكة هازئة انطلقت من فيه مع فتات من طعامه وقال:

ـ هذه الحواري عندها جواب واحد لمن ينشد صداقتها هو الصفعات.

ـ لكن . .

ـ لا لكن يا بن أبي، إنى أعـرف طريقة واحدة، وهي أن أجـذب الرجل من جلبابه وأنطحه في جبينه فينقلب على وجهه أو على قفاه.

\_لذلك لا نكاد نحصى أعداءنا.

\_ومن كلفك بإحصائهم؟!

وتابع همام جدْيا أوغل في الابتعاد فراح يصفر له حتى توقف ودار عائداً في صمت الحكيم. وانتقى عوداً من الكراث ومسحه بأصابعه فدفعه في فيه متلذدًا، ثم قال وهو يتمطق:

\_ولذلك تجدنا وحدنا، ويمضى الوقت الطويل دون أن نتكلم.

ـ وما حاجتك إلى الكلام وأنت تغنى طوال الوقت؟!

فنظر همام إليه بثقة وقال:

ـ يخيل إلى أنك تضيق بهذه الوحدة أحيانًا.

ـ سأجد دائمًا عللاً للضيق، الوحدة أو غيرها.

وساد صمت وضح فيه التمطق. ولاحت عن بعد جماعة عائدة من الجبل نحو العطوف، تسير على غناء منشد كالحادي والآخرون يرددون. .

#### فقال همام:

\_هذه الناحية من الخلاء امتداد لحينا، ولو ذهبنا شمالاً أو جنوبا فأغلب الظن أننا لن نعود.

فضحك قدرى ضحكة مجلجلة وقال:

ـ ستجد في الشمال وفي الجنوب أناسًا يودون قتلي، ولكنك لن تجد واحدًا يجرؤ على منازلتي.

فقال همام وهو ينظر نحو الأغنام:

ـ لا يمكن إنكار شجاعتك، ولكن لا تنس أننا نعيش بفضل اسم جدنا وسمعة عمنا المخيفة على رغم ما بيننا وبينه من خصام.

فعقد قدري ما بين حاجبيه احتجاجًا، ولكنه لم يجهر بمعارضة. واتجه بصره نحو البيت الكبير الذي لاح عن بعد في الغروب هيكلاً ضخمًا مطموس المعالم، وقال:

\_هذا البيت! لم أشهد له مثيلاً، في خلاء يكتنفه من جميع النواحي، وعلى مقربة من حوار وأزقة اشتهرت بالجبروت والمشاكسة. صاحبه جبار بلا جدال، هذا الجد الذي لم ير أحفاده وهم على بعد أذرع منه!

فاتجه بصر همام ناحية البيت، ثم قال:

\_إن أبانا لا يذكره إلا مصحوبًا بالإجلال والإكبار.

ـ وعمنا لا يذكره إلا مصحوبًا باللعنات.

فقال همام بإشفاق:

ـ هو جدنا على أي حال.

\_وما جدوى ذلك يا غلام؟ إن أبانا يكدح وراء عربته، وأمنا تكد طوال النهار وشطرًا من الليل، ونحن نعاشر الأغنام حفاة شبه عراة. أما هو فقابع وراء الأسوار، بلا قلب، متمتعا بنعيم لا يخطر على بال.

فرغا من الطعام. نفض همام المنديل ولفه ثم دسه في جيبه، واستلقى على ظهره متوسدًا ذراعيه، مرسلاً ناظريه إلى السماء الصافية، وهي تقطر هدوء المغيب، والحدآت تولى في الآفاق. ونهض قدري فانتحى جانبًا ليبول، وقال:

ـ يقول أبونا إنه كان يخرج كثيراً في الماضي فيمر بهم في ذهابه وإيابه، أما اليوم فلا يراه أحد، وكأنما يخاف على نفسه.

قال همام بنبرات حالمة:

\_كم تمنيت أن أراه.

ـ لا تحلم بأن ترى شيئًا خارقًا، ستجده شبيهًا بأبينا أو بعمنا، أو لكليهما معًا، إنى أعجب لوالدى كيف لا يذكره إلا بالإجلال على رغم ما ناله على يديه.

- الظاهر أنه كان شديد التعلق به، أو أنه آمن بعدالة ما نزل به من عقاب.

\_أو أنه ما زال يطمع في عفوه!

\_إنك لا تفهم أبانا، إنه رجل ودود المعشر.

وعاد قدري إلى مجلسه وهو يقول:

- إنه لا يعجبنى، وأنت لا تعجبنى. أؤكد لك أن جدنا شخص شاذ لا يستحق الاحترام، ولو كانت به ذرة من خير ما جفا لحمه هذا الجفاء الغريب، إنى أراه كما يراه عمنا لعنة من لعنات الدهر.

فقال همام باسمًا:

ـ لعل أرذل ما فيه هو ما تتباهى به أنت، أعنى القوة والبطش.

فقال قدرى بحدة:

لقد نال هذه الأرض هبة بلا عناء ثم طغي واستكبر.

ـ لا تنكر ما اعترفت به منذ قليل، إن الوالى نفسه لم يكن بوسعه أن يعيش وحده في مثل هذا الخلاء.

ـ وهل تجد في الحكاية التي رويت لنا مسوغًا حقاً لغضبه على والدينا؟

\_إنك تجد أهون منها سببًا كافيًا للبطش بالناس!

تناول قدري الكوز ومضى يشرب حتى روى، ثم تجشأ وقال:

ـ ما ذنب الأحفاد؟ إنه لا يدرى ما رعى الغنم، سحقًا له! أود لو أعرف وصيته، وماذا أعدّ لنا!

فتنهد همام وقال بصوت حالم:

ـ ثروة تريح من العناء، كي يفرغ المرء لقلبه، ويمضى العمر في يسر وطرب.

\_ إنك تردد قول أبينا، نشقى في التراب والطين ونحلم بالناي في ظل حديقة غناء. الحق أقول إني أعجب بعمى أكثر من أبي.

فجلس همام وهو يتثاءب ، ثم نهض يتمطى ، وقال :

ـ على أى حـال صـرنا شـيئـا، لنا مـأوى يسـعنا، ورزق يحفظ علينا الحـيـاة، وأغنام نرعاها، نبيع لبنها ونسمّنها لنبيعها أيضًا، ومن شعرها تغزل أمنا الكساء.

\_والناي والحديقة؟

فلم يجب ، واتجه نحو الأغنام بعد أن تناول عصاه الملقاة عند قدميه. ووقف قدري، وصاح موجهًا خطابه إلى البيت الكبير في عبث:

- أسمحت بأن نرثك، أم ستعاقبنا في موتك كما عاقبتنا في حياتك؟ أجب يا جبلاوي.

وردد الصدى: «أجب يا جبلاوى!».

## ١٤

ورأيا عن بعد شخصًا يتجه نحوهما لم تتضح معالمه. ومضى القادم يقترب رويدًا حتى تبيناه، فانتصبت قامة قدرى بحركة تلقائية وشعّت عيناه الجميلتان نور ابتهاج. ولحظ همام أخاه باسمًا، ثم نظر إلى الأغنام في غير مبالاة وهمس بلهجة تنبيه:

\_الظلام غير بعيد.

فهتف قدرى باستهانة:

\_ فليأت الفجر إذا شاء.

وخطا خطوات نحو الأمام ملوحًا بذراعيه في ترحاب للفتاة. وأخذت تدنو من موقفهما، مجهدة من المشي، لطول المسافة من ناحية ولمقاومة الرمال لشبشبها من ناحية أخرى، متطلعة نحوهما ببصر لامع يعكس مع فتنة العينين الخضراوين جرأة. وبدت ملتفة بملاءتها اللف حتى الكتفين، مطلقة الرأس والعنق عاريين فعبث الهواء بضفيرتيها. وارتفع صوت قدرى بسرور مسح عن وجهه أمارات الحدة:

\_أهلا بهند.

فأجابت بصوت رقيق:

\_أهلاً بك (ثم مخاطبة همام) مساء الخير يا بن عمى.

فقال همام باسمًا:

\_مساء الخيريا بنت العم، كيف حالك؟

وتناول قدرى يدها وسار بها نحو الصخرة الكبيرة القائمة على بعد أمتار من موقفهما، ودارا حول الصخرة حتى ضلعها المواجه للجبل فصارا في منعزل عن الخلاء ومن فيه. وجذبها نحوه فأحاطها بذراعيه، ثم قبّل ثغرها قبلة طويلة حتى تماست ثناياهما وغابت الفتاة في لحظة استسلام مذهلة. واستطاعت أن تتخلص من ذراعيه، وأن تقف مضطربة الأنفاس فتحكم لف ملاءتها، وتتلقى نظرته المهاجمة بنظرة باسمة. ولكن الابتسامة اختفت كأنما لخاطرة خطرت، وتقوست الشفتان في تبرم، ثم قالت:

\_جئت بعد معركة ، أف ، هذه الحياة لا تطاق .

فقطب قدرى لإدراكه ما تعنى وقال بحدة:

ـ لا تبالى بشىء، إننا أبناء الحمق. أبى الطيب رجل غبى، وأبوك الشرس لا يقل عنه غباء، إنهما يودان أن يورثانا الكراهية، فيا للغباء! خبرينى كيف تيسر لك المجىء؟ فنفخت وقالت:

مضى اليوم كالأيام السابقة في نقار متواصل بين أبي وأمي، وصفعها مرة أو مرتين فصرخت تلعنه وصبّت غضبها على قلة فحطمتها، ولكن غضبها اليوم وقف عند هذا الحد. إنها كثيراً ما تمسك بخناقه متحدية لطماته، وتدعو عليه إذا غلبت على أمرها، أما إذا غلبته الخمر فلا سلامة إلا بالبعد عن وجهه. كثيراً ما أشعر برغبة في الهرب، وبكراهية شديدة لهذه الحياة، ولكني أروح عن نفسي بالبكاء حتى تؤلمني عيناي. ما علينا، انتظرت حتى ارتدى ثيابه وذهب، فتناولت الملاءة ولكن أمى تعرضت لى تحاول منعى كالعادة، ولكني تخلصت منها ومضيت إلى الخارج.

فتناول قدري يدها بين يديه وتساءل:

\_ألا تخمن أين تذهبين؟

ـ لا أظن، لا يهمني، إنها على أي حال لا تجرؤ على إخبار أبي. .

فضحك قدرى ضحكة مقتضبة وسألها:

\_ماذا تظنينه يفعل لو عرف؟

فرددت ضحكته في حيرة، ولكنها قالت:

- إنى لا أخشاه على رغم شدته، بل أقول لك إنى أحبه، وهو يحبنى في سذاجة لا تتفق وحدة طبعه؛ ولا يبالى أن يقول إننى أغلى شيء في دنياه، ولعل هذا هو أصل متاعبي.

جلس قدري على الأرض أسفل الصخرة ودعاها إلى الجلوس بأن ربت الموضع جانبه، فجلست وهي تتخفف من حبكة الملاءة، ومال نحوها فلثم خدها، ثم قال:

\_ يبدو أن غزو أبى أيسر من غزو أبيك، ومع ذلك فشد ما يبدو فظّا إذا جاء ذكر لأبيك. إنه ينكر عليه صفات. . .

فضحكت قائلة وهي تذكر ما تردد عن ذكره:

ـ بنى آدم! . . كذلك ينكر أبى عليه .

فحدجها بنظرة استنكار، فقالت:

- أبوك ينكر على أبى فظاظته، وأبى ينكر على أبيك طيبته، والمهم أنهما لم يتفقا على شيء.

فندت عن رأس قدري حركة كأنما ينطح الهواء. وقال بتحد:

\_لكننا سنفعل ما نشاء.

فقالت هند وهي تنظر نحوه بعطف وإشفاق:

\_أبى يستطيع أن يفعل ما يشاء كذلك!

\_وأنا قادر على أشياء كثيرة، ماذا يريد لك هذا العم السكير؟

فضحكت على رغمها، وقالت بلهجة تشى بالاحتجاج والمداعبة معًا:

ـ تكلم عن أبي بأدب.

وواصلت الكلام وهي تقرصه في أذنه:

ـ طالما ساءلت نفسي عما يريد لي، فخيل إلىّ أحيانًا أنه يكره أن يزوجني من أحد.

فحملق فيها منكراً فعادت تقول:

- رأيته مرة يرمى بيت جدنا بنظرة غاضبة ويقول: «إذا كان قد رضى لأبنائه وأحفاده بالهوان فهل يرضى به لحفيدته؟ لا مكان لائق بهند إلا هذا البيت المغلق». ومرة قال لأمى إن فتوة كفر الزغارى يرغب فى الزواج منى، ففرحت أمى فصاح بها حانقًا: «يا وضيعة. . يا خسيسة، من يكون فتوة كفر الزغارى هذا؟ إن أحقر خادم فى البيت الكبير أشرف منه وأنظف». فسألته أمى فى حسرة: «فمن تراه الجدير بها؟». فصاح: «علم ذلك عند الطاغية المتوارى خلف أسوار بيته، إنها حفيدته، وليس فى الأرض من هو أهل لها! أريد لها زوجًا مثلى أنا». فقالت أمى على رغمها:

«أتريدها أن تكون تعيسة مثل أمها؟!». فهجم عليها كالوحش وراح يركلها بشدة حتى جرت خارج الكوخ!

ـ هذا هو الجنون بعينه.

\_ إنه يكره جدنا، ويلعنه كلما ذكره، لكنه في أعماقه يتيه إدلالا بأبوته.

فكور قدري قبضته وجعل يضرب بها فخذه ويقول:

\_لعلنا كنا نكون أسعد حالاً لو لم يكن ذلك الرجل جدا لنا. .

فقالت بمرارة:

\_لعلنا.

فجذبها إلى صدره بشدة تناسب الحدة في قوله وضمها إليه بقوة. واستبقاها هكذا بين يديه ريثما تمر فترة الانتقال بين الشواغل المتعبة وبين الهيام الموعود، وقال:

\_ أعطيني فاك.

عند ذاك تراجع همام من موقفه عند الصخرة، واتجه بخفة نحو الأغنام وهو يبتسم في حياء وأسى. خيل إليه أن الهواء يثمل بأنفاس الحب، وأن الحب ينذر بالمآسى. لكنه قال لنفسه: "صفا وجهه ورق"، لا يرى على هذا الحال إلا خلف الصخرة، فمن لنا بقوة هذا الحب السحرية لتزيل متاعبنا؟". هنا والسماء تشحب في استسلام، وأنفاس المغرب تتردد في خمول، والسنُّمرة تزحف كنغمة وداع وانية، وهناك تيس يثب على عنزة. وعاد همام يحدث نفسه: "ستفرح أمى يوم تلد هذه العنزة؛ ولكن ميلاد إنسان قد يجيء بالكوارث، فوق رءوسنا لعنة من قبل أن نولد، وأعجب عداوة هي التي لا تجد لها من مبرر إلا أنها بين أخوين. إلى متى نعاني من هذه الكراهية؟! لو نسى الماضى لابتهج الحاضر، ولكنا سنظل نتطلع إلى هذا البيت الذي لا عزة لنا إلا به ولا تعاسة إلا بسبب منه». وعلقت عيناه بالتيس فابتسم. ومضى يدور حول الغنم وهو يصفر ويلوح بعصاه. وحانت منه التفاتة نحو الصخرة الكبيرة الصامتة فبدت في وقفتها كأنها لا تبالي شيئا في الوجود.

# ١ ٥

استيقظت أميمة كعادتها عندما لم يبق في السماء إلا نجمة واحدة. ونادت أدهم حتى استيقظ متأوهاً. ونهض الرجل فغادر غرفته مثقلا بالنعاس إلى غرفة خارجية متصلة بها حيث ينام قدرى وهمام فأيقظهما. وبدا الكوخ في مظهره الجديد ناميًا ممتدّاً كأنه بيت

صغير، وأحاط به سورٌ ضم إليه فراعًا خلفيا لإيواء الأغنام. وانتشرت على السور أفرع اللبلاب فلطفت من جفاء منظره، ودلت على أن أميمة لم تيأس بعد من تحقيق حلمها القديم بأن تهذب ما استطاعت كوخها على مثال البيت الكبير. واجتمع الرجال في الفناء حول صفيحة مملوءة بالماء، فغسلوا وجوههم، وارتدوا جلابيب العمل، وحمل الهواء من داخل الكوخ رائحة احتراق خشب، وبكاء الإخوة الصغار.

وأخيراً جلسوا حول الطبلية أمام مدخل الكوخ يأكلون من حلة فول مدمس. وكان جو الخريف رطيبا مائلا للبرودة في هذه الساعة المبكرة ولكنه لاقى أجساما قوية صمدت حيال نزواته. وعن بعد بدا كوخ إدريس وقد كبر وامتد كذلك. أما البيت الكبير فقام في صمت منطويا على ذاته كأنما لا يربطه سبب بهذا العالم الخارجي. وجاءت أميمة تحمل كوز لبن محلوب لتوه فوضعته على الطبلية وجلست. وعند ذاك سألها قدرى بسخرية:

\_ لماذا لا تبيعين اللبن إلى بيت جدنا الموقر؟

فالتفت إليه أدهم برأسه الذي وخط المشيب فوديه وقال:

ـ كل وأنت ساكت، السكوت غاية ما نرجو عندك من خير.

وقالت أميمة وهي تطحن ما في فيها:

- آن لنا أن نخلل الليمون والزيتون والفلفل الأخضر، كنت يا قدرى تبتهج في أيام التخليل وتشترك في حشو الليمون.

فقال قدرى بمرارة:

ــ كنا نبتهج ونحن صغار حتى بلا سبب.

فسأله أدهم وهو يعيد الكوز إلى موضعه:

\_وماذا يشقيك اليوم يا أبا زيد الهلالي؟

فضحك قدرى ولم يجب. أما همام فقال:

ـ يوم السوق قريب، ينبغي أن نفرز الأغنام.

فهزت الأم رأسها بالإيجاب، على حين وجّه الأب خطابه إلى قدري قائلاً:

\_ يا قدري لا تكن فظا، لا أقابل شخصًا يعرفك إلا شكاك إلى ، أخشى أن تعيد سيرة عمك في هذه الحياة .

\_ أو سيرة جدى!

فاتقدت عينا أدهم استياء وقال:

ـ لا تذكر جدك بسوء، هل سمعتنى أفعل ذلك؟ ثم إنه لم يسئ إليك.

فقال قدرى باستنكار:

\_أساء إلينا ما دام أساء إليك.

\_اسكت، نقطنا بسكوتك.

ـ بسببه كتبت علينا هذه الحياة، وهي أيضًا مصير بنت عمنا.

فقال أدهم في عبوس:

ـ ما لنا ومالها، أبوها علة الكارثة.

فهتف قدري:

\_أعنى أنه ما كان يصح أن تنشأ نساء من دمنا في الخلاء والعراء، ثم خبّرني أي رجل ستتزوج هذه الفتاة؟

ليكن الشيطان نفسه، لا شأن لنا بها، لا شك في أنها مفترسة مثل أبيها.

ونظر نحو زوجه كأنما ينشد تأييدًا فقالت أميمة:

\_نعم، مثل أبيها.

فبصق أدهم قائلاً:

\_ملعونة هي وأبوها!

فتساءل همام:

\_ ألا يفسد هذا الحديث علينا طعامنا؟

فقالت أميمة برقة:

\_ ألا تبالغ؟ إن أسعد الأوقات وقت اجتماعنا.

هنا ترامي إليهم صوت إدريس كالهدير وهو يلعن ويسب، فقال أدهم بتقزز:

\_بدأت صلاة الصبح!

وتناول آخر لقمة ونهض، ثم اتجه نحو عربته وراح يدفعها أمامه وهو يقول: «تركتكم بعافية»، فردوا عليه: «مع السلامة». ومضى الرجل مبتعدًا صوب الجمالية. وقام همام فمضى نحو الحظيرة من ممشى جانبى، وما لبث أن تعالى ثغاء الأغنام ووقع أظلافها فملأت الممشى في طريقها إلى الخارج. ونهض قدرى كذلك فتناول عصاه ولوح لأمه مودعًا ولحق بأخيه. وعندما اقتربا من كوخ إدريس تصدى لهما فتساءل ساخرًا:

ـ بكم الرأس يا جدع؟

فحدجه قدرى بنظرة حب استطلاع على حين تجنّب همام النظر إليه.

وعاد إدريس يتساءل في إنكار:

- ألا يتفضل أحدكما بالجواب يا ابني بياع الخيار؟

فقال قدرى بحدة:

\_إذا أردت الشراء فاذهب إلى السوق.

فتساءل إدريس مقهقهًا:

\_وإذا قررت الاستيلاء على إحداها؟

وجاء صوت هند من الداخل وهي تقول:

\_أبى، لا نريد فضائح.

فأجابها مداعبًا:

\_اهتمى بشأنك أنت، ودعيني لسلالة الجواري!

فقال همام:

ـ نحن لا نتعرض لك فلا تتعرض لنا.

-آه، صوت أدهم، كان ينبغي أن تكون بين الأغنام لا وراءها.

فقال همام محتداً:

\_أمرنا أبي بألا نجيب على تحرُّشك بنا.

فقهقه إدريس عاليًا وقال:

ـ جزاه الله كل خير، لولا أمره هذا لكنتُ من الهالكين! (ثم بلهجة خشنة). . إنكما تعيشان عزيزين بفضل اسمى، لعنة الله عليكم جميعًا، غورا من وجهي.

وواصلا سيرهما وهما يلوحان من حين إلى حين بعصويهما، ولبث همام ممتقع اللون من الانفعال فقال لقدري:

- هذا الرجل مقيت، ما أقذره! حتى في هذه الساعة المبكرة تنفث أنفاسه رائحة الخمر.

فقال قدري وهما يوغلان وراء الأغنام في الخلاء:

ـ إنه يتكلم كثيرًا، ولكنه لم يمد لنا يدًا بأذي.

فقال همام محتجّا:

ـ بل استولى أكثر من مرة على بعض أغنامنا.

\_إنه سكير، وهو للأسف عمنا، لا مهرب من الإقرار بذلك.

وساد الصمت قليلاً وهما يتجهان نحو الصخرة الكبيرة، وفي السماء سحب متفرقة، والشمس ترسل أشعتها فتغمر الرمال المترامية. وضاق همام بكتمان ما يود قوله فقال:

ـ ستخطئ خطأ كبيرًا إذا وصلت أسبابك بأسبابه .

فاشتعلت عينا قدري بنظرة غاضبة وهتف:

ـ لا تحاول نصحى، حسبى أبوك.

فقال همام وهو لم يفق بعد من إهانات إدريس:

\_حياتنا موفورة المتاعب فلا تزدها.

فصاح قدرى:

\_ فلتسحقكم المتاعب التي تخلقونها بأنفسكم، أما أنا فأفعل ما أشاء.

وكانا قد بلغا الموضع الذي يسرحان عنده الأغنام فالتفت همام نحو أخيه وتساءل:

\_أتظن أنك ناج من عواقب أفعالك؟!

فقبض قدري على منكبه بقبضته وصاح:

\_ما أنت إلاحسود.

فدهش همام. دهمه قول أخيه الذي لم يتوقعه. ولكنه كان متعودًا من ناحية أخرى على مفاجآته ومفرقعاته. ورفع يده عن منكبه وهو يقول:

\_اللهم احفظنا.

فشبك قدري يديه على صدره وهو يهز رأسه ساخرًا فقال همام:

ـ خير ما أفعل أن أتركك لنفسك حتى تندم، لن تقرّ بخطأ، ولن تقر به إلا بعد فوات الفرصة.

وأولاه ظهره متجهًا نحو جانب الصخرة الظليل. ووقف قدري مكفهر الوجه تحت الأشعة الحامية.

## 17

جلست أسرة أدهم أمام الكوخ تتناول عشاءها في ضوء النجوم الخافت. وإذا بحدث يقع لم يشهد له الخلاء مثيلاً منذ طرد أدهم. فتح باب البيت الكبير وخرج منه شبح حاملاً مصباحًا. وتطلعت الأعين إلى المصباح في دهشة انعقدت لها الألسنة، وتابعته وهو يتحرك في الظلام ككوكب أرضى، وعندما توسط المسافة بين البيت والكوخ تركزت الأبصار على الشبح لتتبينه على ضوء المصباح المنعكس حتى همس أدهم: «هذا عم كريم بواب البيت». وتضاعفت الدهشة عندما أيقنوا من أنه يقصدهم فوقفوا جميعًا، بعضهم اللقمة في يده والبعض اللقمة في فيه بلاحراك. وبلغ الرجل موقفهم فوقف رافعًا يده وهو يقول:

ـ مساء الخيريا سيدي أدهم.

ارتجف أدهم لـدي سماعه الصوت الذي انقطع عنه منذ عشرين عامًا، فدعا من

أعماق ذاكرته نبرات الأب العميقة وشذا الياسمين والحناء وحنينًا وأشجانًا، فمادت به الأرض. وقال وهو يقاوم دموعه:

\_مساء الخيرياعم كريم.

فقال الرجل بتأثر غير خاف:

\_لعلك أنت وأهلك بخير .

- الحمد لله يا عم كريم.

فقال الرجل برقة:

\_ أود أن أعرب لك عما بنفسى، ولكنى كلفت فقط بأن أبلغك بأن سيدى الكبير يدعو ابنك همام إلى مقابلته فورًا.

وساد الصمت، فتبادلوا النظرات، ولفتهم الحيرة، وإذا بصوت يتساءل:

\_همام وحده؟

والتفتوا ساخطين نحو إدريس الذي بدا عن كثب وهو يصغى، غير أن عم كريم لم يجب، ورفع يده تحية ورجع صوب البيت الكبير تاركًا الجميع في ظلام. وتغيظ إدريس منه فصاح به:

\_ أتتركني بلا جواب يا بن اللئيمة؟

وأفاق قدري من ذهوله فتساءل غاضبًا:

ـ لماذا همام وحده؟

فردد إدريس تساؤله:

ـ نعم، لماذا همام وحده؟

فقال له أدهم، ولعله وجد في مخاطبته متنفسًا عن أزمته:

ـ عد إلى كوخك ودعنا في سلام.

ـ سلام؟ إنى أقف حيث أشاء.

وتطلع همام إلى البيت الكبير صامتًا، وقلبه يخفق بشدة خيل إليه معها أن المقطم يردد صداه. وقال له أبوه بتسليم:

- اذهب يا همام إلى جدّك مصحوبًا بالسلامة.

فالتفت قدري إلى أبيه يسأله بحدة وتحدّ:

\_وأنا؟ ألست ابنك مثله؟

ـ لا تتكلم كما يتكلم إدريس يا قـدرى، إنك ابنى مـثله بلا أدنى ريب، و لا لوم على " فلست أنا الداعي .

فقال إدريس محتجّا:

\_ولكن بوسعك أن تمنع تمييز أخ عن أخيه.

\_هذا شأن لا يعنيك (ثم مخاطبًا همام) يجب أن تذهب، وسيأتي دور قدري، إنى واثق من ذلك.

فقال إدريس وهو يهمّ بالذهاب:

\_إنك أب ظالم مثل أبيك، مسكين قدرى، لماذا يعاقب دون ذنب؟ لكن اللعنة تنزل أول ما تنزل في أسرتنا بالممتازين، ألا لعنة الله على هذه الأسرة المجنونة!

ومضى فابتلعته الظلمة. وعند ذاك هتف قدرى:

\_إنك تظلمني يا أبي.

ـ لا تُعد أقواله، تعال يا قدري، واذهب يا همام.

فقال همام بحرج:

ـ وددت لو كان معي أخي .

ـ سيلحق بك .

فصاح قدرى بحنق:

- أى ظلم هذا؟! لماذا آثره على إنه لم يعرفه كما لم يعرفني، فلماذا يختصه بالدعاء؟ فدفع أدهم همام قائلاً:

\_اذهب.

فسار همام، وهمست أميمة:

\_ تحفظك العناية.

واحتضنت قدري باكية، ولكنه تخلص من ذراعيها ومضى في أثر أخيه فصاح به 'دهم:

ـعديا قدري ولا تقامر بمستقبلك.

فقال قدري بغضب:

\_لن ترجعني قوة على الأرض.

وعلا صوت أميمة بالبكاء، وبكى الصغار فى الداخل. وأوسع قدرى خطاه حتى لحق بأخيه، وعلى كثب منه فى الظلام رأى شبح إدريس يسير ممسكا بيد هند. ولما بلغوا باب البيت دفع إدريس قدرى إلى يسار همام وهند إلى يمينه وتراجع خطوات وهو يصبح:

- افتح يا عم كريم، جاء الأحفاد للقاء جدّهم.

وفتح الباب وظهر على عتبته عم كريم وبيده المصباح، وقال بأدب:

- فليتفضل سيدي همام بالدخول.

فهتف إدريس:

\_ وهذا أخوه قدري، وهذه هند وهي صورة مكررة من أمي التي ماتت باكية.

فقال عم كريم بأدب:

- أنت تعلم يا سيدي إدريس أنه لا يدخل هذا البيت إلا من يؤذن له.

وأشار إلى همام فدخل، وتبعه قدري آخذًا بيد هند ولكن علا صوت من الحديقة عرفه إدريس وهو يقول بصرامة :

\_اذهبا بعاركما أيها الملوثان.

تسمرت أقدامهما. وأغلق الباب. وانقض إدريس عليهما فقبض على منكبيهما بقبضتيه وتساءل بصوت متهدج من الغضب:

\_أي عار يعني؟

وصرخت هند ألمًا، على حين تحول قدرى فجأة نحو إدريس ورفع يديه عنه وعن هند، فأفلتت هند وولت هاربة في الظلام. وتراجع إدريس بخفة إلى الوراء، ثم وجه إلى قدرى لكمة فتحملها الشاب على رغم قوتها ووجه إليه لكمة أشدّ. واندفعا يتبادلان الضرب والركل بقسوة ووحشية تحت سور البيت الكبير. وصاح إدريس:

\_سأقتلك يا بن العاهرة.

فصاح قدري:

\_ سأقتلك قبل أن تقتلني.

وتبادلا الضربات حتى سال الدم من فم قدرى وأنفه. وجاء أدهم جريًا كالمجنون وصاح بأعلى صوته:

- اترك ابنى يا إدريس.

فصاح إدريس بحقد:

\_ سأقتله بجريمته.

\_لن أدعك تقتله، ولن أدعك تعيش إن قتلته.

وجاءت أم هند مولولة وهي تصيح:

\_ فرَّت هند يا إدريس، أدركها قبل أن تختفي.

ورمى أدهم بنفسه بين إدريس وقدري، وصاح بأخيه:

\_أفق، إنك تقاتل بلا سبب، بنتك طاهرة لم تمس، لكنك أرعبتها ففرت، أدركها قبل أن تختفي.

وجذب قدري إليه، ورجع به مسرعًا وهو يقول:

\_أسرع . . تركت أمك في حالة إغماء .

أما إدريس فانطلق في الظلام وهو يصرخ بأعلى صوته: «هند. . هند. .».

# 1 ٧

تبع همام عم كريم فاجتازا الممشى تحت عريشة الياسمين متجهين نحو السلاملك. بدا الليل في الحديقة شيئًا جديدًا، لطيفًا رطبًا مترعًا بنشوات الأزهار والرياحين فانسكب بروعته في أعماق روحه. وامتلأ الشاب بشعور جلال وافتتان، وحنين مودة عميقة للمكان، وبأنه مقبل على أجل لحظات عمره. وتراءت لعينيه أنوار وراء شيش بعض النوافذ، ونور قوى ينبعث من باب البهو فارشًا على أرض الحديقة تحته شكلاً هندسيّا، فخفق قلبه وهو يتخيل الحياة خلف النوافذ وفي الأبهاء، كيف تكون؟ ومن يحياها؟ وزاد قلبه خفقانًا حينما تمثلت لخاطره هذه الحقيقة العجيبة وهي أنه مخلوق من سلالة هذا البيت ونطفة من هذه الحياة، وأنه جاء ليلقاها وجهًا لوجه في جلباب أزرق بسيط وطاقية باهتة، منتعلا أديم الأرض. ورقيا في سلم السلاملك، فمالا إلى جناح الشرفة الأيمن نحو باب صغير، فتح على سلم فصعدا في صمت لا ينم عن حياة، حتى بلغا ردهة طويلة مضاءة بمصباح يتدلى من سقف مزركش، واتجها نحو باب كبير مغلق يتوسط عند رأس السلم، وقفت أمى منذ عشرين عامًا لتراقب الطريق، أى ذكرى تعيسة؟!». ونقر عم كريم على الباب الكبير مستأذنًا للقادم، ثم دفعه برقة وتنحى لهمام جانبًا وهو يشير له بالدخول.

ودخل الشاب في أناة وأدب ورهبة، فلم يسمع صوت الباب وهو يغلق وراءه، ولم يشعر إلا شعوراً غامضاً بالنور المضيء في السقف والأركان، أما وعيه كله فقد انجذب نحو الصدارة حيث تربع الرجل على ديوان. لم يكن رأى جده من قبل، ولكنه لم يشك في هوية الجالس أمامه، فمن يكون هذا الهائل إن لم يكن جده الذي سمع عنه الأعاجيب؟ واقترب من مجلسه وهو يتلقى من عينيه الكبيرتين نظرة استلت من ذاكرته جميع ما فيها، ولكنها بثت في قلبه في الوقت نفسه طمأنينة وسلامًا. وانحني حتى

كادت جبهته تمس طرف الديوان، ومديده، فأعطاه الآخريده، فلثمها من الأعماق، وقال بشجاعة غير متوقعة:

\_مساء الخيريا جدي.

فجاءه الجواب من صوت جهوري لم يخل من أنغام رحمة:

- أهلا بك يا بني، اجلس.

واتجه الشاب نحو مقعد إلى يمين الديوان وجلس على حافته فقال الجبلاوي:

ـ خذ راحتك في مجلسك.

فتزحزح همام إلى الداخل وقلبه يرتوى من المسرة، وتحركت شفتاه بشكر مهموس ثم ساد الصمت. ولبث ينظر في نقوش السجادة تحت قدميه، وهو يشعر بموقع النظرة المسددة نحوه كما نشعر بموقع الشمس منا دون أن نراها. وإذا بذهنه يتجه فجأة نحو الخلوة القائمة إلى يمينه، فلحظ بابها بخوف وكآبة، وإذا بالرجل يسأله:

\_ماذا تعرف عن هذا الباب؟

فارتجفت أوصاله، وعجب كيف يرى كل شيء، وقال بخشوع:

\_أعرف أنه فاتحة مأساتنا.

\_وماذا ظننت بجدّك لدى سماعك الحكاية؟

وفتح فاه ليتكلم فبادره الرجل:

\_أصدقني القول.

فأثرت به اللهجة إلى حد أن قال فيما يشبه الصراحة:

ـ بدا لي تصرف والدي خطأ كبيرًا، كما بدا لي عقابهما صارمًا شديدًا.

فابتسم الجبلاوي قائلاً:

\_هذا هو شعورك على وجه التقريب، إنى أمقت الكذب والخداع، ولذلك طردت من بيتي كل من لوث نفسه.

فاغرورقت عينا همام. فقال الجد:

ـ بدا لى أنك شاب نظيف، ولذلك استدعيتك.

فقال همام بصوت رطبته الدموع:

\_شكراً يا سيدى.

فقال الجد بهدوء:

رأيت أن أعطيك فرصة لم تتح لأحد ممن في الخارج، وهي أن تعيش في هذا البيت، وأن تتزوج به، وأن تبدأ حياة جديدة فيه. فتتابعت دقات قلب همام في نشوة من الأفراح، ولبث ينتظر أنغامًا جديدة يستكمل بها هذا اللحن البديع كالسميع الذي ينتظر الجواب بعد أن طرب للقرار، ولكن الرجل لاذ بالصمت. وتردد همام قليلاً، ثم قال:

- \_الشكر لك على نعمتك.
  - \_إنك تستحقها.

واختلج نظر الشاب بين جده وبين السجادة، ثم تساءل في إشفاق:

\_وأسرتى؟

فقال الجبلاوي في عتاب:

\_قلت ما أريد بوضوح.

فقال همام باستعطاف:

\_إنهم يستحقون رحمتك وعطفك.

فتساءل الجبلاوي بشيء من البرود:

\_ألم تسمع ما قلت؟

بلي، ولكنهم أمي وأبي وإخوتي، إن أبي رجل. . .

\_ألم تسمع ما قلت؟

وشي الصوت بالضجر فغلب الصمت. وإذا بالرجل يقول إيذانًا بانتهاء الحديث:

\_ارجع إليهم لتستأذن، ثم عد.

وقام همام فلثم يد جده ومضى. وجد عم كريم ينتظر، فتحرك الرجل وتبعه الشاب في سكون. ولما انتهيا إلى السلاملك، رأى همام فتاة في منطقة الضوء بأول الحديقة، وقد سارعت إلى الاختفاء. غير أنه لمح منها العارض والعنق وقامة ممشوقة. وعاد صوت الجد يتردد في أذنيه وهو يقول: «أن تعيش في هذا البيت وأن تتزوج به». بفتاة كهذه الفتاة. وعيشة خبرها أبي. كيف هانت عليه المقامرة؟ وكيف وبأى قلب تحمّل الحياة بعد ذلك وراء عربة اليد؟ وهذه الفرصة السعيدة كأنها حلم. حلم أبي منذ عشرين عامًا. لكني مثقل الرأس.

## ١٨

عاد همام إلى الكوخ فوجد أسرته جالسة تترقب عودته. وأحاطوا به مستطلعين وسأله أدهم بلهفة :

\_ماذا وراءك يا بني؟

ولاحظ همام أن قدري معصوب العين فقرّب رأسه من وجهه ليتحقق من الأمر فقال أدهم بأسى:

ـ نشبت معركة حامية بين أخيك وبين ذلك الرجل.

وأشار بيده نحو كوخ إدريس الذي بدا غارقًا في الظلمة والصمت على حين قال قدري بغضب:

\_ كل ذلك بسبب التهمة الخبيثة الكاذبة التي قذفت بها من داخل البيت.

وأشار همام نحو كوخ إدريس وتساءل في قلق:

\_ماذا يحدث هنالك؟

فقال أدهم بحزن:

\_الرجل وزوجه يبحثان عن ابنتهما الهاربة.

فصاح قدرى:

\_من المسئول عن ذلك إلا الرجل الفظ اللعين؟!

فتوسلت أميمة قائلة:

\_أخفت من صوتك.

فصاح قدري في حنق:

ماذا تخافين؟ . . لا شيء إلا الطمع في عودة لن تتحقق . صدقيني إنك لن تغادري هذا الكوخ حتى الممات .

فاحتد أدهم قائلاً:

ـ كـ في هذيانا، أنت مـجنون وحق خـالق الكون، ألم تكن تريد أن تلحق بالفـتـاة الهاربة؟

\_وسألحق بها.

\_اسكت، لقد ضقت بحماقاتك.

وقالت أميمة بجزع:

ـ لن تطيب لنا الحياة بجوار إدريس بعد اليوم.

والتفت أدهم نحو همام وسأله:

ـ قلت: ماذا وراءك؟

فقال همام بصوت لا أثر للسرور فيه:

ـ دعاني جدى إلى الإقامة في البيت الكبير.

وترقب أدهم بقية للحديث فلما لم ينبس الشاب تساءل في يأس:

\_ونحن؟ وماذا قال عنا؟

فهز همام رأسه في حزن وهمس:

\_ لاشيء.

فضحك قدري ضحكة كلدغة عقرب وسأله في سخرية:

\_وماذا جاء بك؟

نعم ماذا جاء بي؟ لا شيء إلا أن السعادة لم تخلق لينعم بها أمثالي. وقال بحزن:

\_لم أقصر في تذكيره بكم.

فقال قدري بحنق:

\_شكرًا، ولكن ماذا جعله يؤثرك علينا؟

\_أنت تعلم ألا شأن لى في ذلك.

وقال أدهم وهو يتنهد:

ـ لا شك في أنك يا همام خيرنا جميعًا.

فهتف قدري بمرارة:

\_وأنت يا أبى الذي لم تذكره إلا بخير لا يستحقه!

فقال أدهم:

\_أنت لا تفهم شيئًا.

ـ هذا الرجل أسوأ من ابنه إدريس.

فتو سلت أميمة قائلة:

\_إنك تقطع قلبي، وتغلق أبواب الأمل في وجهك.

فصاح قدري باستهانة:

ـ لا أمل إلا في هذا الخلاء، أدركوا هذا وأريحوا أنفسكم، ايأسوا من هذا البيت اللعين، أنا لا أخاف هذا الخلاء، حتى إدريس نفسه لا أخاف، وبوسعى أن أكيل له من الضربات أضعاف ما يكيل لي. أبصقوا على هذا البيت وأريحوا أنفسكم.

وساءل أدهم نفسه: «أيمكن أن تمضى هذه الحياة على هذا النحو إلى الأبد؟ ولماذا أيقظت يا أبى طموحنا إليك قبل أن ترتضى العفو لنا؟ وأى شيء يمكن أن يلين قلبك إذا كان ذلك الزمن الطويل لم يلينه؟ وما جدوى الأمل إذا كان ذلك العذاب كله لم يزكّنا لرحمة من نحب؟». وقال الرجل بصوت كالغروب:

\_ خبرني يا همام عما لديك.

فقال همام في حياء:

\_قال لى اذهب فاستأذن ثم عُدْ.

وشي الظلام بمحاولة فاشلة من أميمة لكتم انتحابها، وتساءل قدري في خبث:

\_وماذا يؤخرك؟

فقال أدهم في حزم:

- اذهب يا همام مصحوبًا بالسلامة والبركات.

وقال قدري بلهجة جدّية كاذبة:

\_اذهب يا شهم ولا تلق بالاً إلى أحد.

فصاح أدهم:

ـ لا تهزأ بأخيك الطيب.

فقال قدري ضاحكًا:

\_إنه شرّنا جميعًا.

فهتف همام بحدة:

\_إذا قررت البقاء فلن يكون هذا إكرامًا لك أنت.

فقال أدهم بقوة:

ـ بل اذهب دون تردد.

وقالت أميمة خلال دموعها:

\_نعم. . اذهب بالسلامة .

فقال همام:

\_كلا يا أمى، لن أذهب.

فتساءل أدهم:

\_أجننت يا همام؟

\_كلا يا أبي، الأمر يحتاج إلى تفكير ومشاورة.

ـ لا حاجة بك إلى ذلك، ولا تحملني ذنبًا جديدًا.

فقال همام بعزم وهو يشير نحو كوخ إدريس:

\_ يخيل إلى أن أحداثًا ستقع .

فقال قدري ساخراً:

\_إنك أضعف من أن تدفع شراً عن نفسك فضلاً عن الآخرين.

فقال همام بازدراء:

\_خير ما أفعل أن أتجاهل ما تقول.

فعاد أدهم يقول برجاء:

\_اذهب يا همام.

فاتجه همام نحو الكوخ وهو يقول:

\_سأظل إلى جانبك.

## 19

لم يبق من الشمس إلا الشفق، وانقطعت السابلة، وانفرد بالخلاء قدرى وهمام والأغنام. مر النهار فلم يتبادلا طواله إلا ما تقتضيه ضرورة الشركة في العمل. وغاب قدرى شطرا كبيرا من النهار فخمن همام أنه يتشمم أخبار هند، ولبث وحده في ظل الصخرة على كثب من الأغنام. وفجأة، وفي شيء من التحدي، سأل قدرى همام:

ـ خبرني عما انتويت من ذهابك إلى جدك أو عدو لك؟

فقال همام بامتعاض:

ـ هذا شأن يخصني وحدى.

فاحتدم الغيظ في قلب قدري، ولاحت بوادره في وجهه كطلائع الظلام فوق المقطم، وتساءل:

ـ لماذا بقيت؟ . . ومتى تذهب؟ . . متى تجد الشجاعة لإعلان نيتك؟

ـ بل بقيت لأتحمل نصيبي من العناء الذي خلقته فضائحك.

فضحك قدرى ضحكة كاسرة وقال:

\_ هكذا تقول لتدارى حسدك!

فهز همام رأسه كالمتعجب وقال:

\_إنك تستحق الرثاء لا الحسد.

فاقترب قدري منه وأطرافه ترتجف من الحنق وقال بصوت مخنوق بالغضب:

\_ما أبغضك حين تتظاهر بالحكمة.

فحدجه همام بنظرة احتقار دون أن ينبس، فعاد الآخر يقول:

ـ يجب أن تخجل الحياة لانتساب أمثالك إليها.

فلم يغض همام من بصره تحت النظرات المتقدة التي تنصب عليه وقال بثبات:

\_اعلم أنني لا أخافك.

\_هل وعدك البلطجي الأكبر بالحماية؟

\_إن الغضب يجعل منك شيئًا حقيرًا تعافه النفس.

وفجأة لطمه قدري على وجهه. لم تدهمه اللطمة فردّها بأشد منها وهو يقول:

ـ لا تتماد في جنونك.

وانحنى قدرى بسرعة فالتقط حجرًا وقذف به أخاه بكل ما أوتى من قوة. وبادر همام ليتفادى من الحجر ولكنه أصاب جبينه. ندّت عنه آهة وجمد فى موقفه والغضب يشتعل فى عينيه. وإذا بالغضب يختفى منهما فجأة كأنه شعلة ردمت بتراب كثيف. وإذا بفراغ قاتم يحل فيهما. بدت العينان وكأنهما تنظران إلى الداخل. وترنح ثم انكفأ على وجهه.

وتبدل قدرى حالاً بعد حال، فزايله الغضب، وتركه حديداً بارداً بعد انصهار، وركبه الخوف. ترقب بلهفة أن ينهض المنكفئ أو أن يتحرك ولكنه لم يرحم لهفته. وانحنى فوقه، ومد إليه يده يهزه في رفق ولكنه لم يستجب. وسوآه على ظهره ليخلص أنفه وفاه من الرمال فاستلقى الآخر محملق العينين ولا حراك به. وركع قدرى إلى جانبه، وراح يهزه، ويدلك صدره ويديه، وينظر بفزع إلى الدم المتدفق بغزارة من جرحه. وناداه برجاء فلم يجب. وبدا صمته كثيفًا عميقًا كأنه جزء لا يتجزأ من كيانه. كجموده الذى بدا غريبًا عن الحي والجماد معًا. لا إحساس ولا انفعال ولا اهتمام بشيء. كأنما ألقى إلى الأرض من مكان مجهول فلم يمت إليها بسبب. عرف قدرى الموت بفطرته فراح يشد شعر رأسه في يأس. ونظر فيما حوله خائفًا، ولكن لم يكن هناك من حي إلا الأغنام والحشرات. وجميعها انصرفت عنه دون اكتراث. سينتشر الليل ويستحكم الظلام.

وقام بعزم، فجاء بعصاه، واتجه إلى موضع بين الصخرة الكبيرة وبين الجبل، وراح يحفر الأرض ويرفع التراب بيديه، ويواصل العمل بعناد، وهو يتصبب عرقًا وترتجف منه الأوصال. وهرع نحو أخيه. هزه وناداه للمرة الأخيرة دون أن يتوقع جوابًا. وقبض على أسفل ساقيه وجره حتى أودعه الحفرة. وألقى عليه نظرة وهو يتنهد، وتردد مليًا، ثم أهال عليه التراب. ووقف يجفف عرق وجهه بكم جلبابه. وكلما رأى بقعة دم فى الرمال غطاها بالتراب. وارتمى على الأرض من شدة الإعياء. وشعر بقوته تتخلى عنه، وبرغبة فى البكاء، ولكن الدموع استعصت عليه. وقال: «غلبنى الموت». لم يَدْعُه ولم يقصده ولكنه يجىء كما يحلو له. ولو أنه انقلب تيسًا لغاب فى الأغنام. أو ذرة من رمال لاختفى فى الأرض. ما دمت لا أستطيع أن أرد الحياة فلا يجوز أن أدعى القوة

أبداً. وهيهات أن تمحى تلك النظرة من رأسى أبداً. إن الذي دفنته لم يكن من الأحياء ولا من الجماد، ولكنه من صنع يدى!

۲.

عاد قدري إلى الدار يسوق الأغنام، ولم تكن عربة أدهم بموقفها. وجاءه صوت أمه من الداخل وهي تتساءل:

ـ لماذا تأخرتما عن موعدكما؟

فدفع الأغنام إلى الممشى المفضى إلى حظيرتها وهو يقول:

ـ غلبني النوم، ألم يحضر همام؟

رفعت أميمة صوتها ليعلو على أصوات الطفلين قائلة:

ـ كلا، ألم يكن معك؟

فازدرد ريقًا جافًّا وقال:

ـ غادرني منذ الظهر دون أن يخبرني أين هو ذاهب. فظننته رجع إلى هنا.

فتساءل أدهم وكان قد وصل ومضى يُدخل العربة إلى الفناء:

ـ هل تشاجرتما؟

ـ أبدًا.

\_أظنك كنت السبب في ذهابه، ولكن أين هو؟

خرجت أميمة إلى الفناء، على حين أغلق قدرى باب الحظيرة وراح يغسل وجهه ويديه من ماء طشت تحت الزير. لا بد من مواجهة الموقف. الدنيا تغيرت ولكن اليأس قوة. وانضم إلى والديه في الظلام وهو يجفف وجهه بطرف جلبابه. وتساءلت أميمة:

- أين ذهب همام؟ لم يغب كهذه المرة من قبل.

فوافقها أدهم قائلاً:

ـ نعم، خبّرنا كيف ولماذا ذهب؟

وارتعد قلب قدري لصورة خطرت برأسه، لكنه قال:

ـ كنت جالسًا في ظل الصخرة فلاحت منى التفاتة فرأيته يبتعد صوب حينا وهممت أن أناديه ولكني لم أفعل .

فقالت أميمة في حسرة:

ـ ليتك ناديته ولم تستسلم لزعلك.

ونظر أدهم حائراً في الظلام حوله، فرأى ضوءًا خافتًا خلال كوة في كوخ إدريس دلت على أن الحياة دبّت فيه من جديد، ولكنه لم يأبه لذلك، وثبّت بصره على البيت الكبير وتساءل:

- أتراه ذهب إلى جده؟

فقالت أميمة بإنكار:

ـ لا يفعل ذلك دون إخبارنا .

فقال قدري بصوت شاحب:

ـ لعل الحياء منعه!

فسدد أدهم نحوه نظرة ارتياب منقبض الصدر لخلو صوته من السخرية والعدوان وقال:

ـ دفعناه إلى الذهاب فأبي.

فقال قدري في إعياء:

ـ تحرج من القبول أمامنا .

ـ ليس هذا من خلقه، وأنت مالك كالمريض؟!

فقال قدرى بحدة:

ـ حملت عبء العمل وحدى.

فهتف أدهم في ضيق المستغيث:

- الحق أقول إن قلبي غير مطمئن.

فقالت أميمة بصوت مبحوح:

ـ سأذهب إلى البيت الكبير لأسأل عنه.

فهز أدهم منكبيه في يأس وقال:

لن يرد عليك أحد، ولكني أؤكد لك أنه لم يذهب.

فنفخت أميمة في كرب وقالت:

ـ رباه، لم يضطرب هكذا قلبي من قبل، افعل شيئًا يا رجل!

فتنهد أدهم بصوت مسموع في الظلام وقال:

ـ فلنفتش عنه كل في ناحية.

فقال قدرى:

ـ لعله في الطريق إلينا.

فهتفت أميمة:

ـ لا ينبغي أن ننتظر.

ثم مستدركة في جزع وهي تنظر صوب كوخ إدريس:

ـ أيكون إدريس قد صادفه في طريقه؟

فقال أدهم بامتعاض:

- غريم إدريس قدري لا همام.

- إنه لا يتردد عن القضاء على أيّ منا، إنى ذاهبة إليه؟

فحال أدهم بينها وبين الذهاب وهو يقول:

ـ لا تزيدى أمورنا تعقيدًا، أعدك إذا لم نعثر عليه أن أذهب إلى إدريس، وأن أذهب إلى البيت الكبير.

وحدج شبح قدري بنظرة قلقة. ما باله واجمًا؟! أليس عنده أكثر مما قال؟ وأين أنت يا همام؟!

واندفعت أميمة لتغادر الفناء فمال أدهم نحوها وأمسك بمنكبها. وإذا بباب البيت الكبير يفتح، فتطلعوا نحوه. وبعد قليل لاح شبح عم كريم وهو يقترب منهم فخرج إليه أدهم وهو يقول: «أهلاً بك يا عم كريم». فحياه الرجل وقال:

ـ سيدي الكبير يسأل عمّا أخر همام؟

فقالت أميمة بيأس:

ـ لا ندري أين هو حتى ظنناه عندكم.

ـ سيدى يسأل عمّا أخّره . .

فهتفت أميمة:

ـ أعوذ بالله من أوهام قلبي .

وذهب عم كريم. وأخذت أميمة تحرك رأسها في اضطراب ينذر بالانفجار، فساقها أدهم أمامه إلى حجرتهما الداخلية حيث علا بكاء الصغيرين، وصاح بوحشية:

ـ لا تغادري الحجرة، سأعود به، ولكن إياك أن تغادري الحجرة. وعاد إلى الفناء فعثر على قدري جالسًا على الأرض فانحني فوقه هامسًا:

ـ خبرني ماذا تعرف عن أخيك؟

فرفع رأسه نحوه بشدة ولكن شيئًا منعه من الكلام فعاد الرجل يسائله:

ـ خبرنى يا قدرى ماذا فعلت بأخيك؟

فقال الشاب بصوت لا يكاد يسمع:

ـ لا شيء .

وارتد الرجل نحو الداخل ثم رجع بمصباح فأشعله ووضعه على عربته فسقط نوره على وجه قدرى فتفحصه الرجل بريبة وقال:

ـ وجهك ينذر بالشقاء.

وجاء صوت أميمة من الداخل مختلطًا بأصوات الطفلين ليقول كلامًا لم يميزه أحد فصاح أدهم:

ـ اسكتى يا ولية، موتى إن شئت ولكن في صمت!

وعاد إلى تفحص ابنه. وبغتة ارتعدت أطرافه. وأمسك بطرف كمه وقال في فزع:

ـ دم! ما هذا؟ دم أخيك؟!

فحملق قدرى فى كم جلبابه ثم انكمش بحركة لا إرادية، وحنى رأسه فى يأس. واعترف قدرى بحركته اليائسة فجذبه أدهم حتى أقامه، ثم دفعه إلى الخارج. دفعه بقسوة لم يعهدها من قبل، وغشى عينيه ظلام فوق الظلام المحيط.

#### ۲1

## دفعه نحو الخلاء قائلاً:

ـ سنميل نحو خلاء الدراسة كيلا نمر أمام كوخ إدريس.

وأوغلا في الظلام، وقدري يسير كالمترنح تحت قبضة أبيه الناشبة في منكبه. وتساءل أدهم وهو يجدّ في السير بصوت أدركه الهرم:

ـ خبِّرني هل ضربته؟ بأي شيء ضربته؟ وعلى أي حال تركته؟

لم يجب قدري. كانت قبضة أبيه شديدة ولكنه لم يكن يشعر بها. وكان ألمه شديدًا ولكنه لم يفصح عنه، وود أن الشمس لا تطلع أبدًا.

ـ ارحمنى وتكلم، ولكنك لم تعرف الرحمة، وقد قضيت على نفسى بالعذاب يوم أنجبتك، أنا الذي تطاردني اللعنات منذ عشرين عامًا، وها أنا ذا أطلب الرحمة ممن لا يعرفها.

فانفجر قدري باكيًا حتى ارتجف منكبه في قبضة أدهم القاسية، وظل يرتجف حتى سرت عدواه إلى أدهم، لكنه قال: - أهذا جوابك؟ لماذا يا قدرى؟ لماذا؟ كيف هان عليك؟ اعترف في الظلام قبل أن ترى نفسك في ضوء النهار.

فهتف قدرى:

ـ لا طلع النهار!

- نحن أسرة الظلام، لن يطلع علينا نهار! وكنت أحسب الشر مقيمًا في كوخ إدريس، فإذا به في دمنا نحن. إن إدريس يقهقه ويسكر ويعربد، أما نحن فيقتل بعضنا البعض، رباه. . هل قتلت أخاك؟

ـ أبدًا!

ـ فأين هو؟

\_ ما قصدت قتله!

فصاح أدهم:

ـ لكنه قتل!

وأجهش قدري في البكاء واشتدت قبضة أبيه. إذن قتل همام، زهرة العمل وحبيب الجد، كأنه لم يكن، لولا الألم المفترس ما صدقت.

وبلغا الصخرة الكبيرة فسأله أدهم بصوت غليظ:

ـ أين تركته يا مجرم؟

فسار قدري نحو الموضع الذي حفره لأخيه ووقف عنده فيما بين الصخرة والجبل. وتساءل أدهم:

ـ أين أخوك؟ لا أرى شيئًا.

فقال قدري بصوت لا يكاد يسمع:

ـ هنا دفنته .

فصرح أدهم:

ـ دفنته؟!

وأخرج من جيبه علبة ثقاب وأشعل عودًا تفحص الموضع على ضوئه حتى رأى قطعة من الأرض قلقة المستوى كما رأى مسحب الجثة الذى انتهى عندها. تأوه أدهم من الألم. وراح يزيح التراب بيدين مرتعشتين. وواصل عمله فى جو رهيب حتى مست أصابعه رأس همام. وغرز يديه إلى ما تحت إبطيه وسحب الجثة فى رفق. وجثا على ركبتيه إلى جانبها واضعًا يديه على رأسه، مغمض العينين، مثالاً للتعاسة والخيبة. وزفر من أعماقه، ثم غمغم:

- إن حياة أربعين عامًا من العمر تبدو سخفًا سقيمًا أمام جثتك يابني.

وقام بغتة، ونظر نحو قدرى وهو يقف أمام الجثة من الناحية الأخرى، فعانى لحظات كراهية عمياء، وقال بصوت غليظ:

ـ سيعود همام إلى الكوخ محمولاً على عنقك.

فجفل قدري متراجعًا، ولكن الرجل سارع إليه دائرًا حول الجثة ثم قبض على منكبه ِهتف:

- احمل أخاك!

فقال قدري بصوت كالأنين:

ـ لا أستطيع.

ـ إنك استطعت قتله .

ـ لا أستطيع يا أبي.

- لا تقل «أبي»، قاتل أخيه لا أب له، لا أم له، لا أخ له.

ـ لا أستطيع.

فشد قبضته عليه وقال:

ـ على القاتل أن يحمل ضحيته .

حاول قدرى أن يفلت من قبضة أدهم، ولكن أدهم لم يمكنه، وانهال في عصبية على وجهه باللكمات فلم يتفاد من لكمة أو يتأوه من ألم. وكف الرجل، ثم قال:

ـ لا تضيع الوقت، أمك تنتظر.

وارتعد قدري لدي ذكر أمه، فقال برجاء:

ـ دعني أختفي .

فجذبه نحو الجثة وهو يقول:

ـ هلم نحمله معًا .

تحول أدهم إلى الجثة ووضع يديه تحت إبطى همام، وانحنى قدرى واضعًا يديه تحت الساقين. رفعا الجثة معًا، وسارا فى بطء نحو خلاء الدراسة. أوغل أدهم فى مشاعره الأليمة حتى فقد أى شعور بالألم أو بسواه. ولبث قدرى يعانى ألمًا من خفقان قلبه وارتجاف أطرافه. وامتلأ أنفه برائحة ترابية نفاذة على حين سرى مس الجثة من يديه إلى أعماقه. وكان الظلام غليظًا بينا نضح الأفق بأنوار الأحياء الساهرة. وشعر قدرى باليأس يكتم آخر أنفاسه فتوقف قائلاً لأبيه:

ـ سأحمل الجثة وحدى.

ووضع ذراعًا تحت الظهر وأخرى تحت الفخذين، وسار يتبعه أدهم.

#### 44

وعندما اقتربا من الكوخ جاءهما صوت أميمة متسائلاً في جزع:

ـ هل وجدتماه؟

فصاح أدهم بصوت آمر:

- اسبقيني إلى الداخل.

وسبق قدرى إلى الكوخ ليتأكد من اختفائها. ووقف قدرى عند مدخل الكوخ لا يريد أن يتحرك. وأشار له أبوه بالدخول فامتنع قائلاً في صوت هامس:

ـ لا أستطيع أن ألقاها.

فهمس الأب حانقًا:

ـ استطعت ما هو أفظع.

فتشبث قدري بموقفه وهو يقول:

- كلا ، هذا أفظع .

ودفعه أدهم أمامه بحزم فاضطر إلى التحرُّك حتى بلغ الحجرة الخارجية . وانقض أدهم على ألهم على أدهم على أدهم على أميمة بسرعة فكتم براحته الصرخة التي أوشكت على الإفلات من فيها ، وقال بقسوة :

ـ لا تصرخى يا ولية ، لا ينبغى أن نلفت الأسماع إلينا حتى نتدبر الأمر ، فلنقاس المقدور صامتين ، ولنتحمل الألم صابرين ، الشر من بطنك ومن صلبى خرج ، واللعنة حقت علينا جميعًا .

وسد فاها بقوة. وحاولت التخلص من يده عبثًا. أرادت أن تعضها فلم تتمكن. اضطربت أنفاسها وخارت قواها فسقطت مغشيا عليها. ولبث قدرى واقفًا يحمل الجثة في صمت وخزى مركزًا بصره على المصباح ليتجنب النظر إليها. واتجه أدهم نحوه، فساعده على وضع الجثة على الفراش، ثم سجاها برفق. ونظر قدرى إلى جثة أخيه المسجاة على الفراش الذى اقتسماه طوال العمر فشعر بأنه لم يعد له مكان في الدار. وحركت أميمة رأسها، ثم فتحت عينيها فبادر أدهم إليها وهو يقول بحزم:

ـ إياك أن تصرخي.

وأرادت أن تنهض فساعدها على النهوض وهو يحذرها من إحداث صوت. وهمت بالارتماء على الفراش فحال الرجل دون ذلك، فوقفت مغلوبة على أمرها واندفعت تنفس عن كربها بشد شعرها بقسوة فانتزعت منه خصلات بعد خصلات. ولم يبال الرجل بما تفعل، وقال بغلظة:

- افعلى ما يريحك ولكن في صمت.

فقالت بصوت مبحوح:

ـ ابني! . . ابني . .

فقال أدهم في ذهول:

ـ هذه جثته، لم يعد ابنك ولا ابني، وهذا هو قاتله، اقتليه إن شئت.

ولطمت أميمة خديها وقالت لقدري بوحشية:

ـ إن أحط الوحوش تتبرأ من فعلتك!

فحنى قدرى رأسه في صمت على حين قال أدهم بوحشية:

ـ هل تذهب هذه الروح هدرًا؟ لا ينبغي أن تحيا، هذه هي العدالة.

فهتفت أميمة:

- كان أمس أملاً مشرقًا، قلنا له اذهب فأبى، ليته ذهب، لو لم يكن كريمًا نبيلاً رحيمًا لذهب، أيكون جزاء هذا القتل؟! كيف هان عليك يا صخرى القلب! لست ابنى ولست أمك!

لم ينبس قدرى لكنه قال لنفسه: «قتلته مرة وهو يقتلني مرة كل ثانية، لست حيًّا، من قال إني حي؟!». وسأله أدهم بفظاظة:

ـ ماذا أفعل بك؟

فقال قدري بهدوء:

- قلت إنه لا ينبغي أن أحيا.

فهتفت أميمة:

ـ كيف سولت لك نفسك قتله؟!

فقال قدري في يأس:

ـ لا جدوى من النواح، إنى مستعد للعقاب، والقتل أهون مما أعانى.

فقال أدهم بحنق:

ـ لكنك جعلت حياتنا أيضًا أفظع من الموت.

وهبت أميمة هاتفة وهي تلطم خديها:

لن أحب هذه الحياة، ادفنوني مع ابني، لماذا لا تدعني أصوت؟

فقال أدهم بمرارة وسخرية:

ـ ليس شفقة على حنجرتك، ولكني أخشى أن يسمعنا الشيطان.

فقال قدرى باستهانة:

- فليسمع كيف شاء، لم أعد أكترث للحياة.

وإذا بصوت إدريس يعلو قريبًا من مدخل الكوخ:

- أخى أدهم! تعال يا مسكين!

فسرت الرعدة فيهم جميعًا، غير أن أدهم صاح به:

ـ عد إلى كوخك، واحذر أن تستفزني.

فقال إدريس بصوت قوى:

ـ شر أهون من شر، مصيبتكم نجتكم من غضبى، ولكن لندع هذا الحديث، كلانا مصاب، أنت فقدت العزيز الغالى، وأنا ضاعت ابنتى الوحيدة، كان الأبناء عزاءنا في منفانا ولكنهم ذهبوا، تعال يامسكين نتبادل العزاء.

إذن ذاع السر! كيف ذاع؟! ولأول مرة يخاف قلب أميمة على قدري. وقال أدهم:

ـ لا تهمني شماتتك، من يذق ألمي تهن عليه الشماتة!

فجاء صوت إدريس مستنكرًا:

ـ شماتة؟! ألا تدرى أنني بكيت عندما رأيتك تسحب الجثة من الحفرة التي حفرها قدري؟!

فصاح أدهم بغضب:

ـ تجسُّس حقير!

ـ لم أبك على القتيل وحده ولكن على القاتل أيضًا! وقلت لنفسى: يا لك من مسكين يا أدهم، فقدت شابين في ليلة واحدة!

وصوتت أميمة دون اكتراث لأحد، واندفع قدرى خارج الكوخ بغتة. وجرى أدهم وراءه. وصرخت أميمة:

ـ لا أريد أن أفقد الاثنين!

أراد قدرى أن يثب على إدريس، ولكن أدهم دفعه بعيدًا عنه ثم وقف أمام الرجل متحديًا وهو يقول:

ـ احذر أن تتعرض لنا!

فقال إدريس بهدوء:

- أنت أحمق يا أدهم، لا تفرق بين الصديق وبين العدو، تريد أن تعارك أخاك دفاعًا عن قاتل ابنك .

- اذهب عني.

فقال إدريس ضاحكًا:

ـ كما تشاء ، تقبَّل عزائي والسلام عليكم .

غاب إدريس في الظلام. وتحول أدهم نحو قدري فوجد أميمة واقفة تتساءل عنه، فجزع الرجل وراح ينظر في الظلام ويصيح بأعلى صوته:

ـ قدرى . . قدرى . . أين أنت؟!

وجاءه صوت إدريس وهو يصيح بقوة:

ـ قدرى. . قدرى. . أين أنت؟!

#### 77

دُفن همام في مقبرة تابعة للوقف بباب النصر. سار في جنازته قوم كثيرون من معارف أدهم، أكثرهم باعة من زملائه، وأقلهم زبائن عمن أسرتهم رقة أخلاقه وحسن معاملته. وفرض إدريس نفسه على الجنازة فاشترك في تشييعها، بل وقف يتقبل العزاء بصفته عم الفقيد. وسكت أدهم كارها، فسار في الجنازة كثيرون من الفتوات والبلطجية والبرمجية واللصوص وقطاع الطرق. وعند الدفن وقف إدريس فوق القبر يشجع أدهم بكلمات العزاء والآخر صابر متصبر لا يجيب ودموعه تستبق على خديه. وروحت أميمة عن كربها باللطم والصوات والتمرغ في التراب. وعندما تفرق المشيعون، التفت أدهم إلى إدريس وقال بحنق:

ـ ألا يوجد حد لقسوتك؟!

فتظاهر إدريس بالدهشة وتساءل:

ـ عم تتحدث يا أخى المسكين؟

فقال أدهم بحدة:

ـ لم أتصورك على هذا القدر من القسوة على رغم سوء ظنى بك، الموت نهاية كل حي، فما وجه الشماتة فيه؟!

فقال إدريس وهو يضرب كفّا على كف:

ـ الحزن أخرجك عن أدبك، لكني مسامحك.

ـ متى تقر بأنه لم تعد تربطنا صلة؟

ـ لترحمنا السماء، ألست أخي؟! هذه رابطة ليس في الإمكان فصمها.

- إدريس! كفاك ما فعلت بي .

- الحزن قبيح، ولكن كلينا مصاب، أنت فقدت همام وقدرى وأنا فقدت هند، أصبح للجبلاوى العظيم حفيدة عاهرة وحفيد قاتل. وعلى أى حال فأنت خير حالاً منى إذ لك ذرية تعوضك عما فات.

فتساءل أدهم في حسرة:

- أما زلت تحسدنى؟

فقال إدريس متعجبًا:

- إدريس يحسد أدهم؟!

فعلا صوت أدهم وهو يهدر :

- إذا لم يكن جزاؤك من جنس عملك فعلى الدنيا العفاء.

ـ العفاء . العفاء .

ومرت أيام كئيبة مفعمة بالأشجان. وقهر الحزن أميمة فساءت صحتها واعتصرها الضمور. وفي أعوام قلائل بلغ أدهم من الهرم ما لا يُبلغ في عمر مديد. وبات الزوجان يعانيان الهزال والمرض. ويومًا اشتدت عليهما وطأة المرض فركنا إلى الرقاد، أميمة مع طفليها في الغرفة الداخلية، وأدهم في الغرفة الخارجية، غرفة قدرى وهمام. ومضى النهار وجاء الليل فلم يشعلا مصباحًا، وقنع أدهم بضوء القمر المنبعث من الفناء. وراح يغفو قليلاً ويستيقظ قليلاً في حال بين الوعى والذهول. وجاءه صوت إدريس من خارج الكوخ وهو يسأله متهكمًا:

- ألست في حاجة إلى خدمة؟

فانقبض صدره ولم يجبه . وكان يكره الساعة التي يغادر فيها الآخر كوخه ليذهب إلى سهرته الليلية . وجاءه الصوت مرة أخرى وهو يقول :

- اشهدوا يا ناس على برى وعقوقه.

وذهب وهو يغني:

كنا ثلاتة طلعنا الجسبل نصطاد

واحد قتله الهوى والثاني خدوه الأحباب

امتلأت عينا أدهم بالدموع. هذا الشر الذي لا يصد عن اللهو. يقاتل ويقتل ويحظى بكل احترام. يقسو ويستبد هازئًا بالعواقب وله ضحكة تجلجل فتملأ الآفاق. له لذة في

العبث بالضعفاء ويسمر فى المآتم ويغنى فوق شواهد القبور. الموت يدنو منى وهو ما زال يضحك ساخراً. القتيل فى التراب والقاتل ضائع وفى كوخى بكاء على الاثنين. ضحكة الطفولة فى الحديقة استحالت مع الأيام عبوسة غارقة فى الدمع. وفى الداخل بقية جسدى يتوجع. لماذا هذا العناء كله؟ وأين صفو الأحلام؟ أين؟

وخيل إلى أدهم أنه يسمع وقع أقدام. أقدام بطيئة وثقيلة استثارت ذكريات غامضة كرائحة زكية مؤثرة تستعصى على الإدراك والتحديد. حول وجهه نحو مدخل الكوخ فرأى الباب يفتح، ثم رآه يمتلئ بشىء كجسم هائل. حملق فى دهش، وأحد بصره فى أمل يكتنفه يأس، وندت عنه آهة عميقة، وغمغم متسائلاً:

أبى؟!

وخيل إليه أنه يسمع الصوت القديم وهو يقول:

ـ مساء الخيريا أدهم.

فاغرورقت عيناه، وهمَّ بالقيام فلم يستطع ووجد غبطة وبهجة لم يجدهما منذ أكثر من عشرين عامًا. وقال بصوت متهدج:

ـ دعني أصدق.

فقال:

- أنت تبكى وأنت الذي أخطأت.

فقال أدهم بصوت يشرق بالدمع:

ـ الخطأ كثير والعقاب كثير ولكن حتى الحشرات المؤذية لا تيأس من العثور على ظل.

- هكذا تعلمني الحكمة.

ـ عفوًا عفوًا، الحزن أرهقني، والمرض ركبني، حتى أغنامي مهددة بالهلاك.

- جميل أن تخاف على أغنامك.

تساءل أدهم في رجاء:

ـ هل عفوت عني؟

أجاب بعد صمت:

۔نعم.

فهتف أدهم بجسم مرتعش:

- الشكر لله، منذ قليل كنت أقرع قاع هاوية اليأس بيدي.

ـ فعثرت على فيها!

ـ نعم كالصحو بعد الكابوس.

ـ لذلك فأنت ولد طيب.

فتأوه أدهم قائلاً:

ـ أنجبت قاتلاً وقتيلاً

- الميت لا يعود، فماذا تطلب؟

فتنهد أدهم قائلاً:

ـ كنت أهفو للغناء في الحديقة، ولكن لن يطيب لي اليوم شيء.

فقال:

ـ سيكون الوقف لذريتك.

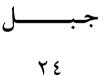
- الشكر لله.

فقال:

ـ لا تجهد نفسك واركن إلى النوم.

\* \* \*

وفى تواريخ متقاربة ودع الحياة أدهم فأميمة ثم إدريس. وكبر الأطفال. وعاد قدرى بعد غيبة طويلة ومعه هند ومعهما أطفال. نشئوا جنبًا إلى جنب وخالطوا غيرهم فازدادوا بهم عددًا. وانتشر العمران بفضل أموال الوقف فارتسمت فى صفحة الوجود حارتنا. ومن هؤلاء وأولئك جاء أبناء حارتنا.



أقيمت بيوت الوقف في خطين متقابلين يصنعان حارتنا. ويبدأ الخطان من خط يقع أمام البيت الكبير، ويمتدان طولاً في اتجاه الجمالية. أما البيت الكبير فقد ترك خاليًا من جميع الجهات على رأس الحارة من ناحية الصحراء. وحارتنا، حارة الجبلاوي، أطول حارة في المنطقة. أكثر بيوتها ربوعًا كما في حي آل حمدان، وتكثر الأكواخ من منتصفها حتى الجمالية. ولن تتم الصورة إلا بذكر بيت ناظر الوقف على رأس الصف الأيمن من المساكن، وبيت الفتوة على رأس الصف الأيسر قبالته.

كان البيت الكبير قد أغلق أبوابه على صاحبه وخدمه المقربين. ومات أبناء الجبلاوى مبكرين فلم يبق من سلالة الذين أقاموا وماتوا في البيت الكبير إلا الأفندي ناظر الوقف في ذلك الوقت. أما أهل الحارة عامة فمنهم البائع الجوال، ومنهم صاحب الدكان أو القهوة، وكثيرون يتسولون، وثمة تجارة مشتركة يعمل فيها كل قادر هي تجارة المخدرات وبخاصة الحشيش والأفيون والمنافع. وكان طابع حارتنا ـ كحالها اليوم ـ الزحام والضجيج. الأطفال الحفاة أشباه العرايا يلعبون في كل ركن، ويملئون الجو بصراخهم والأرض بقاذوراتهم. وتكتظ مداخل البيوت بالنساء، هذه تخرط الملوخية، وتلك تقشر والسباب. والغناء والبكاء لا ينقطعان، ودقة الزار تستأثر باهتمام خاص. وعربات اليد في نشاط متواصل. ومعارك باللسان أو بالأيدي تنشب هنا وهناك وقطط تموء وكلاب في نشاط متواصل. ومعارك باللسان أو بالأيدي تنشب هنا وهناك وقطط تموء وكلاب وليس بالنادر أن يتجمع قوم لقتل ثعبان أو عقرب. أما الذباب فلا يضاهيه في الكثرة إلا القمل، فهو يشارك الآكلين في الأطباق والشاربين في الأكواز، يلهو في الأعين ويغني وليغني وليغني ولا القمل، فهو يشارك الآكلين في الأطباق والشاربين في الأكواز، يلهو في الأعين ويغني ولين الأفواه كأنه صديق الجميع.

وما إن يجد شاب في نفسه جرأة أو في عضلاته قوة حتى يندفع إلى التحرش بالآمنين، والاعتداء على المسالمين فيفرض نفسه فتوة على حى من أحياء الحارة، يأخذ الإتاوات من العاملين، ويعيش ولا عمل له إلا الفتونة. هكذا وجد فتوات الأحياء مثل: قدْرة والليثي وأبو سريع وبركات وحمودة. وكان زقلط أحد هؤلاء الفتوات، فخاض معارك كثيرة مع فتوة بعد فتوة حتى هزم الجميع وصار فتوة الحارة كلها. وفرض الإتاوات على الفتوات جميعًا. ورأى الأفندي ناظر الوقف أنه بحاجة إلى مثل هذا الرجل لينفذ أوامره أو يدفع عنه ما قد يتهدده من شر فقربه ورتب له راتبًا عظيمًا من ربع الوقف، فأقام زقلط في بيته المقابل لبيت الناظر واستحكم سلطانه. وعند ذاك ندر وقوع المعارك بين الفتوات، إذ إن الفتوة الأكبر لا يرتاح إلى هذا النوع من المعارك الذي قد ينتهى بتكبير فتوة وبالتالي بتهديد مركزه هو، لذلك لم يجد الفتوات متنفسًا لقوة شرهم الحبيسة إلا في الأهالي المساكين المسالمين. كيف انتهى الأمر بحارتنا إلى هذه الحال؟

لقد وعد الجبلاوى أدهم بأن يكون الوقف لخير ذريته. وشيدت الربوع ووزعت الخيرات وحظى الناس بفترة من العمر السعيد. ولما أغلق الأب بابه واعتزل الدنيا احتذى الناظر مثاله الطيب حينًا، ثم لعب الطمع بقلبه فنزع إلى الاستئثار بالريع. بدأ بالمغالطة فى الحساب والتقتير فى الأرزاق ثم قبض يده قبضًا مطمئنا إلى حماية فتوة الحارة الذى اشتراه. ولم يجد الناس بدًا من ممارسة أحقر الأعمال. وتكاثف عددهم فزاد فقرهم وغرقوا فى البؤس والقذارة. وعمد الأقوياء إلى الإرهاب والضعفاء إلى التسول،

والجميع إلى المخدرات. كان الواحد يكد ويكدح نظير لقمات يشاركه فيها فتوة، لا بالشكر، ولكن بالصفع والسب واللعن.

الفتوة وحده يعيش في بحبوحة ورفاهية ، وفوق هذا الفتوة الأكبر ، والناظر فوق الجميع ، أما الأهالي فتحت الأقدام . وإذا عجز مسكين عن أداء الإتاوة انتقم منه فتوة حيه شر الانتقام ، وإذا شكا أمره إلى الفتوة الأكبر ضربه الفتوة الأكبر وأسلمه إلى فتوة حيه ليعيد تأديبه ، فإذا سولت له نفسه أن يشكو إلى الناظر ضربه الناظر والفتوة الأكبر وفتوات الأحياء جميعًا . وهذه الحال الكئيبة شهدتها بنفسي في أيامنا الأخيرة ، صورة صادقة مما يروى الرواة عن الأزمان الماضية .

أما شعراء المقاهي المنتشرة في حارتنا فلا يروون إلا عهود البطولات متجنبين الجهر بما يحرج مراكز السادة، ويتغنون بمزايا الناظر والفتوات، بعدل لا نحظي به ورحمة لا نجدها وشهامة لا نلقاها وزهد لا نراه ونزاهة لا نسمع عنها.

وإنى لأتساءل: عما أبقى آباءنا - أو عما يبقينا نحن - بهذه الحارة اللعينة؟ الجواب يسير . لن نلقى فى الحوارى الأخريات إلا حياة أسوأ من الحياة التى نكابدها هنا ، هذا إذا لم يهلكنا فتواتها انتقامًا مما لاقوا على أيدى فتواتنا . والأدهى الأمر أننا محسودون! يقول أهالى الحوارى حولنا: يا لها من حارة سعيدة! تحظى بوقف لا مثيل له ، وفتوات تقشعر عند ذكرهم الأبدان . ونحن لا ننال من الوقف إلا الحسرات ، ومن قوة فتواتنا إلا الإهانات والأذى . على ذلك كله فنحن باقون ، وعلى الهم صابرون . نتطلع إلى مستقبل لا ندرى متى يجىء ، ونشير إلى البيت الكبير ونقول هنا أبونا العتيد ، ونومئ إلى الفتوات ونقول هؤلاء رجالنا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

## Y 0

ونفد صبر آل حمدان فاصطخبت في حيهم أمواج التمرد.

كان آل حمدان يقيمون في قمة الحارة فيما يلى بيتى الأفندى وزقلط، حول البقعة التى بنى أدهم فيها كوخه. وكان رئيسهم حمدان صاحب قهوة، قهوة حمدان، أجمل قهوة في الحارة كلها وتتوسط حي حمدان بين الربوع. جلس المعلم حمدان في الجهة اليمنى من مدخل القهوة، في عباءة رمادية، وعلى الرأس لاسة مزركشة، يتابع عبدون صبى القهوة في نشاطه المتواصل، ويتبادل مع بعض الزبائن الأحاديث. وكانت القهوة ضيقة العرض ولكنها تمتد طولا حتى أريكة الشاعر في الصدر تحت صورة خيالية ملونة لأدهم في رقاده الأخير وهو يتطلع إلى الجبلاوى الواقف بباب الكوخ.

أشار حمدان إلى الشاعر فتناول الربابة واستعد للإنشاد. وبين أنغام الأوتار بدأ بتحية الناظر حبيب الجبلاوى، وزقلط زين الرجال، ثم روى فترة من حياة الجبلاوى قبيل مولد أدهم. وندت عن احتساء القهوة والقرفة والشاى أصوات، وانعقد الدخان المتصاعد من الجوز حول الفانوس سحبًا شفافة. وتركزت الأعين في الشاعر، واهتزت الرءوس لجمال ذكرَى أو حُسن موعظة. ومضى وقت الخيال في شغف وانسجام حتى وافاه الختام، وترامت على الشاعر تحيات الاستحسان. عند ذاك تحركت في الأعماق موجة التمرد التي اجتاحت آل حمدان، فقال عتريس الأعمش من مجلسه وسط القهوة، معلقًا على ما سمع من قصة الجبلاوى:

ـ كان في الدنيا خير ، حتى أدهم لم يجع يومًا واحدًا .

وإذا بتمر حنة العجوز تقف أمام الدكان وتنزل قفص البرتقال من فوق رأسها، ثم تقول موجهة الخطاب إلى عتريس الأعمش:

ـ يسلم فمك يا عتريس، كلامك كالبرتقال السكرى!

فنهرها المعلم حمدان قائلاً:

- اذهبي يا ولية وأريحينا من كلامك الفارغ.

لكن تمر حنة جلست على الأرض لصق مدخل القهوة وهي تقول:

ما أحلى القعدة جنبك يا معلم حمدان (ثم وهي تشير إلى قفص البرتقال) يوم ونصف ليلة في المشي والنداء نظير ملاليم يا معلم. .

وهمّ المعلم بالرد عليها ولكنه رأى ضلمة مقبلاً مقطبًا وقد تلوث جبينه بالتراب فنظر إليه حتى وقف أمامه في مدخل القهوة وهتف بصوت مرتفع :

ربنا على المفترى! قدرة. . . قدرة هو أكبر مفترى، قلت له: أمهلني إلى الغد حتى يفتح الله على فرماني على الأرض وبرك فوق صدري حتى كتم أنفاسي .

فجاء صوت عم دعبس من أقصى القهوة وهو يقول:

- تعال يا ضلمة اقعد جنبى، تعال الله يلعن أولاد الحرام. نحن أسياد هذه الحارة ولكننا نُضرب فيها كالكلاب، ضلمة لا يجد إتاوة لقدرة، تمر حنة تسرح بالبرتقال وهى لا ترى أبعد من ذراع أمامها، وأنت يا حمدان أين شجاعتك يا بن أدهم؟!

فاتجه ضلمة إلى الداخل، وتساءلت تمرحنة:

ـ أين شجاعتك يا بن أدهم؟!

#### فهتف بها حمدان:

عُورى يا تمر حنة ، أنت فت من الزواج من خمسين سنة فلم تحبين مجالس الرجال؟!

فتساءلت المرأة:

ـ أين هم الرجال؟!

فقطب حمدان ولكن تمر حنة بادرته كالمعتذرة:

ـ دعني أسمع الشاعر يا معلم.

فقال دعبس للشاعر بمرارة:

ـ حدثها عن هوان آل حمدان في هذه الحارة.

فابتسم الشاعر قائلاً:

- حلمك يا عم دعبس ، حلمك يا سيد الناس .

فقال دعبس محتداً:

ـ من سيد الناس؟ إن سيد الناس يضرب الناس ويظلم الناس ويغتال الناس، أنت تعرف من هو سيد الناس!

فقال الشاعر بقلق:

ـ قد نجد بيننا فجأة قدرة أو غيره من الشياطين!

فقال دعبس بحدة:

- كلهم ذرية إدريس!

فقال الشاعر بصوت خافت:

ـ حلمك يا عم دعبس قبل أن تهدم القهوة فوق رءوسنا .

فنهض دعبس من مجلسه وقطع القهوة في خطوات واسعة ثم جلس إلى يمين حمدان على أريكة وهم بالكلام، ولكن ضجة غلمان علت بغتة حتى غطت على صوته، وانتشروا أمام القهوة كالجراد وهم يتبادلون السباب، فصرخ فيهم دعبس:

ـ يا أولاد الشياطين أليس لكم جحور تؤويكم في الليل؟

لكنهم لم يبالوا بصراخه فوثب كالملدوغ وانقض عليهم، فجروا في الحارة وهم يصيحون «هيه». وترامى أكثر من صوت نسائي من نوافذ الربع المواجه للقهوة: «وحد الله يا عم دعبس»، «خوفت الأولاد يارجل». فلوح بيده ساخطًا وعاد إلى مجلسه وهو يقول:

ـ الواحد حيران، لا عند الأولاد راحة ولا عند الفتوات راحة ولا عند الناظر راحة.

أمَّن كل على قوله. آل حمدان ضاع حقهم في الوقف، آل حمدان تمرغوا في تراب القذارة والبؤس. آل حمدان تسلط عليهم فتوة ليس منهم بل من أحط الأحياء. قدرة يسير بينهم مختالا يصفع من يشاء ويأخذ الإتاوة عمن يشاء. لذلك نفد صبر آل حمدان واصطخبت في حيهم أمواج التمرد.

والتفت دعبس إلى حمدان وقال:

ـ يا حمدان، الجميع على رأى واحد، نحن آل حمدان، عددنا كبير، أصلنا معروف، وحقنا في الوقف كحق الناظر نفسه.

فغمغم الشاعر:

ـ اللهم فوت الليلة على خير.

حمدان حبك العباءة حوله ورفع حاجبيه المثلثين الغزيرين وقال:

ـ قلنا في هذا وعدنا، سيحدث أمر، إني أشم الأحداث شما.

وارتفع صوت على فوانيس بالتحية وهو يدخل القهوة مشمرا الجلباب وطاقيته الترابية مائلة حتى حاجبيه، وما لبث أن قال:

الكل مستعدون، ولو احتاج الأمر إلى نقود سيعطون، حتى الشحاذون.

وانحشر بين دعبس وحمدان وهو يهتف بعبدون صبى القهوة:

ـ شاي من غير سكر.

فانتبه إليه الشاعر قائلاً:

- إحم!

فابتسم على فوانيس ودس يده في صدره فأخرج كيسًا ثم فتحه واستخرج منه لفافة صغيرة رمى بها إلى الشاعر. وربت فخذ حمدان متسائلاً فقال هذا:

ـ أمامنا المحكمة.

فقالت تمر حنة:

ـ خير ما نفعل.

فقال الشاعر وهو يخرج الشيء من اللفافة:

ـ فكروا في العواقب.

فقال على فوانيس بحدة:

ـ لا هوان أحط مما نحن فيـه، ولنا عـدد وفـيـر يجب حـسـابه، والأفندي لا يمكن أن يتجاهل أصلنا وقرابتنا إليه وإلى صاحب الوقف.

فقال الشاعر وهو ينظر إلى حمدان نظرة ذات معنى:

ـ لم تضق بنا الحلول.

فقال حمدان كأنما يجيبه:

ـ عندى فكرة جريئة!

تطلعت إليه الأبصار فقال:

ـ أن نلجأ إلى الناظر!

فقال عبدون وهو يقدم الشاي إلى فوانيس:

ـ خطوة عزيزة وبعدها تحفر قبور .

فضحكت تمرحنة قائلة:

ـ اسمعوا فالكم من عيالكم.

لكن حمدان قال بتصميم:

ـ ينبغي أن نذهب، ولنذهب جماعة.

## 47

تجمهر أمام بيت الناظر جمع كثير من آل حمدان نساء ورجالاً، على رأسهم حمدان ودعبس وعتريس الأعمش وضلمة وعلى فوانيس ورضوان الشاعر. كان من رأى رضوان أن يذهب حمدان وحده نفياً لشبهة العصيان واتقاء لعواقبه، ولكن حمدان قال له بصراحة: «إن قتلى شيء يسير ولكن قتل آل حمدان لا يقدرون عليه». واسترعى التجمهر أنظار أهل الحارة وبخاصة الجيران الأقربون، فبرزت رءوس النساء من النوافذ، وتطلعت أعين من تحت السلال والمقاطف ومن فوق عربات اليد، وأقبل كثيرون كباراً وصغاراً وتساءلوا: ماذا يريد آل حمدان؟ وقبض حمدان على المطرقة النحاسية وطرق الباب، ففتح بعد قليل عن البواب بوجهه الكئيب ونسائم محملة بشذا الفل والياسمين. نظر البواب إلى المتجمهرين بانزعاج وتساءل:

ـ ماذا تريدون؟

فقال حمدان بقوة استمدها ممن خلفه:

- نريد مقابلة حضرة الناظر.

.کلکم؟

ـ ليس فينا من هو أحق بالمقابلة من الآخرين.

ـ انتظروا حتى أستأذن لكم .

وهم برد الباب لكن دعبس مرق إلى الداخل وهو يقول:

ـ الانتظار في الداخل أكرم.

واندفع وراءه الآخرون كالسرب وراء الحمامة، ودُفع حمدان بينهم على رغم سخطه

على اندفاع دعبس فانتقلت المظاهرة إلى الممشى المفروش بين السلاملك والحديقة. وصاح البواب:

ـ يجب أن تخرجوا.

فقال حمدان:

ـ الضيف لا يطرد، اذهب وخبِّر سيدك.

وتحركت شفتا الرجل باحتجاج غير مسموع، وشت به قسماته المكفهرة ثم تحول مهرولاً نحو السلاملك. وتبعته الأعين حتى اختفى وراء الستار المسدل على باب البهو، وظلت أعين عالقة بالستار، وجالت أعين في أنحاء الحديقة، حول الفسقية المحاطة بالنخيل، وأعراش العنب لصق الجدران، وفروع الياسمين المتسلقة الأسوار، جالت بنظرات حائرة وحواس مغلقة بالهم وما لبثت أن ردت إلى الستار المسدل على باب البهو.

وانزاح الستار فخرج الأفندى بنفسه متجهم الوجه، وتقدم فى خطوات حادة غاضبة حتى وقف عند رأس السلم. لم يبد من شخصه المتلفع بالعباءة إلا وجهه الغاضب وشبشبه الوبرى وسبحة طويلة فى عناه. ألقى نظرة ازدراء على المظاهرة ثم استقرت عيناه على حمدان فقال هذا بأدب جم:

- صبحك الله بالسعادة يا حضرة الناظر.

فاكتفى برد التحية بحركة من يده، وتساءل:

ـ من هؤلاء؟

ـ آل حمدان يا حضرة الناظر.

ـ من أذن لهم بالدخول في بيتي؟

فقال حمدان بدهاء:

ـ إنه بيت ناظرهم، فهو بيتهم، وهم في حماه.

فلم يلن وجه الأفندي وقال:

ـ تحاول الاعتذار عن سوء سلوككم؟!

وضاق دعيس بتأدب حمدان فقال:

ـ نحن أسرة واحدة، جميعنا أبناء أدهم وأميمة.

فقال الأفندي بامتعاض :

ـ ذاك تاريخ مضى، ورحم الله امرءًا عرف قدر نفسه.

فقال حمدان:

ـ نحن في كرب من الفقر وسوء المعاملة، فاجتمع الرأى بيننا على اللجوء إليك لتفرج كربنا.

وهنا قالت تمر حنة:

ـ وحياتك عيشتنا تقرف الصراصير.

فقال دعبس بصوت ارتفع درجات:

- أكثرنا متسولون، أطفالنا جياع، وجوهنا متورمة من صفع الفتوات، أيليق ذلك بأبناء الجبلاوي ومستحقى وقفه؟!

فتقبض يد الأفندي على المسبحة وهتف:

ـ أي وقف يا هذا؟

حاول حمدان أن يمنع دعبس من الكلام ولكنه اندفع قائلاً كمن لطشت الخمر رأسه:

- الوقف الكبير، لا تغضب يا حضرة الناظر، الوقف الكبير الذي يمك حارتنا من أولها إلى آخرها، ويتبعه كل حكر في الخلاء المحيط، وقف الجبلاوي يا حضرة الناظر.

فاندلعت ألسنة الغضب من عيني الأفندي وصاح:

ـ هذا وقف أبى وجدى ما لكم به صلة . إنكم تتناقلون الحكايات الخرافية وتصدقونها ، وما لديكم دليل أوحجة .

فقال أكثر من صوت وضح بينها صوتا دعبس وتمر حنة :

ـ الجميع يعرفون ذلك.

ـ الجميع؟ ما قيمة ذلك؟ لو تناقلتم فيما بينكم أن بيتى هو بيت فلان أو علان منكم فهل يكفى هذا لاغتصاب بيتى يا هؤلاء؟ حارة حشاشين حقيقة! خبروني متى أخذ أحدكم مليمًا من ريع الوقف؟

فساد الصمت مليًّا ثم قال حمدان:

ـ كان آباؤنا يأخذون.

ـ ألديكم دليل؟

فعاد حمدان يقول:

ـ قالوا لنا ونحن نصدقهم.

فهتف الأفندي:

ـ كذب في كذب، وتفضلوا غير مطرودين.

فقال دعبس بتصميم:

- أطلعنا على الشروط العشرة.

فصاح الأفندي:

ـ لماذا أطلعكم عليها؟ من أنتم؟ ما علاقتكم بها؟

ـ نحن المستحقون.

عند ذاك تعالى صوت هدى هانم حرم الناظر من وراء الباب وهي تقول:

ـ دعهم وادخل، لا تبح صوتك بمناقشتهم.

فقالت تمرحنة:

ـ كونى محضر خير يا ست هانم.

فقالت هدى هانم بصوت متهدج من الغضب:

ـ قطع الطرق لا يكون بالنهار والشمس طالعة!

فقالت تمرحنة بامتعاض:

- الله يسامحك يا ست هانم، الحق على جدنا الذي أغلق على نفسه الأبواب.

فرفع دعبس رأسه وصاح بصوت كالرعد:

ـ يا جبلاوي! تعال شف حالنا، تركتنا تحت رحمة من لا رحمة لهم.

دوتى الصوت قويا حتى خيل إلى البعض أنه سيبلغ الجد في بيته. ولكن الأفندى صاح مرتعش النبرات من الحنق:

- اخرجوا اخرجوا دون تردد.

وقال حمدان بضيق:

ـ هيا بنا .

وتحول عن موفقه ومضى نحو الباب. وأخذوا يتبعونه صامتين. حتى دعبس تبعه. لكنه رفع رأسه مرة أخرى وصاح بالقوة نفسها:

\_ يا جبلاوي!

#### **YV**

دخل الأفندى البهو مصفر الوجه من الغضب فوجد زوجته واقفة مقطبة، فقالت: ـ حركة غريبة لها ما بعدها، ستكون حديث الحارة كلها، وإذا تهاونا في الأمر فقل علينا السلام.

# فقال الأفندي بتقزز:

ـ رعاع أبناء رعاع ويطمعون في الوقف، منذا الذي يستطيع أن يعرف أصله في حارة مثل خلية النحل؟

ـ احسم الأمر ، ادع زقلط و دبر أمرك ، زقلط يقاسمنا الريع دون أن يفعل شيئًا فدعه يحلل ما ينهب من أموالنا .

فحدجها الأفندي بنظرة طويلة، ثم تساءل:

وجبل؟!

فقالت بطمأنينة وثقة:

- جبل؟! إنه ربيبنا، بل هو ابنى، لم يعرف من الدنيا إلا بيتنا، أما آل حمدان فلا يعرفهم ولا يعرفونه، ولو كانوا يعدونه منهم لتشفعوا به إلينا، اطمئن من ناحيته، وسوف يعود من جولته بين المستأجرين فيحضر الاجتماع.

وجاء زقلط تلبية لدعوة الناظر. كان متوسط القامة، بدينًا، متين البنيان، وبقسماته سماجة وغلظة، وبرقبته وذقنه ندوب. جلسوا متقاربين وزقلط يقول:

ـ سمعت أخبارًا لا تسر.

فقالت هدى بغيظ:

ـ ما أسرع ما تجرى أخبار السوء!

وقال الأفندي وهو يلحظ زقلط بمكر:

- إنها تمس هيبتنا كما تمس هيبتك.

فقال زقلط بصوت كالخوار:

ـ مضى زمن غير قصير دون أن نحرك نبوتًا أو نسفك دمًا.

فابتسمت هدى قائلة:

- يا لهم من مغرورين آل حمدان! لم يظهر منهم فتوة واحد، ومع ذلك فأحقرهم يزعم أنه سيد الحارة.

فقال زقلط باشمئزاز:

ـ باعة ومتسولون، ولن يظهر فتوة من قوم خرعين!

فتساءل الأفندي:

ـ والعمل يا زقلط؟

ـ سأدوسهم بقدمي كالصراصير.

سمع جبل قول زقلط وهو يدخل البهو. بدا مورد الوجه بعد جولته في الخلاء، وجرت حيوية الشباب في جسمه الفارع القوى، ووجهه ذى الملامح الصريحة وبخاصة أنفه المستقيم وعيناه الكبيرتان الذكيتان. حيا الموجودين بأدب وبدأ يتكلم عن الأحكار التي تم تأجيرها اليوم، ولكن هدى هانم قاطعته قائلة:

- اجلس يا جبل، نحن في انتظارك لأمر عظيم.

فجلس جبل وعيناه تعكسان نظرة تحرَّج لم تغب عن عيني الهانم فقالت:

ـ أرى أنك تحدس ما نحن مهتمون له .

فقال بصوت هادئ:

- الجميع يتحدثون في الخارج.

فنظرت الهانم صوب زوجها هاتفة:

- أسمعت؟ . . الجميع يتوقعون منا الجواب .

فقال زقلط وقسماته تزداد سماجة:

ـ شعلة تطفئها حفنة تراب، بودي أن أبدأ العمل!

فالتفتت هدى إلى جبل متسائلة:

ـ ألديك ما تقوله يا جبل؟

فقال وهو يداري ضيقه بالنظر في الأرض:

- الأمر منكم وإليكم يا سيدتي.

ـ يهمني أن أعرف رأيك!

تفكر مليًّا وهو يشعر بنظرات الأفندي الحادة، ونظرات زقلط الممتعضة ثم قال:

ـ سيدتى، إنى ربيب نعمتك، ولكنى لا أدرى ماذا أقول، فلست إلا أحد أبناء حمدان!

قالت هدى بحدة:

\_ لماذا تذكر حمدان ولا أب ولا أم ولا أقارب لك فيهم؟

وندّعن الأفندي صوت ساخر مقتضب يشبه الضحك لكنه لم يتكلم. وبدا في وجه جبل أنه يعاني ألمًا صادقًا، لكنه أجاب:

ـ كان أبي وأمي منهم، لا يمكن إنكار ذلك.

وقالت هدي:

ـ ما أخيب أملى في ابني!

ـ معاذ الله، إن المقطم لا يستطيع أن يزحزحني عن الوفاء لك، لكن إنكار الحقائق لا يغيرها.

وقام الأفندي نافد الصبر وقال يخاطب زقلط:

ـ لا تضيّع وقتك في سماع هذه المعاتبات.

فقام زقلط باسمًا، وإذا بالهانم تقول له وهي ترمي جبل بلحظ خفي:

ـ لا تجاوز المعقول يا معلم زقلط، نريد تأديبهم لا إبادتهم.

غادر زقلط البهو. وألقى الأفندي على جبل نظرة لوم وهو يتساءل ساخرًا:

- إذن أنت من آل حمدان يا جبل؟!

ولاذ جبل بالصمت حتى رحمته هدى فقالت:

ـ قلبه معنا ولكن شق عليه أن يتنكر لأصله أمام زقلط.

فقال جبل بحزن واضح:

\_إنهم بؤساء يا سيدتي على الرغم من أنهم أكرم أهل الحارة أصلا .

فصاح الأفندي:

ـ حارة لا أصل لها .

فقال جبل جادًا:

ـ إننا أبناء أدهم، وما زال جدنًا حيًّا أطال الله بقاءه.

فتساءل الأفندي:

- منذا يستطيع أن يثبت بنوته لأبيه؟ . . إنه كلام لا بأس أن يقال أحيانا ، ولكنه لا ينبغى أن يتخذ وسيلة لنهب أموال الغير .

وقالت هدي:

ـ نحن لا نريد بهم شراً على شرط ألا يطمعوا في أموالنا.

وأراد الأفندي أن ينهى الحديث فقال لجبل:

- اذهب إلى عملك ولا تفكر في سواه .

غادر جبل البهو فذهب إلى إدارة الوقف فى منظرة الحديقة. كان عليه أن يسجل فى الدفاتر عددًا من عقود الإيجار وأن يراجع الحساب الختامى للشهر ولكن الحزن شتّت عقله. ومن عجب أن آل حمدان لا يحبونه، وهو يعلم ذلك ويذكر كيف كان يقابل بالبرود فى قهوة حمدان فى المرات القلائل التى غشيها. مع ذلك أحزنه ما يدبَّر لهم من شر. أحزنه أكثر مما أسخطه سلوكهم الجرىء. وود أن يدفع عنهم الشر لولا إشفاقه من إغضاب البيت الذى آواه ورباه وتبناه. ماذا كان يكون لو لم يدركه عطف هدى هانم؟

منذ عشرين عامًا رأت الهانم طفلاً عاريًا يستحم في حفرة مملوءة بمياه الأمطار. مضت تتسلى بمشاهدته فمال قلبها الذي حرمه العقم من نعم الأمومة إليه. أرسلت من حمله إليها وهو يبكى خائفًا. وتحرت عنه فعلمت أنه طفل يتيم ترعاه بياعة دجاج. استدعت الهانم بياعة الدجاج وطلبت إليها أن تنزل لها عن الطفل فرحبت بذلك كل الترحيب. هكذا نشأ جبل في بيت الناظر وفي رعاية حضرته ينعم بأسعد أمومة في الحارة جميعًا. وأدخل الكُتّاب فتعلم القراءة والكتابة، ولما بلغ رشده ولاه الأفندي إدارة الوقف.

فى كل بقعة فيها للوقف أملاك يدعونه «حضرة الوكيل» وتتابعه نظرات الإكبار والإعجاب أينما حلّ. وكانت الحياة تبدو ودودة واعدة بكل جميل حتى كان تمرد آل حمدان. وجد جبل أنه ليس شخصًا واحدًا كما توهم طوال عمره ولكنه شخصان. أحدهما يؤمن بالوفاء لأمه، وآخرهما يتساءل في حيرة:

و آل حمدان؟!

# ۲۸

انبعثت الرباب تحكى مصرع همام على يد قدرى. اتجهت الأعين نحو رضوان الشاعر في انتباه يشوبه القلق. ليست الليلة كبقية الليالي، ليلة ختمت نهاراً ثائراً، وظل كثيرون من آل حمدان يتساءلون: هل تمر بسلام؟ وشمل الحارة ظلام، حتى النجوم توارت وراء سحب الخريف فلم يبد من ضوء إلا ما نضحت به النوافد المغلقة أو ما أرسلته مصابيح عربات اليد المتباعدة في أحياء الحارة. وضجت الأركان بغوغاء الغلمان المتجمعين كالفراشات حول مصابيح العربات، على حين افترشت تمر حنة خيشة أمام أحد ربوع آل حمدان وراحت تدندن:

# على باب حارتنا حسن القهوجي

وارتفع مواء قطط فى نوبات متقطعة واشيًا بمنافسات جنسية أو منازعات تموينية . واحتد صوت الشاعر وهو يروى قائلاً: وصرخ أدهم فى وجه قدرى: «ماذا فعلت بأخيك؟». فى تلك اللحظة ظهر زقلط فى دائرة الضوء التى يرسمها فانوس القهوة على الأرض. ظهر فجأة كأنما انشق عنه الظلام. بدا عابسًا متحديًا كارهًا مكروهًا يتفجر الشر فى عينيه وتشد قبضته على نبوته المرعب. وزحفت من محجريه نظرة ثقيلة مخيفة على القهوة والجالسين كأنها حشرة سامة، فتحجر الكلام فى حلق الشاعر. وباخت نشوة ضلمة وعتريس، وانقطع عن التهامس دعبس وعلى فوانيس، وكف عن الحركة عبدون. أما حمدان فشدت يده على خرطوم النارجيلة بعصبية، وساد صمت كالموت.

وتتابعت حركات خاطفة. غادر القهوة سراعًا الزبائن الذين لا ينتسبون لآل حمدان. جاء فتوات الأحياء قدرة والليثي وأبو سريع وبركات وحمودة فصنعوا جدارًا وراء زقلط وسرى الخبر في الحارة بسرعة كأنه بيت تهدم ففتحت النوافذ، وأقبل الصغار يجرون والكبار يتنازع قلوبهم الإشفاق والشماتة. وكان حمدان أول من خرق الصمت فقام في هيئة استقبالية وهو يقول:

ـ أهلاً بالمعلم زقلط فتوة حارتنا، تفضلوا.

لكن زقلط تجاهله. كأنه لا يسمعه ولا يراه. وظل يطلق الطعنات من عينيه القاسيتين. ثم تساءل بصوت غليظ:

ـ من فتوة هذا الحي؟

فأجاب حمدان ولو أن السؤال لم يوجه إليه:

ـ فتوتنا قدرة .

التفت زقلط نحو قدرة متسائلاً في سخرية:

ـ أنت حامي آل حمدان؟

فتقدم قدرة خطوات بجسمه القصير المدمج ووجهه المتحرش بكل شيء وقال:

- أنا حاميهم من الجميع إلاك يا معلم.

فابتسم زقلط ابتسامة كالامتعاض وقال:

ـ ألم تجد حيّا غير حي النسوان لتكون فتوة عليه؟

ثم صاح بالقهوة:

\_يا نسوان، يا أولاد الزواني، ألا تعترفون بأن للحارة فتوة؟

فقال حمدان بوجه شاحب:

\_ يا معلم زقلط ليس بيننا وبينك إلا الخير.

فصاح به:

\_اخرس يا عجوز يا قارح، الآن تتمسكن بعد أن تهجمت على أسيادك وأسياد أهلك.

فقال حمدان بصوت المتألم:

ـ لم يكن في الأمر تهجم، لكنها شكوى سرنا بها إلى حضرة الناظر.

فصاح زقلط:

- أسمعتم ما يقول ابن الزانية؟ حمدان يا نتن أنسيت ما كانت أمك تفعله؟ والله لن يسير أحدكم آمنًا في هذه الحارة حتى يقول بأعلى صوته: أنا مرة.

ورفع بسرعة نبوته وهوى به بشدة على الطاولة فتطايرت الفناجيل والأكواب والصوانى والملاعق وعلب البن والشاى والسكر والقرفة والزنجبيل والكنجات. وثب عبدون إلى الوراء فارتطم بترابيزة وسقطا معًا. وبغتة وجه زقلط لطمة إلى وجه حمدان ففقد الرجل توازنه وسقط على جنبه فوق النارجيلة التى تحطمت. ورفع زقلط نبوته مرة أخرى وهو يصيح:

ـ لا ذنب بلا عقاب يا أو لاد الزواني.

وتناول دعبس كرسيا ورمى به الفانوس الكبير فتحطم وساد الظلام قبل أن يهوى النبوت على المرآة الكبيرة وراء الطاولة. وصوتت تمر حنة فرددت نساء آل حمدان الصوات في النوافذ والأبواب كأنما انقلبت الحارة حنجرة كلب رُمى بحجر. وجن جنون زقلط فأطلق ضرباته في كل ناحية فأصابت أناسًا ومقاعد والجدار. وتلاطمت أمواج الصراخ والاستغاثات والتأوهات. وتطايرت الأشباح في كل ناحية. وارتطمت أشباح بأشباح. وصاح زقلط بصوت كالرعد:

ـ كل واحد يلزم بيته.

فبادر إلى تنفيذ الأمر كل شخص، من آل حمدان أو من غيرهم، وتتابع وقع الأقدام المتراجعة. وجاء الليثي بفانوس فظهر على ضوئه زقلط والفتوات من حوله، في حارة خالية، لا يسمع بها إلا صوات النسوان. وقال بركات متوددًا:

ـ وفِّر نفسك يا معلم للشدائد، وعلينا نحن تأديب الصراصير.

وقال أبو سريع:

ـ لو شئتَ جعلنا من آل حمدان ترابًا تمشى عليه بحصانك.

وقال قدراة فتوة حمدان:

\_ لو كُلفتني بتأديبهم لحققت لي أمنية كبيرة وهي أن أخدمك يا معلم.

وعلا صوت تمر حنة من وراء باب الربع:

\_ربنا على الظالم.

فصاح بها زقلط:

ـ يا تمر حنة أتحدى أي رجل من حمدان أن يعدَّ الزانين بك!

فهتفت تمر حنة وإن دل آخر كلامها على أن يدًا وضعت على فيها لتمنعها من الاستمرار:

ـ ربنا بيننا وبينك، حمدان أسياد الـ . . .

ووجه زقلط الخطاب إلى الفتوات بصوت أراد أن يسمعه آل حمدان، قال:

ـ لا يغادر رجل من آل حمدان داره إلا ضرب.

فصاح قدرة مهددًا:

ـ من يرَ نفسه رجلاً فليخرج.

وتساءل حمودة:

ـ والنسوان يا معلم؟

فقال زقلط بحدة:

ـ زقلط يعامل الرجال لا النسوان.

وطلع النهار فلم يغادر الربوع رجل من آل حمدان. وجلس كل فتوة عند باب قهوة حيّه يراقب الطريق. وجعل زقلط يمر بالحارة كل بضع ساعات فيستبق الناس إلى تحيته والتودد إليه والثناء عليه، «والله أسد بين الرجال يا فتوة حارتنا»، «عفارم عليك يا زين الرجال يا ملبس آل حمدان الطرح»، والحمد لله الذي أذل آل حمدان المتعجر فين بيدك القوية يا زقلط». ولم يكن يعير أحدًا أدنى اهتمام.

# ۲9

# ـ هل يرضيك هذا الظلم يا جبلاوي؟!

تساءل جبل وهو يفترش الأرض أسفل الصخرة التي تقول الحكايات إن عندها كان قدرى يخلو إلى هند، وإن عندها قتل همام. ونظر إلى الشفق بعين لم تعد ترى إلا ما يكدر الصفو. لم يكن ممن يركنون إلى الخلوات لكثرة مشاغله لكنه شعر أخيراً برغبة قاهرة في الخلو بنفسه التي زلزلها ما حاق بآل حمدان. لعل في الخلاء أن تسكت الأصوات التي تعيّره والتي تعذبه. أصوات تهتف به من النوافذ وهو مار: "يا خائن آل حمدان يا لئيم"، وأصوات تهتف به من أعماق نفسه: "لن تطيب الحياة على حساب الغير". وآل حمدان أهله، ففيهم ولدت أمه وأبوه، وفي مقابرهم دفنا. وهم مظلومون وما أقبح الظلم! اغتصبت أموالهم ولكن من الظالم؟ إنه ولي نعمته، الرجل الذي انتشلته زوجه من الطين فرفعته إلى مصاف آل البيت الكبير. وجميع الأمور تجرى في الحارة على سنة الإرهاب، فليس عجيبًا أن يُسجن سادتها في بيوتهم. وحارتنا لم تعرف يومًا العدالة أو السلام. هذا ما قضى به عليها منذ طرد أدهم وأميمة من البيت الكبير، وألا تعلم بذلك ياجبلاوي؟ ويبدو أن الظلم ستشتد كثافة ظلماته كلما طال بك

السكوت، فحتى متى تسكت يا جبلاوى؟ الرجال سجناء في البيوت والنساء يتعرضن في الحارة لكل سخرية، وأنا أمضغ المهانة في صمت.

ومن عجب أن أهل حارتنا يضحكون! علام يضحكون؟ إنهم يهتفون للمنتصر أيا كان المنتصر، ويهللون للقوى أيا كان القوى، ويسجدون أمام النبابيت، يداوون بذلك كله الرعب الكامن في أعماقهم. غموس اللقمة في حارتنا الهوان. لا يدرى أحد متى يجيء دوره ليهوى النبوت على هامته.

ورفع رأسه إلى السماء فوجدها صامتة هادئة ناعسة، يوشى أطرافها الغمام، وتودعها آخر حدأة. وانقطع المارة وآن للحشرات أن تزحف.

وفجأة سمع جبل صوتًا غليظًا يصيح من قريب: «قف يا بن الزانية». استيقظ من أفكاره فنهض قائمًا وهو يحاول أن يتذكر أين سمع هذا الصوت، ثم اتجه حول صخرة هند إلى الجنوب فرأى رجلاً يركض في رعب وآخر وراءه يطارده ويوشك أن يلحق به. وأمعن النظر فعرف في الهارب دعبس وفي المطارد قدرة فتوة حي حمدان، وفي الحال أدرك حقيقة الموقف. ومضى يراقب المطاردة التي تقترب منه بفؤاد قلق. وما لبث قدرة أن أدرك دعبس فقبض بيده على منكبه وتوقف الاثنان عن العدو وهما يلهثان من الجهد. وصاح قدرة بصوت متقطع من البهر:

ـ كيف تجرؤ على مغادرة جحرك يا بن الأفعى؟ لن تعود سالما.

فهتف دعبس وهو يحمى رأسه بذراعه:

ـ دعني يا قدرة، أنت فتوة حيّنا وعليك أن تدافع عنا.

فهزه قدرة هزة أطارت اللاسة عن رأسه وصاح به:

\_أنت تعرف يا بن اللئيمة أني أدافع عنكم ضد أي مخلوق إلا زقلط.

وحانت من دعبس نظرة نحو موقف جبل فرآه وعرفه فناداه قائلاً:

\_أغثني يا جبل، أغثني فأنت منا قبل أن تكون منهم.

فقال قدرة بغلظة وتحد:

ـ لا مغيث لك منى يا بن الدايخة .

ووجد جبل نفسه يتقدم منهما حتى وقف عندهما وهو يقول بهدوء:

ـ ترفق بالرجل يا معلم قدرة .

فحدجه قدرة بنظرة باردة وهو يقول:

\_إنى أعرف ما ينبغى أن أفعله.

ـ لعل أمرًا ضروريّا دفعه إلى مغادرة بيته.

\_ما دفعه إلا قضاؤه المحتوم.

وشد على منكبه حتى أنَّ دعبس أنينًا مسموعًا، فقال جبل بحدة:

ـ ترفق به، ألا ترى أنه أكبر منك سنّا وأضعف بنية؟

رفع قدرة يده عن منكبه فصفعه على قفاه بقوة تقوس لها ظهره، ثم ضرب بركبته دبره فانكفأ على وجهه، وسرعان ما برك فوقه وراح يكيل له الضربات وهو يقول بصوت يزفر الغل والحنق:

\_ألم تسمع ما قال زقلط؟!

واشتعل الغضب في دماء جبل فصاح به:

ـ اللعنة عليك وعلى زقلط، اتركه يا قليل الحياء!

فكف قدرة عن ضرب دعبس ورفع رأسه إلى جبل وجهًا ذاهلاً، ثم قال:

- أنت تقول هذا يا جبل؟! ألم تشهد حضرة الناظر وهو يأمر زقلط بتأديب آل حمدان؟

فصاح جبل وغضبه آخذ في ازدياد:

- اتركه يا قليل الحياء.

فقال قدرة بصوت يرتعش من الحنق:

ـ لا تظن أن خدمتك في بيت الناظر تحميك منى إذا أردت محاسبتك!

فانقض عليه جبل كمن فقد وعيه وركله فألقاه جانبًا وصاح به:

ـ عد إلى أمك قبل أن تثكلك.

وثب قدرة قائمًا وهو يتناول نبوته من على الأرض ثم رفعه بخفة ولكن جبل بادره بضربة في بطنه من يد قوية فترتّح متألًا. وانتهز جبل هذه الفرصة فخطف النبوت من يده ووقف وهو ينظر نحوه بحذر. تراجع قدرة خطوتين، ثم انحنى بسرعة خاطفة فالتقط حجرًا ولكنه قبل أن يقذف به أصاب النبوت رأسه فصرخ، ودار حول نفسه، ثم سقط على وجهه والدم يتفجر من جبينه بغزارة. كان الليل يهبط فنظر جبل فيما حوله فلم ير أحدًا إلا دعبس الذي وقف ينفض جلبابه ويتحسس المواضع التي تؤلمه من جسده، ثم اقترب من جبل وهو يقول ممتنا:

ـ عوفيت من أخ كريم يا جبل.

فلم يجبه جبل، وانحني فوق قدرة فعدله على ظهره، ثم تمتم:

- أغمى عليه!

فانحنى دعبس فوقه كذلك ثم بصق على وجهه، فجذبه جبل بعيدًا عنه، وانحنى فوقه مرة أخرى، وراح يهزه برفق ولكنه لم يبد أملاً في الإفاقة، فتساءل:

\_ماله؟

فانحنى دعبس فوقه وألصق أذنه بصدره، ثم قرب وجهه من وجهه، وأشعل عودًا من الثقاب، ثم وقف وهو يهمس:

\_ إنه ميت .

فاقشعر بدن جبل وقال:

ـ كذبت!

ـ ميت ابن ميت وحياتك.

\_يا خبر أسود.

فقال دعبس مهونًا الأمر:

- كم ضرب وكم قتل! فليذهب إلى الزبانية!

فقال جبل بصوت حزين وكأنه يخاطب نفسه:

\_لكنني لم أضرب ولم أقتل.

- كنت تدافع عن نفسك.

ـ لكنني لم أقصد قتله ولا أردته.

فقال دعبس باهتمام:

\_إن يدك لشديدة يا جبل، لا خوف عليك منهم، وبوسعك أن تكون فتوة لو أردت.

فضرب جبل جبينه بيده وهتف:

\_يا ويلى، هل أنقلب قاتلاً من أول ضربة؟

\_انتبه إلى نفسك وهلم ندفنه وإلا قامت القيامة .

\_ ستقوم القيامة دفنّاه أم لم ندفنه .

ـ لست آسفًا، عقبي للباقي، عاوني على إخفاء هذا الحيوان.

وتناول دعبس النبوت وراح يحفر في الأرض غير بعيد من الموضع الذي حفر فيه قدرى من قبل. وما لبث جبل أن انضم إليه بقلب كئيب. وتواصل العمل في صمت حتى قال دعبس ليخفف عن جبل ثقل مشاعره:

ـ لا تحزن فالقتل في حارتنا مثل أكل الدوم .

فقال جبل متنهدًا:

\_ما وددت أن أكون قاتلاً قط، رباه ما كنت أحسب أن غضبي بهذه الفظاعة!

ولما فرغا من الحفر وقف دعبس يجفف جبينه بكم جلبابه ويتمخط ليطرد الرائحة الترابية التي تملأ خيشومه. قال بحقد:

ـ هذه الحفرة تسع ابن الزانية والفتوات الآخرين.

فقال جبل بضجر:

ـ احترم الميت فجميعنا أموات.

فقال دعبس بحدة:

ـ عندما يحترموننا أحياء نحترمهم أمواتًا.

ورفعا الجثة فأودعاها الحفرة، ووضع جبل النبوت إلى جانبها، ثم أهالا عليها التراب.

ولما رفع جبل رأسه رأى الليل قد أخفى الدنيا وما عليها فتنهد من الأعماق وهو يكبت نزوعًا نحو البكاء.

۳٠

ـ أين قدرة؟

سأل زقلط نفسه كما سأل الفتوات الآخرين. لكن الفتوات كانوا يتساءلون أيضًا عن صاحبهم الذى اختفى من الوجود كما اختفى رجال آل حمدان من الحارة. كان قدرة يسكن فى الحى التالى لحى آل حمدان وكان أعزب يسهر الليل فى الخارج فلا يعود إلى مسكنه إلا مع الفجر أو بعد ذلك ، ولم يكن من النادر أن يغيب عن مسكنه ليلة أو ليلتين ، ولكن لم يحدث أبدًا أن غاب أسبوعًا كاملاً دون أن يعلم أحد بمكانه وبخاصة فى أيام الحصار هذه التى أوجبت عليه أعباء لا يستهان بها من اليقظة والمراقبة . وقامت الظنون حول آل حمدان فتقرر تفتيش بيوتهم . واقتحم الفتوات وعلى رأسهم زقلط ربوعهم ففتشوها تفتيشًا دقيقًا من البدروم إلى السطح ، وحُفرت الأفنية بالطول والعرض ، وتعرض رجال آل حمدان لإهانات شتى ، ولم يسلم أحد منهم من لطمة أو ركلة أو بصقة ، ولكنهم لم يعثروا على شيء يريب . وتفرقوا فى أطراف الخلاء يسألون فلم يدلهم أحد على أمر ذى بال .

وبات قدرة الموضوع الذي تدور به الجوزة في غرزة زقلط تحت تكعيبة العنب بحديقة بيته. كان الظلام يغشى الحديقة عدا نور حيى ينبعث من مصباح صغير قائم على الأرض

على بعد شبرين من المجمرة ليستضىء به بركات وهو يقطع الحشيش ويبططه، ويفتت الجمرات، ويرص الحجر ويخشنه ليعد الجوزة. وكان نور المصباح الراقص فى مجرى النسيم ينعكس على وجوه زقلط وحمودة والليثى وأبو سريع الكالحة فيبدى عن أعين متراخية الجفون، انعقدت فى نظراتها الشاردة نوايا معتمة. وتعالى نقيق ضفادع كأنه استغاثات خرس فى هدأة الليل. قال الليثى وهو يتناول الجوزة من بركات ويوجهها نحو زقلط:

- أين ذهب الرجل؟ كأن الأرض بلعته.

شد زقلط نفسًا عميقًا وهو ينقر الغابة بسبابته ثم زفره دخانًا كثيفًا وقال:

ـ قدرة بلعته الأرض وهو راقد في جوفها منذ أسبوع.

تطلعت إليه الأبصار باهتمام عدا بركات الذي بدا مسلوبًا بعمله، فعاد زقلط يقول:

ـ لا يختفي فتوة لغير ما سبب، وللموت رائحة أعرفها.

فتساءل أبو سريع بعد سعال تقوس له ظهره كأنه سنبلة في مهب ريح عاتية :

\_ومن قاتله يا معلم؟

عجيبة! ومن يكون غير رجل من آل حمدان؟

\_لكنهم لا يغادرون بيوتهم وقد فتشناها .

فضرب زقلط طرف الشلتة بقبضته وتساءل:

\_ماذا يقول أهل الحارة الآخرون؟

فقال حمودة:

\_ يعتقد حينا بأن لآل حمدان يدًا في اختفاء قدرة.

- افه موا يا مساطيل! ما دام الناس يعتقدون أن قاتل قدرة في آل حمدان فالواجب علينا أن نعتبره كذلك!

ـ ولو كان القاتل من العطوف؟

- ولو كان من كفر الزغاري، نحن لا يهمنا عقاب القاتل بقدر ما يهمنا إرهاب الآخرين.

فهتف أبو سريع بإعجاب:

ـ الله أكبر .

فقال الليثي وهو ينفض الحجر في الكوز ويعيد الجوزة إلى بركات:

\_الله يرحمكم يا آل حمدان.

فندت عن أفواههم ضحكات جافة اختلطت بنقيق الضفادع وتحركت منهم الرءوس

حركات الوعيد على حين هبت نسمة بقوة طارئة أعقبتها خشخشة في الأوراق الجافة . وصفق حمودة بيديه وهو يقول :

ـ لم تعد المسألة صراعًا بين آل حمدان والناظر ، ولكنها كرامة الفتوات .

فعاد زقلط يضرب طرف الشلتة بقبضته ويقول:

ـ لم يقتل فتوة بيد حارته من قبل.

وتصلبت ملامحه من الغضب حتى خاف شره ندماؤه فحذروا أن تند عنهم كلمة أو حركة تحول غضبه إليهم. وساد الصمت فلم يعد يسمع إلا قرقرة الجوزة وسعلة أو نحنحة. وإذا ببركات يسأل:

ـ وإذا عاد قدرة على غير ما نظن؟

فقال زقلط بحنق:

ـ أحلق شاربي يا بن المسطولة .

كان بركات أول من ضحك ثم عادوا إلى الصمت. تخايلت للأعين المذبحة ، والعصى تحطم الرءوس، والدماء تسيل حتى تصبغ الأرض، والصوات يعلو من النوافذ والأسطح، وعشرات الرجال يصعدون حشرجة الموت. اضطربت في النفوس رغبة غرية في الافتراس وتبادلوا نظرات قاسية. لم يهمهم قدرة لذاته، بل لم يكن أحد منهم يحبه، ولم يكن أحد منهم يحبه ، ولم يكن أحد منهم يحبه ، ولم يكن أحد منهم يحب الآخر قط، ولكن جمعتهم رغبة واحدة في الإرهاب والذود عن الفتونة. وتساءل الليثي:

\_وبعد؟

فقال زقلط:

ـ ينبغي أن أرجع إلى الناظر كالعهد بيننا.

#### 31

#### قال زقلط:

ـ يا حضرة الناظر، قتل آل حمدان فتوتهم قدرة.

وركز بصره في الناظر ولكنه كان يرى في الوقت نفسه هدى هانم إلى يمينه وجبل إلى يمينها. وبدا أن الأفندي لم يفجأه الخبر إذ قال:

ـ بلغتني أنباء عن اختفائه، ولكن هل يئستم حقا من العثور عليه؟

قال زقلط وكان نور الضحى الذي يقتحم باب البهو يؤكد سماجة ملامحه:

ـ لن يُعثر عليه وأنا خبير بهذه المكائد.

فقالت هدى بعصبية وهي تلحظ وجه جبل الذي راح ينظر إلى الجدار المواجه له:

\_ لو صح أنه قتل لكان ذاك حدثًا خطيرًا. .

فقال زقلط وهو يشد على أصابعه المتشابكة:

ـ ويقتضى عقابًا شاملاً أو قولوا علينا وعليكم السلام!

فلعبت أصابع الأفندي بحبات مسبحته وقال:

\_إنه عثل هيبتنا!

فقال زقلط بتركيز مقصود:

\_ويمثل الوقف كله!

وخرج جبل من صمته قائلاً:

\_لعلها جريمة مزعومة لم تقع.

واندلع الغضب في صدر زقلط لدى سماعه صوت جبل فقال:

ـ لا ينبغي أن نضيع الوقت في الكلام.

ـ هات دليلاً على مقتله .

فقال الأفندي بلهجة اصطنع لها القوة ليخفي ما وراءها من ارتياب:

لا يختفي أحد من أبناء حارتنا على هذا النحو إلا إن كان قتل!

ولم تفلح زفرات الخريف الرطيبة في تلطيف هذا الجو المشحون بالنوايا الدموية فهتف زقلط :

- الجريمة تنادينا بصوت سوف تسمعه الحواري المجاورة وما الكلام إلا مضيعة الوقت .

لكن جبل قال بإصرار:

\_ رجال حمدان في بيوتهم مسجونون!

فضحك زقلط بصوته دون وجهه وقال ساخرًا:

\_فزورة حلوة!

ثم وهو يستريح في مجلسه ويتحداه بنظرة نافذة:

ـ لا يهمك إلا تبرئة أهلك!

ومع أن جبل بذل جهدًا صادقًا لشكم غضبه إلا أن صوته احتد وهو يقول:

- يهمنى الحق. إنكم تعتدون لأوهى الأسباب، وأحيانًا بلا سبب، وما همك الآن إلا الحصول على إذن لإحداث مذبحة في قوم مسالمين.

وتبدى الحقد في عيني زقلط وهو يقول:

ـ أهلك مجرمون، قتلوا قدرة وهو يدافع عن الوقف!

فالتفت جبل نحو الأفندي وقال:

\_ يا سيدى الناظر لا تسمح لهذا الرجل بإشباع شراهته الدموية.

فقال الأفندي:

\_إذا ضاعت هيبتنا ضاعت حياتنا!

وتساءلت هدى. وهي تنظر نحو جبل:

\_ أتريد أن ندفن أحياء في حارتنا؟

فقال زقلط بحنق:

\_إنك تنسى فضل أصحاب الفضل عليك وتذكر المجرمين.

وارتفعت موجة الغضب في صدر جبل حتى قلقلت جذور إرادته فقال بصوت شديد:

ـ ليسوا مجرمين وإن غصّت حارتنا بالمجرمين!

قبضت يد هدى بشدة على طرف شالها الأزرق، وتحركت فتحتا أنف الأفندي وقد عبرت وجهه صفرة، فتشجع زقلط بهذه المظاهر وقال بحقد ساخر:

ـ لك عذر في دفاعك عن المجرمين ما دمت منهم!

ـ تهجمك على المجرمين شيء لا يصدق وأنت شيخ الإجرام في حارتنا.

قام زقلط قومة عنيفة وقد اربد وجهه، وقال:

\_ لو لا مكانتك عند آل هذا البيت لأخر جتك من مجلسك على أجزاء!

فقال جبل بهدوء مخيف يشف عما تحته:

\_أنت واهم يا زقلط!

وصاح الأفندي:

ـ أتجرآن على هذا أمامى؟

فقال زقلط بخبث:

\_إنى أناطحه دفاعًا عن هيبتك!

فأوشكت أصابع الأفندي أن تفتك بالمسبحة، وخاطب جبل بشدة قائلاً:

ـ لا أسمح لك بالدفاع عن آل حمدان.

ـ هذا الرجل يفتري الكذب عليهم لغاية سوء في نفسه.

\_ دع هذا لتقديري أنا!

وساد الصمت هنيهة. ترامت من الحديقة زقزقة لاهية، وتعالت في الحارة موجة تهليل صاخبة يتخللها سباب فاحش. وابتسم زقلط قائلاً:

\_أيأذن لى حضرة الناظر في تأديب الجناة؟

أيقن جبل أن ساعة المنايا قد دنت فالتفت نحو الهانم وقال يائسًا:

-سيدتي، سأجد نفسي مضطرا إلى الانضمام إلى أهلى في سجنهم لألقى معهم مصيرهم.

فهتفت هدي في عصبية ظاهرة:

ـ يا لخيبة رجائي!

فتأثر جبل حتى انحنى رأسه، ودفعه شعور مرهف إلى أن ينظر نحو زقلط فرآه يبتسم ابتسامة شماتة كريهة فانطبقت شفتاه في حنق، ثم قال في أسى:

ـ لا خيار لي، ولن أنسي صنيعك معي ما حييت.

فحدجه الأفندي بنظرة قاسية وسأله:

ـ يجب أن أعرف إن كنت معنا أم علينا؟

فقال جبل بحزن وهو يشعر بأنه في النزع الأخير من حياته الراهنة:

ـ مـا أنا إلا ربيب نعـمـتك فـلا يمكن أن أكـون عليك، ولكن من العـار أن أترك أهلى يبادون وأنا أنعم بظلك.

وقالت هدى وهي تتلوى من انفعال الأزمة التي تهدد أمومتها:

ـ يا معلم زقلط فلنؤجل الحديث إلى وقت آخر .

فقطب زقلط كأنما ركب على وجهه حافر بغل، ونقل عينيه بين الأفندى وزوجه ثم :

ـ لا أدرى ماذا يحدث غدًا في الحارة!

فتجنب الأفندي النظر إلى هدى وتساءل:

\_ أجبني يا جبل أأنت معنا أم علينا؟

وتمادت موجة الغضب به حتى بلغت قمة رأسه فهتف دون أن ينتظر الجواب:

\_ فإما أن تبقى معنا كواحد منا، وإما أن تذهب إلى أهلك!

وثار جبل، وبخاصة وهو يلحظ أثر هذا القول في صفحة وجه زقلط فقال بعزم:

\_ يا سيدى إنك تطردني ، وإنى ذاهب .

وهتفت هدى بصوت معذب:

\_جبل!

وهتف زقلط ساخرًا:

\_أمامكم الرجل كما ولدته أمه.

وضاق جبل بمجلسه، فقام، ثم سار بخطوات ثابتة نحو باب البهو. ووقفت هدى ولكن ذراع الأفندى حالت دون تحركها. وسرعان ما اختفى جبل. وفي الخارج هبت ريح تحركت بها الستائر واصطفقت مصاريع نوافذ. وامتلأ جو البهو بتوتر وانقباض. وقال زقلط بهدوء:

\_ينبغى أن نعمل.

ولكن هدى قالت بإصرار وعصبية ينذران بالعناد:

\_كلا، حسبهم الآن الحصار، وحذار أن يُمس جبل بشر.

لم يغضب زقلط إذ إنه لم يهضم بعد ما أحرز من فوز، ورفع إلى الناظر عينًا متسائلة.

فقال الأفندي وهو يبدو كمن يتمصص ليمونة:

ـ سنعود إلى الحديث مرة أخرى.

#### 47

ألقى جبل نظرة وداع على الحديقة والمنظرة فتذكر مأساة أدهم التي ترويها الرباب كل مساء. واتجه نحو الباب فوقف له البواب وهو يتساءل:

\_ماذا يدعوك إلى الخروج ثانية يا سيدى؟

فقال جبل بامتعاض:

\_إنى ذاهب بلا عودة يا عم حسنين!

ففغر الرجل فاه وجعل ينظر إليه مليًّا في انزعاج ثم غمغم متسائلاً :

\_بسبب آل حمدان؟

فأحنى جبل رأسه صامتًا، فعاد البواب يقول:

\_ من يصدق هذا؟ كيف تسمح به الهانم؟ يا رب السماوات! وكيف تعيش يا بني؟

فعبر جبل عتبة الباب مرسلاً بصره إلى الحارة المكتظة بالناس والحيوان والقاذورات وهو يقول:

- ـ كما يعيش أهل حارتنا .
  - \_لم تخلق لهذا.

فابتسم جبل ابتسامة ذاهلة وقال:

\_ إنها المصادفة وحدها التي انتشلتني منه.

ومضى يبتعد عن البيت وصوت البواب يحذره في حسرة من التعرض لغضب الفتوات .

وامتدت أمام عينيه الحارة بأتربتها ودوابها وقططها وغلمانها وجحورها. أدرك مدى الانقلاب الذي جرى على حياته، ما ينتظره من متاعب، وما خسره من نعيم. لكن غضبه غطى على آلامه فبدا وكأنه لا يبالى بالأزهار والعصافير والأمومة الحانية. ومر في سبيله بالفتوة حمودة، فقال هذا بسخرية ملساء:

\_ليتك تعيرنا قوتك لنؤدب بها آل حمدان .

فلم يعره التفاتًا وقصد ربعًا كبيرًا من ربوع آل حمدان وطرقه. وإذا بحمودة يلحق به ويسأله في دهشة واستنكار :

ماذا تريد؟

فأجابه في هدوء:

ـ إنى أعود إلى أهلى.

وارتسمت الدهشة في عيني حمودة الضيقتين وبدا أنه لا يصدق ما سمع. ورآهما زقلط وهو يغادر بيت الناظر متجهًا نحو مسكنه فصاح بحمودة :

ـ دعه يدخل، وإذا خرج بعد ذلك ادفنه حيًّا.

فزايلت حمودة دهشته وابتسم ابتسامة بلهاء متشفية . ومضى جبل يطرق الباب حتى فتحت نوافذ في الربع وفي الربوع الملاصقة ، وأطلت رءوس كثيرة من بينها حمدان وعتريس وضلمة وعلى فوانيس وعبدون ورضوان الشاعر وتمرحنة ، وتساءل ضلمة ساخراً:

\_ماذا تريديا بن الأكابر؟

وسأله حمدان:

ـ معنا أم علينا؟

فصاح حمودة:

ـ طردوه فعاد إلى أصله القذر!

فتساءل حمدان بلهفة:

ـ طردوك حقا؟!

فقال جبل بهدوء:

\_افتح الباب يا عم حمدان.

وزغردت تمر حنة ثم صاحت:

ـ كان أبوك رجلاً طيبًا وأمك امرأة شريفة .

فضحك حمودة قائلاً:

\_ مباركة عليك شهادة الزانية .

فصاحت تمرحنة غاضبة:

- اسم الله على أمك ولياليها الملاح عند حمام السلطان.

وأسرعت بإغلاق النافذة فصك الحجر المنطلق من يد حمودة الضلفة من الخارج محدثًا دويًا هلل له الصبية في الأركان. وفتح باب الربع فدخل جبل مستقبلاً جوّا رطبًا وهواء غريب الرائحة. واستقبله أهله بالعناق واختلطت الكلمات الطيبات. ولكن قطع الترحيب عليهم جعجعة شجار آتية من أقصى الحوش فنظر جبل فرأى دعبس مشتبكًا في شد وجذب مع رجل يدعى كعبلها، فمضى نحوهما ودفع نفسه بينهما وهو يقول بحدة:

ـ تتشاجران وهم يحبسوننا في بيوتنا؟!

فقال دعبس خلال أنفاسه المضطربة:

ـ سرق البطاطة من حلة على نافذتي.

وصاح كعبلها:

\_هل رأيتني وأنا أسرق؟ حرام عليك يا دعبس!

فصاح جبل غاضبًا:

ـ فلنرحم أنفسنا كي يرحمنا من في السماء!

لكن دعبس قال بإصرار:

ـ بطاطتي في بطنه وسأستخرجها بيدي.

فقال كعبلها وهو يعيد طاقيته إلى رأسه:

ـ والله ما ذقت البطاطة من أسبوع.

ـ أنت اللص الوحيد في هذا الربع.

فقال جبل:

ـ لا تقض بلا دليل كما يفعل زقلط معكم.

فصاح دعبس:

ـ لا بد من تأديب ابن الخطافة.

فصرخ كعبلها:

\_ يا دعبس يا بن بياعة الفجل!

وثب دعبس على كعبلها فنطحه فترنح كعبلها وسال الدم من جبينه، وراح يكيل له الضربات غير مبال بزجر الواقفين، حتى غضب جبل فانقض عليه وقبض على عنقه بشدة. وعبثًا حاول دعبس أن يتخلص من قبضة جبل فقال بصوت مبحوح:

\_أتريد أن تقتلني كما قتلت قدرة؟!

فدفعه جبل بقوة فارتمى على الجدار وراح يحدق فيه بحنق وغيظ. وردد الرجال أبصارهم بين الرجلين، وتساءلوا: أجبل حقاهو الذى قتل قدرة؟ وقبله ضلمة وصاح عتريس: «فلتحل بك البركة يا خير آل حمدان». وقال جبل لدعبس حانقًا:

\_لم أقتله إلا دفاعًا عنك!

فقال دعبس بصوت منخفض:

ـ لكنك استحليت القتل.

فصاح ضلمة:

ـ يا لك من جاحد يا دعبس، اخجل من نفسك يا رجل.

ثم وهو يجذب جبل من ذراعه:

\_ستنزل ضيفًا على في شقتى . . تعال يا سيد آل حمدان!

طاوع جبل يد ضلمة لكنه شعر بأن الهاوية التي انفتحت اليوم تحت قدميه لا قرار لها .

وهمس متسائلاً في أذنه وهما يسيران معًا:

\_ألا يوجد سبيل إلى الهرب؟

فقال ضلمة باستنكار:

- أتخاف يا جبل أن يشى بك أحد إلى أعدائنا؟!

\_ دعبس أحمق.

ـ نعم ولكنه ليس بالنذل!

\_أخاف أن تثبت عليكم التهمة بسببي!

فقال ضلمة بثقة:

\_سأدلك على طريق الهرب إذا أردته، ولكن أين تقصد؟ \_ الخلاء واسع لا يحيط به خاطر.

#### 3

لم يتيسر الفرار لجبل إلا في الهزيع الأخير من الليل. جعل ينتقل من سطح إلى سطح في هدأة الليل، وفي رعاية النوم المرفق بالأجفان حتى وجد نفسه في الجمالية. ومضى على رغم الظلام الحالك نحو الدراسة ثم مال نحو الخلاء، متجهًا نحو صخرة هند وقدرى، فلما بلغها على ضوء النجوم الخافت لم يعد بوسعه أن يغالب النوم، من فرط ما نال منه الإعياء والسهر، فاستلقى على الرمال متلفعًا بعباءته وغط في النوم.

وفتح عينيه مع أول شعاع يضىء أعلى الصخرة، فقام من فوره كى يصل إلى الجبل قبل أن يعبر الخلاء عابر. لكن بصره انجذب نحو البقعة التى دفن فيها قدرة قبل أن يهم بالسير. ارتعدت فرائصه وهو ينظر إليها حتى جف ريقه ثم فر بنفسه وهو فى ضيق شديد. ما قتل إلا مجرمًا، لكنه بدا كالمطارد وهو يبتعد عن قبره. وقال لنفسه: «لم نخلق لنقتل وإن فاق عدد قتلانا الحصر». وعجب لنفسه كيف أنه لم يجد مكانًا ينام فيه إلا المكان الذى دفن فيه قتيله! وشعر برغبته فى الابتعاد تتضاعف، وأن عليه أن يودع إلى الأبد من يحب ومن يكره على السواء، أمه وحمدان والفتوات إلى الأبد. وبلغ سفح المقطم ونفسه تفيض بالأسى والوحشة، فسار معه نحو الجنوب حتى بلغ سوق المقطم وسط الضحى. وألقى نظرة طويلة إلى الخلاء وراءه وقال فى شىء من الاطمئنان: «الآن بعد ما بينى وبينهم».

وراح يتفحص سوق المقطم أمامه، ذلك الميدان الصغير الذى تصب فيه جملة حوارى من جميع نواحيه، وتتصاعد من جنباته ضوضاء عالية تختلط فيها أصوات الآدميين بنهيق الحمير. وكان ثمة ما يدل على مولد يقام، لازدحام الميدان بالمارة والباعة والمجذوبين والدراويش والمهرجين على الرغم من أن حركة المولد الحقيقية لا تبدأ قبل الغروب، فتنقلت عيناه بين أمواج البشر المتلاطمة. . ورأى عند حافة الخلاء كوخًا من الصفائح صُفَّت حوله مقاعد خشبية فبدا على حقارته أصلح مقهى في السوق وأحفله بالزبائن، فاتجه نحو مقعد خال وجلس بجسم اشتد حنينه إلى الراحة. وأقبل نحوه صاحب الكوخ محتفلاً بمظهره المتميز بين الجلوس بعباءة فاخرة وعمامة عالية ومركوب ثمين فطلب قدح شاى وراح يتسلى بمتابعة الناس.

وما لبث أن جذب سمعه ضوضاء اشتدت حول كشك حنفية مياه عمومية، رأى الناس يتزاحمون أمامها ليملأوا أوعيتهم بالماء، وكان التزاحم كالقتال عنفًا وضحايا، فارتفع الصخب وتهاوت اللعنات، ثم ندت صرخات رفيعة حادة من الوسط عن فتاتين غرقتا في لجة الزحام وراحتا تتراجعان لتنجوا بنفسيهما حتى خرجتا من المعترك بصفيحتين فارغتين. بدتا في جلبابين فاقعي الألوان ينسدلان على جسميهما من العنق حتى الكعبين، فلم يظهر منهما إلا وجهان يزهر فيهما الشباب. مرت عيناه بأقصرهما دون توقف، ثم ثبتتا على الأخرى ذات العينين السوداوين فلم تتحولا عنها.

أقبلتا نحو مكان خال قريب من مجلسه فتبين في ملامحهما شبهاً أخويًا على تميز جاذبته بقسط أوفر من الحسن، فقال جبل لنفسه منتشيًا: «ما أبدع هذه الملاحة! لم تقع عيناى على مثلها في حارتنا». وقفتا تسويان ما تشعث من شعريهما وتعيدان الخمار إلى رأسيهما، ثم وضعتا الصفيحتين مقلوبتين وجلستا عليهما والقصيرة تقول متشكة:

\_ كيف غلا الصفيحة في هذا الزحام؟

فقالت جاذبته:

\_المولد أجارك الله! وأبونا الآن ينتظر غاضبًا!

فدخل جبل في الحديث دون وعي منه متسائلاً:

ـ لماذا لم يحضر بنفسه ليملأ الصفيحتين؟

فالتفتتا نحوه باحتجاج، ولكن منظره المتميز لم يخل من أثر مسكن فاكتفت فتاته بأن قالت :

\_ما شأنك أنت؟! هل شكونا إليك؟!

فسر جبل بخطابها وقال معتذرًا:

\_أردت أن أقول إن الرجل أقدر على اقتحام زحام المولد!

- هذا عملنا، وله عمل أشق.

فتساءل مبتسمًا:

\_ماذا يعمل أبوك؟

\_ هذا ليس من شأنك.

وقام جبل غير مبال بالأعين المحدقة حوله، حتى وقف أمامهما وقال بأدب:

\_ سأملأ لكما الصفيحتين.

فقالت جاذبته وهي تدير عنه وجهها:

ـ لسنا في حاجة إليك!

ولكن القصيرة قالت بجرأة:

\_افعل ولك الشكر.

وقامت وهي تشد الأخرى لتقوم معها فتناول جبل الصفيحتين من مقبضيهما، وسار بجسمه القوى، يشق الزحام، ويرتطم بالرجال، ويلاقى الجهد، حتى بلغ الحنفية التى يجلس وراءها الساقى في كشكه الخشبى، فنقده مليمين، وملأ الصفيحتين وعاد بهما نحو موقف الفتاتين. وأزعجه أن يجد الفتاتين مشتبكتين مع بعض الشبان في معركة كلامية بسبب معاكستهم لهما، فوضع الصفيحتين على الأرض، وتصدى للشبان مهدداً. وتحرش به أحدهم ولكنه صرعه بضربة في صدره فتجمع الشبان للهجوم عليه وهم يسبونه، غير أن صوتًا غريبًا صاح بهم:

- اذهبوا يا شين الرجال.

اتجهت الأبصار نحو رجل كهل، قصير مدمج الجسم، براق العينين، يشد جلبابه على وسطه بحزام فهتفوا خجلين: «المعلم البلقيطي»؟! وسرعان ما تفرقوا وهم يرمقون جبل بحنق. ولاذت الفتاتان بالرجل والقصيرة تقول:

- اليوم عسير بسبب المولد وهؤلاء الأوغاد.

فقال البلقيطي يجيبها وهو يتفحص جبل:

ـ تذكرت المولد لتأخيركما فجئت، جئت في الوقت المناسب.

ثم خاطب جبل قائلاً:

\_ وأنت من أهل الشهامة وما أندرهم في أيامنا!

فقال جبل في حياء:

ـ ما هي إلا مساعدة تافهة لا تستحق شكراً.

فى أثناء ذلك حملت الفتاتان الصفيحتين وغادرتا المكان صامتتين. ود جبل بأن يملأ من المليحة عينيه ولكنه لم يجرؤ على نزعهما من عينى البلقيطى الحادتين. خيل إليه أن هذا الرجل يستطيع أن يرى الأعماق فخشى أن يقرأ رغائبه، ولكن المعلم قال:

دفعت عنهما الأشرار، أمثالك يستحقون الحب، وهؤلاء الشبان كيف تجرءوا على التحرش بابنتي البلقيطي؟ إنها البوظة! ألم تلحظ أنهم سكارى؟!

فهز جبل رأسه نفيًا، فقال الآخر:

- إني أشم كالجن الأحمر، ما علينا، ألا تعرفني؟

- كلا يا معلم، لم يحصل لى هذا الشرف.

فقال ىثقة:

\_إذن فأنت لست من هذه الناحية؟

\_نعم.

\_أنا البلقيطي الحاوي.

وأضاء وجه جبل بنور التذكر المباغت، فقال:

ـ حصل لنا الشرف، كثيرون يعرفونك في حارتنا.

ـ وما حارتكم؟

ـ حارة الجبلاوي.

فرفع البلقيطي حاجبيه الخفيفين الأبيضين وقال بصوت منغوم:

\_ أنعم وأكرم، منذا الذي يجهل الجبلاوي صاحب الوقف؟ أو فتوتكم زقلط! وهل جئت للمولديا معلم . . . ؟

ـ جبل .

ثم قال بمكر:

\_ جئت أبحث عن مقام جديد.

ـ هجرت حارتك؟

\_نعم..

فاشتد تفحص البلقيطي له، ثم قال:

ـ ما دام يوجد فتوات فلا بدأن يوجد مهاجرون! ولكن خبّرني أقتلت رجلاً أم امرأة؟ فانقبض قلب جبل وقال بثبات:

\_مزاحك ليس لطيفًا مثلك!

فضحك البلقيطي عن فم خرب وقال:

ـ لست من الرعاع الذين يعبث بهم الفتوات، ولا أنت من أهل السرقة، فمثلك لا يهاجر من حارته إلا بسبب القتل!

فقال جبل بحدة وضيق:

\_ قلت لك. .

فقاطعه قائلاً:

ـ يا سيدى أنا لا يهمنى أن تكون قاتلاً وبخاصة بعد أن ثبتت لى شهامتك. ما من رجل هنا إلا وقد سرق أو نهب أو قتل. ولكى تطمئن إلى صدق قولى فإنى أدعوك إلى فنجان قهوة ونفسين فى دارى!

فعاود الأمل جبل وقال:

\_حبّا وشرفًا.

سارا جنبًا إلى جنب يخترقان السوق نحو حارة قلة، وعندما خلفا الزحام وراءهما سأله البلقيطي:

- أكنت تقصد أحدًا في حينا؟

ـ لا أعرف أحداً.

\_ و لا مأوى؟

ـ ولا مأوى.

فقال البلقيطي في انبساط:

\_كن ضيفي إذا شئت حتى تجد لنفسك مأوى.

فرقص قلب جبل فرحًا وقال:

\_ ما أنبلك يا معلم بلقيطي!

فقال الرجل ضاحكًا:

ـ لا تعجب لذلك، في دارى تقيم الثعابين والحيات فكيف تضيق عن إنسان؟! هل أفزعك قولي؟ إنى حاو وستعرف عندي كيف تستأنس الثعابين!

عبرا الحارة فانتهيا إلى خُلاء لا يحد. ورأى جبل في مطلع الخلاء دارًا صغيرة بعيدة عن الحارة، جدرانها أحجار غير مطلية، لكنها تعتبر جديدة بالقياس إلى بيوت حارة قلة المتداعية، فأشار البلقيطي إليها وقال بفخار:

- بيت البلقيطي الحاوي.

#### 3 3

ولما بلغا البيت قال البلقيطي:

ـ اخترت هذا المكان المنعزل لبيتي لأن الناس لا يرون في الحاوي إلا ثعبانًا كبيرًا.

دخلا معًا إلى دهليز غير قصير يفضى في نهايته إلى حجرة مغلقة، على حين قامت على الجانبين حجرتان مغلقتان. وأردف البلقيطي وهو يشير إلى الحجرة المواجهة للداخل:

ـ في هذه الحجرة توجد أدوات العمل، الحي منها والجامد، لا تخش شيئًا

فبابها محكم الإغلاق ، أؤكد لك أن الثعابين أصلح للمعاشرة من أناس كثيرين ، كالذين فررت منهم مثلاً!

ثم ضحك كاشفًا عن فيه الخرب وقال:

- الناس تخاف الثعابين، حتى الفتوات تخافها، أما أنا فأدين لها برزقي، وبفضلها أقمت هذا البيت.

وأشار إلى الحجرة اليمني وهو يقول:

- هنا تنام ابنتاى، ماتت أمهما من زمن تاركة إياى لشيخوخة لا تصلح للزواج من جديد. (ثم أشار إلى اليسرى) وهنا سننام معًا.

وترامى صوت الفتاة القصيرة من سلم جانبي يصعد إلى السطح وهي تنادى:

ـ شفيقة ساعديني في الغسيل ولا تقفي هكذا كالحجر بلا عمل. فصاح البلقيطي:

\_ يا سيدة! صوتك سيوقظ الثعابين، وأنت يا شفيقة لا تقفى كالحجر!

اسمها شفيقة؟! ما أبدع المليحة! وزجرها غير الجارح. والشكر الصامت في عينيها السوداوين. من يخبرها بأنه ما قبل هذه الضيافة الخطيرة إلا من أجل عينيها؟

ودفع البلقيطى باب الحجرة اليسرى وأوسع لجبل حتى دخل ثم تبعه ورد الباب. ومضى الرجل إلى كنبة تمتد بطول الحجرة الصغيرة في جانبها الأين، متأبطًا ذراع جبل حتى جلسا معًا. وأحاط جبل بالحجرة بنظرة واحدة، فرأى فراشًا في الجانب الآخر مغطى ببطانية ترابية اللون، وفي أرض الحجرة فيما بين الفراش والكنبة حصيرة مزركشة تتوسطها صينية نحاس حال لونها من كثرة البقع، ويرقد وسطها موقد هرمى الرماد، مركونة إلى قائمة جوزة، وعلى مسطح حافته سيخ وكماشة وحفنة من معسل جاف. ولم يكن يرى من النافذة الوحيدة المفتوحة إلا الخلاء والسماء الشاحبة وجدارًا شاهقًا داكنًا عن بعد من جدران المقطم، على حين ورد منها خلال الصمت المخيم زعيق راعية ونسائم مشبعة بحرارة الشمس الساطعة. وكان البلقيطي يتفحصه لحد المضايقة ففكر في أن يشغله عن نفسه بالحديث ولكن السقف فوقهما اهتز لوقع أقدام تمشى فوق السطح فاهتز قلب جبل. تخيل أول ما تخيل قدميها ففاض قلبه برغبة كريمة في أن تحل السعادة بالبيت ولو انطلقت ثعابينه، وقال لنفسه: «قد يغتالني هذا الرجل ويدفنني في الخلاء كما بالبيت ولو انطلقت ثعابينه، وقال لنفسه: «قد يغتالني هذا الرجل ويدفنني في الخلاء كما بالبيت ولو انطلقت ثعابينه، وقال لنفسه: «قد يغتالني هذا الرجل ويدفنني في الخلاء كما بالبيت ولو انطلقت ثعابينه، وقال لنفسه: «قد يغتالني هذا الرجل ويدفنني في الخلاء كما بالبيت ولو انطلقت ثعابينه، وقال لنفسه: «قد يغتالني».

وأيقظه صوت البلقيطي وهو يسأله:

ـ هل لك عمل؟

فأجابه وهو يتذكر آخر نقود يملكها في جيبه:

ـ سأجد عملاً، أي عمل.

ـ لعلك في غير حاجة عاجلة إلى عمل؟

فداخله شيء من القلق لهذا السؤال وقال:

ـ بل يحسن بي أن أبحث عن عمل اليوم قبل الغد!

ـ لك جسم فتوات!

ـ لكني أكره العدوان!

فضحك البلقيطي وتساءل:

ـ ماذا كنت تعمل في الحارة؟

فتردد قليلاً ثم قال:

\_ كنت أعمل في إدارة الوقف.

ـ يا خبر أسود! وكيف تهجر هذا النعيم؟

\_حظى!

ـ هل طمعت عينك في إحدى الهوانم؟

\_ اتق الله يا شيخ .

\_إنك شديد الحذر، ولكنك ستأنس إلىّ سريعًا وتفضى لي بكل أسرارك.

\_ إن شاء الله.

ـ معك نقود؟

فعاوده القلق ولكنه لم يكشف عنه وقال ببراءة:

ـ عندى قليل منها لن يغنى عن السعى.

فقال البلقيطي وهو يرمش:

ـ أنت ذكى كالعفاريت، ألا تدرى أنك تصلح حاويًا؟ لعلنا نتعاون معًا، لا تدهش لقولي، فإنى عجوز في حاجة إلى المعين.

لم يأخذ قوله مأخذ الجد ولكنه كان مدفوعًا برغبة عميقة إلى توثيق صلته به، وهمّ بأن يتكلم ولكن الآخر بادره قائلاً:

\_ سنفكر في ذلك على مهل، أما الآن . .

ونهض الرجل، ومال فوق الموقد فرفعه، ومضى به خارجًا كأنما ليشعله.

\* \* \*

وقبيل العصر خرج الرجلان معًا، فمضى البلقيطي إلى تجواله، وقصد جبل السوق للفرجة والتسوق. وعاد مع المساء إلى الخلاء فاهتدى إلى البيت المنعزل على بصيص نور

ينبعث من نافذة. ولما بلغ البيت ترامت إلى أذنيه أصوات محتدمة في نقاش فلم يملك إلاّ أن يصغى. سمع سيدة تقول:

\_ إن صح ما تقول يا أبي فإن وراءه جريمة ونحن لا قبل لنا بفتوات الحارة.

فقالت شفيقة:

ـ لا يبدو أنه مجرم!

فقال البلقيطي بسخرية واضحة:

\_وهل عرفته لهذا الحديا بنت الأفاعي؟

فقالت سيدة:

\_ لماذا يهرب من النعيم؟

فقالت شفيقة:

\_ليس عجيبًا أن يهرب الإنسان من حارة اشتهرت بكثرة فتواتها!

فتساءلت سيدة بسخرية:

\_من أين أتتك هذه القدرة على معرفة الغيب؟

فقال البلقيطي متنهداً:

\_معاشرة الثعابين جعلتني أنجب حيتين!

\_أتستضيفه يا أبي وأنت لا تدري عنه شيئًا؟

ـ عرفت عنه أشياء، وسأعرف كل شيء. لي عينان يعتمد عليهما عند الحاجة، ثم استضفته متأثراً بشهامته ولن أرجع عن رأيي.

ما كان يتردد عن الذهاب في غير هذا الظرف. ألم يهجر بيت النعيم بلا تردد؟ ولكنه يذعن للقوة التي تشده إلى هذا البيت. وطرب منه الفؤاد حتى سكر لسماع الصوت الذى دافع عنه. صوت الحنان الذى بدد وحشة الليل والخلاء وجعل الهلال السابح فوق الجبل يبتسم كمن يزف بشرى في الظلام. ولبث ينتظر في الظلام، ثم سعل، وأقبل نحو الباب فطرقه. فتح الباب عن وجه البلقيطي الذي انعكس عليه ضوء المصباح في يده. وذهب الرجلان إلى حجرتهما فجلس جبل بعد أن ترك فوق الصينية النحاس لفة جاء بها. ونظر البلقيطي إلى اللفة متسائلاً فقال جبل:

ـ تمر وجبن وحلاوة طحينية وطعمية ساخنة.

فابتسم البلقيطي، وجعل يشير إلى الجوزة تارة وإلى اللفة أخرى ويقول:

ـ خير الليل ما مضى بين هذا وذاك.

وربت كتفه متوددًا وهو يتساءل:

- أليس كذلك يا بن الواقف؟

وانقبض قلبه على رغمه، وتوالت على مخيلته صور الهانم التى تبنته والحديقة الغناء بأعراش الياسمين والعصافير والمياه الجارية، والطمأنينة والسلام والأحلام الناعمة، دنيا النعيم الزائلة، حتى أوشكت الحياة أن تفسد. وإذا بموجة تدفع ذكرياته الغارقة فى الأسى إلى بر الأمان إلى هذه الصبية الودودة الطيبة، إلى القوة الساحرة التى تشده إلى بيت فيه وكر للثعابين، فقال بحماس غير متوقع كتوهج مصباح أثر هبة نسيم:

\_ما أطيب الحياة في جوارك يا عم!

# ٥٣

لم يعطف عليه النوم إلا قبيل الفجر إذ عانى من الخوف كثيراً. وزاره طيفها فى هلوسة المخاوف كما تساقط أوراق الياسمين على حشائش جافة تسعى بينها الحشرات. كابد الأوهام التى تلدها الظلماء فى البيت الغريب. وقال لنفسه فى الظلام: «ما أنت إلا غريب فى بيت الثعابين، تطاردك جريمة ويهتز قلبك بالعشق». ولو ترك وشأنه ما رغب فى غير السلام والدعة. وما خاف الثعابين قدر خوفه الغدر من ناحية ذلك الرجل الذى يتعالى شخيره فى فراشه، فمن أدراه أن شخيره صادق؟ وما عاد يطمئن إلى صدق شىء. حتى دعبس المدين له بحياته ستذيع حماقته السر فيثور زقلط وتبكى أمه وتندلع النيران فى الحارة التعيسة. والحب الذى شده إلى هذا البيت، وإلى حجرة رفيقه مروض الثعابين، من أدراه أنه سيعيش حتى يصرح بمكنونه. هكذا لم يعطف عليه النوم إلا قبيل الفجر بعد أن عانى من الخوف كثيراً.

وفتح عينيه المثقلتين عندما نضحت النافذة المغلقة بنور الصباح. رأى البلقيطى جالسًا فى فراشه متقوس الظهر، يدلك بيديه المعروقتين ساقيه تحت الغطاء. وابتسم فى ارتياح على رغم الدوخة الملمة برأسه لقلة النوم. لعن الأوهام التى تعشش فى الرأس فى الظلام وتتبدد فى النور كالخفافيش. أليست أوهامًا جديرة بسوء ظن قاتل؟ أجل، إن أسرتنا المجيدة تجرى فى دمائها الجريمة منذ القدم. وسمع البلقيطى يتثاءب بصوت مرتفع متماوج كالحية الراقصة فهاج صدره وراح يسعل طويلاً بشدة حتى خيل إليه أن وجهه سيلفظ عينيه. ولما سكت السعال تأوه الرجل من الأعماق فقال جبل:

ـ صباح الخير .

وجلس على الكنبة فالتفت البلقيطي نحوه ووجهه ما زال محتقنًا من السعال وقال:

- صباح الخير يا معلم جبل، يا من لم ينم من الليل إلا أقله.
  - \_لعل وجهي متغير؟
- ـ بل أذكر تقلبك في الظلام والتفاتات رأسك نحوى كالخائف!

يا لك من ثعبان! ولكن كن ثعبانًا غير سامٌّ وحق العينين السوداوين!

- الحق إنى أرقت لتغيير مكان النوم.

فضحك البلقيطي قائلاً:

- أرقت لسبب واحد وهو أنك كنت تخافني على نفسك، قلت سيقتلني ويسلبني نقودي ثم يدفنني في الخلاء كما فعلت أنا بالرجل الذي قتلته.

\_أنت. .

-اسمع يا جبل، الخوف شديد الإيذاء، والثعبان لا يلدغ إلا عند الخوف!

فقال جبل في انهزام خفي:

- \_ إنك تقرأ ما ليس في الصدور .
- \_إنك تعلم أنني ما جاوزت الحق يا موظف الوقف السابق!

وترامى صوت من الداخل ينادى بقوة: «يا سيدة تعالى». فشعشع روحه بانبساط غير متوقع. هذه الحمامة الزجالة في وكر الثعابين، التي قضت له بالبراءة وجذبته إلى شجرة الآمال المورقة. وقال البلقيطي وكأنه يعلق على نشاط شفيقة:

- النشاط يدب في بيتنا منذ الصباح الباكر، فتنطلق هاتان البنتان إلى الطريق لتعودا بالماء والمدمس لتطعما أباهما العجوز ثم ترسلاه بجراب الثعابين ليلتقط لنفسه ولهما الرزق.

وحلت السكينة بقلبه، وشعر بأنه عضو في هذه الأسرة، وفاضت نفسه بالمودة، فنزع إلى فتح صدره والتسليم إلى مقاديره في عفوية لا تقاوم فقال:

\_ يا معلم ، بالحق سأقص عليك قصتى .

فابتسم البلقيطي وتشاغل بتدليك ساقيه فعاد جبل يقول:

ـ إنى قاتل كما قلت، ولكن لى قصة.

وقص عليه قصته. ولما فرغ قال الرجل:

ـ يا لهم من قوم ظالمين! أما أنت فرجل شهم ولم يخب نظري فيك.

واعتدل في جلسته باعتزاز ثم قال:

ـ من حقك الآن أن أبادلك صراحة بصراحة، فاعلم أنى أنتسب في الأصل إلى حارة الجبلاوي.

\_أنت؟!

ـ نعم، وفررت منها في صدر الشباب ضيقًا بفتواتها!

فقال جبل والدهشة لم تزايله بعد:

\_هم شقاء حارتنا.

ـ نعم، لكننا لا ننسى حارتنا على رغم فتواتها ، ولذلك أحببتك عندما عرفت أصلك.

\_ من أي حيّ كنت؟

\_من حي آل حمدان مثلك.

\_ياللعجب!

ـ لا تعجب لشيء في هذه الدنيا، لكنه تاريخ مضى من بعيد، فلا أحد يعرفني الآن ولا تمر حنة نفسها التي تربطني بها صلة قربي.

\_أعرف هذه السيدة الشجاعة، ولكن من كان غريمك من الفتوات؟ زقلط؟

\_لم يكن في ذلك العهد إلا فتوة حيّ حقير.

\_قلت هم شقاء حارتنا!

\_ ابصق على الماضي بكل ما فيه .

ثم بلهجة فيها إغراء:

- اشغل نفسك منذ الساعة بمستقبلك، وهأنذا أكرر لك القول بأنك تصلح حاويًا ماهرًا، ولنا مجال مريح في الجنوب من هنا بعيدًا عن حارتنا، وعلى أي حال ففتواتكم وأتباعهم لا يظهرون في هذا الحي.

لم يكن بطبيعة الحال يدرى شيئًا عن فن الحواة ولكنه رحب به باعتباره الوسيلة التي ستلصقه بهذه الأسرة، فتساءل بنبرات فضحت رضاه :

ـ أترانى أصلح حقا لذلك؟

فوثب الرجل إلى الأرض في سرعة بهلوانية ووقف أمامه بجسمه القصير وقد كشف طوق جلبابه عن شعر كث أبيض وقال:

\_أنت موافق، لم يخب نظرى في شيء قط.

ومدله يده فتصافحا ثم قال الرجل:

\_أصارحك بأنى أحبك أكثر من أى ثعبان عندى.

فضحك جبل في نشوة طفل، وشد على يد الرجل ليمنعه من الذهاب حتى وقف متسائلاً ثم قال باندفاع لم تجد حيلة في منعه:

ـ يا معلم، جبل يطلب القرب منك.

فابتسمت عينا البلقيطي المحمرتين وتساءل:

\_حقا؟!

ـ نعم ورب السماوات!

فضحك البلقيطي ضحكة قصيرة وقال.

\_كنت أتساءل متى يا ترى يفاتحنى فى ذلك! نعم يا جبل فلست أحمق، ولكنك الرجل الذى أعهد إليه بابنتى مطمئنا، ومن حسن الحظ أن سيدة فتاة ممتازة كما كانت المرحومة أمها!

واعترى ابتسامة الابتهاج في فم جبل ارتباك غير خاف كما يعترى أطراف الزهرة اليانعة الذبول، وخاف أن يتبدد حلمه بعد أن صار في قبضته وغمغم:

\_لكن..

فقهقه البلقيطي قائلاً:

\_ لكنك تطلب شفيقة! أعلم هذا يا بن والدى، أخبرتنى به عيناك وحديث الصغيرة ومعاشرة الثعابين والحيّات، فلا تؤاخذنى فهذه هى طريقة الحواة فيما يعقدون من اتفاقات.

تنهد جبل من صميم القلب، وشعر ببرد الطمأنينة والسلام، ووثبت بصدره مشاعر فتوة وحماسة وانطلاق، حتى بيت النعيم لم يعد يبالى به، ولا الجاه المولى، ولم يعد يخاف ما ينتظره من كد ومرمطة، فليسدل على الماضى ستارًا لا ينضح بضوء، وليبتلع النسيان المتاعب والآلام الماضية كافة، وليبتلع فيما يبتلع حنان القلب إلى الأمومة الضائعة.

في الضحي زغردت سيدة.

وسرى النبأ السعيد في الحواري المجاورة.

ثم شهد سوق المقطم وحيّه زفة جبل.

#### 37

قال البلقيطي بلهجة انتقاد ساخرة:

ـ لا يجمل بالرجل أن يركن إلى حياة الأرنب و الديك! وها أنت ذا لم تتعلم شيئًا وأوشكت نقودك أن تفرغ! كانا يجلسان على فروة أمام باب الدار ، وكان جبل يمد ساقيه على الرمال المشمسة تلوح في عينيه الغبطة والدعة فالتفت إلى حميه وقال باسمًا :

ـ عاش أبونا أدهم ثم مات وهو يتمنى الحياة البريئة اللاهية في الحديقة الغناء!

فضحك البلقيطي ضحكة مرتفعة ونادي بأعلى صوته:

ـ يا شفيقة! أدركي زوجك قبل أن يقتله الكسل.

فظهرت شفيقة على عتبة الباب وهي تنقّى عدسًا في طبق على يدها وقد لفّت رأسها بخمار أرجواني أكد صفاء وجهها. تساءلت دون أن ترفع عينيها عن الطبق:

\_ماله يا أبي؟

يتمنى شيئين: «رضاك وحياة بلا عمل».

فضحكت متسائلة في إنكار:

ـ وكيف يجمع بين إرضائي وقتلي جوعًا؟

فقال جبل:

ـ هذا سر الحاوي!

فلكزه البلقيطي في جنبه قائلاً:

ـ لا تستهن بأشق المهن. كيف تخفى بيضة فى جيب متفرج وتستخرجها من جيب آخر في الصف الذي يقابله؟ كيف تحول البلْي إلى كتاكيت؟ كيف ترقص الحية؟

فقالت شفيقة التي بدت منوّرة بالسعادة:

\_علّمه يا أبي، إنه لم يعرف من الحياة إلا الجلوس على مقعد وثير في إدارة الوقف. فقام البلقيطي وهو يقول: «جاء وقت العمل». ثم دخل البيت. وراح جبل يتأمل زوجه بإعجاب ويقول:

\_زوجة زقلط دونك في الملاحة ألف درجة لكنها تقطع النهار على أريكة ناعمة ، والأصيل في الحديقة تستنشق عبير الفل وتلهو بالمياه الجارية .

فقالت بسخرية ومرارة معًا:

\_هذا حال المتخمين بأرزاق الناس.

فهرش جانب رأسه متفكراً وقال:

\_ ولكن هنالك سبيلا إلى السعادة الشاملة .

ـ لا تحلم، لم تكن حالما عندما نهضت للأخذ بيدى في السوق، ولم تكن حالما عندما طردت عني ذباب البشر، ولذلك دخلت قلبي .

فاشتاق أن يقبلها. ولم يهون من قيمة كلامها اقتناعه بأنه يعرف أكثر منها. وقال:

- \_أما أنا فأحببتك دون ما سبب.
- ـ في هذه الحواري من حولنا لا يحلم إلا المجانين.
  - \_ماذا تريدين مني يا حلوة؟
    - ـ أن تكون مثل أبي.
      - فتساءل معاتبًا:
  - \_وهذه الحلاوة تقطر منك ما شأنها؟
- فانفرجت شفتاها عن ابتسامة وأسرعت أصابع يدها بين حبات العدس.
- \_عندما فررت من الحارة كنت أشقى الناس جميعًا، ولكن لولا ذلك ما تزوجتك! فضحكت قائلة:
- \_ نحن مدينان في سعادتنا لفتوات حارتك كما يدين أبي في رزقه للحيّات والثعابين . فتنهد جبل قائلاً :
- \_ومع ذلك فقد آمن خير من عرفته حارتنا من أبنائها بأنه يوجد سبيل يكفل الرزق للناس وهم في الحدائق يغنون.
  - \_رجعنا! ها هو ذا أبي قادم بجرابه، قم رعاك الله.
- وجاء البلقيطي بجرابه وقام جبل ومضى الاثنان في طريقهما المعهود. وجعل البلقيطي يقول له:
- \_ تعلم بعينيك كما تتعلم بعقلك، انظر ماذا أفعل ولا تسألني أمام أحد من الناس، واصبر حتى أوضح لك ما يغمض عليك فهمه.

ووجد جبل الحرفة شاقة حقا، ولكنه لم يستهن بها من أول الأمر ووطن نفسه على الحذق فيها مهما كلفه الجهد. والواقع أنه لم يكن أمامه من مهنة أخرى إلا أن يرضى بمهنة بائع جوال أو الفتونة أو اللصوصية وقطع الطريق. لم تكن الحوارى في حيّه الجديد لتختلف عن حارته في شيء عدا الوقف والقصص التي نشأت حوله. وقد رسبت في قرارة نفسه حسرة متخلفة من أحلام الماضي وذكريات المجد الغابر والآمال التي يتعذب بسببها آل حمدان كما تعذب أدهم من قبل. وكان مصممًا على النسيان بإلقاء نفسه في خضم الحياة الجديدة وتقبلها وفتح الصدر لها، واللواذ بزوجه المحبة المحبوبة كلما خطر له خاطر حزن أو هوان في تجواله. وتفوق على أحزانه وذكرياته وبرع في تعليمه حتى أدهش البلقيطي نفسه.

كان يواصل التدريب في الخلاء ويعمل في النهار والليل، وتمضى الأيام والأسابيع والأشهر فلا تهن له عزيمة ولا يدركه الكلال. وقد عرف الحواري والأزقة. واستأنس

الثعابين والحيّات. ولعب أمام آلاف الصبية. وذاق حلاوة النجاح والربح. وتلقى بشرى الأبوة المقبلة. واستلقى على ظهره يرعى النجوم حين الراحة. وسهر الليالى يتجاذب مع البلقيطى الجوزة ويقص القصص التى كانت الرباب ترويها بقهوة حمدان. وتساءل: من حين إلى حين أين الجبلاوى؟ وإذ أشفقت شفيقة من أن يفسد عليه الماضى حياته هتف بها: إلى هؤلاء ينتسب الشيء الذى فى بطنك، وآل حمدان آله، والأفندى رأس الاغتصاب كما أن زقلط رأس الإرهاب، فكيف تطيب الحياة وبها أمثال أولئك؟

\* \* \*

ويومًا كان يعرض ألاعيبه في زينهم وسط حلقة محكمة من الصغار. ولاحت منه التفاتة فرأى أمامه دعبس وقد شق سبيله إلى الصف الأمامي وراح يحملق فيه بذهول. اضطرب جبل وتجنب النظر إلى وجهه ولم يعد بمستطاعه أن يواصل عمله فأنهاه على رغم احتجاج الصغار، ورفع جرابه ومضى وما لبث أن لحق به دعبس وهو يصيح:

\_ جبل! أهذا أنت يا جبل؟!

فتوقف عن السير ملتفتًا إليه وقال:

\_نعم، ماذا جاء بك يا دعبس؟

ولم يفق دعبس من دهشته وجعل يقول:

\_ جبل حاو؟! متى تعلمت هذا؟ وأين؟

فقال جبل باستهانة:

\_ليس هذا بأعجب ما يقع في هذه الدنيا.

وسار جبل والآخر يتبعه حتى بلغا سفح الجبل ثم جلسا في ظل نتوء، ولم يكن بالمكان إلا أغنام ترعى وراع جلس عاريًا يفلّي جلبابه. وتفرس دعبس في صاحبه وقال:

- لماذا هربت يا جبل؟ كَيف ساء ظنك بي حتى توقعت أن أخونك؟ والله ما أخون أحدًا من آل حمدان ولو يكون كعبلها! ولحساب من أخونك؟ الأفندي أم زقلط؟! فليحرقهم رب السماوات جميعًا، كم سألوا عنك كثيرًا، وكنت أسمعهم يسألون فأغرق في عرقي .

فسأله جبل باهتمام:

ـ خبِّرني كيف تعرض نفسك للانتقام بالتسلل من ربعك؟

فلوح دعبس بيده في استهانة قائلاً:

رفع الحصار عنا من زمن، لم يعد أحد يسأل اليوم عن قدرة أو قاتله، ويقال إن هدى هانم هي التي أنقذتنا من الموت جوعًا، ولكن قضى علينا بالذل إلى الأبد، ولا مقهى

لنا ولا كرامة. نسعى فى أعمالنا بعيداً عن حارتنا وإذا عدنا توارينا وراء الجدران، وإذا عثر على أحدنا اليوم أكرم عليهم منا يا جبل. . ما أسعدك فى غربتك!

فقال جبل بامتعاض:

\_ دع سعادتي في شأنها وخبّرني ألم يصب أحد بسوء؟

فقال دعبس وهو يتناول طوبة ويضرب بها الأرض:

\_قتلوا منا عشرة في عهد الحصار!

\_ يا رب السماوات!

ـ ذهبوا فداء لقدرة الحقير ابن الحقيرة، ولكنهم ليسوا من أصحابنا!

فقال جبل بحنق:

- ألم يكونوا من آل حمدان يا دعبس؟

فرمش دعبس وتحركت شفتاه بعذر غير مسموع، فعاد جبل يقول:

\_والآخرون ينعمون بالصفع والبصق.

وشعر الرجل بأنه مسئول عن الأرواح التي زهقت، وعصر الألم قلبه. ووجد ندمًا داميًا على كل لحظة سلام مرت به منذ هجرته. ودهمه دعبس بقوله:

ـ لعلك الوحيد السعيد اليوم من آل حمدان.

فهتف:

ـ لم أكف يومًا عن التفكير فيكم.

\_لكنك بعيد عن الهم والغم.

فقال بحدة:

\_لم أفلت من الماضي قط.

ـ لا تبدد راحة بالك بلا أمل، ولم يعد لنا أمل.

فردد جبل قوله الأخير ولكن في نبرات غامضة:

\_لم يعدلنا أمل!

فرمقه دعبس باهتمام مستطلعًا ولكنه لم ينبس احترامًا للحزن المرسوم على وجهه. ونظر إلى الأرض فرأى خنفساء تدب مسرعة حتى اختفت تحت كومة أحجار. وكان الراعى ينفض جلبابه ليغطى جسده الذى ألهبته الشمس. وعاد جبل يقول:

\_ في الحق لم أكن سعيدًا إلا في الظاهر.

#### فقال مجاملاً:

- \_ إنك تستحق السعادة عن جدارة .
- ـ تزوجت واتخذت لنفسي عملاً جديداً كما ترى وما برح نداء خفي يلح في إقلاق منامي .
  - فليباركك الله، أين تقيم؟
  - لم يجبه. وبدا وكأنه يخاطب نفسه. ثم قال:
    - ـ لا تطيب الحياة وبها أمثال أولئك الأوغاد.
      - ـ صدقت، ولكن كيف التخلص منهم؟

ارتفع صوت الراعى وهو ينادى أغنامه، ويسير نحوها متأبطًا عصاه الطويلة، ثم ترامى عنه لحن غناء غير واضح. وتساءل دعبس:

- كيف أستطيع أن ألقاك؟
- ـ سل عن بيت البلقيطي الحاوي عند سوق المقطم ولكن اكتم خبري إلى حين.
  - ونهض دعبس فشد على يده ومضى والآخر يتابعه بعينين محزونتين.

#### 3

أوشك الليل أن ينتصف. وكادت حارة الجبلاوى تغرق فى الظلمة لولا أضواء وانية تتسلل من أبواب المقاهى المواربة اتقاء للبرد. ولم يلح فى سماء الشتاء نجم واحد وتوارى الغلمان فى الحجرات وحتى الكلاب والقطط آوت إلى الأفنية. ومن خلال الصمت الشامل انبعثت أنغام الرباب الرتيبة تردد الحكايات، أما حيّ آل حمدان فقد تلفع بظلمة خرساء. وجاء شبحان من ناحية الخلاء، فسارا تحت سور البيت الكبير، ثم مرّا أمام بيت الأفندى، قاصدين حيّ آل حمدان، حتى وقفا أمام الربع الأوسط وطرق أحدهما الباب، فرنّ الطرق فى الصمت مثل قرع الطبول. وفتح الباب عن وجه حمدان نفسه الذى بدا شاحبًا على ضوء سراج بيده ورفع السراج ليتبين وجه الطارق، وما عتم أن الفي دهشة:

- \_ جبل؟!
- \_ وتنحى عن الباب فدخل جبل حاملاً بقجة كبيرة وجرابًا، وتبعته زوجه حاملة بقجة أخرى. وتعانق الرجلان. وألقى حمدان نظرة سريعة على المرأة فلمح بطنها، وقال:

ـزوجتك؟ أهلاً بكما، اتبعاني على مهل.

اخترقوا دهليزاً طويلا مسقوفا حتى بلغوا الحوش الواسع غير المسقوف، ثم مالوا إلى السلم الضيق ورقوا فيه حتى مسكن حمدان. و دخلت شفيقة إلى الحريم ، ومضى حمدان بجبل إلى حجرة واسعة متصلة بشرفة مطلة على حوش الربع. وما لبث خبر عودة جبل أن ذاع فأقبل كثيرون من رجال آل حمدان على رأسهم دعبس وعتريس وضلمة وفوانيس ورضوان الشاعر وعبدون، فصافحوا جبل بحرارة، وجلسوا في الحجرة على الشلت يتطلعون إلى العائد باهتمام وحب الاستطلاع. وتتابعت الأسئلة على جبل فقص عليهم طرفا من حياته الأخيرة. وتبادلوا نظرات الأسى. ورأى جبل أن أرواحهم المضعضعة تنعكس على أجسادهم المهزولة وأن الفناء يدب في الأوصال. وقصوا عليه ما يلقون من هوان فقال دعبس إنه أخبره بكل شيء في لقاء اتفق لهما منذ شهر، وأنه لذلك يعجب لما جاء به، وسأله ساخرا:

\_ أجئت لتدعونا للهجرة إلى مقامك الجديد؟

فقال جبل بحدة:

ـ لا مقام لنا إلا هنا!

وجذب الأسماع في صوته نبرة قوة حتى لاح الاستطلاع في عيني حمدان وقال:

لو كانوا ثعابين لما استعصى عليك ردعهم.

ودخلت تمر حنة بأقداح الشاى فحيت جبل تحية حارة، وأثنت على زوجه، وتنبأت له بأنه سينجب ذكرًا، ولكنها قالت مستدركة:

\_لم يعد من فارق بين رجالنا ونسائنا!

ونهرها حمدان وهي تغادر الحجرة ولكن أعين الرجال عكست اقتناعا ذليلا بقولها، وتكاتفت سحب الأحزان المخيمة على المجلس. لم يذق أحد للشاي طعمًا. وتساءل رضوان الشاعر:

\_ لماذا عدت يا جبل وأنت لم تألف الإهانة؟

فقال حمدان بصوت ينم عن الانتصار:

ـ قلت لكم مرارا إن الصبر على ما نلقى خير من التسكع بين غرباء سيكرهوننا .

فقال جبل بقوة:

ـ ليس الأمر كما ترى.

وهز حمدان رأسه دون أن ينبس فساد صمت حتى قال دعبس:

\_ يا جماعة فلنتركه ليستريح.

ولكنه أشار لهم بالبقاء وقال:

ـ ما جئت لأستريح، ولكن لأحدثكم في شأن خطير، أخطر مما تتصورون.

وتطلعت إليه الأعين بدهشة وغمغم رضوان متمنيا الخير فيما سيسمع. أما جبل فراح يقلب في الوجوه عينيه القويتين، ثم قال:

ـ كـان بوسـعى أن أمضى العـمر كله في أسـرتى الجـديدة دون تفكير في العـودة إلى حارتنا.

وصمت مليا، ثم عاد يقول:

لكنه حدث منذ أيام معدودة أن شعرت برغبة في المشى وحدى على رغم البرد والظلام، فخرجت إلى الخلاء، وإذا بقدمي تقودانني إلى البقعة المشرفة على حارتنا، ولم أكن دنوت منها منذ هروبي.

تجلى الاهتمام في الأعين فواصل الرجل حديثه قائلا:

مضيت في تجوالى في ظلام دامس، فحتى النجوم توارت وراء السحب، وما أدرى إلا وأنا أوشك أن أصطدم بشبح هائل، توهمته أول الأمر أحد الفتوات، ولكنه بدا لى شخصا ليس كمثله أحد في حارتنا ولا في الناس جميعا، طويلا عريضا كأنه جبل، فامتلأت رهبة وهممت بالتراجع، وإذا به يقول بصوت عجيب: «قف يا جبل!». فتسمرت في مكاني وسألته وجلدي ينضح بالخوف: «من؟ من أنت؟».

وتوقف جبل عن الحديث فمالت الرءوس إلى الأمام في اهتمام، وتساءل ضلمة:

\_من حارتنا؟

ولكن عتريس قال بسرعة معترضا:

\_قال إنه ليس كمثله أحد في حارتنا و لا في الناس جميعا.

ولكن جبل قال:

ـ بل إنه من حارتنا!

وتساءلوا عن هويته جميعا فقال جبل:

\_قال لي بصوته العجيب: «لا تخف، أنا جدك الجبلاوي!».

وارتفعت صيحات الدهشة من الجميع ورمقوه بنظرات الارتياب، وقال حمدان: \_إنك تهزر دون شك.

ء المحادث المحادث المحادث

ـ بل أقول الحق دون زيادة ولا نقصان!

فسأله فوانيس:

\_ألم تكن مسطولا؟

فصاح جبل بغضب:

\_إن السطل لم يذهب بعقلي قط!

فقال عتريس:

ـ له لطسات لا تعرف عزيزا وخصوصا الأصناف الجيدة!

فتبدى الغضب في وجه جبل كالسحاب المظلم وصاح:

ـ سمعته بأذنى وهو يقول لي : «لا تخف، أنا جدك الجبلاوي»!

فقال حمدان برقة ليسكن غضبه:

ـ لكنه لم يغادر بيته من زمن ولم يره أحد!

\_ لعله يخرج كل ليلة دون أن يدرى أحد.

فعاد حمدان يتساءل في حذر:

\_لكن أحدا غيرك لم يصادفه!

\_ صادفته أنا!

ـ لا تغضب يا جبل فما قصدت التشكيك في صدقك، ولكن الوهم خداع. بالله خبرني إذا كان الرجل يستطيع الخروج من بيته، فلماذا نزل عن النظارة لغيره؟ ولماذ يتركهم يعبثون بحقوق أبنائه؟!

فقال جبل مقطبا:

ـ هذا سره وهو به أعلم.

\_إن ما قيل عن اعتزاله لكبره وعجزه أقرب إلى المعقول.

فقال دعبس:

\_إننا نتخبط بين الأقاويل، دعونا نسمع القصة إن كان لها بقية.

فقال جبل:

ـ قلت له: «لم أحلم أن أقابلك في هذه الحياة». فقال: «هأنتذا تقابلني». وحددت بصرى لأتبين وجهه المرتفع في الظلام فقال لي:

« لن تستطيع رؤيتي ما دام الظلام». فقلت بذهول لرؤيته محاولة رؤيتي له: «لكنك ترانى في الظلام». فقال: «إنى أرى في الظلام منذ اعتدت التجوال فيه قبل أن توجد الحارة». فقلت بإعجاب: «الحمد لرب السماوات على أنك ما زلت تتمتع بصحتك». فقال: «أنت يا جبل ممن يركن إليهم، وآى ذلك أنك هجرت النعيم غضبا لأسرتك المظلومة. وما أسرتك إلا أسرتي، وهم لهم في وقفي حق يجب أن يأخذوه، ولهم كرامة يجب أن تصان، وحياة يجب أن تكون جميلة». فسألته في فورة حماس أضاءت الظلام: «وكيف السبيل إلى ذلك؟». فقال: «بالقوة تهزمون البغي، وتأخذون الحق،

وتحبون الحياة الطيبة». فهتفت من أعماق قلبي: «سنكون أقوياء». فقال: «وسيكون النجاح حليفك».

وترك صوت جبل وراءه صمتا كالحلم بدوا فيه جميعا مسحورين.

كانوا يفكرون ويتبادلون النظرات ثم يتجهون بأعينهم إلى حمدان حتى خرج عن الصمت قائلا:

\_فلنتدبر هذه الحكاية بعقولنا وقلوبنا!

فقال دعبس بقوة:

\_إنها لا تبدو وهما من أوهام السطل وكل ما تتضمنه حق.

فقال ضلمة بإيمان:

ـ لن تكون وهما إلا إذا كانت حقوقنا وهما!

فتساءل حمدان في شيء من التردد:

- ألم تسأله عما يمنعه من إجراء العدل بنفسه؟ أو عما جعله يعهد بالنظارة إلى قوم لا يحسنون القيام على حقوق الناس؟

فقال جبل بامتعاض:

\_لم أسأله، ولم يكن بوسعى أن أسأله، أنت لم تلقه فى الخلاء والظلمة ولم تستشعر الرهبة فى حضرته. ولو وقع لك ذلك ما فكرت فى مناقشته الحساب ولا داخلك الشك فى أمره.

فهز حمدان رأسه فيما يشبه التسليم وقال:

ـ هذا كلام خليق بالجبلاوي حقا، ولكن ما أخلقه بأن ينفذه بنفسه!

فصاح دعبس:

\_انتظروا حتى تموتوا في هوانكم!

فتنحنح رضوان الشاعر وقال وهو ينظر بحذر في الوجوه:

\_كلامه جميل ولكن فكروا فيما يجرنا إليه.

فقال حمدان بحزن:

ـ ذهبنا مرة نستجدى بعض حقنا فكان ما كان.

وإذا بعبدون الصغير يصيح:

\_علام نخاف وليس هناك أسوأ مما نحن فيه؟!

فقال حمدان كالمعتذر:

ـ لست أخاف على نفسى ولكنى أخاف عليكم.

فقال جبل بازدراء:

ــ سأذهب إلى الناظر وحدي.

فقال دعبس وهو يتزحزح مقتربا من مجلسه:

\_ونحن معك، ولا تنسوا أن الجبلاوي وعده بالنجاح!

فقال جبل:

ـ سأذهب وحدى عندما أقرر الذهاب، ولكنني أريد أن أطمئن إلى أنكم ستكونون ورائي وحدة متماسكة خليقة بمواجهة الشدة والصمود لها!

ووثب عبدون واقفا في حماس وهتف:

ـ وراءك حتى الموت!

وانتقل حماس الغلام إلى دعبس وعتريس وضلمة وفوانيس. وتساءل رضوان الشاعر بشيء من المكر إن كانت زوجة جبل تدرى بما جاء زوجها من أجله، فقص جبل عليهم كيف أنه أفضى بسره إلى البلقيطى، وكيف نصحه الرجل بتقدير العواقب، وكيف أصر على العودة إلى حارته، وكيف اختارت زوجه أن تسير معه إلى النهاية.

وعند ذاك قال حمدان بصوت أنبأ بأنه مع الآخرين:

ـ ومتى تذهب إلى الناظر؟

فأجاب جبل:

\_عندما تنضج خطتي.

فقام حمدان وهو يقول:

ـ سأدبر لك مقاما في مسكني، إنك أعز الأبناء، وهذه ليلة لها ما وراءها، ولعل الرباب ترويها غدا موصولة بقصة أدهم، هلموا نتعاهد على الخير والشر!

عند ذاك تصاعد صوت حمودة الفتوة، العائد مع الفجر، وهو يغني بلسان مخمور مترنح:

یا وادیا سکری تشرب تنجلی و تخش الحارة تتطوح تشرمی وعسامللی فنجسری وتسمسز بجنبسری فلم یؤخذوا بصوته إلا لحظة، ثم مدوا أیدیهم للتعاقد فی حماس، وفی رجاء.

## ٣٨

وعلمت الحارة بعودة جبل. رأته يسير بجرابه. ورأت زوجته وهي تسعى إلى الجمالية لابتياع حوائجها. وتحدثوا عن مهنته الجديدة التي لم يسبقه إليها أحد من أبناء الحارة. على أنه كان يعرض ألاعيبه السحرية في الأحياء المجاورة دون حارته، وتجنب استعمال الثعابين في ألاعيبه فلم يفطن أحد إلى أنه بها خبير. ومر ببيت الناظر مرات وكأنما لم يطرقه في حياته وهو يكابد في أعماقه حنينًا أليمًا إلى أمه. ورآه الفتوات مثل: حمودة والليثي وبركات وأبو سريع فلم يصفعوه كما يفعلون مع غيره من آل حمدان، ولكنهم عرضوا به وهزئوا بجرابه. وصادفه مرة زقلط فحدجه بنظرة قاسية، ثم اعترض سبيله متسائلاً:

- أين كانت غيبتك؟

فقال في حلم:

\_ في الأرض الواسعة . .

فقال الرجل متحرشًا:

\_ إنى فتوتك ومن حقى أن أسألك عما أريد وعليك أن تجيب. .

ـ أجبتك بما عندي.

ـ وماذا عاد بك؟

فقال في هدوء:

ـ ما يعود بالإنسان إلى حارته!

فقال بصوت نمّ عن وعيد:

ـ لو كنت في مكانك ما عدت!

وسار فجأة بقوة، فكاد يرتطم به لولا أن تنحى جبل عن سبيله بسرعة، كاظمًا غيظه. وإذا بصوت بواب بيت الناظر يناديه، فالتفت جبل نحوه دهشًا، ثم مشى إليه، فالتقيا أمام البيت وتصافحا بحرارة. وجعل الرجل يسأله عن أحواله، ثم أخبره بأن الهانم تود رؤيته. وكان جبل يتوقع هذه الدعوة منذ ظهوره فى الحارة. كان قلبه يحدثه بأنها آتية لا ريب فيها. ومن ناحيته لم يكن بوسعه أن يزور البيت للحال التى غادره عليها. وفضلاً عن ذلك فقد قرر ألا يطلب المقابلة حتى لا يثير الشكوك حولها قبل أن تقع، سواء فى الحارة أم فى نفوس الفتوات. و لكنه ما كاد يدخل البيت حتى جرى الخبر فى الحارة

جميعا. و ألقى نظرة سريعة عند مسيره إلى السلاملك على الحديقة، على أشجار الجميز والتوت العالية، وشجيرات الأزهار والورود التى تغطى الأركان، وقد اختفى العبير التقليدي تحت قبضة الشتاء، وغشى الجو نور هادئ وديع كالأصيل كأنه يقطر من السحاب الأبيض المنتشر. وصعد السلم وهو يطرد عن قلبه بقوة أسراب الذكريات. ودخل البهو فرأى في صدره الهانم وزوجها جالسين، منتظرين.

نظر إلى أمه فتلاقت نظرتاهما، وقامت المرأة لاستقباله في تأثر شديد، فهوى على يديها يقبلهما، ولثمت جبينه في حنان، فاجتاحه في موقفه شعور بالحب والسعادة. والتفت رأسه إلى الناظر فرآه جالسًا في عباءته يطالعهما بعينين باردتين، فمدّ له يده فقام نصف قومة ليصافحه وسرعان ما جلس. وجرت عينا هدى على جبل في دهشة مخزوجة بانزعاج، وهو يبدو بجسمه الفارع في جلباب خشن مشمر وسطه بحزام غليظ، وفي قدميه مركوب شبه بال، وعلى شعره الغزير طاقية عتماء، فتجلى في عينيها الرثاء. وتحدثت عيناها من دون اللسان فأبدت حزنها على مظهره وعلى ما ارتضاه لنفسه من حياة، وكأنما كانت تطالع أملاً باهرًا تهاوى إلى حطام. وأشارت له بالجلوس فجلس على مقعد قريب منها، وجلست هي فيما يشبه الإعياء.

وأدرك ما يدور في نفسها فحدثها بصوت قوى عن حياته في سوق المقطم، وعن مهنته، وزواجه. حدثها حديث الراضي عن تلك الحياة على رغم خشونتها، والقانع بها. فامتعضت لقوله وقالت:

ـ لتكن حياتك ما تكون، ولكن كيف لم تجعل من بيتي أول بيت تقصده لدى عودتك إلى الحارة؟

كاد يقول لها إنه ليس لعودته إلى الحارة من هدف إلا بيتها، ولكنه أجل ذلك؛ لأن اللحظة لم تكن مناسبة، ولأنه لم يفق بعد من تأثر اللقيا. وأجاب قائلاً:

\_كان بيتك أمنيتي، ولكني لم أجد الشجاعة لاقتحامه بعد ما كان. .

وإذا بالأفندي يسأله بصوت بارد:

\_ولماذا عدت ما دام العيش قد طاب لك في الخارج؟

فندت عن الهانم نظرة عتاب نحو زوجها الذي تجاهلها. أما جبل فقال باسمًا:

\_لعلّى عدت يا سيدى طامعًا في لقياك!

فقالت هدى في عتاب:

ـ ولم تزرنا حتى دعوناك يا جاحد.

فقال جبل وهو يخفض رأسه:

ـ ثقى يا سيدتى بأننى كلما ذكرت الظروف التى اضطرتنى إلى مغادرة هذا البيت لعنتها من صميم قلبي . فحدجه الأفندي بنظرة مريبة وهمّ بسؤاله عما يعني، ولكن هدي سبقته قائلة:

\_علمت بلا شك بعفونا عن آل حمدان إكرامًا لك.

وأدرك جبل أنه آن لهذا الموقف العائلي الطيب أن ينتهى كما قدر له من أول الأمر ، وأنه آن للكفاح أن يبدأ ، فقال :

\_الحق يا سيدتي أنهم يعانون ذلا ألعن من الموت، وقد قتل منهم من قتل.

فقبض الأفندي بشدة على مسبحته وهتف بحدة:

- إنهم مجرمون، وقد نالوا ما يستحقون.

فلوحت هدى بيدها في رجاء وقالت:

ـ فلننس الماضي كله .

فقال الأفندي بإصرار:

ـ ما كان يجوز أن يضيع دم قدْرَة هدرًا .

فقال له جبل بثبات:

\_المجرمون حقاهم الفتوات.

فوقف الأفندي في عصبية ووجه الخطاب إلى زوجته قائلاً في لوم:

\_أرأيت نتيجة إذعاني لك في دعوته إلى بيتنا؟

فقال جبل بصوت أفصحت نبراته عما وراءه من عزم:

ـ سيدى، كان في نيتي أن أجيء إليك على أي حال، ولعل الاعتراف بالجميل الذي أكنّه نحو البيت هو الذي جعلني أنتظر حتى أدعى إليه.

فرمقه الناظر بنظرة توجس وارتياب ثم سأله:

\_ماذا تريد من مجيئك؟

فوقف جبل مواجهًا الناظر في شجاعة، وهو يدرك تمامًا أنه يفتح بابًا ستهب منه العواصف جامحة، ولكنه كان يستمد من مقابلة الخلاء شجاعة لا تتزعزع. قال:

\_ جئت مطالبًا بحقوق آل حمدان في الوقف وفي الحياة الآمنة!

اسود وجه الأفندي من الغضب على حين فغرت الهانم فاها من اليأس، وقال الرجل وهو يحدجه بنظرة محرقة:

\_ أتجرؤ حقا على معاودة هذا الحديث؟ أنسيت أن المصائب تتابعت عليكم مذ جرؤ شيخكم المخرف على التقدم بهذه المطالب الخرافية؟! أقسم على أنك جننت، ولست مطالبًا بتضييع وقتى مع المجانين.

وقالت هدى بصوت باك:

\_ جبل، كان في نيتي أن أدعوك أنت وزوجك للإقامة معنا.

لكن جبل قال بصوت قوى:

\_إنما رددت على مسامعك رغبة من لا تُردُّله رغبة وهو جدَّك وجدّنا الجبلاوي!

نظر الأفندي إلى جبل بإمعان وتفرس وذهول. نهضت هدى جزعة ووضعت كفها على منكب جبل وهي تتساءل:

\_ جبل، ماذا دهاك؟!

فقال جبل باسمًا:

\_بخيريا سيدتي.

فقال الأفندي في ذهول:

\_بخير؟! أنت بخير؟ ماذا حصل لعقلك؟

فقال جبل بهدوء وسكينة:

\_اسمع قصتي واحكم بنفسك.

وقص عليهما ما سبق أن قصه على آل حمدان. ولما فرغ من قصته قال الأفندي وكان يتفرس في وجهه طوال الوقت بريبة:

\_الواقف لم يغادر بيته قط منذ اعتزل. .

فقال جبل:

\_لكنى قابلته في الخلاء.

فسأله متهكمًا:

\_ولماذا لم يطلعني أنا على رغباته؟

فقال جبل:

\_هذا سرّه وهو به أعلم.

فضحك الأفندي ضحكة حانقة وقال:

\_إنك حاو بحق وجدارة، ولكنك لا تقنع بألاعيب الحواة وإنما تطمع في اللعب بالوقف كله!

فقال جبل دون أن يزايله هدوءه:

ـ علم الله أنى ما جاوزت الحق، فلنحتكم إلى الجبلاوى نفسه إن استطعت، أو إلى شروطه العشرة. .

فانفجر غضب الأفندي. اربد وجهه وارتعشت أطرافه وصاح:

ـ أيها اللص المحتال! لن تنجو من مصيرك الأسود ولو اعتصمت بقمة الجبل . .

#### وهتفت هدي:

\_ يا للشقاء! ما كنت أتوقع أن تجيئني بهذه التعاسة كلها يا جبل.

فتساءل جبل في عجب:

ـ أيحدث هذا كله لا لشيء إلا لأنني طالبت بحق آلي المشروع؟!

فصرخ الأفندي بأعلى صوته:

\_اخرس يا محتال، يا حشاش، يا حارة حشاشين يا أولاد الكلب، اخرج من بيتي، وإن عدت إلى هذيانك قضيت على نفسك وعلى أهلك بالذبح كالنعاج.

فقطب جبل غاضبًا وصاح:

\_ احذر أن يحيق بك غضب الجبلاوي.

فهجم الأفندي على جبل ولكمه في صدره العريض بأقصى قوته.

ولكن جبل تلقاها بثبات وصبر، والتفت إلى الهانم قائلاً:

\_إنما أكرمه إكراما لك.

ثم ولى لهما ظهره وذهب.

## 49

توقع آل حمدان شرّا داهمًا. وخالفت تمر حنة الإجماع فظنت أنه ما دام جبل على رأس آل حمدان هذه المرة فلن تسمح الهانم بالقضاء عليه. لكن جبل نفسه لم يؤمن بظن تمر حنة وأكد أنه إذا هدّد الوقف طامع فلن يقام وزن لجبل ولا لأحد من الناس ولو كان أقربهم إلى الأفندى نفسه. وذكرهم جبل بوصية جدهم بأن يكونوا أقوياء وأن يصمدوا للملمات. ومضى دعبس يقول إن جبل كان يرفل في النعيم وإنه نبذه مختارًا إكرامًا لهم، فلا يصح أن يخذله أحد، وإن التذرع بالقوة إذا لم ينفع فلن يدفع بهم إلى أسوأ مما هم فيه بحال. والحق أن آل حمدان استشعروا الخوف وتوترت منهم الأعصاب ولكنهم وجدوا في اليأس قوة وعزيمة فكانوا يرددون المثل القائل: «لطابت لاتنين عور».

رضوان الشاعر وحده راح يقول متحسراً: «لو شاء الواقف لأعلن كلمة العدل وقضى لنا بالحق ونجانا من الهلاك المبين». وقد غضب جبل لما بلغه قوله، فقصده عابساً هائجاً ثم هزه من منكبيه حتى كاد يقتلعه من مجلسه وصاح به: «أهذا هو حال الشعراء يا رضوان؟! تروون حكايات الأبطال وتغنون على الرباب، فإذا جد الجد تقهقرتم إلى الجحور وأشعتم التردد والهزيمة؟! ألا لعنة الله على الجبناء!». والتفت إلى الجالسين

قائلاً: «لم يكرم الجبلاوي حيّا من أحياء هذه الحارة كما أكرمكم، ولو لم يكن يعتبركم أسرته الخاصة ما لاقاني ولا كلمني، ولكنه نور السبيل ووعد بالتأييد، ووالله لأكافحنّ ولو كنت وحدى!». لكن بدا أنه لم يكن وحده. أيده كل رجل، وأيدته كل امرأة، وانتظروا جميعًا المحنة وكأنهم لا يبالون بالعواقب.

واحتل جبل مكان الزعامة في حيه بطريقة عفوية أملتها الأحداث دون قصد منه أو تدبير، ودون ممانعة من حمدان الذي ارتاح إلى تخليه عن موضع سيصير هدفًا لهجوم لن يعرف مداه. ولم يقبع جبل في الربع فخرج ـ مخالفًا نصيحة حمدان ـ ليتجول كعادته. كان يتوقع شرّا عند كل خطوة ولكن أحدًا من الفتوات لم يتعرض له بسوء، فعجب لذلك غاية العجب، ولم يجد له من تفسير إلا أن يكون الأفندي قد كتم أنباء المقابلة على أمل أن يسكت هو أيضًا عن مطالبه فينتهي الأمر وكأنه ما كان. وأشفق من أن ينتهي الأمر وكأنه ما كان. ورأى وراء هذه السياسة وجه الهانم المحزون وأمومتها الصادقة. وخاف أن يثبت حنانها أنه أقسى عليه من غلظة زوجها، ففكر طويلاً فيما ينبغي أن يفعل لينفض الرماد عن الجمر.

وجرت في الحارة أحداث غريبة. فذات يوم ترامت استغاثة امرأة من بدروم، وتبين أن ثعبانا زحف بين قدميها فخرجت تجرى إلى الطريق. وتطوع رجال للتفتيش عن الثعبان فدخلوا مسكنها بعصيهم، وفتشوا عن الثعبان حتى عثروا عليه، فانهالوا عليه ضربًا حتى قتلوه، وطرحوه على أرض الحارة فتلقفه الغلمان وراحوا يلعبون به مهللين. ولم يكن الحادث بالغريب في الحارة ولكن لم تكد تمضى ساعة حتى ارتفعت صرخة استغاثة ثانية من بيت في مطلع الحارة فيما يلى الجمالية. وما جثم الليل حتى تعالت ضجة في ربوع حمدان، إذ رأى البعض ثعبانا ولكنه اختفى قبل أن يلحق به أحد، وضاعت جهود القوم للعثور عليه، وعند ذاك تطوع جبل نفسه لاستخراجه مستعينًا بالخبرة التي اكتسبها عند البلقيطي. وتحدث آل حمدان عن وقفة جبل عاريًا في الحوش، وعن لغته السرية التي خاطب بها الثعبان حتى جاءه طائعًا. وكادت تلك الأحداث تُسي مع صباح اليوم التالي لو لا أن تكرر وقوعها في بيوت أناس من ذوى الشأن. فقد ذاع وملأ الأسماع أن ثعبانًا لدغ حمودة الفتوة وهو يقطع دهليز الربع الذي يقيم فيه، فصرخ الرجل على رغمه حتى أدركه أصحابه وأسعفوه. هنا انقلب الحادث أحدوثة. وقال الناس في الثعابين وأعادوا.

غير أن نشاط الثعابين العجيب لم يتوقف. فقد رأى بعض الصحاب في غرزة الفتوة بركات ثعبانًا بين عمد السقف، لاح نصف دقيقة ثم اختفى، فهبوا مذعورين وتقوض المجلس. وغطت أخبار الثعابين على حكايات الشعراء في المقاهى. وبدا أن نشاطها قد جاوز حدود الأدب، إذ ظهر ثعبان ضخم في بيت حضرة الناظر. ومع أن خدم البيت الكثيرين انتشروا في أركانه للتفتيش عن الثعبان المختفى إلا أنهم لم يقفوا له على أثر. وركب الخوف الناظر والهانم حتى فكرت جديّا في مغادرة البيت إلى أن تطمئن إلى خلوّه من الشعابين. وبينما البيت مقلوب رأسًا على عقب ترامى من بيت زقلط فتوة الحارة صراخ وضجة، وذهب البواب ليستطلع الخبر ثم عاد ليخبر سيده بأن ثعبانًا لدغ أحد أبناء زقلط ثم اختفى. وتملك الخوف النفوس. وتتابعت الاستغاثات من الثعابين من كل ربع فصممت الهانم على مغادرة الحارة.

وقال عم حسنين البواب إن جبل حاو وللحواة خبرة باصطياد الثعابين، وأكد أنه استخرج ثعبانًا من أحد ربوع آل حمدان. وامتقع لون الأفندى ولم ينبس، أما الهانم فأمرت البواب بأن يستدعى جبل. ونظر البواب إلى سيده مستأذنًا، فغمغم الأفندى بكلمات حانقة دون أن يبين. وخيرته الهانم بين دعوة جبل وبين مغادرة البيت، فأذن للرجل بالذهاب وهو ينتفض حنقًا وغضبًا وتجمع كثيرون فيما بين بيتى الناظر والفتوة، وتوافد ذوو الشأن على بيت الناظر وفى مقدمتهم الفتوات: زقلط وحمودة وبركات والليثى وأبو سريع. ولم يكن للمجتمعين من حديث إلا الثعابين، فقال أبو سريع:

ـ لابد أن شيئا في الجبل دفع بالثعابين إلى بيوتنا.

فصاح زقلط وقد بدا وكأنه يقاتل نفسه لأنه لا يجد من يقاتله:

\_طول عمرنا جيران للجبل وما حصل منه شيء.

كان زقلط ثائرًا لما أصاب ابنه، وكان حمودة ما يزال يعرج من إصابة ساقه، على حين تملك الخوف الجميع فقالوا إن بيوتهم لم تعد صالحة للمبيت، وإن السكان تجمهروا في الحارة.

وجاء جبل حاملاً جرابه، فحيا الجميع، ووقف أمام الناظر والهانم في أدب وثقة.

ولم يستطع الناظر أن ينظر إليه، أما الهانم فقالت له:

ـ قيل لنا يا جبل إنك تستطيع استخراج الثعابين من بيوتنا؟

فقال جبل بهدوء:

- تعلمت ذلك فيما تعلمت يا صاحبة الفضل.

\_ دعوتك لتطهر البيت من الثعابين.

فنظر جبل إلى الأفندي متسائلاً:

ـ هل يأذن لي حضرة الناظر؟

فغمغم الناظر وهو يداري حنقه وقهره:

\_نعم.

وهنا تقدم الليثي بإيحاء خفي من زقلط وسأله:

\_وبيوتنا وبيوت الآخرين؟

فقال جبل:

ـ إن خبرتي تحت أمر الجميع.

وارتفعت أصوات بالشكر، فأجال جبل عينيه الكبيرتين في الوجوه مليا ثم قال:

\_ ولعلى في غير حاجة إلى تذكيركم بأن لكل شيء ثمنه كما تجرى المعاملات في حارتنا!

فتطلع إليه الفتوات في دهشة فقال:

\_علام تدهشون؟ إنكم تحمون الأحياء نظير الإتاوات، وحضرة الناظر يدير الوقف نظير التصرف في ربعه!

والظاهر أن حرج الموقف لم يسمح للأعين بالإفصاح عما في الصدور، غير أن زقلط سأله:

\_ماذا تطلب نظير عملك؟

فقال بهدوء:

ـ لن أطلب نقودًا، ولكني أطلب كلمة شرف باحترام آل حمدان في كرامتهم وحقهم في الوقف.

وساد الصمت، فبدا أن الجو يتنفس بالحقد المكتوم. وتضاعف قلق الهانم على حين أخفى الناظر عينيه في الأرض. وعاد جبل يقول:

ـ لا تظنوا أننى أتحداكم بما يمليه عليكم الحق والعدل نحو إخوانكم المغلوبين على أمرهم. إن الخوف الذي أخرجكم من دياركم ما هو إلا جرعة مما يتجرع إخوانكم كل يوم من أيام حياتهم التعيسة.

التمعت في الأعين نظرات غضب سريعة كالبرق في السحاب، وسرعان ما اختفت تحت غيم الكظم. غير أن أبو سريع صاح:

\_أستطيع أن آتيكم بأحد الرفاعية ولو نبيت خارج بيوتنا يومين أو ثلاثة أيام حتى يحضر من قريته .

فتساءلت الهانم:

ـ كيف لحارة بأكملها أن تبيت خارج بيوتها يومين أو ثلاثة؟

وكان الأفندي يفكر بكل قواه مغالبًا ما استطاع عواطف الغضب والحقد التي تستعر في صدره، وإذا به يقول مخاطبًا جبل: \_ إنى معطيك كلمة الشرف التي تطلب، فابدأ عملك.

وذهل الفتوات، غير أن الموقف لم يسمح لهم بإعلان ما في نفوسهم، وران على صدورهم هم قاتل. أما جبل فأمر الجميع بالابتعاد إلى أقصى الحديقة فخلا له المكان والبيت. وتجرد من ثيابه فانقلب كيوم التقطته الهانم من الحفرة المترعة بمياه الأمطار. ومضى ينتقل من مكان إلى مكان، ومن حجرة إلى حجرة، وهو يصفر صفيرًا خافتًا تارة أو يغمغم بكلام غير مبين. واقترب زقلط من الناظر وقال له:

- إنه هو الذي بعث بالثعابين إلى بيوتنا.

فأشار الناظر إليه بالسكوت وتمتم:

ـ دعه يخرج ثعابينه.

وأذعن لجبل ثعبان كان مختفيًا في المنور، وأخرج آخر من حجرة إدارة الوقف، فلف الثعبانين على ذراعه، وظهر بهما أمام السلاملك حيث أودعهما جرابه. وارتدى ملابسه ووقف ينتظر حتى جاء الجميع، فقال موجهًا خطابه لهم:

\_هلموا إلى بيوتكم لأطهرها .

والتفت نحو الهانم وقال بصوت خافت:

\_لولا تعاسة أهلي ما اشترطت في خدمتك شرطًا قط.

واقترب من الناظر فرفع يده تحية وقال بشجاعة:

\_وعد الحر دين عليه.

ومضى خارجًا والجمع يسير وراءه صامتًا.

٤ ٠

وفق جبل في تطهير الحارة من الثعابين على مرأى من جميع أهلها. وكان كلما أذعن له ثعبان تعالى الهتاف والزغاريد حتى باتت مهارته حديث الحارة من البيت الكبير إلى الجمالية. ولما فرغ من عمله ومضى إلى ربعه تجمع حوله الغلمان والشبان وراحوا يتغنون مصفقين:

جـــبل يانصــيــر المساكين جــبل ياقــاهر الثــعابين

وتواصل الغناء والتصفيق حتى بعد ذهابه. غير أنه كان لذلك رد فعل شديد في أنفس الفتوات، فما لبث أن خرج للمتظاهرين حمودة والليثي وأبو سريع وبركات، فانهالوا عليهم لعنًا وسبّا وصفعًا وركلاً حتى تفرقوا لائذين بالبيوت، فلم يبق فى الطريق إلا الكلاب والقطط والذباب. وتساءل الناس عن سر هذه الحملة، كيف يجزى الفتوات صنيع جبل بالاعتداء على المتظاهرين من أجله، وهل يحافظ الأفندى على وعده لجبل أو تكون حملة الفتوات بداية لحملة انتقام عاتية؟ ودارت هذه الأسئلة برأس جبل، فدعا رجال حمدان إلى الربع الذى يقيم فيه ليتدبروا الأمر معًا. وكان زقلط مجتمعًا فى الوقت ذاته بالناظر وحرمه، وكان يقول بإصرار والحنق يلتهمه:

ـ لن نبقى منهم على أحد.

وبدا الارتياح في وجه الأفندي، غير أن الهانم تساءلت:

\_وكلمة الشرف التي أعطاها الناظر؟

فعبس زقلط حتى انقلب وجهه أقبح من أي وجه آدمي وقال:

ـ الناس يخضعون للقوة لا للشرف.

فقالت بامتعاض:

\_سيقولون فينا ويعيدون.

- فليقولوا ما حلالهم، متى سكتوا عنكم أو عنا؟ إن الغرز تضج كل ليلة بالقفش والتنكيت علينا، ولكن إذا خرجنا إلى الطريق وقفوا خاشعين، وهم يخشعون خوفًا من النبوت لا إعجابًا بالشرف.

وحدجها الأفندي بنظرة ممتعضة وقال:

ـ جبل هو الذي دبّر مؤامرة الثعابين ليملي علينا شروطه، كل أحد يعرف ذلك. فمنذا الذي يطالب باحترام كلمة أعطيت لمحتال نصاب مخاتل؟!

وقال زقلط محذراً ووجهه ما زال متشبثًا بقبحه:

ـ تذكري يا هانم أنه إذا نجح جبل في استخلاص حق آل حمدان في الوقف فلن يهدأ بال أحد في الحارة حتى ينال حقه أيضًا، وبذلك يضيع الوقف ونضيع جميعًا.

وقبض الأفندي على المسبحة في يده بشدة حتى طقطقت حباتها وهتف بزقلط:

ـ لا تبق على أحد منهم.

ودُعى الفتوات إلى بيت زقلط ثم لحق بهم أعوانهم المقربون. وذاع فى الحارة أن أمراً خطيراً يدبّر لآل حمدان، فامتلأت النوافذ بالنساء وازدحم الطريق بالرجال. وكان جبل قد أعد خطته، فاحتشد رجال حمدان فى حوش الربع الأوسط مدججين بالنبابيت ومقاطف الطوب على حين توزعت النساء فى الحجرات وفوق السطح. وكان لكل أحد منهم عمله المرسوم، غير أن أى خطأ فى التنفيذ أو انقلاب فى التدبير لم يكن يعنى إلا هلاكهم إلى الأبد. لذلك اتخذوا أماكنهم حول جبل وهم فى غاية من التوتر والجزع.

ولم تغب حالهم عن فطنة جبل فمضى يذكرهم بتأييد الواقف له ووعده للأقوياء بالنجاح، فوجد منهم قلوبًا مصدقة، بعضها عن إيمان، والبعض عن يأس. ومال الشاعر رضوان على أذن المعلم حمدان وقال له:

\_أخاف ألا تنجح خطتنا، والأوفق عندى أن نحكم إغلاق البوابة ونضرب من السطح والنوافذ!

فهز حمدان منكبيه امتعاضًا وقال:

\_إذن نقضي على أنفسنا بالحصار حتى نهلك جوعًا!

وقصد حمدان جبل وسأله:

\_ أليس الأفضل أن نترك البوابة مفتوحة؟

فقال جبل:

\_ دعها كما هي وإلا شكّوا في الأمر.

وكانت ريح باردة تهب بشدة باعثة عواء، وركضت السحب في السماء كأنها مطاردة، فتساءلوا هل ينهل المطر؟ وترامت ضجة المتجمهرين في الخارج حتى ابتلعت مواء القطط ونباح الكلاب. وهتفت تمر حنة محذرة: «جاء الشياطين!».

وحقّا غادر زقلط بيته وسط هالة من الفتوات، يتبعهم الأعوان، ومقابضهم على نبابيتهم. ساروا على مهل حتى البيت الكبير، ثم عرجوا نحو حى حمدان فقابلهم المتجمهرون بالتهليل والهتاف. وكان المهللون الهاتفون أحزابًا، منهم قلة تبتهج للعراك وتتسلى بمشاهدة الدم المسفوك، ومنهم من يحقد على آل حمدان لإدلالهم بمكانة لم يعترف لهم بها أحد. وأكثرهم حانق على الفتونة والبغى فهو يبطن الكراهية ويظهر التأييد خوفًا ونفاقًا. ولم يُلق زقلط إلى أحد منهم بالاً، ومضى في مسيره حتى وقف أمام ربع حمدان، وصاح:

\_إن كان فيكم رجل فليخرج إلى !

فجاءه صوت تمر حنة من وراء النافذة:

\_أعطنا كلمة شرف جديدة حتى لا يغدر بالخارج غادر!

فغضب زقلط لتعريضها بكلمة الشرف وصاح:

\_ أليس عندكم من مجيب غير هذه الزانية؟

فصاحت تمر حنة:

-الله يرحم أمك يا زقلط!

وصرخ زقلط آمراً رجاله بالهجوم على البوابة. هجم على البوابة رجال، ورمى

آخرون النوافذ بالطوب حتى لا يجرؤ أحد على فتحها واستعمالها في الدفاع. وتكتل الهاجمون على البوابة وراحوا يدفعونها بمناكبهم بقوة وعزيمة. وواصلوا الدفع بشدة حتى أخذ الباب في الاهتزاز. واشتدت عزيمتهم حتى ارتج الباب وتخلخل. وتراجعوا متحفزين ثم اندفعوا نحوه بقوة وصكوه صكة واحدة فانفتح على مصراعيه. وتراءى من خلال الدهليز الطويل الممتد وراء باب الحوش جبل ورجال حمدان وقد رفع الجميع نبابيتهم. ولوح زقلط بيده في حركة فاضحة وأطلق ضحكة هازئة، ثم اندفع إلى الدهليز ورجاله خلفه.

وما كادوا يتوسطون الدهليز حتى مادت أرضه بهم بغتة وهوت بمن عليها إلى قاع حفرة عميقة. وفي سرعة مذهلة فتحت نوافذ الدور على جانبي الدهليز وانصبت المياه من الأكواز والحلل والطشوت والقرب. وتقدم رجال حمدان دون تردد ورموا الحفرة بمقاطف الطوب، ولأول مرة سمعت الحارة الصراخ يصدر عن فتواتها، ورأت الدم يتفجر من رأس زقلط والنبابيت تتخطف رءوس حمودة وبركات والليثي وأبو سريع وهم يتخبطون في المياه المطينة. ورأى الأعوان ما حل بفتواتهم فلاذوا بالفرار، وترك الفتوات لمصيرهم دون معين. واشتد انصباب الماء، والأحجار، وتهاوت النبابيت بلا رحمة. وترامت إلى الناس استغاثات ندّت عن حناجر لم تألف طوال حياتها إلا السب والقذف. وكان رضوان الشاعر يهتف بأعلى صوته:

ـ لا تبقوا منهم على أحد.

واختلطت المياه المطينة بالدم، وكان حمودة أول الهالكين، وعلا صراخ الليثى وأبو سريع، وتشبثت يدا زقلط بجدار الحفرة يريد أن يثب وقد تجلى الحقد في عينيه، وراح يغالب الإعياء والخور، ويزفر أنات كالخوار، فانهالت عليه النبابيت حتى تهاوى إلى الوراء وتراخت يداه عن الجدار فسقط في الماء وفي كل راحة من راحتيه قبضة من طين! وساد الصمت الحفرة. لم تند عنها حركة ولا صوت واصطبغ سطحها بالطين والدم. ووقف رجال حمدان ينظرون وهم يلهنون. وتزاحم عند مدخل الدهليز المتجمهرون وهم يرددون في الحفرة نظرات ذاهلة. وصاح رضوان الشاعر:

\_هذه عاقبة الظالمين.

وجرى الخبر في الحارة كالنار. وقال المتجمهرون إن جبل قد أهلك الفتوات كما أهلك الثعابين! وهتف له الجميع بأصوات كالرعد. ولفحهم الحماس فلم يبالوا بالريح الباردة. ونادوا به فتوة لحارة الجبلاوي. وطالبوا بجثث الفتوات ليمثلوا بها. وصفقت الأيدى وراح قوم يرقصون. ولم ين جبل عن التفكير لحظة. وكان كل شيء مدبراً في رأسه. فصاح بأهله:

\_ هلموا الساعة إلى بيت الناظر.

## ٤١

في الدقائق التي سبقت خروج جبل وأهله من الربع تفجرت الأنفس عن براكين حامية.

غادرت النسوة البيوت منضمات إلى الرجال. وهاجم الجميع بيوت الفتوات فاعتدت الأيدى والأرجل على أهاليهم حتى فروا بأرواحهم وهم يتحسسون أقفيتهم وخدودهم مصعدين التأوهات سافحين الدموع. أما البيوت فقد نهب كل ما فيها من أثاث وطعام ولباس، وحطم كل قابل للتحطيم من أخشابها وزجاجها حتى انقلبت خرابا يبابا. وانطلقت الجموع الغاضبة نحو بيت الناظر فتكتلت أمام بوابته المغلقة وراحت تهتف وراء مناد منها بأصوات كالرعود:

- \_هاتوا الناظر . .
- \_وإن ما جاش. .

ثم يختمون الهتاف بالتهليل الساخر الهازئ. واتجه البعض إلى البيت الكبير منادين جدهم الجبلاوى أن يخرج من عزلته ليعالج ما فسد من أمورهم وأمور حارتهم. وراح آخرون يدقون بوابة الناظر بأكفهم ويدفعونها بمناكبهم محرضين المترددين المهيبين على اقتحامها.

وفى تلك اللحظة المحرجة جاء جبل على رأس أهله نساء ورجالا، يسيرون فى قوة وعزم بما أحرزوا من فوز مبين. وأوسعت الجموع لهم، وتعالى الهتاف والزغاريد حتى أشار جبل لهم بالسكوت فأخذت أصواتهم تخف رويدًا رويدًا حتى ساد الصمت وعاد عواء الريح يصك الآذان مرة أخرى. ونظر جبل فى الوجوه المتطلعة إليه وقال:

\_يأهل حارتنا، أحييكم وأشكركم.

فارتفعت الأصوات بالهتاف ثانية حتى رفع يده مطالبًا بالسكوت، ثم قال:

ـ لن يتم عملنا حتى تتفرقوا في هدوء.

فترامي إليه من حناجر شتي.

ـ نريد العدل ياسيد حارتنا.

فقال بصوت سمعه الجميع.

\_اذهبوا في هدوء، ولسوف تتحقق إرادة الواقف.

وتعالى الهتاف للواقف ولابنه جبل. ووقف جبل يحث بنظراته الجموع على الذهاب. وكانوا يودون لو يبقون في أماكنهم ولكنهم لم يجدوا بدا أمام نظراته من التفرق فأخذوا يذهبون واحدًا في أثر واحد حتى خلا المكان منهم. عند ذاك مضى جبل إلى باب الناظر وطرقه صائحًا:

- افتح يا عم حسنين.

فجاءه صوت الرجل المرتعد وهو يقول:

\_الناس. . الناس.

ـ لا أحد هنا غيرنا.

وفتح الباب فدخل جبل، ودخل وراءه أهله. واخترقوا الممر المعروش إلى السلاملك فرأوا الهانم واقفة أمام باب البهو في استسلام، على حين بدا الأفندي على عتبة الباب، خافض الرأس شاحب الوجه كأنه ملثم بكفن أبيض. وندّت عن الأفواه لدى رؤيته دمدمة، فقالت هدى هانم متأوهة:

- إنى بحال سيئة يا جبل.

فأشار جبل نحو الأفندي بازدراء وقال:

\_ لو نجحت مكيدة هذا الرجل الفاقد الشرف لكنّا الآن جميعنا جثثًا ممزقة.

فأجابت الهانم بتنهدة مسموعة دون كلام. فحدج جبل الناظر بنظرة قاسية وقال:

ـ ها أنت ذا ترى نفسك ذليلاً بلا حول ولا قوة، لا فتوة يحميك، ولا شجاعة تؤيدك، ولا مروءة تشفع لك. ولو شئت أن أخلى بينك وبين أهل حارتنا لمزقوك إربًا ولداسوك بالأقدام.

ارتعدت فرائص الرجل وبدا وكأنه تقوض وضؤل. غير أن الهانم تقدمت من جبل خطوة وقالت برجاء:

ـ لا أحب أن أسمع منك غير ما عهدت من طيب الكلام، ونحن في حال عصيبة تستحق من مروءتك الرحمة في المعاملة .

فقطب جبل ليدارى تأثره وقال:

\_ لولا منزلتك عندي لجرت الأمور بغير ما جرت به.

ـ لا أشك في ذلك يا جبل، إنك رجل لا يخيب عنده الرجاء.

فقال جبل متأسفًا:

ـ ما كان أيسر أن يقوم العدل دون إراقة نقطة من الدم. .

فندت عن الأفندي حركة غامضة فضحت تخاذله وازداد انكماشًا، فقالت الهانم:

ـ قد كان ما كان، ولن تلقى منا إلا آذانًا صاغية!

وبدا أن الناظر يريد أن يخرج من صمته بأى ثمن، فقال بصوت ضعيف:

\_ثمة فرصة لإصلاح ما سلف من أخطاء.

أرهفت الآذان لسماع كلامه رغبة في الاطلاع على حال الجبار إذا تخلى عنه جبروته، وكانوا يرمقونه بتشف قليل وإنكار وحب استطلاع لا حد لها. وتشجع الأفندي بتغلبه على الصمت فقال:

ـ تستطيع اليوم أن تحتل مكانة زقلط عن جدارة.

فتجهم وجه جبل وقال بازدراء:

\_ ليست الفتونة مطلبي، فابحث لحمايتك عن غيرى، وما أريد إلا حقوق آل حمدان

ـ هي لكم دون نقصان، ولك إدارة الوقف إن شئت.

فقالت هدى برجاء:

\_ كما كنت يا جبل من قبل.

وهنا صاح دعبس من بين آل حمدان:

\_ ولم لا يكون الوقف كله لنا؟

وسرت همهمة في آل حمدان حتى اصفر وجه الناظر وزوجه حتى الموت. غير أن جبل قال بقوة غاضبة:

\_أمرني الواقف باسترداد حقكم لا باغتصاب حقوق الآخرين.

فتساءل دعبس:

ـ ومن أدراك أن الآخرين سيأخذون حقوقهم؟

فصاح به جبل:

ـ لا شأن لي بذلك، وإنك لا تكره الظلم إلا إن وقع عليك؟!

فقالت الهانم بتأثر:

ـ نعم الرجل الأمين أنت يا جبل! ولشد ما أرجو أن تعود إلى بيتي.

فقال جبل بتصميم:

ـ سأقيم في ربوع آل حمدان.

\_إنها لا تليق بمقامك.

-عندما يجرى الخير بين أيدينا سنرفعها إلى مقام البيت الكبير، وتلك رغبة جدنا الجبلاوي!

ورفع الناظر عينيه في شيء من التردد إلى وجه جبل وقال:

\_إن ما بدر اليوم من أهل الحارة يهدد أمننا؟

فقال جبل باحتقار:

ـ لا شأن لي بما بينك وبينهم.

وإذا بدعبس يقول:

\_ وإذا احترمت عهدنا فلن يجرؤ أحد منهم على تحدّيك!

فقال الناظر بحماس:

ـ سيسجل حقكم على رءوس الاشهاد!

وهنا قالت هدى برجاء:

ـ ستتناول يا جبل عشاءك معى الليلة، هذه رغبة أم!

وفطن جبل إلى ما ترمى إليه من إعلان المودة بينه وبين بيت الناظر، ولم يكن في وسعه أن ينبذ رغبتها، فقال:

ـ لك ما تشائين يا سيدتى .

#### ٤٢

وابيضت الأيام التالية بأفراح آل حمدان أو آل جبل كما باتوا يُدعون. فتحت قهوتهم أبوابها وتربع رضوان الشاعر على الأريكة يلعب بأوتار الرباب. وجرت البوظة أنهاراً وانعقدت في سماء الحجرات سحب الحشيش. ورقصت تمر حنة حتى انحل وسطها. ولم يبالوا بأن يكشفوا عن قاتل قدره، وصور لقاء الجبلاوي بجبل في هالات من نور الخيال. وكانت تلك الأيام بالنسبة لجبل وشفيقة أطيب الأيام. وقد قال لها:

\_ما أجمل أن ندعو البلقيطي للإقامة معنا!

فقالت وهي تعانى متاعب المخاض الوشيك.

\_ نعم كى يستقبل حفيده ببركته.

فقال الرجل ممتنا:

- أنت قدم السعديا شفيقة ، وستجد سيدة زوجًا كفؤًا من آل حمدان .

ـ قل آل جبل كما يقولون فإنك خير من عرف هذا الحي.

فقال باسمًا:

- بل أدهم خيرنا جميعًا، كم تمنى حياة النعيم حيث لا عمل للإنسان إلا الغناء، وسوف يتحقق لنا حلمه الكبير. وتراءی دعبس وهو سکران يرقص في جمع من آل جبل، فلما رأى جبل مقبلاً لوح بنبوته جذلا وقال له:

\_ إنك لا تبغى الفتونة، سأكون أنا الفتوة.

فصاح به ليسمع الجميع:

ـ لا فتونة في آل حمدان، ولكن ينبغي أن يكونوا جميعًا فتوات على من يطمع فيهم.

ومضى الرجل إلى القهوة فتبعه الجميع وهم يترنحون من السكر. وكان جبل سعيدًا فقال لهم:

- إنكم أحب أهل الحارة إلى جدكم، فأنتم سادة الحارة دون منازع، ولذلك ينبغي أن يسود بينكم الحب والعدل والاحترام، ولن ترتكب جريمة في حيكم أبدا. .

وترامى الطبل والغناء من بيوت آل حمدان، وأشرقت أنوار الأفراح فى حيهم، على حين غرقت الحارة فى ظلمتها المألوفة، وتجمع صغارها عند مشارف حى آل حمدان يتفرجون من بعيد. وإذا برجال من أهل الحارة يفدون على القهوة بوجوههم الكالحة. استقبلوا بالمجاملة ودعوا إلى الجلوس وقدم لهم الشاى. وحدس جبل أنهم لم يجيئوا لخالص التهنئة. وصدق حدسه إذ قال له زناتي وكان أكبرهم سنًا.

\_ يا جبل، إننا أبناء حارة واحدة، وجد واحد، وأنت اليوم سيد الحارة ورجلها الأقوى، وأنْ يسود العدل الأحياء جميعًا خير من أن يسود حي حمدان وحده.

لم يتكلم جبل، وبدا الفتور في وجه آل جبل. ولكن الرجل قال بعزم:

ـ بيدك أن تجرى العدل في الحارة كلها.

لم يهتم جبل بأهل الحارة من أول الأمر، ولم يكن أحد من آله يهتم بهم. بل إنهم شعروا بالاستعلاء عليهم حتى في أيام محنتهم. وقال جبل برقة:

ـ وصاني جدّى بأهلي.

ـ ولكنه جد الجميع يا جبل.

فقال حمدان:

ـ في هذا الكلام موضع للنظر.

وتفرس في الوجوه ليتابع أثر قوله، فرأى انقباضها يشتد فاستطرد:

\_أما علاقتنا به فقد أكدها بنفسه في لقاء الخلاء!

وبدا زناتي لحظة وكأنه يود أن يقول: «في هذا الكلام موضع للنظر» ولكن غلبه الانكسار فقال مسائلاً جبل:

\_أيرضيك ما نحن فيه من فقر وذل؟

فقال جبل دون حماس:

\_كلا، ولكن لا شأن لنا بذلك.

فتساءل الرجل في إصرار:

\_وكيف لا يكون لكم شأن بذلك؟

وساءل جبل نفسه بأى حق يكلمه ذلك الرجل على هذا النحو؟ لكنه لم يغضب. وجد بنفسه جانبًا يكاد أن يعطف على الرجل. غير أن جانبًا آخر منه استنكر أن يخوض متاعب جديدة من أجل الآخرين. ومن هم هؤلاء الآخرون؟ وجاء الجواب على لسان دعبس حين صاح بالرجل:

ـ أنسيتم ما كنتم تعاملوننا به يوم محنتنا؟

فغض الرجل من بصره مليّا ثم قال:

ـ من ذا الذي كان يستطيع أن يجهر برأى أو يعلن عاطفة في أيام الفتوات؟ وهل كان الفتوات يعفون عن أحد يعامل الناس بغير ماير تضون؟

فزم دعبس شفتيه في استعلاء وإنكار وقال:

- كنتم وما زلتم تحسدوننا على مكانتنا في الحارة، ولعلكم سبقتم الفتوات إلى ذلك! فأحنى زناتي رأسه في قنوط وقال:

- سامحك الله يا دعبس!

فصاح دعبس دون رحمة:

ـ اشكروا رجلنا لأنه لم يقبل أن يوجه لكم يد الانتقام!

وتوزعت الأفكار المتضاربة جبل فلاذ بالصمت. أشفق من أن يمد يد العون. ولم يرتح إلى الجهر بالرفض. ووجد الرجال أنفسهم حيال تأنيب قارع من دعبس، ونظرات باردة تعكسها أعين الآخرين، وصمت لا أمل فيه عند جبل، فنهضوا خائبين، وذهبوا من حيث أتوا. وصبر دعبس حتى اختفوا ثم حرك قبضة يمناه في بذاءة وهتف:

\_إلى حيث ألقت يا أولاد الخنازير.

فصاح جبل:

- الشماتة ليست من شيم السادة!

## ٤٣

كان يومًا مشهودًا يوم تسلم جبل حصة آله من الوقف. واتخذ في حوش الربع ـ ربع النصر ـ مجلسه ودعا إليه آل حمدان. وأحصى ما في كل أسرة من أنفس ووزع الأموال

بالتساوى فيما بينهم، وحتى شخصه لم يخصه بامتياز. ولعل حمدان لم يرتح إلى هذه العدالة كل الارتياح ولكنه عبر عن مشاعره بطريقة غير مباشرة فخاطب جبل قائلا:

\_ليس العدل أن تظلم نفسك يا جبل!

فقطب جبل قائلاً:

\_ أخذت نصيب اثنين، أنا وشفيقة.

\_ولكنك رئيس هذا الحي.

فقال جبل بصوت سمعه الجميع:

\_ ما ينبغي لرئيس القوم أن يسرقهم.

وبدا دعبس وهو ينتظر المحاورة في قلق، ثم قال:

ـ جبل غير حمدان، وحمدان غير دعبس، ودعبس غير كعبلها!

فقال جبل معارضًا في غضب:

ـ تريد أن تجعل من الأسرة الواحدة سادة وخدمًا!

ولكن دعبس تشبث برأيه وقال:

\_فينا صاحب القهوة والبائع الجوال والمتسول، فكيف تسوى بين هؤلاء؟! وأنا كنت أول من خرج على الحصار حتى تعرضت لمطاردة قدرة، وأول من لاقاك في غربتك، وأول من تحمس لرأيك بعد ذلك والقوم مترددون!

اشتد الغضب بجبل فصاح به:

ـ ما دح نفسه كذاب، والله إن أمثالك يستحقون الظلم الذي حاق بهم.

وأراد دعبس مواصلة الجدل، ولكنه تبين في عينى جبل غضبًا من نار فتراجع، وغادر المجلس دون أن ينبس. وقصد عند المساء غرزة عتريس الأعمش، وجلس في حلقة الجالسين يدخن مجترًا همومه. وأراد أن يتسلى فدعا كعبلها إلى المقامرة، فلعبا السيجة، ولم تكد تمضى نصف ساعة حتى خسر نصيبه من ريع الوقف! وضحك عتريس وهو يغير ماء الجوزة وقال:

\_ يا سوء بختك يا دعبس! الفقر مكتوب عليك ولو على رغم إرادة الواقف! فغمغم دعبس بحقد وقد طير الخسران السُّطَل من مخه:

ـ ليس بهذه السهولة تضيع الثروات!

فأخذ عتريس نفسًا من الجوزة ليضبط كمية المياه بها ثم قال :

ـ ولكنها ضاعت يا بن والدي!

كان كعبلها يسوّى الأوراق المالية بعناية، ثم رفع يده بها ليدسها في صدره، لكن دعبس منعه بيده وأشار بالأخرى إشارة خاصة أن يرد النقود! وقطب كعبلها وقال:

\_لم تعد نقودك ولا حق لك عليها!

فصاح دعبس:

ـ دع النقوديا بن الزبالة!

ونظر عتريس نحوهما بقلق وقال:

ـ لا تتشاجرا في بيتي.

فصاح دعبس وهو يشد على يد كعبلها:

لن يسرقني ابن الزانية!

\_اترك يدى يا دعبس، أنا لم أسرقك.

ـ يعنى ربحتها في تجارة؟

ـ لماذا قامرت؟

فلطمه بشدة وهو يقول:

\_نقودى، قبل أن أكسر عظامك.

ونتش كعبلها يده فجأة فثار غضب دعبس لحد الجنون وضربه بسبابته في عينه اليمني.

صرخ كعبلها صرخة عالية، وانتفض واقفًا، ثم غطى عينيه بكفيه تاركًا الأوراق تتهاوى إلى حجر دعبس، وترنح من الألم، ثم سقط وراح يتلوى ويئن أنينًا موجعًا. والتف حوله الجالسون، على حين جمع دعبس النقود وأعادها إلى صدره. وإذا بعتريس يقترب منه قائلا في هلع:

\_صفّيت عينه!

فارتاع دعبس مليًّا، ثم وقف فجأة وغادر المكان.

ووقف جبل فى حوش النصر فى جمع من رجال آل حمدان، والغضب يتفجر من عينيه وشدقيه. وجلس كعبلها القرفصاء وقد شد على عينه رباطًا محكمًا، على حين وقف دعبس يتلقى ثورة جبل فى صمت وخذلان. وأراد حمدان أن يهدئ من ثورة جبل فقال بلين:

\_سيرد دعبس النقود إلى كعبلها.

فصاح جبل بأعلى صوته:

\_ فليرد إليه بصره أولاً.

فبكي كعبلها وقال الشاعر رضوان متأوهًا:

\_ ليت في الإمكان رد البصر.

فقال جبل وقد أظلم وجهه كالسماء الراعدة البارقة:

\_ولكن في الإمكان أن تؤخذ عين بعين!

وحملق دعبس في وجه جبل متوجسًا، وأعطى حمدان النقود وهو يقول:

\_كنت فاقد العقل من الغضب، وما قصدت إيذاءه.

فتفرس جبل في وجهه بحنق طويلاً، ثم قال بصوت رهيب:

\_عين بعين والبادئ أظلم.

تبودلت نظرات الحيرة. لم يُر جبل أغضب منه اليوم. وقد برهنت الأحداث على قوة غضبه، كغضبته يوم ركل بيت النعيم. وكغضبته يوم قتل قدرة. حقّا إنه لشديد الغضب، وإذا غضب لم يردعه عن هدفه رادع. وهمّ حمدان بالكلام ولكنه بادره قائلاً:

\_ إن الواقف لم يؤثركم بحبه ليعتدى بعضكم على بعض، فإما حياة تقوم على النظام وإما فوضى لن تبقى على أحد، لذلك أصر على تصفية عينك يا دعبس.

وركب الرعب دعبس فصاح:

ـ لن تمسني يد ولو قاتلتكم جميعًا .

فانقض عليه جبل كالثور الهائج وضربه بجماع يده في وجهه ضربة هائلة سقط على أثرها دون حراك. وأقامه وهو فاقد الوعى، واحتضنه من الخلف شادًا ذراعيه حول جسمه، والتفت نحو كعبلها قائلاً بلهجة آمرة:

\_ قم فخذ حقك.

وقام كعبلها ولكنه وقف مترددًا، على حين تعالى الصراخ من مسكن دعبس. وحدج جبل كعبلها بنظرة قاسية وصاح به:

\_ تقدم قبل أن أدفنك حيّا.

واتجه كعبلها نحو دعبس، وبسبابته ضرب عينه اليمنى حتى انفقأت عينه على مرأى من الجميع. واشتد الصراخ من بيت دعبس، وبكى بعض أصدقاء دعبس مثل عتريس وعلى فوانيس، فصاح بهم جبل:

\_ يا لكم من جبناء وأشرار! والله ما كرهتم الفتونة إلا لأنها كانت عليكم، وما إن يأنس أحدكم في نفسه قوة حتى يبادر إلى الظلم والعدوان، وماللشياطين المستترة في أعماقكم إلا الضرب بلا رحمة ولا هوادة، فإما النظام وإما الهلاك.

وترك دعبس بين أيدى أصحابه وذهب. وكان لذلك الحادث في النفوس أثر وأى أثر. كان جبل من قبل رئيسًا محبوبًا، وكان آله يظنونه فتوة لا يريد أن يتخذ لنفسه اسم الفتونة أو شعارها، فأصبح من بعده مخوفًا مرهوبًا. وتهامس أناس بقسوته وظلمه ولكن هؤلاء وجدوا دائمًا من يرد عليهم قولهم ويذكّر بالوجه الآخر لقسوته، وهو الرحمة بالمعتدى عليهم، والرغبة الصادقة في إقامة نظام يضمن العدل والنظام والإخاء في آل حمدان. ووجد هذا الرأى الأخير كل يوم ما يسنده في فعال الرجل وأقواله حتى آنس

إليه من استوحش، وآمن من خاف، ومال من جفا، وحرص الجميع على النظام فلم يجاوز حدوده أحد. وسادت الاستقامة والأمان في أيامه، فلبث بينهم رمزاً للعدالة والنظام، حتى غادر الدنيا دون أن يحيد عن مسلكه قيد أنملة.

\* \* \*

هذه قصة جبل.

كان أول من ثار على الظلم في حارتنا. وأول من حظى بلقيا الواقف بعد اعتزاله. وقد بلغ من القوة درجة لم ينازعه فيها منازع. ومع ذلك تعفف عن الفتونة والبلطجة والإثراء عن سبيل الاتاوة وتجارة المخدرات، ولبث بين آله مثالاً للعدل والقوة والنظام. أجل لم يهتم بالآخرين من أبناء حارتنا. ولعله كان يضمر لهم احتقاراً وازدراء كسائر أهله. لكنه لم يعتد على أحد منهم ولا تعرض له بسوء، وضرب للجميع مثالاً جديراً بالاحتذاء.

ولولا أن آفة حارتنا النسيان ما انتكس بها مثال طيب.

لكن آفة حارتنا النسيان.

\* \* \*

# رفاعـــة

٤٤

أوشك الفجر أن يطلع. وآوى إلى المضاجع كل حى فى الحارة حتى الفتوات والكلاب والقطط. واستقر الظلام بالأركان كأنه لن يبرح أبدًا. وفى رعاية الصمت الشامل فتح باب ربع النصر بحى آل جبل فى حذر شديد، فتسلل منه شبحان، سارا فى سكون نحو البيت الكبير، ثم تابعا سوره العالى إلى الخلاء. نقلا خطواتهما فى حذر، وجعلا يتلفتان وراءهما من حين إلى حين ليطمئنا إلى أن أحدًا لا يتبعهما، وأوغلا فى الخلاء مهتدين بنور النجوم المتناثرة، حتى تبينا صخرة هند كقطعة من ظلام أشد كثافة مما حوله. كانا رجلا فى أواسط العمر وامرأة شابة حبلى، وكلاهما يحمل بقجة مكتظة.

\_عم شافعي، تعبت.

فتوقف الرجل عن المسير وهو يقول في غيظ:

\_استريحي، ربنا يتعب المتعب!

وضعت المرأة البقجة على الأرض وجلست عليها مفرجة ما بين فخذيها لتريح بطنها المنداحة، ووقف الرجل لحظة ينظر فيما حوله، ثم جلس على بقجة أيضًا. وهبّت عليهما نسائم معبقة بأنفاس الفجر الرطيبة، لكن المرأة لم تغفل عما يشغلها فتساءلت:

\_أين سألديا ترى؟

فقال شافعي ساخطًا:

\_ أي مكان يا عبدة خير من حارتنا اللعينة .

ورفع عينيه إلى شبح الجبل الممتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب وقال:

ـ سنذهب إلى سوق المقطم. إليه قصد جبل أيام محنته، وسأفتح دكان نجارة وأعمل كما كنت أعمل في الحارة، لي يدان تدرّان الذهب، ومعى نقود للبدء لا بأس بها.

فشدت المرأة خمارها حول رأسها ومنكبيها وقالت بحزن:

ـ سنعيش في غربة كمن لا أهل له، ونحن من آل جبل أسياد الحارة!

فبصق الرجل متأففًا وقال محنقًا:

- أسياد الحارة؟! ما نحن إلا عبيد أذلاء يا عبدة، ذهب جبل وعهده الحلو، وجاء زنفل أجحمه الله، فتوتنا وهو علينا لا لنا، يلتهم أرزاقنا ويفتك بمن يشكو.

لم تنكر عبدة شيئًا من قوله . كأنها ما زالت تعيش في أيام المرارة وليالي الأحزان ، لكنها حين ضمنت الابتعاد عن مكاره الحارة حن قلبها إلى ذكرياتها الطيبة فقالت متحسرة :

ـ لا توجد حارة كحارتنا لولا أشرارها، أين تجد بيتًا كبيت جدنا؟ أو جيرانًا كجيراننا؟ أين تسمع حكايات أدهم وجبل وصخرة هند؟ ألا لعنة الله على الأشرار!

فقال الرجل بصوت مرير:

ـ والنبابيت تهوى لأتفه سبب، وأصحاب الوجوه المستكبرة يختالون بيننا كالقضاء والقدر!

وذكر زنفل اللعين وكيف أخذ بتلابيبه، وهزه بعنف حتى كاد يقتلع ضلوعه، ثم مرغه في التراب أمام الخلق، لا لشيء إلا لأنه جعل مرة من الوقف حديثه! وضرب الأرض بقدمه واستطرد قائلاً:

- المجرم الملعون خطف وليد سيدهم بياع لحمة الراس، ثم لم يسمع عن الوليد بعد ذلك أبدًا، لم تأخذه رحمة بطفل في شهره الأول، وتتساءلين أين سألد، ستلدين بين أناس لا يقتلون الأطفال.

فتنهدت عبدة وقالت برقة كأنما لتخفف من مضمون حديثها :

\_ليتك رضيت بما رضي به الآخرون!

فقطب غاضبًا وراء قناع الظلمة وقال:

ماذا جنيت يا عبدة؟ لا شيء، كنت أتساءل أين جبل، وعهد جبل؟ أين القوة العادلة؟ ماذا أرجع آل جبل إلى الفاقة والذل؟ فحطم المجرم الملعون دكاني وضربني وكاد يفتك بي لولا الجيران، ولو بقينا ببيتنا حتى تلدى لا نقض على الوليد كما فعل بوليد سيدهم.

فهزت رأسها في حزن وقالت:

ـ آه لو صبرت يا معلم شافعي! ألم تسمعهم يقولون إن الجبلاوي لابد أن يخرج يومًا من عزلته لينقذ أحفاده من الظلم والهوان؟

فنفخ المعلم شافعي طويلاً وقال بسخرية:

\_هكذا يقولون! طالما سمعتهم مذكنت غلامًا، لكن الحقيقة أن جدنا في البيت اعتزل، وأن ناظر وقفه بريع الوقف استأثر، إلا ما يهب للفتوات نظير حمايته. وزنفل فتوة آل جبل يتسلم نصيبهم ليدفنه في بطنه، كأن جبل لم يظهر في هذه الحارة، وكأنه لم يأخذ عين صديقه دعبس بعين المسكين كعبلها.

وسكتت المرأة لتسبح فى أمواج الظلام، سيطلع عليها الصباح بين قوم غرباء. سيكون الغرباء جيرانها الجدد. وتستقبل أيديهم وليدها. وينمو الوليد فى أرض غريبة كغصن مقطوع من شجرة. وما كانت إلا قانعة فى آل جبل تحمل الطعام إلى زوجها فى الدكان. وتجلس فى الليل وراء النافذة لتسمع رباب عم جواد الشاعر الضرير. ما أحلى الرباب وما أحلى قصة جبل. ليلة التقى الجبلاوى فى الظلام فقال له ألا تخف. حياه بالعطف والتأييد حتى انتصر. وعاد إلى حارته محبور الخاطر، وما أحلى العودة بعد الاغتراب.

وكان شافعي يقلب وجهه في السماء، في النجوم الساهرة، ويرنو إلى طلائع الضياء فوق الجبل كسحابة بيضاء في أفق سماء مكفهرة. وقال محذرًا:

- \_ينبغي أن نسير كي نبلغ السوق قبيل الشروق.
  - ـ ما زلت في حاجة إلى الراحة.
    - \_الله يتعب المتعب.

ما أجمل الحياة لولا وجود زنفل. الحياة عامرة بالخيرات والهواء النقى والسماء المرصعة بالنجوم والمشاعر الطيبة، ولكن فيها أيضًا ناظر الوقف إيهاب والفتوات بيومى وجابر وحندوسة وخالد وبطيخة وزنفل. وفي الإمكان أن يصير كل ربع كالبيت الكبير وأن ينقلب الأنين ألحانًا ولكن المساكين يتمنون المحال كما تمناه أدهم من قبل. ومن هم

المساكين؟ إنهم أقفية متورمة من الصفع وأدبار ملتهبة من الركل وأعين يرعاها الذباب ورؤوس يعشش فيها القمل.

ـ لماذا نسينا الجبلاوي؟

غمغمت المرأة:

- الله يعلم بحاله.

فصاح الرجل في حسرة وغضب:

\_يا جبلاوي!

فردد الصمت صوته. وقام وهو يقول:

ـ توكلي على الله.

قامت عبدة. تناول كفها في يده. وسارا نحو الجنوب، نحو سوق المقطم.

50

قالت عبدة بفرح تألق في عينيها وثغرها:

ـ ها هي ذي حارتنا، وها نحن أولاء نعود إليها بعد غربة، فالحمد لله رب العالمين.

فابتسم عم شافعي وهو يجفف جبينه بكم عباءته وقال برزانة:

\_حقّا ما أبهج العودة!

وكان رفاعة يصغى إلى والديه، ووجهه الصافى الجميل يعكس دهشة ممزوجة بالحزن. فقال كالمحتج:

\_ وهل ينسى سوق المقطم وجيرانه؟!

ابتسمت الأم وهي تحبك طرف الملاءة حول شعرها الذي وخطه المشيب. أدركت أن الفتي يحن إلى مولده كما تحن هي إلى مولدها، وأنه بما جبل عليه من رقة ومودة لا يستطيع أن يسلو الصداقات. وأجابته:

\_ الأشياء الطيبة لا تنسى أبدًا، ولكن هذه هي حارتك الأصلية، هنا أهلك، سادة الحارة، ستحبهم وسيحبونك، ما أجمل حيّ آل جبل بعد وفاة زنفل.

فهتف عم شافعي محذرًا:

ـ لن يكون خنفس خيرًا من زنفل.

\_لكن خنفس لا يضمر لك عداوة.

- عداوات الفتوات تنشأ بسرعة نشوء الطين عقب المطر.

فقالت عبدة برجاء:

ـ لا تفكّر هكذا يا معلم، عدنا لنعيش في سلام، ستفتح الدكان وسيجيء الرزق. ولا تنس أنك عشت تحت سيطرة فتوة بسوق المقطم، ففي كل مكان فتوة يخضع له الناس.

واصلت الأسرة مسيرها نحو الحارة، يتقدمها عم شافعي حاملاً جوالاً، وتبعته عبدة ورفاعة حاملاً بقجة ضخمة. وبدا رفاعة بقامته الطويلة وعوده النحيل ووجهه الوضاء فتى جذاب المنظر ينضح بالوداعة والرقة، غريبًا في الأرض الذي يسير فوقها. وتأملت عيناه ما حوله في شغف حتى انجذبتا إلى البيت الكبير الذي يقف عند رأس الحارة منفرداً، ورءوس الأشجار تهتز من فوق سوره. رنا إليه طويلاً ثم تساءل:

\_ست جدنا؟

فقالت عبدة بابتهاج.

ـ نعم، أرأيت ما حدثتك عنه؟ فيه جدك، صاحب هذه الأرض كلها وما عليها، الخير خيره والفضل فضله، ولولا عزلته لملأ الحارة نورًا.

وأكمل عم شافعي ساخرًا:

ـ وباسمه ينهب ناظر الوقف إيهاب حارتنا، ويعتدى الفتوات علينا.

تقدموا نحو الحارة محاذين للسور الجنوبي للبيت الكبير. لم ترتد عينا رفاعة عن البيت المغلق. ثم تراءى لهم بيت ناظر الوقف إيهاب وبوابه المقتعد أريكة عند بابه المفتوح. وفي مقابله قام بيت فتوة الحارة بيومي الذي وقفت أمامه عربة كارو محملة بمقاطف الأرز وسلال الفاكهة وقد مضى الخدم يحملونها للداخل تباعاً. وبدت الحارة ملعبًا للغلمان الحفاة، على حين افترشت أسر الأرض أو الحصر أمام مداخل البيوت لينقوا الفول أو يخرطوا الملوخية. وتبودلت أحاديث ونكات، وزجر ونهر، وتعالت ضحكات وصرخات. مالت أسرة عم شافعي إلى حيّ آل جبل فصادفها في عرض الطريق شيخ ضرير، يتلمس طريقه بعصاه على مهل، فأنزل عم شافعي الجوال من فوق ظهره ومضى نحوه منبسط الأسارير، حتى وقف أمامه وهو يهتف:

\_عم جواد الشاعر، السلام عليكم!

توقف الشاعر وهو يرهف أذنيه في انتباه، ثم هز رأسه في حيرة قائلاً:

ـ وعليكم السلام! صوت غير غريب على ً!

ـ أنسيت صاحبك شافعي النجار؟

فتهلل وجه الرجل وصاح:

ـ عم شافعي ورب السماوات.

وفتح ذراعيه فتعانق الرجلان بشوق وحنان حتى تطلعت إليهما أنظار القريبين وحاكى عناقهما غلامان عابثان. وقال جواد وهو يشد على يد صاحبه:

ـ هجرتنا عشرين عامًا أو يزيد، يا له من عمر، وكيف زوجك؟

فقالت عبدة:

بخيريا عم جواد سألت عنك العافية، وها هو ذا ابننا رفاعة، قبّل يد عمك الشاعر. واقترب رفاعة من الشاعر مبتهجًا فتناول يده فلثمها، وربت الرجل كتفه، وتحسس

رأسه في استطلاع، وقسمات وجهه، وقال:

\_بديع بديع، ما أشبهك بجدك!

فنور الثناء وجه عبدة، وضحك عم شافعي قائلاً:

\_ لو رأيت جسده النحيل ما قلت ذلك .

ـ حسبه مَا أخذ، إن الجبلاوي لا يتكرر . ماذا يعمل الفتي؟

- علمته النجارة، لكنه ابن وحيد مدلل، يمكث في دكاني قليلاً ويهيم على وجهه في الخلاء والجبل أكثر الوقت.

فقال الشاعر باسمًا:

ـ لا يستقر الرجل حتى يتزوج، وأين كنت يا معلم شافعى؟

\_ في سوق المقطم.

فضحك الرجل ضحكة عالية وقال:

\_كما فعل جبل، لكنه عاد حاويًا وتعود نجارًا كما ذهبت. على أي حال مات عدوك ولكن الخلف كالسلف.

فقالت عبدة بسرعة:

- كلهم كذلك، وما نطمع في شيء إلا أن نعيش كما يعيش المسالمون!

وعرف رجال شافعى فهرعوا إليه، ودار العناق وارتفعت الأصوات، وعاد رفاعة يتفحص ما حوله باهتمام وشغف، وأنفاس قومه تتردد من حوله، فتخفف كثيرًا من وحشة القلب التى غشيته مذ فارق سوق المقطم. ومضت عيناه فى التجول حتى وقفتا عند نافذة فى الربع الأول، تطل منها فتاة راحت تحملق فى وجهه باهتمام، فلما التقت عيناهما رفعت ناظريها إلى الأفق. ولمح ذلك رجل من أصحاب والده فهمس قائلاً:

- عيشة بنت خنفس، نظرة إليها تسبب مذبحة!

فتورد وجه رفاعة وقالت أمه:

ليس هو من هؤلاء الشبان، ولكنه يرى حارته لأول مرة.

ومن الربع الأول خرج رجل في متانة الثور، يرفل في جلباب فضفاض، وينطلق من فوق فيه شارب متحرش في وجه كثير الندوب والبقع فتهامس الناس: «خنفس. . خنفس». وأخذ جواد عم شافعي من يده واتجه به نحو الربع وهو يقول:

\_سلام الله على فتوة آل جبل، إليك أخانا المعلم شافعي النجار، عاد إلى حارته بعد غربة عشرين عامًا!

ألقى خنفس نظرة جامدة على وجه شافعى، متجاهلاً يده الممدودة مليًا، ثم مد له يده دون أن يلين وجهه، ثم تمتم في برود:

\_أهلاً.

وتأمله رفاعة بامتعاض، فهمست أمه في أذنه أن يذهب للسلام عليه.

وذهب رفاعة متضايقًا فمد له يده، وقال عم شافعي:

- ابنى رفاعة.

ونظر خنفس إلى رفاعة نظرة استنكار وازدراء، أوّلها الحاضرون بأنها احتقار لرقته غير المألوفة في الحارة. وصافحه بعدم اكتراث ثم التفت إلى أبيه متسائلاً:

\_ ترى هل نسيت في غربتك سنة الحياة في حارتنا؟

فأدرك شافعي ما يرمي إليه، وقال مداريًا ضيقه:

\_نحن في الخدمة دائمًا يا معلم.

فتفرس في وجهه بريبة وسأله:

\_ لماذا هاجرت من حارتك؟

فصمت شافعي ريثما يجد جوابًا مناسبًا، فقال خنفس:

\_هربًا من زنفل؟

فقال جواد الشاعر مبادراً:

ـ لم يكن ذلك لخطأ لا يغتفر.

فقال خنفس لشافعي محذرًا:

\_لن تجد مني مهربًا عند الغضب.

فقالت عبدة برجاء:

\_ستجدنا يا معلم من أطيب الناس.

ومضى شافعي وأسرته وسط الأصحاب إلى دهليز ربع النصر ليتسلم مسكنًا خاليًا دله

عليه عم جواد. وتراءت في نافذة مطلة على الدهليز فتاة حسناء ذات جمال وقح، وقفت تمشط شعرها أمام زجاج النافذة، فلما رأت القادمين تساءلت في دلال:

\_ من القادم كالعريس في الزفة؟

فتضاحك كثيرون، وقال رجل:

ـ جار لك جديد يا ياسمينة سيقيم في الدهليز أمامك.

فهتفت ضاحكة:

\_ربنا يزيد في الرجال!

ومرت عيناها بعبدة دون اكتراث، لكنها وقفت على رفاعة باهتمام وإعجاب. ودهش رفاعة لنظرتها أكثر من دهشته لنظرة عيشة بنت خنفس. وتبع والديه إلى باب المسكن المقابل لمسكن ياسمينة على الجانب الآخر للدهليز، وصوت ياسمينة يغنى: آه من جماله يامّة.

### ٤٦

فتح عم شافعي دكان النجارة عند مدخل ربع النصر. ومع الصباح خرجت عبدة تتسوق، ومضى عم شافعي وابنه رفاعة إلى الدكان. وجلسا على عتبة الدكان ينتظران الرزق. وكان في حوزة الرجل مال يكفيه شهراً أو يزيد فلم يطرقه القلق، فراح ينظر إلى الدهليز المسقوف بالمساكن، المفضى إلى الحوش الكبير ويقول:

ـ هذا هو الدهليز المبارك الذي أغرق فيه جبل أعداءنا.

فتأمله رفاعة بعينين حالمتين وثغر باسم، فعاد الرجل يقول :

\_ وفي هذه البقعة أقام أدهم كوخه وحدثت الأحداث، وفيها بارك الجبلاوي ابنه وعفا عنه.

فازداد الثغر الجميل ابتسامًا وأغرقت العينان في الحلم. الذكريات الجميلة كلها ولدت في هذا المكان. لولا الزمن لبقيت آثار أقدام الجبلاوي وأدهم، ولردد الهواء أنفاسهم. ومن هذه النوافذ انصبت المياه على الفتوات في الحفرة. من نافذة ياسمينة انصبت المياه على الأعداء. اليوم لا ينصب منها إلا نظرات مرعبة. ويعبث الزمان بكل جليل. أما جبل فانتظر داخل الحوش بين رجال ضعفاء. لكنه انتصر.

ـ انتصر جبل يا أبي ولكن ما جدوى النصر؟

فتنهد الرجل قائلاً:

ـ تعاهدنا على ألا نفكر في ذلك، أرأيت خنفس؟

وعلا صوت غَنج مناديًا:

ـ يا عم يا نجار.

فتبادل الأب وابنه نظرة إنكار، ونهض الأب رافعًا رأسه فرأى ياسمينة تطل من النافذة وضفيرتاها الطويلتان تتدليان وتتأرجحان، فهتف:

\_يانعم.

فقالت بصوت متهالك من العبث:

- ابعث صبيك ليأخذ ترابيزة لإصلاحها.

عاد الرجل إلى مجلسه وهو يقول لابنه: «توكل على الله». ووجد رفاعة باب المسكن مفتوحًا في انتظاره فغمغم قائلاً: «إحم»، فأذنت له بالدخول فدخل. وجدها في جلباب بني ذي كلفة بيضاء حول الطوق وفوق نهضة النهدين. وحافية وعارية الساقين وجدها أيضًا. ولبثت صامتة مليا كأنما لتمتحن أثر منظرها في نفسه، فلما رأت صفاء عينيه لا يتغير أشارت إلى ترابيزة صغيرة قائمة على ثلاث أرجل في ركن الصالة وقالت:

- الرجل الرابعة تحت الكنبة، ركبها وحياتك وادهن الترابيزة من جديد.

فقال بصوت ذي موقع عذب:

\_ في الخدمة يا ست.

\_والثمن؟

\_سأسأل أبى.

فشهقت متسائلة:

\_وأنت؟ ألا تعرف الثمن؟

ـ هو الذي يخاطب فيه.

فتفرست في وجهه بقوة وسألته:

\_ومن يصلحها؟

ـ أنا، ولكن بإشرافه ومعاونته.

فضحكت دون مبالاة وقالت:

ـ بطيخة أصغر فتواتنا دونك في السن، لكنه يستطيع أن يدوخ زفة برمتها، وأنت لا تستطيع أن تركب رجل ترابيزة بمفردك؟!..

فقال رفاعة بصوت من يروم إنهاء الكلام:

ـ المهم أنها ستعود إليك كأحسن ما يكون.

وتناول الرجل الرابعة من تحت الكنبة، وحمل الترابيزة على كتفه واتجه نحو الباب قائلاً:

ـ فتك بعافية .

ولما وضعها أمام أبيه في الدكان قال الرجل بامتعاض وهو يتفحص الترابيزة:

\_ أقول الحق إنى كنت أفضل أن يجيء أول رزق من ناحية أنظف.

فقال رفاعة في سذاجة:

ـ ليست قذرة بحال يا أبي، لكنها وحيدة فيما يبدو.

\_ليس أخطر من امرأة وحيدة!

\_لعلها في حاجة إلى هداية!

فقال عم شافعي ساخرًا:

ـ حرفتنا النجارة لا الهداية، هات الغرا.

وعند المساء ذهب عم شافعى ورفاعة إلى قهوة جبل. كان الشاعر جواد متربعًا على أريكته يحسو قهوته. وجلس شلضم صاحب القهوة عند المدخل، على حين احتل خنفس مكان الصدارة وسط هالة من المعجبين. وقصد شافعى وابنه إلى الفتوة ليؤديا إليه تحية الخضوع ثم اتخذا مكانًا خاليًا جنب شلضم. وما لبث أن تناول عم شافعى الجوزة، وقدم لابنه قدح قرفة بالبندق. وبدا جو القهوة ناعسًا، تنعقد في سمائه سحب الدخان، وتنشر في هوائه الساكن روائح المعسل والنعناع والقرنفل. أما الوجوه ذات الشوارب المستنفرة فلاحت شاحبة ثقيلة الأجفان، وتلاقى السعال والنحنحة بالضحكات الغليظة والنكات الفاجرة، وترامى من بطن الحارة هتاف غلمان يترغون:

ياولاد حـــارتــا تـــوت تــوت انتـــو نصـــاره ولا يهـــــود تاكلـــو إيـــه ناكــل عجــوة تشربــوا إيــــه نشــرب قهــوة

وكانت عند مدخل القهوة هرة تتربص، فانقضت نحو أسفل أريكة، وندّت وسوسة، ثم ظهرت راكضة نحو الحارة قابضة بأسنانها على فأرة. وردّ رفاعة عن فبه قدح القرنفل متقززًا، ورفع عينيه فوقعتا على خنفس وهو يبصق، وصاح خنفس مخاطبًا الشاعر جواد:

\_متى تبدأ يا رأس الدواهى؟

فابتسم جواد وهو يهز رأسه، ثم تناول الرباب، وبعث من أوتارها أنغام الافتتاح.

وبدأ بتحية للناظر إيهاب، فتحية ثانية لبيومى فتوة الحارة، والثالثة توجهت إلى خليفة جبل الفتوة خنفس، ومضى يقول: «وجلس أدهم فى إدارة الوقف يستقبل مستأجرى الأحكار الجدد، وكان ينظر فى الدفتر حينما جاءه صوت الرجل الأخير يقول معلنًا عن اسمه:

\_إدريس الجبلاوي.

فرفع أدهم رأسه في فزع فرأي أخاه واقفًا أمامه . . » .

وواصل الشاعر الحكاية في جو من الإنصات. وتابعه رفاعة بشغف. هذا هو الشاعر وهذه هي الحكايات. كم سمع أمه وهي تقول: «حارتنا حارة الحكايات». وحقّا كانت هذه الحكايات جديرة بالحب. لعل فيها عزاء عن ملاعب سوق المقطم وخلواته. وراحة لقلبه المحترق بهيام غامض. غامض كهذا البيت الكبير المغلق. لا أثر فيه لحياة إلا رءوس أشجار الجميز والتوت والنخيل. وأى دليل على حياة الجبلاوي إلا الأشجار والحكايات؟ وأى دليل على أنه حفيده سوى الشبه الذي لمسه الشاعر جواد بيديه؟ وكان الليل يتقدم، وعم شافعي يدخن جوزة ثالثة، واختفت من الحارة نداءات الباعة وهتافات الليل يتقدم، ولم يعد يبقى سوى أنغام الرباب ودقة دربكة آتية من بعيد. وصراخ امرأة ينهال عليها زوجها ضربًا. أما أدهم فقد جره إدريس إلى مصيره. إلى الخلاء تتبعه أميمة الباكية. كما خرجت أمى من الحارة وأنا في بطنها أضطرب. اللعنة على الفتوات. وعلى اللكية من يستقبل أخاه العائد بقوله لا مهرب منى عند الغضب. وعلى صانعي الرعب وخالقي النفاق. أما أدهم فلم يبق له إلا الخلاء، وهاهو ذا الشاعر يغني أغنية من أغاني وخالقي النفاق. أما أدهم فلم يبق له إلا الخلاء، وهاهو ذا الشاعر يغني أغنية من أغاني الريب المخمورة. ومال إلى أذن أبيه وقال:

\_أريد أن أزور المقاهي الأخرى.

فقال عم شافعي متعجبًا:

ـ قهوتنا خير قهوة في الحارة.

\_ماذا يقول الشعراء هنالك؟

\_الحكايات نفسها ولكنك تسمعها هنالك وكأنها غير الحكايات.

وترامى التهامس إلى شلضم فمال نحو رفاعة قائلاً:

ـ ليس أحد أكذب من أهل حارتنا، والشعراء أكذب الكاذبين، ستسمع في القهوة التالية أن جبل قال إنه ابن الحارة، ووالله ما قال إلا أنه ابن حمدان.

فقال عم شافعي:

- الشاعر يريد إرضاء السامعين بأي ثمن.

فقال شلضم همسًا:

ـ بل يريد إرضاء الفتوة!

وغادر الأب والابن القهوة عند منتصف الليل. وكانت الظلمة كثيفة تكاد أن تتجسد. وهناك أصوات رجال كأنما تصدر عن لا شيء. وسيجارة تتوهج في يد غير مرئية كأنها نجم تهاوى نحو الأرض. وتساءل الأب:

\_أعجبتك الحكاية؟

\_نعم، ما أجمل الحكايات!

فضحك الأب قائلاً:

-عم جواد يحبك، ماذا قال لك في الاستراحة؟

ـ دعاني إلى زيارته في بيته.

ـ ما أسرع أن تُحب، ولكنك صبى بطىء التعلم.

فقال معتذرًا:

لدى عمر كامل للنجارة، ولكن يهمني الآن أن أزور المقاهي جميعًا.

وتلمسا طريقهما إلى الدهليز فترامت إليهما من بيت ياسمينة ضجة مخمورة، وصوت يغني :

يابو الطاقية الشبيكة قل مين شغلها لك

شـــبكت قلبي إلهي ينشــغل بالك

فهمس رفاعة في أذن أبيه:

\_ليست وحيدة كما ظننت.

فتنهد الأب قائلاً:

\_ما أكثر ما ضيعت من عمر في الخلوات!

وراحا يرقيان في السلم على مهل وحذر، وإذا برفاعة يقول:

\_أبى، سأزور عم جواد الشاعر.

#### ٤٧

طرق رفاعة باب جواد الشاعر بالربع الثالث بحى جبل. وكان يتصاعد من الحوش سباب حاد تتبادله نسوة ممن اجتمعن للغسل والطهى فأطل من فوق درابزين الطرقة المستديرة المشرفة على فناء الربع. وكانت المعركة الأساسية تدور بين امرأتين، وقفت أولاهما وراء طشت غسيل تلوح بيدين مغطاتين برغوة الصابون، ووقفت الأخرى عند مدخل الدهليز مشمرة عن ساعديها ترد السب بأفظع منه وترقّص وسطها استهزاء. أما النساء الأخريات فانقسمن إلى فرقتين، وتلاطمت الأصوات حتى تجاوبت جدران الربع بالشتائم المقذعة والقذف العاهر. وسرعان ما جفل مما يرى ويسمع فتحول عن موقفه إلى باب الشاعر متقززًا. حتى النساء، حتى القطط، ودعك من الفتوات. في كل يد مخلب وفي كل لسان سم، وفي القلوب الخوف والضغائن. أما الهواء النقى ففي خلاء المقطم أو في البيت الكبير حيث ينعم الواقف بالسلام وحده! وفتح الباب عن وجه الضرير في المستطلع فحياه فابتسمت أسارير الرجل، وأوسع له وهو يقول:

\_أهلاً بابن أخي.

وتلقى رفاعة أول ما دخل شذى بخور نافذ كأنه أنفاس ملاك. ومضى وراء الرجل إلى حجرة صغيرة مربعة، اصطفت بأضلاعها الشلت، وانبسطت فوق أرضها حصيرة مزركشة، وبدا جوها خلف خصاص النوافذ المغلقة في سمرة الأصيل، وقد زين سقفها حول الفانوس المدلى بصور العصافير والحمام. تربع الشاعر على شلتة فجلس رفاعة إلى جانبه، وقال الرجل:

\_كنا نعد القهوة.

ونادي زوجته فجاءت امرأة حاملة صينية القهوة فقال جواد:

ـ تعالى يا أم بخاطرها، هذا رفاعة ابن عم شافعي.

فجلست المرأة إلى جانب زوجها من الناحية الأخرى، وراحت تصب القهوة في الفناجيل وهي تقول:

\_أهلاً بك يا بني .

بدت في منتصف الحلقة السادسة، مستقيمة العود، قوية البنية، تلفت النظر إليها بعينين نافذتين ووشم فوق الذقن. وأشار جواد ناحية الضيف وقال:

- إنه سمّيع يا أم بخاطرها، شغوف بالحكايات، وبمثله يتحمس الشاعر ويرضى، أما الآخرون فسرعان ما يغلبهم نعاس المنزول والحشيش.

فقالت المرأة بدعابة:

\_حكاياتك جديدة عليه، معادة عليهم.

فقال الشاعر بغيظ:

\_هذا صوت عفريت من عفاريتك . . (ثم موجها الخطاب إلى رفاعة) . . الولية كودية زار . .

فتطلع رفاعة نحو المرأة باهتمام، فالتقت أعينهما وهى تمد له يدها بفنجان القهوة. كم كانت تجذبه دقة الزار فى سوق المقطم. وكان قلبه يتابعها راقصًا، فيقف فى الطريق رافعًا رأسه نحو النوافذ، متطلعًا إلى البخور السابح فى الفضاء والرءوس المترنحة. وسأله الشاعر:

\_ ألم تعرف في غربتك شيئًا عن حارتنا؟

ـ حدثنى أبى عنها كما حدثتنى أمى، ولكن قلبى كان هنالك، فلم أكترث كثيراً للوقف ومشاكله، وعجبت من كثرة ضحاياه، فملت إلى رأى أمى في إيثارها الحب والسلام.

فتساءل جواد وهو يهز رأسه في حزن:

ـ وكيف يتسنى للحب والسلام أن يعيشا بين الفقر ونبابيت الفتوات!

فلم يجبه رفاعة. لا لأنه لم يكن ثمة جواب. ولكن لأن عينيه رأتا لأول مرة صورة غريبة فوق الجدار الأيمن للحجرة. صورة مرسومة بالزيت على الجدار كالصور التي تزين جدران المقاهي. وتمثل رجلاً هائلاً تبدو إلى جانبه ربوع الحارة ضئيلة كلعب الأطفال. فتساءل الشاب:

\_من صاحب هذه الصورة؟

فأجابت أم بخاطرها:

ـ الجبلاوي.

\_هل رآه أحد؟

فقال جواد:

ـ كلا، لم يره أحد من جيلنا حتى جبل لم يتبينه في ظلمة الخلاء، ولكن المبيّض رسمه على مثال ما يرد من أوصافه في الحكايات .

فتساءل رفاعة متنهدًا:

\_ لماذا أغلق أبوابه في وجه أحفاده؟

\_يقولون الكبر، من يدرى كيف تمضى به الأيام! والله لو فتح أبوابه ما بقى أحد من أهل حارتنا في داره القذرة.

\_ألا تستطيع أن . .

ولكن أم بخاطرها قاطعته قائلة :

ـ لا تشغل به نفسك، فإن أهل حارتنا إذا بدءوا بالكلام عن الواقف جرهم الكلام إلى الوقف ثم تقع المصائب أشكالاً وألوانًا .

فهز رأسه في حيرة متسائلاً:

\_وكيف لا تشغل النفس بمثل هذا الجد العجيب؟!

لنفعل مثله، فإنه لا يشغل بنا نفسه.

فرفع رفاعة بصره إلى الصورة ثم قال:

ـ لكنه قابل جبل وكلمه.

ـ نعم، ولما مات جبل جاء زنفل ثم خنفس، وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا .

فضحك جواد وقال لامرأته:

- إن الحارة في حاجة إلى من يخلصها من شياطينها كما تخلصين المسوسين من عفاريتهم.

فابتسم رفاعة وقال:

\_ يا عمتى إن العفاريت حقّا هم أولئك الناس، لو رأيت كيف كانت مقابلة خنفس لأبي!

ـ لا شأن لى بأولئك، عفاريتي الآخرون يذعنون لى كما كانت الثعابين تذعن لجبل، وعندى لهم جميع ما يحبون من بخور سوداني وتعاويذ حبشية وأغان سلطانية.

فسألها رفاعة باهتمام:

\_ومن أين أتتك هذه القدرة على العفاريت؟

فحدجته بنظرة حذرة وقالت:

ـ هي حرفتي كما أن النجارة حرفة أبيك، جاءتني من وهاب المنن!

فأفرغ رفاعة ثمالة الفنجان في فيه وهم بالكلام، غير أن صوت عم شافعي تصاعد من الحارة صائحًا:

\_يا رفاعة، يا ولديا كسول.

فقام رفاعة إلى النافذة ففتحها وأطل منها حتى التقت عيناه عيني أبيه وهتف:

\_أمهلني نصف ساعة يا أبي.

فرفع الرجل منكبيه فيما يشبه اليأس ورجع إلى دكانه. وعندما أخذ رفاعة يغلق النافذة رأى عيشة في موقفها بالنافذة كما رآها أول مرة، ترنو إليه باهتمام. خيل إليه أنها ابتسمت. أو أن عينيها تكلمتا. وتردد لحظة، لكنه أغلق النافذة وعاد إلى مجلسه. وإذا بجواد يضحك قائلاً:

\_ أبوك يريد لك النجارة، ولكن فيم ترغب أنت؟

فتفكر رفاعة مليّا ثم قال:

- على أن أكون نجارًا كأبي، ولكني أحب الحكايات، وهذه الأسرار حول العفاريت، فحدثيني عنها يا عمتي.

فابتسمت المرأة وبدت كأنها سمحت بأن تهبه «قليلاً» من علمها فقالت:

لكل إنسان عفريت هو سيده، ولكن ليس كل عفريت بشر يجب أن يخرج.

\_وكيف غيز بين هذا وذاك؟

عمله يدل عليه، أنت مثلاً ولد طيب فما يستحق سيدك إلا الجميل، وليس هكذا عفاريت بيومي وخنفس وبطيخة!

فقال ببراءة:

\_وعفريت ياسمينة هل يجب أن يخرج؟

فضحكت أم بخاطرها وقالت:

\_ جارتكم؟ لكن رجال جبل يريدونها كما هي.

فقال باهتمام جدى:

\_أريد أن أعرف هذه الأشياء فلا تبخلي على".

فقال جواد:

- من ذا الذي يبخل على الابن الطيب؟

وقالت أم بخاطرها:

ـ جـميل أن تلازمني كلما سـمح الوقت، ولكن على شـرط ألا يغـضب أبوك، وسيتساءل الناس: ما لهذا الولد الطيب والعفاريت؟! ولكن اعلم ألا داء للناس إلا العفاريت.

وكان رفاعة يستمع وهو يرنو إلى صورة الجبلاوي.

# ٤٨

النجارة مهنته ومستقبله، لا مهرب منها فيما يبدو. إن تكن نفسه لا ترتاح إليها فأى شيء ترتاح إليه نفسه؟ إنها أفضل من السعى الكادح وراء عربات اليد، أو من حمل المقاطف والسلال. أما المهن الأخرى كالبلطجة والفتونة فما أبغضها وأمقتها. أم بخاطرها أثارت خياله كما لم يثره شيء من قبل اللهم إلا صورة الواقف المرسومة على جدار الحجرة في بيت جواد الشاعر. وحض أباه يومًا على رسم صورة مثلها في بيتهم أو

فى الدكان، فقال له الرجل نحن أولى بنفقاتها، وهى خيال وما قيمة الخيال؟ فما كان منه إلا أن قال له بودى لو أراه! فضحك الرجل ضحكة عالية وقال له معاتبًا: أليس الأفضل أن ترى عملك؟! لن أعيش لك إلى الأبد، وعليك أن تتأهب ليوم تحمل فيه وحدك أعباء أمك وزوجك وأطفالك.

لكنه لم يكن يفكر في شيء كما كان يفكر فيما تقول أو تفعل أم بخاطرها. بدت له أحاديثها عن العفاريت غاية في الأهمية. ولم تزايل وعيه حتى في الأوقات السعيدة التي تردد فيها على مقاهي الحارة واحدة بعد أخرى. حتى الحكايات نفسها لم ترسب في نفسه كما رسبت أحاديث أم بخاطرها. لكل إنسان عفريت هو سيده، وكما يكون السيد يكون العبد. . هكذا تردد أم بخاطرها. وكم من ليلة قضاها في حضرة الست، يتابع دقات الزار ويشهد ترويض العفاريت. ومن المرضى من يساق إلى البيت في حال خمود وإعياء، ومنهم من يحمل مقيدًا في الأغلال اتقاء لشره. ويُحرق البخور المناسب، إذ لكل حال بخورها، وتدق الدقة المطلوبة إذ لكل عفريت دقة يطلبها، ثم تحدث الأعاجيب.

إذن عرفنا أن لكل عفريت دواءه ولكن مادواء ناظر الوقف وفتواته؟! هؤلاء الأشرار يسخرون من الزار ولعله لم يخلق إلا لهم! القتل هو الوسيلة إلى الخلاص منهم أما العفريت فيستكين بالبخور الزكى والنغمة الطيبة. كيف يؤخذ العفريت الشرير بالجميل الطيب؟!ألا ما أجل ما نتعلمه من الزار والعفاريت! وقال لأم بخاطرها إنه يرغب من أعماق قلبه في تلقى أسرار الزار، فسألته أتطمع في المال الكثير؟ فأجابها بأنه في تطهير الحارة يرغب لا في المال الكثير، وضحكت المرأة قائلة إنه أول رجل يرغب في هذا العمل، فماذا استهواه فيه؟ فأكد قائلاً إن أحكم ما في عملك أنك تهزمين الشر بالطيب الجميل. ولما مضت تبيح له أسرارها طاب نفساً.

وإعرابًا عن مسرته كان يصعد إلى سطح الربع فى نشوة الفجر ليشهد يقظة النور، ولكن البيت الكبير يستأثر بلبه دون النجوم والسكون وصياح الديكة، ويرنو إلى البيت الراقد بين الأشجار طويلاً، ثم يتساءل: أين أنت يا جدى؟ لماذا لا تظهر ولو لحظة! لماذا لا تخرج ولو مرة؟ لماذا لا تتكلم ولو كلمة؟ ألا تدرى أن كلمة منك تغير حارتنا من حال إلى حال؟ أم يرضيك ما يجرى بها؟ وما أجمل الأشجار حول بيتك! إنى أحبها لأنك تجبها، وأنظر إليها لألتقى نظراتك المطبوعة عليها.

وكلما أفضى بخواطره إلى أبيه سمع عتابًا وقال له: «وعملك يا كسلان؟! إن أمثالك من الشبان يجوبون الأحياء سعيًا وراء الرزق أو يهزون الحارة إذا رفعوا النبابيت!».

ويومًا كانت الأسرة مجتمعة عقب الغداء إذا بعبدة تقول لزوجها باسمة :

ـ قل له يا معلم .

أدرك رفاعة أنه المقصود بالكلام، فنظر إلى أبيه مستطلعًا لكن الرجل خاطب زوجته قائلا:

ـ حدِّثيه أنت بما عندك أولاً.

فنظرت عبدة إلى ابنها بإعجاب وقالت:

ـ خبر سعيد يا رفاعة ، زارتنى ست زكية زوجة فتوتنا خنفس! ورددت لها الزيارة بطبيعة الحال فاستقبلتني بحفاوة وقدمت إلى ابنتها عيشة ، بنت جميلة كالقمر ، ثم زارتني مرة أخرى ومعها عيشة .

ولحظ عم شافعي ابنه بطرف خفي وهو يرفع فنجال القهوة إلى فيه ليرى أثر الحكاية في نفسه، ثم هز رأسه هزة من قدر الصعوبة التي تنتظره، وقال بتفخيم:

ــ هذا شرف لم يحظ بمثله بيت في حيّ آل جبل، تصور أن زوجة خنفس وابنته يزوران بيتنا هذا!

رفع رفاعة عينيه إلى أمه حائرًا فقالت بحماس:

\_ما أفخم مسكنهم، المقاعد الوثيرة، السجاد الفاخر، حتى الستائر تنسدل فوق النوافذ والأبواب.

فقال رفاعة ممتعضًا:

ـ كل هذا الخير من أموال آل جبل المغتصبة!

فداري عم شافعي ابتسامة وهو يقول:

\_ تعاهدنا على ألاّ نتكلم في هذا الموضوع.

قالت عبدة باهتمام:

\_ فلنذكر فقط أن خنفس سيد آل جبل وأن صداقة أهله دعاء مستجاب.

فقال رفاعة في ضجر:

\_ مباركة عليك هذه الصداقة!

فتبادلت الأم مع زوجها نظرة ذات معنى، قالت على أثرها:

\_إن مجيء عيشة مع أمها حدث له معنى!

فتساءل رفاعة وهو يشعر بانقباض:

\_ما معناه يا أمى؟

فضحك شافعي وهو يلوح بيده يائسًا وقال مخاطبًا عبدة.

\_كان ينبغي أن نقص عليه كيف تم زواجنا!

فهتف رفاعة بضيق:

- كلا! كلا يا أبى.

\_ماذا تعنى؟ ومالك تبدو كالعذراء؟

وقالت عبدة بإغراء ورجاء:

- أنت الذى بيدك أن تدخلنا نظارة وقف آل جبل، سيرحبون بك إذا تقدمت، حتى خنفس سيرحب بك، إذ لولا ثقة المرأة في مكانتها عنده ما أقدمت على تلك الخطوة، أمامك جاه ستحسدك الحارة عليه من أولها إلى آخرها.

وقال الأب ضاحكًا:

ـ من يدري فلعلنا نراك يومًا ناظرًا لوقف جبل أو ترى أنت أحد أبنائك فيه.

\_أنت الذي تقول ذلك يا أبي؟! أنسيت لماذا هاجرت من الحارة منذ عشرين عامًا؟

فرمش عم شافعي في شيء من الارتباك وقال:

ـ نحن نعيش اليوم كما يعيش غيرنا، فلا يجوز أن نهمل انتهاز فرصة تجيء بنفسها إلينا.

وتمتم رفاعة وكأنه يحادث نفسه:

ـ كيف أصهر إلى عفريت وأنا لا هم لي اليوم إلا مطاردة العفاريت؟!

فصاح شافعی محتداً:

ما طمعت يومًا في أن أجعل منك أكثر من نجار، ولكن الحظ يعرض عليك درجة مرموقة في حارتنا، ولكنك تريد أن تكون كودية زار، يا للعار، أي عين أصابتك؟ قل إنك ستتزوجها ودعنا من الهزل!

ـ لن أتزوجها يا أبي.

فقال شافعي دون مبالاة:

\_سأزور خنفس لأطلب القرب منه.

فهتف رفاعة بحرارة:

ـ لا تفعل يا أبي.

فسأله أبوه في جزع:

ـ خبّرني ما شأنك يا ولد؟!

وتوسلت عبدة إلى زوجها قائلة:

ـ لا تشتد عليه، أنت أعلم بحاله.

- \_يا سوء ما أعلم، حارتنا تعيرنا برقته.
  - \_ ترفق به حتى يفكر في الأمر.
- \_ أقرانه آباء، والأرض تهتز عند وقع أقدامهم.
  - وحدجه بنظرة مغيظة ثم استطرد محتدًا:
- ـ لماذا يهرب الدم من وجهك؟ إنك من صلب رجال!

وتنهد رفاعة. الصدر منقبض لحد البكاء. وشائج الأبوة يمزقها الغضب. والبيت يقسو حينًا فيرتد سجنًا كئيبًا. ومرادك ليس في هذا المكان ولا بين هؤلاء الناس. وقال بصوت مبحوح:

- ـ لا تعذبني يا أبي.
- \_أنت الذي تعذبني، كما عذبتني منذ ولدت.

وأحنى رفاعة رأسه حتى اختفى وجهه عن والديه، وأخفض الرجل من صوته وسكّن ما استطاع غضبه، ثم سأله:

\_هل تخاف الزواج؟ ألا تحب أن تتزوج؟ صارحني بما في نفسك، أم أذهب إلى أم بخاطرها فلعلها تعرف عنك ما لا نعرف!

فهتف بحدة:

\_کلا. .

وقام فجأة فغادر الحجرة.

## ٤٩

ونزل عم شافعى ليفتح الدكان فلم يجد رفاعة هناك كما توقع. لكنه لم يناد عليه وقال لنفسه: إنه من الحكمة أن يتظاهر بالبرود لغيابه. ومضى النهار يزحف رويداً وضوء الشمس ينحسر عن أرض الحارة والنشارة تتكاثف حول قدمى شافعى دون أن يظهر رفاعة. وأتى المساء فأغلق الرجل الدكان وهو فى غاية من الضيق والغضب. وقصد كعادته قهوة شلضم واتخذ مجلسه، ولما رأى جواد الشاعر قادماً وحده تولاه العجب وسأله:

\_إذن أين رفاعة؟

فأجابه الرجل وهو يتلمس طريقه إلى أريكته:

\_لم أره منذ أمس.

فقال شافعي بقلق:

ـ لم أره منذ تركنا بعد الغداء.

رفع جواد حاجبيه الأشيبين ثم تساءل وهو يتربع على الأريكة ويضع الرباب إلى جانبه:

\_هل وقع بينكما شيء؟

ولم يجبه شافعي، وقام فجأة فغادر القهوة. وتعجب شلضم لقلق شافعي وقال ساخراً:

ـ هذه طراوة لم تعرفها حارتنا مذ أقام إدريس كوخه في الخلاء. كنت أتغيب في صغرى عن الحارة أيامًا فلا يسأل عني أحد، وعند عودتي يصيح بي أبي الله يرحمه: «ما الذي عاد بك يا بن اللئيمة؟».

فعلق خنفس على كلامه من صدر القهوة قائلاً:

\_أصله لم يكن على يقين من أنك ابنه.

وضجت القهوة بالضحك، وهنأ كثيرون خنفس على جميل دعابته! أما عم شافعى فمضى إلى بيته وسأل عبدة: هل عاد رفاعة؟ فاستحوذ القلق على المرأة، وقالت: إنها كانت تظنه بالدكان كعادته. واشتد قلقها حين أخبرها أنه لم يذهب كذلك إلى بيت جواد الشاعر، وراحت المرأة تتساءل في قلق:

\_إذن أين ذهب؟

وترامى إليهما صوت ياسمينة وهى تزعق منادية على بياع تين، فنظرت عبدة إلى شافعى نظرة مريبة فهز الرجل رأسه برمًا وأطلق ضحكة جافة مقتضبة ساخرة، ولكن المرأة قالت:

\_ فتاة مثلها تحل العُقَد!

وذهب الرجل إلى بيت ياسمينة مدفوعًا باليأس وحده . طرق الباب ففتحت ياسمينة بنفسها ، ولما عرفته تراجع رأسها في دهش مقرون بالظفر وقالت :

\_أنت؟! ياما تحت الساهي دواهي!

فغض الرجل بصره أمام شفافية قميصها وقال بانكسار:

\_رفاعة عندك؟

فازدادت دهشة وقالت:

\_رفاعة! لمه؟

فَعَلا الرجل الارتباك؟ فأشارت إلى الداخل وهي تقول:

\_ابحث عنه بنفسك.

لكن الرجل استدار ليذهب فسألته ساخرة:

ـ هل أدركه البلوغ اليوم؟

وسمعها تخاطب شخصًا في الداخل قائلة:

\_ في هذا الزمان الفتى يخشى عليه أكثر من الفتاة.

ووجد عم شافعي عبدة تنتظره في الدهليز، فقالت له:

\_سنذهب معًا إلى سوق المقطم.

فصاح الرجل بغضب:

\_الله يتعبه، أهذا جزائي بعد يوم عمل شاق؟!

واستقلا عربة كارو إلى سوق المقطم، وسألا عنه عند جيرانهما الأقدمين، وعند المعارف فلم يعثرا له على أثر. أجل كان يتغيب ساعات في العصاري أو الأصائل في الخلوات أو الجبل، ولكن لا يتصور أحد أن يلبث حتى هذه الساعة من الليل في الخلاء. وعادا إلى الحارة كما ذهبا ولكن على حال من الجزع أشد. ولاكت الألسن اختفاء وبخاصة بعد أن مضت عليه أيام. صار دعابة في القهوة وبيت ياسمينة وفي حي آل جبل تندَّر الجميع بفزع والديه. ولعل أم بخاطرها وعم جواد كانا الوحيدين اللذين شاركا والديه في حزنهما. وقال عم جواد: «أين ذهب الفتي؟ ليس هو من أولئك الشبان، لو كان على شاكلتهم ما جزعنا!». وصاح بطيخة مرة وهو سكران: «جدع تايه يا أو لاد الحلال»، كأنما ينادي على طفل تائه، فضحكت الحارة وراح الغلمان ير ددونها. ومرضت عبدة من الحزن. وعمل شافعي في دكانه بعقل شارد وعينين محمرتين من الأرق. أما زكية زوجة خنفس فقد انقطعت عن زيارة عبدة وتجاهلتها في الطريق. ويومًا كان شافعي مكبًا على نشر قطعة من الخشب إذ صاحت به ياسمينة وهي عائدة من مشوار:

\_عم شافعي. . انظر .

وجدها تشير إلى نهاية الحارة عند الخلاء فغادر الدكان والمنشار في يده ليرى ما تشير إليه فرأى ابنه رفاعة يتقدم نحو الربع في استحياء. وترك الرجل المنشار أمام الدكان وهرع نحو ابنه وهو يتفحصه بدهشة، ثم قبض على عضديه هاتفًا:

رفاعة! أين كنت؟ ألا تدرى ما يعنى غيابك لنا؟ لأمك المسكينة التى تكاد أن تموت جزعًا؟

ولم ينبس الشاب، ووضح للأب هزاله فسأله:

\_هل كنت مريضًا؟

فأجاب في ارتباك:

-كلا، دعنى أرى أمى.

واقتربت ياسمينة منهما وسألت الشاب في ارتياب:

ـ ولكن أين كنت؟

فلم ينظر نحوها. وتجمَّع حوله الغلمان، فسار به أبوه إلى البيت. وسرعان ما تبعهما عم جواد وأم بخاطرها. ولما رأته أمه وثبت من الفراش وضمَّته إلى صدرها وهي تقول بصوت ضعيف:

\_سامحك الله . . كيف هانت عليك أمك؟

فتناول راحتها بين يديه وأجلسها على الفراش وجلس إلى جانبها وهو يقول:

\_ إنى آسف . .

فرفع أبوه وجهًا متجهمًا نقيض الارتياح الساري في أعماقه كالغمامة السوداء المظِلَّة لوجه القمر وقال بعتاب:

\_ليس الأمر إلا أننا قصدنا إسعادك!

فتساءلت عبدة بعينين مغرورقتين:

ـ توهمت أننا نجبرك على الزواج؟!

فقال بحزن:

\_إنى متعب.

فسأله أكثر من صوت:

\_أين كنت؟

فتنهد قائلاً:

- ضقت بحياتي فذهبت إلى الخلاء، شعرت برغبة في الوحدة والخلاء. ولم أكن أتركه إلا لشراء الطعام.

فضرب الأب جبهته بيده وصاح:

\_ما هكذا يفعل العقلاء!

وإذا بأم بخاطرها تقول في إشفاق:

ـ دعوه، أنا خبيرة بهذه الأحوال، ولا يصح أن يُفرض على مثله شيء يأباه.

فقالت عبدة وهي تشد على يده:

ـ كانت سعادته أملنا، ولكن ما قدر كان، كم ضمرت يا بني!

وتساءل عم شافعي في غيظ:

ـ دلوني على شيء كهذا حصل من قبل في حارتنا!

فقالت أم بخاطرها في لوم:

\_ليس حاله بالغريب على يا عم شافعي، صدقني، إنه شاب نادر المثال!

فغمغم عم شافعي في حزن:

ـ صرنا أحدوثة في الحارة.

فقالت أم بخاطرها غاضبة:

\_ ليس في الحارة كلها فتى مثله.

فقال عم شافعي:

\_هذا موضع الأسي.

فصاحت أم بخاطرها:

\_وحِّد الله يا رجل، أنت لا تدرى ماذا تقول ولا تفهم ما يقال.

0 •

أصبح للدكان منظر يوحى بالنشاط والنجاح. فعند طرف الطاولة وقف عم شافعى ينشر الخشب، وعند طرفها الآخر قبض رفاعة على القدوم وراح يدق المسامير، أما أسفل الطاولة فبدا إناء الغراء مغروسًا في ركام النشارة حتى منتصفه. وأسندت إلى الجدران ضلفات نوافذ ومصاريع أبواب، يتوسطها صف عمودى من الصناديق الجديدة بلون الخشب الباهت المصقول لا ينقصها إلاّ الدهان. وامتلأ الجو برائحة خشبية وأصوات النشر والدق والحك وقرقرة الجوز يدخنها أربعة زبائن جلسوا عند مدخل الدكان يتحادثون. وقال حجازى مخاطبًا عم شافعى:

- سأجرب مهارتك في هذه الكنبة، وإن شاء الله سيكون العمل القادم جهاز البنت (ثم مخاطبًا أصحابه). . وأعود فأقول لكم إننا نعيش في أيام لو عاد إليها جبل لجُن .

فهزوا رءوسهم في أسي وهم يدخنون، أما برهوم التربي فسأل عم شافعي سمًا:

ـ لماذا لا تريد أن تصنع لى تابوتًا؟ أليس كل شيء بثمنه؟ فكف عم شافعي يده عن المنشار لحظة وقال ضاحكًا:

ـ يفتح الله، وجود التابوت في الدكان يهرّب الزبائن.

فقال فرحات مؤمِّنًا على قوله:

\_صدقت، قطع الموت وسيرته.

فعاد حجازي يقول:

-عيبكم أنكم تخافون الموت أكثر مما ينبغى: لذلك سيطر عليكم خنفس، وتسلطن بيومى، وصادر إيهاب أرزاقكم.

\_ وأنت ألا تخاف الموت مثلنا؟

فبصق ثم قال:

- العيب عيبنا جميعًا، كان جبل قويّا، وبالقوة والعنف استخلص لنا حقنا الذي أضاعه الحين.

وإذا برفاعة يتوقف عن الدق فيخرج المسامير من فيه ويقول:

ـ أراد جبل استخلاص حقنا بالحسني. ولم يعمد إلى القوة إلا دفاعًا عن نفسه.

فضحك حجازي استهزاء وقال متسائلاً:

\_خبرني يا بني هل تستطيع دق المسامير إلا بالقوة؟

فقال رفاعة باهتمام جدى:

\_ليس الإنسان كالخشب يا معلم.

وحدجه أبوه بنظرة فعاد إلى عمله. واستطرد حجازي قائلاً:

\_الحق أن جبل كان فتوة من أشد الفتوات الذين عرفتهم حارتنا، وكم حث آل جبل على الفتونة.

فقال فرحات مصحّحًا:

\_أراد منهم أن يكونوا فتوات على الحارة لا على آل جبل.

ـ وما هم اليوم إلا فئران أو أرانب.

وتساءل عم شافعي وهو يجفف أنفه بظهر يده:

\_وأي الألوان تفضل يا عم حجازي؟

\_اختر لونًا لا يتوسخ بسرعة، فهذا أضمن للنظافة.

وواصل حديثه للأصحاب فقال:

\_ ويوم فقأ دعبس عين كعبلها فقأ جبل عينه، فبالجبروت أقام العدل. .

وتنهد رفاعة بصوت مسموع وقال:

ـ لا يعوزنا الجبروت، كل ساعة من نهار أو ليل نرى أناسًا يضربون ويجرحون ويقتلون، حتى النساء ينشبن الأظافر حتى تسيل الدماء، ولكن أين العدل؟ ألا ما أقبح هذا كله!

ووجم الجميع لحظة ثم قال حنورة، وكان يتكلم لأول مرة:

\_هذا المعلم الصغير يحتقر حارتنا! إنه رقيق أكثر من اللازم وأنت السبب يا معلم شافعي.

\_أنا؟!

ـ نعم، إنه شاب مدلّع.

والتفت حجازي نحو رفاعة وقال ضاحكًا:

\_ خير من هذا أن تجد لنفسك عروسًا!

وتعالى الضحك، فقطب عم شافعي، وتورد وجه رفاعة، وعاد حجازي يقول مؤكدًا:

-القوة . . القوة ، بغيرها لا يسود العدل!

فقال رفاعة بإصرار على رغم نظرات أبيه إليه:

- الحق أن حارتنا في حاجة إلى الرحمة.

فضحك برهوم التربي قائلاً:

\_ أتريد أن تخرب بيتي؟

وضجوا بالضحك. وأعقب ذلك نوبات سعال، حتى قال حجازى وقد صارت عيناه في لون الغرا:

- قديًا ذهب جبل إلى الأفندي يسأله العدل والرحمة، فأرسل إليه زقلط ورجاله، ولولا النبابيت ـ لا الرحمة ـ لهلك جبل وآله.

وهتف عم شافعي محذرًا:

\_ يا هوه! للحيطان أذان، ولو سمعوكم ما وجدتم من يسمّى عليكم.

فقال حنورة:

\_صدق الرجل، ما أنتم إلا حشاشون لا خير فيكم، ولو مرّ أمامكم الآن خنفس لسجدتم بين يديه.

ثم وهو يلتفت نحو رفاعة:

ـ لا تؤاخذنا يا بني، فليس على الحشاش حرج، ألم تجرب الحشيش يا رفاعة؟ فقال عم شافعي ضاحكًا: ـ لا يميل إلى مجالسه، وإن زاد على نفسين لهث أو نام.

فقال فرحات:

\_ما ألطف هذا الشاب، يظنه البعض كودية زار لملازمته لأم بخاطرها، ويظنه آخرون شاعرًا لتعلقه بالحكايات.

فقال حجازي ضاحكًا:

\_ويكره مجالس الحشيش كما يكره الزواج!

ونادى برهوم صبى القهوة ليأخذ الجوز، ثم قاموا مسلمين فانفض المجلس. وترك عم شافعي المنشار لينظر إلى ابنه في عتاب ثم قال:

ـ لا تحشر نفسك في أحاديث أولئك الناس.

وجاء غلمان ليلعبوا أمام الدكان فدار رفاعة حول الطاولة حتى وقف أمام أبيه، ثم تناول يده وتراجع به إلى ركن الدكان بعيداً عن الآذان. بدا منفعلاً قلقاً لكن تطبَّقت شفتاه في تصميم. وشع من عينيه نور عجيب حتى تساءلت عينا الرجل. وإذا برفاعة يقول:

\_ لن أستطيع السكوت بعد اليوم.

فتضايق الأب. يا له من متعب هذا الابن العزيز. ينفق وقته الغالى في بيت أم بخاطرها. ويخلو الساعات الطوال إلى نفسه عند صخرة هند. وإذا مكث في الدكان ساعة أثار المشاكل بمناقشاته.

\_هل تجد تعبًا؟

فقال بهدوء غريب حل محل القلق:

ـ لا يجوز أن أخفى عليك ما في نفسي.

\_ماذا عندك؟

فاقترب منه أكثر وقال:

\_أمس عقب خروجي من بيت الشاعر عند منتصف الليل شعرت برغبة في الانطلاق فقصدت الخلاء، مشيت في الظلام حتى تعبت، ثم اخترت مكانًا أسفل سور البيت الكبير المشرف على الخلاء فجلست مسندًا ظهري إلى السور.

فبدا الاهتمام في عيني الرجل، وحثه بنظرة على متابعة الحديث فقال:

ـ سمعت صوتًا غريبًا يتكلم، كأنما كان يحدث نفسه في الظلام، فدهمني شعور مشرق بأنه صوت جدنا الجبلاوي .

فحملق الرجل في وجه ابنه وتمتم في ذهول:

- صوت الجبلاوي؟! ما الذي حملك على هذا الظن؟

فقال رفاعة بحرارة:

ـ ليس ظنّا يا أبي، سيجيئك الدليل. وقد قمت حال سماعي الصوت فاستدرت نحو البيت وتراجعت إلى الوراء لأتمكن من رؤيته ولكني لم أرَ إلاّ ظلامًا.

\_ الحمد لله!

- صبرًا يا أبي، سمعت الصوت وهو يقول: «أما جبل فقد قام بمهمته وكان عند حسن الظن به، ولكن الأمور ارتدّت إلى أقبح مما كانت عليه»!

شعر شافعي بصدره يحترق وتفصّد جبينه عرقًا، وقال بصوت متهدج:

ما أكثر الذين جلسوا مجلسك تحت السور فلم يسمعوا شيئًا.

\_لكني أنا سمعت يا أبي.

\_لعله أحد كان راقدًا في الظلام!

فهز رأسه بعزم وقال:

ـ بل جاء الصوت من البيت!

\_كيف عرفت هذا؟

ـ هتفت قائلاً: «يا جدى، جبل مات، وخلفه آخرون، فمدّ إلينا يدك.

فقال شافعي باضطراب:

- الله أسأل ألا يكون أحد سمعك.

فقال رفاعة بعينين مضيئتين:

ـ جدى سمعنى ، وجاءنى صوته قائلاً: «ما أقبح أن يطالب شاب جده العجوز بالعمل ، والابن الحبيب من يعمل . . » . فسألته : «وما حيلتى حيال أولئك الفتوات أنا الضعيف؟» فأجابنى : «الضعيف هو الغبى الذى لا يعرف سر قوته وأنا لا أحب الأغساء» .

فتساءل عم شافعي في فزع:

ـ أتظن أن هذا الكلام دار بينك وبين الجبلاوي؟

ـ نعم ورب السماوات!

فند عن الرجل أنين، وقال متوجعًا:

ـ يا للأوهام خلاقة المصائب!

\_ صدقني يا أبي، ليس فيما أقول شك.

فقال الرجل متحسرًا:

ـ لا تقطع أملى في أن نجد فيه شكاً.

فقال رفاعة بوجه يتألق نشوة كالنغمة الحلوة:

\_وأعرف الآن ما يراد مني .

فضرب الرجل جبينه بغيظ وصاح متسائلاً:

ـ وهل أيضًا يراد منك شيء؟

ـ نعم، إنى ضعيف ولكني لست غبيًّا، والابن الحبيب من يعمل!

فهتف شافعي وهو يشعر كأن المنشار ينشر صدره:

\_سيكون عملك أسود، وسوف تهلك وتجرنا معك إلى الهلاك!

فقال رفاعة باسمًا:

\_إنهم لا يقتلون إلا من يتطلع إلى الوقف!

ـ وهل تتطلع إلى شيء غير الوقف؟

فقال رفاعة بصوت مليء بالثقة:

- كان أدهم ينشد الحياة الصافية الغنّاء، كذلك جبل وهو لم يطالب بحقه في الوقف إلا سعيًا وراء الحياة الصافية الغنّاء، لكن غلب علينا الظن بأن هذه الحياة لن تتيسر لأحد إلا إذا توزع الوقف على الجميع فنال كلّ حقه واستثمره حتى يغنيه عن الكد فتخلص له الحياة الصافية الغناء، ولكن ما أتفه الوقف إن أمكن بلوغ هذه الحياة بدونه، وهو أمر ممكن لمن يشاء، وبوسعنا أن نغني منذ الساعة!

فتنهد عم شافعي في شيء من الارتياح، وتساءل:

ـ هل قال لك جدك ذلك؟

\_قال إنه لا يحب الغباء، وقال إن الغبى هو الذى لا يعرف سر قوته، وإنى آخر من يدعو إلى قتال فى سبيل الوقف. الوقف لا شىء يا أبى، وسعادة الحياة الغنّاء هى كل شىء، ولا يحول بيننا وبين السعادة إلا العفاريت الكامنة فى أعماقنا، ولم يكن عبثًا أن أشغف بطب العفاريت وأن أحسنه، لعلها إرادة رب السماوات هى التى دفعتنى إليه.

ارتاح شافعي بعد عذاب، ولكن بعد أن استنفد العذاب قواه، فانحط على النشارة، مادًا ساقيه، مسندًا ظهره إلى ضلفة نافذة منتظرة دورها في الإصلاح، ثم ساءل ابنه في شيء من السخرية:

- وكيف لم نبلغ الحياة الغناء وفينا أم بخاطرها من قبل أن تولد أنت؟ فقال رفاعة بالصوت المليء بالثقة: ـ لأنها تنتظر حتى يجيء إليها المرضى الموسرون ولا تذهب بنفسها إلى المساكين.

فنظر عم شافعي في أركان دكانه وقال بارتياب:

\_انظر إلى إقبال الرزق علينا فماذا يخبئ لنا الغد من تحت رأسك؟

فقال رفاعة بابتهاج:

- كل خيريا أبي، إن شفاء المرضى لن يقلق إلا العفاريت.

وتوهج ضياء في الدكان منبعث من مرآة صوان قرب الباب، عاكسًا شعاع الشمس لائلة .

### 01

وانتقل القلق ليلاً إلى بيت عم شافعى. ومع أن الحديث تناهى إلى عبدة فى إطار من الطمأنينة، ومع أنها لم تعلم سوى أن رفاعة سمع صوت جده وهو يتكلم وأنه قرر بعد ذلك أن يزور المساكين ليطرد عنهم العفاريت، إلا أن القلق اجتاح نفسها ولبثت تقلب وجوه العواقب. كان رفاعة فى الخارج. وكان فى أقصى الحارة بعيداً عن حى آل جبل عرس تترامى منه أصوات طبل وزمر وزغاريد. وأرادت المرأة أن تواجه الحقيقة فقالت يحزن:

\_رفاعة لا يكذب.

فقال شافعي بامتعاض:

ـ ولكن الأوهام قد تخدعه: كلنا عرضة لذلك.

\_وماذا ترى فيما سمع؟

\_كيف لى بأن أجزم؟!

ـ لا محال في الأمر ما دام جدنا حيّا.

- الويل لنا لوعرف الخبر.

فقالت برجاء:

\_ فلنكتم الخبر ولنحمد الله على أنه ركز اهتمامه بالنفوس لابالوقف، وما دام لا يؤذي أحدًا فلن يؤذيه أحد.

فقال شافعي بفتور:

\_ ما أكثر الذين يُؤذَون في حارتنا دون أن يؤذُوا أحداً!

واختفت أنغام العرس وراء ضجة انفجرت في الدهليز. وأطلا من النافذة فرأيا الدهليز مزدحمًا بالرجال، وتبينا على ضوء مصباح في يد أحدهم وجوه حجازى وبرهوم وفرحات وحنورة وآخرين، وكان كل لسان يتكلم أو يصرخ فاختلطت الأصوات وعمت الضوضاء. وعلا صوت هاتفًا: «شرف آل جبل في الميزان، ولن نسمح لأحد بتلويثه». وهمست عبدة في أذن زوجها وهي ترتعد:

ـ سر ابننا انكشف!

فتراجع شافعي عن النافذة متأوهًا وهو يقول:

\_لم يكذبني قلبي قط.

واندفع الرجل خارج بيته غير مبال بالخطر فتبعته زوجه على الأثر . وشق الرجل فى الزحام سبيلاً متسائلاً بصوت مرتفع :

\_رفاعة!.. أين أنت يا رفاعة؟

ولم يرَ الرجل ابنه في مجال ضوء المصباح، ولم يسمع صوته، ولكن حجازي اقترب منه وسأله بصوت مرتفع ليسمعه على رغم الضوضاء:

ـ هل تاه ابنك مرة أخرى؟

وصاح به فرحات:

\_ تعال اسمع ما يقال وانظر كيف يعبث العابثون بآل جبل على آخر الزمان! فهتفت عبدة جزعًا:

\_وحدوا الله، والمسامح كريم.

فتعالت أصوات الغضب، يهتف بعضها: «هذه المرأة مجنونة!». ويهتف آخرون: «إنها لا تعرف معنى الشرف!». وامتلأ قلب شافعي رعبًا وسأل حجازي مستعطفًا:

\_أين الولد؟

فشق حجازي سبيله حتى الباب وصاح بأعلى صوته:

\_يا رفاعة . . تعال يا ولد كلم عم شافعي .

فاختلط الأمر على عم شافعى الذى كان يظن ابنه مقبوضًا عليه فى ركن الدهليز، وإذا برفاعة يظهر فى مجال الضوء فيجذبه أبوه من ذراعه ويتقهقر به إلى موقف عبدة. وسرعان ما تراءى فانوس فى يد شلضم يسير به بين يدى خنفس الذى تقبّض وجهه حنقًا وتجهمًا. واتجهت الأنظار نحو الفتوة وساد الصمت. وتساءل خنفس بصوت غلظ:

\_ماذا وراءكم؟

فأجابه أكثر من صوت في آن:

\_ياسمينة لوثتنا!

فقال خنفس:

ـ فليتكلم الشاهد منكم!

فتقدم زيتونة ـ سائق عربة كارو ـ حتى وقف أمام خنفس وقال :

- منذ قليل رأيتها خارجة من باب بيت بيومى الخلفى، تبعتها إلى هنا ثم سألتها عما كانت تفعل فى بيت الفتوة فتبين لى سكرها. كانت رائحة الخمر تخرج من فيها فتملأ الدهليز. أفلتت منى وأغلقت على نفسها الباب. والآن سلوا أنفسكم عما يكن أن تفعله امرأة سكرانة فى بيت فتوة.

استرخت أعصاب شافعى وعبدة من ناحية، وتوترت أعصاب خنفس من ناحية أخرى. أدرك الرجل أن فتونته تتعرض لامتحان قاس. فلو تهاون فى معاقبة ياسمينة سيفقد كرامته أمام آل جبل، ولو ترك الغاضبين ليعتدوا عليها فسيدفع بنفسه إلى موقف التحدى أمام بيومى فتوة الحارة كلها. ما العمل؟ وكان رجال جبل يتوافدون من الربوع، ويحتشدون فى الحوش، وفى الحارة أمام ربع النصر فازداد مركز خنفس حرجاً. وتتابعت الأصوات فى غضب:

- \_اطردوها من حي آل جبل.
- \_يجب أن تُجلد قبل طردها .
  - \_ اقتلوها قتلاً .

وترامت صرخة ياسمينة التي كانت تنصت في الظلام وراء النافذة. وأحدقت الأعين بخنفس لكن رفاعة سمع وهو يسأل أباه:

- \_ أليس الأولى بهم يا أبي أن يصبّوا غضبهم على بيومي المعتدى؟
  - وغضب كثيرون من بينهم زيتونة الذي أجابه قائلاً:
    - \_هي التي ذهبت إلى بيته بنفسها.
      - وصاح به آخر:
    - \_ وإذا لم يكن عندك كرامة فمن الخير أن تسكت.
      - وزجره أبوه بنظرة، لكن رفاعة قال بإصرار:
        - ـ لم يفعل بيومي إلا مثلما تفعلون.
          - فصرخ فيه زيتونة بجنون:
        - ـ هي من آل جبل فليست للآخرين.
          - هذا الولد سفيه وبلا كرامة.

فلكزه عم شافعي كي يسكت على حين صاح برهوم:

\_الكلمة الآن للمعلم!

وغلى الغيظ فى قلب خنفس حتى كاد أن يختنق. وصرخت ياسمينة صرخات استغاثة. وانتشر الغضب فاتجهت الأنظار نحو بيت الفتاة وتوثب فيها الهجوم. وتتابعت صرخات ياسمينة حتى تقطع قلب رفاعة ولم يعد فى وسعه الاحتمال، فأفلت من يد أبيه وشق طريقه إلى بيت ياسمينة وهتف برجاء:

\_رحمة بضعفها وذعرها.

فصاح به زيتونة:

\_أنت مرة!

وناداه شافعي بحرارة لكنه لم يباله وأجاب زيتونة:

-الله يسامحك. (ثم للجميع) ارحموها وافعلوا بي ما تشاءون، ألا تحرك الاستغاثات قلوبكم؟!

فعاد زيتونة يصيح:

ـ لا تلتفتوا لهذا الرقيع. (ثم مخاطبًا خنفس) الكلمة كلمتك يا معلم!

فتساءل رفاعة:

ـ هل يرضيكم أن أتزوج منها؟

فاختلط صراخ الغضب بصيحات الاستهزاء، وقال زيتونة:

ـ لا يهمنا إلا أن تنال جزاءها .

فاستقتل رفاعة قائلاً:

\_سيكون العقاب من شأني أنا.

ـ بل هو من شأن الجميع.

ووجد خنفس فى اقتراح رفاعة منقذًا له من ورطته. لم يكن فى قلبه مقتنعًا به، ولكن لم يكن عنده خير منه. وغالى فى تجهمه مداريًا ضعفه، وقال:

\_الولد ارتبط أمامنا بزواجها فله ما يطلب.

زاغ بصر زيتونة وأعماه الغضب فصاح:

ـ ضيّع الجبن الشرف!

وإذا بقبضة خنفس تحطم أرنبة أنفه، فتراجع مولولاً والدم يسيل من منخريه بغزارة. وأدرك الجميع أن خنفس سيغطى على موقفه الضعيف بإرهاب من يخالفه. وقلب عينيه في الوجوه التي كشف ضوء الفانوس عن خوفها فلم تند من أحد منهم حركة عطف على محطَّم الأنف. بل وبخ فرحات زيتونة قائلا: «عيبك في لسانك». وقال برهوم لخنفس «لولاك ما اهتدينا إلى حل!». وقال له حنورة: «زعلك بالدنيا يامعلم». وأخذوا في التفرق فلم يبق في النهاية إلا خنفس وشلضم وشافعي وعبدة ورفاعة. ومضى عم شافعي إلى خنفس ليحييه فمد له يده ولكن الآخر استشاط غضبًا وضرب يده بظاهر كفه فتأوه الرجل مقهقرًا. وهرع إليه ابنه وزوجته على حين غادر خنفس الدهليز وهو يسب الرجال والنساء وآل جبل بل وجبل نفسه. ونسى عم شافعي في ألمه الورطة التي عثر فيها ابنه. ونقع الرجل يده في ماء ساخن وراحت عبدة تدلكها وهي تقول:

ـ ترى هل أوغرت زكية صدر زوجها علينا؟!

فقال عم شافعي متوجعًا:

ـ نسى الجبان أن ابننا الأحمق هو الذي أنقذه من نبوت بيومي. .

#### 04

كان رفاعة معقد آمال والديه فشد ما خابت الآمال. بزواجه من ياسمينة سينتهى الشاب إلى لا شيء، أما الأسرة فصارت مضغة للأفواه ولما يتم الزواج. وبكت عبدة خفية حتى أضر بها البكاء. وتجهم وجه شافعى إذ تجهمته الدنيا، لكنهما حيال الشاب انطويا على نفسيهما وتجنبا المغاضبة. ولعل ياسمينة هونت من الخطب بسلوكها عقب المظاهرة إذ هرعت إلى بيت عم شافعى وجثت أمام الرجل وزوجه باكية وسكبت على قدميهما بعض ما فاض به قلبها من الامتنان، ثم أعلنت في حرارة وجد توبتها. ولم يكن من الممكن العدول عن الزواج بعد أن ارتبط به الشاب جهاراً أمام آل جبل، فسلم عم شافعي وزوجه بالأمر ووطنا النفس على تقبله. وتنازع قلبي الوالدين رغبتان، واحدة تود أن ترعى التقاليد في الاحتفال بعرس رفاعة وموكب زفتة، والأخرى ترى الاقتصار على حفل بيتي حتى لا يتعرض الموكب لسخرية آل جبل الذين باتوا يعرضون بالزواج في على حفل بيتى حتى لا يتعرض الموكب لسخرية آل جبل الذين باتوا يعرضون بالزواج في

ـ طالمًا منيّت نفسي برؤية زفة رفاعة، ابني الوحيد، وهي تجوب الأحياء!

فقال عم شافعي بامتعاض:

ـ لن يرضى بالاشتراك فيها أحد من آل جبل.

فقطبت عبدة قائلة:

- العودة إلى سوق المقطم خير من البقاء بين أناس لا يحبوننا!

فقال رفاعة وهو يمد ساقيه تحت النافذة المفتوحة متشمساً:

\_لن نغادر الحارة يا أمي.

فصاح شافعی بحدة:

\_ليتنا لم نعد! (ثم مخاطبًا ابنه) . . ألم تكن حزينًا يوم عدنا؟

فابتسم رفاعة قائلاً:

- اليوم غير الأمس. إذا ذهبنا فمن ذا الذي يخلص آل جبل من العفاريت؟

فقال شافعي محتداً:

\_ فلتركبهم العفاريت إلى الأبد!

ثم بعد تردد:

\_أنت نفسك ستجيء إلى بيتنا بـ . . .

وقاطعه رفاعة:

ـ لن أجيء إلى بيتنا بأحد، سأذهب أنا إلى المسكن الآخر.

فهتفت الأم:

ـ لا يعني أبوك ذلك!

ـ لكنى أعنيه يا أمى، ليس البيت الجديد بالبعيد، وفي وسعنا أن نتصافح كل صباح من النافذة!

وعلى رغم أحزان عم شافعى قرر الاحتفال بيوم الزفاف ولو فى أضيق الحدود. أقام الزينات بالدهليز وفوق بابى المسكنين، وجاء بمغن وطباخ. ودعا جميع المعارف والأصدقاء، ولكن لم يلب الدعوة إلا عم جواد وأم بخاطرها وعم حجازى وأسرته وبعض الفقراء الذين حرصوا على الطعام. وكان رفاعة أول فتى يتزوج بلا زفة. وانتقلت الأسرة عبر الدهليز إلى بيت العروس. وغنى المطرب بفتور لقلة المدعوين. وفى أثناء تناول الطعام أثنى جواد الشاعر على شهامة رفاعة وخلقه وقال إنه فتى زكى حكيم صافى السريرة، ولكنه فى حارة لا تقيم لغير البلطجة والنبابيت وزنًا. وإذا بغلمان يقفون أمام الربع ويغنون معًا:

يا رفاعة يا وش القاملة مين قالك تعامل دى العاملة ويختمون بالتهليل والعربدة. ونظر رفاعة في الأرض على حين اصفر وجه شافعي، وغضب عم حجازي وقال:

\_الكلاب أولاد الكلاب!

ولكن عم جواد قال:

ـ ما أكثر القاذورات في حارتنا ولكن الطيب لا ينسى فيها أبدًا. كم من فتوة استكبر فيها؟ لكنها لا تذكر بالجميل إلا أدهم وجبل.

ثم حث المطرب على الغناء ليغطى غناءه على الأصوات المعربدة. ومضى الحفل فى مغالبة للوجوم حتى انصرف الجميع. ولم يبق فى البيت إلا رفاعة وياسمينة. بدت الفتاة فى ثوب العرس آية فى الجمال، وإلى جانبها جلس رفاعة فى جلباب حريرى مهفهف، وعلى الرأس لاسة مزركشة، وفى القدمين مركوب فاقع الاصفرار. جلسا على كنبة، يقابلها فى الناحية الأخرى الفراش المورد. وقد لاحت فى مرآة الصوان صورة الطست والإبريق تحت الفراش. والظاهر أنها كانت تتوقع من جانبه هجومًا، أو فى الأقل تمهيدًا للهجوم المنتظر، ولكنه لبث يردد البصر بين الفانوس المدلى من السقف والحصيرة الملونة.

ولما طال الانتظار أرادت أن تبدد كثافة الصمت المخيم فقالت برقة:

ـ لن أنسى فضلك؛ إنى مدينة لك بحياتي.

فنظر نحوها في مودة وقال بصوت من لا يود الرجوع إلى هذا الحديث:

\_كلنا مدينون بحياتنا لغيرنا.

ما أطيبه! ليلة الحادث أبى أن يبيح لها يديه تقبلهما، وهو الآن لا يود تذكيره بالجميل الذى صنع. ليس كمثل طيبته إلا صبره. لكن فيم يفكر يا ترى؟ هل ساءه أن تدفعه طيبته إلى الزواج من مثلها؟

ـ لست شريرة بالدرجة التي يظنها الناس، أما هم فقد أحبوني واحتقروني لشيء واحد.

فقال مواسيًا:

\_أعرف ذلك، ما أكثر الأخطاء بحارتنا!

فقالت بحنق:

ـ يفاخرون دائمًا بأنهم من صلب أدهم، وفي الوقت نفس يباهون بالكبائر. .

فقال في يقين:

ـ ما دام التخلص من العفاريت ميسورًا فما أقربنا من السعادة .

ولم تدرك مرماه ولكنها استشعرت فجأة مدى السخرية التي تحيط بها في مجلسها، فقالت ضاحكة :

\_ ما أعجبه من حديث في ليلة الزفاف!

ورفعت رأسها في شيء من الكبرياء فبدا أنها تناست حال الامتنان، وأزاحت عن منكبيها الوشاح، ونظرت نحوه نظرة مفعمة بالدلال، فقال برجاء:

\_ستكونين أول من يسعد في حارتنا.

فقالت ياسمينة:

\_حقّا؟! عندي شراب!

ـ شربت قليلاً مع العشاء، وفيه الكفاية.

فتفكرت قليلاً في حيرة، ثم قالت:

\_عندى حشيش طيب!

ـ جربته فوجدتني لا أطيقة.

فقالت في ارتياح:

- أبوك حشاش قارح، رأيته مرة خارجًا من غرزة شلضم وهو لا يميز بين الليل والنهار!

فابتسم دون أن ينبس، فردّت عنه طرفها في انكسار، وتميزت غيظًا، وقامت فمضت حتى الباب ثم استدارت عائدة حتى وقفت تحت الفانوس. وشف ثوبها الرقيق عن جسدها البارع. وجعلت تنظر في عينيه الهادئتين حتى داخلها اليأس. وتساءلت:

ـ لماذا أنقذتني؟

ـ لا أطيق أن يتعذب إنسان.

فغلبها الغيظ، وقالت في حدة:

\_من أجل هذا تزوجتني، من أجل هذا وحده؟!

فقال برجاء.

ـ لا تعودي إلى أيام الغضب!

فعضت شفتها فيما يشبه الندم وقالت بصوت منخفض:

ـ ظننتك أحببتني.

فقال في صدق وبساطة:

\_إنى أحبك يا ياسمينة.

فلاح التعجب في عينيها وغمغمت:

\_حقا؟!

ـ نعم، ما من مخلوق في حارتنا إلا وأحبه!

فتنهدت في خيبة، ورمقته بريبة قائلة:

\_فهمتك، ستبقى إلى جانبي أشهرًا ثم تطلقني.

فاتسعت عيناه وتمتم:

ـ لا تعودي إلى الأفكار الماضية!

\_حيرتني! ماذا عندك لي؟

\_ السعادة الحقيقية .

فقالت بامتعاض:

\_عرفتها أحيانًا من قبل أن أراك!

ـ لا سعادة بلا كرامة!

فقالت وهي تضحك على رغمها:

\_ولكننا لا نسعد بالكرامة وحدها.

فقال بصوت حزين:

\_لم يعرف أحد من حينا السعادة الحقيقية.

اتجهت بخطوات ثقيلة نحو الفراش، وجلست على حافته فى فتور. ورنا إليها بحنان وقال:

- إنك كجميع أهل حينا لا تفكرين إلا في الوقت الضائع!

فلاح في وجهها السخط وقالت:

ـ ربنا يقدرني على حل ألغازك.

\_ستحل نفسها بنفسها عندما تتخلصين من عفريتك.

فهتفت بحدة:

\_إنى راضية عن نفسى كما هي.

فقال رفاعة بأسى:

\_ هكذا يقول خنفس والآخرون!

ونفخت في ضيق وتساءلت:

\_ هل نتكلم على هذا النحو حتى الصباح؟

ـ نامى، أسعد الله أحلامك!

وتزحزحت إلى الوراء ثم استلقت على ظهرها، ورددت عينيها بين الفراغ جنبها وبين عينيه، فقال:

\_خذى راحتك، سأنام أنا على الكنبة.

وانتابتها نوبة ضحك، لكنها لم تستسلم لها طويلاً، وقالت ساخرة:

\_أخاف أن تزورنا أمك غدًا لتحذرك من الإفراط!

ونظرت نحوه لتتشفى برؤية الخجل في وجهه ولكنه طالعها بعينين هادئتين صافيتين، وقال :

\_أودأن أخلصك من عفريتك!

فصاحت غاضبة:

\_ دع أعمال النساء للنساء.

وأدارت وجهها للحائط. وكان صدرها يحترق غيظًا وقلقًا. وقام رفاعة إلى الفانوس وأخفض ذبالته ثم نفخه فانطفأ وساد الظلام.

## ٥٣

وشهدت الأيام التالية للزواج حركة دائبة في حياة رفاعة. انقطع عن الدكان أو كاد، ولو لا حب أبيه وعطفه لما وجد ما يمسك به حياته. ومضى يدعو من يصادفه من آل جبل إلى أن يثق به كي يخلصه من عفريته فيحقق بذلك سعادة صافية لم يحلم بها من قبل. وتهامس آل جبل بأن رفاعة بن شافعي قد خف عقله وأمسى من زمرة المجذوبين، وعلل البعض ذلك بما عرف عنه من غرابة أطوار، كما علله آخرون بزواجه من امرأة مثل ياسمينة. ودارت الأحاديث عن ذلك في القهوة والبيوت وحول عربات اليد وفي الغرز. وشد ما دهشت أم بخاطرها حين مال رفاعة على أذنها وقال برقته المعهودة:

\_ هلا سمحت لي بأن أطهرك؟

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت:

\_ من أدراك بأن على عفريتًا شريرًا؟! أهذا هو رأيك عن المرأة التي أحبتك كابنها؟! فقال جادًا:

- أنا لا أعرض خدماتي إلا على الذين أحبهم وأحترمهم، وأنت مصدر خير وبركة ولكنك لا تخلين من طمع يحملك على الاتجار بالمرضى، فلو تخلصت من سيدك لوهبت الخير بلا ثمن!

ولم تتمالك المرأة من الضحك وهي تقول:

ـ أتود خراب بيتي؟! الله يسامحك يا رفاعة .

وتناقل الناس حديث أم بخاطرها ضاحكين، حتى عم شافعي ضحك ضحكة بلا مسرة. ولكن رفاعة قال له: ـ أنت نفسك يا أبي في حاجة إلى، ومن البر أن أبدأ بك.

فهز الرجل رأسه في كمد، وراح يدق المسامير بين يديه بقوة وشت بانفعاله، ثم قال:

ـربنا يصبرني.

وحاول الشاب إقناعه فتساءل الرجل متألًا:

\_أما كفاك أن جعلتنا أحدوثة الحي؟!

وانزوى رفاعة في ركن الدكان مكتئبًا فرمقه الرجل بريبة وسأله :

\_أحقّا دعوت زوجك إلى ما تدعونا إليه؟

فقال بأسف:

ـ وهي مثلكم لا ترغب في السعادة.

ومضى رفاعة إلى غرزة شلضم في الخرابة وراء القهوة فوجد حول المجمرة شلضم وحجازي وبرهوم وفرحات وحنورة وزيتونة. تطلعوا إليه بغرابة وقال شلضم:

\_أهلاً بابن عم شافعي، ترى هل أقنعك الزواج بفائدة الغرز؟!

فوضع رفاعة على الطبلية لفة كنافة وقال وهو يتخذ مجلسه:

\_ جئتكم بهذه تحية للمجلس.

فقال شلضم وهو بيدير الجوزة:

\_مرحبًا بالكرم.

لكن برهوم ضحك فجأة وقال بلا هوادة:

ـ وسوف يعرض علينا بعد ذلك أن يقيم لنا حفلة زار ليطهرنا من العفاريت!

وهتف زيتونة حانقًا بصوته الأخنف وهو يلتهمه بنظرة حاقدة:

ـ على زوجتك عفريت اسمه بيومي فخلّصها منه إن استطعت.

وبهت الرجال ووضح في وجوههم الحرج فقال زيتونة وهو يشير إلى أنفه المحطم:

\_ بسببه فقدت أنفى .

وبدا أن رفاعة لم يغضب، فنظر فرحات نحوه بأسى وقال:

- أبوك رجل طيب ونجار ماهر، ولكنك بسلوكك هذا تجر عليه المتاعب والسخرية. لم يكد الرجل يفيق من زواجك حتى هجرت دكانه لتخلص الناس من العفاريت! شفاك الله يا بنى .

\_ لست مريضًا ولكني أود لكم السعادة .

فشـد زيتونة نفسًا طويلاً وهـو يرمقـه بقسوة ثم نفث الدخان متسائلاً :

\_ومن أخبرك بأننا غير سعداء؟!

فقال الشاب:

\_أراد جدنا لنا غير ما نحن عليه.

فقال فرحات ضاحكًا:

\_ دع جدك في حاله، من أدراك أنه لم ينسنا؟!

وحدجه زيتونة بنظرة حانقة حاقدة ولكن حجازي لكزه قائلاً في تحذير:

\_ينبغى أن تحترم المجلس، فلا تفكر في الاعتداء!

وأراد الرجل أن يغير الجو فهز رأسه وأشار إلى أصحابه إشارة خاصة فراحوا يغنون:

مركب حبيبى فى الميه جايه راخية شعورها على الميه

وغادر المكان وبعضهم ينظر نحوه في رثاء. وعاد إلى بيته بفؤاد كسير فاستقبلته ياسمينة بابتسامة هادئة. وكانت تلومه أول الأمر على سلوكه الذي جعل منه ومنها بالتالى ـ نادرة . لكنها كفت عن لومه يائسة . وصبرت على تلك الحياة التي لم تدر على أي وجه ستنتهي ، بل وعاملته بلطف ورقة . ودق الباب ، وإذا بالقادم خنفس فتوة آل جبل . دخل الرجل دون استئذان فقام له رفاعة مرحبًا فقبض الفتوة على منكبه بيد شديدة كأنها فكا كلب غاضب . وسأله دون مقدمات :

\_ماذا قلت عن الوقف في غرزة شلضم؟

ارتاعت ياسمينة حتى هرب دمها، لكن رفاعة قال بهدوء على الرغم من أنه بدا كعصفور بين مخالب نسر:

ـ قلت إن جدنا يو د لنا السعادة!

فهزه هزة عنيفة وسأله:

\_من أدراك بذلك؟

\_ورد ذلك ضمن أقواله لجبل.

فازدادت يده شدة على منكبه وقال:

\_إنه كلم جبل عن الوقف.

فقال رفاعة وقد أنهكه تحمل الألم:

ـ لا يعنينى الوقف فى شىء. السعادة التى لم أستطع أن أحققها بعد لأحد شىء غير الوقف، وغير الخمر، وغير الحشيش. قلت ذلك فى كل مكان بحى جبل، وسمعنى الجميع وأنا أقوله.

فهزه مرة أخرى وقال:

\_كان أبوك عاصيًا ثم تاب، احذر أن تعيد سيرته وإلا هرستك كما تهرس البقة. .

ودفعه فهوى على ظهره فوق الكنبة، ثم ذهب. وهرعت ياسمينة إليه لتواسيه وتدلك منكبه الذي مال عليه رأسه من الوجع. وبدا في شبه غيبوبة، وغمغم كأنما يحادث نفسه.

\_ إنه صوت جدى الذي سمعته.

ونظرت في وجهه بإشفاق وذعر. وتساءلت: هل ضاع عقله حقّا؟! ولم تعد عليه ما قال وساورها قلق لم تشعر به من قبل. ويوما غادر الربع فاعترضت سبيله امرأة من غير آل جبل، وقالت له باستعطاف:

\_ صباح الخيريا معلم رفاعة.

ودهش لرنة الاحترام في صوتها وللقب الذي قرنته باسمه فسألها:

\_ماذا تريدين؟

فقالت بضراعة:

ـ لى ابن ممسوس أرجو أن تخلصه!

وكان كآل جبل جميعًا يحتقر أهل الحارة، فاستنكف أن يضع نفسه في خدمة المرأة فيضاعف من ازدراء آله له، فقال لها:

\_ألا توجد كودية في الحارة؟

فقالت المرأة بصوت باك:

ـ بلى ولكنى امرأة فقيرة .

ورق لها قلبه كما أسره لجوءها إليه هو الذي لم يلق من آله إلا الهزء والاحتقار . ونظر إليها في تصميم وهو يقول :

\_ إنى طوع أمرك.

ع ٥

كانت ياسمينة تطل من النافذة على الحارة متسلية بالمنظر الجديد. وكان في أسفل الربع غلمان يلعبون، وبائعة دوم تنادى، على حين أمسك بطيخة بتلابيب رجل وراح يضرب وجهه بكفه والآخر يستعطفه دون جدوى. وسألها رفاعة وهو جالس على الكنبة يقص أظافر قدميه:

- هل يعجبك بيتنا الجديد؟

فالتفتت نحوه قائلة:

ـ هنا تحتنا الحارة، أما هنالك فلم نكن نرى إلا الدهليز المعتم.

فقال رفاعة بأسى:

- ليت الدهليز بقى لنا، إنه دهليز مبارك، إذ فيه تقرر النصر لجبل على أعدائه، ولكن لم يكن في الإمكان مواصلة الإقامة بين أناس يستهزئون بنا في كل خطوة. أما هنا فالفقراء طيبون، والطيب هو السيد لا آل جبل.

فقالت ياسمينة باستهانة:

\_وأنا كرهتهم مذعزموا على طردي.

فسألها باسمًا:

ـ لماذا إذن تقولين للجيران إنك من آل جبل!

فضحكت ضحكة كشفت عن أسنانها اللؤلؤية وقالت في مباهاة:

\_ليعلموا أنني فوقهم جميعًا.

فوضع المقص على الكنبة وطرح ساقيه على الحصيرة وهو يقول:

- ستكونين أجمل وأفضل عندما تقهرين الغرور. ليس آل جبل بخير حارتنا، خير الناس أطيبهم، وكنت مخطئًا مثلك فخصصت آل جبل باهتمامي، ولكن السعادة لا يستحقها إلا من ينشدها مخلصًا. انظرى إلى الطيبين كيف يقبلون على وكيف يبرءون من العفاريت!

فقالت باحتجاج:

\_لكن كل أحد هنا يعمل بأجر إلا أنت!

ـ لولاى ما وجد الفقراء من يشفيهم، إنهم يقدرون الشفاء لكنهم لا يملكون ثمنه، وأنا ما عرفت الأصدقاء حتى عرفتهم.

وأمسكت عن الجدل بوجه ممتعض فقال رفاعة:

- آه لو تذعنين لي كما يذعنون! إذن لخلصتك مما يعكر صفو الحياة.

فتساءلت غاضبة:

ـ أتجدني مزعجة لهذا الحد؟

ـ من الناس من يعشق عفريته وهو لا يدري.

فهتفت بحدة:

ما أبغض هذا الحديث إلى !

#### فقال باسمًا:

- إنك من آل جبل، وكلهم أبي أن يسلم لدوائي، حتى أبي نفسه! وعندما دق الباب أدركا أن زبونًا جديدًا قد قدم فتهيأ رفاعة لاستقباله.

والحق أن رفاعة لم يلق من عمره أسعد من هذه الأيام. كان يدعى فى الحى الجديد بالمعلم رفاعة، وكانوا يدعونه بها فى إخلاص ومحبة. وعرف بأنه يخلص من العفاريت ويهب الصحة والسعادة لوجه الله وحده. وهذا سلوك نقى لم يعرف عن أحد قبله، فلذلك أحبه الفقراء كما لم يحبوا أحدًا قط. وطبيعى أن بطيخة فتوة الحى الجديد لم يحبه، لسلوكه الطيب من ناحيته ولأنه لم يكن من القادرين على أداء أى إتاوة من ناحية أخرى، ولكنه فى الوقت نفسه لم يجد مسوعًا للاعتداء عليه. أما الذين برئوا على يديه فكان لكل منهم قصة يرددها. فأم داود كانت إذا ركبتها النوبة العصبية عضت وليدها، وهى اليوم مثال للهدوء والاتزان. وسنارة الذى لم يكن له من هواية إلا الشجار والنقار أصبح وديعًا حليمًا كأنه تحية سلام. وطلبة النشال تاب توبة صادقة واشتغل صبى مبيض نحاس. وعويس تزوج بعد الذى كان.

واصطفى رفاعة من مرضاه أربعة وهم زكى وحسين وعلى وكريم، اصطفاهم لصداقته فصاروا إخوة. لم يعرف أحد منهم الصداقة ولا الحب قبل أن يعرفه. كان زكى برمجيًا، وكان حسين مدمن أفيون لا يفيق، وعلى يتدرب على الفتونة، وكريم قوادًا، فانقلبوا رجالاً ذوى قلوب كبيرة. وكانوا يجتمعون عند صخرة هند حيث الخلاء والهواء النقى، فيتبادلون أحاديث المودة والصفاء، ويتطلعون إلى طبيبهم بأعين تفيض بالحب والإخلاص، ويحلمون جميعًا بسعادة ستُظل الحارة بأجنحتها البيضاء. ويومًا تساءل رفاعة وهم بمجلسهم ينظرون إلى حمرة الشفق في هدوء المغيب:

\_ لماذا نحن سعداء؟

فأجاب حسين بحماس:

\_أنتَ أنتَ سر سعادتنا .

فابتسم ابتسام شكر وقال:

ـ بل لأننا تخلصنا من العفاريت فتطهرنا من الحقد والطمع والكراهية وسائر الشرور التي تفتك بأهل حارتنا.

فقال على مؤمنًا على قوله:

ـ سعداء بالرغم من أننا فقراء ضعفاء لا حظ لنا في الوقف أو الفتونة.

فهز رفاعة رأسه أسفًا وقال:

ـ كم يتعذب الناس من أجل الوقف الضائع والقوة العمياء فالعنوا معى الوقف والفتونة. فاستبقوا إلى لعنهما، وتناول على طوبة فرماها بأقصى قوته صوب الجبل. وعاد رفاعة يقول:

- ومذ قال الشعراء إن الجبلاوى حث جبل على أن يجعل من ربوع آل جبل بيوتًا تضارع البيت الكبير في جلاله وجماله، طمح الناس إلى قوة الجبلاوى وجاهه، وتناسوا مزاياه الأخريات، لذلك لم يستطع جبل أن يغير النفوس بنيله حقهم في الوقف، ولما رحل عن الدنيا انقلب الأقوياء مغتصبين والضعفاء حاقدين وأطبق الشقاء على الجميع، أما أنا فأفتح أبواب السعادة بلا وقف ولا قوة ولا جاه.

وهوى كريم بوجهه إليه فقبله، فمضى يقول:

\_ وغدًا عندما يلمس الأقوياء سعادة الضعفاء سيدركون أن قوتهم وجاههم وأموالهم المغتصبة لا شيء.

وصدرت عن الأصدقاء كلمات الثناء والحب، وحمل الهواء غناء راع في أقصى لخلاء .

وتجلى في السماء نجم واحد. ونظر رفاعة في وجوه الأصحاب وقال:

\_ولكنى لا أكفى وحدى لعلاج أهل حارتنا، آن لكم أن تعملوا بأنفسكم، وأن تتعلموا الأسرار لتخلصوا المرضى من العفاريت.

فبدت الغبطة في الوجوه وهتف زكي:

ـ ذلك أعز أمانينا.

فابتسم إليهم قائلاً:

ـ ستكونون مفاتيح السعادة في حارتنا .

ولما عادوا إلى حيّهم وجدوه يضىء بأنوار عرس فى أحد الربوع. ورأى كثيرون رفاعة فأقبلوا عليه مصافحين. وتغيظ بطيخة فقام من مجلسه بالقهوة وهو يسب ويلعن، ويصفع هذا وذاك، ثم تحول إلى رفاعة متسائلاً فى قحة:

\_ماذا ترى في نفسك يا ولد؟

فقال رفاعة برقة:

\_صديق المساكين يا معلم.

فصاح الرجل:

\_إذن امش كما يمشى المساكين لا كعريس الزفة، أنسيت أنك طريد حيّ وزوج ياسمينة وكودية زار؟!

وبصق في تحرش. وتباعد الناس. وساد الوجوم. لكن زغاريد الفرح غطت على كل

شىء.

وقف بيومى فتوة الحارة وراء باب حديقته الخلفى الذى يفتح على الخلاء. كان الليل فى أوله وكان الرجل ينتظر وهو يتنصت. وعندما طرق أصبع الباب بخفة فتح الباب فتسللت إلى داخل الحديقة امرأة كأنها بملاءتها ونقابها قطعة من الليل. تناول يديها وسار بها فى مماشى الحديقة متجنباً الاقتراب من البيت حتى بلغ المنظرة فدفع الباب ودخل، وهى فى أثره. وأشعل شمعة فأقامها على حافة نافذة، فبدت المنظرة فى شبه مغيب، والكنبات مصطفة بأضلعها، وفى الوسط صينية كبيرة محملة بالجوزة ولوازمها فى دائرة من الشلت. ونزعت المرأة عنها ملاءتها والنقاب، فضمها بيومى إليه بقوة نفذت إلى عظامها حتى رمقته بنظرة استرحام. وتخلصت منه برشاقة فضحك ضحكة خافتة وجلس على شلتة. وراح يعبث بأصبعه فى رماد المجمرة حتى تكشف عن جمر يومض. وجلست إلى جانبه وقبلت أذنه ثم أشارت إلى المجمرة وهى تقول:

\_كدت أنسى رائحته.

فراح يمطر خدها وعنقها بالقبل ثم قال وهو يرمى قطعة في حجرها:

ـ هذا الصنف لا يدخنه في حارتنا إلا الناظر والعبد لله!

وترامى من الحارة صوت معركة تحتدم، سبّ وارتطام عصى، وتحطم زجاج، ووقع أقدام جارية، وصوات امرأة، ثم نباح كلب. . ولاح تساؤل منزعج فى عينى المرأة ولكن الرجل راح يقطع الصنف فى غير مبالاة، فقالت المرأة:

ـ كم يشق على المجيء! فلكى آمن العيون أسير من الحارة إلى الجمالية، ومن الجمالية إلى الدراسة، ومن الدراسة إلى الخلاء حتى بابك الخلفي.

فمال نحوها دون أن تكف أصابعه عن العمل وتشمم إبطها في تلذذ وقال :

ـ لن أبالي أن أزورك في بيتك.

فابتسمت قائلة:

ـ لو فعلت ما تعرض لك أحد من الجبناء، حتى بطيخة سيفرش لك الرمل، ثم يصبون غضبهم على وحدى .

وعبثت بشاربه الغليظ وقالت في دعابة:

\_لكنك تسللت إلى المنظرة في بيتك خوفًا من زوجتك.

فترك القطعة وطوقها بذراعه فضمها إليه بعنف حتى أنّت، ثم همست:

ـ اللهم احفظنا من عشق الفتوات.

فأطلقها وهو يرفع رأسه ويبرز صدره كالديك الرومي وقال:

ـ لا يو جد إلا فتوة واحد، أما الآخرون فصبيانه.

فلاعبت شعر صدره المحرر عنه طوق جلبابه وقالت:

\_ فتوة على الناس لا على أنا .

فقرصها في صدرها بخفة وقال:

\_أنت تاج رأس الفتوة.

ومديده إلى ما وراء الصينية فتناول إبريقًا وهو يقول:

\_ بوظة عجيبة!

فقالت آسفة:

\_لها رائحة قوية قد يشمها زوجي العزيز!

فتجرع من الإبريق حتى روى، ومضى يرص الحجر وهو يقول مقطبًا:

ـ يا له من زوج! لمحته مرات وهو يهيم على وجهه كالمجنون، أول كودية زار من جنس الرجال في هذه الحارة العجيبة!

فتابعته وهو يدخن وقالت:

\_ إنى مدينة له بحياتي، لذلك أتصبر على معاشرته، ولا ضرر منه إذ ليس أيسر من خداعه.

وقدم إليها الجوزة فالتقمت فوهتها بشوق وشدت أنفاسًا بشراهة ثم زفرت الدخان مغمضة العينين ثملة الحواس. وراح بدوره يدخن، فيأخذ أنفاسًا متقطعة وبين كل نفس وآخر يتكلم قائلاً:

ـ تتركينه . . . يعبث . . . بك . . . عبث . . . الأطفال . .

فهزت منكبيها هازئة وقالت:

ـ لا عمل لزوجي في هذه الدنيا إلا تخليص الفقراء من العفاريت. .

\_وأنت ألا تخلصينه من شيء؟

\_مظلومة وحياتك! نظرة واحدة إلى وجهه تغنى عن الكلام.

ـ ولا مرة كل شهر!

ـ ولا كل سنة، إنه مشغول عن زوجته بعفاريت الناس!

- \_ فلتركبه العفاريت! وأي فائدة يجنيها من وراء ذلك؟
  - فهزت رأسها في حيرة وقالت:
- ـ لا يجنى شيئًا، ولولا أبوه لهلكنا جوعًا، وهو يعتقد بأنه مكلف بإسعاد الفقراء وتطهيرهم.
  - \_ومن الذي كلفه؟
  - \_ يقول إن هذا ما يريده الواقف لأبنائه.
  - وتجلى الاهتمام في عيني بيومي الضيقتين فوضع الجوزة في الكوز وسألها:
    - \_ أقال إن الواقف يريد ذلك؟
      - \_نعم..
    - ـ ومن أدراه بما يريد الواقف؟

وشعرت المرأة بضيق وانزعاج، وخافت أن يفسد الجو، أو أن تحدث أمور خطيرة، فقالت:

- \_ هكذا يؤول أقواله التي يتغنى بها الشعراء .
  - ومضى يرص حجراً جديداً وهو يقول:
- حارة بنت كلب، وحى آل جبل أنجسها، فيهم ظهر أكبر دجال، وينشرون الأخبار الغريبة عن الوقف والشروط العشرة، كأن الواقف جدهم وحدهم؛ وبالأمس جاء دجالهم جبل بكذبة سرق بها الوقف، واليوم يؤول هذا المعتوه كلامًا لا يقبل التأويل، وسيزعم أنه سمعه من الجبلاوى نفسه.

### فقالت بقلق:

- \_إنه لا ينشد سوى تخليص الفقراء من العفاريت.
  - فشخر الفتوة هازئًا ثم تساءل:
  - \_ومن يدرينا فلعل في الوقف عفريتًا!
- ثم بصوت ارتفع لدرجة لا تتفق وسرية الاجتماع:
  - الواقف ميت أو في حكم ذلك يا أولاد الكلب.
- وانزعجت ياسمينة. خافت أن تفلت الفرصة المتاحة وأن يتعكر الجو، ومدت يدها إلى الفستان لتنزعه رويداً. وانبسطت أسارير الرجل بعد تجهم، ورنا إليها بعينين متوثبتين.

#### ٥٦

بدا الناظر في عباءته ضئيلاً. وكان الاهتمام بارزاً في وجهه الأبيض المستدير بروز الذبول الذي اعتور جفنيه والشيخوخة المبكرة الواضحة في نظرة عينيه وفي التجاعيد المرسومة تحتهما من أثر التهالك في الشهوات. أما وجه بيومي الممتلئ فلم يش بالارتياح الباطني الذي سرى فيه نتيجة لقلق سيده، ذلك القلق الذي يدل على خطورة الأنباء التي نقلها إليه، فيدل بالتالي على خطورة الدور الذي يؤديه للناظر وللوقف. كان يقول للناظر:

\_ على رغمى أزعجك بهذه الأخبار، ولكن لم يكن في وسعى أن أتصرف من دون الرجوع إليك في أمر يتعلق بالوقف، ومن ناحية أخرى فهذا المشاغب المعتوه من آل جبل، وعلينا عهد بألا يتعدى أحد منا على أحد منهم إلا بعد إذنك.

وتساءل الناظر إيهاب بوجه مكفهر:

\_وهل زعم حقا أنه اتصل بالواقف؟

- تأكد لدى ذلك من أكثر من مصدر. إن مرضاه يؤمنون بذلك ولو أنهم يكتمون الأمر بحرص شديد.

- لعله مجنون، كما كان جبل دجالاً، ولكن هذه الحارة القذرة تحب المجانين والدجالين. ماذا يريد آل جبل بعدما نهبوا الوقف بلاحق؟ لماذا لا يتصل الواقف بأحد غيرهم؟ لماذا لا يتصل بى وأنا أقرب الناس إليه؟ إنه قعيد حجرته، ولا يُفتح باب بيته إلا عندما تحمل إليه حوائجه، لا يراه أحد ولا يرى هو إلا جاريته، ولكن ما أيسر أن يقابله آل جبل أو أن يسمعوه!

### فقال بيومي بحنق:

ـ لن يرتاح لهم بال حتى يستولوا على الوقف كله.

فاصفر وجه الناظر غضبًا، وتوثب لإصدار الأوامر، ولكنه تراجع متسائلاً:

\_أقال عن الوقف شيئًا، أم قصر نشاطه على إخراج العفاريت؟

فقال بيومي بحنق:

- مثل جبل كان نشاطه قاصرا على إخراج الثعابين.

ثم في تهكم:

ـ ما للواقف والعفاريت؟!

فوقف إيهاب وهو يقول بحدة:

ـ لا أريد أن يصيبني اللعنة التي أصابت الأفندي.

ودعا بيومي جابر وحندوسة وخالد وبطيخة إلى غرزته وقال لهم: إن عليهم أن يجدوا علاجًا لجنون رفاعة بن شافعي النجار . وتساءل بطيخة في انزعاج:

\_أمن أجل هذا دعوتنا يا معلم؟

فهز بيومي رأسه بالإيجاب فضرب بطيخة كفا على كف وهتف:

\_ يا هوه! فتوات الحارة تجتمع من أجل مخلوق لا هو ذكر ولا هو أنثي؟!

فرماه بيومي بنظرة ازدراء وقال:

\_مارس نشاطه تحت سمعك وبصرك فلم تدرك له خطراً، وطبعًا لم تسمع عن مزاعمه عن الاتصال بالواقف.

وتبادلوا نظرات نارية من خلال الدخان المنتشر وقال بطيخة بذهول:

- ابن الهرمة! ما للواقف والعفاريت؟! هل كان جدنا كودية زار؟

وشرعوا في الضحك ولكن سرعان ما عدلوا عنه لتجهم بيومي الذي قال:

- أنت شمام يا بطيخة ، الفتوة يسكر ويحشش ولكن لا يليق به الشم!

فقال بطيخة مدافعًا عن نفسه:

\_ يا معلم أنا في زفة عنتر كنت الهدف لنبابيت عشرين رجلاً فغطى الدم وجهى وعنقى ولكن نبوتي لم يسقط من يدي .

وهنا قال حندوسة في رجاء:

\_ فلندع له الأمر يعالجه بما يرى، وإلا فقد هيبته، وليته يجد طريقة غير الاعتداء على المعتوه، فإن الاعتداء على مثله مهين للفتوة!

ونامت الحارة و لا أحد يدرى بما بيت في غرزة بيومي. وفي صباح اليوم التالي غادر رفاعة الربع فرأى بطيخة في طريقه فحياه قائلاً:

- صباح الخيريا معلم بطيخة .

فرماه الرجل بنظرة مقت وصاح:

ـ صباح القطران يا بن القديمة ، عد إلى بيتك ولا تخرج منه وإلا كسرت رأسك.

فتساءل رفاعة في دهش:

\_ ماذا أغضب فتو تنا؟

# فصاح مزمجراً:

\_أنت تكلم الآن بطيخة لا الواقف، فاذهب بلا تردد.

وهم رفاعة بالكلام فلطمه الفتوة لطمة دفعته إلى جدار الربع مترنحاً. ورأت امرأة الموقعة فصوتت حتى ملأ صوتها الحارة، وتبعها نسوة أخريات. وارتفعت أصوات استغاثة من أجل رفاعة. وفي لمح البصر جرى نحو المكان كثيرون، من بينهم زكى وعلى وحسين وكريم، ثم جاء عم شافعى، كما جاء جواد الشاعر ملتمساً طريقه بعصاه، وما لبث أن ازدحم الموقع بمحبى رفاعة من الرجال والنساء. ودهش بطيخة الذى لم يتوقع شيئا مما حدث، ورفع يده وهوى بها على وجه رفاعة فتلقاها هذا دون دفاع ولكن الواقفين تصايحوا في انزعاج، واعتراهم انفعال شديد، فتوسل البعض إلى بطيخة أن يتركه، وعدد آخرون حسنات رفاعة ومزاياه، وتساءل كثيرون عن أسباب الاعتداء، وتعالت احتجاجات، فاستشاط بطيخة غضبًا وصاح:

\_أنسيتم من أكون؟!

والحق أن حب المتجمعين لرفاعة الذي دفعهم بغير وعى إلى التجمع هو الذي شجعهم على الرد على إنذار بطيخة، فقال أحد الواقفين في الصف الأول:

\_فتوتنا وتاج رأسنا، وما جئنا إلا لنسألك العفو عن الرجل الطيب.

وصاح رجل من وسط المظاهرة متشجعًا بالزحام وبمكانه فيه:

\_ فتوتنا على العين والرأس، ولكن ماذا فعل رفاعة؟

وصاح ثالث في آخر المظاهرة مطمئنًا إلى تواريه عن متناول عين الفتوة:

رفاعة برىء والويل لمن يمدّ له يدا بسوء!

وثار غضب بطيخة فرفع نبوته فوق رأسه وهو يصيح:

\_يا نسوان، سأجعلكم عبرة.

وإذا بصوات النساء يرتفع من الأركان حتى انقلب الحي مأمًا، وقذفت الأفواه الغاضبة بالإنذارات الدموية، وأخذ الطوب يتساقط أمام بطيخة ليمنعه من التقدم. ووجد الرجل نفسه في مركز حرج لم يقع له ولا في الكابوس. كان الموت أهون عليه من الاستنجاد بأحد من الفتوات، وكان الهجوم يهدد بالقضاء عليه تحت وابل الطوب، وكان في السكوت الإجهاز على فتونته. وتطاير الشرر من عينيه، واستمر تساقط الطوب، ومادى القوم في تحديهم، ولم يكن حدث شيء كهذا لأحد من الفتوات من قبل.

واندفع رفاعة فجأة حتى وقف أمام بطيخة، ولوح للناس بيديه حتى ساد السكوت، وهتف بصوت قوى :

\_لم يخطئ فتوتنا وأنا الملوم!

لاحت نظرات الإنكار في الوجوه، ولكن أحدًا لم ينبس بكلمة فقال رفاعة:

ـ تفرقوا قبل أن تتعرضوا لغضبه.

وفهم أناس أنه يريد أن ينقذ كرامة الفتوة حلاً للأزمة فتفرقوا، وتبعهم آخرون وهم في حيرة من الأمر، ثم سارع الباقون بالتفرق خشية أن ينفرد بطيخة بأحد منهم، فأقفر الحي. .

# ٥٧

اشتد التوتر بالحارة بعد تلك الواقعة. وكان أخوف ما يخاف الناظر أن تعتقد الحارة بأن في تضامنها قوة تكفل الصمود أمام الفتوات. لذلك وجب في نظره القضاء على رفاعة ومن تحدثهم أنفسهم بالوقوف إلى جانبه، على أن يتم ذلك بالاتفاق مع خنفس فتوة آل جبل تجنبًا لنشوب عراك شامل في الحارة. وقال الناظر لبيومي: «ليس رفاعة بالدرجة التي تظنها من الضعف، فوراءه محبون استطاعوا إنقاذه على رغم أنف الفتوة، فماذا يكون من أمره لو تعلقت به الحارة كما تعلق به حيّه؟ هنالك سيدع العفاريت جانبًا ويجاهر بأنّ الوقف غايته!». وصب بيومي غضبه على بطيخة، فهزه من منكبيه بعنف وقال له: «تركنا الأمر لك وحدك، فماذا فعلت يا شين الفتوات؟!». وعض بطيخة على نواجذه بحنق وقال: «سأريحكم منه ولو بقتله». فصاح به بيومي: «خير ما تفعل أن تختفي من الحارة إلى الأبد».

وأرسل إلى خنفس من يدعوه إلى مقابلته. ولكن عم شافعى اعترض سبيل خنفس وهو فى حال من الفزع لم تسبق له من قبل. وكان قد حاول إقناع ابنه بالعودة إلى الدكان والإقلاع عن العمل الذى يجر عليه المتاعب ولكنه فشل فى مسعاه وعاد خائبًا. ولما علم باستدعاء خنفس إلى مقابلة بيومى اعترض سبيله وقال له: «يا معلم خنفس، أنت فتوتنا وحامينا، وإنهم يطلبونك لتتخلى عن رفاعة فلا تتخلّ عنه، تعهد لهم بما يشاءون ولكن لا تتخلّ عنه، مرنى فأهجر الحارة مصطحبًا إياه ولو بالقوة ولكن لا تتخلّ عنه»! فقال خنفس فى حذر واحتياط: «إنى أعلم الناس بما يجب على وبما تقتضيه مصالح آل جبل». والحق أن خنفس توجس خيفة من ناحية رفاعة منذ علم بوقعة بطيخة، وقال لنفسه إنه هو الذى ينبغى له أن يحذر لا الناظر ولا بيومى.

ومضى إلى بيت بيومى فاجتمع به فى المنظرة. وصارحه الفتوة بأنه دعاه بصفته فتوة آل جبل ليتفقا على رأى في مشكلة رفاعة. قال: ـ لا تستهن بشأنه فإن الأحداث تقطع بخطورة أثره.

ووافق خنفس على ذلك ولكنه قال برجاء:

\_أرجو ألا يعتدي عليه أمامي.

فقال بيومي :

ـ نحن رجال يا معلم، ومصالحنا واحدة، ولا نعتدي على أحد في بيوتنا، وسيجيء هذا الولد الآن لأستجوبه على مسمع منك.

وجاء رفاعة بوجهه المشرق فحيا الرجلين، وجلس حيث أشار له بيومي أن يجلس على شلتة أمامهما. وتفرس بيومي في وجهه الجميل المطمئن وهو يعجب كيف أمسى هذا الطفل الوديع مصدراً للقلاقل المفزعة. وسأله بصوت غليظ:

ـ لماذا هجرت حيك وأهلك؟

فقال بساطة:

\_لم يستجب لي منهم أحد!

\_ماذا كنت تريد منهم؟

ـ أن أخلصهم من العفاريت التي تفسد عليهم سعادتهم!

فوشي صوت بيومي بغيظه وهو يسأله:

\_وهل أنت مسئول عن سعادة الناس؟

فقال رفاعة بصراحة وبراءة:

\_نعم ما دمت قادراً على تحقيقها.

فتجهم وجه بيومي وهو يقول:

\_سمعوك وأنت تحتقر الجاه والقوة؟

ـ لكي أبرهن لهم على أن السعادة ليست فيما يتوهمون ولكن فيما أفعل.

فتساءل خنفس غاضبًا:

\_ أليس في ذلك تحقير لأصحاب القوة والجاه؟

فقال دون أن يضطرب لغضب الرجل:

ـ كلا يا معلم، ولكن فيه تنبيهًا بأن السعادة غير ما يملكون من قوة وجاه.

وتفحصه بيومي بنظرة نافذة وهو يسأله:

\_وسمعوك أيضًا وأنت تؤكد أن ذلك ما يريده لهم الواقف.

فتجلى الاهتمام في العينين الصافيتين وقال:

ـ هم يقولون ذلك!

\_وماذا تقول أنت؟

فقال بعد تردد لأول مرة:

\_على قدر فهمى أتكلم.

فقال خنفس متهكمًا:

- المصائب تجيء من العقل الزنخ.

وقال بيومي وهو يضيق عينيه:

ـ لكنهم يقولون إنك تعيد عليهم ما سمعته من الجبلاوي نفسه!

فبدت الحيرة في عينيه، وتردد للمرة الثانية، ثم قال:

\_ هكذا فهمت أقواله لأدهم ولجبل!

فصاح خنفس غاضبًا:

\_ أقواله لجبل لا تحتمل التأويل.

واشتد الحنق ببيومي، وقال لنفسه: «كلكم كذابون، وجبل أول كذاب فيكم يا لصوص». وقال:

- أنت تقول إنك سمعت الجبلاوى، وتقول هذا ما يريده الجبلاوى، وليس لأحد أن يتكلم باسم الجبلاوى إلا ناظر وقفه ووريثه، ولو أراد الجبلاوى أن يقول شيئًا لقاله له، هو الأمين على وقفه ومنفذ شروطه العشرة, يا معتوه كيف تحقر القوة والجاه والثراء باسم الجبلاوى وهى مزاياه وصفاته؟!

فنمت الأسارير الصافية عن ألم وقال:

\_ إنى أخاطب أهل حارتنا لا الجبلاوي، هم الذين تركبهم العفاريت، وهم الذين تعذبهم المطالب.

فصاح به بیومی:

\_ما أنت إلا عاجز عن القوة والجاه: فلذلك تلعنهما، ولترفع مكانتك الحقيرة في نظر الأغبياء من أهل حارتنا فوق مكانة السادة، وعندما تجدهم طوع يديك تنهب بهم القوة والجاه!

فاتسعت عينا رفاعة دهشة وتساؤلاً:

\_ لا غاية لي إلا سعادة أهل حارتنا.

فصاح بيومي:

ـ يا بن الماكرة، أنت توهم الناس بأنهم مرضى، بأننا جميعا مرضى، فلا صحيح غيرك في هذه الحارة! ـ لماذا تكرهون السعادة وهي بين أيديكم؟

\_ يا بن الماكرة! ملعونة السعادة التي تجيء من مثلك!

فتساءل رفاعة متنهدًا:

ـ لماذا يكرهني أناس وأنا ما كرهت أحدًا قط؟!

فصرخ فيه بيومي:

ـ لا تخدعنا بما تخدع به الأغبياء، وأقلع عن خداعك، وافهم أن أمرى لا يخالف، واحمد الله على أنك في بيتي وإلا ما خرجت سالًا.

وقف رفاعة يائسًا، فحياهما وانصرف. وقال خنفس:

ـ دعه لي .

لكن بيومي قال:

ـ للمعتوه محبون كثيرون، ونحن لا نريد مذبحة.

### 01

خرج رفاعة من بيت بيومى قاصداً بيته. كانت السماء متلفعة بأردية الخريف وفى الجو نسيم معتدل. وازدحمت الحارة حول مقاطف الليمون كأنما تحتفل بموسم التخليل، وترامت الأحاديث والضحكات، على حين اشتبك غلمان فى معركة يتقاذفون بالتراب. وتلقى رفاعة تحيات كثيرين وأصابه رشاش تراب، فمضى إلى بيته وهو ينفضه عن كتفه ولاسته. ووجد زكى وعلى وحسين وكريم فى انتظاره فتعانقوا كما يتعانقون عند كل لقاء، ثم قص عليهم وعلى زوجته التى انضمت إلى المجلس ما دار بينه وبين بيومى وخنفس. تابعوه باهتمام وقلق، فلما فرغ من قصته تجهمت الوجوه. وساءلت ياسمينة نفسها: ترى عم يتمخض هذا الموقف الدقيق؟ وأليس هناك حل يقى الرجل الطيب من الهلاك دون أن يهدد سعادتها؟ وبدا التساؤل فى الأعين جميعًا، أما رفاعة فأسند رأسه إلى الحائط فى شيء من الإعياء. وقالت ياسمينة:

ـ لا يجوز الاستهانة بأمر بيومي.

وكان على أحدهم طبعًا فقال:

ـ لرفاعة أصدقاء هزموا بطيخة فاختفى من الحارة.

فقالت ياسمينة مقطبة:

ـ بطيخة لا بيومي! إذا تحديتم بيومي فقل عليكم السلام!

فالتفت حسين إلى رفاعة قائلاً:

\_ فلنستمع أولاً إلى المعلم!

فقال رفاعة وهو شبه مغمض العينين:

ـ لا تفكروا في العراك، فإن الذي يشقى لإسعاد الناس لا يهون عليه سفك دمائهم.

وتهلل وجه ياسمينة . كانت تكره فكرة الترمل خشية أن تحدق بها الأعين فلا تجد منفذًا إلى رجلها الرهيب، وقالت :

\_ خير ما تفعل أن ترحم نفسك من ذلك العناء.

فقال زكى محتجّا:

ـ لن نترك هذا العمل ولكن نترك الحارة.

فخفق قلب ياسمينة جزعًا لتخيل البعد عن حارة رجلها، وقالت بحدة:

\_لن نعيش غرباء ضائعين بعيداً عن حارتنا.

وتركزت الأعين في وجه رفاعة فاعتدل رأسه رويداً وقال:

ـ لا أحب أن أهجر حارتنا.

وهنا دق الباب دقات متتابعة في لهفة فذهبت ياسمينة تفتحه، وسمع الجالسون صوتى عم شافعى وعبدة وهما يسألان عن ابنهما. وقام رفاعة فتلقى والديه بالعناق. وجلسوا وشافعي وزوجته يلهثان، ووجهاهما ينطقان بما يحملان من أنباء مزعجة. وسرعان ما قال الأب:

\_ يا بنيّ، تخلى عنك خنفس، فحياتك في خطر، وأخبرني أصحابي بأن أعوان الفتوات يحومون حول بيتك.

وجففت عبدة عينين حمراوين وقالت:

ــ ليتنا ما عدنا إلى هذه الحارة التي تباع فيها الأرواح بلا ثمن!

فقال على متحمسًا:

ـ لا تخافي يا سيدتي، فحينًا كله أصدقاء يحبوننا.

وقال رفاعة متأوهًا:

ـ ماذا فعلنا مما نستحق عليه العقاب؟!

فهتف عم شافعي جزعًا.

ـ أنت من حى آل جبل المكروه لديهم، وكم توجس قلبي خيفة منذ جاء ذكر الواقف على لسانك!

فقال رفاعة متعجبًا:

ـ بالأمس حاربوا جبل لمطالبته بالوقف، واليوم يحاربونني لاحتقاري الوقف!

فلوح شافعي بيده جزعًا وقال:

ـ قل فيهم ما تشاء فلن يغير هذا منهم شيئًا، ولكن اعلم أنك هالك إن غادرت بيتك، ولست آمن عليك إن بقيت فيه .

تسرب الخوف إلى قلب كريم أول ما تسرب لكنه داراه بإرادة قوية وقال مخاطبًا رفاعة :

- إنهم يتربصون لك في الخارج، وإذا لبثت هنا فسيجيئون إليك. هؤلاء هم فتوات حارتنا كما عرفناهم، فلنهرب إلى بيتي من فوق الأسطح وهناك نفكر فيما ينبغي عمله.

فصاح شافعي:

\_ومن هناك تهربون من الحارة ليلاً.

فتأوه رفاعة متسائلاً:

\_وأترك بنائي يتهدم؟

فتوسلت إليه أمه باكية:

\_افعل ما يشير به عليك وارحم أمك!

فقال الأب محتدًا:

\_واستأنف عملك فيما وراء الخلاء إذا شئت.

وقام كريم في اهتمام وقال:

ـ فلنتدبر أمرنا، سيبقى المعلم شافعى وحرمه قليلاً ثم يذهبان إلى ربع النصر كأنهما راجعان بعد زيارة عادية، وتخرج ست ياسمينة إلى الجمالية كأنما لتتسوق، وعند عودتها تتسلل إلى مسكنى وهذا أيسر لها من الهرب عبر الأسطح.

ارتاح شافعي إلى الخطة فقال كريم:

ـ لا ينبغى أن نضيع دقيقة سدى، سأذهب لأستكشف الأسطح.

وغادر الحجرة. وقام شافعي آخذًا رفاعة في يده. وأمرت عبدة ياسمينة بأن تجمع الثياب في بقجة.

وأخذت ياسمينة في جمع الثياب القليلة بصدر مختنق وقلب مكلوم، وثورة من الحنق في باطنها تتجمع. وأقبلت عبدة على ابنها تقبله وترقيه بأعين باكية. ومضى رفاعة

يفكر في حاله بقلب حزين. كم أحب الناس بكل قلبه وكم شقى لإسعادهم وكيف يعاني من بغضائهم وهل يسلم الجبلاوي بالفشل؟! ورجع كريم وهو يقول لرفاعة وصحبه:

ـ اتبعوني.

وقالت عبدة وهي تفحم في البكاء:

ـ سنلحق بك ولو بعد حين.

وقال له شافعي وهو يضغط على مخارج الدمع:

\_ فلتصحبك السلامة يا رفاعة.

عانق رفاعة والديه ثم التفت إلى ياسمينة قائلاً:

- احبكي الملاءة والبرقع كيلا يعرفك أحد.

ثم وهو يميل إلى أذنها:

ـ لا أطيق أن تمتد لك يد بسوء.

09

غادرت ياسمينة الربع ملتفة في السواد وكلمات عبدة تتردد في أذنيها حين قالت لها وهي تودعها: «مع السلامة يا بنتي، ربنا يحفظك ويصونك، رفاعة عهدتك، سأدعو لكما في النهار والليل». كانت طلائع الليل تزحف، وفوانيس المقاهي تشتعل، والغلمان يلعبون حول الأنوار المنبعثة من مصابيح عربات اليد، على حين احتدم عراك القطط والكلاب\_ كشأنه في ذلك الوقت من اليوم حول أكوام الزبالة.

مضت ياسمينة نحو الجمالية وليس في قلبها العاشق مكان للرحمة. لم يساورها التردد ولكن ملأها الخوف فخيل إليها أن أعينًا كثيرة ترقبها. ولم تشعر بشيء من الاطمئنان حتى عرجت من الدراسة إلى الخلاء، لكنها لم تجد الاطمئنان الحقيقي إلا في المنظرة بين يدى بيومي. ولما نزعت النقاب عن وجهها تفحصها باهتمام وتساءل:

\_خائفة؟

فأجابت وهي تلهث:

\_نعم.

\_كلا، الجبن ليس من صفاتك، خبريني ماذا وراءك؟

قالت بصوت لا يكاد يسمع:

ـ هربوا من فوق الأسطح إلى بيت كريم، وسيغادرون الحارة عند الفجر.

فغمغم بيومي ساخرًا:

\_عند الفجريا أولاد الهرمة!

\_أقنعوه بالذهاب، فلماذا لا تدعه يذهب؟

فابتسم ساخرًا وقال:

قديمًا ذهب جبل ثم عاد، هذه الحشرات لا تستحق الحياة.

فقالت وهي شاردة اللب:

\_إنه ينكر الحياة ولكنه لا يستحق الموت.

فتقلص فوه اشمئزازًا وقال:

ـ في الحارة كفايتها من المجانين.

فنظرت إليه في استعطاف ثم غضت بصرها وهمست وكأنما تحدث نفسها:

\_أنقذني يومًا من الهلاك.

فضحك في سخرية غليظة وقال:

\_وها أنت ذي تسلمينه للهلاك، واحدة بواحدة والبادي أظلم!

فشعرت بقلق موجع كالمرض، ورمقته بعتاب وهي تقول:

\_ فعلت ما فعلت لأنك أغلى من حياتي .

فربّت خدها برقة وقال:

ـ سيخلو لنا الجو، وإذا ضايقتك الظروف فلك في هذا البيت مكان.

فارتفعت روحها من هبوطها درجات وقالت:

ـ لو عرضوا على بيت الواقف من دونك ما قبلته.

ـ أنت بنت مخلصة .

وشكتها «مخلصة» فعاودها القلق الذى هو كالمرض. وتساءلت ترى هل يسخر منها الرجل؟ ولم يكن ثمة وقت لمزيد من الكلام فقامت وقام ليودعها، حتى تسللت من الباب الخلفي. ووجدت زوجها وأصحابه في انتظارها، فجلست إلى جانب زوجها وهي تقول لرفاعة:

ـ بيتنا مراقب، ومن الحكمة أن أمك تركت المصباح مشتعلاً وراء النافذة، وسيكون الهرب ميسوراً عند الفجر.

فقال لها زكي وهو يلحظ رفاعة في حزن:

- ـ لكنه حزين، أليس المرضى في كل مكان؟ وأليسوا هم في حاجة كذلك إلى الشفاء؟ فقال رفاعة:
  - ـ تشتد الحاجة إلى الدواء حيث يستفحل المرض.

ونظرت ياسمينة نحوه في رثاء. وقالت لنفسها إن من الظلم قتله. وتمنت لو كان فيه جانب واحد يستحق العقاب. وذكرت أنه الوحيد في هذه الدنيا الذي أحسن إليها وأن جزاءه على ذلك سيكون القتل. ولعنت في سرها هذه الأفكار وقالت ليفعل الخير من يجد في حياته الخير. و لما رأته يبادلها النظر قالت كالمشفقة:

ـ حياتك أغلى من حارتنا اللعينة.

فقال رفاعة باسمًا:

\_هذا ما يقوله لسانك غير أني أقرأ الحزن في عينيك!

وارتعدت. وقالت لنفسها يا ويلى لو كانت قدرته على قراءة العين كقدرته على إخراج العفاريت. وقالت له:

ـ ليس ما بي حزن ولكنه الخوف عليك!

وقام كريم وهو يقول:

\_سأعد العشاء.

ورجع حاملاً الطبلية فدعاهم إلى الجلوس فجلسوا حولها. وكان العشاء مكونًا من الخبز والجبن والمش والخيار والفجل، وثمة إبريق من البوظة. وملأ كريم الأكواب وهو يقول:

ـ ليلتنا تحتاج إلى التدفئة والتشجيع.

وشربوا، ثم قال رفاعة باسمًا:

ـ الخمر توقظ العفاريت ولكنها تنعش من تخلُّص من عفريته. ونظر نحو ياسمينة إلى جانبه فأدركت مغزى نظرته وقالت:

ـ ستخلصني من عفريتي غدًا إن مدّ الله في العمر .

فتهلل وجه رفاعة سروراً وتبادل الأصدقاء التهاني. ومضوا يتناولون العشاء. قطعت الأرغفة. وتلاقت الأيدى فوق الأطباق، وبدوا وكأنهم تناسوا الموت المحيط بهم، وإذا برفاعة يقول:

-أراد صاحب الوقف لأبنائه أن يكونوا مثله، ولكنهم أبوا إلا أن يكونوا مثل العفاريت. إنهم أغبياء: وهو لا يحب الغباء كما قال لي.

فهز كريم رأسه أسفًا، وبلع لقمته ثم قال:

لو كان على شيء من قوته الأولى لسارت الأمور كما يشاء.

فقال على حانقًا:

\_لو . . لو . . لو ، ماذا أفدنا من لو! علينا أن نعمل .

فقال رفاعة بقوة:

\_ ما قصرنا قط، حاربنا العفاريت دون هوادة، وكلما ترك عفريت فراغًا ملأه الحب، وليس وراء ذلك من غاية.

فقال زكى متحسراً:

\_ ولو تركونا نعمل لملأنا الحارة صحة وحبّا وسلامًا.

فقال على معترضًا:

\_إنى أعجب كيف نفكر في الهرب على كثرة ما لنا من أصدقاء!

فقال رفاعة باسمًا:

\_إن عَرَق عفريتك ما زال لاصقًا بجوفك، فلا تنس أن غايتنا الشفاء لا القتل، ولخيرٌ للإنسان أن يُقتل من أن يَقتل.

والتفت رفاعة إلى ياسمينة فجأة وقال:

\_إنك لا تأكلين ولا تصغين!

فتقلص قلبها خوفًا، بيد أنها تغلبت على انفعالها وقالت:

\_إنى أعجب لكم كيف تتحادثون في مرح كأنكم في عرس!

ـ ستألفين البهجة عندما تتخلصين من عفريتك غدًا.

ثم نظر إلى إخوانه وقال:

- بعضكم يخجل من المسالمة، فنحن أبناء حارة لا تحترم إلا الفتونة، ولكن الفتونة ليست قاصرة على الإرهاب، فمصارعة العفاريت أشق عشرات المرات من الاعتداء على الضعفاء أو منازلة الفتوات.

فهز على رأسه أسفًا وقال:

ـ وكان جزاء الإحسان هذا الموقف التعيس الذي وجدنا أنفسنا فيه!

فقال رفاعة بيقين:

ـ لن تنتهى المعركة كما يتوهمون، ولسنا ضعفاء كما يتصورون! إنما نقلنا المعركة من ميدان إلى ميدان، وميداننا يتطلب شجاعة أسمى وقوة أشد.

وواصلوا العشاء وهم يفكرون فيما سمعوا. وبدا لأعينهم هادئًا مطمئنًا قويًا بقدر ما بدا جميلاً وديعًا. وفي فترة الصمت تجلى صوت شاعر الحي وهو يحكي قائلاً: «ومرة جلس أدهم في حارة الوطاويط عند الظهر ليستريح فنعس. واستيقظ على حركة فرأى غلمانًا يسرقون عربته فنهض مهددًا. ورآه غلام فنبه أقرانه بصفير ودفع العربة ليشغله بها عن مطاردتهم فاندلق الخيار على الأرض على حين تفرق الغلمان مسرعين كالجراد. وغضب أدهم غضبًا شديدًا حتى قذف فوه المهذب بسيل من أقذع الشتائم، ثم انكب على الأرض يجمع الخيار الذى لوث بالطين. وتضاعف غضبه دون أن يجد له متنفسًا فراح يقول بتأثر وانفعال: «لماذا كان غضبك كالنار تحرق بلا رحمة؟ لماذا كانت كبرياؤك أحب إليك من لحمك ودمك؟ وكيف تنعم بالحياة الرغيدة وأنت تعلم أننا نداس بالأقدام كالحشرات؟ والعفو واللين والتسامح ما شأنها في بيتك الكبير أيها الجبار؟»! وقبض على يد العربة وهم بدفعها بعيدًا عن الحارة اللعينة وإذا بصوت يقول متهكمًا:

-بكم الخياريا عم؟

رأى إدريس واقفًا يبتسم ابتسامة ساخرة. . ». وإذا بصوت امرأة يرتفع مغطيًا على صوت الشاعر وهي تصرخ «ولد تائه يا أولاد الحلال»!

٦.

مضى الوقت والإخوان فى سمر وياسمينة فى عذاب. أراد حسين أن يلقى على الحارة نظرة، ولكن كريم اعترضه لألا يلمحه أحد فيشك فى الأمر. وتساءل زكى: ترى هل هاجموا بيت رفاعة؟ فقال رفاعة إنهم لا يسمعون إلا نواح الرباب وتهليل الغلمان. كانت الحارة تحيا حياتها فليس ثمة ما يشى بسر جريمة تدبّر. ودارت بياسمينة دوامة الفكر حتى خافت أن تفضحها عيناها. وتمنت أن ينتهى عذابها على أى وجه وبأى ثمن، وتمنت أن تملأ جوفها بالخمر حتى تذهل عما حولها. وقالت لنفسها إنها ليست أول امرأة فى حياة بيومى ولن تكون أخراهن، وإنه حول أكوام الزبالة تكثر الكلاب الضالة، ولكن فلينته هذا العذاب بأى ثمن.

وبتقدم الوقت أخذ الصمت يبتلع الضوضاء رويداً رويداً، فسكتت أصوات الأطفال ونداءات الباعة، ولم يبق إلا نواح الرباب. ودهمتها كراهية مفاجئة لهؤلاء الرجال، لا لشيء إلا لأنهم على نحو ما يعذبونها. وتساءل كريم:

ـ هل أعد المجمرة؟

فقال رفاعة بحزم:

ـ نحن في حاجة إلى وعينا!

\_ ظننت أننا به نستعين على تحمل الوقت.

\_أنت خائف أكثر مما ينبغي.

فنفي التهمة عن نفسه قائلاً:

\_يبدو ألا داعي هناك للخوف!

أجل لم يقع حادث ولم يُهاجم بيت رفاعة. وسكتت الأنغام وذهب الشعراء. وترامت أصوات الأبواب وهي تغلق، وأحاديث العائدين إلى البيوت، وضحكات وسعلات، ثم ساد الصمت. واستمر الانتظار والترقب حتى صاح أول ديك. وقام زكى إلى النافذة ينظر إلى الطريق ثم التفت إليهم قائلاً:

ـ صمت وخلاء، الحارة كما كانت يوم طرد إليها إدريس.

فقال كريم:

\_آن لنا أن نذهب.

وركب الجزع ياسمينة فتساءلت في نفسها: ماذا يكون من أمرها لو تأخر بيومي عن موعده أو لو عدل عنه؟ وقام الرجال وكل يحمل بقجة. وقال حسين:

\_الوداع يا حارتنا الجهنمية!

سار في المقدمة. ودفع برقة رفاعة ياسمينة أمامه وتبعها واضعًا يده على منكبها كأنما يخشى أن يفقدها في الظلام، ثم جاء كريم فحسين ثم زكى. تسللوا من باب الشقة واحدًا في أثر آخر، ورقوا في السلم مهتدين بالدرابزين في الظلمة الحالكة. وبدا السطح أرق ظلمة على الرغم من أنه لم يبد في السماء نجم واحد. ونضحت سحابة بنور القمر المتواري خلفها فسجلت لوحتها ركض السحب. وقال على:

-أسوار الأسطح شبه متلاصقة وسنساعد الست إن لزم الأمر.

تتابعوا داخلين. ولما دخل زكى\_وهو آخرهم\_أحس حركة وراءه فالتفت نحو باب السطح فرأى أربعة أشباح، فتساءل مذعورًا:

\_من هناك؟

تسمر الجميع والتفتوا. وجاء صوت بيومي وهو يقول:

ـ قفوا يا أولاد الزنا.

وانتشر عن يمينه وعن يساره جابر وخالد وحندوسة. وندت عن ياسمينة آهة. وأفلتت من يد رفاعة ثم جرت نحو باب السطح فلم يعترضها أحد من الفتوات، حتى قال علىّ مخاطبًا رفاعة في ذهول:

ـ خانتك المرأة .

وفي لحظة أحاطوا بهم. وراح بيومي يتفحصهم عن قرب واحدًا بعد آخر متسائلاً:

\_أين كودية الزار؟

حتى تبينه فقبض على منكبه بيد من حديد وهو يسأله متهكمًا:

\_أين أنت ذاهب يا نديم العفاريت؟

فقال رفاعة في وجوم:

\_ ضايقكم وجودنا فآثرنا الرحيل.

فأطلق ضحكة قصيرة ساخرة ثم التفت إلى كريم وقال:

\_ وأنت هل أجدى إخفاؤك لهم في بيتك؟

فازدرد كريم ريقه الجاف وقال وفرائصه ترتعد:

\_لم أكن أعلم بشيء مما بينك وبينهم!

فلطمه بيده الأخرى على وجهه فسقط على الأرض، ولكن سرعان ما وثب قائمًا وركض في رعب نحو سطح الربع الملاصق. وفجأة جرى وراءه حسين وزكى. وانقض حندوسة على على فركله في بطنه فتهاوى على الأرض وهو يئن من أعماقه. وفي الوقت ذاته هم جابر وخالد باللحاق بالهاربين ولكن بيومي قال باستهانة:

ـ لا خوف من هؤلاء فلن ينبس أحدهم بكلمة وإلا هلك.

وقال رفاعة وقد انحني رأسه نحو قبضة بيومي لشدة ضغطها:

\_لم يفعلوا شيئًا يستحق العقاب.

فهوي بيومي بكفه على وجهه وهو يقول متهكمًا:

\_خبرني ألم يسمعوا الجبلاوي كما سمعته؟

ثم دفعه أمامه وهو يقول:

ـ سر أمامي ولا تفتح فاك.

سار مستسلمًا للمقادير. هبط السلم المظلم محاذرًا ووقع الأقدام الثقيلة يتبعه. وغشيه الظلام والحيرة والشر الذي يتهدده فلم يكد يفكر فيمن هرب ولا فيمن خان. وران عليه حزن شامل عميق فغطى حتى على مخاوفه. وخيل إليه أن ذلك الظلام سيمسى صفة الدنيا الملازمة. وانتهوا إلى الحارة فقطعوا الحى الذي لم يبق فيه مريض بفضله وتقدمهم حندوسة نحو حي آل جبل فمروا تحت ربع النصر المغلق حتى خيّل إليه أنه يسمع تردد أنفاس والديه. وساءل نفسه لحظة عنهما فخيّل إليه أنه يسمع نحيب عبدة في الليل الصامت ولكن سرعان ما استرده الظلام والحيرة والشر الذي يتهدده. وبدا حي آل جبل هياكل أشباح عمالقة غارقة في الظلام، ما أشد الظلام وما أعمق النوم! أما وقع أقدام الجلادين في الظلمة الحالكة وأطيط نعالهم فكأنه ضحكات شياطين تعبث في

الليل. ومضى حندوسة نحو الخلاء بحذاء سور البيت الكبير فرفع رفاعة عينيه إلى البيت لكنه رآه مظلمًا كالسماء. ولاح شبح في نهاية السور فتساءل حندوسة:

\_المعلم خنفس؟

فأجابه الرجل:

\_نعم.

وانضم إلى الرجال دون كلام. وظلت عينا رفاعة مرفوعتين نحو البيت. ترى هل يدرى جده بحاله؟ إن كلمة منه تستطيع أن تنقذه من مخالب هؤلاء الجبارين وترد عنه كيدهم. إنه قادر على أن يسمعهم صوته كما أسمعه إياه في هذا المكان. وجبل وجد نفسه في مأزق مثل مأزقه ثم نجا وانتصر. لكنه جاوز السور دون أن يسمع شيئًا سوى وقع أقدام الجبارين وتردد أنفاسهم. وأوغلوا في الخلاء فثقلت خطواتهم فوق الرمال. وشعر رفاعة بالغربة في الخلاء وذكر أن المرأة خانته وأن الأصحاب لاذوا بالفرار. أراد أن يلتفت إلى الوراء صوب البيت ولكن يد بيومي دفعته في ظهره بغتة فسقط على وجهه. ورفع بيومي نبوته وهتف:

\_معلم خنفس؟

فرفع الرجل نبوته قائلاً:

\_معك إلى النهاية يا معلم.

وتساءل رفاعة في يأس:

ـ لماذا تبغون قتلى؟

فهوى بيومى بنبوته على رأسه بشدة فصرخ رفاعة صرخة عالية وهتف من أعماقه: «يا جبلاوي»!

وفي اللحظة التالية كان نبوت خنفس يصيب عنقه، واستبقت النبابيت.

وساد صمت لم تسمع خلاله إلا حشرجة.

وأخذت الأيدى تحفر الأرض بقوة في الظلام.

## 11

غادر القتلة المكان متجهين نحو الحارة فسرعان ما ذابوا في الظلام. وإذا بأربعة أشباح تنهض قائمة من موضع غير بعيد من موقع الجريمة. وندت عنهم تنهدات وأصوات بكاء مكتوم حتى صاح أحدهم: ـ يا جبناء، أمسكتم بي وكتمتم أنفاسي فقتل دون دفاع .

فقال له آخر:

\_لو أطعناك لهلكنا جميعًا دون أن ننقذه.

فعاد علي يقول غاضبًا:

\_ يا جبناء! ما أنتم إلا جبناء.

فقال كريم بصوت باك:

ـ لا تضيعوا الوقت في الكلام، أمامنا عمل شاق يجب أن ننجزه قبل الصباح.

ورفع حسين رأسه إلى السماء يقلب فيها عينيه الدامعتين وتمتم بجزع:

\_الفجر قريب فلنسرع.

فهتف زكى متأوهًا:

\_ يا له من وقت قصير كالحلم لكننا فقدنا فيه أعز من عرفنا في الحياة!

واتجه علي نحو موقع الجريمة وهو يصر على أسنانه مغمغمًا:

ـ يا جبناء .

فمضوا خلفه، ثم جلسوا جميعًا على ركبهم في هيئة نصف دائرة وراحوا يتحسسون الأرض مفتشين.

وبغتة صرخ كريم كالملدوغ:

\_هنا!

وتشمم يده وهو يقول:

\_إن هذا هو دمه!

وفي الوقت ذاته صاح زكي:

\_وهذا الموضع الهش مدفنه.

وتجمعوا حوله وأخذوا يزيلون الرمال براحاتهم. لم يكن في الأرض من هو أتعس منهم، لضياع العزيز، ولموقف العجز الذي وقفوه عند مصرعه. واعترت كريم لحظة جنون فقال في بلاهة:

\_لعلنا نجده حيّا!

فقال على بازدراء ويداه لا تكفان عن العمل:

\_اسمعوا أوهام الجبناء!

وامتلأت خياشيمهم برائحة التراب والدم. وترامى من ناحية الجبل عواء. وهتف علي بإشفاق:

- تمهلوا، فهذا جسده.

فانخلعت قلوبهم، ورقت أيديهم، وتلمسوا أطراف ثوبه بجزع، ثم ارتفعت أصواتهم بالبكاء، وتعاونوا على استخلاص الجثة من الرمال وقاموا بها في رفق، وكان صياح الديكة يترامى من الحارات والأزقة. وحث البعض على الإسراع ولكن لفتهم علي إلى وجوب ردم الحفرة، فخلع كريم جلبابه وفرشه على الأرض فطرحوا الجثة عليه، وتعاونوا مرة أخرى على ردم الحفرة. وخلع حسين جلبابه فغطى به الجثة ثم حملوها، وساروا نحو باب النصر. وأخذ الظلام يخف فوق الجبل ويشف عن السحاب، وتساقط الندى فوق الجباه والدموع. وكان حسين يدلهم على طريق مقبرته حتى بلغوها. وانهمكوا في فتح القبر صامتين، والضياء ينتشر رويدًا، حتى تراءى للأعين الجثمان المسجى، وأيديهم الملطخة بالدم، وأعينهم المحمرة من البكاء. وحملوا الجثة وهبطوا بها إلى جوف القبر. وقفوا حولها خاشعين وهم يضغطون جفونهم ليزيلوا الدموع التى تحول دون رؤيتها. وهمس كريم والعبرات تخنقه:

- كانت حياتك حلمًا قصيرًا، لكنها ملأت قلوبنا بالحب والنقاء. وما كنا نتصور أن تغادرنا بهذه السرعة فضلاً عن أن تقتل بيد أحد من الناس، أحد من أبناء حارتنا الجاحدة التي داويتها وأحببتها، حارتنا التي أبت إلا أن تقتل الحب والرحمة والشفاء ممثلة في شخصك فقضت على نفسها باللعنة حتى آخر الزمن.

وتساءل زكى منتحبًا:

ـ لماذا يذهب الطيبون؟! لماذا يبقى المجرمون؟!

وتأوه حسين قائلاً:

ـ لولا حبك الباقي في قلوبنا لمقتنا الناس إلى الأبد!

عند ذاك قال على:

ـ لن يرتاح لنا بال حتى نكفّر عن جبننا.

وعندما غادروا المقبرة متجهين نحو الخلاء، كان النور يصبغ الآفاق بمثل ذوب الورد الأحمر.

## 77

لم يعد أحد من الصحاب الأربعة يظهر في حارة الجبلاوي. وظن ذووهم أنهم غادروا الحارة خفية وراء رفاعة اتقاء لتحرش الفتوات. وعاش الرفاق في أطراف الخلاء

فى حال نفسية متوترة، يصارعون بكل قواهم وطأة الألم وحز الندم. كان فراق رفاعة أشد من الذبح على قلوبهم، وكان تخليهم عنه معذبًا قاتلاً. لم يبق لهم من أمل فى الحياة إلا أن يتحدوا موته بإحياء رسالته، وأن ينزلوا العقاب بقاتليه كما صمم على. أجل لم يكن فى وسعهم العودة إلى الحارة ولكن كان فى مأمولهم أن يقابلوا من يشاءون خارجها. وذات صباح استيقظ ربع النصر على صوات عبدة فهرع الجيران إليها يستطلعون الخبر فصاحت بصوت مبحوح:

\_قتل ابنى رفاعة.

ووجم الجيران وتطلعوا إلى عم شافعي الذي كان يجفف عينيه فقال الرجل:

\_قتله الفتوات في الخلاء.

وعادت عبدة تنوح هاتفة:

- ابنى الذى لم يؤذ أحدًا في دنياه .

فتساءل البعض:

\_وهل علم بذلك فتوتنا خنفس؟

فقال شافعي غاضبًا:

\_كان خنفس ضمن القاتلين.

وقالت عبدة باكية :

\_ وخانته ياسمينة فدلت بيو مي عليه!

فلاح الاستنكار في الوجوه وقال صوت:

ـ لذلك فهي تقيم في بيته بعد أن هجرته زوجته.

وانتشر الخبر في حي آل جبل، فجاء خنفس إلى بيت شافعي وصاح به:

\_أجننت يا رجل؟ ماذا قلت عنى؟

فوقف شافعي أمامه دون مبالاة وقال بشدة:

\_إنك اشتركت في قتله وأنت فتوته وحاميه!

فتظاهر خنفس بالغضب وصاح:

ـ أنت مـجنون يا شـافـعي، لا تدري عـما تقول شـيئًا، ولن أبقى حتى لا أضطر إلى تأديبك.

وغادر الربع وهو يرغى ويزبد. وانتقل الخبر إلى حى رفاعة الذى أقام فيه عقب مغادرته لحى آل جبل فذهل الناس له، وارتفعت الأصوات بالسخط والبكاء، ولكن الفتوات خرجوا إلى الحارة يقطعونها ذهابًا وإيابًا، النبابيت في أيديهم والشر يتقد في

نظراتهم. ثم سرى نبأ يقول: إن الرمال غربى صخرة هند وجدت ملطخة بدم رفاعة. وذهب عم شافعى وبخاصة أصحابه للبحث عن الجثة هنالك، ففتشوا وحفروا ولكنهم لم يعثروا على شيء. ولغط الناس بالخبر وتبلبلت الأفكار وتوقع كثيرون أن تحدث في الحارة أمور. وراح الناس في حي رفاعة يتساءلون: ماذا فعل رفاعة حتى يقضى عليه بالقتل؟ وقال آل جبل: رفاعة قتل وياسمينة مقيمة في بيت بيومى. وتسلل الفتوات بليل إلى المكان الذي قتل فيه رفاعة، وحفروا مدفنه على ضوء مشعل، ولكنهم لم يعثروا للجثة على أثر. وتساءل بيومى:

\_ هل أخذها شافعي؟

ولكن خنفس أجابه:

-كلا، لم يعثر على شيء كما أخبرتني العيون.

فضرب بيومي الأرض بقدمه وصاح:

\_ إنهم أصحابه، لقد أخطأنا بتركهم يفلتون، وها هم أولاء يحاربوننا من وراء وراء. وعند عودتهم مال خنفس على أذن بيومي وهمس قائلاً:

- إن احتفاظ المعلم بياسمينة لما يسبب لنا المتاعب.

فقال بيومي ساخطًا:

ـ بل اعترف أنك فتوة ضعيف في حيّك!

وودعه خنفس ساخطًا. واشتد التوتر بحيَّى جبل ورفاعة، وتكرر اعتداء الفتوات على الساخطين. وساد الإرهاب في الحارة حتى كره أهلها الخروج إليها إلا لضرورة. وفي ليلة من الليالي وكان بيومي في قهوة شلضم ـ تسلل أهل زوجته إلى بيته بقصد الاعتداء على ياسمينة، فشعرت بهم، وفرت بجلبابها إلى الخلاء وهم يطار دونها. وظلت تعدو في الظلام كالمجنونة، حتى بعد أن كف المطار دون عن مطار دتها. وظلت تعدو حتى أوشكت أنفاسها أن تنقطع فاضطرت إلى التوقف وهي تلهث بعنف وقد طرحت رأسها إلى الوراء وأغمضت عينيها. ولبثت كذلك حتى استردت أنفاسها. ونظرت وراءها فلم تر شيئًا ولكنها جفلت من فكرة العودة إلى الحارة ليلاً. ونظرت أمامها فرأت عن بعد نورًا ضئيلاً لعله ينبعث من كوخ فسارت نحوه آملة أن تجد عنده مأوى يؤويها حتى الصباح. وطال بها المسير قبل أن تبلغه. وكان كما ظنت كوخًا فاقتربت من بابه وهي تنادي أهله. وبغتة وجدت نفسها أمام أصدقاء زوجها الحميمين: على وزكي وحسين وكرج.

### 78

تسمرت ياسمينة بالأرض وهي تقلّب في وجوههم بصراً زائغًا. تراءوا لها كجدار يعترض مطارداً في كابوس. كانوا يحدقون فيها باشمئزاز، وبدا الاشمئزاز في عيني علي في إطار حديدي من القسوة. وهتفت بلا وعي:

- إنى بريئة، ورب السماوات بريئة، ذهبت معكم حتى هاجمونا فهربت كما هربتم! وكلحت الوجوه. وتساءل على حانقًا:

ـ ومن أدراك بأننا هربنا؟

فقالت بصوت متهدج:

\_لولا الهرب ما بقيتم على قيد الحياة؛ لكنى بريئة، وما فعلت شيئًا إلا أنى هربت! فقال على وهو يعض أسنانه:

\_ هربت إلى سيدك بيومي.

\_أبدًا، دعوني أذهب. . أنا بريئة .

فصاح بها علي:

\_ ستذهبين إلى جوف الأرض!

فهمّت بالهرب لكنه وثب عليها فقبض على منكبيها بشدة فصرخت:

\_ أعتقني إكرامًا له، فإنه لم يكن يحب القتل ولا القاتلين!

فقبض على عنقها بيديه، حتى قال كريم جزعًا:

\_انتظر حتى نفكر في الأمر.

فصاح به:

\_اصمتوا يا جبناء!

وشد على عنقها بكل ما يعتلج فى صدره من حنق وحقد وألم وندم. حاولت التخلص من قبضته عبثًا، قبضت على ساعديه، ركلته، هزت رأسها، كان كل مجهود عبثا ضائعا فخارت قواها، وجحظت عيناها، ثم نفث أنفها دمًا، وارتج جسدها بعنف، وسكتت إلى الأبد، وتركها فسقطت جثة تحت قدميه.

وفى صباح اليوم التالى وجدت جثة ياسمينة ملقاة أمام بيت بيومى. وانتشر الخبر كغبار الخماسين فجرى الناس نساء ورجالا نحو بيت الفتوة. وارتفعت الضوضاء، واختلطت التعليقات، ودارى الجميع مشاعرهم الحقيقية. وفتح باب بيت بيومى، واندفع منه الرجل كالثور الهائج، وراح يضرب بنبوته كل من يصادفه فركض الجميع فى فزع، ولاذوا بالدور والمقاهى، ووقف الرجل فى الحارة الخالية يسب ويلعن ويهدد ويتوعد، ويضرب الهواء والجدران وأديم الأرض.

وفي اليوم نفسه هجر عم شافعي وزوجته الحارة، وبدا أن أي أثر لرفاعة قد اختفي.

ولكن ثمة أشياء كانت تذكر به على الدوام، كبيت عم شافعى بربع النصر ودكان النجارة ومسكن رفاعة فى الحى الذى أطلقوا عليه دار الشفاء، ومصرعه غربى صخرة هند، وفوق كل أولئك أصحابه المخلصون الذين واصلوا اتصالاتهم بمحبيه، ولقنوهم أسرار علمه بتخليص الأنفس من العفاريت ليزاولوها فى مداواة المرضى، اقتنعوا أنهم بذلك يعيدون رفاعة إلى الحياة. أما على فلم يكن ليهدأ له بال حتى يقضى على المجرمين. وقد قال له حسين معاتباً:

\_ إنك لست من رفاعة في شيء!

فقال على بقوة:

\_ إنى أعرف رفاعة أكثر مما تعرفونه، قضى حياته القصيرة في قتال عنيف مع العفاريت.

فقال كريم:

\_إنك تريد العودة إلى الفتونة وما كان أبغضها إليه.

فهتف على بحماس:

\_كان فتوة و لا كل الفتوات ولكن خدعتكم رقته.

وتوثب كل فريق للعمل على رأيه بإيمان صادق. وتناقلت الحارة قصة رفاعة على حقيقتها التى كان الأكثرون يجهلونها، وتنوقل أيضًا أن جثته ظلت ملقاة فى الخلاء حتى حملها الجبلاوى بنفسه فواراها التراب فى حديقته الغناء. وكادت الأحداث الخطيرة تتلاشى عند ذلك لولا أن اختفى الفتوة حندوسة اختفاء مريبًا. وإذا بجثته تكتشف ذات صباح ملقاة مشوهة أمام بيت الناظر إيهاب. وتزلزل بيت الناظر كما تزلزل بيت بيومى. ومرت بالحارة فترة رهيبة من الرعب. انصب الاعتداء كالمطر على كل من له صلة أو شبهة صلة برفاعة أو بأحد من رجاله. انهالت النبابيت على الرءوس، وهرست الأقدام البطون، وحفرت الكلمات الصدور، وألهبت الأيدى الأقفية، حتى حبس نفسه فى الدور من حبس، وهجر الحارة من هجر، وقتل فى الخلاء من استهان بالخطر، فضجت الحارة بالصوات والعويل، وغشيها السواد والظلام، وفاحت منها رائحة الدم.

ومن عجب أن ذلك كله لم يقض على عمل العاملين، فقد قتل الفتوة خالد وهو

خارج من بيت بيومي قبيل الفجر. واشتد غضب الإرهاب حتى بلغ الجنون. لكن حارتنا استيقظت في الهزيع الأخير من الليل على حريق هائل التهم بيت الفتوة جابر وأهلك أسرته. وصاح بيومي:

\_إن مجانين رفاعة منتشرون كالبق، والله ليقتلن ولو في بيوتهم!

ذاع فى الحارة أن البيوت ستهاجم بليل فركب الفزع الناس حتى جُنّوا. وخرجوا من الربوع فى ثورة هوجاء يحملون العصى والمقاعد وأغطية الحلل والسكاكين والقباقيب والطوب. وصمم بيومى على أن يضرب قبل أن يستفحل الأمر فرفع نبوته وخرج من بيته فى هالة من الأعوان.

وظهر علي لأول مرة ومعه رجال أشداء على رأس الثائرين. وما إن رأى بيومى قادمًا حتى أمر بقذف الطوب فأرسل الهائجون أسراب الطوب كالجراد فانصبت على بيومى ورجاله وتفجرت الدماء. وهجم بيومى بجنون وهو يصرخ كالوحش ولكن حجراً أصاب أعلى رأسه فتوقف على رغم الغضب ورغم القوة ورغم الفتونة، ثم ترنح وسقط مقنعًا بدمه. وسرعان ما فر الأعوان، واكتسحت أمواج الغاضبين بيت الفتوة حتى ترامت أصوات الكسر والتحطيم إلى مثوى الناظر في بيته. واستطار الشر، وانقض العقاب على من بقى من الفتوات وأعوانهم، وخربت بيوتهم، واستفحل الخطر، وأوشك أن يفلت الزمام. عند ذاك أرسل الناظر في طلب على فذهب على لمقابلته. وكف رجال على عن الانتقام والتخريب انتظاراً لما تسفر عنه المقابلة فهدأت الأحوال وسكنت الخواطر.

وتمخضت المقابلة عن عهد جديد في الحارة. فقد اعترف بالرفاعيين كحى جديد مثل حي آل جبل فيما له من حقوق وامتيازات، ونصب علي ناظراً على وقفهم، بمعنى فتوة لهم، يتسلم نصيبهم في الوقف ويوزعه عليهم على أساس المساواة الشاملة. وعاد إلى الحي الجديد جميع المهاجرين الذين فروا من الحارة في فترات الإرهاب، وعلى رأسهم عم شافعي وزوجته وزكى وحسين وكريم. وحظى رفاعة في موته بما لم يكن ليحلم به في حياته من التكريم والإجلال والحب حتى سار قصة باهرة يرددها كل لسان، وتتغنى بها الرباب، وبخاصة رفع الجبلاوي لجئته ودفنها في حديقته الغناء. وقد أجمع الرفاعيون على ذلك، كما أجمعوا على الولاء والتقديس لوالديه. لكنهم اختلفوا فيما عدا ذلك فأصر كريم وحسين وزكى على أن رسالة رفاعة يجب أن تقتصر على مداواة المرضى واحتقار الجاه والقوة، فساروا ومن تبعهم في الحياة مساره، وغالى منهم قوم فتجنبوا واحتقار الجاه والقوة، فساروا ومن تبعهم في الحياة مساره، وغالى منهم قوم فتجنبوا وتزوج ودعا إلى تجديد حي رفاعة. لم يكره رفاعة الوقف لذاته ولكن ليبرهن على أن السعادة الحقة متاحة بدونه، وليقضى على الشرور التي يستثيرها الطمع، فإذا وزع الربع بالعدل، ووجه للبناء والخير، فهو الخير كل الخير.

وعلى أى حال استبشر الناس خيراً، واستقبلوا الحياة بوجوه مشرقة، وقالوا بثقة واطمئنان إن اليوم خير من الأمس، وإن الغد خير من اليوم.

فلماذا كانت آفة حارتنا النسيان؟!

قاســـم

٦٤

لم يكد شيء يتغير في الحارة. الأقدام ما زالت عارية تطبع آثارها الغليظة على التراب. والذباب ما زال يلهو بين الزبالة والأعين. والوجوه ما زالت ذابلة مهزولة، والثياب مرقعة، والشتائم تتبادل كالتحيات، والنفاق يصم الآذان. والبيت الكبير ما زال قابعًا وراء أسواره غارقًا في الصمت والذكريات، وإلى اليمين بيت الناظر، وإلى اليسار بيت الفتوة، ثم يجيء حي آل جبل، ويليه حي آل رفاعة في وسط الحارة. أما بقية الحارة وهي الناحية المنحدرة إلى الجمالية فكانت مقام من لا صفة لهم ولا نسب، أو الجرابيع كما كانوا يدعونهم، وهم أتعس أهل الحارة وأضيعهم.

وفى هذا العهد ولى النظارة السيد رفعت، وكان كسابقيه من النظار. وكان فتوتها لهيطة وهو رجل قصير دقيق لا يوحى مظهره بالقوة لكنه ينقلب عند المعركة لسانًا من نار فى سرعته وحدته وتدميره، وقد نال الفتونة بعد سلسلة من المعارك سالت خلالها الدماء فى جميع الأحياء. أما فتوة آل جبل فكان يدعى جلطة، وما زال حيه معتدًا بنفسه مباهيًا بقرابته للواقف وبأنه خير حى، وأن رجلهم جبل كان أول وآخر من كلمه الجبلاوى وفضله، ولذلك قل أن أحبهم أحد. وكان حجاج فتوة آل رفاعة، لكنه لم يحتذ مثال علي فى نظارته وإنما سار على درب خنفس وجلطة وغيرهما من المغتصبين. كان يستأثر بالربع ويضرب المتذمرين ويحث آله على اتباع سنة رفاعة فى احتقار الجاه والثراء! وحتى الجرابيع كان لهم فتوتهم، ويدعى سوارس، لكنه لم يكن طبعًا بناظر وقف. على هذا النحو استقرت الأوضاع، وأكد حَملة النبابيت وشعراء الرباب أنه نظام عادل، جرت به شروط الواقف العشرة وسهر على تنفيذه ورعايته الناظر والفتوات.

وفى حى الحرابيع عرف عم زكريا بياع البطاطة بالطيبة، وامتاز بين الناس بقرابته البعيدة للمعلم سوارس فتوة الحى. كان يطوف بأحياء الحارة سائقًا عربته مناديًا على البطاطة، وفي وسط العربة تقوم الفرن نافثة دخانًا معبقًا برائحة شهية، تجذب غلمان

رفاعة وجبل، كما تجذب الغلمان بالجمالية والعطوف والدراسة وكفر الزغارى وبيت القاضى. وكانت فترة غير قصيرة من حياة عم زكريا الزوجية قد مضت دون أن يرزق بمولود، ولكن آنس وحشته في تلك الفترة صغير يتيم هو قاسم ـ ابن شقيق زكريا عقب وفاة والديه ولم يجد الرجل في الصغير عبئًا يئوده، إذ إن الحياة وخصوصا في هذا الحي من الحارة لم تكن تعلو كثيرًا عن حياة الكلاب والقطط والذباب التي تعثر على رزقها في النفايات وأكوام الزبالة. وأحب زكريا قاسم كما كان يحب أباه من قبل، ولما حملت زوجته عقب انضمام الصغير للأسرة تفاءل به خيرًا وازداد عليه عطفًا، ولم يقل عطفه عندما رزق بابنه حسن.

ونشأ قاسم شبه وحيد، إذ كان اليوم يمضى وعمه بعيد عن الحارة وزوجة عمه مشغولة بدارها ووليدها. ثم اتسع عالمه بنموه فأخذ يلعب فى حوش الربع أو فى الحارة، وصادق أقرانه فى حيّه وحيّى رفاعة وجبل، وذهب إلى الخلاء فلعب حول صخرة هند، وشرق فى الصحراء وغرب، ورقى فى الجبل. وكان يتطلع مع الصغار إلى البيت الكبير مفاخراً بجده ومقام جده، ولكنه لم يكن يجد ما يقوله إذا تكلم البعض عن جبل والبعض الآخر عن رفاعة، كما لم يكن يجد ما يفعله إذا انقلب الكلام تشامًا وتماسكًا وعراكًا.

وكم نظر إلى بيت الناظر بدهش وإعجاب، وكم رمق الثمار فوق الأسجار برغبة واستهاء. ويومًا رأى البواب ناعسًا فتسلل إلى الحديقة بخفة، دون أن يرى أحدًا أو يراه أحد، وراح يقطع المماشى في بهجة وسرور، ويلتقط ثمار الجوافة من فوق الحشائش ويأكلها بلذة، حتى وجد نفسه أمام الفسقية، وعلقت عيناه بعمود الماء المتصاعد من النافورة. استخفه الفرح فخلع جلبابه ونزل إلى الماء ومضى يخوض فيه ويضرب سطحه بيديه ويدلك به جسده وقد ذهل عما حوله. وما يدرى إلا وصوت حاد يصبح بغضب: «يا عثمان يا بن الكلب، تعال يا أعمى يا بن الأعمى». التفت رأسه نحو مصدر الصوت فرأى على السلاملك رجلاً متلفعًا بعباءة حمراء، يشير نحوه بأصبعه المرتجف، والغضب يشتعل في وجهه، فاندفع نحو حافة الفسقية وصعد إلى أرض الحديقة مرتكزًا على مرفقيه، وعند ذاك لمح البواب قادمًا مهرولاً، فجرى نحو عريشة الياسمين الملاصقة للسور، ناسيًا جلبابه حيث خلعه، وركض نحو الباب، فمرق إلى الحارة. عدا بكل قواه، ورآه أطفال فتبعوه مهللين، فنبحت كلاب، ثم خرج عثمان البواب إلى الحارة وراح يجرى وراءه حتى أدركه في منتصف حيّه، فقبض على ذراعه وتوقف وهو يلهث، وعلا صراخ قاسم حتى ملأ الحيّ. وسرعان ما جاءت زوجة عمه حاملة وليدها، وخرج المعلم سوارس من القهوة. دهشت زوجة عمه لمنظره، وأمسكت بيده وهي تقول للمواب:

ـ وحّد الله يا عم عثمان، أرعبت الولد، ماذا فعل؟ وأين جلبابه؟

فصاح البواب في تكبّر:

رآه حضرة الناظر وهو يستحم في الفسقية. هذا العفريت يجب جلده، دخل الملعون وأنا نائم، لماذا لا تريحوننا من عفاريتكم؟!

فقالت المرأة برجاء:

-السماح يا عم عثمان، الولديتيم، وحقك علىّ.

واستنقذته من يده قائلة:

ـ سأضربه عنك ولكن وحياة شيبتك إلا ما أعدت له جلبابه الوحيد!

فلوح البواب بيده متسخطًا وولاها ظهره راجعًا وهو يقول:

ـ بسبب هذه الحشرة لعنت وسببت، أولاد عفاريت وحارة بنت كلب!

وعادت المرأة إلى الربع، متوركة حسن، جارَّة قاسم من يده وهو يشهق باكيًا.

#### 70

وقال عم زكريا لقاسم وهو يرمقه بإعجاب:

لم تعد طفلاً يا قاسم، فأنت تقارب العاشرة وآن لك أن تعمل!

فالتمعت عينا قاسم السوداوان ابتهاجًا وقال:

\_طالما رجوتك أن تأخذني معك يا عمي.

فضحك الرجل قائلاً:

ـ كان غرضك اللعب لا العمل، أما اليوم فأنت ولد عاقل وتستطيع أن تعاونني.

فهرع الغلام إلى العربة محاولاً دفعها لكن عم زكريا منعه، وقالت زوجة عمه:

ـ حاسب أن تنزلق البطاطة فنموت جوعًا.

وقبض زكريا على يدى العربة وهو يقول له:

\_ سر أمام العربة وناد: «بطاطة العمدة. . بطاطة الفرن». وخذ بالك من كل ما أقول أو أعمل، وستصعد بالبطاطة إلى الزبائن بالأدوار العليا، وعلى العموم فتّح عينيك.

فقال قاسم وهو ينظر إلى العربة بحسرة:

\_لكني قادر على دفعها:

وساق الرجل العربة وهو يقول:

- افعل كما أمرتك ولا تكن عنيدًا، كان أبوك ألطف الناس.

انحدرت العربة نحو الجمالية وقاسم يصيح بصوت رفيع كالصفير: «بطاطة العمدة، بطاطة الفرن». لم يكن كمثل فرحه شيء وهو ينطلق إلى الأحياء الغريبة ويعمل كالرجال. ولما بلغت العربة حارة الوطاويط نظر قاسم فيما حوله وقال لعمه:

\_ هنا اعترض إدريس سبيل أدهم!

فهز زكريا رأسه بلا اكتراث، فعاد الغلام يقول ضاحكًا:

\_كان أدهم يسوق عربته مثلك يا عمي.

ومضت العربة في تجوالها اليومي، من الحسين إلى بيت القاضى، ومن بيت القاضى إلى الدراسة، وقاسم يتطلع بدهش إلى العابرين والدكاكين والجوامع حتى انتهت إلى ميدان صغير قال العم إنه سوق المقطم، فتأمله الغلام بإعجاب وقال:

\_أهذا سوق المقطم حقًّا؟! إلى هنا هرب جبل، وهنا ولد رفاعة.

فقال زكريا بلا حماس:

ـ نعم، لا لنا في هذا ولا ذاك!

فقال قاسم:

\_لكننا جميعًا أولاد الجبلاوي، فلماذا لا نكون مثلهم؟

فضحك الرجل وقال ساخرًا:

\_على الأقل جميعنا في الفقر سواء!

ووجه الرجل عربته نحو أطراف السوق المشرفة على الخلاء، وبخاصة نحو كوخ من الصفائح على هيئة دكان لبيع المسابح والبخور والأحجبة، جلس أمامه على فروة عجوز ذو لحية بيضاء.

أوقف زكريا العربة أمام الكوخ وصافح العجوز بحرارة، فقال الرجل:

\_ عندى اليوم كفايتي من البطاطة.

فجلس زكريا إلى جانبه وهو يقول:

ـ مجالستك خير عندى من الربح.

ونظر العجوز نحو الغلام مستطلعًا فصاح به زكريا:

ـ تعال يا قاسم وقبّل يد المعلم يحيى.

فاقترب الغلام من العجوز وتناول يده المعروقة فلثمها في أدب. وراح يحيى يداعب قُصة قاسم ويتأمل وجهه الوسيم ثم تساءل:

\_من الغلام يا زكريا؟

فقال زكريا وهو يمد ساقيه في الشمس:

- ابن المرحوم أخى.

فأجلسه إلى جانبه على الفروة وهو يسأله:

ـ هل تذكر أباك يا بني؟

فهز قاسم رأسه قائلاً:

-كلاياعمى.

\_كان أبوك صديقًا لى ، وكان لطيفًا .

ورفع قاسم عينيه إلى البضائع يتأمل ألوانها، فمد يحيى يده إلى رف قريب وتناول حجابًا، ثم علقه بعنق الغلام وهو يقول:

\_احتفظ به فيحفظك من كل سوء.

وإذا بعم زكريا يقول لقاسم:

ـ المعلم يحيى كان من حارتنا، ومن حي آل رفاعة.

فنظر قاسم إلى يحيى وتساءل:

ـ لماذا تركت حارتنا يا عمى؟

فأجاب زكريا قائلاً:

ـ غضب عليه فتوة آل رفاعة منذ عهد بعيد فآثر الهجرة .

فقال قاسم بدهش:

ـ فعلت كما فعل عم شافعي والدرفاعة.

فضحك يحيى عن فم فاغر طويلاً ثم قال:

\_أعرفت ذلك يا غلام؟ ما أعرف أولاد حارتنا بالحكايات، فما بالهم لا يعتبرون!

وجاء صبى قهوة حاملاً صينية شاى فوضعها أمام يحيى ثم رجع وأخرج يحيى من

صدره لفافة صغيرة وجعل يفكها قائلاً برضا:

ـ لدى شيء ثمين، مفعوله أكيد حتى الصباح.

فقال زكريا باهتمام:

ـ دعنا نجرّبه .

فقال يحيى ضاحكًا:

\_ما سمعتك تقول لا قط.

\_كيف أرفض النعمة يا يحيى؟!

وتقاسما القطعة، وراحا يلوكانها، وقاسم يتابعهما بشغف حتى أضحك عمه. وأخذ العجوز يحسو الشاي، ويسأل قاسم:

ـ هل تحلم بالفتونة كأهل حارتنا؟

فقال قاسم مبتسمًا:

\_نعم.

فقهقه زكريا وقال كالمعتذر:

\_اعذره يا معلم يحيى فأنت تعلم أنه في حارتنا إما أن يكون الرجل فتوة وإما أن يُعدّ قفاه للصفع .

فقال يحيى متأوهًا:

ـ ليرحمك الله يا رفاعة ، كيف نبتَّ في حارتنا الجهنمية؟!

\_لذلك كانت نهايته كما تعلم.

فقال يحيى مقطبًا:

\_رفاعة لم يمت يوم مصرعه، ولكنه مات يوم انقلب خليفته فتوة!

فسأله قاسم باهتمام:

\_أين دفن يا عمى؟

\_ أهله يقولون إن جدنا دفنه في حديقته، ويقول آل جبل إن جثته ضاعت في الخلاء.

ثم صاح يحيى غاضبًا:

- الملاعين الأشقياء، ما زالوا يحقدون عليه حتى اليوم!

ثم مستدركًا في تساؤل:

\_خبّرني يا قاسم هل تحب رفاعة؟

فنظر الغلام نحو عمه في حذر ولكنه قال ببساطة:

ـ نعم يا عمى، أحبه كثيرًا.

\_ أيهما أحب إليك: أأن تكون مثله أم أن تكون فتوة؟

فرفع إليه عينين تمتزج فيهما الحيرة والابتسام وتحركت شفتاه للكلام ولكنه لم ينبس، فقال زكريا مقهقهًا:

\_ فليقنع مثلى ببيع البطاطة!

وساد الصمت بينهم على حين قامت ضجة في السوق حول حمار طرح أرضًا فمال بالكارو المربوطة به، وأخذت الراكبات يثبن منها، أما السائق فقد انهال على الحمار ضربًا. ونهض زكريا وهو يقول:

\_أمامنا مشوار طويل، سلام عليكم يا معلم.

فقال يحيى:

\_أحضر الغلام معك كلمّا جئت.

وصافح قاسم وهو يداعب قُصَّته قائلاً:

\_ ما أظرفك!

### 77

لم يكن في الخلاء من مكان يستظل به من وقدة الشمس الغاضبة إلا صخرة هند. هنالك اقتعد قاسم الأرض ولا أنيس له إلا الغنم. بدا في جلباب أزرق نظيف نظيف بالقدر المتاح لراع ــ متلفع الرأس بلاسة غليظة وقاية من الشمس، ومنتعلاً مركوبًا قديمًا باليًا تهتكت أطراًفه. وكان يخلو إلى نفسه حينًا ويراقب النعاج والخرفان والمعز والجداء حينًا آخر، وعصاه مطروحة إلى جانبه. ولاح المقطم من مجلسه القريب عاليًا ضخمًا متجهمًا، كأنه المخلوق الوحيد تحت القبة الصافية الذي يتحدى غضبة الشمس في عناد وإصرار، كما ترامي الخلاء حتى الآفاق مشمولاً بصمت ثقيل وهواء ساخن. وكان إذا أضنته أفكاره وأحلامه ونوازع شبابه الفائر سرح الطرف في الغنم ملاحظًا لهوها وعبثها، وتخاصمها وتواددها، ونشاطها وكسلها، وبخاصة البهم والحملان منها التي تستدر عطفه ومحبته. وكانت أعينها الكحلاوات تعجبه وتهز فؤاده بنظراتها كأنما تخاطبه، وكان بدوره يخاطبها فيقارن بين ما تلقى في رعايته من عطف وما يلقى أولاد حارته تحت غطرسة الفتوات من هوان. ولم تهمه نظرة الاستعلاء التي يلقيها أهل الحارة على الرعاة، إذ آمن من بادئ الأمر بأن الراعي خير من البلطجي والبرمجي والمتسول. وفضلاً عن ذلك فقد أحب الخلاء والهواء النقي وأنس إلى المقطم وصخرة هند وقبة السماء ذات الأطوار العجيبة. إلاّ أن الرعى كان يقوده دائمًا إلى المعلم يحيى! وتساءل المعلم يحيى أول ما رآه راعيًا:

- من بائع بطاطة إلى راعى غنم؟!

فقال قاسم دون حرج:

\_ولم لا يا معلم؟! إنه عمل يحسدني عليه مئات من التعساء في حينا!

\_ولماذا تركك عمّك؟

- ابن عمى حسن كبر وهو أحق بمرافقة عمى في تجواله، ورعى الغنم خير من التسول!

ولم يكن يوم يمر دون أن يزور معلمه. كان يحبه ويسعد بأحاديثه. ووجد فيه رجلاً محيطًا بأخبار حارته، حاضرها وماضيها، ويعرف ما يتغنى به شعراء الرباب وأكثر، ويعرف أيضًا ما يتجاهلونه أحيانًا. وكان يقول ليحيى: "إنى أرعى أغنامًا من كل حى، عندى غنم لجبل وأخرى لرفاعة وثالثة للموسرين من حينا، ومن عجب أنها جميعًا ترعى في إخاء لا ينعم بمثله أصحابها القساة من أولاد حارتنا!». وقال له أيضًا: "كان همام راعيًا. ومن الذين يحتقرون الرعاة؟! إنهم متسولون وعاطلون وتعساء، وهم في الوقت نفسه يحترمون الفتوات، وما الفتوات إلا لصوص فجرة وسفاكو دماء! سامحكم الله يا أولاد حارتنا!». ومرة قال له في دعابة:

\_ إنى فقير قانع، لم تمتد يدى بالأذى لإنسان، حتى غنمى لا تلقى منى إلا المودة، أفلا ترى أننى مثل رفاعة؟

فرمقه الرجل باستنكار وقال:

\_رفاعة؟! أنت مثل رفاعة؟! رفاعة قضى عمره في تخليص إخوانه من العفاريت كي تخلص لهم السعادة!

ثم ضحك العجوز واستدرك قائلاً:

ـ وأنت شاب مولع بالنساء، ترصد عند المغيب فتيات الخلاء!

فابتسم قاسم متسائلاً:

ـ وهل في ذلك من عيب يا معلمي؟

\_أنت وشأنك، ولكن لا تقل إنك مثل رفاعة!

فتأمل قوله مليّا ثم قال:

- وجبل ألم يكن كرفاعة من أبناء حارتنا الطيبين؟ كان كذلك يا معلمي، وقد أحب وتزوج واستخلص حق آله في الوقف ووزعه بالعدل.

فقال يحيى بحدّة:

ـ لكنه جعل من الوقف غايته!

فتفكر الشاب قليلاً ثم قال بصراحة:

ـ بل حسن المعاشرة والعدل والنظام أيضًا كانت غاياته.

فتساءل يحيى في استياء:

\_إذن فأنت تفضل جبل على رفاعة؟

فامتلأت العينان السوداوان بالحيرة، وتردد طويلاً، ثم قال:

\_كلاهما كان رجلاً طيبًا، وما أقل الطيبين في حارتنا، أدهم وهمام وجبل ورفاعة، أولئك هم كلّ حظنا من الطيبة، أما الفتوات فما أكثرهم!

### فقال يحيى في أسى:

\_وأدهم مات كمدًا، وهمام قتل، ورفاعة قتل!

أولئك هم الطيبون حقّا من أهل الحارة. سيرة عطرة ونهاية مؤسفة. هكذا كان يناجى نفسه وهو جالس فى ظل الصخرة الكبيرة. وانبعثت من صدره رغبة حارة فى أن يكون مثلهم. أما الفتوات فما أقبح فعالهم. وداخله حزن غامض وساوره قلق. وقال لنفسه ليهدهد خاطره: كم شهدت هذه الصخرة من أحداث وأناس، كغرام قدرى وهند، ومقتل همام، ولقاء جبل والجبلاوى، وحديث رفاعة وجدّه، ولكن أين الأحداث؟ وأين الأناس؟ إن الذكرى الطيبة تبقى وهى أثمن من قطعان المعز والضأن! وشهدت أيضًا جدنا العظيم وهو يجوب هذه الآفاق وحده، يمتلك ما يشاء ويرهب الأشقياء. ترى كيف حاله فى عزلته؟

وعند الأصيل نهض ثم تمطى متثائبًا. وتناول عصاه وهو يصفر صفيراً منغمًا، ثم لوح بعصاه ونعق بالغنم فمضت تتجمع وتتحرك قافلتها نحو العمران. وبدأ يشعر بالجوع ولم يكن تناول في نهاره إلا سردينة ورغيفًا، ولكن عشاء طيبًا ينتظره في بيت عمه. وحث السير حتى بدا له أول ما بدا من بعيد البيت الكبير بأسواره العالية ونوافذه المغلقة ورءوس أشجاره. ترى ما شكل الحديقة التي يتغنى بها الشعراء والتي مات أدهم حسرة عليها؟ ولدى اقترابه من الحارة ترامت إلى مسامعه الضوضاء. ومضى بحذاء السور الكبير إلى الداخل والمغيب يضفى على الجو سمرته. وشق طريقه بين جماعات من الغلمان يلعبون ويتقاذفون بالطين، وملأت أذنيه نداءات الباعة وأحاديث النساء وسخريات الساخرين وشتائمهم، واستغاثات المجذوبين وجرس عربة الناظر، على حين أفعم أنفه برائحة والمتائمها، كذلك فعل بحي آل رفاعة، فلم يبق لديه إلا نعجة واحدة، تملكها ست قمر، السيدة الوحيدة التي تملك مالا في حي الجرابيع. وكانت تقيم في بيت مكوّن من ورو واحد ذي حوش متوسط تتوسطه نخلة وفي ركنه الأقصى شجرة جوافة. ودخل دور واحد ذي حوش متوسط تتوسطه نخلة وفي ركنه الأقصى شجرة جوافة. ودخل الحوش سائقًا أمامه «نعمة»، فصادف في طريقه الجارية سكينة بشعرها المفلفل الذي وخطة المشيب، فحيّاها فردت تحيته بابتسامة وسألته بصوت نحاسي:

### \_كيف حال نعمة؟

فأعرب لها عن إعجابه بالنعجة، وتركها لها، ومضى في سبيله، وإذا بصاحبة البيت والنعجة تدخل الحوش عائدةً من الحارة. بدت أمامه في ملاءة لف حوت جسمها المليء، وطالعته من برقعها عينان سوداوان ينديان بالحنان. تنحى جانبًا وهو يغض بصره فقالت له برقة مهذبة:

\_مساء الخير.

\_مساء الخيريا ستى.

وتمهلت المرأة في سيرها وهي تتفحص نعمة، ثم نظرت نحوه، وقالت:

ـ نعمة تسمن يومًا بعد يوم والفضل لك!

فقال متأثرًا من نظرتها الحنونة قبل كلماتها الطيبة:

- الفضل للمولى ولرعايتك.

والتفتت ست قمر نحو سكينة وقالت:

\_أحضري له عشاء!

فرفع يديه بالشكر إلى رأسه وقال:

\_خيرك سابق يا ستى.

وفاز بنظرة أخرى وهو يحييها مودعا، ثم ذهب. ذهب شديد التأثر برقتها وعطفها، كحاله كلما أسعده الحظ بلقائها. وذلك عطف لم يعرف مثله إلا فيما يسمع أحيانًا عن عطف الأمهات الذى لم يجربه. ولو امتد العمر بأمه لكانت اليوم في مثل عمر هذه السيدة الأربعينية. وكم بدا هذا العطف عجيبًا في حارته التي تتباهى بالقوة والعنف. وليس أعجب منه إلا جمالها المحتشم وما ينفحه في روحه من بهجة غامرة. ليست كذلك مغامرات الخلاء المحرقة، بجوعها الملتهب الأعمى وشبعها الخامد المكتئب.

وهرول نحو دار عمه ملقيًا عصاه على كتفه، لا يكاديرى ما بين يديه من شدة انفعاله. وجد أسرة عمه مجتمعة في الشرفة المطلة على حوش الربع تنتظره. جلس مع ثلاثتهم حول الطبلية وقد أعد عليها عشاء من طعمية وكراث وبطيخ. وكان حسن في السادسة عشرة من عمره، طويل القامة متين البناء حتى حلم عم زكريا بأن يراه يومًا فتوة الجرابيع. ولما انتهى العشاء رفعت المرأة الطبلية وغادر عم زكريا الربع، ولبث الصديقان في الشرفة حتى ترامى إليهما صوت من الحوش ينادى:

\_ يا قاسم .

فقام الشابان وقاسم يجيبه:

ـ نحن قادمان يا صادق.

وتلقاهما صادق ببشر متألق، وكان مقاربًا لقاسم في سنه وطوله ولكنه أنحل منه عودًا. وكان يعمل مساعدًا لمبيض النحاس في أول دكان بحى الجرابيع فيما يلى الجمالية. مضى الأصدقاء إلى قهوة دنجل، وطالعهم لدى دخولهم الشاعر طازة متربعًا على أريكته في الصدر، على حين جلس سوارس على كثب من مجلس دنجل عند المدخل،

فاتجهوا نحو الفتوة وصافحوه في خضوع على رغم ما يعتز به قاسم وحسن من قرابته. واتخذوا مجلسهم على أريكة واحدة وسرعان ما جاء لهم صبى القهوة بطلباتهم المألوفة. وكان قاسم مغرمًا بالجوزة والشاى المنعنع. وإذا بسوارس يتفحص قاسم بنظرة ازدراء وتساءل بغلظة:

\_مالك يا ولد متأنقًا كالبنت؟

فتورد وجه قاسم حياء وقال في نبرة المعتذر:

\_ليس في النظافة ما يعيب يا معلم!

فقطب في استياء وقال:

\_لكنها في مثل سنك قلة أدب!

وساد الصمت في القهوة كأن روادها وأدواتها وجدرانها تنصت لكلمات الفتوة. ولحظ صادق صاحبه بعطف لما يعلم عن رقة مشاعره. أما حسن فأخفى وجهه في قدح الزنجبيل حتى لا يكتشف فيه الفتوة الغضب. وتناول طازة الرباب، فانبعثت من أوتارها الأنغام، وتتابعت التحيات لرفعت الناظر ولهيطة الفتوة وسوارس سيد الحي، ومضى الشاعر يقول:

«وخيل إلى أدهم أنه يسمع وقع أقدام. أقدام بطيئة وثقيلة استثارت ذكريات غامضة كرائحة ذكية مؤثرة تستعصى على الإدراك والتحديد. حول وجهه نحو مدخل الكوخ فرأى الباب يفتح، ثم رآه يمتلئ بشىء كجسم هائل. حملق فى دهش، وأحد بصره فى أمل يكتنفه يأس، وندت عنه آهة عميقة، وغمغم متسائلاً:

\_ أبى؟!

وخيل إليه أنه يسمع الصوت القديم وهو يقول :

\_ مساء الخيريا أدهم.

فاغرورقت عيناه، وهم بالقيام فلم يستطع ووجد غبطة وبهجة لم يجدهما منذ أكثر من عشرين عامًا».

### 77

قالت سكينة الجارية:

\_انتظر يا قاسم، عندي شيء لك.

فوقف قاسم حيث ربط النعجة بجذع النخلة، وقف ينتظر الجارية التي ذهبت إلى

الداخل، وكان قلبه يخفق، وحدثته نفسه بأن الخير الذى وعد به صوت الجارية إنما يجىء من خير أنبل فى قلب صاحبة الدار. ووجد تشوفًا عميقًا إلى أن يرى نظرتها أو يسمع صوتها ليبرد بالبهجة جسده الذى احترق فى الخلاء طيلة النهار. وعادت سكينة بلفافة فأعطته إياها وهى تقول:

\_ فطيرة بالهنا والشفا!

فتلقاها بيديه قائلا:

\_اشكرى عنى السيدة الكريمة.

فجاءه صوتها من وراء النافذة وهي تقول برقة:

- الشكر للمولى يا بن الطيبين.

فرفع بالشكر يده من دون بصره ومضى. وردد قولها: «يا بن الطيبين» في سعادة مخدرة. لم يسمع راعي الغنم قولا كهذا من قبل. ومن قائلته؟ السيدة المحترمة في حيه البائس! وألقى نظرة وردية على الحارة المسربلة بالمغيب، وقال لنفسه: «على رغم تعاسة حارتنا فهي لا تخلو من أشياء تستطيع إذا شاءت أن تبعث السعادة في القلوب المتعبة»! وانتبه من حلمه منزعجًا على صوت يصرخ: «نقودى .. نقودى سرقت»! رأى رجلاً معممًا يهرول في جلباب أبيض فضفاض نحو داخل الحارة قادمًا من أول حيهم. وتحولت الحارة نحو الرجل الصارخ، فجرى نحوه الصغار، واشرأبت أعناق الباعة والجالسين بالأبواب، وأطلت الرءوس من النوافذ، وارتفعت أوجه من تحت الأرض خلال كوات البدرومات، وخرج رواد المقاهي، وأحيط بالرجل من كل ناحية. ورأى خلال كوات البدرومات، وخرج رواد المقاهي، وأحيط بالرجل من كل ناحية. ورأى قاسم رجلاً قريبًا منه، يحك ظهره بعود خشبي من طوق جلبابه، ويتابع المنظر بعينين كليلتين، فسأله عن الرجل قائلا:

\_من الرجل؟

فأجاب ويده لا تمسك عن الحك:

ـ مُنَجِّد كان يعمل في بيت الناظر!

واتجه نحو الرجل سوارس فتوة الجرابيع وحجاج فتوة آل رفاعة وجلطة فتوة آل جبل، وسرعان ما أمروا الناس بالابتعاد فتراجعوا خطوات بلا تردد. وقالت امرأة من نافذة ربع في حي آل رفاعة:

ـ عين أصابت الرجل!

فقالت امرأة أخرى من نافذة بأول ربوع آل جبل:

\_صدقت، ما من أحد إلا وحسده على ربحه المنتظر من تنجيد فرش الناظر، اللهم اكفنا شر العين. فقالت امرأة ثالثة واقفة أمام باب بيت وهي تفلي رأس غلام:

\_وكان يا عيني يضحك وهو خارج من بيت الناظر، لم يكن يدرى أنه سيصرخ ويبكي، قطعت الفلوس وقرفها!

وكان الرجل يصيح بأعلى صوته:

ـ سرق كل ما كان معى من نقود، أجرة عمل أسبوع، وأخرى كانت فى جيبى، نقود البيت والدكان والأولاد، عشرون جنيهًا وقروش، الله يخرب بيت أولاد الحرام! وقال جلطة فتوة آل جبل:

\_هُس، الكل يسكت، اسكتوا يا غنم، سمعة الحارة في الميزان، وأي عيب في النهاية سيلبس الفتوات؟!

فقال حجاج فتوة رفاعة:

\_وربك لن يقع عيب، ولكن من أدرانا أنه فقد نقوده في حارتنا؟

فهتف المنجِّد بصوت مبحوح:

ـ على الطلاق ما سُرقت إلا في حارتكم، تسلمتها من بواب حضرة الناظر، وتحسست صدري في آخر الحارة فلم أجد لها أثرًا.

وارتفعت الأصوات فصاح حجاج:

\_اسكتوا يا مواشى! واسمع يا رجل، أين عرفت أن نقودك ضاعت؟

فأشار الرجل إلى آخر حي الجرابيع وقال:

\_أمام دكان مبيض النحاس، لكني والحق يقال لم يقترب مني أحد هناك.

فقال سوارس:

\_إذن سرق قبل أن يدخل حيّنا!

فقال حجاج فتوة رفاعة:

ـ كنت في القهوة حين مروره فلم أر أحدًا في حينا يقترب منه.

فصاح جلطة بحنق:

ـ ليس في آل جبل لص، إنهم أسياد هذه الحارة!

فأجابه حجاج غاضبًا:

\_حاسب يا معلم جلطة، عيب قولك أسياد الحارة!

ـ لا ينكر ذلك إلا مكابر!

فصاح حجاج بصوت كالرعد:

ـ لا توقظ عفاريتي! ملعون دين قلة الذوق.

فصاح جلطة بنفس القوة:

\_ألف لعنة ، ألف لعنة على قلة الذوق التي لا توجد في حينا!

وهنا قال المنجِّد بصوت باك:

ـ يا رجال! نقودي فقدت في حارتكم، كلكم أسياد على العين والرأس، لكن أين نقودي؟ يا خراب بيتك يا فنجري!

فقال حجاج بتحدٍّ:

ـ عليكم بالتفتيش، فلنفتش كل جيب، كل رجل، كل امرأة، كل ولد، كل ركن.

فقال جلطة بازدراء:

\_فتشوا، وستسود وجوه غير وجوهنا!

فقال حجاج:

\_ خرج الرجل من بيت الناظر فمر أول ما مر بحى آل جبل فلنبدأ بالتفتيش في حي آل جبل! جبل!

فشخر جلطة وقال:

لن يكون هذا وجلطة حي، يا حجاج اذكر من تكون أنت ومن أكون أنا.

\_ يا جلطة ، إن ندوب الطعنات في جسدي أكثر من شعره!

\_أما أنا فلا مكان للشعر في جسدى!

\_اللهم أبعدك يا شيطان!

\_إلى يا شياطين الأرض جميعًا!

وعاد فنجري يصيح:

\_يا هوه، نقودي، ألا يسيئكم أن يقال إني سرقت في حارتكم؟!

وغضبت امرأة فصاحت به:

ـ غوريا وجه البومة، ستهلك الحارة بسببك!

وإذا بصوت يتساءل:

\_ ولماذا لا تكون النقود قد سرقت في حيّ الجرابيع وأكثرهم لصوص وشحاذون؟

فصاح سوارس:

\_لصوصنا لا يسرقون في حارتنا!

\_ومن أدرانا بذلك؟

فقال سوارس بعينين محمرتين من الغضب:

ـ لا حاجة بنا إلى مزيد من قلة الأدب، سيكشف التفتيش عن اللص، وإلا فقولوا على حارتنا السلام!

ونادي أكثر من صوت:

\_ابدءوا بحي الجرابيع!

فصاح سوارس:

\_أي خروج عن الترتيب الطبيعي للتفتيش سيلقى نبوتي في وجهه .

ورفع سوارس نبوته فانحاز إليه رجاله، وفعل حجاج مثله، وتراجع جلطة إلى حيّه وفعل مثله مثله ما فلاذ المنجّد بباب الربع وهو يبكى، وكان الليل على وشك الهبوط. وتوقع الجميع أن تبدأ معركة دامية. وإذا بقاسم يندفع إلى وسط الحارة، ويصيح بأعلى صوته:

-انتظروا، لن يكشف الدم عن النقود المفقودة، وسيقال في الجمالية والدراسة والعطوف إن داخل حارة الجبلاوي مسروق ولو احتمى بناظرها وفتواتها!

فتساءل أحد رجال جبل:

\_ماذا يريد راعي الغنم؟

فقال قاسم بسماحة:

ـ عندي حيلة ترد بها النقود إلى صاحبها دون عراك!

فجري المنجد نحوه هاتفًا: «أنا في عرض دينك». فقال قاسم يخاطب الجميع:

ـ سترد النقود إلى صاحبها دون أن يفتضح أمر السارق.

وساد الصمت، وتركزت الأعين في قاسم باهتمام شديد، فعاد يقول:

\_ فلننتظر حتى يستحكم الظلام وهو قريب. لن تضاء شمعة واحدة في الحارة، ثم نسير جميعًا من أول الحارة إلى آخرها كيلا تنحصر الشبهة في حي دون آخر، وفي أثناء ذلك سيجد حائز النقود فرصة للتخلص منها في الظلام من غير أن يفتضح أمره، فنعثر على النقود وتنجو الحارة من شر العراك.

وشد المنجد على ذراع قاسم فى ضراعة يائس وهتف: «نعم الحل، اقبلوه جبراً لخاطرى». وصاح صوت: «حل معقول يا جدعان»! وصاح آخر: «هذه فرصة للسارق كى ينجو وينجى الحارة». وزغردت امرأة طويلاً. ونقل الناس أعينهم بين الفتوات الثلاثة وهم بين الرجاء والخوف. وأبى أى فتوة أن يكون البادئ بإعلان القبول علواً واستكباراً، فلبث أهل الحارة يتساءلون هل يغلب العقل أو تتلاطم النبابيت وتسيل الدماء. وإذا بصوت يعرفه الجميع يصبح:

\_هوه!

فانجذبت الرءوس نحو مصدره، حيث وقف لهيطة فتوة الحارة غير بعيد من بيته. وساد الصمت وقد تعلقت بما سيقول القلوب جميعًا. وقال الرجل بازدراء:

\_اقبلوا الحل يا غجر، لولا غباوتكم ماكان منقذكم راعي غنم.

وسرت فى القوم همهمة ارتياح. وتعالت زغاريد. فاشتد خفقان قلب قاسم. ولحظ دار قمر وهو موقن بأن عينيها السوداوين تراقبانه من وراء أحد الشباكين المطلين على الحارة، فداخله زهو سعيد، وشعر بلذة فوز كبير لا عهد له به. وبدا الجميع وهم يترقبون الظلام، فينظرون إلى السماء تارة وينظرون صوب الخلاء تارة أخرى. وتابعوا هبوطه درجة فدرجة. ومضت المعالم تتوارى والوجوه تختفى والناس ينقلبون أشباحًا. أما الممران حول البيت الكبير المفضيان إلى الخلاء فقد أغلقتهما الظلمة. ودبت الحركة بين الأشباح فمشوا نحو البيت الكبير ثم قطعوا الحارة مهرولين حتى الجمالية، ثم تفرقوا كل الى حية. عند ذاك صاح لهيطة بصوته الآمر:

\_نوروا!

وكان أول ما لاح من نور فى دار قمر بحى الجرابيع، ثم أضيئت مصابيح عربات اليد، ثم كلوبات المقاهى، فعادت الحارة إلى الوجود. وراح قوم يتفحصون الأرض على ضوء كلوب، حتى تعالى صوت قائلاً:

ـ ها هي ذي الحفظة!

وجرى فنجرى من فوره نحو الضوء فتناول المحفظة، وعد نقوده، ثم هرول لا يلوى على شيء نحو الجمالية مخلفًا وراءه ضجة عالية من الضحكات والزغاريد. ووجد قاسم نفسه محط الأنظار، ومركز استقبال للتهاني والمزاح، ومحور تعليقات شتى تساقطت عليه كالورد. وعندما ذهب قاسم وحسن وصادق إلى قهوة الجرابيع ذلك المساء استقبله سوارس بابتسامة ترحيب وقال:

\_ جوزة على الحساب لقاسم.

# 77

مورّد الوجه، متألق النظرات، صافى القسمات، مبتهج القلب، دخل حوش قمر ليأخذ النعجة وهو يقول: «يا ساتر». وراح يفك رباط النعجة في بئر السلم، وإذا بصرير باب الحريم يسمع وهو يفتح وصوت الست تقول:

\_ صباح الخير.

فقال بفؤاده ولسانه:

ـ صبحك المولى بالسعادة يا ستى .

\_صنعت أمس خيرًا كبيرًا لحارتنا.

فقال وروحه ترقص طربًا:

- الله هو الهادي.

فقالت في نغم وشي بإعجابها.

\_علمتنا أن الحكمة أجلّ من الفتونة.

وعطفك أجل من الحكمة، هكذا قال لنفسه، ثم قال لها:

\_ ربنا يكرمك.

فنم صوتها عن ابتسامة وهي تقول:

ـ رأيناك ترعى أو لاد الحارة كما ترعى الغنم، صحبتك السلامة.

ذهب بنعمة، وكلما مر بربع انضم إلى قافلته ماعز أو ماعزة أو جدى أو تيس. وكان يلقى بالترحاب، حتى الفتوات ردوا على تحياته وكانوا يتجاهلونها. واخترق الممر الملاصق لسور البيت الكبير وراء طابور طويل من الأغنام في طريقه إلى الخلاء. واستقبل شمسًا لافحة تتربع فوق الجبل، وجوّا يزفر أنفاسًا حارة في الصباح المشرق. وتراءى عند سفح الجبل بعض الرعاة، ومر رجل مهلهل الثياب ينفخ في ناى، وانطلقت في القبة الصافية حدآت مدومة. وفي كل نسمة استنشق صفاء نقيّا، وخال الجبل الضخم يحوى كنوزًا من الآمال الواعدة. وسرح الطرف في الخلاء بارتياح عجيب حتى استخفه طرب جواد فراح يغنى:

# یا حلو یا زین یا صعیدی اسمك منجوش علی إیدی

وجالت عيناه بين صخرة قدرى وهند وبين البقاع التي جرت بها مصارع همام ورفاعة، ولقاء الجبلاوى وجبل! هنا الشمس والجبل والرمال والمجد والحب والموت، وقلب يبزغ فيه الحب لكنه يتساءل عن معنى هذا كله، ما مضى منه وما هو آت، عن الحارة ذات الأحياء المتخاصمة والفتوات المتنابذين، عن الحكايات التي تروى في كل مقهى على شكل.

وقبيل الظهيرة ساق أغنامه نحو سوق المقطم ثم مضى إلى كوخ المعلم يحيى وجلس. وهتف به العجوز:

ـ ما هذا الذي يقال عما فعلت أمس بحارتنا؟!

وداري قاسم حياءه باحتساء الشاي، فعاد المعلم يقول:

ـ كان الأفضل أن تتركهم يتطاحنون حتى يهلكوا جميعًا.

فقال دون أن يرفع عينيه:

\_ ما تقول هذا إلا بلسانك.

فقال يحيى محذراً:

\_ تجنب المعجبين خشية أن تستفز الفتوات.

\_وهل يستفز الفتوات أمثالي؟

فتنهد العجوز قائلاً:

\_ومن كان يتصور أن يغدر غادر برفاعة؟

فقال قاسم بدهشة:

\_ وما وجه التشابه بين رفاعة العظيم وبيني أنا؟

وعندما هم بالعودة ودعه العجوز قائلاً:

\_ احتفظ دائمًا بحجابي.

وعند العصر كان يجلس في الظل المحدود وراء صخرة هند، وإذا به يسمع صوت سكينة وهي تنادى: «نعمة» فوثب قائمًا ودار حول الصخرة فرأى الجارية واقفة عند رأس النعجة تداعب زلمتها. حياها بابتسامة فقالت بصوتها النحاسي:

\_أنا ذاهبة في مشوار في الدراسة فمررت من هنا اختصاراً للطريق.

فقال قاسم:

\_لكنه طريق شديد الحرارة.

فقالت ضاحكة:

\_ لذلك سأستريح قليلاً في ظل الصخرة.

وجلسا متقاربين في الظل حيث ترك عصاه. وقالت سكينة:

\_عندما شهدت صنيعك بالأمس آمنت بأن أمك دعت لك من قلبها قبل وفاتها.

فتساءل مبتسمًا:

\_وأنت ألا تدعين لي؟

فقالت و هي تداري نظرة ماكرة:

ـ لمثلك يدعى ببنت الحلال!

فقال ضاحكًا:

ـ ومن ذا الذي يرضي براعي غنم؟!

- الحظ يصنع العجائب، وأنت اليوم بمنزلة الفتوات من دون حاجة إلى سفك دماء!

\_ أقسم أن لسانك أحلى من الشهد!

فرمقته بنظرة من عينيها الذابلتين وقالت:

ـ هل أدلك على طريق عجيب؟

فتولاه انفعال طارئ وهو يقول:

\_نعم.

فقالت بصراحة زنجية:

\_ جرب بختك واخطب سيدة حينا!

وبدا كل شيء غير نفسه. وتساءل:

\_من تعنين يا سكينة؟

ـ لا تتجاهل ما أعنى ، فليس في حينا إلا سيدة واحدة .

\_ ست قمر ؟!

\_ من دون غيرها!

فقال بصوت متهدج.

- كان زوجها من الأكابر، ولست إلا راعي غنم!

\_لكن الحظ إذا ضحك ضحك معه كل شيء حتى الفقر.

وتساءل وكأنما يسأل نفسه:

\_ألا يغضبها طلبي؟

قامت سكينة وهي تقول:

ـ لا يـدرى أحـد متى ترضى النساء ومتى تغضب، فتوكـل على الله.

ثم وهي تمضي:

\_ فتك بعافية .

رفع رأسه نحو السماء وأغمض عينيه كأنما دهمه نعاس.

### 79

حملق عم زكريا في وجه قاسم بذهول؛ ومثله فعلت زوجته، ومثلها فعل حسن، وهم يستريحون في الدهليز أمام شقتهم عقب العشاء. وقال العم:

\_قل كلامًا غير هذا الكلام، عرفتك مثال العقل والكرامة على رغم فقرك، وعلى رغم فقرنا، فماذا انتاب عقلك؟

وتجلى في عيني زوجة عمه نهم الاستطلاع فقال قاسم:

ـ لدى ما شجعني، فجاريتها هي التي فتحت لي الباب!

\_جاريتها؟!

ندت الكلمة عن زوجة عمه وصرخت عيناها بطلب المزيد. أما العم فانطلقت من فيه ضحكة مقتضبة أكدت حيرته، ثم قال في ارتياب:

\_لعلك أسأت فهمها!

فقال قاسم بهدوء يغطى به على انفعاله:

\_كلايا عمى.

فهتفت زوجة عمه:

\_ فهمت! إذا قالت الجارية فقد قالت السيدة!

وقال حسن مدفوعًا بحبه لابن عمه الذي لا يخفي على أحد:

ـ وقاسم رجل و لا كل الرجال!

فهز عم زكريا رأسه وغمغم: «بطاطة العمدة. . بطاطة الفرن». ثم قال:

\_لكنك لا تملك مليمًا.

فقالت زوجته:

\_إنه يرعى نعجتها فهى لا تجهل ذلك. . (ثم وهى تضحك) انذريا قاسم ألا تذبح نعجة في حياتك إكرامًا لنعمة!

وقال حسن في تفكير:

\_عم عويس البقال هو عم ست قمر، أغنى رجل فى حينا، سيكون نسيبنا، كما كان سوارس قريبنا، ما أجمل ذلك!

#### فقالت أمه:

ـ ست قمر على قرابة مع أمينة هانم حرم الناظر . كان المرحوم زوجها قريبًا للهانم .

فقال قاسم بقلق:

ـ هذا مما يزيد الأمر عسرًا!

وإذا بعم زكريا يقول بحماس طارئ كأنما قدر ما يعود عليهم من رفعة بالنسب المرتقب:

ـ تكلم كما تكلمت يوم واقعة المنجّد، إنك شجاع حكيم، وسنذهب معًا إلى السيدة لنفاتحها في الأمر ثم نكلم عويس، إذ إننا لو بدأنا بعويس لأرسلنا إلى مستشفى المحاذيب!

وجرت الأمور كما رسم زكريا. لذلك جلس عم عويس في حجرة الاستقبال بدار قمر ينتظر مجيئها وهو يعبث بشاربه الغزير مداراة لاضطراب خاطره. وجاءت قمر في ثوب محتشم مغطاة الرأس بمنديل بني فصافحته بأدب وجلست وفي عينيها نظرة جمعت بين الهدوء والتصميم. قال عويس:

-حيرتني يا بنتي! بالأمس رفضت يدعم مرسى وكيل أعمالي بحجة أنه غير كفء لك، واليوم ترضين براعي غنم؟!

فأجابت ووجهها يتورد حياء:

ـ عمى، إنه رجل فقير حقّا ولكن ليس من أحد في حينا إلا ويشهد له ولأهله بالطيبة! فقال عم عويس مقطبًا:

ـ نعم ولكن على نحو ما نشهد لخادم بالأمانة أو النظافة، والكفاءة في الزواج شيء آخر .

#### فقالت قمر بأدب:

دلني يا عمى على رجل مهذب مثله في حارتنا، دلني ولو على رجل واحد لا يباهي بعمل من أعمال البلطجة أو الخسة أو الوحشية؟!

وكاد الرجل أن ينفجر غاضبًا لولا تذكره بأنه لا يخاطب ابنة أخيه فحسب ولكن المرأة التي تسهم في تجارته بمال غير قليل، لذلك قال برجاء:

ـقمر، لو شئت زوجتك من أى فتوة في الحارة، لهيطة نفسه يودك لو قبلت أن تقاسميه مع زوجاته.

ـ لا أحب هؤلاء الفتوات! ولا هذا النوع من الرجال. كان أبى رجلاً طيبًا مثلك، وكم قاسى من عنتهم حتى أورثنى كراهتهم، أما قاسم فهو رجل مهذب، لا ينقصه إلا المال وعندى منه الكفاية. فتنهد عويس، ثم نظر إليها طويلاً، ثم قال برجاء أخير:

- إنى مبلغك رسالة أمينة هانم حرم حضرة الناظر، قالت لى قل لقمر أن تعقل، وأنها مقدمة على غلطة ستجعل منا أحدوثة الحارة.

### فقالت قمر بحدة:

- أنا لا تهمني أوامر الهانم، ويبدو للأسف أنها لا تعرف من هم الذين تجعلهم فِعَالهم أحدوثة في الحارة.
  - ـ يا بنت أخى إنها تود لك الكرامة.
- \_ يا عمى لا تصدق أنها تهتم بنا أو حتى تذكرنا، ومنذ وفاة المرحوم من عشرة أعوام لم أجر لها على خاطر.

فتردد الرجل مليًّا في حرج ظاهر، ثم قال في تأفف ظاهر:

\_إنها تقول أيضًا إنه ليس من العقل أن تتزوج امرأة من رجل غير كفء لها وبخاصة إذا كان لظرف ما يتردد على بيتها!

فانطلقت قمر واقفة بوجه مصفر من الغضب وهتفت:

- \_قطع لسانها، لقد ولدت ونشأت وتزوجت وترملت في هذه الحارة، الكل يعرفني، وسيرتي كالعطر على كل لسان.
  - \_طبعًا يا بنتي طبعًا! ليس الأمر إلا أنها تشير إلى ما قد يقال.
- \_عمى، دعنا من الهانم فلا يجيء منها إلا وجع الدماغ، إنى أخبرك وأنت عمى بأننى قبلت الزواج من قاسم، وسيكون ذلك برضاك وحضورك!

وصمت عويس متفكراً. لم يكن في الوسع منعها، ولا من الهين إغضابها للحد الذي تسحب عنده أموالها من تجارته. وراح ينظر بين قدميه في ارتباك وحزن. وفتح فاه ليقول شيئاً ولكن لم تخرج منه غير غمغمة مبهمة. ولبثت قمر تنظر إليه في ثبات وصبر.

#### ٧.

وهب عم زكريا ابن أخيه بضعة جنيهات\_اقترض أكثرها\_ليصلح بها شأنه قبل الزواج. وقال العم:

\_لو كنت قادرًا لغطيتك بالمال يا قاسم، كان أبوك أخًا كريًا، ولا أنسى فضله علىّ يوم زواجي. وابتاع قاسم جلبابًا، وثيابًا داخلية، ولاسة مزركشة ومركوبًا فاقع الاصفرار، وعصا خيزران، وحق نشوق. وذهب في أعقاب الفجر إلى الحمام، فاستسلم للبخار، وغاص في المغطس، ثم مضى إلى المدلِّك، ثم استحم، ثم تبخر، ثم تمدد في الخلوة يحتسى الشاى ويحلم بالهناء.

أما قمر فتكفلت بالفرح. أعدت سطح الدار لاستقبال المدعوات، ودعت عالمة معروفة واستأجرت أمهر طاه في المنطقة. وأقيم في الحوش سرادق للمدعوين والمطرب. وجاء أهل قاسم وأصحابه ورجال الحي وعلى رأسهم المعلم سوارس. ودارت أقداح البوظة وعشرون جوزة حتى غامت الكلوبات بالدخان وسطعت رائحة الحشيش المفتخر. وتجاوبت الأركان بالزغاريد والتهليل والقهقهة. وراح عم زكريا يقول في فخفخة من دارت الخمر برأسه:

ـ نحن أسرة كريمة أصلها عريق!

فكتم عم عويس غيظه وهو يجلس بين سوارس وزكريا وقال باقتضاب:

\_حسبكم قرابتكم للمعلم سوارس!

فصاح زكريا بقوة:

\_المعلم سوارس ألف مرة!

فحيًا التخت سوارس من فوره، حتى جاء الرجل بابتسامة ولوح بيده. وكان الفتوة فيما مضى يضجر من تمسُّح زكريا بقرابته البعيدة منه، ولكنه أخذ يغير من مشاعره منذ علم بزواج قاسم من قمر، بل قرر فيما بينه وبين نفسه ألا يعتق قاسم من الإتاوة. وعاد زكريا يقول.

\_وقاسم شاب محبوب، من في حارتنا لا يحبه؟

وكأنما قرأ شيئًا من الاستياء في نظرة سوارس فأردف يقول:

\_لولا حكمته يوم السرقة ما وجدت رءوس رفاعة وجبل من يدفع عنها نبوت فتوتنا سوارس!

وانبسطت أسارير سوارس وصدق عويس على قول زكريا قائلاً:

ـ صدقت ورب السماوات والأرض.

وغنى المطرب: زمان الوصل قرّب بالتهاني.

وازداد قاسم اضطرابًا، ففطن صادق إلى حاله كشأنه دائمًا فقدم إليه قدحًا جديدًا من الشراب وما زال به حتى أفرغه في جوفه حتى الثمالة، وكانت الجوزة ما تزال في يده. وأفرط حسن في الشراب حتى تراقصت تهاويل السرادق أمام عينيه. ولاحظ عم عويس ذلك فخاطب عم زكريا قائلاً:

\_حسن يشرب أكثر مما يليق بسنه.

فوقف زكريا والقدح بيده وقال لابنه وكأنما ينصحه:

\_يا حسن لا تشرب هكذا.

وترجم «هكذا» بإفراغ القدح في جوفه في ضجة من الضحك والانبساط فتلوى الغيظ في باطن عويس حتى قال لنفسه: «لولا حماقة ابنة أخى لكلفك ما شربت الليلة جميع ما تملك»!

وعند منتصف الليل دُعى قاسم للزفة، فقصد المدعوون قهوة دنجل، وعلى رأسهم سوارس سيد الزفة وحاميها. كان الحى خارج الدار مكتظّا بالغلمان والمتسولين والقطط التى تجمعت تلبية لرائحة المطبخ. وجلس قاسم بين حسن وصادق فحياهم دنجل قائلاً لصبيه:

ـ يا ليلة الهنا، جوزة دنجل يا ولد للجدعان.

ثم إن كل موسر قدم جوزة على حسابه للجميع.

وجاء المنشدون يتقدمهم حاملو المزامير والطبول، فوقف سوارس وقال بصوت آمر: \_ لنبدأ الزفة .

تقدم كعبورة الزفة، في جلباب على اللحم، يرقص حافيًا ومركزًا على قمة رأسه نبوتًا. وخلفه سار المنشدون، فسوارس، ثم موكب العريس بين صاحبيه، وأحاط بالجميع حملة المشاعل. وراح المنشد يغنى بصوت مليح:

الأولى آه من عيني دي

والتانية آه من إيدى دى

والتالتة آه من رجلي دي

أصل اللي شبكتني مع المحبوب عيني دي

لما سلمت عليه سلمت بايدى دى

وادى اللى ودتنى للمحبوب رجلى دى

وتعالت الآهات من الأفواه المخمورة المخدرة والموكب يشق طريقه إلى الجمالية فبيت القاضى فالحسين ثم الدر اسة، والليل ينطوى في غفلة من السعداء. وعادت الزفة كما ذهبت في بهجة وانشراح فكانت أول زفة في الحارة تمر بسلام، فلا نبوت ارتفع ولا دم سال. وبلغ الطرب من زكريا منتهاه فتناول عصاه وراح يرقص. لعب بالعصا وتمايل في اختيال، وهز الرأس مرة والصدر أخرى كما هز الوسط. وصور بحركاته المرنة هيأة القتال وهيأة الوصال. ثم دار حول نفسه مؤذنًا بحسن الختام بين التهليل والتصفيق.

عند ذاك انتقل قاسم إلى الحريم. رأى قمر جالسة عند ملتقى صفين من المدعوات، فاتجه نحوها يخوض أمواجًا من الزغاريد. وتناول يدها فقامت، ثم سارا معًا تتقدمهما راقصة كأنما تلقى عليهما المدرس الأخير، حتى احتوتهما حجرة العرس. وبإغلاق باب الحجرة انفصلا انفصالاً كليّا عن العالم الخارجي الذي سارع إليه الصمت عدا تهامس خفيف أو وقع أقدام. وفي لمحة عين مر قاسم بالفراش الوردي والأريكة الوثيرة والسجادة المنمنمة، أشياء لم تقع له في خيال، ثم استقر بصره على المرأة التي جلست تنزع الزينة عن رأسها. بدت فخيمة مليئة بضة مليحة ذات بهاء. كانت الجدران تنظر إليه متلألئة بالضياء، وكان يرى كل شيء من خلال اضطراب وجيشان وهناء زاد عن حده. اقترب منها بجلبابه الحريري وجسده ينفث حرارة ممزوجة بسطول حتى وقف أمامها ينظر من عل وهي غاضة البصر فيما يشبه الانتظار. وتناول وجهها بين راحتيه ثم همّ بأن يقول شيئًا لكنه فيما بدا عدل. وانحني حتى اضطربت خصلات شعرها تحت أنفاسه، ثم يقول شيئًا لكنه فيما بدا عدل. وانحني حتى اضطربت خصلات شعرها تحت أنفاسه، ثم

وسرت إلى أنفه رائحة بخور تسربت من عقب الباب، وترامي إلى سمعه صوت سكينة وهي تتلو رُقيةً مبهمة .

#### ٧١

أيام وليال مرت في محبة ومودة وراحة بال، فما أعذب السعادة في هذه الدنيا. لم يكن ليغادر الدار إلا استحياء أن يقال إنه لا يغادر \_ منذ تزوج \_ الدار. ارتوى قلبه من أفانين المسرة حتى ثمل، وحظى بكل ما تمناه من الحنو والعطف والرعاية. كان يهوى النظافة فرأى منظرًا مهندمًا، ووجد جوّا معبقًا بالبخور، وامرأة لا تطالعه إلا آخذة زينتها، مشرقة الوجه، بادية الود. وقالت له يومًا وهما جالسان جنبًا إلى جنب في حجرة الجلوس:

ـ أراك كالحمل الوديع، لا تطلب ولا تأمر ولا تزجر، وجميع ما في الدار ملك يديك!

فداعب خصلة من شعرها المصبوغ بالحناء وقال:

\_بلغت حالاً لا يطلب عندها شيء!

فشدت على يده بقوة وقالت:

ـ حدثني قلبي من بادئ الأمر بأنك خير الرجال في حيّنا لكنك لأدبك تبدو أحيانًا كالغريب في دارك، ألا تدرى أن ذلك يؤلمني؟ - إنك تخاطبين رجلاً نقله حظه السعيد من الرمال المحرقة إلى جنة هذا البيت السعيد. فتظاهرت بالجد وإن غلبها الابتسام وقالت:

ـ لا تظن أنك ستلقى راحة فى بيتى، ستحل اليوم أو غدًا محل عمى فى إدارة أملاكى، فهل تستثقل ذلك يا ترى؟

فضحك قائلاً:

- إنه اللهو بالقياس إلى رعى الغنم.

وتولى إدارة أملاكها الموزعة بين حى الجرابيع والجمالية. وكانت معاملة السكان الشرسين تتطلب لباقة لكن مرونته عالجت الأمور بخير ما يمكن أن تعالج به. ولم يكن العمل يشغل من وقته إلا أيامًا كل شهر، وفيما عدا ذلك وجد فراغًا لم يألفه من قبل. ولعل أكبر نصر أحرزه في حياته الجديدة كان اكتسابه لثقة عويس عم زوجته. أولاه من بادئ الأمر احترامًا وعناية، وتطوع لمعاونته في بعض أعماله، حتى أنس الرجل إليه وبادله ودًا بود واحترامًا باحترام. ولم يملك الرجل إلاّ أن قال له يومًا في صراحة:

ـ حقّا إن بعض الظن إثم! ألا تدرى أننى كنت أظنك من برمجيّة حارتنا؟ وأنك ستستغل عاطفة ابنة أخى لتبتز أموالها فتبعثرها فى ملذاتك أو تتزوج بها امرأة أخرى؟! ولكنك أثبت أنك رجل أمين حكيم، وأنها أحسنت الاختيار.

وفي قهوة دنجل كان صادق يضحك في سرور ويقول له:

\_قدم لنا جوزة على الحساب كما ينبغي للأعيان أمثالك!

وكان حسن يقول له:

ـ لماذا لا تذهب بنا إلى الحانة؟

لكنه أجابهما جادًا:

ـ لا مال لى إلا ما أستحقه نظير إدارة أملاك زوجتي أو مقابل خدمات أؤديها لعم عويس.

فتعجب صادق ثم قال ناصحًا:

\_ المرأة المحبة لعبة في يد الرجل!

فقال قاسم غاضبًا:

\_ إلا إذا كان الرجل محبّا مثلها!

ثم وهو يحدجه بنظرة عتاب:

\_أنت يا صادق كأهل حارتنا لا يرون في الحب إلا وسيلة للاستغلال!

فابتسم صادق في حياء وقال كالمعتذر:

- هكذا يفكر الضعفاء! لسنا في قوة حسن، ولا حتى في مثل قوتك أنت، فلا مطمع لى بحال في الفتونة، وفي حارتنا إما أن تكون ضاربًا، وإما أن تكون مضروبًا! فغير قاسم من حدة نبرته كأنما قبل عذره وقال:

\_ يا لها من حارة عجيبة، صدقت يا صادق، إن حال حارتنا يبعث على الأسى!

فقال حسن باسمًا:

\_آه لو كانت كما يشعر الناس نحوها في الخارج!

فقال صادق مصدقًا لقوله:

\_ يقولون حارة الجبلاوى! حارة الفتوات المَجْدع!

فلاحت الكآبة في وجه قاسم، واختلس نظرة إلى مجلس سوارس في أول القهوة ليطمئن إلى أنهم بمنجاة من سمعه، وقال:

\_كأنهم لا يسمعون عن تعاستنا!

\_الناس يعبدون القوة حتى ضحاياها!

فتفكر قاسم مليّا ثم قال:

- العبرة بالقوة التي تصنع الخير، كقوة جبل وقوة رفاعة، لا قوة البلطجية والمجرمين! وكان الشاعر طازة يواصل حكايته قائلاً:

«وهتف به أدهم:

\_احمل أخاك!

فقال قدري بصوت كالأنين:

ـ لا أستطيع.

\_إنك استطعت أن تقتله .

ـ لا أستطيع يا أبي.

ـ لا تقل «أبي» قاتل أخيه لا أب له، ولا أم له، ولا أخ له.

ـ لا أستطيع.

فشد قبضته عليه وقال:

\_على القاتل أن يحمل ضحيته».

ثم تناول الشاعر الرباب وأخذ في الإنشاد. وعند ذاك قال صادق مخاطبًا قاسم:

\_اليوم أنت تحيا الحياة التي كان بها يحلم أدهم!

فبان الاحتجاج في وجه قاسم وقال:

ـ لكن يصادفني عند كل خطوة سبب من أسباب الكدر وتنغيص الصفو، وأدهم لم يحلم بالفراغ والرزق الموفور إلا باعتبارهما طريق السعادة الصافية.

ولاذ ثلاثتهم بالصمت مليًّا حتى قال حسن في براءة:

ـ هذه السعادة الصافية لا يمكن أن توجد أبدًا!

فلاحت في عيني قاسم نظرة حالمة وقال:

\_ إلا إذا توافرت أسبابها للجميع!

وفكر في الأمر، في أنه يحظى بالمال والفراغ، ولكن تعاسة الآخرين تفسد عليه سعادته. وها هو ذا يؤدى الإتاوة لسوارس صاغرًا. لذلك يود أن يشغل بالعمل فراغه، كأنما ليهرب من خارته القاسية. ولعل أدهم لو نال ما تمنى وهو على مثل حاله هذه لضاق بالسعادة ذرعًا، ولتاقت للعمل نفسه.

وفى تلك الأيام طرأت أعراض غريبة على قمر، فقالت سكينة إنها أعراض الوحم. ولم تكد قمر تصدق. كان أملها فى الحبل حلمًا من الأحلام. لذلك استخفها الفرح. وامتلأ قلب قاسم بالغبطة حتى أذاع الخبر فى كل ركن له فيه حبيب فعلم به بيت عمه ودكان مبيض النحاس وبقالة عم عويس وكوخ المعلم يحيى. وغالت قمر فى العناية بنفسها حتى قالت لقاسم بلهجة ذات معنى:

\_ ينبغى أن أتجنب أى مشقة .

فقال وهو يبتسم ابتسامة المدرك لما تعنى:

ـ على سكينة أن تحمل عنك أعباء البيت، وعلى ّأن أتجمل بالصبر!

فقبلته قائلة في جذل الأطفال:

\_أودأن أقبّل الأرض شكرًا!

وانطلق إلى الخلاء ليزور المعلم يحيى لكنه توقف عند صخرة هند، فمضى إلى ظلها وجلس. ورأى على مرمى البصر راعيًا يرعى غنمًا فامتلأ قلبه بالعطف وتمنى لو يقول له: لا يسعد الإنسان بالفتونة إطلاقًا. لكن أليس الأجدر أن يقول ذلك للفتوات من أمثال لهيطة وسوارس؟ ما أعطفه على أولاد حارته الذين يحلمون بالسعادة عبثًا ثم سرعان ما تلقى الأيام بأحلامهم مع النفايات فى أكوام الزبالة. لماذا لا ينعم بالسعادة المتاحة ويغمض العين عما حوله؟ لعل هذا التساؤل حيّر يومًا جبل كما حير يومًا آخر رفاعة. كان فى وسعهما أن ينعما بالراحة ويخلدا إلى السكينة والسلام، فما سر هذا العذاب الذى يطاردنا؟ كان يتأمل وهو ينظر إلى السماء فوق الجبل، سماء صافية ما عدا قطعا صغيرة من السحب متفرقة كأوراق الورد الأبيض. وخفض رأسه فيما يشبه الإعياء فوقع بصره على شيء يتحرك، وضح أنها عقرب تسرع

نحو جحر. ورفع عصاه بسرعة وهوى بها عليها فهرسها. وتفرس فيها مليّا بتقزز، ثم قام ليواصل رحلته.

#### 7

استقبل بيت قاسم حياة جديدة ، شارك في فرحتها فقراء الحي. وسميت إحسان كأمه التي لم يرها. وبمولدها ألف البيت ألوانًا جديدة من البكاء والقذارة والأرق ، ولكنه ازداد بها غبطة ورضا. لكن لماذا يبدو الأب أحيانًا شارد اللب والنظرة كأن همومًا تتناوبه؟ شدّ ما ساورها لذلك القلق حتى سألته مرة:

\_ أليست الصحة على ما يرام؟

ـ بلي . .

\_لكنك لست كعادتك!

فقال وهو يغض البصر:

\_المولى أدرى بحالى .

تساءلت بعد تردد:

\_ هل بدالك منا ما تكره؟

فقال بقوة:

ـ ليس هناك أحب إلى منك ولا حتى العزيزة الصغيرة.

فتنهدت قائلة:

\_لعلها عين!

فقال باسمًا:

\_لعلها!

فرقته وبخرته وهى تدعو له من صميم قلبها. واستيقظت ذات ليلة على بكاء إحسان فلم تجده إلى جانبها. ظنت لأول وهلة أنه لم يرجع بعد من سهرته فى القهوة، ولكن لما كفت الصغيرة عن البكاء تنبهت المرأة إلى أن الحارة غارقة فى صمت عميق لا يستحكم بها عادة إلا بعد إغلاق المقاهى بفترة غير قصيرة، فداخلها ارتياب، فقامت إلى النافذة وأطلت منها فرأت ظلامًا شاملاً يلف حارة مستغرقة فى النوم. وعادت إلى الصغيرة التى عاودت البكاء فألقمتها ثديها، وراحت تتساءل عما أخره إلى هذا الوقت لأول مرة فى

حياتهما المشتركة. ونامت إحسان فغادرت الفراش إلى النافذة مرة أخرى. ولما لم تسمع نأمة، خرجت إلى الصالة فأيقظت سكينة. وجلست الجارية كالمسطولة، ثم هبت واقفة في جزع، فأخبرتها سيدتها بما دفعها إلى الائتناس بها. وقررت الجارية من فورها أن تذهب إلى عم زكريا لتسأل عن سيدها. وساءلت قمر نفسها عما يبقيه في بيت عمه حتى هذا الوقت، فجاء الجواب قاطعًا للأمل، ولكنها مع ذلك لم تمنعها من الذهاب، ربما جريًا وراء غير المنتظر، أو في الأقل استعانة بالعم على حيرتها. ولما ذهبت سكينة جعلت تتساءل مرة أخرى عما أخره. ألذلك سبب بما طرأ على مزاجه من تغير؟ أله علاقة بنزهاته في الخلاء التي يقوم بها في الأصائل والأماسي؟

واستيقظ عم زكريا وحسن منزعجين على نداء سكينة. وقال حسن إن قاسم لم يشاركه سهرته الليلة. وسأل عم زكريا متى غادر ابن أخيه بيته فأجابت سكينة بأن ذلك كان قبيل العصر. وغادر ثلاثتهم الربع، ومضى حسن إلى الربع المجاور ثم عاد ومعه صادق الذي قال في نبرة قلقة:

\_الفجر يوشك أن يطلع! ترى أين ذهب؟

فقال حسن:

\_ لعل النوم غلبه عند الصخرة .

وأمر عم زكريا الجارية أن تعود إلى سيدتها لتخبرها بأنهم ذاهبون للبحث عنه فى مظانه. ومضى ثلاثتهم صوب الخلاء. واستشعروا رطوبة ليل الخريف فحبكوا اللاسات فوق رءوسهم. وساروا على هدى هلال آخر الشهر وقد تجلى فى رقعة مرصعة بالنجوم انحسرت عنها سماء متشحة بالسحب. وصاح حسن بصوت شق الفضاء كالشهاب: «قاسم. . يا قاسم!» فارتد إليه الصدى من جانب المقطم مكرراً النداء. وحثّوا السير حتى بلغوا صخرة هند، فداروا حولها متفحصين المكان ولكنهم لم يعثروا له على أثر. وتساءل عم زكريا بصوت غليظ:

\_أين ذهب؟ لا هو من أهل المجون ولا من ذوي العداوات!

فتمتم حسن في حيرة:

ـ ولا من سبب آخر يدعوه للهرب!

وتذكر صادق أن الخلاء لا يخلو من قطاع طرق فغاص قلبه في صدره دون أن ينبس. وإذا بزكريا يتساءل في فتور:

\_أيكون عند المعلم يحيى؟

وهتف الشابان معا فيما يشبه استغاثة يائس:

-المعلم يحيى؟!

لكن زكريا تساءل في نكد:

\_وماذا دعاه للبقاء عنده؟

ومضوا نحو أطراف الخلاء صامتين، تتناوبهم الأفكار السود. وترامى إلى مسامعهم من بعيد صياح الديكة، لكن الظلام لم يخف لتكاثف السحب. وند عن صادق صوت كالزفرة وهو يقول: «أين أنت يا قاسم!». وبدت الرحلة عقيمًا لكنهم واصلوا السير حتى وقفوا أمام كوخ يحيى الغارق في النوم. وتقدم زكريا يدق الباب بقبضته حتى جاءه صوت المعلم وهو يتساءل:

ـ من بالباب؟

وفتح الباب فبدا شبحه متوكئًا على عصاه فقال زكريا بأسف:

\_عدم المؤاخذة، جئنا نسأل عن قاسم.

فقال المعلم بهدوء:

\_زيارة متوقعة!

فأحيا قوله نفوسهم لأول وهلة، لكن سرعان ما ارتد إليهم القلق فتساءل زكريا:

\_عندك أخبار عنه؟

ـ هو نائم في الداخل!

\_بخير؟

\_إن شاء الله!

ثم مردفًا في بساطة مقصودة:

ـ هو الآن بخير ، لكن بعض جيراني كانوا قادمين من العطوف فعثروا عليه عند صخرة هند وهو مغمى عليه ، فحملوه إلى ، فرششت على وجهه عطرًا حتى أفاق ، لكنه بدا متعبًا فتركته لينام ، وما لبث أن استغرق في النوم .

فقال زكريا معاتبًا:

\_ليتك أبلغتنا الخبر!

فقال بالهدوء نفسه:

ـ جاءوا به عند منتصف الليل فلم أجد من أرسله إليك!

فقال صادق في قلق:

\_إنه مريض بلا شك.

فقال العجوز :

ـ سيصحو على أحسن حال.

فقال حسن:

\_ فلنوقظه لنطمئن عليه.

ولكن يحيى قال بحزم:

- بل علينا أن ننتظر حتى يستيقظ بنفسه .

### ٧٣

كان جالسًا في الفراش، مسند الظهر إلى وسادة، ساحبًا الغطاء عليه حتى أعلى الصدر، تعكس عيناه نظرة متفكرة. وكانت قمر متربعة عند قدميه، حاملة على صدرها إحسان، وهذه تحرك يديها الصغيرتين دون توقف، وتصدر أصواتًا رقيقة غريبة لا يدرى أحد عن سرها شيئًا. وتصاعد من مبخرة في وسط الحجرة خيط بخور، يتلوى، ثم ينكسر، ثم ينتشر، نافتًا أريجا كأنما يبوح بسر لطيف. ومد الرجل يده إلى خوان قرب الفراش فتناول قدح كراوية، واحتسى منه قليلاً قليلا، ثم أعاده وليس به إلا ثمالة، والمرأة تناغى الطفلة وتداعبها، ولكن نظراتها القلقة المسترقة إلى زوجها دلت على أن مناغاتها ومداعباتها ليست إلا مداراة لمشاعرها. وأخيرًا سألته:

\_كيف أنت الآن؟

فاتجه رأسه بحركة عفوية نحو باب الحجرة المغلق، ثم أعاده إليها، وقال بهدوء:

\_ليس ما بي مرض!

فتجلت في عينيها نظرة حائرة وقالت:

\_يسرني أن أسمع هذا، ولكن خبرني بالله عما بك!

فبدا كالمتردد قليلاً، ثم قال:

ـ لا أدرى! كلا فليس هذا ما ينبغى أن يقال، إنى أدرى كل شيء، ولكن. . الحق إنى أخشى أن تكون أيام الراحة قد ولت.

وبكت إحسان فجأة، فألقمتها ثديها في عجلة، ثم نظرت إليه مستطلعة في قلق، وتساءلت:

\_ لماذا؟

تنهد، وأشار إلى صدره قائلاً:

لدى هنا سركبير، أكبر من أن أحمله وحدى!

فاز دادت المرأة قلقًا وقالت بلهفة:

\_خبرني عنه يا قاسم.

اعتدل في جلسته قليلاً، وعكست عيناه جدًّا وتصميمًا وقال:

ـ سأبوح به لأول مرة. أنت أول شخص يسمعه، لكن ينبغى أن تصدقيني، فما أقول إلا الحق. ليلة أمس حدث شيء عجيب، هنالك تحت صخرة هند، وأنا وحدى في الليل والخلاء.

وازدرد ريقه وهي تستحثه بنظرة حارة، ثم قال:

- كنت جالسًا أتابع سير الهلال الذى سرعان ما وارته السحب، وساد الظلام حتى فكرت فى القيام، وإذا بصوت قريب يقول بغتة: «مساء الخيريا قاسم». فارتعدت من وقع المفاجأة التى لم يسبقها صوت أو حركة. ورفعت رأسى فرأيت شبح رجل واقفًا على بعد خطوة من مجلسى، لم أتبين وجهه ولكنى ميزت لاسته البيضاء والعباءة التى يتلفع بها، وقلت له وأنا أدارى غيظى: «مساء الخير! من أنت؟». فأجابنى: ولكن بم تظنينه أجاب؟

فحركت قمر رأسها في جزع وقالت:

\_ تكلم فلم يعد لى صبر.

\_قال لى: «أنا قنديل!». فعجبت لشأنه وقلت له: «لا تؤاخذني فأنا...». فقاطعني قائلاً: «أنا قنديل خادم الجبلاوي!».

### وهتفت المرأة :

\_ماذا قال الرجل؟!

\_قال أنا قنديل خادم الجبلاوي.

وكان الثدى قد أفلت من ثغر إحسان في أثناء اضطراب الأم فتقلص وجهها إيذانًا بالبكاء ولكن المرأة أعادته إليها، ثم قالت بوجه شاحب:

- قنديل خادم الواقف؟! لا يدرى أحد عن خدم الواقف شيئًا. حضرة الناظر هو الذى يتولى بنفسه إعداد لوازم البيت الكبير، ثم يحملها خدمه إلى البيت الكبير ليتسلمها بعض خدم الواقف في الحديقة.

ـ نعم، هذا ما تعرفه حارتنا، لكنه قال لي ذلك!

\_وهل صدّقته؟

- وقفت من فورى، تأدبًا من ناحية واستعدادًا للدفاع عن نفسي إن لزم الأمر من ناحية أخرى، وقلت له متسائلاً: من أدراني أنك صادق فيما تقول؟ فقال لي بهدوء

مطمئن: «اتبعنى إذا شئت حتى ترانى وأنا أدخل البيت الكبير». فاطمأن قلبى، وقلت لنفسى فلأصدقه حتى يتبين لى أمره، ولم أخف عنه فرحى بلقياه، وسألته عن جدنا، كيف حاله؟ وماذا يفعل؟

فقاطعه صوت قمر قائلاً في ذهول:

\_كل ذلك دار بينك وبينه؟!

- نعم، بالله أنصتى، قال لى: إن جدنا بخير. ولم يزد على ذلك شيئًا. فسألته: هل يدرى بما يجرى في حارتنا؟ فأجاب بأنه يعلم كل شيء، وبأن المقيم في البيت الكبير يستطيع أن يطلع على كل صغيرة وكبيرة مما يقع في حارتنا، وأنه لذلك أرسله إلى .

فقطب قاسم فيما يشبه الاستياء وقال:

- هكذا قال. وند عنى ما يفصح عن دهشتى ولكنه لم يبال بى، وقال: «لعله اختارك لحكمتك يوم السرقة ولأمانتك فى بيتك. وهو يبلغك بأن جميع أولاد الحارة أحفاده على السواء، وأن الوقف ميراثهم على قدم المساواة، وأن الفتونة شريجب أن يجب أن يذهب، وأن الحارة يجب أن تصير امتدادًا للبيت الكبير». وساد الصمت، وكأنما فقدت القدرة على النطق، ولمحت عيناى المرفوعتان إلى هامته السحب وهى تنحسر عن الهلال فى رقة صافية، فسألت بأدب: «ولماذا يبلغنى ذلك؟». فأجاب: «لكى تحققه بنفسك!».

<u>-</u>أنت؟!

بذلك هتفت قمر، فقال قاسم بصوت متهدج:

\_ هكذا قال. وهممت بأن أستوضحه، ولكنه حياني وذهب، فتبعته حتى خيل إلى أنني رأيته يصعد إلى أعلى السور المشرف على الخلاء على سلم خارق الطول أو شيء شبيه بذلك، فوقفت ذاهلاً. ثم عدت إلى مكاني السابق وفي نيتي أن أقصد المعلم يحيى، لكني غبت عن الوجود، ولم أعد إلى رشدى إلا في كوخ المعلم.

وعاد الصمت يغشى الحجرة وقمر لا تحول عن وجهه عينيها الذاهلتين. وتسلل النوم إلى أجفان إحسان وهى ترضع فمال رأسها إلى أسفل من فوق ساعد أمها فأرقدتها برفق على الفراش، وعادت تنظر إلى زوجها بعين قلقة ووجه شاحب. وارتفع من الحارة صوت سوارس الأجش وهو يسب رجلاً، وصراخ الرجل وتأوهاته التى وشت بما ينهال عليه من ضرب أو صفع، ثم صوت سوارس مرة أخرى وهو يبتعد منذراً متوعداً، وصوت الرجل وهو يبتعد منذراً متوعداً، فصوت الرجل وهو يرتفع فى نبرة حنق ويأس هاتفاً: «يا جبلاوى!». وساءل قاسم فضه المرهقة بنظرات زوجته: ترى ماذا تظن بى؟ وحادثت المرأة نفسها: إنه صادق، لم

يكذبني قط، فلماذا يختلق هذه الحكاية؟ وهو أمين لم يطمع في مالى مع ما في ذلك من أمان، فكيف يطمع في مال الوقف على ما في ذلك من خطر؟! وترى هل ولت أيام الراحة حقّا؟ وقالت:

\_أنا أول ما أفضيت إليه بسرك؟

فأحنى رأسه بالإيجاب، فعادت تقول:

\_قاسم، حياتنا واحدة، وأنا لا تهمنى نفسى بقدر ماتهمنى أنت، وسرك هذا شىء خطير، وعواقبه لا تخفى عليك، ولكن أعمل ذاكرتك جيدًا وخبرنى أكان واقعًا ما رأيت أم لعله كان حلمًا؟

فقال بتصميم وفي شيء من الامتعاض:

\_كان واقعًا ملموسًا ولم يكن حلمًا!

\_وجدوك مغمى عليك؟!

\_كان ذلك بعد اللقاء!

فقالت بإشفاق:

\_ربما اختلط الأمر عليك؟!

فتنهد في عذاب لم تدر به وقال:

\_لم يختلط شيء عليّ، كان اللقاء واضحًا كالنهار المشمس!

فترددت قليلاً ثم تساءلت:

ـ من يدرينا أنه حقّا خادم الواقف ورسوله إليك؟ ولماذا لا يكون مسطولاً من مساطيل حارتنا وما أكثرهم؟!

فقال في نبرة عناد:

\_رأيته وهو يصعد إلى سور البيت الكبير.

فتنهدت قائلة:

\_ليس في حارتنا سلم يمكن أن يصل إلى نصف ارتفاع السور!

\_لكنى رأيته!

بدت كفأر في مصيدة، لكنها أبت أن تستسلم، وقالت:

ـ ليس بى شىء إلا أننى أخاف عليك، وأنت تعلم ما أعنى، أخاف عليك وعلى بيتنا وابنتنا وسعادتنا، وإنى أسائل نفسى: لماذا قصدك أنت بالذات؟ ولماذا لا يحقق إرادته بنفسه وهو صاحب الوقف وسيد الجميع؟

فتساءل بدوره:

\_ ولماذا قصد جبل ورفاعة؟

اتسعت عيناها، وتقلّص ركن فمها كالطفل الموشك على البكاء، وغضت بصرها في جفول، فقال:

\_ أنت لا تصدقينني وأنا لا أطالبك بتصديقي.

فأجهَشت في البكاء، واسترسلت فيه كأنما لتهرب من أفكارها. فمال قاسم نحوها، ثم مديده إلى يدها فجذبها نحوه، وسألها في رقة:

\_ لماذا تبكين؟

فنظرت إليه خلال دموعها، وقالت وهي تشهق شهقات متقطعة:

\_ لأننى أصدقك، نعم أصدقك، أخشى أن تكون أيام الراحة قد ولت.

ثم في صوت خافت مشفق:

\_ماذا أنت فاعل؟

### ٧٤

شُحن جو الحجرة بالقلق والتوتر. بداعم زكريا مفكراً مقطباً، وراح عم عويس يعبث بشاربه، وكأن حسن كان يحادث نفسه، أما صادق فلم يحول ناظريه عن وجه صديقه قاسم، على حين انزوت قمر في ركن حجرة الاستقبال وهي تدعو الله أن يهدى الجميع إلى السداد والرشاد. وكانت فناجيل القهوة قد فرغت وأخذت ذبابتان تحومان حولها، فنادت قمر سكينة لتأخذ الصينية فجاءت الجارية وحملتها ثم ذهبت وأغلقت الباب وراءها كما كان. وقال عويس وهو ينفخ:

ـ يا له من سرّ يهد الأعصاب هدّا!

وعوى كلب فى الحارة كأنما أصيب بطوبة أو عصا، وارتفع صوت بياع ينادى مترنمًا بالبلح، وامرأة عجوز هتفت فى أسى: «يا رب خلصنا من عيشتنا». والتفت زكريا إلى عويس قائلاً:

ـ يا معلم عويس، إنك أكبرنا مقامًا وجاهًا، فصارحنا برأيك!

فنقل الرجل عينيه بين زكريا وقاسم وقال:

\_ أقول الحق إن قاسم رجل و لا كل الرجال، ولكن حديثه أدار رأسي!

فقال صادق بعد توثب طويل للكلام:

\_ إنه رجل صادق، أتحدى أي مخلوق أن يذكرنا بكذبة صدرت عنه، فهو عندى مصدق، وأقسم لكم على ذلك بتربة أمي!

وقال حسن بحماس:

\_وأنا كذلك. وسيجدني دائمًا إلى جانبه.

وابتسم قاسم لأول مرة في امتنان وهو يرمق جسم ابن عمه القوى بإعجاب، لكن زكريا ألقى على ابنه نظرة انتقاد وقال:

\_ليس الأمر لعبًا، فكروا في حياتنا وسلامتنا.

فأمن عويس على قوله بإحناءة من رأسه وقال:

- صدقت، لم يسمع أحد من قبل مثل ما سمعنا اليوم.

فقال قاسم:

ـ بل سمعوا مثله وأكثر عن جبل ورفاعة!

فدهش عويس وحدجه بإنكار متسائلاً:

\_أتظن أنك مثل جبل ورفاعة؟

وغض قاسم بصره متألمًا وقمر تراقبه بإشفاق، ثم قالت:

\_عمى! من يدرى كيف تقع هذه الأمور؟!

فعاد الرجل يعبث بشاربه، وقال زكريا:

\_وأى خير فى أن يظن نفسه كجبل أو رفاعة؟ قتل رفاعة شر قتلة، وكاد جبل أن يقتل لولا انضمام أهله إليه، ومن لك أنت يا قاسم؟ أنسيت أنهم يدعون حيّنا بحى الجرابيع، وأن أكثره ما بين متسول وتعيس؟

فقال صادق بقوة:

ـ لا تنسوا أن الجبلاوي اختاره من دون الجميع بمن فيهم الفتوات، ولا أظنه يتخلى عنه عند الشدة!

فقال زكريا ممتعضًا:

\_ هكذا قيل عن رفاعة في أيامه، ولقد قتل رفاعة على بعد أذرع من بيت الجبلاوي! وقالت قمر محذرة:

ـ لا ترفعوا أصواتكم.

واسترق عويس إلى قاسم النظر وهو يفكر. ما أعجب ما يسمع وما يقال. هذا الراعى الذى جعلت منه ابنة أخى سيداً! أقر له بالصدق والأمانة، ولكن هل يكفى هذا ليجعل منه جبل أو رفاعة؟! وهل يجىء الرجال الكبار بهذه البساطة؟ وماذا يحدث لو صدقت الأحلام! وقال عويس:

\_ يبدو أن قاسم لا يتأثر بتحذيراتنا، ترى ماذا يريد الفتى؟ هل عز عليه أن يبقى حيّنا وحده الذى لا نصيب له فى الوقف؟ أتريد يا قاسم أن تكون فتوة وناظراً لحيّنا؟

فبان الاحتداد في وجه قاسم وقال:

ـ لم يبلغني بذلك، وإنما قال: إن جميع أولاد الحارة أحفاده، وإن الوقف لهم على قدم المساواة، وإن الفتونة شر!

برق الحماس في عيني صادق وحسن، وذهل عويس، أما زكريا فتساءل:

\_أتعرف ماذا يعني هذا؟

فقال عويس بغضب:

\_ قل له!

ـ أن تتحدى قوة الناظر ونبابيت لهيطة وجلطة وحجاج وسوارس!

فامتقع وجه قمر، أما قاسم فقال بهدوء كالحزن:

ـ هو ذلك!

فندت عن عويس ضحكة انعكس صداها استياء في وجوه قاسم وصادق وحسن، ولم يحفل زكريا بذلك ومضى يقول:

- سيقضى علينا جميعًا بالهلاك، سنوطأ بالأقدام كالنمل، ولن يصدقك أحد. إنهم لم يصدقوا من قابل الواقف ولا من سمع صوته وحاوره، فكيف يصدقون من أرسل إليه خادمًا من خدمه؟

وقال عويس بنبرة جديدة:

دعونا مما تقول الحكايات، لم يشهد أحد لقاء الجبلاوى وجبل، ولا الجبلاوى ورفاعة، تلك الأخبار تروى عادة ولكن لم يشهدها أحد، غير أنها عادت بالخير على أصحابها، فصار لحى آل جبل كيانه المحترم، كذلك حى آل رفاعة، ومن حق حينا أن يكون مثلهما، لم لا؟ كلنا من صلب ذلك الرجل المعتكف في بيته الكبير، ولكن علينا أن نأخذ الأمر بالحكمة والحذر، فاهتم يا قاسم بحيك، دعك من الأحفاد والمساواة وما هو خير وما هو شر، ومن اليسير أن نضم سوارس إلينا وهو قريبك، ويمكن الاتفاق معه على أن يترك لنا نصيبًا في الربع.

وقطب قاسم غاضبًا، وقال:

\_ يا معلم عويس، أنت في واد ونحن في واد. أنا لا أروم مساومة ولا نصيبًا في الريع ولكني عقدت العزم على تحقّيق إرادة جدناً كما أبلغتها.

وتأوه زكريا قائلاً:

ـ يا ساتر يا رب!

لم يزل قاسم مقطبًا. ذكر أشجانه وخلواته وأحاديث معلمه يحيى. وكيف جاءه الفرج على يد خادم لم يعرفه من قبل. وكيف تلوح الخطوب في الأفق. وكيف أن زكريا لا يفكر إلا في السلامة وأن عويس لا يفكر إلا في الربع. وكيف أن الحياة لن تطيب إلا عواجهة الأفق المليء بالخطوب. وتنهد قائلاً:

\_عمى، كان يجب أن أبدأ بمشاورتكم ولكنى لن أطالبكم بشيء!

فشد صادق على يده قائلاً:

\_ إنى معك .

وكور حسن قبضته قائلا:

ـ وأنا معك، في الخير والشر معك.

فقال زكريا في ضجر:

ـ لا تغتر بكلام العيال! عندما ترتفع النبابيت تمتلئ الجحور بأمثالكم، وفي سبيل مَن تعرِّض نفسك للهلاك؟ ليس في حارتنا إلا حيوان أو حشرة، ولديك من الأسباب ما يضمن لك حياة رغيدة طيبة فاعقل وتمتَّع بحياتك.

وساءل قاسم نفسه: ماذا يقول الرجل؟ كأنما يستمع لبعض هواتف نفسه عندما تقول له، ابنتك، زوجتك، بيتك، نفسك. لكنك أُخْتِرْتَ كما أُخْتِير جبل ورفاعة فليكن جوابك كما كان جوابهما. قال:

\_ فكرت يا عمى طويلاً ثم اخترت سبيلي .

فضرب عويس كفّا بكف وقال:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله!

وقال عويس محذرًا:

\_ سيقتلك الأقوياء ويهزأ بك الضعفاء!

وقلبت قمر عينيها بين عمها وبين عم زوجها في حيرة، مشفقة من خذلان زوجها، وفي الوقت نفسه خائفة عليه عواقب التمادي في رأيه. وقالت مخاطبة عمها:

- عمى، أنت سيد الأعيان، وبوسعك أن تؤيده بنفوذك!

فسألها عويس مستهجنًا:

- فيم تطمعين يا قمر؟ لك مال وابنة وزوج فماذا يعنيك وُزع الوقف على الجميع أم استأثر به الفتوات؟ إننا نعد الطامح إلى الفتونة مجنونًا، فما بالك بمن يطمح إلى نظارة الحارة جميعًا؟!

فهب قاسم واقفًا في تألم شديد وقال:

\_لست طامحًا إلى شيء من هذا، إنما أريد الخير الذي أراده جدنا.

فاسترضاه عويس بابتسامة متكلفة وقال:

- أين هو جدنا؟ فليخرج إلى الحارة ولو محمولاً على أعناق خدمه، ثم فليحقق شروط وقفه كما يشاء. أتحسب أن أحداً في الحارة مهما بلغت قوته يستطيع إذا تكلم الواقف أن يرفع نحوه عينًا أو أصبعًا؟

وقال زكريا مكملاً:

ـ وهل هو إذا وثب الفتوات لذبحنا سيحرّك ساكنًا أو يكترث لما يصيبنا؟

فقال قاسم في وجوم شديد:

ـ لن أطالب أحدًا بتصديقي أو بتأييدي .

فقام زكريا إليه ووضع يده على منكبه بعطف وقال:

\_يا قاسم، أصابتك عين، أنا أعلم بهذه الشرور. طالما تحدثوا عن عقلك وسعيد حظك، حتى أصابتك العين. استعذ من الشيطان بالله، واعلم أنك اليوم من وجهاء حيّنا وبوسعك إذا شئت أن تتاجر ببعض مال زوجتك فتحظى بالثراء الوفير، فأقلع عما في رأسك وارض بما وهبك الله من خير ونعمة.

فأطرق قاسم محزونًا، ثم رفع رأسه إلى عمه، وقال بتصميم عجيب:

ـ لن أقلع عما في رأسي ولو مُلّكت الوقف كله وحدي.

### ٥ ٧

ماذا أنت فاعل؟ وحتام تفكر وتنتظر؟ وماذا تنتظر؟ وما دام القريب لم يصدقك فمن ذا الذى يصدقك؟ وما فائدة الحزن؟ وما جدوى الانفراد تحت صخرة هند؟ النجوم لا تجيب ولا الظلام ولا يجيب القمر كأنك تأمل فى لقيا الخادم مرة أخرى ولكن أى جديد عنده ترتقب؟ وتجوس فى الظلام حول البقعة التى قيل إن جدك قابل فيها جبل. وتقف طويلاً وراء السور الكبير فى الموضع الذى قيل إنه خاطب عنده رفاعة. لكن لا شخصه رأيت ولا صوته سمعت ولا خادمه رجع. ماذا أنت فاعل؟ سيطاردك هذا السؤال كما تطارد الشمس فى الخلاء راعى الغنم. وسيقتلعك دوامًا من راحة البال ومن طيبات النعم. وجبل كان مثلك وحيداً لكنه انتصر. ورفاعة عرف سبيله ومضى فيه حتى قتل ثم انتصر. ماذا أنت فاعل؟

وقالت له قمر معاتبة:

ـ شـد مـا تهمـل طفـلتك الجميـلة، تبكي فلا ترحمها، وتلعب فلا تلاعبها.

فابتسم إلى الوجه الصغير مستروحًا نسمة منه لسعير فكره، وغمغم:

\_ما ألطفها!

\_حتى الساعة التي تجالسنا فيها تغيب عنا كأننا لم نعد من أهل دنياك.

فاقترب منها على الكنبة التي تجمعهما ولثم خدها، ثم قبل وجه الطفلة في أكثر من موضع وقال:

\_ ألا ترين أنني بحاجة إلى عطفك؟

\_ولك قلبي كله بما فيه من عطف وحب ومودة، ولكن ينبغي أن ترحم نفسك.

وناولته الطفلة فاحتضنها وراح يهدهدها برفق وحنان مصغيًا إلى أنغامها السماوية . وبغتة قال :

- إذا نصرني المولى فلن أحرم النساء من ريع الوقف.

فقالت قمر بدهشة:

ـ لكن الوقف للذكور دون الإناث.

فرنا إلى العينين السوداوين في وجه الصغيرة وقال:

ـ قال جدى على لسان خادمه إن الوقف للجميع، والنساء نصف كيان حارتنا، ومن عجب أن حارتنا لا تحترم النساء، ولكنها ستحترمهن يوم تحترم معانى العدالة والرحمة .

وتجلى الحب والإشفاق في عيني قمر. وقالت لنفسها: إنه يذكر النصر، فأين منا هذا النصر؟ وكم ودت أن تنصحه بما فيه الأمن والسلامة ولكن خانتها شجاعتها. وساءلت نفسها عما يخبئ لهم الغد. ترى أيكون لها حظ شفيقة زوجة جبل، أم تصاب بما أصيبت به عبدة أم رفاعة؟! واقشعر بدنها فنظرت بعيدًا حتى لا يقرأ في عينيها ما يريبه.

وعندما جاءه صادق وحسن ليذهبوا جميعًا إلى القهوة عرض عليهما أن يزوروا المعلم يحيى ليقدمهما إليه. ولما بلغوا كوخه وجدوه يدخن الجوزة ورائحة الحشيش الغنائية عابقة بالجو. وقدم إليه صاحبيه، وجلسوا جميعًا في دهليز الكوخ والبدر من كوة يلوح كأنه السعادة. وكان يحيى ينظر إلى وجوه الثلاثة بعجب وكأنه يتساءل: أهؤلاء حقّا هم الذين سيقلبون الحارة رأسًا على عقب؟! ومضى يعيد على مسامع قاسم ما سبق أن ردده له، قال:

\_احذر أن يعلم أحد بسرك قبل أن تستعد.

ودارت الجوزة دورة مليحة، وكان ضوء القمر النافذ من الكوة يتوج رأس قاسم وينطرح على الكتف من صادق، على حين توهجت جمرات الموقد في ظلمة الدهليز. وتساءل قاسم:

\_وكيف أستعد؟

فضحك العجوز قائلاً في دعابة:

ـ ليس من حق من اختاره الجبلاوي أن يستعين برأي عجوز مثلي!

وأخلى الصمت لقرقرة الجوزة حتى قطعه العجوز قائلاً:

\_لديك عمك وعم زوجتك. أما عمك فلا فائدة منه ولا ضرر، وأما الآخر فبوسعك أن تكسبه إلى جانبك لو منيّته بشيء!

\_ بماذا أمنيه؟

\_عده بنظارة الجرابيع!

فقال صادق بإخلاص:

ـ لن يميّز أحد بشيء من ريع الوقف، هو ميراث الجميع على قدم المساواة كما قال الجبلاوي.

فضحك يحيى قائلاً:

\_ ما أعجب جدنا، كان قوة في جبل، ورحمة في رفاعة، واليوم له شأن آخر!

فقال قاسم:

\_إنه صاحب الوقف، ومن حقه أن يغير ويبدل في الشروط العشرة!

ـ لكن مهمتك شاقة يا بني، إنها تخص الحارة كلها لا حيًّا من الأحياء.

\_ هكذا أراد الواقف.

وسعل يحيى سعالاً متواصلا تركه كالقتيل فتطوع حسن لخدمة الجوزة محله. ومد الرجل ساقيه وهو يتنهد بعمق. ثم تساءل:

\_ ترى أتعمد إلى القوة كجبل أم تؤثر الحب كرفاعة؟

فجاست يد قاسم خلال لاسته، ثم قال:

- القوة عند الضرورة والحب في جميع الأحوال.

فهز يحيى رأسه، وجعل يبتسم، ثم قال:

ـ لا عيب فيك إلا اهتمامك بالوقف، وسوف يسوقك ذلك إلى متاعب لا حصر لها.

\_كيف يعيش الناس بغير الوقف؟

فقال العجوز في مباهاة:

\_كما عاش رفاعة.

فقال قاسم بجد وأدب:

- عاش بمعونة أبيه ومحبيه، وخلف أصدقاء لم يستطع أحدهم أن يحذو حذوه، والحق أن حارتنا التعيسة في حاجة إلى النظافة والكرامة.

\_ألا يجيء ذلك إلا بالوقف؟

بلى يا معلم، بالوقف وبالقضاء على الفتونة، هناك تتحقق الكرامة التي أهداها جبل إلى حيه، والحب الذي دعا إليه رفاعة، بل والسعادة التي حلم بها أدهم.

فضحك يحيى متسائلاً:

\_ماذا أبقيت لمن يجيء بعدك؟

فتفكر مليًّا، ثم قال:

\_إذا نصرني المولى فلن تجد الحارة حاجة إلى أحد بعدى.

ودارت الجوزة كملاك في حلم، وغنى الماء في القنينة. وتشاءب الانسجام. ثم تساءل:

\_ماذا يبقى لأحدكم إذا وزع الريع بالتساوى؟

فقال صادق:

\_إنما نريد الوقف لنستغله وبذلك تصير الحارة امتدادًا للبيت الكبير!

\_وماذا أعددتم من عمل؟

واختفى ضياء القمر وراء سحابة عابرة فساد الدهليز الظلام، ولكن لم تمض دقيقة حتى انهل الضياء. ونظر يحيى إلى جسم حسن المفتول وتساءل:

ـ هل يستطيع ابن عمك أن يهزم الفتوات؟

وإذا بقاسم يقول:

\_ إنى أفكر جادًا في مشاورة محام شرعي!

فصاح يحيى:

ـ أي محام يقبل أن يتحدى الناظر رفعت وفتواته؟

واختلط ذهول الكيف بوجوم الفكر . ورجع الأصدقاء الثلاثة فيما يشبه القنوط . وعاني قاسم في خلواته من العذاب ، وركبه الهم والكدر حتى قالت له قمر ذات يوم :

ما ينبغي أن نهتم بسعادة الناس إلى حد إشقاء أنفسنا!

فقال بحدة:

\_ينبغى أن أكون عند حسن الظن الذي وضع فيّ.

ماذا أنت فاعل؟ لماذا لا تتزحرح عن حافة الهاوية؟ هاوية اليأس المليئة بالصمت والركود. مقبرة الأحلام المغطاة بالرماد. ذئب الذكريات الجميلة والأنغام المطربة. طارحة الغد في كفن الأمس.

لكنه دعا يومًا صادق وحسن إليه وقال لهما:

\_آن لنا أن نبدأ!

فتهلل وجهاهما وقال حسن:

\_هات ما عندك.

فقال بصوت دبت فيه الحياة:

- انتهيت من تفكيري إلى قرار، وهو أن ننشئ ناديًا للرياضة البدنية!

وعقدت الدهشة لسانيهما فابتسم وهو يقول:

ـ سنجعله في حوش بيتي، والرياضة هواية منتشرة في أكثر الأحياء.

\_وما علاقة ذلك بعملنا؟

وتساءل صادق بدوره:

ـ ناد لرفع الأثقال مثلاً! ما علاقة ذلك بالوقف؟!

فقالً قاسم وعيناه تبرقان:

ـ سيجيء إلينا الشبان، حبّا في القوة واللعب، وسيقع الاختيار على من هم أهل للثقة والاستعداد.

فاتسعت الأعين، وهتف حسن:

ـ سنكون عصبة وأى عصبة!

ـ نعم، وسيجيء إلينا شبان من جبل وآخرون من رفاعة.

وشملتهم فرحة غناء، وبدا قاسم في مشيته وكأنه يرقص.

#### 77

جلس قاسم لصق النافذة بحيث يشاهد الحارة في يوم العيد. وما أبهج العيد في حارتنا.

لقدرش السقاءون الأرض بالقرب. وزينت أعناق الحمير وأذيالها بالورود الاصطناعية. ورقص الفراغ بالألوان الفاقعة يرتديها الصغار وتنطلق بها البالونات. وركزت في عربات اليد الأعلام الصغيرة. واختلط الصياح والهتاف والتهليل بأصوات الزمامير. وتمايلت العربات الكارو بالراقصات والراقصين. وأغلقت الدكاكين واكتظت المقاهي والحانات والغرز. وعند كل ركن بزغت البشاشة، وقال قائل: «كل عام أنتم بخير». وجلس قاسم في ثوب جديد وإحسان واقفة في حجره متأبطة راحتيه، تجوس بيديها الصغيرتين في قسماته أو تنشب أظافرها في خديه. وارتفع صوت تحت النافذة يغني:

# أصل اللي شبكتني مع المحبوب عيني دي

فذكر لتوه زقّته السعيدة حتى رق قلبه. وهو رجل يحب الغناء والطرب. وكم تمنى أدهم أن يتفرغ للغناء في الحديقة الغناء. وماذا يغنى الرجل في العيد؟ أصل اللي شبكتنى مع المحبوب عينى ديّ؟ صدق الرجل. فمنذ ارتفعت عيناه في الظلام إلى قنديل سلّب قلبه وعقله وإرادته. وها هو ذا حوش بيته يستحيل ناديًا لتقوية الأبدان وتطهير الأرواح. وهو مثلهم يرفع الأثقال ويتعلم التحطيب. وصادق امتلأت عضلات ذراعيه كما امتلأت من قبل بفضل عمله في تبييض النحاس عضلات ساقيه. أما حسن فيا له من مارد عملاق. والآخرون ما أبهر حماستهم. وكان صادق حكيمًا يوم نصحه بدعوة المتعطلين والمتسولين إلى ناديه، وسرعان ما تحمسوا لألعابه كما تحمسوا لأقواله. أجل إنهم قلة ولكنهم لطموحهم إذا وزنوا بأضعاف أضعافهم رجحوا بهم. وهتفت إحسان: «آد..» فقبلها كثيرًا، وكان طرف جلبابه الجديد مبتلاً تحتها. وترامي إليه من المطبخ دق الهاون وصوتا قمر وسكينة ومواء القطة. ومرت عربة كارو تحت الشباك وهي تنشد مصفقة:

## الفاتحة للعسكري قلع الطربوش وعمل ولي

وابتسم قاسم فتذكر ليلة غنّى المعلم يحيى هذه الأنشودة وهو فى تمام السطول. آه لو تستقيم الأمور فلا يبقى لك إلا الغناء يا حارتنا! غدًا يمتلئ النادى بالأعوان الأقوياء والصادقين. غدًا أتحدى بهم الناظر والفتوات وجميع العقبات. كى لا يبقى فى الحارة إلا جد رحيم وأحفاد بررة. ويحق الفقر والقذارة والتسول والطغيان. وتختفى الحشرات والذباب والنبابيت. وتسود الطمأنينة فى ظل الحدائق والغناء.

واستيقظ من أحلامه على صوت قمر وهى تنهر سكينة فى غضبة داهمة. أنصت متعجبًا ثم نادى زوجته، وسرعان ما فتح الباب وجاءت قمر وهى تدفع الجارية أمامها وتقول: - انظر إلى هذه المرأة! ولدت في بيتنا كما ولدت أمها من قبل، ولا تتعفف عن التجسس علنا!

فنظر إلى سكينة بإنكار حتى هتفت بصوتها النحاسي:

\_لست خائنة يا سيدي ولكن ستى لا ترحم!

وقالت قمر وفي عينيها فزع أخفقت في مداراته:

رأيتها تبتسم وتقول لي: «سيجيء العيد القادم إن شاء الله وسيدي قاسم سيد الحارة كلها كما كان جبل في حي حمدان». . سلها عما تعني بذلك؟

وقطب قاسم مهتمًا، وسألها:

\_ماذا تعنين يا سكينة؟

فقالت الجارية بجرأة غير غريبة عليها:

ـ أعنى ما قلت. لست خادمة كالخادمات، أعمل اليوم هنا وغدًا هناك. إنى ربيبة هذا البيت، وما كان يجوز أن يخفي عني سر.

فتبادل الرجل نظرة سريعة مع زوجته، وأشار إلى الطفلة فجاءت وتلقتها منه، وأمر الجارية أن تجلس فجلست عند قدميه وهي تقول:

\_أيصح أن يعلم بسرك غرباء عن البيت وأظل أجهله أنا؟!

\_أى سر تقصدين؟

فقالت الجارية بنفس الجرأة:

\_حديث قنديل إليك عند صخرة هند!

ندت عن قمر آهة، ولكن قاسم أشار إلى الجارية أن تستمر فقالت:

- كما حدث لجبل ورفاعة من قبل، لست دونهما يا سيدى. أنت سيد، حتى على عهد الرعى كنت سيدًا، وكنتُ الوسيط الذى جمع بينكما، ألا تذكر؟ كان يجب أن أعلم قبل الآخرين، كيف تأمن الغرباء ولا تأمن جاريتك؟! سامحكما الله، لكنى أدعو لك بالنصر، نعم أدعو لك بالنصر على الناظر والفتوات، منذا الذى لا يدعو لك بذلك؟!

فصاحت قمر وهي تهدهد الطفلة بحركة عصبية:

ـ ما كان يجوز أن تتجسسى علينا، وسيظل العيب لاصقًا بذقنك. فقالت سكينة في حرارة صادقة:

-لم أقصد التجسس وربى شهيد، ولكن نفذ إلى من الباب كلام لم يسعنى إلا متابعته، وما كان في وسع إنسان أن يغلق أذنيه دونه، إن ما يقطّع قلبي يا ستى هو أنك لا تطمئنين إلى، لست خائنة، أنت آخر ما أخون، ولحساب من أخونك؟ سامحك الله يا ستى. كان قاسم يتفحصها بعناية ، بعينيه وبقلبه ، فلما انتهت قال بهدوء:

\_أنت مخلصة يا سكينة، لا شك في إخلاصك.

فحدجته بنظرة مستطلعة مؤملة، وتمتمت:

\_عشت يا سيدى، أنا والله كذلك.

فقال بصوت خفيض:

- أنا أعرف المخلصين، ولن تنبت الخيانة في بيتي كما نبتت في بيت أخى رفاعة. يا قمر. . هذه المرأة مخلصة مثلك فلا تسيئي إليها بالظن، هي منا كما نحن منها، ولن أنسى أنها كانت رسول السعادة إلى .

فقالت قمر بصوت نم عن بعض الارتياح:

\_لكنها استرقت السمع!

فقال قاسم باسمًا:

ـ لم تسترق السمع، ولكن الصوت نفذ إليها بمشيئة المولى، كما سمع رفاعة صوت جده دون تدبير منه. مباركة أنت يا سكينة!

فخطفت الجارية يده وانهالت عليها لثمًا وتقبيلاً وهي تقول:

روحي فداؤك يا سيدي، والله لتنتصرن على أعدائك وأعدائنا حتى تسود الحارة كلها.

\_ليست السيادة مطلبنا يا سكينة!

فبسطت يديها داعية:

- اللهم حقق مطالبه!

\_ آمين . .

ثم نظر إليها باسمًا وهو يقول:

\_ وستكونين رسولي إذا احتجت إلى رسول، وبذلك تشتركين في عملنا!

فتهلل وجه المرأة بشراً، ونطقت عيناها بالعزة، فأردف قائلاً:

\_إذا أذنت الأقدار بأن يوزع الوقف كـما نريد فلن تحرم منه امرأة، سيدة كـانت أم خادمة!

عقدت الدهشة لسان المرأة، فعاد يقول:

ـ قال الواقف إن الوقف للجميع ، وأنت يا سكينة حفيدة الواقف مثل قمر سواء بسواء.

واكتسى وجه المرأة بالبهجة ورنت إلى سيدها بامتنان. وترامت من الحارة أنغام

مزمار راقصة. وصاح صائح: «لهيطة.. ألف مرة». فتحول قاسم نحو الطريق فرأى موكب الفتوات وهم يخطرون على الجياد المزينة، والناس تستقبلهم بالهتاف والإتاوات، ثم مضوا نحو الخلاء ليتنافسوا كعادتهم في الأعياد في مضمار السباق والتحطيب.. وما إن اختفى موكبهم حتى ظهر عجرمة في الحارة وهو يترنح سكرا. ابتسم قاسم لدى ظهور الشاب الذي يعد من أصدق شباب النادي، وتابعه بعينيه حتى وقف في مركز الوسط من حي الجرابيع وصاح:

\_أنا جــدع. .

فهبط عليه صوت ساخر من أول ربع في حي آل رفاعة قائلا:

\_ يا زين الجرابيع!

فرفع عجرمة نحو النافذة عينين حمراوين وصاح بصوت مخمور:

ـ جاء دورنا يا غجر!

والتف حوله غلمان وسكاري ومساطيل في ضجة عالية من الغناء والزغاريد والطبل والزمر، وإذا بصوت يصيح:

\_اسمعوا. . جاء دور الجرابيع. . ألا تريدون أن تسمعوا؟!

فهتف عجرمة وهو يترنح:

ـ جد واحد للجميع، وقف واحد للجميع. والسلام على الفتونة.

ثم غاب في الزحام. وسرعان ما وثب قاسم واقفًا فتناول عباءته، وغادر الحجرة مسرعًا وهو يقول:

\_الله يلعن الخمرة وزمانها!

## ٧٧

\_ تجنبوا الظهور بين الناس وأنتم سكاري.

قال قاسم ذلك جاداً مقطبًا وهو جالس تحت صخرة هند يقلب عينيه في وجوه أصحابه المقربين من أعضاء النادى: صادق وحسن وعجرمة وشعبان وأبو فصادة وحمروش. كان الجبل يلوح من ورائهم شامخًا وهو يتلقى طلائع الليل الهابطة، ولم يكن في الخلاء إلا راعى غنم يقف معتمداً على عصاه في أقصى الجنوب. وبدا عجرمة مطرقًا أسيفًا وهو يقول:

\_ليتني مت قبل ذلك .

فقال قاسم في فتور:

ـ من الأخطاء ما لا يجدى معه الاعتذار، المهم عندى الآن أن أعرف مدى أثر هذيانك في أعدائنا!

قال صادق:

\_من المؤكد أنه سمع على نطاق واسع.

وقال حسن متجهما:

\_ لمست ذلك بنفسى فى قهوة جبل حيث دعانى صديق من آل جبل إلى مجالسته، فسمعت رجلاً يحكى بصوت مرتفع ما كان من أمر عجرمة. أجل كان يحكى وهو يضحك هازئا، ولكنى لا أستبعد أن تثير حكايته ريبة فى بعض النفوس، كما أخشى انتقالها من فم إلى فم حتى تبلغ أحد الفتوات.

فقال عجرمة متنهدًا:

ـ لا تبالغ يا حسن.

فقال صادق:

\_المبالغة خير من التهاون وإلا أخذنا من حيث لا نتوقع!

فقال عجر مة:

\_أقسمنا ألا نخاف الموت!

فقال صادق محتدًا:

\_كما أقسمنا أن نحفظ السر!

فقال قاسم:

\_ وإذا هلكنا اليوم تبددت الآمال الكبار.

واشتد الوجوم مع الظلام الزاحف حتى عاد قاسم إلى الكلام قائلا:

\_ينبغى أن نتدبر الأمر.

فقال حسن:

\_ فلندبر أمرنا على افتراض أسوإ الاحتمالات.

فقال قاسم بصوت كئيب:

\_هذا معناه القتال.

وتحركت الرءوس تتبادل النظرات في الظلام، ومن فوقها انبثقت النجوم تباعًا، وهب هواء يطوى في تضاعيفه بقايا من حر النهار كالنوايا السيئة. ثم قال حمروش:

ـ سنقاتل حتى الموت.

فقال قاسم ممتعضاً:

ـ ويستمر الحال كما كان!

فقال صادق:

ـ ما أسرع ما يقضون علينا!

فقال أبو فصادة مخاطبًا قاسم:

ـ من حسن الحظ أن هناك أسباب قربي تجمع بينك وبين سوارس، كما تجمع بين حرمك وحرم الناظر، وفضلاً عن هذا وذاك كان لهيطة من أصدقاء أبيك في شبابه.

فقال قاسم بفتور:

\_ربما أجَّل هذا القضاء، ولكنه لن يمنع وقوعه.

فسأل صادق برجاء:

\_ ألا تذكر أنك فكرت يومًا في الالتجاء إلى محام شرعي؟

ـ وقيل لنا إنه لن يجرؤ محام على تحدى الناظر والفتوات.

فقال عجرمة محاولاً التخفف من ذنبه:

\_هناك محام في بيت القاضي معروف بالجرأة.

ولكن صادق عاد يقول متراجعًا:

\_ أخشى ما أخشاه أن نجهر بالعداوة عن طريق القضية وتكون مخاوفنا من عواقب كلام عجرمة سابقة لأوانها .

#### فقال عجرمة:

ـ فلنشاور المحامي في الأمر ، ولنتفق معه على تأجيل رفع الدعوى حتى تدفعنا الضرورة إلى ذلك ، وسنجد من يواليها منا ولو من خارج الحارة .

ووافق قاسم والآخرون على هذا الرأى كإجراء احتياطى. وقاموا من فورهم فذهبوا إلى مكتب الشنافيرى المحامى الشرعى ببيت القاضى. وقابلهم الشيخ فشرح له قاسم قضيتهم، وأخبره عن نيتهم فى تأجيل رفع الدعوى إلى حين، على أن يستعد هو للأمر بدراسة الموضوع والتأهب لاتخاذ الإجراءات كافة. وعلى خلاف ظن أكثرهم قبل المحامى القضية، وقبض مقدم الأتعاب، فانصرفوا من لدنه مغتبطين. وتفرقوا، فعاد الصحاب إلى الحارة ومضى قاسم إلى المعلم يحيى. وجالسه فى دهليز الكوخ يدخنان ويتبادلان الرأى. وبدا المعلم آسفًا على ما وقع ووصى قاسم باليقظة والحذر.

وعاد قاسم بعد ذلك إلى داره، ولما فتحت له قمر رأى في وجهها ما أزعجه فسألها عما وراءها فقالت :

\_أرسل حضرة الناظر في طلبك!

فخفق قلب قاسم، وتساءل:

\_ متى؟

\_آخر مرة منذ عشر دقائق!

- آخر مرة؟!

\_أرسل إليك ثلاث مرات في ظرف ساعة.

واغرورقت عيناها وهي تتكلم، فقال:

\_ليس هذا ما أنتظره منك.

فانتحبت قائلة:

ـ لا تذهب .

فقال وهو يتظاهر بالهدوء:

\_الذهاب آمن من التخلف، ولا تنسى أن هؤلاء اللصوص لا يعتدون على أحد في بيوتهم.

وبكت إحسان في الداخل فهرعت إليها سكينة، وقالت قمر:

\_ أجّل ذهابك حتى أقابل أمينة هانم .

فقال بحزم:

\_هذا لا يليق بنا. سأذهب من فوري، ولا داعي للخوف فلا أحد منهم يعرف عني شئًا.

فتشبثت به قائلة:

ـ دعاك أنت لا عجرمة ، أخشى أن يكون بعضهم قد وشي بك.

فتخلص منها برفق وهو يقول:

- قلت لك منذ اللحظة الأولى إن أيام الراحة ولت، وجميعنا يعلم بأننا سنواجه الشر عاجلاً أو آجلاً، فلا تجزعي هكذا، وابقى بخير حتى أرجع.

#### ٧٨

عاد البواب من داخل بيت الناظر وقال لقاسم في فتور وجفاء:

- ادخــل.

ومضى أمامه فتبعه قاسم باذلاً جهده للسيطرة على مشاعره، وسطعته رائحة الحديقة الزكية دون أن يلتفت إليها حتى وجد نفسه أمام مدخل البهو. وتنحى البواب عن طريقه فدخل ثابت الجنان بدرجة لم يكتشفها في نفسه من قبل. ونظر أمامه فرأى في أقصى البهو الناظر جالسًا على ديوان، وكان هناك شخصان، يجلس أحدهما على مقعد إلى عين الناظر والآخر إلى يساره، لكنه لم يتبينهما أو يُعْنَ بالالتفات إلى أحدهما، واقترب من مجلس الناظر حتى وقف على بعد أذرع منه، فرفع يده بالتحية وقال بأدب:

\_مساء الخيريا حضرة الناظر.

ولمح دون قصد الجالس إلى يمينه فإذا به لهيطة، ولحظ الآخر لكن عينيه حملقتا فيه بلا وعى منه، وتلقى صدمة كادت أن تهيضه. لم يكن الرجل إلا الشيخ الشنافيرى المحامى الشرعى! أدرك خطورة الموقف، إن سره انكشف، إن المحامى النذل خان الأمانة، وإنه وقع. التحم فى قلبه اليأس بالغيظ والغضب. وعرف أنه لن ينجيه المكر أو الدهاء فصمم على الصمود والتحدى. ولم يكن فى الوسع أن يتراجع خطوة فكان عليه أن يتقدم أو يثبت على الأقل. وقد ذكر موقفه هذا فيما تبع من أيام، وكان يؤرخ به مولد شخص جديد فى ذاته لم يكن يتصور وجوده. وانتزعه من دوامته صوت الناظر الجاف وهو يتساءل:

\_أنت قاسم؟

فأجاب بصوت طبيعي:

- نعم یا سیدی!

فسأله دون أن يأذن له بالجلوس:

\_هل أدهشك وجود الأستاذ؟

فأجاب بنفس النبرة:

\_ کلا یا سیدی .

فتساءل بازدراء:

\_أأنت راعى الغنم؟

\_انقطعت عن رعى الغنم منذ أكثر من عامين.

\_وماذا تعمل الآن؟

ـ وكيلاً لزوجتي في أملاكها .

فندت عن الناظر هزة رأس ساخرة، ثم أشار إلى المحامى آذنًا له بالكلام فقال الشيخ مخاطبًا قاسم: \_ لعلك تعجب من موقفى باعتبارى محاميك، ولكن لحضرة الناظر مكانة تعلو على هذه الاعتبارات جميعًا. وسيفسح تصرفى لك مجالاً للتوبة هو خير من التورط فى عداوة كانت ستؤدى بك إلى الهلاك. وقد أذن لى حضرة الناظر فى أن أخبرك بأننى تشفعت لك عنده بالعفو إذا أعلنت التوبة، فأرجو أن تقدر حسن نيتى، وهاك مقدم الأتعاب أرده إليك.

فرمقه قاسم بنظرة قاسية وتساءل:

ـ لماذا لم تنصحني بالحق وأنا في مكتبك؟

فأخذ المحامي بجرأته، ولكن الناظر أسعفه بقوله:

\_أنت هنا لتُسأل لا لتسأل!

ونهض المحامي مستأذنًا بالانصراف، ثم مضى وهو يحبك جبته مداراة لارتباكه. وعند ذاك تفحص الناظر قاسم بنظرة قاسية وقال بنبرة كالسب:

ـ كيف سولت لك نفسك الشروع في رفع دعوى علي ؟

وجد نفسه محاصرًا، فإما القتال وإما القتل، ولكنه لم يدر ماذا يقول؟ فقال الآخر:

-انطق، خبرني عما وراءك، هل أنت مجنون؟

فقال قاسم في وجوم:

\_ أنا عاقل بحمد الله .

ـ لا يبدو هذا مؤكدًا، لماذا أقدمت على فعلتك المنكرة؟ لم تعد فقيرًا مذرضيتك المجنونة زوجًا لها، فماذا أردت من فعلتك؟

فزمجر قاسم كأنما ليأمن الغضب وقال:

ـ لا أريد شيئًا لنفسي.

فنظر الناظر نحو لهيطة كأنما يشهده على غرائب ما يسمع، ثم أعاد عينيه إلى قاسم فيما يشبه الثورة، وصاح:

\_إذن لماذا فعلت ما فعلت؟!

فأجاب قاسم:

\_ما أردت إلا العدل.

فضيّق الرجل عينيه في حقد وتساءل:

\_ أتحسب أن علاقة زوجتك بالهانم قادرة على حمايتك؟

فغض بصره وهو يقول:

\_كلا يا سيدى.

\_ هل أنت فتوة قادر على تحدى فتوات الحارة جميعا؟

\_ کلا یا سیدی .

فصرخ الرجل:

ـ قل إنك مجنون وأرحني.

\_أنا عاقل والحمد لله.

ـ لماذا شرعت في رفع دعوى على ؟

\_أردت العدل.

\_لمن؟

فارتسم التفكير في عينيه وهو يقول:

\_للجميع.

فتفرس في وجهه مرتابًا في عقله، وتساءل:

\_وما شأنك أنت؟

فقال قاسم وكأنه ثمل بشجاعته:

\_بذلك تتحقق شروط الواقف!

فصرخ الناظر:

\_أنت يا جربوع تتكلم عن شروط الواقف؟!

فقال قاسم بهدوء:

\_إنه جدنا جميعا.

فهب الناظر واقفا في غضب وهوى بشعر منشته على وجه قاسم بأقصى قوته وصاح:

- جدنا؟! ليس فيكم من يعرف أباه، ولكنكم تقولون بكل وقاحة جدنا: يا لصوص يا جرابيع يا سفلة، إنما تتمادى في وقاحتك استنادا إلى حماية هذا البيت لك ولزوجتك، ولكن كلب البيت يفقد حمايته إذا عض يد المحسنين إليه.

ووقف لهيطة ليسكن من ثورة الناظر فقال:

ـ عد إلى مجلسك مطمئنا فلا يصح أن تكدر صفوك ذبابة.

فجلس رفعت وشفتاه ترتعشان من الغضب، وصاح:

ـ حتى الجرابيع يطمعون في الوقف ويقولون بكل وقاحة جدّنا.

وعاد لهيطة إلى مجلسه وهو يقول:

- الظاهر أن ما تناقله الناس عن الجرابيع صحيح، ومن سوء حظ حارتنا أنهم يسعون إلى الهلاك بأقدامهم.

والتفت إلى قاسم وقال:

- كان أبوك من أعواني الأوائل فلا ترغمني على قتلك.

فصاح الناظر:

- إنه يستحق ما هو أفظع من القتل جزاء فعلته، ولولا الهانم لكان الساعة في الهالكن!

وواصل لهيطة استجواب قاسم قائلا:

ـ أصغ إلىّ يا بني، وخبرني عمّن وراءك؟

فتساءل قاسم وهو ما زال يستشعر الألم عند موقع المنشة من وجهه:

\_ من تقصد يا سيدى؟

ـ من دفعك إلى رفع الدعوى؟

ـ لا أحد سوى نفسى.

-كنت راعى غنم ثم ابتسم لك الحظ، ففيم تطمع أكثر من ذلك؟

\_العدل، العدل يا معلم.

فصر الناظر على أسنانه وهتف:

ـ العدل؟! يا كلاب يا أراذل، هذه كلمة السر عندكم إذا اعتزمتم النهب والسرقة.

ثم ملتفتًا نحو لهيطة:

\_قرره حتى يقر!

فعاد لهيطة يقول بصوت تتجمع في نبراته نذر الوعيد:

\_خبرني عمن وراءك!

فقال قاسم بتحدٌّ خفي:

ـ جــدنا. .

\_جـدنا؟!

ـ نعم، اطلع على شروط وقفه وستعلم أنه هو الذي دفعني.

وهب رفعت واقفا مرة أخرى وهو يصيح:

\_أبعده عن وجهى . . ارمه خارجا .

وقام لهيطة فأخذ قاسم من ذراعه، ومضى به نحو الباب، وشد على ذراعه بقبضة من حديد تحمّلها الآخر متصبرا، ثم همس في أذنه:

- اعقل إكراما لنفسك، ولا تضطرني إلى أن أشرب من دمك.

# ۷٩

دخل قاسم داره فوجد بها زكريا وعويس وحسن وصادق وعجرمة وشعبان وأبو فصادة وحمروش. تطلعوا إليه في إشفاق وصمت، ولما جلس إلى جانب زوجته قال عويس:

\_ألم أنصحك؟

فقالت قمر في عتاب:

\_مهلا يا عمى حتى يستريح.

فهتف الرجل:

ـ شر المتاعب ما تجيء صاحبها من نفسه!

وجعل زكريا يتفحص وجه قاسم بعناية ثم قال:

\_أهانوك يا بن أخى، إنى أعرفك كما أعرف نفسى، ما كان أغناك عن هذا كله!

وقال عويس:

\_ لولا أمينة هانم ما رجعت إلينا سالما.

وقلب قاسم عينيه في وجوه صحبه وقال:

\_خاننا المحامي اللئيم!

فتصلبت وجوههم، وتبادلوا النظرات في انزعاج، فسبقهم عويس إلى الكلام قائلا:

- انفضوا بسلام، وليحمد كل منكم الله على نجاته.

وسأله حسن:

\_ما قولك يا بن عمى؟

فتفكر قاسم قليلا ثم قال:

ـ لا أخفى عنكم أن الموت يتهددنا، وأنى أعفى من معاونتي من يشاء.

فقال زكريا:

ـ فلينته الأمر عند هذا الحد.

فقال قاسم بهدوء وتصميم:

ـ لن أتخلى عن الأمر مهما تكن العواقب، ولن أكون دون جبل أو رفاعة برا بجدى وأهل حارتنا. فقام عويس غاضبا وغادر حجرة الجلوس وهو يقول:

ـ هذا الرجل مجنون، وكان الله في عونك يا بنت أخي.

أما صادق فوثب إلى قاسم وقبّل جبينه وهو يقول:

ـرددت إلى روحي بما قلت.

وقال حسن متحمسًا:

- الناس في حارتنا يقتلون بسبب مليم، وبلا سبب، فلماذا نخاف الموت عندما نجد له سيا حقا؟!

وارتفع صوت سوارس من الحارة مناديًا زكريا فأطل الرجل من النافذة ودعاه إلى الدخول، وما لبث أن دخل الحجرة وجلس وهو مقطب متجهم. ثم نظر إلى قاسم وقال:

ـ لم أكن أدرى أن في حينا فتوة سواي .

فقال زكريا مشفقا:

\_ليس الأمر كما قيل لك.

\_ما قيل لي أدهي وأمر.

فقال زكريا متأوها:

\_ عبث الشيطان بعقول أو لادنا.

فقال سوارس بجفاء:

- أسمعنى لهيطة كلاما ثقيلا بسبب ابن أخيك، كنت أحسبه فتى عاقلا فإذا بجنونه يفوق كل جنون. اسمعوا جيدًا، إذا تهاونت معكم جاء لهيطة ليؤدبكم بنفسه، ولكنى لن أسمح لأحد بأن يعرض كرامتى للمهانة، فالزموا حدودكم، والويل لمن تحدثه نفسه بالعناد.

وراح سوارس يراقب أعوان قاسم فلم يسمح لأحد منهم بالاقتراب من بيته، وفي سبيل ذلك أهان صادق ولكم أبو فصادة، وطلب إلى زكريا أن ينصح قاسم بالتزام داره حتى تنسى الزوبعة. ووجد قاسم نفسه سجينا في بيته، لا يزوره أحد سوى ابن عمه حسن. ولكن ما من قوة تستطيع أن تسجن الأخبار في الحارة. فقد تسللت إلى حيى رفاعة وجبل همسات عما يضطرب في حي الجرابيع، عن دعوى كادت أن ترفع على الناظر، وعن مزاعم خاصة بالشروط العشرة، بل عن اتصال وقع بين قنديل خادم الجبلاوى وبين قاسم. وثارت النفوس بشتى الانفعالات، وتطايرت التهم والسخريات. وقال حسن يوما لقاسم:

ـ الحارة تتهامس بالخبر، وفي كل غرزة لا حديث إلا عنك.

فرفع قاسم إليه وجها غائما بالهم والفكر كشأنه في الأيام الأخيرة وقال:

\_انقلبنا سجناء، والأيام تمر بلا عمل.

فقالت قمر بإشفاق:

ـ لا يطالب مخلوق بما فوق طاقة البشر.

وقال حسن:

\_إخواننا على أشد ما يكون من الحماس.

فسأله قاسم:

\_أحق أن آل جبل وآل رفاعة يرمونني بالكذب والجنون؟!

فغض حسن بصره متألما وقال:

\_الجبن أفسد الرجال!

فهز قاسم رأسه في حيرة وتساءل:

ـ لماذا يكذبني آل جبل وآل رفاعة ومنهم من قابله الجبلاوي أو حادثه؟ لماذا يكذبونني وهم أولى الناس بتصديقي وتأييدي؟!

\_إن داء حارتنا الجبن ولذلك فهم ينافقون فتواتهم!

وارتفع من الطريق صوت سوارس كالخوار وهو يسب ويلعن فأطلت الأسرة من الشباك فرأوا سوارس ممسكا بتلابيب شعبان وهو يصرخ فيه:

\_ماذا جاء بك هنا يا بن الزانية؟

وعبثًا حاول الشاب التخلص من قبضته، وإذا بسوارس يقبض على عنقه بيسراه وينهال باليمنى ضربا على وجهه ورأسه. وغضب قاسم غضبا شديدا فتراجع عن الشباك وهرع نحو الباب غير مبال بتوسلات قمر. وفي أقل من دقيقة كان يقف أمام سوارس ويقول له بحزم وتصميم:

-اتركه يا معلم سوارس.

فلم يكف الرجل عن تكييل الضربات لفريسته وصاح بقاسم:

\_احترم نفسك وإلا أبكيت عليك عدوك.

وقبض قاسم على يده الضاربة وشد عليها بقوة هاتفا بغضب:

\_لن أدعك تقتله، وافعل ما تشاء.

وترك سوارس شعبان فانهار على الأرض في غيبوبة، وخطف مقطف تراب من فوق رأس امرأة عابرة وألبسه رأس قاسم. وهمّ حسن بالوثوب عليه لولا أن طوقه زكريا بذراعه في الوقت المناسب الذي وصل فيه. ورفع قاسم المقطف عن رأسه فبدا وجهه كالمختنق وانسال التراب على رأسه وثوبه حتى غطاه، وسرعان ما تملكته نوبة سعال. وصرخت قمر وصوتت سكينة، وجاء عويس مهرولا، وانطلق النساء والرجال والصغار من الأبواب نحو الموقعة فعلا اللغو والضوضاء. وكان زكريا يشد على ذراع ابنه حسن بكل قواه وينظر في عينيه الجاحظتين بتوسل وتحذير. واقترب عويس من سوارس قائلا:

\_امسح العيب في وجهي أنا يا معلم سوارس.

وهتف أكثر من صوت: «شفاعة الله يا معلم!». . حتى صرخ سوارس قائلا:

\_هذا قريب وذاك شفيع، وبين هذا وذاك ضاع سوارس وانقلب مرة بعد ما كان فتوة! فصاح زكريا:

\_ أستغفر الله يا معلم، أنت سيدنا وتاج رأسنا.

ومضى سوارس إلى القهوة، فرفع رجال شعبان، وراح حسن ينفض التراب عن وجه قاسم وثوبه، واستطاع المتجمعون\_بعد اختفاء سوارس\_أن يعبروا عن أسفهم.

#### ۸٠

وفى مساء ذلك اليوم ضج أحد الربوع بحى الجرابيع بالصوت ينعى ميتا. أطلقته حنجرة متهالكة وسرعان ما رددته عشرات الحناجر فى الربع. وأطل قاسم من النافذة فسأل فطين بياع اللب فأجابه الرجل: «تعيش أنت، شعبان مات!». وغادر الرجل داره فزعا فقصد ربع شعبان على مبعدة ربعين من داره. وهنالك وجد الحوش مظلما ومكتظا بسكان الشقق التحتانية الذين راحوا يتبادلون كلمات الرثاء والحزن والسخط، على حين تجاوبت دهاليز الأدوار الفوقانية بالصوت. وسمع امرأة تقول بعنف:

- ـ لم يمت ولكن قتله سوارس.
- \_إلهي يخرب بيتك يا سوارس!
  - فاعترضت ثالثة تقول:
- ـ ما قتله إلا قاسم! يفترى الأكاذيب ورجالنا تقتل.

فانقبض قلب قاسم حزنا، وشق طريقه في الظلام حتى صعد إلى أول دور حيث توجد شقة القتيل. ورأى على ضوء سراج مثبت في حائط الدهليز أمام الشقة أصحابه حسن وصادق وعجرمة وأبو فصادة وحمروش وآخرين، فأقبل صادق نحوه وهو يبكى فعانقه دون أن ينبس. وقال حسن وقد بدا وجهه مروعا تحت الضوء الشاحب:

ـ لن يذهب دمه هدرا.

واقترب عجرمة من قاسم وهمس في أذنه:

ـ زوجته في حالة سيئة حتى إنها حمّلتنا مقتله.

فهمس قاسم له:

\_كان الله في عونها .

وقال حسن في نبرة انتقامية:

\_ القاتل لابد أن يقتل.

فقال أبو فصادة بغيظ:

\_منذا الذي يشهد عليه في حارتنا؟

فقال حسن:

ـ لكنا نستطيع أن نقتل كالآخرين.

فلكزه قاسم ليسكته وقال:

\_ من الحكمة ألا تسيروا في جنازته ولكننا سنجتمع في القرافة .

واتجه قاسم نحو شقة الفقيد فاعترضه صادق ليمنعه ولكنه نحاه جانبا ودخل. ونادى زوجته فجاءت متعجبة تطالعه بعينين دامعتين، ثم تحجرت نظراتها وسألته:

\_ماذا تريد؟

فقال بحزن:

\_ جئت أعزيك.

فقالت بحدة:

\_أنت قتلته، ما كان أغنانا عن الوقف، وأحوجنا إليه هو.

فقال برقة:

ربنا يصبرك، ويهلك المجرمين، ونحن أهلك كلما احتجت إلى أهلك، ولن يضيع دمه.

رمقته شزراً واستدارت راجعة. وبرجوعها انفجر النواح والعويل، فغادر المسكن كئيبا مغتما.

وعندما طلع الصباح رأى الناس سوارس جالسا عند مدخل قهوة دنجل يقلب في المارين وجها مدموغًا بالتحدى والإجرام. وحيّاه الناس مضاعفين له التودد مداراة لسخطهم. وتجنبوا الاشتراك في العزاء فلبثوا في دكاكينهم أو وراء عرباتهم أو فوق التراب. وخرج النعش محمولا عند الضحى واقتصر المشيعون على الأهل والأقارب،

ولكن قاسم انضم إليهم غير مبال بنظرات الفتوة المحرقة. وغضب صهر القتيل فقال لقاسم محتدا:

ـ تقتل القتيل وتمشى في جنازته؟!

فلاذ بالصمت والصبر حتى سأله آخر بخشونة:

\_ لماذا جئت؟

فقال بإصرار:

\_ لأقاتل كما قاتل صديقي ـ رحمه الله ـ كان شجاعا ، ولستم كما كان ، وتعرفون القاتل وتصبون غضبكم على .

فوجم أكثرهم. وتجمهرت النساء وراء الرجال، حافيات يهرولن بالسواد، يسفين التراب فوق رءوسهن ويلطمن الخدود. واخترقت الجنازة الجمالية نحو باب النصر. ولما تمت مراسم الدفن تفرق المشيعون إلا قاسم، فقد تباطأ في السير حتى تخلف عنهم، ورجع إلى القبر فوجد أصحابه في الانتظار. واغرورقت عيناه بالدمع فأجهشوا جميعا بالبكاء. وجفف عينيه براحته وقال:

\_ من يريد السلامة فليذهب.

فقال حمروش:

ـ لو كنا نريد السلامة ما وجدتنا حولك.

فقال وهو يطرح يده على شاهد القبر:

ـ عز علىّ فقده. كان شجاعا متحمسا، وذهب غدرا ونحن في أشد الحاجة إليه.

فقال صادق:

ـ قتله فتوة غادر، وسوف يبقى منا بعض ليشهدوا مصرع آخر فتوة في حارتنا.

فقال حمروش:

- ولكن لا ينبغى أن نضيع غدرًا كما ضاع فقيدنا، فكروا في الغد وكيف نحقق النصر؟!

ـ وكيف نجتمع لنتبادل الرأى؟

فقال قاسم:

ـ لـم يكن لى من أنيس في سـجنى إلا التـفكيـر في هذا، واهتـديت إلى رأى، ليس باليسير ولكن لا محيد عنه.

فاستطلعوه متسائلين فأردف:

ـ اهجروا حارتنا، فليدبر كل شأنه وليهاجر. سنهاجر كما هاجر جبل قديما وكما هاجر

المعلم يحيى بالأمس، ولنُقِم نادينا في مكان آمن بالخلاء حتى يشتد ساعدنا ويكثر عددنا.

#### فهتف صادق:

ـ نعم الرأي.

لن نطهر حارتنا من الفتونة إلا بالقوة، ولن نحقق شروط الواقف إلا بالقوة، ولن يسود العدل والرحمة والسلام إلا بالقوة، وستكون قوتنا أول قوة عادلة غير باغية.

استمعوا بقلوب واعية. وتطلعوا إلى قاسم، وإلى القبر وراء ظهره، فخيل إليهم أن شعبان يشاركهم الاستماع ويباركه. وقال عجرمة متأثرا:

ـ نعم فبالقوة تحل المشاكل، القوة العادلة غير الباغية، كان شعبان يقصدك عندما اعترضه سوارس. لو كنا معه لاعترض الفتوة قوة لا يسهل قهرها، لعنة الله على الخوف والتفرق.

استروح قاسم لأول مرة نسمة ارتياح وابتهاج فقال:

ـ لقـد وضع جـدنا ثقـتـه بين أيدينا وهو عن يقين يؤمن بأن في أبنائه من هم أهل لحملها.

#### ۸١

ورجع قاسم إلى بيته عند منتصف الليل، لكنه وجد قمر مستيقظة تنتظره. وبالغت أكثر من عادتها في العناية به والحنو عليه، وكان يؤلمه بقاؤها مستيقظة حتى تلك الساعة، ثم تبين له ذبول في عينيها واحمرار يخلفه البكاء كما تخلف الشمس الشفق، فتساءل في كأبة:

\_ هل کنت تبکین؟

لم تجبه كأنما شغلت عنه بكوب اللبن الدافئ الذي تعده له، فعاد يقول:

\_موت شعبان أحزننا جميعا\_رحمه الله.

فبادرته قائلة:

ـ بكيت على شعبان قبل ذلك، لكنني كنت أبكى كلما تذكرت اعتداء الرجل عليك، أنت آخر رجل يستحق أن يهال التراب على رأسه ووجهه.

فقال محزونا:

ـ ما أخف هذا بالقياس إلى ما أصاب صاحبنا المسكين!

فجلست إلى جانبه وهي تقدم له الكوب وتمتمت:

ـ وكم يضايقني ما يقال عنك.

فابتسم متظاهرا بالاستهانة ورفع الكوب إلى فيه، فأردفت مغيظة:

\_ إن جلطة يؤكد لآل جبل أنك طامع في الوقف لتستأثر به وحدك، وهكذا يقول حجاج في آل رفاعة، ويشيعان عنك أنك تنتقص من جبل ورفاعة.

فقال دون أن يخفي ضيقه:

\_أعرف ذلك، كما أعرف أنه لولاك لما كنت حتى اليوم حيا.

فربتت كتفه بحنان. وإذا بها تتذكر الأيام الماضية لغير ما سبب. أيام لم تكن لأحاديثهما نهاية ولا لسعادتهما غاية. وأفراح الليالي المضيئة بعد مولد إحسان. هي اليوم لا تملك منه شيئا ولا يملك هو من نفسه شيئا. حتى آلام المرض التي تنتابها أحيانا تخفيها عنه. إنه لا يفكر في نفسه فكيف تشغله بنفسها؟ وهي تخجل أن تثقل عليه حتى لا تعين أعداءه بغير قصد عليه. منذا الذي يطمئنها عليه وأيام العمر تولى كما ولت أيام الراحة؟ سامحك الله يا حارتنا. وعاد قاسم يقول:

ـ لا يغيب عنى الأمل ولو فى الظلام، وما أكثر الأصدقاء الصادقين وإن بدوت وحيدا! تحدى أحدهم سوارس، فمن كان يجرؤ على ذلك من قبل، والآخرون مثله، والشجاعة أخطر ما يلزم حارتناكى لا تقضى العمر تحت الأقدام، فلا تنصحينى بالسلامة، إن الذى قُتل، قُتل وهو فى طريقه إلى دارى، وأنت لا ترضين لزوجك بمذلة الجبن.

ابتسمت قمر وهي تسترد الكوب فارغًا، وقالت:

\_إن زوجات الفتوات يزغردن عند المعارك وهي شر، فكيف أرضى بأن أكون دونهن للخبر؟

وأدرك أن حزنها أخطر مما تبديه فربت خدها بحب وقال معزيا:

ـ أنت كل شيء لي في دنياي، أنت خير رفيق في الحياة.

فابتسمت استدعاء للسكينة التي يجب أن تسبق النوم.

وعجب عم شنطح مبيض النحاس من اختفاء صادق، وكان سعى إليه فى داره فلم يجد له ولا لأحد من ذويه أثراً. وعبد الفتاح الفسخانى كذلك لم يجد لعامله عجرمة أثراً فى الحارة. ولم يعد أبو فصادة إلى مقلى حمدون ولم ينذره بغيابه. وأين حمروش؟ قال حسونة الفران: إنه اختفى كأن نيران الفرن التهمته. وآخرون ذهبوا بلا عودة. وانتشر الخبر فى حى الجرابيع وامتدت منه أصداء إلى بقية الحارة حتى قال الناس فى حيى جبل

ورفاعة هازئين: إن الجرابيع يه اجرون وإن سوارس لن يجد مع الأيام من يحصّل منه الإتاوة. واستدعى سوارس زكريا إلى قهوة دنجل وقال له منذرًا:

- ابن أخيك خير من يدلنا على سر الهاربين.

فقال زكريا:

\_ يا معلم سوارس لا تظلمه، مضت أيام وأسابيع وأشهر والرجل لا يغادر داره.

فقال الفتوة مزمجرا:

- ألاعيب أطفال، لكني استدعيتك لأحذرك مما قد يصيب ابن أخيك.

\_قاسم من دمك، ولا تُشمت بنا العدو!

ـ هو عدو نفسه وعدوي، َ إنه يتوهم نفسه جبل هذا الزمان، وهذه اللعنة هي أقرب سبيل إلى باب النصر.

فقال زكريا في جزع:

\_حلمك يا معلم سوارس، نحن جميعا في حمايتك!

ولما رجع زكريا إلى مسكنه صادف حسن راجعا من بيت قاسم فأفرغ فيه الحنق الذي ملأه به سوارس، غير أن حسن قاطعه قائلا:

\_ صبرك يا أبي، قمر مريضة، مريضة جدا يا أبي.

وعلمت الحارة بمرض قمر حتى بيت الناظر. ولازمها قاسم وهو في غاية من الكآبة والحزن. وكان يهز رأسه في حيرة ويقول:

\_ في لحظة واحدة ترقدين بلا حول!

فقالت المرأة بصوت ضعيف:

-كنت أخفى عنك حالى رحمة بقلبك المثقل بالمتاعب.

فقال في حزن شديد:

ـ كان ينبغي أن أشاركك ألمك من أول الأمر.

فانفرجت شفتاها الشاحبتان عن ابتسامة كالزهرة الذابلة في عود ناضب، وقالت:

\_ستعود الصحة إلى سابق عهدها.

بذلك دعا قلبه. لكن ما هذا الغيم يغشى العين؟ وما هذا الجفاف يسرى في الوجه؟ وما تلك القدرة على إخفاء الألم؟ ذلك كله من أجلك أنت. يا إلهى احفظها برحمتك. وابقها لى، واعطف على بكاء الطفل الذي لا ينقطع!

\_ سماحك معى جعلنى لا أسامح نفسى .

فابتسمت مرة أخرى فيما يشبه العتاب. وجيء بأم سالم لتبخرها، وأم عطية لتعدُّلها

بعض المعاجين، وإبراهيم الحلاق ليحجنها، ولكن أم إحسان استعصت فيما بدا على الشفاء. وقال لها قاسم:

\_وددت لو أفتديك من ألمك.

فأجابت بصوت واهن كالصمت:

\_ لا أصابك سوء.

ثم مردفة:

\_ يا أحب الناس إلى قلبي .

وقال لنفسه: «لمنظرها تسود الدنيا في عيني!»، وقالت هي:

- العاقل مثلك آخر من يعز عليه العزاء.

وجاء زائرون وزائرات، ولكنه ضاق بالمكان ففر إلى سطح البيت. كانت أصوات النساء ترتفع من نوافذ الربوع، واللعنات تختلط بنداءات الباعة في الطريق، وبكاء طفل حسبه لأول وهلة صوت إحسان حتى رأى صاحبه وهو يتمرغ في تراب سطح مجاور. وكان الظلام يهبط وئيدا، وسرب من الحمام يعود إلى برجه، ونجمة وحيدة تومض في الأفق. وتساءل عن معنى النظرة الغريبة التي تلوح في عيني قمر، كأنها لا ترى، وعن اهتزازات جانب فمها غير الإرادية، وعن الزرقة التي تصبغ شفتيها، وعن شعوره البالغ بالانقباض. ولبث ساعات ثم نزل، فقابل سكينة في الصالة حاملة إحسان بين يديها فقالت له همسا:

ـ ادخل على مهل كيلا توقظها.

واستلقى على الكنبة المواجهة للفراش فى ضوء خافت ينبعث من مصباح فوق أرضية الشباك. ولم يكن ثمة صوت فى الحى إلا نواح الرباب، ثم تلاه طاظة الشاعر قائلا: «فقال الجد بهدوء:

رأيت أن أعطيك فرصة لم تتح لأحد ممن في الخارج، وهي أن تعيش في هذا البيت، وأن تتزوج به، وأن تبدأ حياة جديدة فيه.

فتتابعت دقات قلب همام في نشوة من الأفراح، وقال:

\_الشكر لك على نعمتك.

\_ إنك تستحقها .

واختلج نظر الشاب بين جده وبين السجادة، ثم تساءل في إشفاق:

\_وأسرتى؟

فقال الجبلاوي في عتاب:

\_قلت ما أريد بوضوح.

فقال همام باستعطاف:

- إنهم يستحقون رحمتك وعفوك».

وندت عن النائمة حركة لا تخلو من عنف فوثب فوق الكنبة إليها. رأى في عينيها بريقا جديدا حل محل الغيم، فسألها عما بها فهتفت بصوت قوى:

\_إحسان! أين إحسان؟!

غادر الحجرة مسرعا، ثم عاد وفي أثره سكينة حاملة الصغيرة النائمة. وأشارت قمر نحو إحسان فقربتها سكينة إليها حتى لثمت خدها، على حين جلس قاسم على حافة الفراش. ومالت عيناها إليه، ثم همست:

\_ما بي أعظم!

فمال نحوها متسائلا:

\_ماذا تعنين؟

\_ آلمتك كثيرا ولكن ما بي أعظم.

فعض شفته ثم قال:

ـ قمر، أنا حزين لأني عاجز عن تخفيف ألمك!

فقالت بإشفاق:

\_أخاف عليك من بعدي.

فقال في حزن شديد:

ـ لا تتحدثي عني.

\_قاسم، ارحل، الحق بأصحابك، سيقتلونك إن بقيت.

\_نرحل معا.

فقالت بمشقة:

\_ليس الطريق واحدا.

ـ لا تريدين أن ترحميني كما عودتني .

\_آه، كان ذلك في الأيام الماضية!

وبدت كأنها تقاوم ضغطا شديدا فلوحت بيدها. واشتد ميله نحوها حتى امتلأ بأنفاسها. وتلوّت، وامتدت رقبتها كالمستغيثة، وانطلق صدرها في عنف، وزفر حشرجة قاسية، فصاحت سكينة:

\_اجلسها، تريد أن تجلس.

فأحاطها بذراعيه ليجلسها ولكن ندت عنها شهقة كأنها وداع أبكم، وانهار رأسها على صدره. وهرولت سكينة بالطفلة إلى الخارج.

ومن الخارج دوى صوتها يمزق الصمت.

#### AY

وفى الصباح ازدحم بيت قاسم والطريق أمامه بالمعزين. إن لصلات القربى فى الحارة احترامًا متأصلاً لا تحظى بجزء منه شتى الفضائل مجتمعة. فلم يكن بد من أن يجىء سوارس معزيًا، وما أسرع أن أقبل وراءه الجرابيع. ولم يكن بد من أن يجىء الناظر رفعت معزيًا فتبعه على الأثر لهيطة وجلطة وحجاج، وما أسرع أن أقبل وراءهم كل من هب ودب، فانتظمت الجنازة جموعا غفيرة لم تشهد لها الحارة مثيلاً من قبل إلا فى جنازات الفتوات. وتحلى قاسم بصبر الرجل الحكيم على رغم آلامه الدفينة. وحتى فى ساعة الدفن بكت جميع حواسه وجوارحه إلا عينيه. وانصرف المعزون حتى لم يبق فى المدفن إلا قاسم وزكريا وعويس وحسن، وعند ذاك ربت زكريا عضد قاسم وقال بأسى:

ـ شد حيلك يا بن أخي، كان الله في عونك.

فانحنى عوده قليلاً وهو يزفر من الأعماق، وغمغم:

- قلبي دفن في التراب يا عمى .

فتقلص وجه حسن تأثرا، وساد صمت المدفن كأشد ما يكون الصمت. وانتقل زكريا خطوة وهو يقول:

- آن لنا أن نذهب.

لكن قاسم تشبث بموقفه وهو يقول في استياء:

ـ ما الذي جاء بهم؟

ففطن زكريا إلى من يعنى بقوله فقال:

ـ لهم الشكر على أي حال.

فتشجع عويس قائلاً:

- ابدأ معهم من جديد، فهذه الخطوة منهم تتطلب منك خطوات، ومن حسن الحظ أن ما يقال عنك خارج حينا لا يؤخذ مأخذ الجد! فآثر أن يغوص في الصمت والحزن على مجادلته. وإذا بجماعة تقبل على رأسها صادق وكأنما كانوا يرصدون اختفاء المعزين. كانوا كثرة وليس فيهم غريب فعانقوا قاسم حتى دمعت عيناه. وقلب عويس عينيه فيهم بامتعاض ولكن أحدًا لم يباله، وقال صادق مخاطبًا قاسم:

لم يعد ثمة ما يبقيك في الحارة.

لكن زكريا قال معترضًا في حدة:

ـ ابنته و داره وأملاكه هناك.

وقال قاسم بلهجة ذات مغزى:

ـ كان بقائي في الحارة ضروريّا فبفضله ازددتم مع الأيام عددًا!

ونظر إلى الوجوه المتطلعة إليه كأنما يستشهد بكثرتها على صدق قوله. فأكثرهم ممن أغراهم بالهجرة واللحاق بأصحابه حينما كان يتسلل من داره كل ليلة عقب نوم الحارة فيقصد من يأنس فيهم مودة وحسن استعداد للاقتناع بكلامه. وسأله عجرمة:

ـ هل يطول بنا الانتظار؟

ـ حتى يتجمع عندكم عدد كاف.

وانتحى به جانبًا فقبله وهمس له:

- قلبي يتقطع حزنًا لك، فإني أدرى الناس بقسوة فجيعتك.

فعاوده التأثر، وهمس:

- صدقت، ما أقسى الألم!

ورمقه بإشفاق ثم قال:

ـ عجّل باللحاق بنا فإنك اليوم وحيد.

ـ كل شيء رهن بوقته .

وقال عويس بصوت مرتفع:

ـ ينبغي أن نعود.

وتعانق الصحاب مودعين، وعاد قاسم ورفاقه. ومضت الأيام وهو في داره وحيد كئيب حتى خافت عليه سكينة عواقب الحزن. ولكنه واصل جولاته الليلية الخفية بهمة لا تعرف الوهن. ومضى عدد المختفين في النمو وأخذ الناس يتساءلون حياري. واشتدت السخرية بحي الجرابيع وفتوتهم في بقية الحارة، وقالوا: إن نوبة سوارس في الهرب ستجىء اليوم أو غدًا. وقال له عم زكريا ذات يوم محذرًا:

ـ هذه حال تدعو إلى أشد القلق، وتخشى عواقبها.

ولكن لم يكن من الانتظار بد. وكانت أياما مليئة بالعمل والخطر، وكانت إحسان البسمة الوحيدة في وجهها المتجهم. وكانت تتعلم الوقوف معتمدة على أطراف المقاعد ثم تتطلع إليه بوجهها الصافي وتحدثه بلغة العصافير والبلابل. وكان ينعم النظر في وجهها بحنان ويقول لنفسه: ستكون طفلة جميلة ولكن الأهم عندى أن تكون كأمها طيبة وحنانًا. وسرّه أن تطالعه بعينيها السوداوين في وجه قمر المستدير لتظل رمزا باقيا للعلاقة المحبوبة التي مزقها الدهر. وترى هل يمتد به العمر حتى يراها عروسا في الحسان أو كتب عليها ألا تجنى من دار مولدها إلا أليم الذكريات؟

ويوما طرق باب الدار طارق فذهبت سكينة تتساءل من القادم؟ فجاءها صوت يافع فائلا:

ـ افتحى يا سكينة .

فتحت الباب فرأت فتاة في الثانية عشرة أو تزيد، ملفوفة على غير المألوف في ملاءة وعلى الوجه حجاب. دهشت سكينة وسألتها عما تريد، ولكنها سارعت إلى حجرة قاسم وهي تقول بلهوجة:

ـ مساء الخيريا عمى.

ونزعت النقاب فبدا وجه بدري قمحي بديع القسمات، يقطر خفة، فقال قاسم تعجبا:

أهلاً بك، اجلسى، أهلاً وسهلاً.

قالت وهي تجلس على حافة الكنبة:

ـ أنا بدرية، وأرسلني إليك أخي صادق.

فقال قاسم باهتمام:

ـ صادق!

ـنعم.

ورنا إليها مستطلعًا، ثم قال:

ـ ماذا دفعه إلى هذه المخاطرة؟

فقالت باهتمام زادها ملاحة:

ـ لا يمكن أن يعرفني أحد في الملاءة .

وأدرك أن جسمها أكبر من سنها فهز رأسه كالمطمئن فأردفت في مزيد من الاهتمام:

ـ إنه يقول لك أن غادر الحارة فورًا، فإن لهيطة وجلطة وحجاج وسوارس تآمروا على قتلك الليلة . قطب كالمنزعج على حين شهقت سكينة، وسألها:

- ـ كيف علم بذلك؟
- ـ أخبره المعلم يحيى.
- ـ ولكن كيف عرف يحيى ذلك؟
- ـ أفشى سكران السر في حانة كان بها صديق المعلم يحيى. هذا ما قاله أخى.

وجعل ينظر إليها صامتًا حتى قامت وأخذت تحبك الملاءة حول جسدها الغض، فقام بدوره وهو يقول:

ـ أشكرك يا بدرية ، تخفّى جيدًا ، وبلّغي تحياتي إلى أخيك ، واذهبي بسلام .

فأسدلت النقاب على وجهها وتساءلت:

ـ ماذا أقول له؟

ـ خبريه بأننا سنلتقى قبل الصباح.

فصافحته ثم ذهبت.

### ۸۳

اصفرَّ وجه سكينة ونطق بعينيها الذعر ، وهتفت قائلة :

ـ فلنغادر البيت دون إبطاء.

وتوثبت للتحرك فقال لها:

ـ لفّى إحسان وأخفيها في شملتك واخرجي كأنك ذاهبة لبعض شأنك ثم اقصدي مدفن المرحومة وانتظري هنالك .

ـ وأنت يا سيدي؟!

ـ سألحق بك في الوقت المناسب.

فترددت عيناها بين الحيرة والجزع فقال بنبرة مطمئنة:

ـ سيذهب بكما حسن إلى المكان الذي سنقيم فيه.

وفي ثوان تأهبت للرحيل فلثم إحسان مرات، ثم قالت له المرأة وهي تمضى نحو الباب:

ـ استودعتك الحي الذي لا يموت.

ووقف وراء الخصاص يراقب الطريق فرأي الجارية وهي تسير نحو الجمالية حتى غيبها

المنعطف. وجعل قلبه يخفق وهو يرنو إلى ثنية ذراعها حول الحمل الثمين. وأجال بصره في الحي فرأى رجالاً من أعوان الفتوات، بعضهم يجلس بقهوة دنجل والبعض يتسكع هنا وهناك، وتكاد معالمهم تذوب في الظلام الزاحف. الدلائل تقطع بأنهم يتأهبون. ولكن هل يتربصون به حتى يخرج لجولته الليلية إن كان سرها انكشف لهم؟ أو سيطبقون على داره في آخر الليل؟ إنهم ينتشرون منذ الآن على سبيل الحيطة أن يكون سر مؤامرتهم انكشف. وها هم أولاء يدبون في الظلام كالحشرات تفوح من أنفاسهم رائحة الجريمة، فهل يلقى مصير جبل أو مصير رفاعة؟ هكذا وجد رفاعة نفسه في ليلة من الليالي المظلمة. وتوارى في داره بقلب مفعم بالنوايا الطيبة وأسفل الدار تدب أقدام غليظة تنضح جلود أصحابها بشهوة الدم. متى تكفين عن سفك الدماء يا حارتنا التعيسة؟ ومضى يتمشى في الحجرة ذهابا وجيئة حتى طرق الباب وترامي إليه صوت حسن وهو يناديه. وجاء حسن بجسمه الضخم وعيناه تعكسان نظرة قلقة، فقال:

ـ في الحي حركة غريبة . . مريبة . .

فسأله دون اكتراث لملاحظته:

ـ هل عاد عمى من تجواله؟

- كلا، لكنى أقول إنه توجد في حينا حركة مريبة، انظر من شيش الشباك.

رأيت ما أزعجك وعرفت ما وراءه. حذرني صادق في الوقت المناسب بإرسال أخته الصغيرة إلى ، وإذا صدقت رسالته فالفتوات سيحاولون قتلى الليلة ، لذلك هربت إحسان مع سكينة وهما ينتظرانك في مدفن المرحومة ، فاذهب إليهما وسيروا جميعًا إلى مقر إخواننا.

ـ وأنت؟

ـ سوف أهرب بدوري وألحق بكم.

فقال حسن بعزم:

ـ لن أتركك وحدك.

فقال برجاء لم يخل من استياء:

- افعل ما قلت لك دون تردد، سأهرب بالحيلة لا بالقوة، ولن تنفعني قوتك إذا ألجأتنا الظروف إلى المقاومة، ولكن ذهابك سيحمى ابنتي، ويمكنك من أن تضع بعض رجالنا على رءوس الطرق من الجمالية حتى الجبل لعلهم يهبون إلى مساعدتي إن احتجت لهم عند الهرب.

أذعن حسن لإرادته، فصافحه بقوة وقال:

ـ ليس كمثل عقلك شيء، فلعلك أعددت للأمر عدته.

فأجابه بابتسامة مطمئنة، وذهب حسن بوجه عابس. ولم يمض طويل وقت حتى جاء عم زكريا وهو يلهث، فأيقن أنه عائد من عند المعلم يحيى بالخبر فبادره قائلا:

- أرسل إلى صادق بالخبر.

فقال الرجل باضطراب ظاهر:

ـ علمت به منذ قليل لدي مروري بالمعلم فخشيت ألا يكون بلغك.

فأجلسه قاسم وهو يقول كالمعتذر:

- اعف عما أسبب لك من متاعب.

- كنت أتوقع هذا من زمن، ووجدت من سوارس تغيرا في المعاملة فرحت أكذب نفسى، ورأيت اليوم الشياطين منتشرين كالجراد، وأنت وحيد ويتعذر عليك الهرب.

فاشتد عوده في تصميم وهو يقول:

ـ سأحاول، وإذا فشلت فهناك في الجبل رجال لا يغلبون.

فقال زكريا في ضجر:

ـ ما قيمة هذا كله بالنسبة لحياتك أو طفلتك!

فقال قاسم معاتبًا:

- إنى أعجب كيف لم تكن على رأس أعواني!

فقال وكأنه لم يسمع قوله:

ـ تعال معي إلى سوارس نساومه ونتعهد له بما يشاء!

فضحك قاسم ضحكة مقتضبة ، سخرت من اقتراح عمه دون كلام . والتفت زكريا إلى الشيش يطالع من خلاله الطريق فبدا مظلما مخيفا . وانتبه على صوت قاسم وهو يتساءل :

ـ لماذا اختاروا الليلة بالذات؟

فأجاب زكريا:

- أول أمس جهر رجل من جبل بأن قضيتك كانت لخير الجميع، وقيل مثل ذلك عن رجل من رفاعة، فلعل ذلك ما دفعهم إلى التعجيل.

فتهلل وجه قاسم وقال:

- أرأيت يا عمى؟ أنا عدو الناظر والفتوات ولكنى صديق حارتنا، وسيعلم الجميع ذلك.
  - ـ فكر الآن فيما ينتظرك.

فقال قاسم باهتمام:

ـ إليك خطتي، سأهرب عبر الأسطح حتى بيتك تاركا مصباحي مضاء للتضليل.

ـ قد يراك أحد.

ـ لن أشرع في الهرب حتى تخلو الأسطح من السمار.

- وإذا سبقوا بالهجوم على دارك؟

ـ لن يقع هذا حتى تنام الحارة.

ـ قد يبلغ بهم الاستهتار حدا لا تتصوره.

فقال باسمًا:

ـ في هذه الحال أموت، ومنذا يدفع الأجل؟

فرفع الرجل إليه وجها ينطق بالرجاء لكنه طالع ابتسامة هادئة ثابتة كأنها التصميم مجسدا فقال يائسا :

ـ قد يفتشون داري.

ـ من حسن الحظ أنهم لا يعلمون بتسرب مؤامرتهم إلينا، ولذلك سأسبقهم إلى الهرب إن شاء الله .

وتبادلا نظرة طويلة، أفصح من الدمع، ثم تعانقا. ولما وجد نفسه وحيداً تغلب على تأثره واقترب من النافذة يراقب الطريق. بدا الحي في حياته المألوفة. فالصغار يلعبون حول مصابيح العربات، والقهوة تعج بالسمار، والأسطح تضج بأحاديث النساء؛ وسعال المدخنين يتخلله الفحش والسباب، ونواح الرباب يرتفع، وهذا سوارس رابض على عتبة القهوة، ورسل الموت تحتل الأركان. يا سلالة الخيانة ويا لصوص البشر. منذ أطلق إدريس ضحكته الباردة وأنتم تتوارثون الجريمة وتغرقون الحارة في بحر من الظلمات. ألم يئن للطير الحبيس أن ينطلق؟

ومضى الوقت وئيداً ثقيلاً، ولكنه حمل ليل السمار إلى غايته. صمتت الأسطح، وخلا الطريق من العربات والصغار، وأقفرت المقاهى، وعلت إلى حين أصوات الأشباح العائدة، ورجع من الجمالية السكارى وهم يهلوسون، حتى الغرز أطفأت المجامر، ولم يبق فى الظلام إلا ندامى الموت. وقال لنفسه: «حان وقت العمل». وسارع إلى السلم فرقاه إلى السطح. ومضى إلى السور الفاصل بين سطحه والسطح الملاصق فعبره دون عناء وهم بالجرى وإذا بشبح يعترضه قائلا: «قف»! فأدرك أن الأسطح محتلة بالقتلة وأن حصاره أحكم. واستدار ليرجع ولكن الآخر وثب نحوه وأحاطه بذراعين قويتين. واستدعى قوته التى ضاعفها الخوف وفاجأه بضربة فى بطنه ففك حصار ذراعيه، وثنى بركلة فى بطنه أيضا فسقط وهو يشهق ثم لم يقم. وجاءت سعلة مكتومة من السطح بركلة فى بطنه أيضا فسقط وهو يشهق ثم لم يقم. وجاءت سعلة مكتومة من السطح

الثالث أو الرابع جعلته يعدل عن التقدم فتراجع مضطربا إلى سطحه. وقف عند السلم يتنصت فسمع وقع أقدام صاعدة! وتكتل الصاعدون أمام باب شقته. وخبطوا الباب خبطة شديدة فانفتح وهو يكاد يقتلع، ثم تدافعوا إلى الداخل. وهبط مسرعا دون أن يضيع ثانية حتى انتهى إلى الحوش. وسارع إلى الباب. ولمح خارج الدار شبحا يتحرك فانقض عليه قابضا على عنقه، ثم نطحه برأسه، وطعن بطنه بركبته، ودفعه فاستلقى على ظهره دون حراك. واندفع نحو الجمالية وضربات قلبه تتلاحق. الآن تبين لهم خلو الدار، ولعل بعضهم يصعد إلى السطح ليعثر على صاحبهم الملقى، ولعل الآخرين يهبطون في أعقابه. مر بربع عمه دون أن يتوقف، ولما اقترب من نهاية الحارة أطلق ساقيه. وعند اتصال الحارة بالجمالية وثب شبح في طريقه وصاح بصوت كالرعد لينبه الآخرين: «قف يا بن اللئيمة». ورفع نبوته قبل أن يحيد قاسم عن طريقه. ولكن شبحا أخر ظهر من زاوية المنعطف وضرب الشبح الأول بهراوته على رأسه فهوى صارخا، ثم قال لقاسم:

ـ فلنجر بكل ما فينا من قوة .

وانطلق قاسم وحسن يجريان في الظلام دون مبالاة بما قد يعترضهما من حجر أو نقرة .

# ٨٤

عند مدخل حارة الوطاويط انضم صادق إليهما. وعند نهايتها وجدوا عجرمة وأبو فصادة وحمروش حول عربة كارو ذات أربع عجلات، فاستقلوها مبادرين وانطلق الجواد بها يلهبه سوط الحوذى. انطلقت العربة بسرعة على رغم الظلام، محدثة في سكون الليل صوتا مزعجا كالفرقعة المتواصلة، وهم يتلفتون إلى الوراء من خشية وتوجس. وقال صادق جلبا للطمأنينة:

ـ سيجرون نحو باب النصر ظنا بأنك تلوذ بالخلاء حول المقابر .

فقال قاسم بارتياب:

ـ لكنهم يعلمون أنكم لا تقيمون عند المقابر .

غير أن سرعــة العربــة بــدت حــاسمة، وبفضلها غلب شعور بأنهــم يبتعدون حقا عن الخطر. وعاد قاسم يقول في شيء من الارتياح :

ـ أحسنتم التنظيم والتدبير ، وشكرا لك يا صادق فلولا تحذيرك لكنت الساعـة في الهالكين . فشد صادق على يده فى صمت. وتواصل اندفاع العربة حتى لاح سوق المقطم على ضوء النجوم، يلفه الظلام والوحشة عدا نور مصباح ينبعث من كوخ المعلم يحيى. وعن حذر أوقفوا العربة وسط الميدان، ثم تركوها متجهين نحو الكوخ. وما لبث أن جاءهم صوت المعلم متسائلاً عن القادمين فأجابه قاسم، فارتفع صوته مرة أخرى بالحمد. وتعانق الرجلان عناقا حارا، وقال له قاسم:

- إنى مدين لك بالحياة.

فقال العجوز ضاحكًا:

- إنها المصادفة وحدها! لكنها وقعت لتنقذ رجلا هو أول من يستحق الحياة، أسرعوا إلى الجبل، فالجبل خير حصن لكم.

وشد قاسم على يده، ونظر على ضوء المصباح إلى وجهه في مودة وامتنان، فعاد العجوز يقول:

ـ اليوم أنت كرفاعة أو كجبل، وسوف أعود إلى حارتنا عندما يقيض لك النصر.

ابتعدوا عن الكوخ شرقا يوغلون في الخلاء نحو الجبل. وتقدمهم صادق إذكان أخبرهم بالطريق. وكانت ثمة رقة تمازج الظلام مبشرة بالفجر. والسماء تقطر ندى رطيبا. وترامى من بعيد صياح الديكة كصرخة المخاض لمولد يوم جديد. وبلغوا السفح فساروا بحذائه نحو الجنوب حتى عثروا على الممر الضيق الذي يصعد إلى مقامهم الجديد فوق الجبل. وصعدوا وراء صادق في طابور فردًا فردًا لضيق الممشى. وقال صادق لقاسم:

ـ أعددنا لك دارًا وسط ديارنا، وفيها الآن تنام إحسان.

فقال عجرمة:

ـ بيوتنا من الصفائح والخيش.

فقال حسن في مرح:

ـ ليست أسوأ كثيرًا من بيوتنا في الحارة!

فقال قاسم:

ـ حسبنا ألا نجد بيننا ناظرًا أو فتوة.

وهبطت إليهم أصوات فقال صادق:

- حارتنا الجديدة مستيقظة تنتظرك.

ورفعوا الرءوس فرأوا خيوط الضياء الأولى تطارد فلول الظلام. وصاح صادق بأعلى صوته: «هُوه» فأطلت رءوس رجال ونساء، وتعالى الهتاف والزغاريد، وانطلقت الحناجر تنشد:

## يا محنى ديل العصفورة

فاستخف قاسم الابتهاج وقال بإكبار:

ـ ما أكثرهم!

فقال صادق بفخار:

ـ حارة جديدة فوق الجبل، سكانها يتزايدون مع الأيام، وقد انضم إلينا بإرشاد المعلم يحيى جميع المهاجرين من حارتنا.

وقال حمروش:

ـ لا يتعبنا إلا أننا نسعى إلى أرزاقنا في الأحياء البعيدة خشية أن يعثر علينا أحد من حارتنا.

ولما صعد قاسم إلى السطح تلقاه الرجال بالعناق، وصافحته النساء، وارتفعت الأصوات بالتحيات والتهليل والتكبير، وكانت سكينة بين المستقبلين فأخبرته بأن إحسان نائمة في الكوخ الذي أعد لهم داراً. وساروا جميعاً نحو الحارة الجديدة التي أقيمت على هيئة مربع من الأكواخ فوق مسطح من الجبل، وهم يهللون وينشدون، وقد ابتهج الأفق بالنور المتدفق كأنه بحيرة من الورد الأبيض. وهتف رجل:

ـ أهلا بفتوتنا قاسم .

فتغير وجه قاسم وصاح مغضبًا:

ـ ألا لعنة الله على الفتوات جميعا، فلا سلام ولا أمان حيث يوجدون.

وتطلعت إليه الوجوه الجديدة فقال:

- سنرفع النبابيت كما رفعها جبل، ولكن في سبيل الرحمة التي نادي بها رفاعة، ثم نستغل الوقف لخير الجميع حتى نحقق حلم أدهم. هذه هي مهمتنا لا الفتونة.

ودفعه حسن برفق نحو الكوخ الذي أعد له وهو يقول مخاطبا الجميع:

ـ مضى الليل دون أن يغمض له جفن فدعوه الآن ليأخذ بعض حقه من الراحة .

استلقى قاسم على خيشة جنب ابنته وسرعان ما استغرق فى النوم. واستيقظ فيما بين الظهيرة والعصر برأس مثقل وجسد متعب. وجاءته سكينة بإحسان فوضعها فى حجره وراح يلثمها فى حنان. وقدمت له المرأة كوز ماء وهى تقول:

ـ هذا الماء يحمل إلينا من الحنفية العمومية كما كانت تحمله زوجة جبل!

فابتسم الرجل، وكان يحب كل ما يربطه بذكريات جبل أو رفاعة. وألقى نظرة على داره الجديدة فرأى جدرانا مغطاة بالخيش ولا شيء بعد ذلك، فضم إحسان إلى صدره بحنان أكثر. ونهض قائما فأعطى سكينة ابنته وغادر الكوخ ليجد صادق وحسن في

انتظاره، فجلس بينهما وهم يتبادلون تحية الصباح. وألقى نظرة على الحارة فلم تقع عينه إلا على امرأة أو طفل، فقال صادق موضحًا:

ـ ذهب الرجال إلى السيدة وزينهم سعيًا وراء الأرزاق وتخلفنا نحن حتى نطمئن عليك .

وتابعت عيناه النسوة العاملات في الطهى أو الغسل أمام الأكواخ، والأطفال اللاهين هنا وهناك، ثم تساءل:

ـ ترى هل هن راضيات؟

فقال صادق:

- إنهن يحلمن بامتلاك الوقف والنعيم الذي تهنأ به أمينة هانم حرم الناظر!

فابتسم ابتسامة عريضة ثم ردد بصره بينهما في بطء وتساءل:

ـ ماذا يدور في رأسيكما عن الخطوة التالية؟

فرفع حسن رأسه فوق منكبيه العريضين وقال:

ـ نحن على بينة مما نريد.

ـ ولكن كيف؟

ـ ننتهز غفلة ثم نهجم.

لكن صادق قال معترضا:

ـ بل نصبر حتى نضم إلينا أكبر عدد من أهل حارتنا ثم نهجم فنضمن النصر من ناحية وقلة الضحايا من ناحية أخرى .

فهتف قاسم وأساريره تنبسط:

أحسنت!

وشملتهم طمأنينة حالمة، وإذا بصوت يقول في استحياء:

ـ الطعام!

فرفع قاسم عينيه فرأى بدرية حاملة إناء فول وأرغفة وهي ترنو إليه بعينين باسمتين فما ملك أن ابتسم قائلا:

ـ أهلا برسول الحياة إلىّ.

فوضعت الإناء بين يديه وهي تقول:

ـ أطال الله عمرك.

وذهبت إلى كوخ صادق فيما يلى كوخه. وداخلت نفسه رقة ورضا فتناول طعامه بشهية. وفي أثناء ذلك قال:

ـ لدى قدر من المال لا بأس به سينفعنا عند الحاجة.

ثم مردفا بعد قليل:

علينا أن نقتاد كل من نأنس فيه استعدادا إلى مشاركتنا من أهل حارتنا، وما أكثر المظلومين الذين يتمنون لنا النصر ولا يقعدهم إلا الخوف!

وما لبث أن ذهب الرجلان إلى حيث سبقهم الآخرون فوجد نفسه وحده. وقام فمضى يتجول في المكان كأنما يتفقده. مر بأطفال لاعبين فلم يلتفت إليه أحد منهم. أما النساء فكن يحيينه بالدعاء. واستوقفت نظره عجوز بالغة في الكبر، ذات رأس مكلل بالبياض الناصع، وعينين تغشاهما سحابة الهرم، وذقن متقلقل كأنها تزدرد لحييها، فاقترب منها محييا فردت التحية بالدعاء فسألها:

ـ من أمى؟

فأجابت بصوت كخشخشة الأوراق الجافة:

ـ أم حمروش.

ـ أهلا بأمنا جميعًا، كيف هان عليك أن تهجري حارتنا؟

ـ أطيب المكان ما يوجد فيه ابني .

ثم كالمستدركة:

ـ والبعد عن الفتوات غنيمة.

ثم تشجعت بابتسامته فقالت:

ـ رأيت رفاعة وأنا شابة!

فسألها باهتمام:

ـ حقا؟

ـ نعم وحیاتك، كان لطیفا جمیلا، ولكن لم یجر لي في خاطر أنه سیكون عنوان حي وحكایة من حكایات الرباب.

فسألها باهتمام متزايد:

ـ ألم تقصديه كالآخرين؟

ـ كلا، لم يكن يدرى بنا في حينا أحد، ولا كنا ندرى بأنفسنا، ولولاك ما جرى ذكر للجرابيع على لسان.

وتفحصها بغرابة. وتساءل ترى كيف يكون جدنا اليوم؟! لكنه ظل يبتسم لها برقة فدعت له طويلاً حتى ذهب. وواصل المشى حتى وقف عند رأس الممشى على حافة الجبل. ألقى نظرة على الخلاء أسفل ثم مد البصر نحو الأفق. تراءت على البعد القباب والأسطح كأنها ملامح متباعدة في كائن واحد. وقال إنه ما ينبغي أن تكون إلا شيئا واحدا. وهذا الشيء ما أصغره من عل! فلا معنى للناظر رفعت ولا للفتوة لهيطة. ولا فرق هنا بين رفعت وعمه زكريا. ومن العسير أن تهتدى من موقفك إلى الحارة المثيرة المتاعب، لولا بيت الواقف الذي يبدو أنه يميز من أى موقع. بيت جدنا بسوره العجيب وأشجاره العالية. لكنه طعن في السن وخفت خشيته كهذه الشمس المائلة نحو الأفق. أين أنت؟ وكيف أنت؟ ولم تبدو وكأنك لم تعد أنت؟ المزيفون لوصيتك على بعد أذرع من منزلك. وهولاء النسوة والصغار المبعدون في الجبل أليسوا أقرب الناس إلى قلبك؟ ستعود إلى مكانت عندما تنفذ شروط وقفيتك دون اغتيال ناظر أو اعتداء فتوة. كعودة الشمس غدا إلى كبد السماء. ولو لاك ما كان لنا أب أو حارة أو وقف أو

وأيقظه من تهويمته صوت عذب يقول:

- القهوة يا معلم قاسم.

التفت وراءه فرأى بدرية باسطة راحتها بالفنجال فتناوله قائلا:

ـ لمَ التعب؟

ـ تعبك راحة يا سيدي.

وترحم على قمر . وراح يحسو القهوة في رفق . وبين الحسوة والحسوة تلتقى عيناهما في ابتسامة . ما ألذ القهوة عند طرف الجبل فوق الخلاء!

ـ ما عمرك يا بدرية؟

فثنت شفتيها داخل فيها ثم غمغمت:

- لا أدرى.

ـ لكنك تدرين بما جاء بنا إلى الجبل؟

فترددت في استحياء ثم قالت:

ـ أنت!

\_أنا؟!

ـ تريد أن تضرب الناظر والفتوات وتجعل الوقف لنا، هذا ما يقول أبي.

فابتسم. وانتبه إلى أنه أتى على ما في الفنجال لكنه سها عن رده، فرده إليها وهو يقول:

ـ ليت عندى من الشكر بعض ما تستحقين .

فاستدارت باسمة موردة وجرت، فتمتم قائلا:

ـ تصحبك السلامة.

# ۸٥

وكان وقت الأصيل هو وقت التحطيب فينبرى الرجال لممارسة التمرينات الشاقة بالنبابيت. ويبدأ ذلك عقب عودتهم بنقود قليلة وطعام بسيط بعد يوم شاق كادح ينقضى سعيا وراء الرزق، هكذا يعودون نساء ورجالا. وكان قاسم أول المتبارين. وكم سره أن يرى حماسة رجاله وتوثبهم لليوم العصيب. أشداء بين الرجال ولكنهم يكنون له من الحب ما لم تعرفه حارتهم الممزقة بالبغضاء. وترتفع النبابيت وتتهاوى وتتلاقى فى ارتطامات شديدة، ويتفرج الغلمان ويقلدون، على حين تخلد النساء إلى الراحة أو يعددن العشاء. وصف الأكواخ يمتد طولا بما ينضم إلى الحارة الجديدة من رجال جدد. وأثبت صادق وحسن وأبو فصادة أنهم صيادون مهرة. كانوا يرصدون رجالا من الحارة في مظانهم ولا يزالون بهم حتى يقنعوهم بالانضمام إليهم فيهجروا الحارة خفية وراء أمال لم تشتعل من قبل في صدورهم. وكان صادق يقول لقاسم:

ـ لا أضمن مع هذا النشاط ألا يهتدى أعداؤنا إلى مقرنا.

## فيقول له:

ـ لا سبيل إلينا إلا خلال الممر الضيق، وسيكون الهلاك نصيبهم إذا جاءوا منه.

وكانت إحسان هى سعادته الباقية ، حين يلاعبها وحين يهدهدها وحين يناغيها ، لكنها لم تكن كذلك حين تذكره بالراحلة فتطبق عليه الوحشة وتلفحه أنفاس الحنين . تلك التى خطفت من بين يديه فى أول الطريق ، فتركته فريسة للوحشة كلما خلا إلى نفسه ، وأحيانا للندم كما حدث عند حافة الجبل ، عند حافة الجبل يوم القهوة ، أو يوم النظرة الرقيقة كنسمة العصارى .

وذات ليلة حرن النوم أمام عينيه فوقع صيدا معذبا للوحشة والأرق في ظلمة الكوخ، فقام من فراشه وانطلق خارجا. ومضى في الساحة بين الأكواخ تحت النجوم الساهرة يستقبل هواء منعشا، هواء الصيف عند منتصف الليل فوق الجبل. وإذا بصوت يناديه ثم تساءل صاحبه:

- ـ إلى أين أنت ذاهب في هذه الساعة من الليل؟
- فالتفت وراءه فرأى صادق وهو يقترب منه، فسأله:
  - ـ ألم تنم بعد؟
- ـ لمحتك وأنا راقد أمام الكوخ، وأنت أطيب عندي من النوم.

وسارا جنبا إلى جنب حتى حافة الجبل، فوقفا هنالك وقاسم يقول:

ـ الوحدة أحيانا لا تطاق.

فقال صادق ضاحكا:

ـ تبا لها في جميع الأحيان.

ومدا البصر نحو الأفق فبدت الدنيا سماء متلألئة فوق أرض غارقة في الظلام. وعاد صادق يقول:

ـ أكثر رجالك أزواج أو ذوو أهل فهم لا يعرفون الوحشة.

فتساءل قاسم كالمستنكر:

ـ ماذا تعني؟

ـ مثلك لا يستغنى عن امرأة .

واشتد الاحتجاج في صوته بقدر ما استشعر في قول الرجل من صدق، فتساءل:

ـ أتزوج بعد قمر؟!

فقال الرجل بإيمان:

ـ لو استطاعت أن تسمعك صوتها لأعادت على مسمعك رأيي.

واضطرب قاسم وجاش بالانفعال صدره، وقال وكأنه يخاطب نفسه:

- كأنها الخيانة بعد الحب والرعاية.

ما أغنى الأموات عن إخلاصنا!

ماذا يعنى الرجل الطيب؟ يقرر الصدق أم يبرر الهوى؟ ولكن للحقيقة طعما مرا فى بعض الأحوال. وأنت نفسك لا تواجه نفسك بالصراحة التى واجهت بها الأوضاع فى حارتك. والذى سوى هذه الأمور فى عالمك هو الذى سوى هذه النجوم فى السماء. والحق الذى لا مرية فيه أن قلبك يخفق كما خفق أول مرة. وتنهد بصوت مسموع فقال صادق:

- أنت أول من يحتاج إلى أنيس.

ولما رجع إلى كوخه لمح سكينة واقفة عند الباب فتطلعت إليه كالمتسائلة وهي تقول بقلق:

ـ لمحتك خارجا حين كنت أظنك في عز النوم!

فقال دون تمهيد لشدة ضغط أفكاره على رأسه:

- انظرى إلى صادق كيف يحضني على الزواج؟!

فقالت سكينة كأنما تتلقف فرصة من السماء:

ـ و ددت أن أسبقه!

**۔ أنت؟!** 

- نعم يا سيدى، شد ما يحز في قلبي أن أراك جالسا وحدك مستسلمًا للوحشة والفكر.

فأشار بيده إلى الأكواخ النائمة وقال:

ـ جميع هؤلاء معي.

ـ نعم ولكن لا أحد لك في دارك وأنا عجوز ، رجل فوق الأرض ورجل في القبر .

وشعر بأن تلبثه دليل تقبل لما تريد، ولكنه مع ذلك لم يدخل إلى كوخه وقال في نبرة رثاء:

ـ لن أجد زوجة مثلها!

ـ هذا حق، ولكن توجد بنات يبشرن بالسعد!

وتبادلا نظرة خلال الظلام، أردفت بهنيهة صمت، ثم تمتمت الجارية:

- بدرية! ما ألطفها من فتاة!

فقال بدهشة تعدل خفقة قلبه:

- البنت الصغيرة؟!

فقالت وهي تداري ابتسامة ماكرة:

ـ ما أنضجها وهي تقدم الطعام أو القهوة!

فتحول عنها وهو يقول:

ـ يا شيطانة! لعنة الله على سلالتك!

وكان للخبر رنة فرح في حارة الجبل جميعا. كاد صادق أن يرقص. وزغردت أمه حتى أسمعت الخلاء. وانهالت التهاني على قاسم. واحتفلت الحارة بالزفاف دون استدعاء لأحد من المحترفين، فرقصت نساء من بينهن أم بدرية. وغنى أبو فصادة بصوت مليح:

# أنا كنت صياد سمك وصيد السمك غية

وسارت الزفة حول الأكواخ مستضيئة بأنوار السماوات. وانتقلت سكينة بإحسان إلى كوخ حسن على حين خلاكوخ قاسم للعروسين.

## ۲۸

لذ له حقا أن يراقب من مجلسه على الفروة أمام الكوخ - بدرية وهي تعجن . هي صغيرة بلا جدال ولكن أي امرأة تفوقها في النشاط وتدبير الشئون؟! وتمطت من جهد ، وبظهر راحتها رفعت ما تهدل من شعرها فوق الجبين ، فبدت فاتنة غازية لسويداء القلب . وم تورد وجهها عن إحساسها بمتابعة عينيه حتى توقفت في دلال ، فضحك بسرور ومال نحوها فتناول ضفيرتها وقبلها مرارا ثم عاد إلى جلسته . وكان سعيدا خالى البال كشأنه في الأويقات التي يعتزل فيها أصدقاءه وأفكاره ، وعلى بعد يسير مضت إحسان تتنقل من موضع إلى موضع على مرمى النظر من سكينة الرابضة فوق حجر . وتعالت ضجة عند رأس الممر . رأى صادق وحسن وبعض الأصدقاء قادمين نحوه حول رجل عرف فيه خردة الزبال من حي رفاعة فوقف من فوره لاستقبالهم على حين زغردت نساء كما يفعلن كلما انضم إلى الجبل رجل جديد من أهل الحارة . وعانقه والرجل يقول:

- إنى معكم، وجئت معى بنبوت!

فقال له هاشا باشا:

ـ أهلا بك يا خردة، نحن لا نفرق بين حي وحي، فالحارة حارتنا، والوقف للجميع. فضحك الرفاعي قائلا:

ـ يتساءلون عن مكانكم ويتوقعون من ناحيتكم شرا، ولكن قلوبا كثيرة تتمنى لك النصر.

وألقى نظرة على ما حوله فشملت الأكواخ والناس ثم قال بإعجاب:

ـ كل هؤلاء معك؟!

وقال صادق:

ـ جاء خردة بخبر مهم.

فحدجه قاسم بنظرة متسائلة فقال خردة:

- اليوم يتزوج سوارس للمرة الخامسة. وستسير زفته هذه الليلة.

فقال حسن بحماس:

ـ هذه فرصة لا تتكرر للقضاء عليه.

وتحمس الرجال. وقال صادق:

ـ سنهجم يوما على الحارة، فكلما تخلصنا من فتوة جاء الهجوم أيسر عناء وأضمن نتجة.

وتفكر قاسم مليا ثم قال:

ـ سنهاجم الزفة كما يفعل الفتوات، ولكن اذكروا دائما أننا نهاجم للقضاء على الفتونة.

وقبيل منتصف الليل تجمع الرجال عند حافة الجبل، ثم مضوا يهبطون رجلا رجلا وراء قاسم وأيديهم قابضة على نبابيتهم. كانت السماء صافية، والبدر يحتل منها الكبد، ونوره يضفى على الدنيا وشى الأحلام. وانتهوا إلى الخلاء فاتجهوا ناحية الشمال من وراء سوق المقطم ثم ساروا بحذاء الجبل حتى لا يضلوا الطريق. ولما اقتربوا من صخرة هند أقبل نحوهم شبح رجل كان يتجسس لهم الأخبار فقال لقاسم:

ـ ستسير الزفة نحو باب النصر.

وتعجب قاسم قائلا:

ـ لكن زفاتنا تسير عادة نحو الجمالية .

فقال خردة:

ـ لعلهم يبتعدون عن الأماكن التي يظنون مقامكم قريبا منها!

وفكر قاسم بسرعة ثم قال:

ـ سيذهب صادق وبعض الرجال إلى ما وراء بوابة الفتوح، ويمضى عجرمة وآخرون إلى خلاء باب النصر، وعندما أنا وحسن وبقية الرجال وراء باب النصر، وعندما أدعوكم إلى الهجوم اهجموا.

وبدأ الرجال ينقسمون جماعات، وقبل أن يهموا بالرحيل قال:

ـ ركزوا الضرب على سوارس وأعوانه، أما الآخرون فسيكونون إخوانكم غدا.

ومضت كل جماعة في طريقها وأوغل هو وحسن ومن معهما شمالا بحذاء الجبل، ثم عدلوا إلى اليسار في طريق القرافة حتى كمنوا وراء البوابة. وكان هو ورجاله يحاصرون الطريق، فصادق يتربص يمينا، وعجرمة يتوثب يسارا، وهو يكمن وراء البوابة. وقال حسن:

ـ ستتجمع الزفة في قهوة الفلكي.

فقال قاسم:

ـ علينا أن نهاجمها قبل الوصول إلى القهوة كيلا نعتدى على قوم لا شأن لنا بهم . ولبثوا في الظلام ينتظرون وقد توترت منهم الأعصاب . وبغتة قال حسن :

ـ شد ما أذكر مقتل شعبان.

فقال قاسم:

ـ للفتوات ضحايا لا يحصيهم العد.

وأرسل صادق صفيرا وتبعه عجرمة فاشتدت عزيمتهم وقال حسن:

- إذا هلك سوارس تسارع أهل حينا إلينا.

ـ وإذا جاء الآخرون للقضاء علينا أهلكناهم في الممر .

هذه الأحلام مثل ضوء القمر. وما هي إلا ساعة حتى يتقرر النصر لهم أو تتبخر الآمال مع أرواحهم المهدرة. وخيل له أنه يرى شبح قنديل، وأنه يسمع نبرة قمر، وكأن دهرًا مضى مذكان يرعى الغنم. وشدت قبضته على نبوته وقال لنفسه: لا يمكن أن ننهزم. وسمع حسن وهو يسأله:

-ألا تسمع؟

وأرهف السمع قليلا حتى التقط أصداء من أنغام فقال:

- استعدوا، الزفة قادمة.

وأخذت الأصوات تقترب، وتتضح، ثم ترامى الزمر والطبل، وتعالت الآهات، وأطبق التهليل. ثم على ضوء المشاعل بدت الزفة وهى تتقدم، وتراءى سوارس للعين وسط هالة من الراقصين اللاعبين بالنبابيت. وتساءل حسن:

ـ أصفر لعجرمة؟

فقال قاسم بثبات:

ـ عندما تصل طليعة الزفة إلى وكالة الثوم.

واستمر تقدم الزفة، واشتد الرقص واللعب. وأخذ راقص بنشوة الرقص فجعل يثب في الهواء ثم يدور أمام الزفة في سرعة رشيقة راسما دائرة متموجة، والنبوت يدور مرتكزا على راحته المرفوعة فوق رأسه كالمروحة، ومضى يتقدم خطوة عقب كل دورة حتى جاوز وكالة الثوم والزفة من ورائه تتقدم في بطء شديد حتى بلغ رأسها الوكالة. عند ذاك صفر حسن ثلاثا. فهبط عجرمة ورجاله من عطفة الطماعين وانقضوا على مؤخرة الزفة تسبقهم نبابيتهم فاجتاح الاضطراب صفوفها وارتفع صراخ الغضب والخوف. وصفر حسن ثلاثا مرة أخرى فاندفع صادق ورجاله من السماكين على وسط الزفة من الناحية الأخرى قبل أن تفيق من الهجمة الأولى. وفي الحال هجم قاسم ورجاله من تحت البوابة على مقدمة الزفة هجمة رجل واحد.

استرد سوارس ورجاله أنفسهم من شرك المفاجأة فرفعوا النبابيت واشتبكوا في معركة

مريرة. وتطاير كثيرون من المسالمين فلاذوا بالحوارى والأزقة. واشتد ارتطام النبابيت. وسالت الدماء من الأوجه والرءوس. وتحطمت كلوبات وتناثر الورد فطحنته الأقدام. وانطلق الصوات من النوافذ وأغلقت المقاهى أبوابها. وضرب سوارس بقسوة، وبخفة، فانطلق نبوته كالمجنون، مرة في هذه الناحية ومرة في تلك. واشتد الضرب وتكاثف الحقد كقطع الليل. ووجد سوارس نفسه بغتة أمام صادق فصرخ:

ـ يا بن النجسة!

ووجه إليه ضربة فتلاقت مع ضربة وجهها صادق الذي ارتج وترنح. ورفع سوارس نبوته وهوى به مرة أخرى عليه فتلقاه بنبوته المرتكز على قبضته، غير أنه سقط على ركبتيه من شدة الصدمة. وهم بتوجيه الضربة الثالثة والقاضية، لكنه لمح حسن منقضا عليه كالوحش لإنقاذ صاحبه فتحول نحوه وهو يطفح بالغضب صائحا:

- وأنت أيضا يا بن زكريا! يا بن الزانية.

وأطلق نحوه ضربة هائلة، لو لم يتفاد منها بوئبة جانبية لهلك، ثم طعن سوارس فى أثناء وثوبه برأس نبوته فأصاب عنقه. عطلت الطعنة سوارس لحظات عن تسديد الضربة التالية، فسيطر حسن على توازنه ووجه ضربة شديدة بقوته الخارقة فأصابت جبهة سوارس، وفجرت نافورة من الدم، وسرعان ما تراخت قبضته عن نبوته فهوى، وتراجع خطوات مترنحة، ثم سقط على ظهره دون حراك، وعلا على أصوات النبابيت المتلاطمة صياح رجل:

ـ سوارس قتل!

فأدركه عجرمة بضربة نبوت فوق أنفه فصرخ، وتراجع فعثر بطريح فسقط. وقويت عزيمة رجال قاسم فاشتدت ضرباتهم، وتخاذل رجال سوارس، وهالتهم كثرة الساقطين من رجالهم فتقهقروا، ثم أسلموا أرجلهم للفرار. وأخذ رجال قاسم في التجمع حوله وهم يلهثون، البعض تسيل دماؤهم، والبعض يحملون جرحاهم. ونظروا صوب الأرض على ضوء الفوانيس الصادر من شراعات أبواب المقاهى أجسادا مطروحة، منها ما لقى حتفه ومنها ما راح في غيبوبة. ووقف حمروش فوق ظل سوارس وهتف:

ـ ليطمئن جثمانك يا شعبان!

فجذبه قاسم إلى جانبه وقال:

ـ يوم النصر قريب، يوم يلقى بقية الفتوات نفس المصير، يوم نصبح سادة حارتنا وأصحاب وقفنا وأحفادا بررة لجدنا.

وعند عودتهم إلى الجبل استقبلتهم النساء بالزغاريد، وجرت مع الهواء أنباء النصر . وآوي قاسم إلى كوخه وبدرية تقول له : ـ عليك غبار كثير ودم، يجب أن تستحم قبل النوم.

ولما استلقى عقب الاستحمام تأوه من الألم. وأتت له بطعام وانتظرت أن يجلس ليتناوله، ولكن استولت عليه حال بين اليقظة والمنام. وشعر بارتياح كأنه السعادة ولكن شابه إحساس قلق كأنه الحزن، وقالت بدرية:

ـ تناول طعامك.

فنظر إليها بعينين مثقلتين حالمتين وقال:

ـ ستشهدين النصر قريبا يا قمر .

وانتبه إلى هفوة اللسان أثر وقوعها، ورأى تغير وجه بدرية، فجلس في فراشه الأرضى وقال في تودد وارتباك:

ـ ما أشهى طعامك!

لكنها نفرت من توادده متجهمة فتناول قطعة من الطعمية قائلا:

ـ جاء دوري لأدعوك للطعام!

فلوت عنه وجهها وتمتمت:

ـ كانت طاعنة في السن ولا جمال لها!

فتقوضت قامته المنتصبة في كآبة كأنه تهدم وقال في عتاب وحزن شديدين:

ـ لا تذكريها بسوء، فمثلها لا ينبغي أن يذكر إلا بالرحمة.

فارتد إليه رأسها متوثبا لكنها رأت على صفحة وجهه حزنا مخيفا فترددت، ثم لاذت بالصمت.

# ۸۷

رجع المغلوبون يركبهم الخزى. ابتعدوا ما استطاعوا عن الأنوار المنبعثة من بيت سوارس حيث يتألق الجو ببهجة الفرح والطرب، وانحجز كل رجل في ربعه. وإذا بالأنباء السود تنتشر كالحريق، فتعالى الصوات في مساكن كثيرة وانطفأ العرس كأنما أهيل عليه التراب. انطلقت الحناجر تنعى سوارس، ثم تنعى من قتل معه من رجاله. وامتد المصاب فشمل رجالا من الرفاعية وآخرين من آل جبل ممن اشتركوا في الزفة. ومن المجرم المعتدى؟ قاسم، قاسم الغنام، قاسم الذي كان ينبغى أن يظل متسولا مدى عمره لولا قمر! وشهد رجل بأنه تبع عصابة قاسم في عودتها حتى اهتدى إلى ملجئها فوق المقطم. وتساءل كثيرون: هل يعتصم بالجبل حتى يقضى على رجال الحارة؟ واستيقظ المقطم. وتساءل كثيرون: هل يعتصم بالجبل حتى يقضى على رجال الحارة؟ واستيقظ

النائمون وخرجوا إلى الحارة والرُّبوع تتجاوب بالصوات. وصرخ أحد رجال جبل في غضب:

ـ اقتلوا الجرابيع.

لكن جلطة أوقفه صائحا:

ـ لا ذنب لهم، قتل فتوتهم، وعدد وافر من رجالهم.

ـ أحرقوا المقطم!

ـ هاتوا جثة قاسم لتأكلها الكلاب.

ـ على الطلاق لأشربن من دمه.

ـ الجربوع اللئيم الجبان .

- يحسب أن الجبل سيحميه!

ـ لن يحميه إلا القبر.

ـ كان يأخذ المليم من يدي ويبوس التراب.

ـ ويظهر بيننا بمظهر اللطيف الودود ثم يغدر بنا فيقتل الرجال.

وفى اليوم التالى بدت الحارة فى مأتم شامل. وفى اليوم الثانى اجتمع الفتوات فى بيت الناظر رفعت الذى ركبه الغضب والحنق حتى قال لهم فى تهكم مر :

ـ لنحبس أنفسنا في حارتنا كي نأمن الموت.

وكان لهيطة أشدهم حرجا، لكنه أراد أن يهون من الخطب تخففا من مسئوليته فقال:

ـ ما هي إلا معركة بين فتوة وبعض رجال حيه!

فقال جلطة معترضا:

ـ قتل من حينا رجل وجرح ثلاثة.

وقال حجاج:

ـ وقتل منا رجل.

فقال رفعت بمكر مخاطبا لهيطة:

- اللطمة لاصقة بسمعتك يا فتوة الحارة!

فامتقع وجه الرجل غضبا وقال:

ـ راعى غنم! والله لقد هزلت!

ولم يخف الناظر قلقه فقال:

ـ راعى غنم؟! فليكن، لكنه أصبح ذا خطر. استخففنا بهذيانه زمنا وأغمضنا عنه

العين إكراما لزوجته فاستفحل شره، وقد تمسكن حتى تمكن فقضى على فتوته وأعوانه، وهو الآن معتصم بالجبل ولن تقف أطماعه عند حد.

وتبادلوا النظرات في غضب فواصل الناظر حديثه قائلا:

- وهو يلوح للناس بإغراء. هذه هي مصيبة حارتنا، لا ينبغي أن نتجاهل ذلك، إنه يعد الناس بالوقف، ومع أن الوقف لا يكفي أصحابه إلا أن أحدا لا يصدق ذلك، المتسولون لا يصدقون ذلك وما أكثرهم، حارتنا حارة المتسولين! وهو يعد بالقضاء على الفتونة فيطرب لذلك الجبناء وما أكثرهم! حارتنا حارة الجبناء، وستجدون أهلها دائما مع الغالب، ففي القعود هلاكنا.

فهتف لهيطة:

ـ حوله مجموعة من الفئران وما أيسر إبادتهم!

فتساءل حجاج:

ـ لكنهم يعتصمون بالجبل؟!

فقال جلطة:

- نراقب الجبل حتى نجد إليهم منفذا.

فقال رفعت بتحريض:

ـ اعملوا ففي القعود كما قلت هلاكنا.

واشتد الغضب بلهيطة فقال للناظر بلهجة ذات مغزى:

- أتذكريا سيدي أنني دبرت قتله في حياة زوجته فعارضت الهانم.

فحول الناظر عينيه عن الأعين المحدقة وقال في شبه اعتذار:

ـ لن يجدينا تذكر الأخطاء.

ثم مردفا بعد هنيهة صمت:

ـ وهذه العلاقات تراعى في حارتنا منذ القدم!

وتعالت ضجة في الخارج غير مألوفة كأنما تنذر بشر مستجد، وكانت الأعصاب متوترة فنادي الناظر البواب وسأله عما هنالك فقال الرجل:

ـ يقولون إن الغنام انضم إلى قاسم سائقا معه جميع أغنام الحارة!

فوقف لهيطة ثائرا وهو يصيح:

- الكلب . . حارة كلاب ، الويل له!

وتساءل الناظر:

ـ من أى حي هذا الغنام؟

#### فقال البواب:

ـ من حي الجرابيع، ويدعي زقلة.

#### ۸۸

ـ أهلا بك يا زقلة .

وعانقه قاسم فقال الغنام بحماس:

لم أكن ضدك قط، وكان قلبي معك دائما، ولولا الخوف لكنت بين أوائل المنضمين إليك، وما إن سمعت بمقتل سوارس أجحمه الله حتى سارعت إليك سائقا أمامي أغنام أعدائك!

وألقى قاسم نظرة على مجمع الأغنام في الساحة بين الأكواخ حيث التف حولها النساء وارتفع ضوضاء الحبور، ثم ضحك قائلا:

ـ هي حلال لنا لقاء ما نهبوا من أموالنا في الحارة.

وفى أثناء النهار انضم إلى قاسم أفراد من الحارة بكثرة لم تعهد من قبل فاشتدت العزائم ورسخت الآمال. لكن قاسم استيقظ فى الصباح الباكر لليوم التالى على ضجة غريبة فغادر كوخه من فوره فرأى رجاله قادمين نحو كوخه فى عجلة واضطراب، وقال له صادق:

ـ جاءت الحارة للانتقام وهم مجتمعون أسفل الممر.

وقال خردة:

- كنت أول ذاهب للعمل فرأيتهم وأنا على مبعدة خطوات من الخلاء فرجعت مسرعا، وطاردنى بعضهم فأصابونى بحجر فى ظهرى، وجعلت أنادى صادق وحسن حتى جاء جماعة من إخواننا إلى رأس الممر فانتبهوا إلى الخطر ورموا المهاجمين بالأحجار حتى تراجعوا.

ونظر قاسم نحو رأس الممر فرأى حسن وبعض الرجال واقفين عنده بأيد قابضة على الأحجار فقال:

ـ نستطيع أن نصدهم هناك بعشرة رجال.

فقال حمروش:

ـ إن الصعود على هذه الحال انتحار فليصعدوا إذا شاءوا.

وتجمع الرجال والنساء حول قاسم حتى خلت الأكواخ. جاء الرجال بالنبابيت

والنساء بمقاطف طوب أعدت لذلك اليوم. وانطلق أول شعاع للشمس من سماء صافية. وتساءل قاسم:

- أما من مسلك آخر إلى المدينة؟

فقال صادق وإجما:

ـ يوجد مسلك في الجنوب على مسيرة ساعتين في الجبل.

وقال عجرمة:

ـ لا أظن أن لدينا من الماء ما يكفينا أكثر من يومين.

فسرت فيهم همهمة قلق وبخاصة النساء فقال قاسم:

ـ لقـد جاءوا للانتقـام لا للحـصـار، وإذا حاصـرونا عـمدنا إلى المسلك الآخـر لفك الحصار .

ومضى الرجل يفكر وهو يحافظ على هدوء وجهه الذى تتطلع إليه الأبصار. لو حاصروهم لوجدوا أكبر المشقة فى إحضار المياه من المسلك الجنوبي. ولو هجم برجاله عليهم فهل يضمن الانتصار على رجال فيهم لهيطة وجلطة وحجاج؟ وأى مصير يخبئه مغيب هذا اليوم لهم؟ ورجع إلى كوخه ثم عاد قابضا على نبوته ثم سار إلى حسن ورجاله عند رأس المر، فقال له حسن:

ـ لا يجرؤ أحد منهم على الاقتراب.

ودنا قاسم من حافة الجبل فرأى أعداءه متجمعين على هيئة هلال فى الخلاء بعيدا عن مرمى الحجر. هاله عددهم لكنه لم يستطع أن يميز الفتوات بينهم. ومد بصره خلال الفضاء حتى استقر على البيت الكبير، بيت الجبلاوى، الغارق فى صمته كأنه لا يبالى بصراع الأبناء من أجله. ما أحوجهم إلى قوته الخارقة التى دانت لها هذه البقاع فى الزمن الخالى! ولعل القلق لم يكن ليساوره لولا ذكرى مصرع رفاعة على كثب من بيت جده. ووجد دافعا من أعماقه يدعوه إلى أن يصيح بأعلى صوته قائلا: «يا جبلاوى!»، كما يفعل أهل حارته فى أحوال شتى، لكن جذب سمعه أصوات النساء المقتربة فاستدار ناظرا حوله فرأى الرجال منتشرين على حافة الجبل ينظرون إلى أعدائهم، والنساء متجهات إلى المواقع نفسها فصاح بهن أن يرجعن، وشدد فى الصياح لدى ترددهن، وأمرهن بأن يعددن الطعام وأن يزاولن مألوف الأعمال، وما زال بهن حتى صدعن بأمره. فاقترب منه صادق قائلا:

- أحسنت، فإن أخوف ما أخاف علينا تأثير اسم لهيطة.

فقال حسن:

ـ ليس أمامنا إلا أن نضرب!

ولوح بنبوته مردفا:

ـ سيتعذر علينا التجوال سعيا وراء أرزاقنا بعد أن عرفوا مكمننا، فليس أمامنا إلا أن نهجم.

فأدار قاسم رأسه مادا البصر نحو البيت الكبير وقال:

- بالصواب نطقت، ما قولك يا صادق؟

ـ ننتظر حتى يجيء الليل.

فقال حسن:

ـ سيضُرُّ بنا الانتظار ، ولن ينفعنا الليل في عراك.

وتساءل قاسم:

ـ ترى ما هي خطتهم؟

فقال صادق:

ـ أن يجبرونا على النزول إليهم.

وتفكر قاسم مليا ثم قال:

- إذا قتل لهيطة ضمنا النصر.

وردد عينيه بين الرجلين ثم أردف:

- إذا سقط تقاتل جلطة وحجاج على الفتونة.

ومضت الشمس في الارتفاع فتوهج الحصى وانتشرت نذر الحر. وتساءل حسن:

ـ خبراني ما العمل؟

فبدا تساؤله كالحصار ولكن لم يطل بأحد التردد، فقد انطلق صراخ امرأة من ناحية الساحة، وتلته على الفور صرخات، وتميز الصوت وهو يصيح:

ـ هوجمنا من الناحية الأخرى!

وارتد الرجال عن الحافة فانطلقوا نحو الساحة فيما يلى الجنوب. أوصى قاسم المدافعين عن الممر بجزيد من الانتباه. أمر خردة أن يدعو النساء القادرات إلى الانضمام إلى المدافعين عن الممر. جرى بين صادق وحسن نحو الساحة حتى توسط رجاله. لاح للجميع لهيطة وهو يقود عصابة كبيرة من الرجال قادمين من جنوب الجبل. قال قاسم بحنق:

ـ شاغلنا برجاله حتى يقوم برحلته حول الجبل ثم يجيئنا من مسلك الجنوب.

فصاح حسن وجسمه العملاق ينتفخ بالتوثب:

ـ جاء بقدميه إلى موته!

فقال قاسم:

ـ يجب أن ننتصر وسننتصر.

وامتد رجاله من حوله كذراعين قويتين. ومضى القادمون يقتربون، بنبابيت مرفوعة، كأنهم دغل من الأشواك. ودخلوا في مجال الأبصار فقال صادق:

ـ ليس فيهم جلطة ولا حجاج!

وأدرك قاسم أن جلطة وحجاج على رأس المحاصرين أسفل الجبل، وحدس أنهما سيهاجمان الممر مهما كلفهم ذلك من مشقة، لكنه لم يفض بوساوسه إلى أحد. وتقدم خطوات وهو يلوح بنبوته فشد الرجال على نبابيتهم. وجاء الصوت الغليظ، صوت لهيطة وهو يصيح:

لن تدفنوا في قبريا أولاد الزواني.

واندفع قاسم مهاجما فاندفع حوله الرجال، وأقبل الآخرون كالصخور المنقذفة حتى اصطكت النبابيت واختلطت الزمجرة وارتفع الزئير. وفي الوقت ذاته انهال الطوب من المدافعات عن رأس الممر على هجوم من أسفل الجبل بدأ. لكن كل رجل من رجال قاسم مع آخر من العدو اشتبك. تضارب قاسم ودنجل بعنف ومكر. وهوى نبوت لهيطة على ترقوة حمروش فانكسر. والتحم صادق وزينهم في هجمات متتابعة. ودك حسن بنبوته الغضبان فسكت. وضرب لهيطة زقلة في رقبته فانقلب، وتمكن قاسم من إصابة دنجل في أذنه فصرخ وتراجع ثم اندلق. وحمل زينهم على صادق حملة شديدة لكن هذا بادره بطعنة في بطنه فخذلته يداه فثني بطعنة أخرى فجندله. وتغلب خردة على الحفناوى ولكن لهيطة شل ذراعه قبل أن يهنأ بنصرته. ووجه حسن ضربة إلى لهيطة لكنه زاغ عنها برشاقة ورفع نبوته ليهوى به على الشاب غير أن قاسم عاجله بضربة تلقاها بنبوته، وجاء لميطة كالريح ليقذفه بالضربة الثالثة لكن لهيطة نطحه برأسه في أنفه فحطمه. بدا لهيطة كأنه قوة لا تغلب.

واشتد القتال. تلاطمت النبابيت بلا هوادة. واندفعت سيول الشتائم واللعنات. وانبثقت الدماء تحت أشعة الشمس المحرقة. وتوالت الإصابات فخر الرجال تباعا من الفريقين. واحترق لهيطة غضبا للمقاومة المستبسلة التي لم يتوقعها فتضاعفت هجماته وضرباته وقسوته. ومن الناحية الأخرى أمر قاسم حسن وعجرمة بأن يتحينا الفرصة للهجوم معه على لهيطة حتى يهدموا الحصن الذي يلوذ به المهاجمون. وإذا بامرأة من المدافعات عن المرتجيء وهي تصرخ محذرة:

ـ إنهم يصعدون تحت الألواح!

ففزعت قلوب رجال الجبل، وصاح لهيطة:

ـ لن تدفنوا في قبر يا أو لاد الزواني! .

فصاح قاسم في رجاله:

ـ انتصروا قبل أن يصعد المجرمون.

واندفع نحو لهيطة بجناحين من حسن وعجرمة، فاستقبله الفتوة بضربة شديدة تلقاها بنبوته، وأراد عجرمة أن يعاجله بضربة ولكن العفش أصاب ذقنه فانبطح على وجهه. ووثب حسن أمامه وهما يتبادلان ضربتين، ورمى حسن بنفسه عليه فالتحما في صراع عيت. وارتفع صراخ النساء عند رأس الممر وأخذ بعضهن يلذن بالفرار، وتحرج الموقف. وسارع قاسم بإرسال صادق وبضعة رجال إلى حافة الجبل، ثم انقض على لهيطة لكن اعترضه زحلفة فاشتبكا في قتال عنيف. ودفع حسن لهيطة بكل قوته فتراجع خطوة، فبصق على عينه وهو يهدر، ثم ركله فأصاب ركبته، وبسرعة خاطفة هجم عليه متقوسا فنطح بطنه كأنه ثور غاضب فاختل توازن الجبار ووقع على ظهره فبرك الآخر فوقه وأطبق بنبوته على رقبته بكلتا يديه وضغط بكل قواه. وأقبل رجال للدفاع عن فتوتهم فتصدى لهم قاسم وبعض رجاله. واصطكت قدما لهيطة، وجحظت عيناه، واحتقن فتصدى لهم قاسم وبعض رجاله. واصطكت قدما لهيطة، وجحظت عيناه، واحتقن بالدم وجهه، وأخذ يختنق. وبغتة وثب حسن واقفا فوق غريمه الخائر القوة وهوى على رأسه بنبوته بضربة شرسة حانقة فتحطمت جمجمته وانتهى. وصرخ حسن بصوت كالرعد:

ـ لهيطة قتل، فتوتكم قتل، انظروا إلى جثته!

وأحدث موت لهيطة غير المتوقع أثرا عنيفا، فاشتدت عزائم ووهنت عزائم ، واندفع الأمل واليأس في قتال مرير. وانضم حسن إلى قاسم في صراعه فلم تخب له ضربة. وشهد الميدان رجالا تتوثب ثم تثب، ونبابيت ترتفع ثم تنقض. وثار الغبار وانتشر ثم أطبق على المتعاركين كليل دموى. وقذفت الصدور بجيشات وصيحات ولعنات وصرخات متأوهة وزمجرات متوعدة. وبين كل آونة وأخرى يترنح رجل ثم يسقط، أو يتراجع ثم يفر، وانتشر المنطرحون على الأرض والتمعت الدماء تحت أشعة الشمس.

وانتحى قاسم جانبا فأرسل بصره نحو رأس الممر الذى أقلقه أمره فرأى صادق ورجاله يصبون الطوب بالمقاطف فى توتر شديد دل على اقتراب الخطر المتصاعد. وسمع النساء. وبينهن زوجته، وهن يصرخن كالمستغيثات. وشاهد بعض رجال صادق وهم يقبضون على النبابيت استعدادا للقاء المصرين على الصعود تحت وابل الطوب. قدر خطورة الأمر فمضى من فوره إلى جثة لهيطة التى ابتعد عنها القتال لتقهقر رجال الحارة، وراح يسحبها وراءه نحو رأس الممر. ونادى صادق فجاءه مسرعا فتعاونا على حمل الجثة، وسارا بها حتى أول المر، وقذفا بها معا فتهاوت ثم تدحرجت حتى وقفت تحت

أرجل الصاعدين تحت الألواح. ووقع اضطراب واضح. وجلجل صوت حجاج وهو يصرخ في غضب:

-اصعدوا، تقدموا، الويل للمجرمين!

فصاح قاسم متهكما، في ضبط نفس عجيب:

- تقدموا، هذه جثة فتوتكم، وورائي جثث رجالكم الآخرين، تقدموا فنحن في انتظاركم!

وأشار إلى الرجال والنساء فانهال الطوب كالمطرحتى توقفت طليعة المهاجمين وأخذوا في التراجع البطيء على رغم دفع حجاج وجلطة لهم، وترامت إلى قاسم همهمة تحرش واحتجاج وتذمر فصاح قاسم:

ـ يا جلطة، يا حجاج، أقدما ولا تهربا!

فارتفع إليه صوت جلطة كأنه نبرة الكراهية وهو يصيح:

ـ انزلوا إن كنتم رجالا! انزلوا يا نسوان يا أولاد العواهر!

وصاح حجاج وهو واقف وسط الموجة المرتدة من الرجال:

ـ لا عشت إن لم أشرب من دمك يا أقذر من رعى الغنم!

فتناول قاسم حجرا وقذف به بكل قوته. وتواصل انهمار الأحجار. وأسرعت الموجة المرتدة حتى أوشكت أن تنقلب جريا. وإذا بحسن يجيء فيقول وهو يمسح عن جبهته دما سائلا:

- انتهى القتال، وفر الأحياء منهم نحو الجنوب.

فهتف قاسم:

ـ ادع الرجال لنتبعهم!

لكن صادق قال له:

- إن الدم يسيل من أسنانك و ذقنك!

فمسح فمه وذقنه براحته وبسطها فرآها حمراء قانية. وقال حسن بأسف:

ـ قتل منا ثمانية ، وأصيب الأحياء بجروح بالغة فلن يستطيعوا حراكا .

ونظر إلى أسفل من خلال الأحجار المتهاوية فرأي أعداءه يركضون في نهاية الممر .

فقال صادق:

ـ لو أتموا رحلتهم ما وجدوا مقاتلا يصمد لهم.

ثم لثم ذقن قاسم الدامي وأردف بامتنان:

- أنقذنا عقلك!

وأمر قاسم رجلين بالبقاء عند رأس الممر للحراسة، وأرسل آخرين في أعقاب الهاربين لاستطلاع الأنباء، ثم عاد بين صادق وحسن وهم ينقلون خطوات ثقالا في إعياء وكلال نحو الساحة التي لم يبق فوق أديمها جثث القتلي. كانت مذبحة وأي مذبحة. قتل من رجاله ثمانية ومن أعدائه عشرة غير لهيطة. ولم يسلم من رجاله الأحياء أحد من كسر أو جرح، وقد آووا إلى الأكواخ فأخذ النساء في تضميد جراحهم، على حين ضجت أكواخ الضحايا بالبكاء والصوات. وجاءت بدرية في لهف ودعتهم إلى الكوخ لتغسل جروحهم، ثم جاءت سكينة حاملة إحسان وهي تبكي بكاء صارخا. وكانت الشمس تقذف بنيرانها من كبد السماء، والحدآت والغربان تدور مدومة وهابطة في الفضاء، والجو يفوح برائحة الدم والتراب. ولم تكف إحسان عن البكاء ولكن لم يعرها أحد التفاتا، وحتى حسن العملاق بدا وكأنه يترنح. وتمتم صادق بصوت حزين:

ـ ليرحم الله قتلانا!

فقال قاسم:

ـ ليرحم الله القتلى والأحياء على السواء.

وأخذت حسن صحوة ابتهاج طارئة فقال:

ـ سننتصر عما قريب فتودع حارتنا عهد الدم والإرهاب.

فقال قاسم:

ـ سحقا لعهد الإرهاب والدم.

# ۸٩

لم تشهد الحارة كارثة كهذه من قبل. رجع الرجال صامتين ذاهلين ذابلين غاضين الأبصار كأنما شدت جفونهم إلى أديم الأرض. ووجدوا أنباء الهزيمة قد سبقتهم إلى الحارة وأن الربوع ترتج باللطم والعويل. وانتشر الخبر في الحارات والأزقة وباتت سمعة الحارة الرهيبة أحدوثة تلوكها ألسنة التشفى. وتبين أن حي الجرابيع بأسره قد غادر الحارة خوفا من الانتقام فخلت الدور والدكاكين، ولم يشك أحد في أنهم سينضمون حتما إلى ابن حيهم المنتصر فيزداد بهم عددا وقوة. وخيم الحزن على الحارة المكللة بالحداد، لكن أنفاسه الحارة قطرت حقدا ومقتا ورغبة في الانتقام.

وإذا برجال من جبل يتساءلون: عن فتونة الحارة ولمن تكون؟ وإذا بالسؤال نفسه يتردد على ألسنة في حي رفاعة، فانتشر سوء الظن انتشار التراب في العاصفة. وعلم الناظر

رفعت بما تهجس به الخواطر فدعا حجاج وجلطة إلى مقابلته. وذهب الرجلان وحول كل منهما رجاله الأشداء حتى غص بهم بهو الناظر، واحتل كل فريق جناحا من البهو، فكأنه لم يعد يأمن الاختلاط بجيرانه، وقد أدرك الناظر مغزى ذلك فازداد غما على غم، وقال:

- تعلمون أن كارثة حلت بنا، لكننا لم نمت، ولم يقض علينا، ولم يزل في وسع سواعدنا أن تحقق لنا النصر على شرط أن نحافظ على وحدتنا، وإلا فقولوا علينا السلام.

فقال رجل من جبل:

ـ ستكون الضربة الأخيرة لنا، وما شدة إلا وبعدها الفرج.

وقال حجاج:

- لولا اعتصامهم بالجبل لهلكوا عن آخرهم.

وقال ثالث:

ـ لاقاهم لهيطة بعد رحلة طويلة شاقة تبرك بعدها الجمال.

فقال الناظر بامتعاض:

ـ حدثوني عن وحدتكم ما شأنها؟

فقال جلطة:

ـ نحن بفضل الله إخوان، وسنظل كذلك.

- هذا قولك، لكن مجيئكم بعددكم الوفير هذا ينم على الارتياب الذي يفرق بين قلوبكم!

فقال حجاج:

- بل دعت إلى ذلك رغبة الجميع في الانتقام!

فوقف الناظر متوتر الأعصاب وقال مقلبا عينيه في الوجوه الكالحة:

- كونوا صريحين، إنكم تنظرون بعضكم إلى بعض بعين، وتنظرون بالأخرى إلى فتونة الحارة، إلى مكان لهيطة الخالى، ولن تعرف الحارة الأمان ما دامت هذه الحال، وأخشى ما أخشاه أن تتداخل النبابيت في الأمر فتهلكوا جميعا ويأكلكم قاسم لقمة سائغة!

فارتفعت أصوات كثيرة تقول في نفس واحد:

ـ نعوذ بالله من ذلك.

فقال الناظر بصوت قوى واضح:

ـ لم يعـد بالحارة إلا حيًّا جبل ورفاعة، فليكن عليها فتوتان، ولا ضرورة للفتوة الواحد، ولنتعاهد على ذلك، ولنكن يدا واحدة على الخارجين.

وانقضت ثواني صمت رهيبة ثم رددت أصوات في فتور:

.نعم. .نعم.

وقال جلطة:

ـ سنرضى بذلك على الرغم من أننا سادة الأحياء منذ القدم.

فقال حجاج محتجا:

ـ ليكن القبول بلا منٍّ، لا سادة هنا ولا خدم وبخاصة بعد ذهاب الجرابيع، ومنذا ينكر أن رفاعة كان أنبل من عرفت حارتنا؟

فهتف جلطة محتدا حانقا:

- حجاج! أنا عارف قلبك.

وهم رفاعي بالكلام ولكن الناظر صرخ غاضبا:

ـ خبرونى: هل عزمتم على أن تكونـوا رجالا أو لا؟! إن أى نبأ يطير عن ضعفكم سيعقبه زحف الجرابيع من الجبل كالذئاب. خبرونى: هل تستطيعون أن تقفوا صفا واحدا، أو أرى لنفسى وجهة أخرى؟

فصاح أفراد من هنا ومن هناك:

ـ هس، عيب يا رجال، حارتنا على وشك أن تفقد كل شيء.

وتطلعت إليه الوجوه في تسليم، فقال:

ـ ما زلتم متفوقين في العدد والقوة، ولكن لا تهاجموا الجبل مرة أخرى.

وارتسم التساؤل على الوجوه فأردف قائلا:

ـ سنحبسهم فوق الجبل، سنتربص لهم أمام المسلكين المفضيين للجبل، فإما يموتون جوعا، وإما يضطرون إلى النزول إليكم فتقضون عليهم.

فقال جلطة:

- نعم الرأى، به أشرت على لهيطة - رحمه الله - ولكنه اعتد الحصار جبنًا وأبى إلا أن يهاجم.

وقال حجاج:

ـ هو الرأى، ولكن ينبغى تأجيل تنفيذه حتى يرتاح الرجال.

وطلب الناظر إليهم أن يتعاهدوا على الإخاء والتعاون، فتصافحوا ورددوا الأقسام. وبدا لكل ذي عينين فيما تبع ذلك من أيام أن جلطة وحجاج يشتدان في معاملة أتباعهما لتغطية آثار الهزيمة التي لحقتهما. وأذاعا في الحارة أنه لولا حماقة لهيطة لقضى على قاسم بلا مشقة، ولكن إصراره على صعود الجبل أنهك رجاله فذهب بقوتهم وشجاعتهم، ولاقاهم عدوهم وهم على أسوإ حال. وصدق الناس ما قيل لهم، ومن أبدى شيئا من الارتياب سب ولعن وضرب. أما فتونة الحارة فلم يكن يسمح لأحد بالخوض فيها، على الأقل في الجهر، ولكن كثيرين - من الرفاعية والجبلية على السواء - جعلوا يتساءلون في الغرز عمن سيخلف لهيطة بعد النصر.

وتولد في الحارة على رغم التعاهد والأقسام جو خفى من الريبة، فاحتاط كل فتوة لنفسه فلم يكن ينأى عن مركزه إلا وسط جماعة من أعوانه. لكن الاستعداد ليوم الانتقام لم يتوقف لحظة واحدة. واتفقوا فيما بينهم على أن يعسكر جلطة ورجاله أمام مسلك المقطم عند السوق، وأن يعسكر حجاج ورجاله أمام مسلك القلعة. وسوف يلازمون أماكنهم ولو بقوا عمرا، وستسرح النساء للبيع والشراء ويجئنهم بالطعام. وعند مساء اليوم السابق ليوم الخروج تجمعوا في شتى الغرز، وجاءوا بقدور البوظة والنبيذ، وراحوا يحششون ويسكرون حتى ساعة متأخرة من الليل. وودع الأعوان حجاج أمام ربعه بحى رفاعة وهو في نهاية من الانبساط والسلطنة. ودفع الباب ومضى في الدهليز وهو يدندن:

# الأوله آه..

لكنه لم يتمها. انقض عليه شبح من وراء، فسد فاه بيد، وطعن بسكين قلبه بالأخرى. انتفض الجسم بقوة بين يديه فلم يتركه أن يحدث سقوطه صوتا. وأنامه برفق على الأرض لا حراك به في الظلام الدامس.

### 9.

استيقظت الحارة في باكر الصباح على ضجة صارخة مفزعة. فتحت النوافذ وأطلت الرءوس، وسرعان ما اتجهت نحو الربع الذى يقيم فيه حجاج فتوة آل رفاعة، حيث تجمهر جمع غفير واختلط اللغط بالصراخ والعويل. وامتلأ دهليز الربع بالرجال والنساء، وكثر التساؤل والتعليق، وأنذرت الأعين المحمرة بالبكاء بكل شر خطير. وهرع إلى الربع الرفاعية من كل ربع ودار وجحر. وما لبث أن جاء جلطة ورجاله فأوسع الناس لهم حتى انتهوا إلى الدهليز، وصاح جلطة:

مصيبة و لا كل المصائب، ليتني كنت فداك يا حجاج.

كف الباكون عن البكاء والصارخون عن الصراخ والحانقون عن التساؤل، ولكنه لم يسمع كلمة مجاملة واحدة. فعاد يقول:

مكيدة دنيئة! ليس الغدر من شيم الفتوات، لكن قاسم راعى غنم متسول لا فتوة، ولن يهنأ لى بال حتى أرمى بجثته إلى الكلاب.

وصاحت امرأة في حدة ملتاعة:

ـ مباركة عليك فتونة الحارة يا جلطة .

وتقلصت سحنته بالغضب، فوجم القريبون منه وسرت الدمدمة فيما وراء ذلك، وصاح بغلظة:

ـ فلتغلق النسوان أفواههن في هذا اليوم الأغبر!

فعادت المرأة تقول:

\_ليفهم كل ذي عقل!

وصوتت فهاج الصوات، وانتظر جلطة حتى هدأت العاصفة وقال:

- مكيدة ماكرة دبرت بليل للإيقاع بيننا.

فهتفت امرأة أخرى:

- مكيدة؟! قاسم وجرابيعه في الجبل، وحجاج قتل في حارته بين قومه وجيرانه الطامعين في الفتونة!

فصاح جلطة:

ـ مرة مجنونة، ومجنون كل من يتقبل ظنها، وإذا تماديتم فسيقتل بعضنا بعضا كما يفسد بيننا قاسم .

وإذا بقلة تهوى فتتحطم عند قدمي جلطة ، فتراجع هو ورجاله وهو يقول :

ـ عرف ابن الزانية كيف يفسد بيننا.

ومضى من توه نحو بيت الناظر. واشتد اللغط عقب ذهابه. وإذا برجلين ـ رفاعى وجبلى ـ يتشابكان فى شجار عنيف، وتبعتهما على الأثر امرأتان. وتضارب غلمان من الحيين. واستعرت معارك قذف وسب من النوافذ. وشاع الاضطراب فى الحارة حتى تجمهر فى كل حى رجاله وارتفعت النبابيت. وخرج الناظر من بيته بين خدم ورجال، فسار حتى توسط الحيين وصاح بأعلى صوته:

- اعقلوا. . الغضب سيعميكم عن عدوكم الحقيقي، قاتل المعلم حجاج!

فصاح أحد الرفاعية:

ـ من أدراك بذلك؟ وأي جربوع يتجرأ على دخول الحارة؟

فصاح رفعت:

ـ كيف يقتلون حجاج اليوم وهم في أشد الحاجة إليه؟

ـ سل المجرمين ولا تسلنا نحن.

- الرفاعية لا يخضعون لفتوة من جبل!

ـ سيدفعون ثمن دمه غاليا.

فعاد الناظر يصيح:

ـ لا تطيعوا المكيدة وإلا رأيتم قاسم زاحفا عليكم كالوباء.

ـ فليأت قاسم إذا شاء، ولكن لن يكون جلطة فتوة علينا.

فقال الناظر وهو يضرب كفا بكف:

- انتهينا وسيدركنا الخراب.

فتعالت الأصوات:

- الخراب خير من جلطة.

وقذفت طوبة من حى رفاعة فاستقرت بين الرجال فى حى جبل. وأجاب حى جبل بالمثل. ورجع الناظر مسرعا. وإذا بالطوب ينهمر من الجانبين، وسرعان ما اشتبك الحيان فى معركة دامية. واشتد الضرب فى قسوة بالغة. وامتدت المعركة إلى بعض الأسطح حيث تبادل نساء من الحيين قذف الطوب والحصى والتراب والأخشاب. وتواصل الاشتباك فترة طويلة على الرغم من أن الرفاعية كانوا يقاتلون بغير فتوتهم، ولكن كثر صرعاهم أمام ضربات جلطة التى لا تخيب. وإذا بأصوات نساء تنطلق من النوافذ فى ضوضاء غير متميزة ضاعت فى ضوضاء المعركة. غير أن النساء بدون وهن يشرن بأيديهن فى فزع تارة نحو طرف الحارة الشرقى وطورا نحو الطرف الآخر. والتفت أناس بأيديهن فى فزع تارة نحو طرف الحارة الشرقى وطورا نحو الطرف الآخر. والتفت أناس بأيديهن ورأوا فى الطرف الآخر حسن يتقدم فى عصبة أخرى. ضج المكان بصيحات نبايتهم. ورأوا فى الطرف الآخر حسن يتقدم فى عصبة أخرى. ضج المكان بصيحات التحذير وتتابعت الأحداث فى سرعة خاطفة. أمسكت الأيدى عن الضرب كأنما شلت. وبدافع عفوى تكتلوا وتداخلوا، الضارب منهم والمضروب، وانقسموا فرقتين لمواجهة القادمين. وصاح جلطة بحنق:

- قلت إنها مكيدة فلم تصدقوا. .

استعدوا للقتال وهم من الجهد واليأس على أسوإ حال. لكن قاسم توقف فجأة عن التقدم، ومثله فعل حسن كأنهما ينفذان خطة واحدة. وصاح قاسم بأعلى صوته:

ـ لا نريد أذى لأحد، لا غالب ولا مغلوب، أبناء حارة واحدة و جد واحد، والوقف للجميع.

فصاح جلطة:

ـ مكيدة جديدة!

فقال قاسم غاضبا:

ـ لا تدفعهم إلى القتال دفاعا عن فتونتك، دافع عنها وحدك إذا شئت. .

وصرخ جلطة:

ـ اهجموا. .

وانقض على مجموعة قاسم. تبعه رجال. وانقض آخرون على حسن ورجاله. تردد كثيرون. تسلل الجرحى إلى الربوع، وكذلك المنهكون، ثم تبعهم المترددون. لم يبق إلا جلطة وعصابته. ولكنهم خاضوا معركة شديدة على رغم ذلك واستماتوا في الدفاع. تضاربوا بالنبابيت والرءوس والأقدام والأيدى. وركز جلطة هجومه على قاسم بحقد أعمى. تبادلا ضربات عنيفة، ثم مضى قاسم يتلقى ضربات خصمه بنبوته في خفة وحذر، لكن رجال قاسم أطبقوا بكثرتهم على عصابة جلطة حتى غابت تحت عشرات النبابيت، وانقض حسن وصادق على جلطة وهو مشتبك مع قاسم، فضرب صادق نبوته وهوى حسن بنبوته على رأسه، مرة وثانية وثالثة، فسقط النبوت من يده واندفع يجرى كالثور الذبيح ثم انكب على وجهه كمصراع بوابة.

انتهت المعركة. سكتت أصوات النبابيت وصرخات الرجال. وقف المنتصرون وهم يلهثون ويسحون الدماء عن الوجوه والرءوس والمعاصم، لكن ثغورهم افترت على رغم ذلك عن ابتسامة الفوز والسلام. كان العويل يترامى من النوافذ، ورجال جلطة مبعثرين على الأرض، والشمس ساطعة ترسل أشعة حامية. وخاطب صادق قاسم قائلا في ثقة وطمأنينة:

- انتصرت، نصرك الله. إن جدنا لا يخطئ في اختياره، ولن تسمع حارتنا العويل بعد اليوم.

فابتسم قاسم ابتسامة هادئة، ثم استدار في عزم موجها بصره نحو بيت الناظر فاتجهت الرءوس إليه . .

## 91

سار قاسم على رأس رجاله إلى بيت الناظر فوجدوا الباب والنوافذ مغلقة، والصمت والكآبة يخيمان عليه. وطرق حسن الباب بقوة، ولكن أحدًا لم يرد، وتجمع نفر من الرجال وراحوا يدفعون الباب بشدة حتى انفتح على مصراعيه. ودخل الرجل، ورجاله وراءه. فلم يعثروا للبواب على أثر ولا بأحد من الخدم. وتسارعوا إلى البهو، فبقية الحجرات، ثم الأدوار الثلاثة، فتبين لهم أن الناظر وأهله وخدمه قد غادروا البيت هاربين. والحق أن قاسم لم يأسف على ذلك، إذ كان في أعماقه راغبا عن الفتك بالناظر إكراما لزوجته التي لولاها لقضى عليه من أول الأمر، ولكن حسن والآخرين غضبوا غضبا شديدا لنجاة الرجل الذي أذاق الحارة الفقر والهوان طوال عهده بها.

وهكذاتم النصر لقاسم وأصبح رجل الحارة دون منازع. وتولى شئون النظارة إذ إنه كان لا بد للوقف من ناظر. وعاد الجرابيع إلى حيهم، وعاد معهم كل من هاجر من الحارة خوفا من الفتوات وعلى رأسهم المعلم يحيى. ومضت أربعون يوما في هدوء فالتأمت الجراح وسكنت النفوس واطمأنت القلوب.

ويوما وقف قاسم أمام البيت الكبير ودعا إليه أهل الحارة رجالاً ونساء من جميع الأحياء فمضوا إليه في لهفة وتطلع وقلوبهم تخفق بشتى الخواطر. واكتظ بهم المكان واختلط جرابيعهم بآل جبل وآل رفاعة. وبدا قاسم باسما متواضعا رقيقا مهيبا معا فأشار إلى أعلى، إلى البيت الكبير وقال:

- هنا يقيم الجبلاوي، جدنا جميعا، لا تمييز في الانتساب إليه بين حي وحي، أو فرد وفرد، أو رجل وامرأة.

تهللت الوجوه في دهشة وبشر وبخاصة وجوه الذين توقعوا أن يسمعوا مقالة رجل ملك وانتصر .

وأردف قاسم قائلا:

ـ وحولكم وقفه، وسيكون لكم جميعا على السواء كما وعد أدهم حين قال له: «سيكون الوقف لذريتك»، وعلينا أن نحسن استغلاله حتى يكفى الجميع ويفيض، فنحيا كما تمنى أدهم أن يحيا، في رزق موفور وطمأنينة شاملة وسعادة صافية غناء. وتبادل الناس النظرات كأنهم في حلم. فواصل قاسم كلامه قائلا:

ـ لقد ذهب الناظر إلى غير رجعة، واختفى الفتوات، لن يوجد فى حارتنا بعد اليوم فتوة، لن تؤدوا إتاوة لجبار، أو تخضعوا لعربيد متوحش، فتمضى حياتكم فى سلام ورحمة ومحبة.

وقلب عينيه في الوجوه المستبشرة وقال:

ـ وبيدكم أنتم ألا يعود الحال كما كان. راقبوا ناظركم، فإذا خان اعزلوه، وإذا نزع أحدكم إلى القوة اضربوه، وإذا ادعى فرد أو حى سيادة أدبوه. بهذا وحده تضمنون ألا ينقلب الحال إلى ما كان، وربنا معكم.

فى ذلك اليوم تعزى قوم عن موتاهم، وآخرون عن هزيمتهم، ونظر الجميع إلى الغد كأنما ينظرون إلى بزوغ البدر فى ليلة من ليالى الربيع. ووزع قاسم الريع على الجميع بالعدل بعد الاحتفاظ بقدر للتجديد والإنشاء. أجل كان نصيب الفرد ضئيلا ولكن إحساسه بالعدل والكرامة فاق كل حد. ومضى عهده فى تجديد وبناء وسلام. ولم تنعم حارتنا قبله بمثل ما نعمت به فى أيامه من الوحدة والألفة والسعادة. أجل كان ثمة آحاد فى آل جبل يضمرون غير ما يظهرون ويتهامسون فيما بينهم:

«أنكون من جبل ويحكمنا جربوع من الجرابيع؟!». ومثلهم وجد في آل رفاعة. بل لم يخل الجرابيع من نفر أخذتهم العزة والزهو. ولكن صوتا لم يرتفع لتعكير الصفو في عهده. ورأى الجرابيع فيه طرازا من الرجال لم يوجد مثله من قبل ولن يوجد مثله من بعد. جمع بين القوة والرقة، والحكمة والبساطة، والمهابة والمحبة، والسيادة والتواضع، والنظارة والأمانة، وإلى ذلك كله كان ظريفا بشوشا أنيقا، وعشيرا تطيب مودته، فضلا عن ذوقه الجميل وحبه الغناء والنكتة. لم يتغير من شأنه شيء اللهم إلا أنه توسع في حياته الزوجية كأنما جرى فيها مجراه في تجديد الوقف وتنميته. فعلى حبه بدرية تزوج حسناء من آل جبل وأخرى من آل رفاعة، وتعشق امرأة من الجرابيع ثم تزوج منها أيضا. وقال أناس في ذلك: إنه يبحث عن شيء افتقده مذ فقد زوجته الأولى قمر. وقال عمه زكريا: إنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة جميعا. لكن حارتنا لم تكن بحاجة إلى تفسير أو تعليل لما حدث، بل الحق إنها إذا كانت أعجبت به لأخلاقه مرة فقد أعجبت به لحيويته مرات. وإن حب النسوان في حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون، ومنزلة تعدل في درجاتها الفتونة في زمانها أو تزيد.

ومهما يكن من أمر فإن حارتنا لم تشعر قبله بالسيادة حقا، وبأن أمرها قد آل إلى نفسها دون ناظر يستغل أو فتوة يستذل؛ ولا عرفت قبله ما عرفت أيامه من الإخاء والمودة والسلام.

وقال كثيرون: إنه إذا كانت آفة حارتنا النسيان، فقد آن لها أن تبرأ من هذه الآفة، وإنها ستبرأ منها إلى الأبد.

هكذا قالوا. .

هكذا قالوا يا حارتنا!

# عـــرفـــة

#### 94

المتأمل لحال حارتنا لا يصدق ما تقول الرباب في القهوات. من جبل؟! ومن رفاعة؟! ومن قاسم؟! وأين الآثار التي تدل عليهم خارج نطاق القهوات؟ أما العين فلا ترى إلا حارة غارقة في الظلمات وربابا تتغنى بالأحلام. وكيف آل بنا الأمر إلى هذه الحال؟ أين قاسم والحارة الواحدة والوقف المبذول لخير الجميع؟ وماذا جاء بهذا الناظر الجشع وهؤلاء الفتوات المجانين؟ ستسمع حول الجوز الدائرة في الغرز، بين الحسرات والضحكات، أن صادق خلف قاسم على النظارة فسار سيرته. وأن قوما رأوا أن حسن أحق منه بالنظارة لقرابته من قاسم ولأنه الرجل الذي قتل الفتوات. وأنهم حرضوا حسن على رفع نبوته الذي لا يقاوم فأبي أن يعود بالحارة إلى عهد الفتونة. لكن الحارة كانت قد انقسمت على نفسها، ومضى أناس في آل جبل وآل رفاعة يجاهرون بما كانوا يضمرون.

ولما رحل صادق عن الدنيا أسفرت الرغبات المكبوتة عن وجهها الشائه ونظراتها العدوانية. واستيقظت النبابيت بعد رقاد، وسال الدم في كل حي على حدة، وبين كل حي وآخر، حتى قتل الناظر نفسه في إحدى المعارك. وأفلت الزمام ووئد الأمن والسلام فلم يجد الناس بدا من إعادة آخر ذرية الناظر رفعت إلى النظارة التي يتقاتل الطامعون عليها.

هكذا عاد الناظر قدرى إلى النظارة. وانقلبت الأحياء إلى عصبيتها القديمة، وإذا كل حى يسيطر عليه فتوة، ثم دارت المعارك على فتونة الحارة حتى فاز بها سعد الله، فاحتل بيت الفتوة وصارالفتوة الأول، واستأثر يوسف بآل جبل، وعجاج بآل رفاعة، والسنطورى بآل قاسم. ووزع الناظر الريع بالأمانة أول الأمر فاستمرت حركة التعمير والتجديد. وسرعان ما لعب الطمع بقلب الناظر، والفتوات من بعده كما كان المتوقع، فارتدوا إلى النظام القديم، أى أن الناظر يستأثر بنصف الريع ويوزع نصفه الآخر على الفتوات الأربعة الذين استأثروا به من دون المستحقين، ولم يقفوا عند ذلك بل جاوزوه بكل وقاحة إلى فرض الإتاوات على أتباعهم المساكين. وتعطلت حركة الإنشاء حتى توقف البناء في بيوت لم يشيد منها إلا نصفها أو ربعها. وبدا وكأن شيئا من القديم لم يتغير إلا أن حى الجرابيع أصبح حى آل قاسم، يرأسه فتوة كالفتوات الآخرين، وتقوم على جانبيه الربوع مكان الأكواخ، والخرائب.

أما أهل الحارة فانقلبوا إلى ما كانوا عليه في الزمان الأسود، بلا كرامة ولا سيادة، تنهكهم الفاقة وتتهددهم النبابيت وتنهال عليهم الصفعات. وانتشرت القذارة والذباب والقمل، وكثر المتسولون والمشعوذون وذوو العاهات. ولم يعد جبل ورفاعة وقاسم إلا أسماء، وأغاني ينشدها شعراء المقاهي المسطولون. وتباهى كل فريق برجله الذي لم يبق منه شيء وتنافسوا في ذلك إلى حد الشجار والعراك. وذاعت شعارات المساطيل، فيقول أحدهم وهو داخل إلى الغرزة: «ما فيها فائدة» يعنى الدنيا لا الغرزة. ويقول آخر: «هناك نهاية واحدة هي الموت، فلنمت بيد الله خير من أن نموت بنبوت فتوة، وأحسن ما نفعل سكرة أو تحشيشة!». وكانوا يتغنون بمواويل حزينة، ينسجونها من خيوط الخيبة والفقر والذل، أو يترنمون بأغنيات فاحشة داعرة يقذفونها في آذان النساء والرجال الباحثين عن السلوى والعزاء ولو في خرابة مظلمة. وعندما يشتد الكرب بأحدهم يقول: «المكتوب مكتوب، لا جبل أجدى ولا رفاعة ولا قاسم، حظنا من الدنيا الذباب ومن الآخرة التراب».

ومن عجب أن تبقى حارتنا بعد ذلك كله الأثيرة بين الحوارى، يشير إليها الرجل من جيراننا ويقول في إكبار: «حارة الجبلاوى». ونقبع في أركانها ساهمين واجمين كأننا بتنا قانعين بالذكريات العزيزة الماضية، أو أننا نجتر الإصغاء إلى هاتف في أعماقنا يهمس بصوت خافت: «ليس من المستحيل أن يقع في الغد ما وقع بالأمس، فتتحقق مرة أخرى أحلام الرباب وتختفي من دنيانا الظلمات».

# 9 ٣

فى يوم من الأيام، قبيل العصر، رأت الحارة فتى غريبا قادما من ناحية الخلاء، يتبعه آخر كالقزم. كان يرتدى جلبابا ترابى اللون على اللحم، ويشد على وسطه حزاما شطر جلبابه شطرين انداح أعلاهما وتدلى وامتلأ بأشياء فيه، وانتعل مركوبا باهتا متهتكا. أما رأسه فبدا عاريا مشعث الشعر غزيره. وكان أسمر اللون، مستدير العينين، حاد البصر، تلوح فى محجريه نظرة قلقة نافذة، وفى حركاته ثقة واعتداد. وقف قليلا أمام البيت الكبير ثم تقدم على مهل يتبعه صاحبه. وتطلعت نحوه الأبصار وكأنما تتساءل: «غريب فى حارتنا؟! يا للوقاحة!». قرأ ذلك فى أعين الباعة وأصحاب الدكاكين والحالسين فى القهوات والمطلات من النوافذ، بل فى أعين الكلاب والقطط، حتى خيل والتباب نفسه سيتجنبه ازدراء واحتجاجا. والتفت نحوه الغلمان فى تحرش، واقترب بعضهم منه، وأخذ الآخرون يملئون النبال أو يبحثون فى الأرض عن طوبة،

فابتسم لهم متوددا، ودس يده في عبه فأخرج شوية نعناع وراح يوزعه عليهم فأقبلوا نحوه فرحين، ومضوا يمصون النعناع وهم يرمقونه بإعجاب. وقال لهم والابتسامة لا تفارق وجهه:

- أما من بدروم خال للإيجار؟ هيا يا رجال، من يدلني منكم عليه فله قرطاس نعناع. وسألته امرأة كانت مقتعدة الأرض أمام أحد الربوع:

- يا ألف مصيبة عليك، من أنت حتى تسكن في حارتنا؟

فضحك الرجل وقال:

ـ محسوبك عرفة، من أولاد حارتكم كالآخرين، وهو عائد بعد غيبة طويلة.

فدققت المرأة فيه النظرات وتساءلت:

ـ ابن من يا روح أمك؟

فبالغ في الضحك توددا وقال:

ـ خالدة الذكر جحشة، ألا تعرفينها يا ست النساء؟

ـ جحشة؟ بنت زين؟!

ـ بعينها ولحمها .

وقالت امرأة مستندة إلى جدار، كانت تتابع الحديث وهي تفلي رأس غلام:

ـ كنت تتبع أمك في تلك الأيام وأنت غلام، ما زلت أذكرك، وتغير كل شيء فيك إلا عينيك.

فقالت المرأة الأولى:

- أى والله، وأين أمك؟ ماتت! الله يرحمها، ياما قعدت قدام مقطفها سائلة عن الغيب، أوشوش الذكر وترمى هي بالودع وتتكلم، الله يرحمك يا جحشة!

فقال بارتياح:

ـ الله يطول عمرك ، ستدليني أنت على بدروم خال بإذن الله .

فحدجته المرأة بنظر أعمش وسألته:

ـ وماذا عاد بك بعد الغيبة الطويلة؟

فقال محاكيا لهجة الحكماء:

ـ مصير الحي إلى حارته وأهله.

فأشارت المرأة إلى ربع في حي رفاعة وقالت:

ـ عندك هناك بدروم، خلا مذ ماتت ساكنته حرقا الله يرحمها، ألا يخيفك ذلك؟

فضحكت امرأة مطلة من نافذة وقالت:

ـ هذا رجل تخاف منه العفاريت.

فرفع رأسه متظاهرا بالضحك والانبساط وقال:

- يا حارتنا يا حلوة، ما أرق ظرف أهلك! الآن أعرف لماذا نصحتني أمي عند الوفاة بالعودة إليك!

ثم نظر إلى المرأة القاعدة وقال:

- الموت حق علينا يا زبونة المرحومة أمى، سواء جاء من حرق أو غرق أو عفريت أو نبوت.

وحياها ومضى نحو الربع الذى أشارت إليه. وأصبح محط أنظار كثيرين، فقال رجل ساخرا:

ـ عرفنا أمه، فمنذا يعرف أباه؟

فقالت عجوز:

ـ ربنا أمر بالستر!

فقال ثالث:

ـ يمكنه أن يدعى أنه ابن رجل من جبل أو رفاعة أو قاسم، كما يشاء أو تشاء مصلحته، الله يرحم أمه!

فهمس صاحبه في أذنه ساخطا:

ـ لماذا عدت بنا إلى هذه الحارة؟

فقال عرفة والابتسامة ما زالت في شفتيه:

- فى كل مكان أسمع هذا الكلام، وهذه حارتنا على أى حال، وهى الحارة الوحيدة التى يمكننا الإقامة بها. حسبنا تخبطا فى الأسواق ونوما فى الخلاء والخرابات. ثم إن هؤلاء الناس طيبون على رغم قذارة ألسنتهم، أغبياء على رغم نبابيتهم، فهنا يسهل علينا كسب رزقنا، تذكر هذا يا حنش!

فهز حنش منكبيه الضيقين كأنما يقول: «الأمر لله». واعترضهما رجل مسطول فسأل عرفة:

ماذا نسميك؟

ـ عرفة .

ولقبك؟

ـ عرفة بن جحشة!

فضج الواقفون بالضحك مسرورين بهوانه، فعاد المسطول يقول:

- طالما سألنا أنفسنا في ذلك الزمان حينما حملت أمك: ترى من يكون أبوك؟ فهل خبرتك بالحقيقة؟

فقال عرفة مداريا ألمه بمزيد من الضحك:

ـ ماتت هي نفسها قبل أن تعرفه!

ومضى وهم يضحكون. وسرى نبأ عودته في الأحياء. وقبل أن يتسلم البدروم جاء صبى قهوة الرفاعية وقال له:

ـ المعلم عجاج فتوة حينا يطلبك.

ذهب إلى القهوة على مبعدة قريبة من الربع. استرعى نظره أول ما اقترب منها الصورة المنقوشة على الجدار الأوسط فوق أريكة الشاعر. كانت تبدأ من أسفل بصورة لعجاج ممتطيا جواده، وفوقها صورة للناظر قدرى بشاربه الفخيم وعباءته الأنيقة، ثم فوقهما صورة لجثة رفاعة بين يدى الجبلاوى وهو يرفعها من الحفرة ليأخذها إلى بيته. تأمل ذلك المنظر باهتمام ولكن بسرعة، ثم دخل القهوة فرأى عجاج يجلس على أريكة تتوسط الجناح الأيمن، ومن حوله يجلس الأتباع والأعوان.

مضى عرفة إليه حتى مثل بين يديه فرمقه الفتوة بنظرة ازدراء طويلة كأنما ينومه بعينيه قبل أن ينقض عليه. وقال عرفة رافعا يديه إلى رأسه:

- التحيات المباركات على فتوتنا، من نحتمي بحماه ونسعد بجواره.

فلاحت السخرية في العينين الضيقتين وقال:

ـ كلام حلو يا بن القديمة، ولكنه عملة لا نعترف بها وحدها!

فقال عرفة باسما:

ـ ستجيء العملة الأخرى في أقرب وقت إن شاء المولى.

ـ عندنا متسولون أكثر من الحاجة!

فقال عرفة بكبرياء ضاحك:

ـ لست متسولاً يا معلم ولكني ساحر اعترفت بفضله الملايين!

وتبادل الجلاس النظرات فقطب عجاج متسائلا:

ـ ماذا تعنى يا بن المجنونة؟

فدس عرفة يده في عبه وأخرج حقا صغيرا دقيقا في حجم النبقة وتقدم في خضوع من المعلم ومد به يده فتناوله المعلم بعدم اكتراث، وفتحه، فرأى مادة قاتمة، رفع إليه عينيه متسائلا فقال عرفة في ثقة لاحد لها: ـ قمحة منه على فنجال شاى قبل «لا مؤاخذة» بساعتين، وبعدها فإما ترضى عن محسوبك عرفة، وإما تطرده من الحارة مشفوعا باللعنات.

اشرأبت الأعناق باهتمام شديد لأول مرة، وحتى عجاج لم يستطع أن يخفى اهتمامه، لكنه تساءل في استهانة مصطنعة:

ـ أهذا هو سحرك؟

عندى أيضا البخور النادر، الوصفات العجيبة، الطب والدواء، الأحجبة، ويعرف قدري حقا عند المرض والعقم والضعف.

فقال عجاج فيما يشبه الوعيد:

- الله . . الله . . فلنبشر بالإتاوات!

فانقبض قلب عرفة، لكن وجهه زاد انبساطا وهو يقول:

ـ كل ما أملك تحت أمرك يا معلم.

فضحك الفتوة بغتة وقال:

ـ لكنك لم تخبرنا من أبوك!

فقال دون أن يزايله المرح:

ـ لعلك به أعلم!

وضجت القهوة بالضحك. وتلاقت التعليقات الساخرة في شراريب الدخان السابحة في الجو. ولما ابتعد عرفة عن القهوة قال لنفسه حانقا: «من يدرى من يكون أبوه حقا؟ ولا أنت يا عجاج، آه يا أولاد الكلب!». وتفقد هو وحنش البدروم في ارتياح، ومضى يقول:

ـ أوسع مما كنت أتوقع، مناسب جـدا يا حنش، فـهـذه الحـجرة صـالحـة لـلمقـابلات، والتي بالداخل للنوم، والأخيرة للعمل.

فسأله حنش بقلق:

ـ ترى في أي حجرة احترقت المرأة؟

فضحك عرفة ضحكة عالية رنت بين الجدران الخالية وقال:

ـ أتخاف من العفاريت يا حنش؟ إننا نتعامل معهم كما كان جبل يتعامل مع الثعابين.

ونظر فيما حوله بارتياح وقال:

ـ ليس عندنا إلا نافذة واحدة في الحجرة المطلة على الطريق، سنرى الطريق من تحت من خلال النافذة ذات القضبان الحديدية، فلهذه المقبرة ميزة جليلة وهي أنها لا يمكن أن تسرق.

ـ قد تنهب!

ـ قد!

ثم وهو يتنهد:

ـ كل ما عندي فيه فوائد للناس، لكني لم ألق في حياتي إلا الإساءة.

فقال حنش:

ـ سيعوضك النجاح عن كل ما نالك من أذى، أو ما نال المرحومة أمك من قبل.

# 9 8

فى أوقات الفراغ كان يحلو له أن يجلس على كنبة قديمة ليتفرج على ما يجرى من النافذة المطلة على أرض الحارة. جلس مسند الجبين إلى قضبان النافذة فبدت الأرض على مستوى بصره بكل ما يدب عليها من أقدام وعجلات وكلاب وقطط وحشرات وأطفال، أما الوجوه والصدور فلم يكن ليراها إلا بتخفيض قامته ورفع رأسه. ووقف أمامه طفل عار وهو يلعب بفأر ميت، ثم مر عجوز ضرير يحمل على يسراه صينية خشبية حملت لبا وفولا وحلوى وذبابا ويتوكأ بيمناه على عصا غليظة، وكان صوت عويل يترامى من شباك بدروم قريب، ومعركة تدور بين رجلين حتى تدفق الدم من وجهيهما.

ما اسمك يا شاطر؟

فأجاب:

ـ أونة .

- قصدك حسونة ، هل يعجبك هذا الفأر الميت يا حسونة؟

فرماه به. ولولا أن حجزه قضيب لأصاب وجهه، وجرى الصغير كقارب يتمايل. والتفت نحو حنش وكان يهوم عند قدميه وقال:

ـ فى كــل شـبر من هذه الحارة تجد دليلا على وجود الفتوات، ولكنك لن تجد دليلا واحدا على وجود أناس مثل جبل أو رفاعة أو قاسم.

فقال حنش وهو يتثاءب:

ـ نحن نرى أمثال سعد الله ويوسف وعجاج والسنطوري، ولكننا نسمع فقط عن أمثال جبل ورفاعة وقاسم.

ـ لكنهم وجدوا، أليس كذلك؟

فأشار حنش إلى أرض الحجرة بأصبعه وقال:

ـ ربعنا رفاعى، كل سكانه رفاعية، أى رجال رفاعة الذى تؤكد الرباب كل مساء أنه عاش ومات فى سبيل الحب والسعادة، ومع ذلك فنحن نغير ريقنا كل صباح على سبابهم ومشاجراتهم. هكذا هم نساء ورجالا.

فلوى عرفة شفتيه امتعاضا وقال:

ـ لكنهم وجدوا، أليس كذلك؟

فواصل حنش كلامه قائلا:

- السباب أهون ما يقع في حي رفاعة ، أما المعارك فأجارك الله منها . أمس فقط فقد ساكن عينه .

وقف عرفة محتدا وقال:

ـ حارة عجيبة! الله يرحمك يا أمى، انظر إلينا مثلا، الكل ينتفع بنا ولا أحد يحترمنا!

ـ إنهم لا يحترمون أحدا.

فأصر على أسنانه وقال:

- إلا الفتوات!

فقال حنش ضاحكا:

ـ حسبك أنك الوحيد في هذه الحارة الذي يتعامل معه الجميع من جبلية ورفاعية وقاسمية .

\_عليهم اللعنة جميعًا.

وصمت مليا وعيناه تلمعان في ضوء البدروم الخافت ثم قال:

- كل واحد منهم يفاخر برجله بغباء وعمى، يفاخرون برجال لم يبق منهم إلا أسماؤهم، ولا يحاولون قط أن يجاوزوا الفخر الكاذب بخطوة واحدة! أولاد كلب حناء.

وكان أول من قصده من زبائن امرأة من آل رفاعة، في الأسبوع الأول من استقراره في مسكنه، وإذا بها تسأله بصوت خفيض:

ـ كيف يمكن التخلص من امرأة دون أن يدري أحد؟

فارتاع الرجل، ونظر إليها باستغراب، ثم قال:

ـ لست لذلك يا ستى، إذا أردت أدوية للجسد أو للروح فأنا خادمك!

فتساءلت بإنكار:

\_ألست ساحراً؟

فقال بوضوح:

\_ في كل ما فيه فائدة للناس، أما القتل فله أناس آخرون!

\_لعلك خائف؟! لكننا سنكون شريكين سرهما واحد.

فقال برقة تطوى سخرية:

ـ لم يكن رفاعة كذلك!

فهتفت:

\_رفاعة؟! عليه الرحمة، نحن في حارة لا تجدى فيها الرحمة، ولو كانت تجدى ما هلك رفاعة نفسه!

وتركته يائسة لكنه لم يندم. إن رفاعة نفسه - أول الطيبين - لم يظفر بالسلامة في هذه الحارة، فكيف يأمل فيها من يبدأ عمله بالجريمة؟! وأمه! كم لاقت من آلام دون أن تتعرض لأحد بأذى. فليكن على خير صلة بالناس جميعا كما يجدر بكل تاجر لبق. ومضى يتردد على جميع المقاهى فيجد في كل قهوة زبونا يعرفه. واستمع إلى قصص الرباب في جميع الأحياء حتى اختلطت في رأسه وكان يدور بها ذلك الرأس. وكان أول زبون جاءه من حى قاسم رجلا طاعنًا في السن فقال له همسا وهو يبتسم:

ـ سمعنا عن الهدية التي أتحفت بها عجاج فتوة رفاعة.

فتفرس في وجهه المجعد باسما، فقال الرجل:

\_ أتحفنا بما عندك و لا تدهش، فيّ وحياتك رمق!

وتبادلا ابتسامة كالسر، فقال العجوز متشجعًا:

- أنت قاسمي، أليس كذلك؟ هكذا يعتبرك أهل حينا.

فسأله عرفة ساخرًا:

\_هل يعرفون أبي عندكم!

فقال الرجل بجد واهتمام:

- القاسمي يعرف بسيماه! لذلك فأنت قاسمي. نحن الذين رفعنا الحارة إلى قمة العدالة والسعادة، ولكنها واأسفاه حارة مشئومة.

ثم تذكر الرجل الغرض الذي جاء من أجله فقال برقة:

- الهدية من فضلك.

وذهب الرجل وهو يقرب الحق من عينه العمشاء وقد دبت في مشيته المتهالكة صحوة نشاط وأمل. وكان آخر من زاره شخصًا غير متوقع. كان يجلس في حجرة الاستقبال على شلتة أمامها مبخرة تنفث دخانًا رقيقا ساحرا حين دخل عليه حنش بين يدى نوبى عجوز وهو يقول:

ـ عم يونس بواب حضرة الناظر.

فانتفض عرفة واقفًا ومدله يديه مرحبًا وهو يقول:

\_أهلاً. . أهلاً، زارنا النبي . . تفضل يا مولانا!

جلسا متجاورين، وقال البواب بصراحة معهودة:

\_الهانم، نظيرة هانم حرم الناظر، تحلم أحلاما سيئة حتى قل نومها.

بدا الاهتمام في عيني عرفة، ودق قلبه دقة الأمل والطموح، لكنه قال ببساطة:

\_حال عارضة تمر بسلام . .

ـ لكن الهانم منزعجة وقد أرسلتني إليك لتجد لها شيئا مناسبًا .

شعر عرفة بسعادة وسيادة لم يعرفها طوال حياة التشرد التي ألفها في ظل أمه الراحلة وقال :

- الأفضل أن أحادثها بنفسى!

فقال البواب بحدة:

\_محال! لن تجيء إليك ولن تدخل إليها!

وغالب عرفة اليأس مستميتا في الدفاع عن فرصته الذهبية فقال:

\_يلزمني منديلها أو شيء من طرفها!

وأحنى البواب رأسه المعمم وقام ليذهب. وعندما بلغا باب البدروم تلكأ البواب قليلا ثم مال على أذن عرفة قائلا في همس:

ـ سمعنا عن هديتك لعجاج فتوة رفاعة!

ولما ذهب البواب بالهدية ضحك عرفة وحنش طويلا، وتساءل الأخير:

ـ لمن أخذ الهدية يا ترى؟ لنفسه أم للناظر أم للهانم؟

وهتف عرفة ساخرًا:

\_ يا حارة الهدايا والنبابيت!

ومضى إلى النافذة ينظر إلى الحارة في الليل. بدا الجدار المواجه لعينيه مفضضا بضوء القمر، وتعالت زفرات الصراصير، وارتفع صوت الشاعر من قهوة الحي وهو يقول:

«وتساءل أدهم:

\_متى تقر بأنه لم تعد تربطنا صلة؟

فقال إدريس:

ـ لترحمنا السماء، ألست أخى؟ هذه رابطة ليس في الإمكان فصمها.

\_إدريس! كفاك ما فعلت بي . .

\_الحزن قبيح، ولكن كلينا مصاب، أنت فقدت همام وقدرى وأنا فقدت هند، أصبح للجبلاوي العظيم حفيدة عاهرة وحفيد قاتل! . .

فعلا صوت أدهم وهو يهدر:

\_إذا لم يكن جزاؤك من جنس عملك فعلى الدنيا العفاء».

وتحول عرفة عن النافذة في سأم. متى تكف حارتنا عن حكى الحكايات؟ ومتى يكون على الدنيا العفاء؟ وأمى رددت يوما هذا القول: "إذا لم يكن الجزاء من جنس العمل فعلى الدنيا العفاء». أمى المسكينة ساكنة الخلاء. لكن ماذا أفدت من الحكايات يا حارتنا؟

# 90

كان عرفة وحنش يعملان بهمة في حجرة البدروم الخلفية على ضوء مصباح غازى مثبت في الجدار. لم تكن الحجرة تصلح للحياة العادية لرطوبتها وظلامها ولموقعها آخر البدروم فجعل عرفة منها مقراً لعمله. وبدت على أرضها وفي أركانها مجموعات من أوراق الأحجبة، والأتربة والجير، ونباتات وتوابل، وحيوانات وحشرات مجففة كالفئران والضفادع والعقارب، وأكوام من قطع الزجاج، وقوارير، ومياه في صفائح، وسوائل غريبة ذات رائحة نفاذة، وفحم، وكانون، وقد ركبت على الجدران رفوف حملت بأنواع شتى من الأوعية والآنية والأكياس. وكان عرفة منهمكا في خلط بعض المواد وعجنها في وعاء من الفخار كبير، وكان العرق يتصبب من جبينه فيجففه بكم جلبابه من حين لآخر. هذا وحنش رابض عن كثب، يراقبه باهتمام، استعداداً لتلبية أي إشارة تصدر منه، وكأنما أراد أن يعزيه أو يتودد إليه فقال:

ـ هذا التعب لا يبذل جزءا منه أكبر عامل في هذه الحارة المنكودة، وفي سبيل أي جزاء يبذل؟ ملاليم أو قرش على خير الفروض!

# فقال عرفة بارتياح:

رحم الله أمى! لا يعرف فضلها سواى، ويوم سلمتنى لذلك الساحر العجيب الذى يقرأ لك جميع ما يجول في خاطرك تغيرت حياتى تغيراً كليا، فلولاها لكنت على خير ظن نشالاً أو متسولاً.

فأصر حنش على أسفه قائلا:

\_ملاليم. . !

- النقود تكثر بالصبر، لا تيأس من ذلك. ليست الفتونة هي السبيل الوحيد إلى الشروة، ولا تنس المنزلة السامية التي أتمتع بها، فإن من يقصدني إنما يعتمد كل الاعتماد على ويضع سعادته أمانة بين يدى، وليس هذا بالشيء القليل. ولا تنس أيضا لذة السحر نفسه، لذة استخراج مادة مفيدة من مواد قذرة، لذة الشفاء حين يأتمر بأمرك، وهنالك القوى المجهولة التي تتشوف للاتصال بها وامتلاكها إن استطعت.

ونظر حنش إلى الكانون وقال منقطعًا فجأة عن تيار صاحبه:

- الأوفق أن أوقد الكانون في دهليز المنور وإلا اختنقنا.

- أوقده في جهنم، ولكن لا تخرجني عن أفكارى! إن أى مغفل ممن يحسبون أنفسهم معلمين في هذه الحارة لا يستطيع أن يدرك خطورة الأشياء التي تصنع في هذه الحجرة المعتمة القذرة ذات الروائح الغريبة. أدركوا فائدة «الهدية» ولكن ليست الهدية كل شيء. إن أعاجيب لا يحيط بها الخيال يمكن أن تخرج من هذه الحجرة. المجانين لا يدركون قيمة عرفة الحقيقية، لعلهم يعرفونها يوما ما، وعند ذاك يجب أن يترحموا على أمي لا أن يعرضوا بها كما يفعلون.

وكان حنش قد قام نصف قومة فعاد يجلس القرفصاء وهو يقول بامتعاض:

- كل هذا الجمال قد تطيح به عصا فتوة أحمق.

فقال عرفة بحدة:

ـ نحن لا نؤذي أحدًا وندفع الإتاوة فكيف نتعرض للأذي يا بن جلجل؟

فضحك حنش قائلا:

\_وماكان ذنب رفاعة؟

فحدجه بنظرة غاضبة وقال:

\_ لماذا تقرفني بهذه الأفكار؟

ـ أنت تأمل أن تثرى وهنا لا يثرى إلا الفتوات، وتأمل أن تصير قويا وهنا لا يسمح بالقوة إلا للفتوات، فاعمل حسابك يا أخ!

وصمت عرفة حتى يتأكد من حسن تقديره في الخلط بين المواد، ثم نظر إلى حنش فرأي سحنته ما زالت محتفظة بصورة التحذير فضحك قائلا:

ـ حذرتني أمي من قبلك، شكرا يا حنش يا بن جلجل، لكني عدت إلى الحارة وفي رأسي خطة!

\_يبدو أنه لم يعديهمك إلا السحر.

فقال عرفة في جذل كالنشوة:

-السحر شيء عجيب حقّا، لا حدلقوته، ولا يدرى أحد أين يقف، وقد تبدو النبابيت نفسها لمن يملكه لعب أطفال، تعلم يا حنش ولا تكن غبيا، تصور لو كان جميع أولاد حارتنا سحرة؟

ـ لو كانوا جميعهم سحرة لماتوا جوعًا!

فضحك عرفة ضحكة كشفت عن أسنان حادة وقال:

ـ لا تكن غبيا يا حنش واسأل نفسك ماذا كان يمكن أن يصنعوا! والله كانت الأعاجيب تخرج من حارتنا في غزارة السباب والشتائم .

ـ نعم، على شرط ألا يموتوا جوعًا قبل ذلك!

ـ نعم، ولن يموتوا ما داموا في غير..

لكنه سكت قبل أن يتم قوله، ومضى يفكر في اهتمام حتى كفت يداه عن العمل، ثم رجع يقول:

ـ شاعر آل قاسم يقول إن قاسم أراد استغلال الوقف حتى يجد كل حاجته فيستغنى عن العمل ويفرغ للسعادة الغناء التي حلم بها أدهم .

\_ذلك قول قاسم!

فقال وعيناه تلمعان بشدة:

\_ ولكن الغناء ليس هو الهدف الأخير! تصور أن يمضى العمر في فراغ وغناء؟ وهو حلم جميل لكنه مضحك يا حنش، الأجمل حقا أن نستغنى عن العمل لنصنع الأعاجب.

هز حنش رأسه الكبير ـ الذي يبدو منغرسا في جسده دون رقبة تذكر ـ محتجّا على حديث لا معنى له، ثم استرد لهجة العمل الجدية وهو يقول:

ـ دعني الآن أوقد الكانون تحت المنور.

\_افعل، وضع نفسك فوق اللهيب فما تستحق إلا الحرق.

وغادر غرفة العمل بعد ساعة فمضى إلى الكنبة وجلس ينظر من النافذة إلى الخارج. اقتحمت أذنيه ضجة الحياة بعد صمت فتلاقت فيهما نداءات الباعة وأحاديث النساء المتبادلة ونكات صارخة ومختارات من الشتائم، تصاحب تيار الرائحين والغادين الذى لا ينقطع . وإذا به يلاحظ أن شيئا جديدًا اتخذ مكانه عند الجدار المواجه لنافذته. قهوة متنقلة مكونة من قفص مغطى بملاءة قديمة صفت عليه علب البن والشاى والقرفة وموقد وكنجات وفناجيل وأكواب وملاعق، وقد جلس عجوز على الأرض يروح على الموقد

ليسخن ماء، على حين وقفت وراء القفص فتاة في ربيع العمر وهي تنادى بصوت دافئ: "قهوة مزاج يا جدع!". كانت القهوة تقع عند ملتقى القاسمية بالرفاعية، وبدا أن أكثر زبائنها من أصحاب عربات اليد والمساكين. وجعل رفاعة يطيل النظر إلى الفتاة من بين القضبان. هذا الوجه الأسمر المتلفع بخمار أسود ما ألطفه، وهذا الجلباب البني الغامق الذي يغطيها من العنق حتى القدمين ويتجرجر منه طرف على الأرض إذا مشت بطلب أو عادت بقدح فارغ، هذا الجلباب حشمة وأدب، وهذه القامة الرشيقة، والعينان العسليتان ما أجملهما لولا احمرار أشفار يسراهما لرمد أو قذارة! هي ابنة العجوز كما يشهد الوجهان ويبدو أنه أنجبها في سن متأخرة كما يقع كثيرا في حارتنا. ودون تردد صاح بها:

ـ يا شابة . . فنجال شاي وحياتك .

فامتدت إليه عيناها، وبسرعة ملأت قدحا من إبريق مدفون حتى منتصفه في الرماد، ومضت به إليه عبر الطريق فتسلمه وهو يقول باسما:

\_عاشت يدك، كم ثمنه؟

\_نكلة.

\_غال!ولكن لا يغلو لك ثمن!

فقالت باحتجاج:

ـ في القهوة الكبيرة بتعريفة وهو لا يمتاز عما في يدك بشيء.

وذهبت دون انتظار لكلام، فراح يحسوه قبل أن يبرد ودون أن يحول عينيه عنها. ما أسعد أن يملك فتاة بهذا الشباب! لا عيب فيها إلا حمرة عينها وما أسهل أن يداويها، ولكن الأمر يحتاج إلى قدر من النقود لم يوجد بعد. والبدروم جاهز وما على حنش إلا أن ينام في الدهليز أو في حجرة الاستقبال إذا شاء على شرط أن يفليها من البق أولا بأول. وانتبه على همهمة غريبة، ورأى الناس ينظرون نحو أعلى الحارة ويقول البعض منهم: «السنطورى. . السنطورى» فنظر بميل على قدر ما سمحت به القضبان له فرأى الفتوة قادما في هالة من الأعوان. ولما مر بالقهوة المتنقلة وقع بصره على الفتاة فسأل رجلا من رجاله:

\_ من الفتاة؟

\_ عواطف بنت عم شكرون.

فلعب الرجل حاجبيه في ارتياح ومضى نحو حيه. وشعر عرفة بضيق وقلق. لوح للفتاة بالقدح الفارغ فجاءته في خفة فأخذته وتناولت من يده النكلة. وعند ذاك سألها وهو يشير بذقنه إلى الناحية التي ذهب إليها السنطوري:

\_ألم يضايقك شيء؟

فقالت ضاحكة وهي تستدير لتذهب:

ـ سأستعين بك عند اللزوم، فهل تعين؟

فحزت في نفسه سخريتها. سخرية حزينة لا متحدية فتضاعف ضيقة. وهنا سمع صوت حنش وهو يناديه فوثب إلى أرض الحجرة واندفع إلى الداخل. .

### 97

تكاثر زبائن عرفة مع الأيام، لكن قلبه لم يفرح بزبون كما فرح بعواطف يوم رآها مقبلة عليه في حجرة الاستقبال. نسى مهابة المعلم التي يرتديها أمام زبائنه فوقف مرحبا بها، ثم أجلسها على شلتة أمامه وتربع في مجلسه والدنيا لا تسعه من السرور. حياها بنظرة شاملة لكنها سرعان ما وقفت على عينها اليسرى التي كادت تختفي وراء ورم ملتهب، فقال محتجاً:

\_ أهملتها يا شابة ، كانت حمراء منذ أول يوم رأيتك .

فقالت كالمعتذرة:

-اكتفيت بغسلها بالماء الساخن، والمشغول بالعمل مثلي ينسي.

ـ ولا يجوز أن تنسى صحتك، وبخاصة إذا تعلق الأمر بعضو عزيز مثل عينك الحملة!

ابتسمت متأثرة بالثناء على حين كان هو يمد يده إلى رف خلفه ليجيء بكوز، ثم أخرج منه لفافة صغيرة وقال وهو يشير إليها:

- صرى ما فيها في منديل، وحطيه فوق بخار ماء يغلى، ثم اربطيه على عينك ليلة بعد أخرى حتى تعود عينك إلى جمال أختها.

تناولت اللفافة، وأخرجت كيسا من جيبها وهي تسأله بعينها اليمني عن الثمن. فقال ضاحكا:

ـ لا عليك من هذا فنحن جيران وبيننا صداقة!

\_لكنك تدفع ثمن ما تشرب من شاى .

فقال متهربًا:

\_إنى أدفع في الواقع لأبيك، هذا الرجل الوقور. كم أود أن أعرفه، وكم أسفت على اضطراره للعمل حتى هذه السن المتأخرة!

فقالت في مباهاة:

لكن صحته جيدة، وهو يأبي أن يقعد في البيت، غير أن طول عمره من دواعي حزنه في الحياة، إذ إنه كان ممن شهدوا الأحداث على عهد قاسم.

فتجلى الاهتمام في وجه عرفة وسألها:

\_حقا؟! أكان من أعوانه؟

\_كلا، لكنه ذاق السعادة في أيامه وما زال يتحسر عليها.

ـ أريد أن أعرفه وأن أستمع إليه.

فبادرته قائلة:

ـ لا تجره إلى هذا الحديث، فإنى أود أن ينساه إلى الأبد حرصا على سلامته. كان مرة في خمارة يشارب بعض أصحابه، ولما سكر وقف بينهم يطالب بأعلى صوته بأن تعود الحياة إلى ما كانت عليه أيام قاسم، وما أن عاد إلى حارتنا حتى وجد السنطوري أمامه فانهال عليه ضربا وصفعًا ولم يتركه حتى أغمى عليه.

تفكر عرفة في امتعاض شديد ثم لحظ عواطف بمكر وقال:

ـ لا أمان لأحد مع وجود هؤلاء الفتوات!

فرمقته بنظرة خاطفة كأنما تتساءل عما وراء مقصده الظاهر ، وقالت :

\_صدقت، لا أمان لأحد معهم.

وتريث وهو يعض شفتيه كالمتردد، ثم قال:

\_رأيت السنطوري وهو ينظر إليك نظرة كلها وقاحة.

فدارت ابتسامة بحركة من رأسها إلى أسفل، وقالت:

\_ربنا يأخذه.

لكن عرفة تساءل في ارتياب:

\_ أليس مما يسر الفتاة أن يعجب بها فتوة مثله؟

ـ إنه زوج لأربع!

فغاص قليه في أعماقه، وتساءل:

\_ وإذا كان عنده متسع؟

فقالت بحدة:

\_ كرهته منذ اعتدى على أبي، وهكذا جميع الفتوات لا قلوب لهم، يأخذون الإتاوة وكأنهم لاستكبارهم هم الذين يعطون.

فانتعش بالارتياح وقال بحماس:

- أحسنت يا عواطف! كما أحسن قاسم من قبل يوم قضى عليهم، لكنهم يعودون مثل بعض الدمامل الغامضة.

ـ لذلك يتحسر أبي على أيام قاسم.

فهز رأسه في غير اكتراث طارئ وقال:

ـ ويوجد غيره من يتحسرون على أيام جبل ورفاعة، لكن الماضي لا يعود.

فقالت في استياء مليح:

\_ تقول ذلك لأنك لم تشهد قاسم مثل أبى.

\_وهل شهدته أنت؟

\_ أبى قال لى .

ـ وأمى قالت لى، ولكن ما جدوى ذلك؟ إنه لا يخلصنا من الفتوات، وأمى نفسها كانت ضحية لهم، وها هم أولاء يعرضون بها بعد موتها.

\_حقا؟!

فقال بوجه متجهم كأنه قدح ماء صاف تعكر فجأة بإثارة رواسبه:

\_لذلك أخـشى عليك يا عـواطف. الفـتـوات يهـددون الرزق والعـرض والحب والسلام. أصارحك بأننى اقتنعت منذ رأيت الوحش يتطلع إليك بوجوب القضاء عليهم.

فقالت عواطف باهتمام:

\_يقولون إنه في وصية جدنا الواقف. . .

\_أين جدنا؟!

فقالت ببساطة:

- في البيت الكبير.

فقال بهدوء وبوجه لا ينم عن السرور:

ـ نعم أبوك يحدث عن قاسم، وقاسم حدث عن جدنا، هكذا نسمع، ولكنا لا نرى إلا قدرى وسعد الله وعجاج والسنطوري ويوسف. نحن في حاجة إلى قوة تخلصنا من العذاب، فماذا تجدى الذكريات!

وانتبه إلى أن مجرى الحديث كاد يفسد عليه اللقاء، فقال وهو يعدل عن السيكا إلى ببا:

ـ الحارة في حاجة إلى قوة كما أنا في حاجة إليك!

فحدجته بنظرة استنكار، فابتسم في جرأة بدت غير غريبة عن عينيه الجارحتين، وقال بجدية ليتحاشى غضبة متوثبة في حاجبيها:

ـ شابة طيبة مجتهدة جميلة، تنسى فى غمرة العمل عينها حتى تورمت، ثم تجيئنى وهى تظن أنها فى حاجة إلىها. وهى تظن أنها فى حاجة إلى فتتضح لها الحقيقة وهى أننى أنا الذى فى حاجة إليها. وقالت وهى تهم بالقيام:

\_آن لي أن انصرف.

- بغير غضب من فضلك، واذكرى أننى لم أصرح بجديد، فلا شك فى أنك استشففت إعجابى بك طوال الأيام الماضية إذ إن نظراتى تذهب وتجىء ما بين نافذتى وقهوتك. إن أعزب مثلى لا يمكن أن يعيش وحده إلى الأبد، وإن بيته المشحون بالعمل فى حاجة للرعاية، وإن أرباحه تفيض عن حاجته فلابد أن يشاركه فيها إنسان.

غادرت الحجرة. وقف في نهاية الدهليز ليودعها. وكأنها لم ترض أن تذهب دون تحية فقالت:

\_ فتك بعافية .

ولبث مكانه وهو يترخم بصوت مهموس:

خدك المسياس يا بدرى واملاً لى الكاس من بدرى وأنت أحسل يا السناس في نظرى

ثم مضى في فتوة ونشاط إلى حجرة العمل فوجد حنش منهمكًا في واجباته، فسأله:

\_ماذا عندك؟

فعرض أمامه زجاجة وهو يقول:

معبأة ومحكمة الإغلاق، ولكن ينبغي أن تجرب في الخلاء.

فتناولها عرفة وراح يمتحن سدادتها، ثم قال:

ـ نعم، في الخلاء وإلا افتضح أمرنا.

فقال حنش بقلق:

\_الرزق بدأ يجيء والحياة تبتسم، فلا تفرط فيما وهبك الله من سعادة.

أخذ حنش يضيق بالحياة بعد أن حَلَتْ في عينيه. ابتسم عرفة عند هذا الخاطر. ونظر إلى حنش مليا ثم قال:

\_كانت أمك كما كانت أمى.

ـ نعم ولكنها توسلت إليك ألا تفكر في الانتقام.

\_كان رأيك غير ما تبدى الآن!

ـ سنقتل قبل أن ننتقم.

فضحك عرفة وقال:

ـ لا أخفى عنك أنني كففت عن التفكير في الانتقام من زمن.

فتهلل وجه حنش وهو يقول:

\_هات الزجاجة لنفرغها يا أخى.

لكن عرفة شدد قبضته على الزجاجة وهو يقول:

ـ بل سنجربها حتى تبلغ الكمال.

فقطب حنش في استياء احتجاجا على الهزء به، فأردف عرفة قائلا:

- أنا أعنى ما أقول يا حنش، ثق بأنني عدلت عن الانتقام، لا إذعانا لتوسلات أمنا، وإنما لاقتناعي بوجوب القضاء على الفتوات بصرف النظر عن انتقامنا.

فقال حنش محتداً:

\_بسبب حبك لهذه الفتاة.

فضحك عرفة حتى بان حلقه وقال:

- حب الفتاة ، حب الحياة ، أسمه بما تشاء . . كان قاسم على حق!

\_مالك أنت وقاسم؟! كان قاسم يحقق رغبة جده!

فمط بوزه وقال:

من يدرى؟! حارتنا تحكى الحكايات، أما نحن فنقوم بأعمال حاسمة فى هذه الحجرة لا شك فيها، وأين الأمان فى حياتنا؟ سيجىء عجاج غدا لينهب رزقنا، وإذا قدمت يدا للزواج من عواطف اعترضنى نبوت السنطورى، وهذا حال كل رجل فى حارتنا حتى المتسول. فما يكدر صفو حارتى، وما يؤمننى هو ما يكدر صفو حارتى، وما يؤمننى هو ما يؤمنها. حقا ما أنا فتوة، ولا برجل من رجال الجبلاوى، ولكنى أملك الأعاجيب فى هذه الحجرة، ومنها قوة لم يحز عشرها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين. ورفع بالزجاجة بيده متخذا هيئة الموثب للقذف بها، ثم أعادها إلى حنش قائلا:

ـ سنجربها الليلة بالجبل. . ابسط وجهك واستعد حماسك.

وغادر حجرة العمل إلى النافذة، وتقرفص فوق الكنبة مرسلا ناظريه إلى القهوة المتنقلة. وكان الليل يهبط رويدا، وصوتها يعلو مناديا بالقهوة والشاى، وتجنبت النظر إلى نافذته فدل التجنب على خطوره ببالها. وومض بالابتسام فمها مثل ذلك النجم. وابتسم عرفة، كيانه كله ابتسم، وفاض من قلبه الرضا حتى أقسم ليمشطن شعره كل

صباح. وترامت من الجمالية ضجة أقوام يطاردون لصّا، ثم انبعثت من القهوة أنغام الرباب، وترامى صوت الشاعر مفتتحًا ليلته بقوله:

الأولى قى الظرنا والثانية آه سى قى دالله فى توتنا والثانية آه مى عام والثالثة آه مى تابان مى تابان مى تابان مى تابان مى تابانى مى تابان م

فانتزع من حلمه بلا رحمة. وقال بملل وتمرد: «ستبدأ الحكايات، متى تنتهى هذه الحكايات؟ وماذا أفاد الاستماع إليها طوال الليالي؟سيغنى الشاعر وتستيقظ الغرز يا حارة الحسرات..».

# ٩٧

وطرأ على حياة عم شكرون اضطراب غامض. كان يتكلم أحيانا بصوت مرتفع جدا كأنه يخطب فيقول بعطف: «الكبر. . إنه الكبر».

وكان يغضب شديد الغضب لأتفه سبب أو لغير ما سبب فيقولون: «الكبر»، وكان يعد يصمت طويلاً حتى حين تتطلب الحال الكلام فيقولون: «الكبر». وكان يقول أقوالا تعد في الحارة كفرا فيقولون في إشفاق: «الكبر اللهم احفظنا». وكان عرفة يراقبه كثيرا من خلال القضبان في عطف واهتمام. ومضى يراقبه ذات يوم وهو يقول لنفسه: رجل مهيب على رغم أسماله البالية وقذارته، وعلى صفحة وجهه الناحلة نقشت النكسة التي عدت على الحارة عقب أيام قاسم، إذ إنه من سوء حظه أنه عاصر قاسم، فنعم بأيام العدل والأمانة، ونال نصيبه كاملا من ريع الوقف، ورأى الأبنية تشيد باسم الوقف ثم تتوقف بأمر قدرى. وبالجملة هو رجل بائس طال به العمر أكثر مما ينبغى! ورأى عواطف قادمة بوجه لا تشوبه شائبة بعد أن شفيت عينها فتحول عن الرجل إليها وهتف باسما:

\_الشاي يأهل النظر!

وجاءته بالقدح فقال قبل أن يتناوله من يدها ليضمن بقاءها:

ـ مبارك عليك الشفاء يا وردة حارتنا.

فقالت باسمة:

\_الفضل لله ولك.

وتناول القدح متعمدًا أن تمس أنامله أناملها، فرجعت ومرح مشيتها ينبئ عن القبول والرضا. ما أجدر أن يخطو الخطوة الحاسمة. وهو رجل لا تعوزه الجرأة، غير أنه يجب

أن يعمل للسنطوري ألف حساب. الحق على عم شكرون الذي جاء بفتاته إلى طريق السنطوري! لكنه مسكين أعياه التجوال وراء عربته حتى عجز عن الاستمرار ففتح هذه القهوة المشئومة.

وترامت من بعيد ضجة وهتاف فتطلعت الرءوس نحو الجمالية، وما لبث أن ظهرت عربة كارو حملت النساء المغنيات المصفقات في وسطهن عروس عائدة من الحمام، فجرى الغلمان نحو العربة مهللين وتعلقوا بأطرافها وهي صاعدة نحو حي آل جبل، ويضطرم الجو حينا بالزغاريد والتهاني والهمسات الفاحشة. ووقف عم شكرون كالغاضب وصاح بصوت كالرعد:

-اضرب. اضرب!

فهرعت إليه عواطف وأجلسته وهي تربت ظهره في أسى وحنان. وتساءل عرفة: ترى هل يحلم الرجل أو يهلوس؟ ما ألعن الكبر. كيف إذن يعيش جدنا الجبلاوي؟ وجعل ينظر إلى الرجل حتى سكن ثم سأله برقة:

\_ يا عم شكرون هل رأيت الجبلاوي؟

فأجابه دون أن ينظر إليه:

\_ يا مغفل، ألا تدرى أنه اعتكف في بيته من قبل أيام جبل! فضحك عرفة، كما ابتسمت عواطف، وقال بصوت باسم:

\_ربنا يمد في عمرك يا عم شكرون.

فصاح شكرون:

\_ دعاء كان له قيمة حقا عندما كان العمر له قيمة .

وجاءته عواطف لتأخذ القدح فقالت له همسًا:

ـ دعه في حاله، إنه لا ينام من الليل ساعة!

فقال باهتمام حار:

ـ قلبي عندك يا عواطف.

ثم بسرعة قبل أن تهم بالسير:

\_أودأن أحدثه في أمرنا.

فحذرته بأصبعها وذهبت. وراح يتسلى برؤية صغار يلعبون «وطى البصلة». وبغتة ظهر السنطورى قادما من حى آل قاسم فتراجع رأسه عن القضبان بحركة غريزية. ماذا جاء به؟ من حسن حظه أنه أقام فى حى آل رفاعة فأصبح له من عجاج حام، عجاج الغارق فى «هداياه». اقترب الفتوة حتى وقف أمام قهوة شكرون، وتفحص وجه عواطف وهو يقول:

\_واحد سادة.

لعلعت ضحكة امرأة في نافذة وتساءلت أخرى:

\_أي شيء حمل فتوة قاسم على طلب السادة من قهوة المتسولين؟!

بدا السنطورى غير مكترث لشىء. قدمت عواطف له الفنجال فتلوى قلب عرفة فى صدره. وانتظر الفتوة حتى تذهب حرارة المشروب وهو يبتسم إلى الفتاة ابتسامة وقحة كشفت عن أسنانه المذهبة. وتوعده عرفة فى نفسه بضربه بجبل المقطم. ورشف السنطورى رشفة وقال:

- تسلم يدك الجميلة.

وخافت أن تبتسم كما خافت أن تقطب على حين تطلع شكرون إليهما بارتياع. ثم أعطاها الفتوة قطعة من ذات الخمسة القروش فدست يدها في جيبها لإحضار الفكة ولكنه لم ينتظر ولم يبد أنه يطالب بشيء، وعاد إلى قهوة القاسمية. وحارت عواطف في أمرها فقال لها عرفة بصوت منخفض:

ـ لا تذهبي إليه.

فتساءلت:

\_وباقى النقود؟

فنهض عم شكرون على رغم ضعفه وأخذ الباقى وذهب إلى المقهى. وبعد قليل عاد العجوز إلى مجلسه. وما لبث أن أغرق في الضحك حتى اقتربت منه ابنته وقالت برجاء:

\_كفاك ضحكًا .

ونهض قائما مرة أخرى . وقف مستقبلا بيت الواقف في نهاية الحارة، وصاح :

\_یا جبلاوی. . یا جبلاوی. .

والتفتت نحوه الأعين من النوافذ وأبواب الربوع والمقاهي والبدرومات، وهرع نحوه الغلمان، حتى الكلاب رمقته بأعينها. . وعاد شكرون يصيح:

\_ يا جبلاوى، حتى متى تلازم الصمت والاختفاء؟! وصاياك مهملة وأموالك مضيعة، أنت في الواقع تسرق كما يسرق أحفادك يا جبلاوى!

وهتف الصغار «هيه»، وقهقهه كثيرون. أما العجوز فاستدرك صارخًا:

\_ يا جبلاوى ألا تسمعنى؟ ألا تدرى بما حل بنا؟ لماذا عاقبت إدريس وكان خيرا ألف مرة من فتوات حارتنا؟! يا جبلاوى!

خرج عند ذلك السنطوري من المقهى وهو يصيح به:

\_ يا مخرف احتشم.

فالتفت نحوه غاضبا وهتف:

\_عليك اللعنة يا وغد الأوغاد!

همس كثيرون في إشفاق: «ضاع الرجل». واتجه السنطوري نحوه وقد أعماه الغضب وضربه على رأسه بقبضته. ترنح الرجل وكاد يهوى لولا أن أدركته عواطف. ورآها السنطوري فرجع إلى مجلسه.

وقالت الفتاة باكية:

ـ لنعد إلى البيت يا أبي.

وانضم إليها عرفة في مساندته، ولكن العجوز حاول في ضعف أن يبعدهما عنه. وثقلت أنفاسه على حين ساد الأقربين وجوم. وقالت امرأة من نافذة:

\_الحق عليك يا عواطف، فالأحسن أنه كان يبقى في البيت.

فقالت عواطف وهي ما زالت تبكي:

\_ ما لى حيلة.

وراح شكرون يقول بصوت ضعيف:

\_ يا جبلاوي . . يا جبلاوي . .

### 91

وقبيل الفجر شق صوات مولول السكون، ثم عرف الناس أن شكرون قد مات. كانت حادثة غير غريبة على الحارة. وقالت بطانة السنطورى: «الله يجحمه، عاش قليل الأدب، وقلة الأدب كانت السبب في موته». وقال عرفة لحنش:

ـ قتل شكرون، كما يقتل كثيرون في حارتنا، والقتلة لا يبالون بإخفاء جرائمهم، ولا يتجرأ أحد على الشكوى أو يجد شاهدا واحدًا!

فقال حنش بتقزز:

\_ يا للمصيبة! لماذا جئنا إلى هنا؟!

\_إنها حارتنا.

\_أمنا غادرتها منكسرة الخاطر، حارة ملعونة هي ومن عليها.

فقال بإصرار:

\_لكنها حارتنا.

\_كأننا نكفر عن ذنوب لم نجنها.

\_التسليم هو أكبر الذنوب جميعا.

فقال حنش بيأس:

ـ خابت تجربة الزجاجة في الجبل!

ـ لكنها ستنجح في المرة القادمة.

ولما حمل نعش شكرون لم يكن وراءه إلا عواطف وعرفة، وهكذا بدا أمام الربع. وعجب الجميع من اشتراك عرفة الساحر في الجنازة، وتهامسوا بجرأته العجيبة. . ذلك الساحر المجنون.

وكان الأعجب من ذلك أن السنطوري انضم إلى الجنازة عندما توسطت حي آل قاسم. بأي جرأة وقحة فعل؟! لكنه فعل بلا حياء وقال لعواطف:

\_البقية في حياتك يا عواطف!

وأدرك عرفة أن الرجل يمهد بذلك لطلبه القادم. والمهم أن حال الجنازة تغير في غمضة عين إذ تسارع إليها الجيران والمعارف الذين منعهم الخوف حتى ملأت الطريق. وعاد السنطوري يقول:

\_البقية في حياتك يا عواطف!

فنظرت إليه في تحد وقالت:

\_ تقتل القتيل وتمشى في جنازته؟!

فقال السنطوري بصوت سمعه كثيرون:

\_ قيل مثل هذا لقاسم من قبل.

وتعالت أصوات كثيرة وهي تقول:

\_وحدى الله، الآجال بيد الله وحده!

فصاحت به عواطف:

قتل أبي بضربة يدك!

فقال السنطورى:

- الله يسامحك يا عواطف، لو كنت ضربته ضربة حقيقية لقتل في الحال، والحق إنى ما ضربته ولكن هوشته والكل يشهدون بذلك.

واستبقت الحناجر قائلة:

ـ هوشه! ما لمسته يده، والله ما لمسه، وليأكل الدود عيوننا إن كنا كاذبين.

فهتفت عواطف:

\_ربنا المنتقم!

فقال السنطوري بحلم ضُرب مثلا عهدا طويلا:

- الله يسامحك يا عواطف.

ومال عرفة على أذن عواطف وقال فيما يشبه الهمس:

ـ خلى الجنازة تسير بسلام.

وما يدري عرفة إلا ورجل من أعوان السنطوري يدعى العضاض يهوى بكفه على وجهه ويصيح به:

\_يا بن المهبولة، ما أدخلك أنت بينها وبين المعلم؟!

التفت عرفة نحوه في ذهول فتلقى ضربة أشد من الأولى، وآخر صفعه، وثالث بصق على وجهه، ورابع أخذ بتلابيبه، وخامس دفعه بقوة فسقط على ظهره، وسادس قال له وهو يركله:

\_ ستدفن في القرافة إذا ذهبت إليها.

لبث مطروحا على الأرض فى ذهول، وتجمع، وقام فى ألم غير يسير وراح ينفض التراب عن جلبابه ووجهه. وكان جمع من الصغار قد التفوا حوله وراحوا يهتفون: «العجل وقع. . هاتوا السكين». . رجع إلى البدروم وهو يعرج وقد جن جنون غضبه. ونظر حنش إليه بأسى وقال:

\_قلت لك: لا تذهب!

فصرخ في حنق أهوج:

- اسكت، الويل لهم.

فقال له بلين وحزم معًا:

- اصرف النظر عن هذه البنت وإلا فعلينا السلام.

فصمت مليا وهو ينظر إلى الأرض مفكرا، ثم رفع وجهًا مكفهرًا بالإصرار المخيف وقال:

- ـ سترانى متزوجا بها أقرب مما تتصور!
  - ـ هذا هو الجنون بعينه.
  - ـ وسوف يرأس عجاج الزفة.
- \_ إنك تبلل ثيابك بالكحول وترمى بنفسك في النار .
  - ـ وسأعاود تجربة الزجاجة الليلة في الخلاء.

ولزم داره لا يبرحها أياما، ولكن صلته بعواطف لم تنقطع عن طريق النافذة ذات القضبان. ثم قابلها خفية عقب انقضاء أيام الحداد في دهليز ربعها وقال لها في صراحة:

\_يحسن بنا أن نتزوج في الحال.

ولم تُفْجَأ الفتاة بطلبه ولكنها قالت في حزن:

ـ ستسبب موافقتي لك من المتاعب ما لا تحتمل.

فقال بثقة :

ـ قبل عجاج أن يشرف حفلنا، ولذلك معنى لا يخفى عليك.

واتخذت الخطوات في تكتم شديد حتى تم كل شيء. وعلمت الحارة دون سابق إنذار أن عواطف بنة شكرون تزوجت من عرفة الساحر، وانتقلت إلى داره وأن عجاج فتوة آل رفاعة قد شهد الزواج. ذهل كثيرون وتساءل آخرون: كيف تم ذلك؟ كيف تجرأ عرفة عليه؟ وكيف أقنع عجاج بمباركته؟ أما أهل الخبرة فقد قالوا: يا داهية دقى.

### 99

واجتمع السنطورى بأعوانه فى قهوة آل قاسم، وعلم عجاج بذلك فاجتمع بأعوانه فى قهوة آل رفاعة. ودرت الحارة بالاجتماعين فتوتر جوها، وسرعان ما خلا الموقع بين القاسمية والرفاعية من الباعة والمتسولين والأطفال وأغلقت الدكاكين والنوافذ. وخرج السنطورى برجاله إلى الحارة فخرج عجاج برجاله كذلك. واحتدم الشرحتى فاحت رائحته الكريهة فلم يبق على اندلاع اللهيب إلا لمسة. وصاح رجل طيب من فوق السطح:

\_ماذا أغضب رجالنا؟ فكروا قبل أن تجرى الدماء.

فقال عجاج من خلال صمت الرهبة وهو ينظر إلى السنطوري:

\_لسنا غاضبين ولا داعي عندنا للغضب.

فقال السنطوري بغلظة:

ـ أنت خرجت على حدود الزمالة يا معلم، ولا يمكن أن يقرك فتوة على ما فعلت.

\_وما الذي فعلت؟

فقال السنطوري وكأن الكلام يخرج من فمه وعينيه معا:

\_حميت رجلا وهو يتحداني.

ـ ما فعل الرجل إلا أن تزوج بنتا وحيدة بعد وفاة أبيها، وأنا أشهد زواج كل رفاعى. فقال السنطوري بازدراء:

ـ ما هو برفاعي، ولا يعرف أحد أباه، ولا هو نفسه، وقد تكون أنت أباه وقد أكونه أنا، أو أي متسول في الحارة.

\_ لكنه يقيم اليوم في حيى.

ـ ليس ذلك إلا لأنه وجد بدروما خاليا!

\_ولو!

فصرخ السنطوري بصوت مدو.

\_أعرفت أنك خرجت على حدود الزمالة؟

فصاح به عجاج:

ـ لا تصرخ يا معلم، الأمر لا يستوجب أن نتنافر كالديوك!

\_لعله يستوجب.

فقال عجاج بنبرة كأنها أمر بالاستعداد:

ـ اللهم طولك يا روح.

\_عجاج . . انتبه لنفسك!

\_ملعون أبو القفا.

\_ملعون أبوك!

وارتفعت النبابيت لولا أن أدركها صوت كالخوار يصيح بلهجة آمرة:

ـ عيب يا رجال.

اتجهت الرءوس نحو مصدره، فرأوا المعلم سعد الله فتوة الحارة وهو يشق طريقة بين الرفاعية حتى وقف في المنطقة بين الحيين وهو يقول:

- نزلوا النبابيت.

فهبطت النبابيت كرءوس المصلين، ونظر سعد الله مرة إلى السنطوري وأخرى إلى عجاج وقال:

- لا أحب الآن أن أسمع كلام أحد. تفرقوا بسلام، مذبحة من أجل مرة؟ يا خسارة الرجولة!

تفرق الرجال في سكون، ورجع سعد الله صوب داره.

وكان عرفة وعواطف داخل البدروم لا يصدقان أن الليلة ستمر بسلام، كانا يتابعان ما

يدور في الخارج بقلبين واجفين ووجهين ممتقعين، ولم يبتل لهما حلق حتى سمعا صوت سعد الله بنبرته الآمرة التي لا ترد. تنهدت عواطف من الأعماق وقالت:

ما أقسى هذه الحياة!

وأراد عرفة أن يبث في نفسها شيئا من الطمأنينة فقال وهو يشير إلى رأسه:

ـ أنا أعمل بهذا، هكذا كان جبل، وهكذا كان قاسم الداهية!

فازدردت ريقها بمشقة وقالت:

\_ ترى هل تدوم السلامة؟

ضمها إلى صدره في مرح ظاهري وقال:

ـ ليت كل زوجين يسعدان مثلنا.

فطرحت رأسها على كتفه ريثما تسترد أنفاسها وهمست قائلة:

\_ ترى هل تنتهى المسألة عند ذلك؟

فنفخ قائلا في صراحة:

\_أي فتوة لا يؤمَن جانبه.

فرفعت رأسها وهي تقول:

\_أعرف ذلك، وبي جرح لن يلتئم حتى أراه صريعا.

وعرف من تعنى، ونظر في عينيها بتفكير وقال:

- الانتقام في مثل حالتك واجب ولكنه لا يؤدى إلى نتيجة حاسمة. إن سلامتنا مهددة لا لأن السنطوري يود البطش بنا، ولكن لأن سلامة حارتنا كلها مهددة ببطش الفتوات، ولو نغلبنا على السنطوري فمن يضمن لنا ألا يتحرش بنا عجاج غدا أو يوسف بعد غد؟ فإما أمن للجميع وإما لا أمن لأحد.

فابتسمت في فتور متسائلة:

\_ أتريد أن تكون كجبل أو رفاعة أو قاسم؟

فقبل شعر رأسها وهو يتشمم رائحته القرنفلية دون أن يجيب، فعادت تقول:

\_ أولئك كلفوا بالعمل من قبل جدنا الواقف.

#### فقال بضجر:

ـ جـدنا الواقف؟! كل مغلوب على أمره يصيح كـمـا صـاح المرحـوم أبوك: «يا جبلاوى»! ولكن هل سمعت عن أحفاد مثلنا لا يرون جدهم وهم يعيشون حول بيته المغلق؟ وهل سمعت عن واقف يعبث العابثون بوقفه على هذا النحو وهو لا يحرك ساكنا؟

فقالت ببساطة:

\_إنه الكبر!

فقال بارتياب:

ـ لم أسمع عن معمر عاش طول هذا العمر.

\_ يقال إنه يوجد رجل في سوق المقطم جاوز المائة والخمسين من العمر . ربك قادر على كل شيء .

فصمت مليا، ثم غمغم قائلا:

\_كذلك السحر فهو قادر على كل شيء!

فضحكت من غروره وهي تنقر بأصبعها على صدره وقالت:

ـ سحرك قادر على مداواة العين.

ـ وعلى أشياء لا تحصى!

فتنهدت قائلة:

\_ يا لنا من مساطيل! نتسلى بالأحاديث كأننا لا يتهددنا شيء!

لم يأبه لمقاطعتها فواصل حديثه قائلا:

\_ وقد يتمكن يوما من القضاء على الفتوات أنفسهم، وتشييد المباني، وتوفير الرزق لأولاد حارتنا كافة.

فتساءلت ضاحكة:

ـ هل يمكن أن يحدث ذلك قبل قيام القيامة؟

فرقت عيناه الحادتان بنظرة حالمة وقال:

\_آه لو کنا جميعا سحرة!

\_لو!

ثم أردفت قائلة:

- في زمن قصير حقق قاسم العدالة بغير سحرك!

\_وسرعان ما ولت. أما السحر فأثره لا يزول، لا تستخفى بالسحر يا عسلية العينين. إنه لا يقل عن حبنا خطورة، ويخلق مثله حياة جديدة، ولكنه لن يؤتى أثره الحق إلا إذا كان أكثر نا سحرة!

فتساءلت في دعابة:

ـ وكيف يتأتى ذلك؟

ففكر طويلا قبل أن يجيب قائلا:

\_إذا تحققت العدالة، إذا نفذت شروط الواقف، إذا استغنى أكثرنا عن الكد وتوفروا على السحر .

\_أتريدها حارة من السحرة!

وضحكت ضحكة لطيفة واستدركت قائلة:

\_ وما السبيل إلى تنفيذ الشروط العشرة وجدنا قعيد الفراش، ويبدو أنه ما عاد بوسعه أن يكلف أحدا من أحفاده بعمل!

فنظر إليها نظرة غريبة وتساءل:

\_ لماذا لا نذهب نحن إليه؟

فضحكت مرة أخرى وقالت:

ـ هل تستطيع أن تدخل بيت الناظر؟

- كلا، ولكن ربما استطعت دخول البيت الكبير.

فضربت يده وهي تقول:

\_ كفاك مزاحا حتى نطمئن على حياتنا أو لاً!

فابتسم ابتسامة غامضة وقال:

\_ لو كنت أحب المزاح ما عدت إلى حارتنا.

فأفزعها شيء في نبرته، فحدجته بدهشة وهتفت:

ـ أنت تعنى ما تقول.

فطالعها بنظرة صامتة فعادت تقول:

\_ تصور أن يقبضوا عليك في البيت الكبير!

فقال بهدوء:

\_ ما العجب في وجود حفيد في بيت جده؟!

\_قل إنك تمزح. رباه!مالك تنظر جادا هكذا؟! شيء عجيب، لماذا تريد أن تذهب إليه؟

- ألا تستحق مقابلته المخاطرة؟

\_كلمة ندت عن لسانك فكيف انقلبت حقيقة مرعبة؟!

فربت راحتها ليهدئ خاطرها وقال:

\_مذعدت إلى حارتنا وأنا أفكر وحدى في أشياء لا تخطر ببال.

فتساءلت بتوسل:

\_لم لا نعيش في حالنا؟

ـ يا ليت! إنهم لا يتركوننا نعيش في حالنا، ولابد للإنسان من أن يؤمن حياته.

\_إذن نهرب من الحارة.

فقال بإصرار:

ـ لا أهرب وفي يدي السحر!

وجذبها برقة حتى ألصقها بنفسه، وجعل يربت منكبها وهو يهمس في أذنها:

ـ سنجد للكلام فرصا كثيرة؛ أما الآن فليطمئن قلبك.

١ . .

ترى جن الرجل أم أعماه الغرور؟ هكذا جعلت عواطف تتساءل وهي تراقب عرفة في عمله وتفكيره. ومن ناحيتها هي لم يكن يكدر صفو أيامها السعيدة إلا رغبتها في الانتقام من السنطورى قاتل أبيها، والانتقام في الحارة تقليد مقدس من قديم الزمان. وحتى هذا التقليد المقدس يمكن أن تتناساه ولو على مضض إكراما للحياة السعيدة التي وهبها إياها الزواج. لكن عرفة كان يؤمن بأن الانتقام من السنطورى ما هو إلا جزء من عمل كبير آلى على نفسه - كما خيل إليها - القيام به ولم تفهمه. أيحسب أنه أحد الرجال الذين تتغنى بهم الرباب؟ لكن الجبلاوى لم يعهد إليه بشيء، وهو لا يبدو كبير الثقة بالجبلاوى ولا بما تحكى الرباب. ومن المؤكد أنه بات يعطى السحر من جهده ووقته أضعاف أضعاف ما يتطلبه الرزق. وإذا فكر جاوز تفكيره شخصه وأسرته إلى مسائل عامة لا يعنى بها أحد، كالحارة والفتونة والنظارة والوقف والربع والسحر. وكان يعلم أحلاما عريضة عن السحر والمستقبل مع أنه كان الرجل الوحيد في الحارة الذي لم يقبل على الحشيش لحاجة عمله في الحجرة الخلفية إلى اليقظة والانتباه.

ولكن كل هذا هان إلى جانب رغبته الجنونية في التسلل إلى البيت الكبير. لماذا يا رجلى؟ لأسأله المشورة فيما ينبغى أن تسير عليه الحارة. أنت تعلم بما ينبغى أن تسير عليه الحارة، وكلنا نعلم، فما الضرورة إلى تعريض نفسك للهلاك؟ أريد معرفة شروط الوقف العشرة. ليست العبرة في المعرفة ولكن في العمل فماذا تستطيع أن تفعل؟ الحق إنى أريد أن أطلع على الكتاب الذي طرد بسببه أدهم إن صدقت الحكايات. وماذا يهمك في ذلك الكتاب؟ لا أدرى ما الذي يجعلني أؤمن أنه كتاب سحر، وأعمال الجبلاوي في

الخلاء لا يفسرها إلا السحر لا العضلات والنبوت كما يتصورون. وما الداعى إلى هذه المخاطر وأنت سعيد ورزقك موفور بغيرها؟ لا تظنى أن السنطورى نسينا. . كلما خرجت كدت أتعثر فى نظرات رجاله الحانقة . حسبك السحر ودع البيت الكبير جانبا . هناك الكتاب . . كتاب السحر الأول . . سر قوة الجبلاوى الذى ضن به حتى على ابنه ، قد لا يكون شيئا عما نتصور ، وقد يكون ، والأمر يستحق المخاطرة .

وإذا به يخطو خطوة حاسمة في طريق الصراحة فقال لها:

- هكذا أنا يا عواطف، ما العمل؟ لست إلا ابنا حقيرا لامرأة تعيسة وأب مجهول والكل يعرف هذا ويتندر به، ولكن لم يعد لى من هم فى الدنيا إلا البيت الكبير، وليس غريبا على مجهول الأب أن يتطلع بكل قوته إلى جده. وحجرتى الخلفية علمتنى ألا أؤمن بشىء إلا إذا رأيته بعينى وجربته بيدى، فلا محيد عن الوصول إلى داخل البيت الكبير، وقد أجد القوة التى أنشدها وقد لا أجد شيئا على الإطلاق، ولكنى سأبلغ برا هو على أى حال خير من الحيرة التى أكابدها. ولست أول من اختار المتاعب فى حارتنا، كان بوسع جبل أن يبقى فى وظيفته عند الناظر، وكان بوسع رفاعة أن يصير نجار الحارة الأول، وكان فى وسع قاسم أن يهنأ بقمر وأملاكها وأن يعيش عيشة الأعيان، ولكنهم اختاروا الطريق الآخر.

فقال حنش بأسى:

ـ ما أكثر الذين يجرون نحو الهلاك بأرجلهم في حارتنا!

فقال عرفة بحدة:

\_ قليل منهم من عنده لذلك أسباب وجيهة .

غير أن حنش لم يتخلف عن معاونة أخيه. تبعه كظله في الهزيع الأخير من الليل إلى الخلاء. ولما يئست عواطف من مقاومته رفعت يديها بالدعاء له. كانت ليلة مظلمة ظهر الهلال في أولها ساعة ثم اختفى سار الأخوان بلصق الجدران حتى بلغا السور الخلفى للبيت الكبير فيما يلى الخلاء. وقال حنش همسا:

ـ كان رفاعة يقف في مكاننا عندما ترامي إليه صوت الجبلاوي.

فقال عرفة وهو ينظر فيما حوله مدققا:

ـ هكذا تقول الرباب، وسوف أعرف حقيقة كل شيء.

فأشار حنش إلى الخلاء وقال برهبة:

\_ وفى هذا الخلاء كلم الجبلاوى بنفسه جبل وأرسل خادمه إلى قاسم. فقال عرفة بامتعاض:

\* 1. (...)

\_وفيه أيضا قتل رفاعة واغتصبت أمنا وضربت ولم يحرك جدك ساكنًا!

وحط حنش مقطفا به أدوات حفر على الأرض، ثم شرعا في حفر الأرض تحت السور ورفع الأتربة بالمقطف. عملا بجد وعزم حتى امتلأ صدراهما برائحة ترابية. وتبين أن حنش لم يكن دون عرفة حماسا، كأنما كانت الرغبة نفسها تدفعه وإن غلبه الخوف. ولم يكن رأس عرفة يعلو فوق الأرض إلا بشبر حين قال من جوف الحفرة:

\_حسبنا هذه الليلة.

ثم وثب إلى سطح الأرض معتمدا على راحتيه ثم قال:

ـ علينا أن نسد الفوهة باللوح الخشبي ثم نغطيها بالتراب حتى لا ينكشف أمرها.

ثم رجعا مسرعين والفجر في أعقابهما. كان يفكر في الغد. الغد العجيب. حين يسير في البيت الكبير المجهول. ومن يدرى فلعله يلقى الجبلاوى ولعله يحادثه، فيستوضحه عما مضى وعما هو راهن وعن شروط وقفه وسر كتابه. ذلك الحلم الذي لا يتحقق إلا بين سحابات الدخان الذي تنفثه الجوز.

وفي البدروم وجد عواطف ما تزال ساهرة تنتظر، فلما رأته حدجته بنظرة عتاب ناعسة وغمغمت:

\_كأنك راجع من مقبرة!

فقال بمرح يدارى به قلقه:

\_ما أحلاك!

وارتمى إلى جانبها فقالت:

\_ لو كنت عندك شيئا لما استهنت برأيي.

فقال مداعبا:

ـ ستغيرين رأيك عندما تشهدين ما يحدث غدا.

ـ لى في السعادة فرصة وفي الهلاك ألف!

فضحك عرفة ثم قال:

ـ لو رأيت الأعين الحاقدة لأيقنت أن ما ننعم به من سلام ما هو إلا خيال.

ومزق سكون الفجر صوات حاد، وتبعه عويل، فعبست عواطف وتمتمت:

\_ فأل غير حسن!

فهز منكبيه باستهانة ، ثم قال :

ـ لا تلوميني يا عواطف وأنت مسئولة بعض الشيء عما أنا فيه.

\_أنا؟!

فقال جادا:

ـ عدت إلى الحارة مدفوعا برغبة خفية إلى الانتقام لأمى. ولما وقع الاعتداء على أبيك تأصلت تلك الرغبة في الانتقام من جميع الفتوات، ولكن حبى لك أضاف إليها جديدا كاد يطمس على الأصل، وهو أن أقضى على الفتوات لا للانتقام، ولكن ليهنأ الناس بالحياة، وما قصدت بيت جدنا إلا لأحصل على سر قوته.

ورنت إليه بنظرة طويلة قرأ فيها بوضوح على ضوء الذبالة الإشفاق الأليم من أن تفقده كما فقدت أباها، فابتسم إليها مشجعا متوددا، وكان العويل يستفحل في الخارج.

# ١ • ١

وشد حنش على يد عرفة مودعا والأخير في أعماق الحفرة. وانبطح عرفة على وجهه وراح يزحف خلال الممر المعبق برائحة الأرض، وما زال في زحفه حتى برز رأسه من أرض الحديقة داخل البيت الكبير استقبل أنفه شذا عجيبا كأنه خلاصة خلاصات من الورد والياسمين والحناء مذابة في ندى الفجر. أسكره الشذا على رغم شعوره البالغ بالخطورة، ها هو ذا يتشمم الحديقة التي مات أدهم حسرة عليها. ما يبدو منها إلا ظلام ضارب تحت الأنجم الساهرة. وعليها صمت رهيب يند عنه من آن لآن هسيس الأوراق المستجيبة للنسائم. ووجد الأرض طرية رطيبة فبيت في نيته أن يخلع نعليه عند تسلله إلى البيت كيلا يطبع على الأرض آثاره. ترى أين ينام البواب والبستاني وغيرهما من سائر الجدم؟ وزحف على أربع في حذر شديد أن يحدث صوتا متجها نحو البناء الذي بدا شبح هيكله متربعا في الظلام. ولاقي في رحلته نحو البيت من الارتياع ما لم يلاق في حياته على إيلافه خوض الظلمات والمبيت في الخلاء والخرائب.

ومضى يزحف لصق الجدار حتى مست يده أولى درجات السلم المفضى إلى السلاملك إن صدقت الرباب. هنا دفع الجبلاوى بإدريس ليطرده خارجا. ذلك كان مصير إدريس جزاء تحديه لأمر أبيه، فما عسى أن يفعل الجبلاوى بمن يقتحم عليه داره ليسرق سر قوته؟ ولكن مهلا فإن أحداً لا يمكن أن يتوقع تسلل لص إلى البيت الذى ظل آمنا مدرعا بمهابته طيلة الأعوام الماضية. ودار زاحفًا حول الدرابزين ثم أخذ يرقى فى الدرج على يديه وركبتيه حتى بسطة السلاملك. وخلع نعليه وتأبطهما ثم زحف نحو الباب الجانبي الذى تقول الرباب إنه يفضى إلى المخدع.

وبغتة سمع سعلة! سعلة قادمة من الحديقة. فلبد أسفل الباب مرسلا ناظريه نحو الحديقة، فرأى شبحا يقترب من السلاملك. كتم أنفاسه لأنه خيل إليه أن اضطراب قلبه

سيسمع مدويا. وأخذ الشبح يقترب ومضى يرقى فى الدرج. لعله الجبلاوى نفسه. ولعله يضبطه متلبسا بجريمته كما ضبط أدهم من قبل فى الساعة نفسها على وجه التقريب. وبلغ الشبح بسطة السلاملك على بعد ذراعين من مكمنه. لكنه مضى إلى الجانب الآخر من السلاملك، ورقد على شىء يشبه الفراش! خف التوتر مخلفا وراءه إعياء. ولعل الشبح لم يكن إلا خادما ذهب لقضاء حاجة ثم عاد إلى مرقده وها هو ذا يعلو شخيره. استرد شيئا من جرأته فرفع يده متحسسا موضع الأكرة حتى عثر عليها، وأدارها بهوادة، ومضى يدفع الباب برفق حتى انفرج عن فتحة تسعه ثم زحف داخلا ورد الباب وراءه. وجد نفسه فى ظلمة حالكة، فأجال يده أمامه حتى مس أولى درجات السلم، وجعل يصعد فى خفة الهواء.

انتهى إلى ردهة طويلة مضاءة بمصباح فى كوة الجدار. وكانت تنعطف يمينا إلى الداخل، وتمتد يسارا بعرض البيت، ويتوسطها باب المخدع مغلقا. عند ذاك المنعطف وقفت أميمة، ومن موقفه انطلق أدهم، وها هو ذا ينطلق وراء الشيء نفسه. تراكمت على صدره الرهبة، فنادى إرادته وجرأته، وكان من السخرية أن يرجع. قد يظهر خادم في أى لحظة، وقد يفيق من جنونه على يد تقبض على كتفه، فما أجدره بأن يسرع.

سار على أطراف أصابعه نحو الباب. أدار المقبض اللامع فدار مع يده، ودفع الباب فانفتح برفق، ثم تسلل راداً الباب وراءه. أسند ظهره إلى الباب في ظلام لا يرى فيه شيئا، وتنفس بحذر وكأنما يضن بأنفاسه. وعبثا حاول أن يرى شيئا. وبعد قليل شم رائحة بخور زكية أفعمت قلبه قلقاً وحزنا غريبًا لم يدر له من سبب، ولم يعد يشك في أنه في مخدع الجبلاوى. متى يألف الظلمة؟ وكيف يلم نفسه المبعثرة؟ ومن وقف موقفه هذا من قبل؟ وكيف يشعر بأنه سينهار إلى الحضيض إذا لم يستمسك بكل ما أوتى من قوة وعزم وجرأة؟! وتوعد نفسه بالهلاك إذا لم يحسب لكل حركة حسابها الدقيق. وتذكر السحب في جريانها الذي يرسم لها أشكالا غريبة بطريقة عفوية فيرسم جبلا كما يرسم قبرا. ومس الجدار بأصبعه فاتخذ منه مرشدا وسار بحذائه متقوسا حتى لمس كتفه مقعدا.

لكن حركة مفاجئة ندت من ركن الحجرة البعيد تصلبت لها شرايينه. لبد وراء المقعد متجه العينين نحو الباب الذى دخل منه. وسمع وقع أقدام خفيفة وحفيف ثوب. وتوقع أن يغمر الظلماء نور وأن يرى الجبلاوى واقفا حياله. سيسجد عند قدميه مستعطفا ويقول له إنى حفيدك، لا أب لى، ولا هدف إلا الخير، فافعل بى ما تشاء. رأى على رغم الظلمة شبحا يقترب من الباب. ورأى الباب وهو يفتح برفق ونور الردهة الخارجية يتسرب إلى ما وراءه. وخرج الشبح تاركا الباب مواربا واتجه يمنة فتبينه على ضوء المصباح الخارجي، امرأة عجوز سوداء نحيلة الوجه طويلة بصورة لا يمكن أن تنسى. ترى أهى خادم؟ ونظر من جانب

المقعد إلى المكان ليراه على الضوء الباهت المتسلل من الباب، فميز أشباح المقاعد والكنب، وتراءى له فى الصدر رسم فراش كبير ذى عمد وناموسية يليه عند قدميه فراش صغير لعله هو الذى غادرته العجوز. لن يكون هذا الفراش الفخم إلا للجبلاوى. إنه نائم الآن هناك غير دار بجريمته. كم يود أن يلقى نظرة عليه ولو من بعيد لولا هذا الباب الذى ينذر بعودة الذاهبة.

ونظر إلى يساره فلمح رسم باب الخلوة مغلقا على سره الرهيب. هكذا تطلع إليه أدهم في القديم فله الرحمة. وزحف وراء المقاعد متناسيا الجبلاوى نفسه حتى صار أسفل الباب الصغير. لم يستطع مقاومة الإغراء فرفع يده حتى دس أصبعه في ثقب المفتاح ثم ضغط إلى أسفل جاذبا إياه إليه فأطاع. وسرعان ما رده وقلبه يرتجف انفعالا وإحساسا بالفوز. وإذا بالضوء الضيئل يختفي وتغرق الحجرة مرة أخرى في الظلام. وسمع مرة أخرى كذلك وقع الأقدام الخفيفة، ثم طقطقة فراش وشت باستلقاء العائدة، ثم ساد الصمت. وانتظر متصبرا حتى تنام العجوز. ومضى يمعن النظر نحو الفراش الكبير ولكنه لم ير شيئا. واقتنع بأنه من الجنون أن يحاول الاتصال بجده، إذ قبل ذلك ستستيقظ العجوز وتملأ الدنيا صراخا ثم يكون الوداع. ولكن حسبه الكتاب الخطير بما يتضمن من شروط الوقف وآيات السحر التي سيطر بها جده على الخلاء والناس في يتضمن من شروط الوقف وآيات السحر التي سيطر بها جده على الخلاء والناس في السحر.

وعاد يرفع يده ويدس أصبعه ويجذب الباب، ثم تسلل زاحفا ورده وراءه. وقف في حذر وهو يتنفس في عمق ليريح شيئا ما أعصابه المرهقة. لماذا ضن الجبلاوى على أبنائه بسر كتابه؟ حتى أحبهم إلى قلبه أدهم! هنالك سر بلا ريب وسينكشف السر بعد ثوان، بعد إشعال شمعة. وقديما أشعل أدهم الشمعة، وها هو ذا مجهول الأب يشعلها مرة أخرى في الموقف نفسه، وسوف تغنى الرباب بهذا إلى الأبد. أشعل الشمعة فرأى عينين تنظران إليه. على رغم ذهوله أدرك أن العينين لعجوز أسود يرقد على فراش في مواجهة الداخل. وعلى رغم ذهوله ورعبه تبين له أن العجوز يجاهد للخروج من الغيبوبة الفاصلة بين النوم واليقظة التي ربما كان أحدثها صوت حك عود الثقاب، وبحركة غير إرادية ولا شعورية انقض عليه فأطبق بيمناه على رقبته وشد بكل قوة أعصابه. تحرك العجوز بعنف وقبض على يده فضربه بقدمه في بطنه وضاعف من قوة الضغط على عنقه. وسقطت الشمعة من يسراه فانطفأت وساد الظلام. وفي الظلام تحرك العجوز حركة أخيرة من أعماقه ثم همد لكن يده المجنونة لم تكف عن الضغط حتى تراخت أصابعها.

وتراجع لاهثًا حتى التصق ظهره بالباب. ومرت الثواني وهو في جحيم من العذاب

الصامت، وشعر بقواه تخور وبأن الزمن بات أثقل من الذنوب. سيقع على الأرض أو فوق جثة ضحيته إذا لم يتغلب على ضعفه. وناداه الهرب كقوة لا قبل له بها. لن يستطيع أن يتخطى الجثة إلى الكتاب الأثرى. الكتاب المشئوم. ولا شجاعة عنده ليشعل الشمعة من جديد. العمى أحب إليه من ذلك. وشعر بألم في ساعديه لعله من أثر أظافر الرجل عند المقاومة اليائسة. وارتعد جسده لتلك الفكرة. كانت جريمة أدهم العصيان. أما جريمته هو فالقتل. قَتْلُ رجل لا يعرفه ولا يعرف لمصرعه على يده سببًا. وهو قد جاء سعيًا وراء قوة يناضل بها المجرمين فانقلب وهو لا يدرى مجرما. واتجه رأسه في الظلام إلى الركن الذي ظن الكتاب معلقا به. ودفع الباب ثم تسلل وهو يرده وراءه. وزحف بحذاء الجدار إلى الباب. وتريث وراء المقعد الأخير. لا يرى في هذا البيت إلا الخدم فأين سيده؟ ستحول هذه الجريمة بينهما إلى الأبد. وشعر بالخيبة والفشل حتى أعماقه.

وفتح الباب برفق فأعشى النور عينيه وخيل إليه أنه ينقض عليه في ضوضاء صاخبة ووميض صارخ. أغلق الباب ومضى على أطراف أصابعه. وهبط السلم في ظلمة حالكة. وعبر السلاملك إلى الحديقة وقد قل من الأعياء والحزن حذره. وإذا بالنائم في السلاملك يستيقظ متسائلا: «من؟!» فلبد عرفة لصق الجدار أسفل السلاملك وقد أمده الفزع بقوة. ونادى الصوت كرة أخرى فأجابت قطة بموائها. لبث في مكمنه وهو يخشى أن يساق إلى جريمة جديدة. ولما استقر الصمت زحف على أرض الحديقة الخلفية حتى السور، وراح يتحسس موضع الثغرة حتى عثر عليها. ودخلها زحفا كما جاء، ولما بلغ النهاية أو كاد ارتطم بقدم! وإذا بالقدم تركله في رأسه بسرعة فاقت خاطره.

# 1.7

وثب على صاحب القدم فاشتبكا في صراع لم يدم طويلا، إذْ نـدت عن الآخر صيحة غضب كشفت عن شخصه لعرفة فهتف في ذهول :

\_حنش؟!

تعاونا على الخروج معا إلى سطح الأرض وقال حنش:

ـ طالت غيبتك فدخلت لأتنسم الأخبار.

فقال عرفة وهو يتنفس بمشقة:

\_ أخطأت كعادتك ولكن هلم بنا .

عادا إلى الحارة المستغرقة في النوم. ولما رأته عواطف هتفت:

\_اغتسل . . رباه . . ما هذا الدم يسيل من يدك وعنقك!

فارتعد لكنه لم يجب. ومضى ليغتسل وسرعان ما أغمى عليه. وأفاق بعد قليل وبمساعدة عواطف وحنش. جلس على الكنبة بينهما وهو يشعر بأن النوم بات أبعد عنه من الجبلاوى. ولم يعد يتحمل عبء سره وحده فقص عليهما ما وقع له فى رحلته العجيبة. وانتهى والأعين تحملق فيه برعب ويأس. وهمست عواطف:

\_ كنت ضد الفكرة من أول الأمر.

غير أن حنش قصد أن يخفف من وقع الكارثة فقال:

\_ليس في الإمكان تجنب مثل هذه الجريمة!

فقال عرفة بحزن:

\_لكنها أبشع من جرائم السنطوري وسائر الفتوات!

فقال حنش:

ـ هيهات أن تتجه الظنون إليك.

ـ لكنى قتلت عجوزا لا ذنب له، ومن يدرى؟! فلعله الخادم الذي أرسله الجبلاوي إلى قاسم!

وغشيتهم فترة صمت قاتمة كالسهاد المرير حتى قالت عواطف:

\_ ألا يحسن بنا أن ننام؟

فقال عرفة.

ـ ناما أنتما، أما أنا فلا نوم لي الليلة.

وانحط الصمت مرة أخرى فوق رءوسهم. وإذا بحنش يسأله:

\_ألم تلمح الجبلاوي أو تسمع صوته؟

فهز رأسه في ضيق قائلا:

\_كلا .

\_لكنك رأيت في الظلام فراشه!

\_ كما نرى بيته!

فقال حنش في حسرة:

\_ ظننت غيابك انقضى في محادثته!

\_ما أسهل الخيال خارج البيت!

#### فقالت عواطف بقلق:

- \_أنت تبدو كالمحموم ومن الأفضل أن تنام.
  - ـ ومن أين يجيء النوم؟

لكنه شعر بصدق قولها فيما ينتابه من حرارة وذهول. وعاد حنش يقول بحسرة:

- كنت على بعد ذراع من الوصية لكنك لم تنظر فيها!

وتقلص وجهه من الألم فقال حنش:

\_يا لها من رحلة شاقة وخاسرة!

\_iعم!

ثم بنبرة جديدة حادة:

\_لكنها علمتنى أنه لا ينبغى أن نعتمد على شىء سوى السحر الذى بين أيدينا! ألا ترى أننى غامرت برحلة جنونية جريا وراء فكرة ربما كانت أبعد ما يكون عن ظنى؟! \_نعم، لم يقل غيرك أحد إن كتابه المشهور كتاب سحر .

فقال عرفة وقد بدا أكثر من قبل أنه يكابد حال اضطراب في العقل والنفس:

ـ تجربة الزجاجة ستنجح أقرب مما تتصور، وستكون جد نافعة إذا احتجنا للدفاع عن النفس!

وأنذر الصمت المخيف بالعودة، فقال حنش:

ـ ليتك عرفت من السحر ما يمكنك من الوصول إلى البيت الكبير وصاحبه دون تلك المغامرة!

#### فقال عرفة بحماس:

- السحر لا نهاية له، ليس بين يدى منه اليوم إلا بعض الأدوية ومشروع زجاجة للدفاع أو الهجوم، أما ما يمكن أن يوجد فلا يحيط به خيال.

#### فقالت عواطف في ضجر:

ـ ما كان ينبغى أن تفكر إطلاقا في تلك المغامرة، جدنا من دنيا ونحن من دنيا أخرى، وما كنت لتفيد شيئا من محادثته لو وقعت، ولعله نسى الوقف والنظارة والفتوات والأحفاد والحارة!

وغضب عرفة بلا سبب ظاهر، ولكن حالته الطارئة كانت تبرر كل غريب، وقال حدة:

ـ هذه الحارة المغرورة الجاهلة! ماذا تدرى من الأمر؟ لا شيء. ليس لديها إلا الحكايات والرباب، وهيهات أن تعمل بما تسمع. ويظنون حارتهم قلب الدنيا، وما

هى إلا مأوى البلطجية والمتسولين، وكانت في البدء مرتعا قفرًا للحشرات، حتى حل بها جدكم الواقف!

وأجفل حنش، على حين بللت عواطف خرقة وهمت بوضعها على جبينه، ولكنه أبعد يدها بحدة وقال:

\_ أنا عندي ما ليس عند أحد، ولا الجبلاوي نفسه، عندي السحر، وهو يستطيع أن يحقق لحارتنا ما عجز عنه جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين.

قالت عواطف بتوسل:

\_ متى تنام؟

ـ عندما تخمد النار المشتعلة في رأسي.

فتمتم حنش بإشفاق:

\_أوشك الصبح أن يطلع .

فهتف عرفة:

- فليطلع، ولن يطلع حتى يقضى السحر على الفتوات، ويطهر النفوس من عفاريتها، ويجلب من الخير ما يعجز الوقف عن جزء منه، ويصير هو الغناء المنشود الذي كان أدهم يحلم به.

وتنهد من أعماقه: ثم طرح رأسه على الجدار في إعياء، فأمَّلت عواطف أن يجيء النوم عقب ذلك. وإذا بصوت يجلجل في السكون بقوة هزت النفوس. وتبعته أصوات صراخ وعويل. وثب عرفة قائما وهو يقول برعب:

\_ جثة الخادم اكتشفت!

فقالت عواطف من حلق جاف:

\_ من أدراك أن الأصوات قادمة من البيت الكبير؟

وجرى عرفة إلى الخارج فتبعاه على الأثر . وقفوا أمام الربع برءوس متجهة نحو البيت لكبير .

كانت آخر الظلمة ترق وتشف عن أمارات الصباح. وفتحت نوافذ وأطلت رءوس، واتجهت جميعًا نحو البيت الكبير. وجاء رجل من أقصى الحارة مهرولا نحو الجمالية فلما مربهم سأله عرفة:

\_ماذا جرى يا عم؟

فأجابه دون توقف:

ـ لله الأمر، من بعد العمر الطويل مات الجبلاوي!

## 1.4

انقلب ثلاثتهم إلى البدروم، وعرفة لا تكاد قدماه تحملانه، فانحط على الكنبة وهو يقول.

\_الرجل الذي قتلته كان خادما أسود تعيس المنظر، وكان نائما في الخلوة.

لم ينبس أحد منهما، ودفنا نظريهما في الأرض متحاشيين عينيه الزائغتين، فقال حدة:

\_أراكما لا تصدقان! أقسم لكما أننى لم أقترب من فراشه.

فتردد حنش مليا لكنه شعر بأن الكلام خير على أي حال من تركه للصمت فقال بحذر:

\_لعلك لم تتبين وجهه من شدة المفاجأة؟

فهتف بيأس:

\_أبدًا، أنت لم تكن معى!

فهمست عواطف بخوف:

\_أخفت من صوتك.

وغ ادرهما مهرولا إلى الحجرة الخلفية، وقعد في الظلام وهو يرتجف من الاضطراب. أى جنون دفعه إلى تلك الرحلة المشئومة؟! أجل كانت رحلة مشئومة. إن الأرض تميد به وتنفث من جوفها الأحزان. ولم يعد له من أمل إلا هذه الحجرة العجيبة.

وأشرق أول شعاع للشمس، فإذا الناس جميعًا مجتمعون في الحارة حول البيت. وتسربت الأخبار وشاعت، وبخاصة عقب زيارة الناظر للبيت زورة قصيرة ثم عودته إلى بيته. وتناقل الناس أن لصوصا سطوا على البيت الكبير من خلال نفق حفروه تحت السور الخلفي، فقتلوا خادمًا أمينا، ولما علم الجبلاوي بالخبر تأثر تأثرًا لم تحتمله صحته الواهية في تلك الذروة من العمر ففاضت روحه. وثار الغضب بالنفوس حتى غطى دخانه الأسود على الدموع والصراخ. وهتف عرفة لما بلغته الأنباء بزوجه وحنش:

\_ها هي ذي الأنباء تصدقني!

ثم ذكر من توه أنه على أى حال تسبب في موته، فلاذ بصمت الخجل والألم. ولم تجد عواطف ما تقوله فغمغمت:

\_ فليرحمه الله!

وقال حنش:

\_لم يمت ناقص عمر!

فقال عرفة بنبرة الرباب الحزينة:

\_لكنى أنا سبب موته! أنا من دون أحفاده جميعا حتى الأشرار منهم وما أكثرهم! فبكت عواطف وهي تقول:

ـ ذهبت بنفس لا تشوبها شائبة سوء.

وإذا بحنش يتساءل في قلق:

\_ألا يمكن أن يستدل علينا؟

فهتفت عواطف:

\_ فلنهرب.

فأشار إليها عرفة حانقا وهو يقول:

ـ وبذلك نقدم أسطع دليل على جريمتنا!

وترامت من الطريق المحتشد أصوات متلاطمة:

\_يجب قتل الجاني قبل دفن الرجل!

\_ يا ألعن جيل في حارتنا، حتى كبار الأشرار احترموا هذا البيت طيلة ماضينا، وحتى إدريس نفسه، علينا اللعنة إلى يوم القيامة.

\_ليس القتلة من حارتنا، منذا يتصور ذلك؟!

ـ سوف يعرف كل شيء.

\_ علينا اللعنة إلى يوم القيامة.

واشتد اللطم والندب، حتى انهارت أعصاب حنش فقال:

ـ وكيف نبقى في الحارة بعد اليوم؟!

واقترح آل جبل أن يدفن الجبلاوى في مقبرة جبل لاعتقادهم من ناحية أنهم أقرب نسبا إليه من الآخرين، ولأنهم كرهوا أن يدفن في المقبرة التي تضم إدريس فيما تضم من رفات أسرة الواقف من ناحية أخرى. وطالب آل رفاعة أن يدفن في القبر الذي دفن فيه رفاعة بيديه! وقال آل قاسم إن قاسم خير أحفاد الواقف وإن قبره هو أليق قبر بجثمان الجد العظيم. وكادت أن تقع فتنة في الحارة ولما يدفن الرجل. لكن الناظر قدرى أعلن أن الجبلاوى سيدفن في المسجد الذي أقيم في مكان حجرة الوقف القديمة بالبيت الكبير. ولاقي هذا الحل ارتياحًا عامًا ملحوظًا وإن أسف أهل الحارة على حرمانهم من مشاهدة

جنازة الجدكما حرموا من قبل من مشاهدة الرجل في حياته. وتهامس آل رفاعة فرحين بأن الجبلاوي سيدفن في القبر الذي دفن فيه رفاعة بيديه. لكن أحدًا غيرهم لم يكن يصدق تلك الحكاية القديمة، وراحوا يسخرون منهم حتى ثار عجاج فتوتهم وأوشك أن يلتحم في معركة بالسنطوري. وعند ذاك تصدى سعد الله للجميع وصاح منذرا:

ـ سأكسر رأس أي مكابر يحاول النيل من احترام هذا اليوم الحزين!

ولم يشهد الغسل إلا خدمه المقربون. وهم الذين كفنوه وأودعوه نعشه. وحملوا النعش إلى البهو الكبير الذى شهد أخطر أحداث الأسرة كعهده بالنظارة إلى أدهم وثورة إدريس عليه. ثم دعى للصلاة عليه الناظر ورءوس جبل ورفاعة وقاسم. وورى بعد ذلك فى قبره والشمس تميل نحو الغروب. وفى المساء أمّ السرادق جميع أولاد الحارة. وذهب إليه عرفة وحنش فيمن ذهب من آل رفاعة. وبدا وجه عرفة الذى لم يذق طعم النوم منذ ارتكب جريمته كوجه ميت. ولم يكن للناس من حديث إلا أمجاد الجبلاوى، قاهر الخلاء وسيد الرجال ورمز القوة والشجاعة، صاحب الوقف والحارة والأب الأول للأجيال المتعاقبة. وبدا عرفة حزينا ولكن ما كان يدور بنفسه لم يخطر لأحد على بال. ذلك الذى اقتحم البيت غيرمبال بجلاله. الذى لم يتأكد من وجود جده إلا عند موته! الذى شذ عن الجميع ولوث يديه إلى الأبد.

وتساءل كيف يمكن التكفير عن هذه الجريمة؟ إن مآثر جبل ورفاعة وقاسم مجتمعة لا تكفى. القضاء على الناظر والفتوات وانقاذ الحارة من شرورهم لا يكفى. تعريض النفس لكل مهلكة لا يكفى. تعليم كل فرد السحر وفنونه وفوائده لا يكفى. شيء واحد يكفى هو أن يبلغ من السحر الدرجة التي تمكنه من إعادة الحياة إلى الجبلاوى! الجبلاوى الذى قَتْلُه أسهل من رؤيته. فلتهبه الأيام القوة حتى يضمد الجرح النازف في قلبه. وهؤلاء الفتوات ذوو الدموع الكاذبة. ولكن آه ثم آه لم يأثم أحدهم كما أثم. وكان الفتوات يجلسون واجمين، يركبهم الخزى والهوان. ستقول الحوارى إن الجبلاوى قتل في بيته ومن حوله الفتوات الكبار يحششون. لذلك تتوعد نظراتهم بالانتقام. الويل والموت يطلان من عيونهم.

وعندما عاد عرفة إلى البدروم في آخر الليل جذب عواطف إليه وسألها في استغاثة يائسة:

\_عواطف، صارحيني برأيك، هل ترينني مجرمًا؟

فقالت برقة:

- أنت رجل طيب، أنت أطيب من صادفت في حياتي، ولكنك أتعسهم حظا! فأغمض عينيه وهو يقول:

ـ لم يتجرع أحد قبلي الألم كما تجرعته.

ـ نعم . . أعرف ذلك .

وقبلته بشفتين باردتين وهمست:

\_أخشى أن تحل بنا اللعنة.

فحول عنها وجهه، وقال حنش:

لست مطمئنًا، سيكتشف أمرنا اليوم أوغدًا. لاأتصور أن يعرف كل شيء عن الجبلاوي، أصله، وقفه، سيرته في أبنائه، اتصالاته بجبل ورفاعة وقاسم، وأن يجهل فقط موته!

فنفخ عرفة في ضيق وسأله:

\_ هل عندك حل غير الهرب؟

فلزم حنش الصمت، فعاد الآخر يقول:

\_أما أنا فعندى خطة، غير أنى أود أن أطمئن إلى نفسى قبل الشروع فى تنفيذها، إذ لا أستطيع أن أعمل إن كنت مجرمًا.

فقال حنش بفتور:

\_إنك برىء.

فقال بحدة:

ـ سأعـمل يا حنش، لا تخف علينا، فإن الحارة سـتشـغل عن الجـريمة الكبـرى بالأحداث، ستقع عجائب، وستكون ذروة العجائب أن تعود الحياة إلى الجبلاوى.

تأوهت عواطف، أما حنش فقال مقطبًا:

\_ هل جننت؟

فقال بصوت المحموم:

\_إن كلمة من جدنا كانت تدفع الطيبين من أحفاده إلى العمل حتى الموت، موته أقوى من كلماته. إنه يوجب على الابن الطيب أن يفعل كل شيء، أن يحل محله، أن يكونه، أفهمت؟!

# ۱ . ٤

تأهب عرفة لمغادرة البدروم بعد أن سكت آخر صوت في الحارة. أوصلته عواطف حتى الدهليز محمرة العينين من البكاء، وكانت تقول في تسليم من لا حيلة له:

\_ فلتحرسك العناية.

أما حنش فتساءل في إصرار:

\_لم لا أصحبك؟!

فقال عرفة:

\_ الهرب أيسر على واحد منه على اثنين.

فقال له ناصحا وهو يربت ظهره:

ـ لا تستعمل الزجاجة إلا عند اليأس.

فأوماً برأسه موافقا وذهب. ألقى نظرة على الحارة الغارقة فى الظلام ثم مضى نحو الجمالية. ودار دورة كبيرة شملت حارة الوطاويط والدراسة والخلاء فيما وراء البيت الكبير، حتى انتهى إلى سور بيت سعد الله المشرف على الخلاء من ناحية الشمال. واتجه نحو موضع فى منتصف السور، وتحسس الأرض حتى عثر على حجر فأزاحه ثم غاص فى الممر الذى دأب على حفره - هو وحنش - ليلة بعد أخرى. زحف على بطنه حتى نهايته، ثم عالج بيديه القشرة الرقيقة التى تسده ونفذ منها إلى حديقة بيت الفتوة. كمن وراء السور وألقى نظرة على المكان فرأى فى البيت نافذة مغلقة تنضح بضوء خافت، أما الحديقة فقد غشيها النوم والظلام إلا نور نافذة المنظرة الساهرة. ومن المنظرة ترامت بين آونة وأخرى عربدات الساهرين وضحكاتهم الغليظة. استل من صدره خنجرا ولبث متوثبًا والوقت عر أثقل من الذنوب. لكن الغرزة انفضت عقب وصوله بنصف ساعة. فتح بابها وخرج الرجال تباعا نحو الباب الخارجي المفضى إلى الحارة والبواب يتقدم من الأرض حجرًا بيسراه، وتسلل متقوسا والخنجر بيمناه ثم كمن وراء نخلة حتى هم سعد الله بارتقاء أول درجة من درجات السلم فانقض عليه وأغمد خنجره في ظهره فوق سعد الله بارتقاء أول درجة من درجات السلم فانقض عليه وأغمد خنجره في ظهره فوق القلب. ندت عن الرجل صرخة ثم تقوض بناؤه.

التفت البواب مذعوراً لكن الحجر أصاب الفانوس فأطفأه وحطمه، ثم جرى عرفة مسرعا جهة السور الذي جاء منه. وصرخ البواب صرخة مدوية. وسرعان ما تدافعت أقدام وتلاطمت أصوات في الداخل وفي آخر الحديقة. وعثر عرفة في جريه بقائم كأنه أصل شجرة مقطوعة، فسقط على وجهه وهو يحس بألم يهرسه في ساقه وكوعه، لكنه تغلب على ألمه وقطع بقية المسافة إلى النفق زحفا. وارتفعت الأصوات واشتد وقع الأقدام. رمى بنفسه في النفق وزحف بسرعة حتى خرج إلى الخلاء. ونهض وهو يئن ثم اندفع شرقا.

وقبل أن يدور مع سور البيت الكبير التفت وراءه فرأى أشباحا تندفع نحوه وسمع صوتا يصيح: «من هنا»! فضاعف من سرعته على رغم ألمه حتى بلغ نهاية السور الخلفى للبيت الكبير. وعندما عبر الفراغ الذى يفصل بين البيت الكبير وبيت الناظر لمح أضواء كالمشاعل وسمع ضجة فاندفع فى الخلاء مُتَسَمِّتا سوق المقطم. وشعر بأن الألم سيقهره عاجلا أو آجلا، وبأن أقدام المطاردين تقترب وأصواتهم تتعالى صارخة فى السكون «امسك. . حلق». عند ذاك أخرج الزجاجة من عبه، الزجاجة التى قضى الشهور فى تجربتها. ثم توقف عن الجرى واستقبل القادمين بوجهه، وأحدَّ بصره حتى تراءت له أشباحهم ثم قذف الزجاجة عليهم. وما هى إلا ثانية حتى دوى انفجار لم تعرفه أذن من قبل. وتتابعت صرخات وتأوهات. وواصل جريه وقد كفت الأقدام عن مطاردته. وعند حافة الخلاء ارتمى على الأرض وهو يلهث ويئن.

لبث في ألم وعجز وحيدا تحت النجوم. ونظر وراءه فلم ير إلا ظلاما وصمتا. وجعل عسح الدم السائل على ساقه بيده ثم جففها في الرمال. وشعر بأنه ينبغي أن يذهب مهما كلفه الأمر، فقام معتمدا على يديه، وسار متمهلا نحو الدراسة. وفي أول الدراسة رأى شبحا قادما فنظر نحوه بحذر وخوف، ولكن القادم مر به دون أن يلتفت إليه فتنهد في ارتياح. ومضى راجعا في نفس الدورة التي جاء بها. ولما اقترب من حارة الجبلاوي ترامت إلى أذنه ضجة حارة غير مألوفة في ذلك الهزيع من الليل. خليط من الأصوات الهادرة والبكاء والصرخات الغاضبة ونذر شر تتطاير في الظلام. تردد مليا ثم تقدم ملتصقًا بالجدران. وألقى نظرة من عين واحدة عند ركن الحارة فرأى خلقا كثيرا متجمعا في الآخر فيما بين بيتي الناظر وسعد الله على حين بدا حي قاسم خاليا مظلما. وتسلل بحذاء الجدار حتى غيبه الربع.

ارتمى بين عواطف وحنش، ثم كشف عن ساقه الدامية فارتاعت عواطف وذهبت مسرعة لتعود بطبق القلة المملوء بالماء، وراحت تغسل الجرح وهو يعض على أسنانه حتى لا تفلت منه صرخة ألم. وساعدها حنش وهو يقول بقلق:

\_ الغضب يشتعل في الخارج كالنار .

فسأله عرفة بوجه متقبض:

\_ماذا قالوا عن الانفجار؟

\_وصف الذين كانوا يطاردونك ما وقع فلم يصدقهم أحد، لكنهم وقفوا ذاهلين أمام الجراح التي أصابت الوجوه والأعناق، وكادت حكاية الانفجار تغطى على مقتل سعد الله!

#### فقال عرفة:

\_قتل فتوة الحارة، وغدا يبدأ التناحر بين الفتوات على مكانه!

ثم نظر إلى زوجته المنهمكة في تضميد جراحه برقة وقال:

\_عهد الفتوات موشك على الزوال، وأولهم قاتل أبيك!

لكنها لم تجب. وظلت عينا حنش تومضان في قلق. ثم أسند عرفة رأسه إلى يده من شدة الألم.

## 1.0

في باكر الصباح طرق طارق باب البدروم، ولما فتحته عواطف رأت أمامها عم يونس بواب بيت الناظر، فحيته برقة ودعته إلى الدخول لكنه قال وهو ثابت في مكانه:

\_حضرة الناظر يطلب عم عرفة إلى مقابلته لاستشارة عاجلة!

ذهبت عواطف لإبلاغ عرفة دون أن تجد للدعوة العالية السرور الخليق بها في غير الظروف التي تعانيها .

ومضت فترة قصيرة ثم جاء عرفة مرتديا خير ملابسه، جلبابا أبيض ولاسة منقطة ومركوبا نظيفا، غير أنه كان يتوكأ على عصا لعرج طارئ غير خاف، فرفع يده تحية وقال:

# ـ تحت الأمر.

فسار البواب وهو يتبعه. وكانت الكآبة تغشى الحارة من أولها إلى آخرها، فالأعين قلقة كأنما تتساءل فى خوف عما سيجىء به الغد من الكوارث، وأعوان الفتوات تجمعوا فى المقاهى يتشاورون، على حين تتابع العويل والنواح فى بيت سعد الله. ودخل بيت الناظر وراء البواب، فسارا فى الممر المسقوف بعريشة الياسمين حتى بلغا السلاملك. وتخيل أوجه الشبه بين هذا البيت والبيت الكبير فوجدها كثيرة حتى ظن ألا اختلاف إلا فى الدرجة، وقال لنفسه بحنق: «تقلدونه فيما ينفعكم لا فيما ينفع الناس؟!». وسبقه البواب ليستأذن له ثم عاد ليشير إليه بالدخول فمضى إلى البهو الكبير حيث رأى الناظر

قدرى جالسا فى انتظاره فى أقصى المكان. وقف على بعد ذراع منه وهو ينحنى احتراما حتى تقوس ظهره. وبدا لعينيه من أول لمحة طويل القامة قوى البنيان ممتلئ الوجه باللحم والدم، ولما ابتسم إليه ردا على تحيته افتر فمه عن أسنان صفر قذرة لا تناسب بهاء منظره بحال. وأشار إليه أن يجلس إلى جانبه على ديوانه، لكن عرفة اتجه إلى أقرب مقعد وهو يقول:

\_عفوا يا حضرة الناظر!

لكن الناظر أصر على دعوته فأشار إلى الديوان قائلا بلطف وأمر معا:

\_هنا. . اجلس هنا.

فلم يجد بدا من الجلوس إلى جانبه في أقصى الديوان وهو يقول لنفسه: لا شك في أنها حالة سرية! وتأكد ظنه حينما رأى البواب وهو يغلق باب البهو! ولبث صامتا في حال خضوع والناظر يرمقه بهدوء، ثم قال الناظر في نبرة هادئة كالمناجاة:

\_عرفة! لم قتلت سعد الله؟

تجمد البصر تحت البصر. وسابت المفاصل. ودار كل شيء. وانقلب المستقبل ماضيا. ورأى الرجل ينظر إليه بعين الواثق فلم يشك في أنه عرف كل شيء كالقضاء والقدر. ثم لم يهله فقال بشيء من الحدة:

ـ لا ترتعب! لماذا تقتلون إذا كنتم هكذا ترتعبون؟ تمالك مشاعرك لتستطيع أن تجيبني، وخبرني صراحة لم قتلت سعد الله؟

وكره الصمت فقال وهو لا يدرى ما يقول:

\_سيدى. . أنا!

فقال الناظر بحدة:

\_ يا بن الحقيرة أحسبتني أهذى؟! أو أنني أتكلم دون دليل؟أجبني لماذا قتلته؟

وهو يتمزق من الحيرة واليأس جالت عيناه في أرجاء البهو بحركة لا معنى لها، فقال الناظر بصوت بارد كالموت:

ـ لا مهرب يا عرفة! وفي الخارج أناس لو علموا بأمرك لمزقوك بأسنانهم ولشربوا دمك.

وكان النواح يشتد في بيت الفتوة، أما آماله فقد ووريت في التراب. وفتح فمه دون أن يقول شيئا.

فقال الناظر بقسوة:

- الصمت مهرب في متناول اليد، سأدفع بك إلى الوحوش في الخارج وأقول لهم هاكم قاتل سعد الله، وإن شئت أقول لهم هاكم قاتل الجبلاوي!

هتف بصوت مبحوح:

\_الجبلاوى؟!

\_حافر الأنفاق وراء الأسوار الخلفية! نجوت في المرة الأولى ووقعت في الأخرى، لكن لماذا تقتل يا عرفة؟

وقال في يأس بلا قصد ولا معنى:

ـ برىء يا حضرة الناظر، أنا برى ا!

فقال في تهكم:

- إذا أعلنت تهمتك فلن يطالبني أحد بدليل. في حارتنا الإشاعة حقيقة، والحقيقة حكم، والحكم هو الإعدام، ولكن خبرني عما دفعك إلى اقتحام البيت الكبير؟ ثم قتل سعد الله؟

هذا الرجل يعرف كل شيء. كيف؟ لا يدرى لكنه يعرف كل شيء. وإلا فلماذا صب عليه اتهامه دون أهل الحارة جميعا؟

\_هل كنت تقصد السرقة؟

غض بصره في يأس لكنه لم يتكلم فهتف الناظر في غضب:

- انطق يا بن الأفاعي!

ـ سيدى .

ـ لماذا تسعى إلى السرقة وأنت أفضل حالا من كثيرين؟

فقال بنبرة الاعتراف اليائسة:

ـ النفس أمارة بالسوء .

ضحك الناظر بظفر، أما عرفة فساءل نفسه في حيرة: عما جعل الرجل يؤجل الفتك به إلى الآن! بل لم لم يفض بسره إلى أحد الفتوات بدلا من استدعائه على ذلك النحو الغريب؟ وتركه الناظر لنفسه كأنما يعذبه، ثم قال:

\_ يا لك من رجل خطير!

ـ أنا رجل مسكين .

\_ أَيُعدُّ في المساكين من يحوز سلاحا كسلاحك الذي هزئ بالنبابيت؟

لا يبكى ميت على فقد بصره. هذا الرجل هو الساحر حقا لا هو، وجعل الناظر يتلذذ بيأسه مليا ثم قال:

- انضم أحد خدمى إلى مطارديك، وكان متأخرا عنهم فلم يصبه سلاحك، ثم تبعك وحده في هدوء فلم يُشعرك بمطاردته الخفية، ثم عرفك عند الدراسة فلم يهاجمك خوفا على نفسه من مفاجآتك، وسارع إلى فأخبرني.

فقال عرفة بلا وعي:

\_ألا يمكن أن يخبر أحدا غيرك؟

فقال مبتسما:

\_إنه خادم أمين.

ثم بنبرة ذات معنى:

- الآن حدثني عن سلاحك.

أخذت الغيوم تتكشف لناظريه. الرجل يطمع فيما هو أثمن من حياته! لكن يأسه كان محبطا. وأين المفر؟ قال بصوت منخفض:

ـ هو أبسط مما يتصور الناس!

فقست نظرته وتجهم وجهه وقال:

ـ في وسعى أن أفتش بيتك الآن لكنني أتحاشى لفت الأنظار إليك، ألا تفهم؟ .

وسكت مليا ثم أردف:

\_لن تهلك ما دمت تطيعني!

كان يتكلم ونذر الوعيد تتطاير من عينيه، فقال عرفة وقد طفحت باليأس روحه:

ـ ستجدني رهن مشيئتك.

ـ بدأت تفهم يا ساحر حارتنا، لو كان مقصدى قتلك، لكنت الساعة في بطون الكلاب.

ثم تنحنح وواصل حديثه قائلا:

ـ دعنا من الجبلاوي وسعد الله وحدثني عن سلاحك، ما هو؟

فقال بدهاء:

\_زجاجة سحرية!

فحدجه بنظرة ارتياب وقال:

\_أفصح!

فقال وهو يسترد شيئا من الطمأنينة لأول مرة:

\_لغة السحر لا يتكلمها إلا أهلها.

\_ ألا تفصح حتى ولو وعدتك بالسلامة؟

فضحك باطنه ولكنه قال بجد ظاهر:

\_ ما قلت إلا الحق.

فنظر الرجل إلى الأرض قليلا ثم رفع رأسه متسائلا:

\_ألديك منها كثير؟

\_ليس لدى منها شيء الساعة!

فعض الناظر على أسنانه هاتفا:

\_يا بن الأفاعي!

فقال عرفة ببساطة:

\_ فتش بيتي لترى صدقى بعينيك.

\_أتستطيع أن تصنع مثلها؟

فقال بثقة:

\_بكل تأكيد.

فشبك ذراعيه على صدره من شدة الانفعال، وقال:

\_أريد منها كثيرا.

فقال عرفة:

\_سيكون لك منها ما تشاء.

وتبادلا نظرة تفاهم لأول مرة، وإذا بعرفة يقول بجرأة:

ـ سيدي يريد الاستغناء عن الفتوات الملاعين.

فومضت بعيني الرجل نظرة غريبة وسأله:

\_ صارحني بما دفعك إلى اقتحام البيت الكبير؟

فقال عرفة ببساطة:

ـ لا شيء إلا حب الاستطلاع، وقد ساءني مقتل الخادم الأمين عن غير قصد مني.

فحدجه بنظرة ارتياب وقال:

ـ تسببت في موت الرجل الكبير!

فقال عرفة بحزن:

\_شد ما يتقطع قلبي حزنا لذلك.

فهز الناظر منكبيه قائلا:

\_ليتنا نحيا مثله!

يا لك من منافق أثيم! لا شيء يهمك إلا الوقف! وقال:

\_أمد الله في عمرك.

فعاد يسأله بارتياب:

\_ألم تذهب إلا جريا وراء الاستطلاع؟

ـ بلي.

\_ و لماذا قتلت سعد الله؟

فقال بصراحة:

ـ لأنى مثلك أود القضاء على جميع الفتوات.

فابتسم الرجل وقال:

\_إنهم شر مستحكم!

لكنك في الحق تبغضهم لما يأخذون من أموال الوقف، لا لشرهم .

ـ بالحق نطقت يا سيدى.

فقال بإغراء:

\_ستثرى فوق ماكنت تحلم.

فقال عرفة بمكر:

\_ولا غاية لي إلا ذلك.

فقال الناظر بارتياح:

ـ لا ترهق نفسك بالعمل نظير الملاليم، تفرغ لسحرك في حمايتي، وسيكون لك كل ما تشتهيه نفسك!

### 1.7

جلس ثلاثتهم على الكنبة، عرفة يقص ما حدث له وعواطف وحنش يتابعانه بانتباه وانفعال وفزع، حتى ختم عرفة حديثه المثير بقوله:

ـ لا اختيار لنا. إن جنازة سعد الله لم تخرج بعد، فإما القبول وإما الإبادة.

فقالت عواطف:

\_وإما الهرب.

ـ لا مهرب من عيونه التي تحيط بنا .

ـ لن نكون في كنفه آمنين.

تجاهل قولها كما يود أن يتجاهل أفكاره وتحول إلى حنش قائلا:

مالك لاتتكلم؟

فقال حنش بجدٍّ وحزن:

عدنا إلى هذه الحارة يوم عدنا بآمال بسيطة محدودة ، أنت وحدك المسئول عن التغيّر الذى وقع بعد ذلك ، عن تعلقنا بالآمال الكبيرة ، وكنت أعارض طموحك بادئ الأمر ، ولكنى عاونتك دون تردد ، وأخذت أقتنع بآرائك رويدا رويدا ، حتى لم يعد لى من أمل إلا أمل حارتنا في الخلاص والكمال . واليوم تفاجئنا بخطة جديدة سنصبح بها آلة رهيبة لاستذلال حارتنا ، آلة لا يمكن أن تقاوم ولا أن تبيد وإن جاز أن يُقاوم فتوة أو يُقتل .

وقالت عواطف:

- ولا أمان لنا بعد ذلك، فقد ينال منك ما يريد ثم يتخلص منك بحيلة كما يدبر الآن للفتوات.

كان مقتنعا في أعماقه بما يقولان ولا يكف عن التفكير فيه، لكنه قال وكأنما يحاور فسه:

\_سأجعله دائما في حاجة إلى سحرى!

فقالت عواطف:

ـ ستكون على خير الأحوال فتوته الجديد.

فقال حنش مؤيدا:

ـ نعم، فتوة سلاحه زجاجة بدلا من النبوت، واذكر مشاعره نحو الفتوات لتعرف ما ستكون عليه نحوك.

واحتد عرفة غضبا فقال:

ـ ما شاء الله، كأننى الطامع وأنتما الزاهدان! إنما أنا الإيمان الذى أصبحتما به تؤمنان، وما سهرت الليالي في الحجرة الخلفية وما عرضت نفسى للموت مرتين إلا لخير حارتنا. فإذا كنتما ترفضان ما فرض علينا دون اختيار فأشيرا علىّ بما يجب فعله.

ونظر إليهما بتحد غاضب فلم ينبس منهما أحد. وكان الألم يعتصره والدنيا تبدو كابوسا خانقا لعينيه. ودهمه شعور غريب بأن ما يعانيه ما هو إلا انتقام لتهجمه القاسي على جده، فازداد ألما وحزنا. وهمست عواطف بتوسل يائس:

\_الهرب!

فتساءل بحدة وحنق:

\_وكيف الهرب؟!

ـ لا أدرى! لكنه لن يكون أصعب عليك من التسلل إلى بيت الجبلاوى!

فنفخ يائسا وقال بهدوء كالرثاء:

- الناظر الآن بانتظارنا ، عيونه حولنا ، كيف ندبر الهرب؟

وكان صمت ، يا له من صمت ، كصمت القبر الذي يضم الجبلاوي فقال بتشف:

ـ لا أريد أن أتحمل الهزيمة وحدى.

فتأوه حنش قائلا كالمعتذر:

ـ لا خيار لنا .

ثم بحرقة:

\_قد يلد المستقبل فرصة للنجاة.

فقال عرفة بلب شارد:

\_من يدرى؟!

ومضى إلى الحجرة الخلفية وحنش في إثره. وأخذا يعبئان بعض القوارير بقطع من الزجاج والرمل وغيرها. وإذا به يقول:

\_ ينبغى أن نتفق على رموز للدلالة على خطوات أعمالنا السحرية. وأن نسجل صورها في كراسة أمينة سرية حتى لا يتعرض جهدنا للضياع أو يكون موتى نذير النهاية لهذه التجارب. ومن ناحية أخرى أرجو أن يكون لديك الاستعداد لتعلم السحر، فما ندرى شيئا عما يخبئه القدر لنا!

وواصلا عملهما بهمة عالية. وحانت من عرفة التفاته إلى صاحبه فرآه متجهما فلم يخف عليه سره، لكنه قال مداراة للموقف الغريب:

ـ ستقضى هذه القوارير على الفتوات!

فقال حنش فيما يشبه الهمس:

\_ لا لحسابنا ولا لحساب حارتنا.

فقال دون أن تكف يداه عن العمل:

ـ ماذا علمتك رباب الشاعر؟ وُجد في الماضي رجال أمثال جبل ورفاعة وقاسم، فماذا يمنع أن يجيء أمثالهم في المستقبل؟

فقال حنش متنهدا:

\_ كدت أحسبك في بعض الأوقات أحدهم.

فضحك عرفة ضحكة جافة مقتضبة وتساءل:

\_وهل عدلت بك عن ذلك هزيمتي؟

فلم يجب، فعاد الآخر يقول:

لن أكون مثلهم في ناحية واحدة على الأقل، وهي أنهم كانوا ذوى أتباع من أولاد حارتنا، أما أنا فلا يفهمني أحد.

### ثم وهو يضحك:

\_كان في وسع قاسم أن يكتسب تابعا قويا بكلمة حلوة، أما أنا فتلزمني أعوام وأعوام حتى أستطيع أن أدرب رجلا على عملي وأجعل منه تابعا.

وفرغ من تعبئة زجاجة فأحكم سدادتها وعرضها أمام ضوء المصباح في إعجاب، ثم قال:

ـ هي اليوم ترعب الأفئدة وتدمى الوجوه بالجراح، وغدا قد تقتل قتيلا. قلت لك إنه ليس للسحر من نهاية!

# 1.4

مَنْ فتوة حارتنا؟ مضى الناس يتساءلون عنه مذرقد سعد الله فى قبره. وأخذ كل فريق يزكى رجله. فآل جبل قالوا إن يوسف أقوى فتوات الحارة وأوثقهم نسبا بالجبلاوى. وقال آل رفاعة إنهم حى أنبل من عرفته الحارة فى تاريخها، الرجل الذى دفنه الجبلاوى فى بيته وبيديه. وقال آل قاسم إنهم هم الذين لم يستغلوا النصر لصالح حيهم ولكن لصالح الجميع فكانت الحارة على عهد رجلهم وحدة لا تتجزأ يسودها العدل والأخوة. وكالعادة بدأت الخلافات همسا فى الغرز، ثم تطايرت فى الجو فثار الغبار وتحفزت النفوس لشر المهالك ولم يعد فتوة يسير بمفرده، وإذا سهر فى قهوة أو غرزة أحاط به الأتباع مدججين بالنبابيت. وراح كل شاعر يدعو بالرباب إلى فتوة حيّه. وتجهم أصحاب الدكاكين والباعة وكدر التشاؤم وجوههم. وتناسى الناس موت الجبلاوى ومقتل سعد الله بما ركبهم من هم وتوجس الخوف، وحق لأم نبوية بياعة النابت أن تقول بأعلى صوت:

ـ قطعت العيشة ويا بخت من كان الموت نصيبه .

وذات مساء ترامي صوت من فوق سطح بحي أل جبل وهو يصيح:

\_ يا أولاد حارتنا، اسمعوا واجعلوا العقل حكما بيننا وبينكم، حي آل جبل أقدم أحياء الحارة، وجبل أول رجالها الكرام، فلا مذلة لأحد إذا ارتضيتم يوسف فتوة لحارتكم.

فتعالت أصوات الاستهزاء من حيى آل رفاعة وآل قاسم ، مصحوبة بقذائف السب واللعن، وما لبث أن تجمع الصغار أمام الربوع وراحوا ينشدون : يا يوسف يا وش القسملة مين قلك تعسمل دى العسملة واشتدت القلوب غلظة وسوادا. ولم يؤجل وقوع الكارثة إلا أن التناحر كان يقوم بين ثلاث قوى متضادة معا، وأنه كان لابد من أن يتحد حيان أو أن ينسحب من التنافس حى مختارا.

ووقعت أحداث بعيدا عن الحارة ذاتها. فقد التقى بائعان فى بيت القاضى، أحدهما من آل جبل والآخر من آل قاسم، فاشتبكا فى معركة حامية فقد فيها القاسمى أسنانه والجبلى عينا. وفى حمام السلطان نشبت معركة أخرى بين نسوة من آل جبل وآل رفاعة وآل قاسم وهن عرايا فى المغطس فانغرست الأظافر فى الخدود والأسنان فى السواعد والبطون والأيدى فى الضفائر، وتتطايرت الأكواز وأحجار الحك وألياف التدليك وقطع الصابون.

وانجلت المعركة عن إغماء امرأتين وإجهاض ثالثة وبض أجساد لا حصر لها بالدم. وعند ظهيرة اليوم نفسه، عقب عودة المتعاركات تباعا إلى الحارة، استؤنفت المعركة من جديد من فوق الأسطح، واستعمل فيها الطوب والسباب الفاحش، وسرعان ما امتلأت سماء الحارة بالقذائف وارتفع صراخها إلى السحاب.

وإذا برسول من قبل الناظر يتسلل خفية إلى يوسف فتوة آل جبل ويدعوه إلى مقابلة الناظر. وحرص الفتوة على أن يقابل الناظر دون أن يدرى به أحد. واستقبله الناظر بلطف وطلب إليه أن يعمل على تهدئة الخواطر في حيه وبخاصة أن ذلك الحي هو التالى موقعه لبيت الناظر. وعندما صافحه مودعا قال له إنه يتمنى أن يستقبله في المرة الآتية وهو فتوة الحارة كلها! وخرج الرجل من بيت الناظر ثملا بتأييده الصريح له، وآمن بأن الفتونة باتت في متناول يديه. وما لبث أن ألزم حيه بالنظام. وتهامس الناس في حيه بما يدخره الغد لهم من سيادة وجاه. وتسربت من حيهم الأنباء إلى بقية الحارة فهاجت الخواطر.

ولم تمض أيام بعد ذلك حتى تقابل عجاج والسنطورى سرا فاتفقا فيما بينهما على القضاء على يوسف من ناحية، ثم على الاقتراع على الفتونة بعد النصر من ناحية أخرى. وعند فجر اليوم التالى تجمع الرجال من آل قاسم وآل رفاعة فهاجموا حى آل جبل، فدارت معركة شديدة، لكن يوسف وكثرة من أتباعه قتلوا وهرب الباقون، وأذعن آل جبل للقوة يائسين. وحُدد العصر لإجراء القرعة المتفق عليها. وعند العصر هرع القاسمية والرفاعية رجالا ونساء إلى رأس الحارة أمام البيت الكبير، وامتدت جموعهم جنوبا حتى بيت الناظر وشمالا حتى بيت الفتوة الذى سيصبح ملكا للفائز بالقرعة. وجاء السنطورى وعصابته كما جاء عجاج وعصابته فتبادلوا تحيات السلام والتعاهد. وتعانق عجاج والسنطورى أمام الجميع، وقال عجاج بصوت سمعه جميع المتطلعين:

\_أنا وأنت أخوان، وسنبقى أخوين في جميع الأحوال.

فقال السنطوري بحماس:

\_على الدوام يا سيد الجدعان!

وقف الحيان متقابلين، يفصل بينهما فراغ أمام مدخل البيت الكبير. وجاء رجلان الحدهما من آل قاسم والآخر من آل رفاعة بمقطف ملىء بالقراطيس فوضعاه وسط الفراغ ثم تقهقر كل إلى قومه. وأعلن على الجميع أن القادوم هو رمز عجاج وأن الساطور هو رمز السنطورى، وأنه وضعت نماذج مصغرة منهما في القراطيس مناصفة. وجيء بغلام ليأخذ وهو معصوب العينين من المقطف قرطاسا. مد الغلام يده في صمت متوتر ثم استردها بقرطاس. فتحه وهو ما يزال معصوب العينين وتناول ما فيه ورفع به يده فهتف القاسمية:

-الساطور . . الساطور .

مد السنطوري إلى عجاج يده فتناولها الآخر وشد عليها باسما. وتعالى هتاف حار: \_ يعيش السنطوري فتوة حارتنا.

ومن صفوف الرفاعية تقدم رجل إلى السنطورى مفتوح الذراعين ، ففتح له السنطورى ذراعيه ليعانقه ، لكن الآخر طعنه بسكين في قلبه بمنتهى القوة والسرعة . سقط السنطورى على وجهه قتيلا . سيطر الذهول لحظة ثم انفجر الصياح والوعيد و الغضب . وتلاقى الحيان في معركة دامية قاسية . لكن لم يكن هناك في القاسمية من يستطيع الوقوف أمام عجاج ، فسرعان ما نفذت إلى قلوبهم الهزيمة ، وسقط من سقط ، وجرى من جرى ، ولم يجئ المساء حتى كانت الفتونة قد تقررت لعجاج . وبينا ضج حى قاسم بالعويل ، انطلقت الزغاريد من حى رفاعة ، وراحوا يرقصون في الطريق حول فتوتهم فتوة الحارة عجاج . وإذا بصوت يرتفع فوق الزغاريد صائحا :

\_هُس، اسمعوا! اسمعوا يا غنم!

تطلعوا في عجب إلى مصدر الصوت فرأوا يونس بواب الناظر يسير بين يديي الناظر نفسه الذي جعل يتقدم في هالة من خدمه . مضى عجاج نحو موكب الناظر وهو يقول :

\_محسوبك عجاج فتوة الحارة وخادمكم!

حدجه الناظر بنظرة ازدراء وقال في الصمت الرهيب الذي غشى الحارة جميعا:

\_ يا عجاج، لا أريد في الحارة فتوة ولا فتونة!

ذهل رجال آل رفاعة، وماتت على شفاههم بسمات الظفر والطرب، وتساءل عجاج في دهشة:

\_ماذا يقصد حضرة الناظر؟!

فقال الناظر بقوة ووضوح:

ـ لا نريد فتونة ولا فتوة، دعوا الحارة تعيش في أمان.

فهتف عجاج ساخرا:

\_أمان؟!

فسدد الناظر نحوه نظرة قاسية ، لكن الآخر تساءل في تحدّ:

\_ومن ذا يحميك أنت؟!

وإذا بالقوارير تنهال من أيدى الخدم على عجاج وأعوانه، ودوى الانفجارات يزلزل الجدران، وشظايا الزجاج والرمال تصيب الوجوه والأطراف وتفجر الدماء. وانقض الفزع على النفوس كما تنقض الحدآت على الفراخ، فطاشت العقول وسابت المفاصل. وسقط عجاج وأعوانه فأجهز الخدم عليهم. وتعالى الصوات في حي آل رفاعة، وزغاريد الشماتة في حيى آل جبل وآل قاسم. وتوسط يونس الحارة داعيا الجميع إلى الإنصات حتى ساد الصمت، ثم صاح قائلا:

\_ يا أولاد حارتنا، جاءكم السعد والأمان بفضل حضرة الناظر أطال الله بقاءه، فلا فتوة يذلكم أويغتال أموالكم بعد اليوم.

وارتفعت أصوات الهتاف إلى السماء.

# ۱ • ۸

انتقل عرفة وأسرته بليل من بدروم حى الرفاعية إلى بيت الفتوة على يمين البيت الكبير. بذلك أمر الناظر وليس لأمره رد. وجدوا أنفسهم فى مأوى كالحلم. وراحوا يطوفون بالحديقة الغناء والمنظرة الأنيقة، والسلاملك، والبهو، إلى غرف النوم والجلوس والسفرة فى الدور الثانى والسطح وما يزدحم بجدرانه وأركانه من بيوت الدجاج وبلاليص الأرانب وأعشاش الحمام. ارتدوا لأول مرة ملابس فاخرة وتنفسوا هواء نقيًا، وتشمموا روائح زكية. وراح عرفة يقول:

ـ صورة صغرى من البيت الكبير ولكن بلا أسرار!

فتساءل حنش:

ـ وسحرك؟ ألا يعد من الأسرار؟

ولاح الذهول في عيني عواطف وهي تقول:

ـ لا يحلم أحد بشيء كهذا.

وتغير الثلاثة منظرا ولونا ورائحة. ولكن لم يكد المقام يستقر بهم حتى جاءهم جمع من الرجال ومن النساء، قال أولهم إنه البواب وثانيهم الطاهى وثالثهم البستاني ورابعهم مربى الطيور والأخريات للدار، فعجب عرفة لهم وسألهم:

ـ من أذن لكم بالمجيء؟

فقال البواب إنابة عنهم:

ـ حضرة الناظر.

وسرعان ما دعى عرفة إلى مقابلة الناظر فذهب من فوره. ولما جلسا جنبا إلى جنب فوق الإيوان بالبهو قال قدري:

ـ سنتقابل كثيرا يا عرفة فلا يزعجك استدعائي لك.

الحق قد أقلقه المكان والمجلس والرجل لكنه قال ببشاشة:

-سيدى الخير والبركة!

ـ سحرك أصل الخير كله، ترى هل أعجبتك الدار؟

فقال عرفة في حياء:

ـ هي فوق الأحلام، وبخاصة أحلام قوم فقراء مثلنا، واليوم جاءنا الخدم أشكالا وألوانا!

فتفرس الناظر في وجهه وهو يقول:

ـ هم من رجالي أرسلتهم إليك ليخدموك وليحموك!

ـ يحمونني؟!

فقال قدري وهو يضحك:

ـ نعم، ألا تعلم أن الحارة لا حديث لها إلا انتقالك إلى بيت الفتوة؟ ويقولون فيما بينهم هو هو صاحب القوارير السحرية. وأهل الفتوات موتورون كما تعلم، والآخرون يموتون حسدا، لذلك كله فأنت في خطر محيط، ونصيحتى إليك ألا تأمن أحداً أو تسير بمفردك أو تبتعد عن دارك!

تجهم وجهه. ما هو إلا سجين يحيط به الغضب والمقت. واستدرك قدري قائلا:

ـ لكن لا تخف فإن رجالي حولك، واستمتع بالحياة ما شئت في بيتك وفي بيتي. ماذا تخسر وراء ذلك إلا الخلاء والخرائب؟ ولا تنس أن أهل حارتنا يقولون إن سعد الله قتل بالسلاح الذي قتل به عجاج، وإن الوسيلة التي تسلل منها القاتل إلى بيت سعد الله هي نفس الوسيلة التي تسلل منها إلى البيت الكبير من قبل، فقاتل عجاج وسعد الله والجبلاوي شخص واحد هو عرفة الساحر.

فهتف عرفة متشنجا:

- هذه لعنة مسلطة على رأسي.

فقال الناظر في هدوء:

ـ لا تخف ما دمت في كنفي ومن حولك خدمي.

أيها اللئيم الذي أوقعني في سجنه، ما أردت السحر إلا للقضاء عليك لا لخدمتك، واليوم يمقتني من أحبهم وأود خلاصهم ولعلى أقتل بيد أحدهم. وقال برجاء:

ـ وزع أنصبة الفتوات على الناس يرضوا عنك وعنا!

فضحك قدرى هازئا ثم تساءل:

ـ ولم إذن كان القضاء على الفتوات؟

وأردف وهو يتفحصه بقسوة:

- إنك تتلمس سبيلا إلى رضاهم؟! دعك من هذا، وتعود مثلى على مقت الآخرين لك، ولا تنس أن ملاذك الحق هو رضاي عنك.

فقال في قنوط:

ـ كنت وما زلت في خدمتك!

ورفع الناظر رأسه نحو السقف كأنما يتسلى بتأمل زخارفه، ثم أعاد رأسه إليه قائلا:

- أرجو ألا يلهيك متاع الحياة الجديدة عن سحرك!

فهز رأسه بالإيجاب فقال الرجل:

ـ وأن تكثر ما استطعت من القوارير السحرية!

فقال عرفة بحذر:

ـ لست بحاجة إلى أكثر مما لدينا منها .

فداري الآخر حنقه بابتسامة و تال:

ـ أليس من الحكمة أن ندخر منها عددًا موفورًا؟

لم يجب. ودهمه يأس. وتساءل هل جاء دوره هكذا سريعا؟ وسأله بغتة:

ـ سيدى الناظر، إذا كان مقامي يضايقك فاسمح لى بالذهاب إلى غير عودة.

فتظاهر الرجل بالانزعاج وتساءل:

ـ ماذا قلت يا رجل؟

فقال وهو يواجهه بنظرة صريحة:

ـ أنا أعلم أن حياتي رهن بحاجتك إليّ.

فضحك الرجل ضحكة لا مرح فيها ثم قال:

ـ لا تظنني أستهين بذكائك، وأعترف لك بسلامة تفكيرك، لكن كيف توهمت أن حاجتي إليك تقف عند القوارير؟ أليس في وسع سحرك أن يصنع أعاجيب أخرى؟ لكن عرفة واصل حديثه الأول قائلا بجفاء:

رجالك هم الذين أذاعوا سر ما قدمت لك من خدمات، لست أشك في ذلك، لكن يجب أن تذكر كذلك أن حياتك في حاجة إلى .

قطب الناظر متوعدا لكن عرفة قال دون تردد:

- أنت اليوم لا فتوات لك، ولا قوة عندك إلا بالقوارير، وما لديك منها لا يغنى عنك شيئا، فإذا مت أنا اليوم تبعتني غدا أو بعد غد.

مال الناظر عليه كالوحش فجأة فطوق عنقه بيديه وشد عليه حتى ارتعد جسمه. لكنه سرعان ما خفف من قبضتيه، ثم سحبهما، ثم ابتسم ابتسامة مقيتة وقال:

- انظر ما كانت ستدفعني إليه سلاطة لسانك! بينما لا توجد لدينا دواع للخصومة، وفي وسعنا أن نستمتع بالنصر وبالحياة في سلام.

تنفس عرفة بعمق ليسترد روحه المذعورة على حين واصل الآخر حديثه قائلا:

ـ لا تخف على حياتك منى، فسأحرص عليها حرصى على الحياة نفسها. تمتع بالدنيا ولا تنس سحرك الذى يجب أن نجنى أزاهر ثماره، واعلم بأن من يغدر منّا بصاحبه فقد غدر بنفسه!

تجهم وجها عواطف وحنش وهو يعيد على مسامعهما ذلك الحديث في البيت الجديد. وبدا أن ثلاثتهم تعوزهم الطمأنينة الحقة في ظل حياتهم الجديدة. لكنهم تناسوا أسباب قلقهم عند العشاء حول مائدة حفلت بما لذ وطاب من طعام شهى ونبيذ معتق. ولأول مرة ارتفع صوت عرفة وهو يضحك واهتز جذع حنش وهو يقهقه. ومضيا في حياتهما كما شاءت الظروف. كانا يعملان معا في حجرة وراء البهو أعداها للسحر. ودأب عرفة على تسجيل الرموز التي اصطلحا عليها في كراسة لم يعلم بها سواهما أحد. ومرة قال له حنش في أثناء العمل:

ـ يا لنا من سجناء!

فقال له محذرا:

- أخفض من صوتك فإن للحيطان آذانا.

مد حنش بصره نحو الباب في حقد ثم عاد يقول فيما يشبه الهمس:

- أليس من الممكن أن تصنع سلاحا جديدا نقضى به عليه من حيث لا يدرى؟

فقال عرفة بامتعاض:

ـ لن يتاح لنا أن نجربه سرا بين هؤلاء الخدم، فهو لن يخفى عليه شىء من أمورنا. وإذا قضينا عليه قضى علينا الموتورون من أهل حارتنا قبل أن ندافع عن أنفسنا حيالهم! ـ لماذا تعمل إذن بهذا الجد كله؟

فتنهد قائلا:

- لأنه ليس لي إلا أن أعمل.

وكان يذهب عند الأصيل إلى بيت الناظر فيجالسه ويشاربه، ثم يعود ليلا إلى داره فيجد أن حنش قد هيأ له في الحديقة أو المشربية غرزة صغيرة فيحششان معا. ولم يكن معدودا في الحشاشين من قبل، ولكن التيار جرفه. وطارده الملل. وحتى عواطف أخذت تتلقّن تلك الأشياء. كان عليهم أن ينسوا الملل والخوف واليأس وإحساسا محزنا بالذنب، كما كان عليهم أن ينسوا آمال الماضى العريضة. وعلى رغم ذلك فقد كان للرجلين عمل.

أما عواطف، فما كان لها من عمل. كانت تأكل حتى تتخم، وتنام حتى تمل الرقاد، وتقضى الساعات الطويلة فى الحديقة مستمتعة بشتى ألوان جمالها. وذكرت أنها باتت تنعم بالحياة التى تحسر عليها أدهم. ما أثقلها من حياة. وكيف تعد مطلبا تذهب النفس حسرات عليه! لعلها كانت تكون كذلك لو لم تكن سجنا ولم يكن ما يحيط بها عداوة وبغضاء. لكنها ستلبث سجنا مطوقا بالكراهية، ولا مهرب منه إلا حول المجمرة! ومرة تأخر عرفة فى بيت الناظر فخطر لها أن تنتظره فى الحديقة. وتقدمت قافلة الليل وراء حادى القمر وهى جالسة تصغى إلى أنغام الغصون ونقيق الضفادع.

وانتبهت إلى صوت الباب وهو يفتح فاستعدت للقاء القادم، غير أن حفيف ثوب قادما من ناحية البدروم لفت إليه سمعها، ثم رأت من موقفها شبح خادمة على ضوء القمر مضت نحو الباب دون أن تدرى بها. وتقدم عرفة كالمترنح فانتحت الخادمة ناحية الجدار الممتد من السلاملك فلحق بها، ثم رأتهما يلتحمان وقد أخفاهما ظل الجدار من ضوء القمر.

# ۱ . ٩

انفجرت عواطف كما ينبغى لامرأة من حارة الجبلاوى. انقضت على الكائن المتلاحم كاللبؤة فهوت بقبضتها على رأس عرفة فتراجع ذاهلا مترنحا حتى اختل توازنه فوقع، ثم أنشبت أظافرها في عنق الخادمة وانهالت على رأسها نطحا حتى مزق صراخها سكون الليل. وقام عرفة من سقطته لكنه لم يجرؤ على الدنو من المعركة. وجاء حنش مهرولا وفي أعقابه عدد من الخدم، فلما عرف الموقف على حقيقته صرف الخدم، وخلص بين المرأتين بكياسة ولباقة حتى استطاع أن يعود بعواطف إلى البيت وهي تقذف بسيل من السباب والشتائم واللعنات. ومضى عرفة مترنحا إلى المشربية المطلة على الخلاء وارتمى على شلتة وحيدا في الغرزة، ثم مد ساقيه وأسند رأسه إلى جدار وهو في شبه غيبوبة. ولحق به حنش بعد فترة قصيرة فاتخذ مجلسه أمامه حول المجمرة صامتا، ورمقه بنظرة سريعة ثم عاد ينظر إلى الأرض حتى قطع الصمت قائلا:

ـ كان لابد للفضيحة أن تقع.

فرفع إليه عينين خجلتين وقال ممعنا في الهرب:

ـ أشعل النار!

ولبثا في المشربية حتى قبيل الصباح. وذهبت الخادمة فحلت محلها أخرى. وبدا لعواطف أن ذلك الجو المحيط بها يغرى بزلة بعد أخرى. وأخذت تؤول كل حركة تصدر عن زوجها تأويلا سيئا يتناسب مع ارتيابها حتى انقلبت الحياة جحيما. وفقدت العزاء الوحيد الذى كانت تتسلى به في سجنها المليء بالمخاوف. فلا البيت بيتها ولا الزوج زوجها. سجن بالنهار وماخور بالليل. وأين عرفة الذى أحبته؟ عرفة الذى تحدى بالزواج منها السنطورى، والذى عرض نفسه للهلاك مرات في سبيل الحارة حتى ظنته رجلا من رجال الرباب، ما هو اليوم إلا وغد مثل قدرى ومثلما كان سعد الله. والحياة إلى جانبه عذاب مشتعل وخوف مؤرق.

وعاد عرفة ليلة من بيت الناظر فلم يجد لعواطف أثرا. وشهد البواب بأنه رآها تغادر البيت أول الليل ثم لم تعد. وتساءل عرفة ورائحة الخمر تتطاير مع أنفاسه:

- أين ذهبت يا ترى؟

فقال حنش بإشفاق:

ـ إن تكن في الحارة فهي عند جارتها القديمة أم زنفل بائعة المفتقة.

فقال عرفة غاضبا:

المرأة لا تؤخذ باللين، هذه حكمة أهل حارتنا، فلأهملها حتى تعود بنفسها ذليلة!

لكنها لم ترجع، وانقضت عشرة أيام، فقرر عرفة أن يذهب ليلا إلى أم زنفل متوخيا ألا يشعر بذهابه أحد. وفي الميعاد المضروب تسلل من البيت متبوعا بحنش. وما كادا يقطعان خطوات حتى سمعا أقداما تتبعهما فالتفتا وراءهما فرأيا خادمين من خدم البيت، فقال عرفة لهما:

ـ ارجعا إلى البيت.

### فأجابه أحدهما:

ـ نحن نحرسك بأمر حضرة الناظر.

تميز غيظا لكنه لم يعقب. وساروا نحو ربع قديم في حي قاسم، وصعدوا إلى طابقه الأخير حيث توجد حجرة أم زنفل. طرق عرفة الباب مرات حتى فتح عن عواطف نفسها بوجه يعلوه النعاس. تبينت وجهه على ضوء مصباح صغير بيدها فقطبت متراجعة، فتبعها رادًا وراءه الباب. واستيقظت أم زنفل في ركن الحجرة وراحت تنظر بذهول نحو القادم. أما عواطف فقالت بحدة:

ماذا جاء بك؟ ماذا تريد؟ ارجع إلى بيتك المبارك عليك.

وهمست أم زنفل بانزعاج وهي تحدق في وجهه:

ـ عرفة الساحر!

وقال عرفة لزوجته دون أن يلقى بالا إلى المرأة المنزعجة:

ـ اعقلي وتعالى معي.

فقالت بالحدة نفسها:

ـ لن أعود إلى سجنك، ولن أفرط في راحة البال التي أجدها في هذه الحجرة.

ـ لكنك زوجتي.

فارتفع صوتها وهي تقول:

ـ زوجاتك هناك بالخير والبركة!

وقالت أم زنفل في نبرة احتجاج:

ـ اتركها لنومها وعد في الصباح.

فرماها بنظرة قاسية دون أن يوجه لها كلمة واحدة، ثم نظر إلى زوجته قائلا:

ـ كل رجل وله زلة!

#### فهتفت:

- أنت نفسك زلة ولا كل الزلات.

فمال نحوها قليلا وقال محركا ألحان الرقة في أوتار صوته:

ـ عواطف. أنا لا يمكن أن أستغنى عنك.

ـ لكنى أنا استغنيت!

فتساءل بامتعاض:

ـ تبيعينني لغلطة أفلتت وأنا سكران؟

فهتفت بتشنج :

ـ لا تعتذر بالسكر، حياتك كلها أخطاء، وستحتاج إلى عشرات الأعذار لتبررها، ولن أجنى من ورائها إلا المتاعب والعذاب.

ـ هي على أي حال أفضل من الحياة في هذه الحجرة!

فابتسمت ابتسامة مريرة ساخرة وتساءلت:

ـ من يدرى؟ خبرني كيف تركك السجانون لتجيء إليّ؟

ـ عواطف!

فقالت بإصرار:

ـ لن أعود إلى بيت لا عمل لى فيه إلا التثاؤب ومعاشرة عشيقات زوجي الساحر العظيم.

وعبثا حاول أن يثنيها عن إصرارها. قابلت لينه بالعناد، وغضبه بالغضب، وسبه بالسب، فارتد عنها يائسا، ثم غادر المكان متبوعا بصاحبه والخادمين. وسأله حنش:

ـ ماذا أنت فاعل؟

فقال بامتعاض وفتور:

ـ ما نفعله كل يوم .

وسأله قدري الناظر:

ـ هل من جديد عن زوجك؟

فأجاب وهو يتخذ مجلسه إلى جانبه:

- عنيدة كالبغل ربنا يحفظ مقامك!

فقال الناظر باستهانة:

ـ لا تشغل بالك بامرأة عندك خير منها!

وجعل يتفحص عرفة باهتمام، ثم سأله:

ـ هل تعرف امرأتك شيئا من أسرار عملك؟

فبادره عرفة بنظرة مريبة ثم قال:

- السحر لا يعرفه إلا ساحر!

ـ أخشى أن . . .

ـ لا تخش شيئا لا ظل له من الوجود.

وامتد الصمت ثواني فعاد يقول في جزع:

ـ لن تمتد لها يد بسوء وأنا على قيد الحياة!

فكظم الناظر غيظه، وابتسم، وأشار إلى الكأسين المترعتين داعيا وهو يقول: من قال إن يدا ستمتد إليها بسوء؟!

#### 11.

ولما توثقت الألفة بين قدرى وعرفة ، جعل يدعوه إلى سهراته الخاصة التى تبدأ عادة عند منتصف الليل. شهد عرفة سهرة عجيبة فى البهو الكبير ، حفلت بكل ما لذ وطاب من مأكل ومشرب، ورقصت فيها نساء جميلات وهن عرايا حتى كاد عرفة أن يجن من الشراب والمنظر. فى تلك السهرة رأى عرفة الناظر يعربد بلا حدود ، مثل وحش مجنون . ودعاه إلى سهرة فى الحديقة ، فى خميلة يحدق بها مجرى ماء مضاء الوجه بنور القمر . وكان بين أيديهما فاكهة ونبيذ ، وأمامهما مليحتان : إحداهما لخدمة الممجمرة ، والأخرى لخدمة الجوزة . وهب نسيم الليل يحمل عرف الأزهار ونغم عود وأصوات تغنى :

# ـ يا عـــود قـرنفل في الجنينة منعنع

### يعبجب الجدعان الحشاشة المجدع

كانت ليلة بدرية يلوح قمرها مكتملا إذا مال غصن التوت الريان مع النسيم، أو يبدو أعينا من الضياء خلل شبكة من الأغصان والأوراق إذا رجع الغصن إلى مستقره. وسرت من يد المليحة والجوزة نشوة إلى رأس عرفة فدار مع الأفلاك، وقال:

ـ رحم الله أدهم.

فقال الناظر باسما:

ـ ورحم الله إدريس، ماذا ذكرك به؟

مجلسنا هذا!

ـ كان أدهم يحب الأحلام، ولا يعرف منها إلا ما أدخله الجبلاوي في رأسه.

ثم وهو يضحك:

- الجبلاوي الذي أرحته أنت من عذاب الكبر!

انقبض قلب عرفة وانطفأت نشوته فغمغم محزونا:

ـ لم أقتل في حياتي إلا فتوة مجرما.

ـ وخادم الجبلاوي؟

ـ على رغمي قتلته.

فقال قدري هازئا:

ـ أنت جبان يا عرفة.

فهرب إلى القمر ينظر إليه خلل الغصون تاركا الغرزة لأنغام العود، ثم جعل يسترق النظر إلى يد المليحة وهي ترص الحجر. وإذا بالناظر يهتف به:

ـ أين أنت يا بن المذهول؟!

فالتفت نحوه باسما وهو يسأل:

ـ أتسهر وحدك يا حضرة الناظر؟

ـ لا أحد هنا يليق بمساهرتي.

ـ وحتى أنا لا سمير لي إلا حنش!

فقال قدرى باستهانة:

ـ عند درجة من السطول لا يهمك أن تكون وحدك.

تردد عرفة قليلا ثم تساءل:

ـ ألسنا في سجن يا حضرة الناظر؟

فقال الآخر بحدة:

ـ ماذا تريد ما دمنا مطوقين بأناس عقتوننا؟!

وذكر كلمات عواطف وكيف فضلت مسكن أم زنفل على بيته، فقال متنهدا:

ـ يا لها من لعنة!

ـ احذر أن تفسد علينا صفونا.

فتناول الجوزة وهو يقول:

ـ لتصف الحياة إلى الأبد.

فضحك قدرى قائلا:

- إلى الأبد؟ حسبنا أن نضمن نفحة من نفحات الشباب مدى عمرنا بفضل سحرك! فملاً صدره من عبير الحديقة المتطيب بنداوة الليل العميق ثم قال:

ـ من حسن الحظ أن عرفة لا يخلو من فوائد!

ترك الناظر الجوزة ليد المليحة وهو يزفر دخانا كثيفا بدا مفضضا في ضوء القمر ثم قال حسرة:

ـ لمَ يدركنا الهرم؟ ألذ الطعام نأكله وأبهج الشراب نشربه وأطيب العيش نهنأ به، لكن المشيب يزحف في أوانه لا يرده شيء كأنه الشمس أو القمر.

- ـ لكن أقراص عرفة تحيل برودة الشيخوخة حرارة!
  - ـ ثمة شيء تقف أمامه عاجزا!
    - ـ ما هو يا سيدى؟

بدا الناظر حزينا في ضوء القمر، وتساءل:

ـ ما أبغض الأشياء إلى قلبك؟

لعله السجن الذي وضع فيه، لعلها الكراهية المحدقة به، لعله الهدف الذي تنكب عنه، لكنه قال:

- ـ ضياع الشباب!
- ـ كلا، لا خوف عليك من ذلك.
  - ـ كيف وزوجي غاضبة؟
- ـ سيجدن دائما سببا أو آخر للغضب.

واشتد هبوب النسيم مرة فارتفع حفيف الغصون وتوهجت الجمرات في المجمرة. وتساءل قدري:

ـ لماذا نموت يا عرفة؟

فرمقه بكابة ولم ينبس فأردف الآخر:

ـ حتى الجبلاوي مات.

كأن إبرة انغرزت في قلبه ، لكنه قال:

ـ كلنا أموات وأبناء أموات.

فقال في ضجر :

ـ لست في حاجة إلى تذكيري بما قلت.

ـ ليطل عمرك يا سيدى.

ـ طال أو قصر فالنهاية هي تلك الحفرة التي تعشقها الديدان.

فقال عرفة برقة :

ـ لا تدع الأفكار تكدر صفوك.

- إنها لا تفارقني. الموت. الموت. دائما الموت، يجيء في أي لحظة، ولأتفه الأسباب، أو بلا سبب على الإطلاق، أين الجبلاوي؟ أين الذين تتغنى بأعمالهم الرباب؟ هذا قضاء ما كان ينبغي أن يكون.

ولحظه عرفة فرأى وجهه شاحبا وعينيه تنطقان بالفزع، فبدا التناقض صارخا بين حاله وبين مجلسه، فداخله قلق وقال برقة:

- المهم أن تكون الحياة كما ينبغي.

فلوح بيده غاضبا وقال بحدة نعت الصفو نعيا:

ـ الحياة كما ينبغى وأحسن، لا ينقصها شيء، حتى الشباب تعيده الأقراص، ولكن ما جدوى ذلك كله والموت يتبعنا كالظل؟ كيف أنساه وهو يذكرني بنفسه كل ساعة؟

سر لعذابه، لكنه سرعان ما سخر من مشاعره، وتابع يد الحسناء بشوق وحنان، وتساءل في سره: منذا يضمن لي أن أرى القمر ليلة أخرى؟ ثم قال:

ـ لعلنا في حاجة إلى مزيد من الشراب!

ـ سنفيق في الصباح.

وجد نحوه ازدراء. وظن أن ثمة فرصة متاحة فأراد أن يخطفها فقال:

ـ لولا حسد المحرومين من حولنا لتغير مذاق الحياة في أفواهنا!

فضحك الناظر ضحكة ساخرة وقال:

ـ قول بالعجائز أجدر! هبنا استطعنا أن نرفع حياة أهل حارتنا إلى مستوى حياتنا فهل يقلع الموت عن اصطيادنا؟

فهز عرفة رأسه في تسليم حتى خفت حدة الرجل، ثم قال:

- الموت يكثر حيث يكثر الفقر والتعاسة وسوء الحال.

ـ وحيث لا يوجد منها شيء يا أحمق.

فقال وهو يبسم:

ـ نعم، لأنه معد مثل بعض الأمراض!

فضحك الناظر قائلا:

ـ هذا أغرب رأى تدافع به عن عجزك.

فقال متشجعا بضحكة:

ـ نحن لا ندرى عنه شيئا فلعله أن يكون كذلك، وإذا حسنت أحوال الناس قل شره، فازدادت الحياة قيمة وشعر كل سعيد بضرورة مكافحته حرصا على الحياة السعيدة المتاحة.

ـ ولن يجدى ذلك فتيلا .

- بل سيجمع الناس السحرة ليتوفروا لمقاومة الموت، بل سيعمل بالسحر كل قادر، هنالك يهدد الموت الموت.

وندت عن الناظر ضحكة عالية، ثم أغمض عينيه مستسلما للحلم. وتناول عرفة الجوزة وشد نفسا طويلا حتى اشتعل الحجر. وعاد العود بعد انقطاع يترنم وغنى الصوت الحنون «طوّل يا ليل» فقال قدرى:

ـ أنت حشاش يا عرفة لا ساحر .

فقال عرفة ببساطة:

- بذلك نقتل الموت.

ـ لم لا تعمل أنت وحدك؟

ـ إني أعمل كل يوم، ولكن ما أعجزني وحدى أمامه.

واستمع الناظر إلى الغناء مليا دون حماس ثم سأله:

ـ آه لو تنجح يا عرفة! أي شيء تفعله لو نجحت؟!

فقال وكأنما أفلت منه القول:

ـ أرد إلى الحياة الجبلاوي.

فلوى الرجل شفتيه بفتور وقال:

ـ هذا شأن يعنيك بصفتك قاتله!

فقطب عرفة متألما وغمغم بصوت غير مسموع:

ـ آه لو تنجح يا عرفة!

#### 111

وعند الفجر غادر عرفة بيت الناظر. كان من السّطل في عالم مسحور غائم المسموعات والمرئيات ولا تكاد تحمله قدماه. مضى ناحية بيته في حارة غارقة في النوم مفروشة الأديم بضوء القمر. وعند منتصف المسافة بين بيت الناظر وبيته أمام باب البيت الكبير اعترضه شبح لم يدر من أين أتى، وقال له فيما يشبه الهمس:

- صباح الخيريا معلم عرفة!

دهمه خوف لعله من المفاجأة انبعث، لكن تابعيْه انقضًا على الشبح وأمسكا به. وتفرس فيه فوضح لعينيه على رغم ذهولهما أنه شبح امرأة سوداء مرتدية جلبابا أسود يلفها من العنق حتى القدمين. أمر خادميه أن يتركاها فتركاها ثم سألها:

ـ مالك يا ولية؟

فقالت بصوت أكد أنها سوداء:

- أريد أن أحدثك على انفراد.

?al\_

ـ مكروبة تشكو إليك كربها!

فقال بضجر وهو يهم بالذهاب:

ـ الله يحنن عليك.

فقالت بضراعة نافذة:

ـ وحياة جدك الغالى ألا ما سمحت لي .

فحدجها بنظرة غاضبة لكنه لم يحول عن وجهها عينيه! تساءل: أين؟ ومتى رأى ذلك الوجه؟! وإذا بقلبه يخفق خفقة أطارت السطل من رأسه. هذا الوجه الذى رآه على عتبة حجرة الجبلاوى وهو مختف وراء المقعد في الليلة المشئومة! وهذه هي خادمة الجبلاوى التى كانت تشاركه حجرته! وركبه خوف تخلخلت له مفاصله فحملق في وجهها فزعا. وسأله أحد الخادمين:

ـ نطردها؟

فخاطبهما قائلا:

- اذهبا إلى باب البيت وانتظرا.

انتظر حتى ذهبا، فخلا لهما المكان أمام البيت الكبير، وراح يتفرس في وجهها الأسود الناحل وجبينها الضيق العالى وذقنها المدبب والتجاعيد المحدقة بفيها وجبينها. وقال يطمئن نفسه: إنها من المؤكد لم تره تلك الليلة، ولكن أين كانت منذ وفاة الجبلاوى؟ وماذا جاء بها؟! وسألها:

ـ نعم يا ستى؟

فقالت بهدوء:

ـ لا شكوى لى، وإنما أردت أن أخلو إليك لأنفذ وصية!

ـ أي وصية؟!

فمال رأسها نحوه قليلا وهي تقول:

ـ كنت خادمة الجبلاوي وقد مات بين يدي!

ـ أنت؟!

ـ نعم أنا فصدقني.

ولم يكن في حاجة إلى دليل فسألها بصوت مضطرب:

ـ كيف مات جدنا؟

فقالت المرأة بنبرة حزينة:

ـ اشتد به التأثر عقب اكتشاف جثة خادمه، وبغتة احتضر فسارعت إليه لأسند ظهره المختلج! ذلك الجبار الذي دان له الخلاء! زفر عرفة بصوت حار كدر سكون الليل، وانخفض رأسه في حزن كأنما يداريه عن ضوء القمر، وإذا بالمرأة ترجع إلى حديثها الأول قائلة:

ـ جئتك تنفيذا لوصيته.

فرفع رأسه إليها مرتعشا، متسائلا:

ماذا عندك؟ تكلمي.

فقالت بصوت هادئ كنور القمر:

ـ قال لى قبل صعود السر الإلهى: «اذهبي إلى عرفة الساحر وأبلغيه عنى أن جده مات وهو راض عنه».

فانتفض عرفة كالملدوغ وهتف بها:

ـ يا دجالة! ماذا تمكرين؟!

ـ سيدى، حفظتك العناية.

ـ خبريني أي لعبة تلعبين؟

فقالت ببراءة:

ـ لا شيء غير ما قلت، والله شهيد.

فسألها بارتياب:

ماذا تعرفين عن القاتل؟

ـ لا أدرى شيئا يا سيدى، منذ وفاة سيدى وأنا طريحة الفراش، وأول ما فعلت بعد شفائي أن قصدتك.

ماذا قال لك؟

ـ اذهبي إلى عرفة الساحر وأبلغيه عنى أن جده مات وهو راض عنه.

فقال عرفة بتحد:

- كاذبة! أنت تعرفين يا ماكرة أنني . . (ثم مغيرا نبرته) كيف عرفت بمكاني؟!

ـ سألت عنك أول ما جئت، فقالوا لي إنك عند الناظر فلبثت أنتظر.

ـ ألم يقولوا لك إنني قاتل الجبلاوي؟!

فقالت بارتياع:

ـ ما قتل الجبلاوي أحد! وما كان في وسع أحد أن يقتله .

ـ بل قتله الذي قتل خادمه.

فهتفت بغضب:

ـ كذب وافتراء، لقد مات الرجل بين يدى.

وجد عرفة رغبة في البكاء لكنه لم يسفح دمعة واحدة، ورنا إلى المرأة بطرف منكسر، فقالت ببساطة:

ـ فوتك بعافية .

فسألها بصوت غليظ متحشرج كأنه صوت ضميره المعذب:

ـ أتقسمين على أنك صادقة فيما قلت؟

فقالت بوضوح:

ـ أقسم بربي وهو شهيد.

ومضت وألوان الفجر تخضب الأفق فأتبعها ناظريه حتى اختفت ثم ذهب. وفى حجرة نومه سقط مغشيا عليه. وأفاق بعد دقائق فوجد نفسه متعبا لحد الموت فنام، لكن نومه لم يستمر أكثر من ساعتين ثم أيقظه القلق الباطني. ونادى حنش فجاءه الرجل، فقص عليه قصة المرأة والآخر يحملق في وجهه كالمنزعج، فلما فرغ من قصته ضحك حنش قائلا:

- هنيئا لك سطل الأمس.

فغضب عرفة وهتف به:

ـ لم يكن ما رأيت سطلا، ولكن حقيقة لا شك فيها.

فقال حنش برجاء:

ـنم، أنت في حاجة إلى نوم عميق.

- ألا تصدقني؟

ـ كلا طبعا، وإذا نمت كما أود واستيقظت بعد حين فلن تعود إلى هذه القصة.

ـ ولم لا تصدقني؟

فضحك قائلا:

ـ كنت فى النافذة وأنت تغادر بيت الناظر فرأيتك وأنت تقطع عرض الحارة نحو بيتك. وقفت قليلا أمام باب البيت الكبير ثم واصلت السير يتبعك خادماك!

فوثب عرفة واقفا وهو يقول بظفر .

ـ إلىِّ بالخادمين.

فأشار حنش إليه محذرا ثم قال:

- كلا، وإلا شكا في عقلك.

فقال بإصرار:

ـ سأستشهد بهما على مسمع منك.

فقال حنش متوسلا:

ـ لم يبق لنا إلا شيء من الكرامة حيال الخدم فلا تبدده.

فلاحت في عيني عرفة نظرة جنونية ، وراح يقول ذاهلا:

ـ لست مجنونا، وليس هو بالسطل! مات الجبلاوي وهو عني راض.

فقال حنش بعطف:

ـ فليكن ولكن لا تدع أحدا من الخدم.

ـ إذا وقعت كارثة فستقع أول ما تقع فوق رأسك.

فقال بحلم:

ـ لا سمح الله ، فلندع المرأة لتحدثنا بنفسها ، أين ذهبت؟

فقطب متذكرا، ثم قال بإشفاق:

ـ نسيت أن أسألها عن مسكنها!

ـ لو كان حقيقة ما رأيت لما تركتها تذهب!

فهتف عرفة بإصرار:

ـ كان حقيقة ، لست مجنونا ، وقد مات الجبلاوي وهو عني راض .

فقال حنش بعطف:

ـ لا تجهد نفسك فأنت في حاجة إلى الراحة .

واقترب منه فربت رأسه، وبحنو دفعه نحو الفراش، وما زال به حتى أرقده. أغمض الرجل عينيه إعياء، وما لبث أن نام نوما عميقا.

#### 117

قال عرفة بهدوء وتصميم:

ـ قررت أن أهرب.

فدهش حنش دهشة فوق ما يطيق حتى توقفت يداه عن العمل. ونظر بحذر فيما حوله، وعلى الرغم من أن حجرة العمل كانت مغلقة فإنه بدا خائفا. ولم يكترث عرفة لدهشته، ولم تكف يداه عن العمل، وراح يقول:

ـ هذا السـجن لم يعد يمدني إلا بأفكار الموت، وكأن الطرب والشراب والراقصات ليست إلا ألحان الموت، وكأنني أشم رائحة القبور في أصص الأزهار.

فقال حنش بقلق:

ـ لكن الموت نفسه ينتظرنا في الحارة.

ـ سنهرب بعيدًا عن الحارة.

ثم وهو ينظر في عيني حنش:

ـ وسنعود يوما لننتصر .

- إذا استطعنا الهرب!

ـ اطمأن لنا الأوغاد فلن يعجزنا الهرب.

وواصلا العمل مليا في صمت، ثم تساءل عرفة:

- أليس هذا ما كنت تود؟!

فتمتم حنش في حياء:

ـ كدت أنسى. . ولكن خبرني ما الذي دعاك اليوم إلى هذا القرار؟

ابتسم عرفة وهو يقول:

ـ إن جدى أعلن رضاءه عنى على رغم اقتحامي بيته وقتلي خادمه.

فعاودت الدهشة وجه حنش وهو يتساءل:

ـ أتغامر بحياتك لحلم رأيته في السّطل؟

ـ سمه بما تشاء، لكني واثق من أنه مات وهو عنى راض. لم يغضبه الاقتحام ولا القتل، لكن لو اطلع على حياتي الراهنة لما وسعته الدنيا غضبا.

ثم بصوت خافت:

لذلك نبهني بلطف إلى سابق رضاه!

فقال حنش وهو يهز رأسه عجبا:

ـ لم يكن من عادتك أن تتحدث عن جدنا باحترام.

ـ كان ذلك في الزمان الأول وأنا كثير الارتياب، أما وقد مات فحق للميت الاحترام.

ـ الله يرحمه .

ـ وهيـهـات أن أنسى أننى المتسبب في مـوته، لذلك فـعـليّ أن أعـيـده إلى الحـيـاة إذا استطعت، وإن تيسر لي النجاح فلن نعرف الموت.

فرمقه حنش بأسى وقال:

ـ لم يسعفك السحر حتى اليوم إلا بأقراص منشطة وقارورة مهلكة!

ـ نحن نعرف من أين يبدأ السحر لكن لا نستطيع أن نتخيل أين ينتهي.

وأجال بصره في الحجرة قائلا:

ـ سنتلف كل شيء إلا الكراسة يا حنش، فهي كنز للأسرار، وسأجعلها فوق صدري، ولن نجد الهرب عسيرا كما تتوهم.

ومضى عرفة كعادته مساء إلى بيت الناظر. وقبيل الفجر عاد إلى بيته. وجد حنش مستيقظا في انتظاره فلبثا في حجرة النوم ساعة حتى يطمئنا إلى نوم الخدم. وتسللا معًا إلى السلاملك في خفة وحذر. وكان شخير الخادم النائم في شرفة السلاملك يتصاعد في انتظام، فهبطا السلم، واتجها نحو الباب. ومال حنش إلى فراش البواب فرفع بيده هراوة وهوى بها عليه لكنها أصابت جسما قطنيا فارغا وأحدثت صوتا مزعجا في سكون الليل. ثبت لهما أن البواب ليس في فراشه. وخافا أن يكون الصوت قد أيقظ أحدا فلبثا وراء الباب بقلب خافق. ورفع عرفة المزلاج وفتح الباب على مهل ثم خرج وحنش في أثره. وردا الباب وسارا لصق الجدران نحو ربع أم زنفل يخترقان ظلمة صامتة. واعترضهما في منتصف الحارة كلب رابض فوقف مستطلعا، وجرى نحوهما متشمما، وتبعهما خطوات ثم توقف وهو يتثاءب. ولما بلغا مدخل الربع قال عرفة همسا:

ـ ستنتظرني هنا، وإذا رابك شيء فصفر لي واهرب إلى سوق المقطم.

دخل عرفة الربع فاجتاز الدهليز إلى السلم ورقى فيه حتى غرفة أم زنفل، ونقر على الباب حتى سمع صوت زوجته وهي تسأل عن الطارق فقال بسرعة وحرارة:

ـ أنا عرفة، افتحى يا عواطف.

ففتحت الباب فطالعه وجهها الشاحب من أثر النوم على ضوء مصباح صغير بيدها . قال مباشرة :

ـ اتبعینی، سنهرب معا.

وقفت تنظر إليه في ذهول على حين ظهرت وراء كتفها أم زنفل، فقال:

ـ سنهرب من الحارة، سنعود كما كنا، أسرعي.

ترددت قليلا، ثم قالت بنبرة لم تخل من غيظ:

ـ ما الذي ذكرك بي؟

فقال بلهفة ولهوجة:

ـ دعى الملام لحينه فللدقيقة الآن ثمنها.

وإذا بصفير حنش ينطلق وضجة تترامى فهتف في فزع:

- الكلاب! ضاعت الفرصة يا عواطف.

وثب إلى رأس السلم فرأى في فناء الربع أضواء وأشباحا فارتد يائسا، وقالت عواطف:

ـ ادخل.

فقالت أم زنفل بخشونة دفاعا عن نفسها:

- لا تدخل.

ـ وما فائدة الدخول؟

وأشار إلى نافذة صغيرة بدهليز المسكن وسأل زوجته بسرعة:

ـ علام تطل؟

ـ المنور .

فاستخرج الكراسة من فوق صدره واندفع نحو النافذة منحًيا عن سبيله أم زنفل، ثم رمى بها. وغادر المسكن مسرعا فأغلق الباب وراءه. وصعد درجات السلم القليلة المؤدية إلى السطح وثبا. أطل من فوق السور على الحارة فرآها تعج بالأشباح والمشاعل. وترامت إلى أذنيه ضجة الصاعدين إليه. وجرى إلى السور الملاصق للربع المجاور من ناحية الجمالية فرأى أشباحا تسبقه إليه وراء حامل مشعل. ارتد إلى السور الآخر الملاصق لأحد ربوع الرفاعية فرأى من خلال باب سطحه أنوار مشاعل قادمة! وتملكه يأس خانق. وخيل إليه أنه سمع صراخ أم زنفل. ترى هل اقتحموا مسكنها؟ هل قبضوا على عواطف؟ وإذا بصوت عند باب السطح يصيح به:

ـ سلم نفسك يا عرفة!

وقف مستسلما دون أن ينبس بكلمة. لم يتقدم منه أحد لكن الصوت قال:

-إذا رميت بزجاجة انهالت عليك الزجاجات!

فقال :

ـ لا شيء معي.

انقضوا عليه فطوقوه. ورأى بينهم يونس بواب الناظر الذي اقترب منه وصاح به:

ـ يا مجرم . . يا لئيم . . يا كافرا بالنعمة .

وفي الحارة رأى رجلين يسوقان أمامهما عواطف فقال بتوسل حار:

ـ دعوها فلا شأن لها بي .

لكن لطمة الموت هوت على صدغه فأسكتته.

# ١١٣

أمام الناظر الغاضب وقف عرفة وعواطف مقيدي اليدين إلى ظهريهما. انهال الناظر لطما على وجه عرفة حتى كلت يداه وصاح به:

ـ كنت تنادمني وأنت مبيِّت الغدريا بن الزانية!

فقالت عواطف بأعين دامعة:

ـ ما جاءني إلا ليصالحني!

فبصق الناظر على وجهها وصاح:

ـ اخرسي يا مجرمة .

فقال عرفة:

ـ إنها بريئة ولا ضلع لها في شيء .

ـ بل شريكتك في قتل الجبلاوي وسائر جرائمك.

ثم وهو يهدر:

- أردت الهرب وسأهربك من الدنيا كلها.

ونادى رجاله فجاءوا بجوالين. دفعوا عواطف فسقطت على وجهها فسرعان ما قيدوا قدميها وأدخلوها في الجوال وهي تصرخ ثم ربطوا فوهته ربطا محكما. وصاح عرفة بانفعال جنوني:

- اقتلنا كما تشاء، سيقتلك الحاقدون غدا.

فضحك الناظر ضحكة باردة وقال:

ـ عندى من القوارير ما يحمينا إلى الأبد.

فصاح عرفة:

ـ حنش هرب، بكل الأسرار هرب، وسوف يعود يوما بقوة لا تقاوم فيخلص الحارة من شرك.

فركله في بطنه فسقط يتلوى. وانقض عليه الرجال ففعلوا به ما فعلوه بزوجته ثم حملوا الجوالين خارجا، ومضوا بهما نحو الخلاء. وما لبثت عواطف أن أغمى عليها ، ولكن بقى هو يعانى العذاب. إلى أين يسيرون بهما؟ وماذا أعدوا لهما من ألوان الموت؟ أيقتلونهما ضربا بالنبابيت؟ بالأحجار؟ بالنار؟ أم رميا من فوق الجبل؟ يا لهذه

الدقائق الأخيرة من الحياة المشحونة بأفظع الآلام! حتى السحر لا يستطيع أن يجد لهذا المأزق الخانق مخرجا. إن رأسه المتورم من لطمات الناظر يرقد أسفل الجوال فيكاد أن يختنق. ولم يعد له من أمل في الراحة إلا بالموت. سيموت وتموت الآمال، وربما عاش طويلا ذو القهقهة الباردة. وسيشمت به الذين ود لهم الخلاص. ولن يدرى أحد ماذا سيفعل حنش. والرجال الذين يحملونه إلى الموت صامتون، لا تند عن أحدهم كلمة، فليس ثمة إلا الظلام، وليس وراء الظلام إلا الموت، وخوفا من هذا الموت انطوى تحت جناح الناظر فخسر كل شيء وجاء الموت. الموت الذي يقتل الحياة بالخوف حتى قبل أن يجيء. لو رد إلى الحياة لصاح بكل رجل. . لا تخف . . الخوف لا يمنع من الموت ولكنه يمنع من الحياة . ولستم يأهل حارتنا أحياء ولن تتاح لكم الحياة ما دمتم تخافون الموت. وقال رجل من القتلة:

--هنا. .

فقال آخر من القتلة معترضا:

ـ هناك الأرض طرية.

ارتعد قلبه على الرغم من أنه لم يفهم للكلام معنى، لكنها كانت لغة الموت على أى حال. واشتد به العذاب المتوقع حتى أوشك أن يصيح بهم أن اقتلونى، ولكنه لم يفعل. وفجأة هوى الجوال إلى الأرض فشهق وارتطم رأسه بالأرض فهصر الألم عنقه وعموده الفقرى. وانتظر بعد لحظة وأخرى انقضاض النبابيت أو ما هو أفظع. ولعن الحياة كلها من أجل الشر حليف الموت. وسمع يونس وهو يقول:

- احفروا بسرعة حتى نعود قبل الصبح.

لم َ يحفرون القبر قبل القتل؟ وخيل إليه أنه يحمل المقطم فوق صدره. وسمع أنينا ما لبث أن ميز فيه نبرة عواطف فندت عن جسده المقيد حركة عنيفة. ثم ملأت دقات الحفر أذنيه! فعجب من غلظة أكباد الرجال. وإذا بيونس يقول:

ـ سيلقى بكما إلى قعر الحفرة ثم يهال عليكما التراب دون أن يمسكما إنسان بسوء! فصرخت عواطف على رغم إعيائها، وهتفت أعماقه بلغة لم يدرها أحد. ورفعتهما أيد شديدة، ثم رمت بهما إلى قعر الحفرة، فانهال التراب، وارتفع الغبار في الغسق.

### 118

انتشر خبر عرفة في الحارة. لم يعرف أحد أسباب مصرعه الحقيقية، ولكن بالتخمين عرفوا أنه أغضب سيده فدفعه هذا إلى مصيره المحتوم. وذاع حينًا ما أن عرفة قتل

بنفس السلاح السحرى الذى قتل به سعد الله والجبلاوى. وفرح الجميع لقتله على رغم مقتهم للناظر، وكثر الشامتون من أهل الفتوات وأنصارهم، فرحوا لمقتل الرجل الذى قتل جدهم المبارك وأعطى ناظرهم الظالم سلاحا رهيبا يستذلهم به إلى الأبد! وبدا المستقبل قاتما أو أشد قتامة مما كان بعد أن تركزت السلطة في يد واحدة قاسية، واختفى الأمل في أن ينشب بين الرجلين نزاع فيفضى إلى إضعافهما معا ولجوء أحدهما إلى أهل الحارة. وبدا أنه لم يبق لهم إلا الخضوع، وأن يعتبروا الوقف وشروطه وكلمات جبل ورفاعة وقاسم أحلاما ضائعة قد تصلح ألحانا للرباب لا للمعاملة في هذه الحياة.

ويوما اعترض رجل أم زنفل وهي ذاهبة إلى الدراسة فحياها قائلا:

ـ مساء الخيريا أم زنفل.

فرمقته بنظرة فما عتمت أن قالت بدهشة:

\_حنش؟!

فاقترب منها باسما ثم سألها:

- ألم يترك المرحوم شيئا في مسكنك ليلة القبض عليه؟

فقالت بلهجة من يقصد دفع الشبهة عن نفسه:

ـ لم يترك شيئا! رأيته يرمى بأوراق إلى المنور، فتسللت إليه في نهار اليوم التالى فعثرت بين القاذورات على كراسة لا فايدة منها ولا عايدة فتركتها ورجعت.

التمعت عينا حنش بنور عجيب وقال برجاء:

ـ مدى لى يدك حتى أعثر على الكراسة.

فأجفلت العجوز وهي تهتف:

- ابعدوا عني، لولا رحمة ربنا لهلكت في المرة الماضية.

فأودع يدها قطعة من النقود حتى سكن فزعها، وواعدها آخر الليل حين تنام العيون. وفى الموعد المضروب تسلل بإرشادها إلى أسفل المنور. وأشعل شمعة، وجلس القرفصاء بين أكوام الزبالة وراح يفتش على كراسة عرفة. فرز الأكوام ورقة ورقة وخرقة خرقة، وتخللت أصابعه الرماد والتراب وبقايا المعسل وفتات الأطعمة المنتنة، لكنه لم يعثر على ضالته. وصعد إلى أم زنفل فقال لها بيأس غاضب:

ـ لم أجد شيئا .

فهتفت المرأة ساخطة:

ـ لا شأن لي بكم! إنكم تجيئون ثم تتبعكم المصائب!

ـ حلمك يا أمي!

ـ لم تترك لنا الأيام حلما ولا عقلا، خبرني ماذا يهمك في تلك الكراسة؟

فتردد حنش قليلا ثم قال:

ـ إنها كراسة عرفة .

ـ عرفة! الله يسامحه. قتل الجبلاوي، ثم أعطى الناظر سحره وذهب.

فقال حنش بحزن:

ـ كان من أولاد حارتنا الطيّبين لكن الحظ خانه، كان يريد لكم ما أراد جبل وعرفة وقاسم، بل وأحسن مما أرادوا.

فحدجته المرأة بنظرة ارتياب، ثم قالت بغية التخلّص منه:

ـ لعل الزبَّال أخذ الزبالة التي تركت الكراسة فيها، ففتش عنها في مستوقد الصالحية.

وذهب حنش إلى مستوقد الصالحية وسأل عن زبّال حارة الجبلاوي، ثم سأله عن زبّالة الحارة، فسأله الرجل:

ـ تبحث عن شيء ضائع! ما هو؟

ـ كراسة . .

فلاحت في عين الزبّال نظرة مريبة ، لكنه قال وهو يشير إلى ركن في الحجرة الملاصقة للحمّام:

ـ أنت وحظك، فإما تجدها عندك وإما تكون في النار.

ومضى حنش يفتش فى الزبالة بصبر وأمل. لم يبق له من أمل فى الحياة إلا تلك الكراسة. هى أمله وأمل الحارة. قتل عرفة السيئ الحظ مغلوبا على أمره، لم يترك وراءه إلا الشر وسوء السمعة، فهذه الكراسة جديرة بإصلاح أخطائه والقضاء على أعدائه وبعث الآمال فى الحارة المتجهمة. وإذا بالزبال يسأله:

ـ ألم تعثر على مطلوبك؟

ـ أمهلني ربنا يكرمك.

فهرش الرجل إبطيه متسائلا:

ما أهمية الكراسة؟

فقال حنش دفعا للقلق الذي انتابه:

ـ فيها حسابات المحل وستراها بنفسك!

وواصل بحثه على رغم تزايد مخاوفه، حتى سمع صوتا غير غريب عنه يقول:

ـ أين قدرة الفول يا متولى؟

ارتعدت فرائصه لدى سماع صوت عم شنكل بياع الفول بالحارة. لم يلتفت نحوه ولكنه تساءل في جزع: ترى هل لمحه الرجل؟ وهل يحسن به أن يهرب؟ وزادت سرعة يديه في التفتيش حتى بدا كالأرنب الذي يحفر مأوى له.

وعاد عم شنكل إلى الحارة ليقول لكل من يصادفه إنه رأى حنش رفيق عرفة فى مستوقد الصالحية مكبا على التفتيش فى الزبالة عن كراسة كما أخبره الزبال. وما إن بلغ الخبر بيت الناظر حتى ذهبت قوة من الخدم إلى المستوقد، ولكنها لم تجد لحنش أثرا. ولما سئل الزبال قال: إنه ذهب لبعض شأنه، ولما عاد كان حنش قد ذهب، ولم يدر إن كان عثر على ضالته أم لا.

ولا يدرى أحد كيف أخذ الناس يتهامسون فيما بينهم بأن الكراسة التي أخذها حنش ما هي إلا كراسة السحر التي أودعها عرفة أسرار فنونه وأسلحته، وأنها ضاعت في أثناء محاولته الهرب فحملت في الزبالة إلى مستوقد الصالحية حيث عثر عليها حنش.

وانتشرت الأخبار من غرزة إلى غرزة بأن حنش سيتم ما بدأه عرفة ثم يعود إلى الحارة لينتقم من الناظر شر انتقام. وأكدت الأقوال والظنون أن الناظر وعد من يجيء بحنش حيا أو ميتا بمكافأة كبيرة كما أعلن ذلك رجاله في المقاهي والغرز. فلم يعد أحد يشك في الدور المنتظر أن يلعبه حنش في حياتهم. وارتفعت في الأنفس موجة استبشار وتفاؤل قذفت بعيدا بزبد القنوط والخنوع. وامتلأت القلوب عطفا على حنش في مهجره المجهول، بل امتد العطف إلى ذكرى عرفة نفسه. وتمني الناس لو يتعاونون مع حنش في موقفه من الناظر لعلهم يحرزون بانتصاره عليه نصرا لهم ولحارتهم، وضمانا لحياة خير وعدالة وسلام. وصمموا على التعاون ما وجدوا إليه سبيلا باعتباره السبيل الوحيد إلى الخلاص، إذا كان من المسلم به أنه لا يمكن التغلب على القوة السحرية التي يحوزها الناظر إلا بقوة مثلها مما قد يعدها حنش.

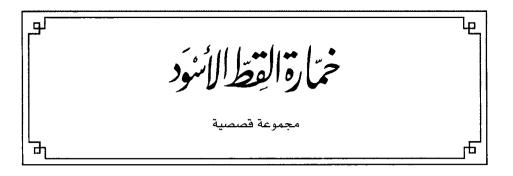
ونما إلى علم الناظر ما الناس يتهامسون به فأوحى إلى شعراء المقاهى أن يتغنوا بقصة الجبلاوى، وبخاصة مقتله بيد عرفة، وكيف أن الناظر اضطر إلى مهادنته ومصادقته خوفا من سحره حتى تمكن منه فقتله انتقاما للجد الكبير.

ومن عجب أن تلقى الناس أكاذيب الرباب بفتور وسخرية، وبلغ بهم العناد أن قالوا: «لا شأن لنا بالماضى، ولا أمل لنا إلا في سحر عرفة، ولو خيرنا بين الجبلاوي والسحر لاخترنا السحر».

ويوما بعد يوم مضت حقيقة عرفة تتكشف للناس. لعلها تسربت من ربع أم زنفل التي علمت بالكثير عنه من عواطف على عهد إقامتها عندها. ولعلها جاءت عن طريق حنش نفسه فيما كان يعرض للبعض عند مقابلته في الأماكن النائية. المهم أن الناس عرفوا

الرجل، وما كان ينشده من وراء سحره للحارة من حياة عجيبة كالأحلام الساحرة. ووقعت الحقيقة من أنفسهم موقع العجب فأكبروا ذكراه ورفعوا اسمه حتى فوق أسماء جبل ورفاعة وقاسم. وقال أناس: إنه لا يمكن أن يكون قاتل الجبلاوى كما ظنوا. وقال آخرون: إنه رجل الحارة الأول والأخير ولو كان قاتل الجبلاوى. وتنافسوا فيه حتى ادعاه كل حى لنفسه.

وحدث أن أخذ بعض الشبان من حارتنا يختفون تباعا، وقيل في تفسير اختفائهم انهم اهتدوا إلى مكان حنش فانضموا إليه، وإنه يعلمهم السحر استعدادا ليوم الخلاص الموعود. واستحوذ الخوف على الناظر ورجاله، فبثوا العيون في الأركان، وفتشوا المساكن والدكاكين، وفرضوا أقسى العقوبات على أتفه الهفوات، وانهالوا بالعصى للنظرة أو النكتة أو الضحكة، حتى باتت الحارة في جو قاتم من الخوف والحقد والإرهاب. لكن الناس تحملوا البغى في جلد، ولاذوا بالصبر. واستمسكوا بالأمل، وكانوا كلما أضر بهم العسف قالوا: لابد للظلم من آخر، ولليل من نهار، ولنرين في حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب.



## المحتويسات

المجنونه ٤٣	ئلمه <i>غير مفهو</i> مه ٧٤٥
خمَّارة القط الأسود ٤٩	لصدی
زيارة ۲۵	لخلاء٧٨٥
حــلم ۲۷.	لبارمان
رحلة٧٤	لتهملتهم
المسطول والقنبلة١٨٠	سكران يغنى
صورة۸۸	ونة الأطفال ٦١٥
صوت مزعج ٩٤.	ـردوس
ٔ شهر زاد۰۰۰	لرجل السعيد

# كلمة غير مفهومة

تثاءب المعلم حندس طويلا وهو يزيح الغطاء عن جسده. وجلس في الفراش معتمدًا بذراعيه على ساقيه، متقوسا تحت وطأة غم لاحت آياته في وجهه الممتلئ العريض. ورأى زوجته واقفة وسط الحجرة وهي تجمع شعرها المشعث تحت منديلها البني، فقال بنبرة ناعسة:

ـ حلم غريب.

التفتت نحوه باهتمام قائلة:

ـ خيرا إن شاء الله.

ـ طول الليل مع حسونة الطرابيشي.

تجلت في عيني المرأة نظرة فارغة من كل معنى فراقبها بعيني صقر تطلان من سحنة أطبقت على أديمها آثار طعنات وجراح قديمة ثم قال:

ـ حسونة الطرابيشي! . . أنسيت الرجل الذي طمع يوما في الفتونة؟

ندت عنها آهة وتمتمت:

- ـ نعم. . يا له من عمر . .
- ـ حوالي خمسة عشر عاما. .
  - ـ وماذا رأيت؟
- ـ رأيته كما رأيته آخر ليلة في الخيامة، صريعا تحت قدمي والدم يغطى فاه وذقنه وأعلى جلبابه!
  - أعوذ بالله .
  - ـ وردد آخر كلماته «سأقتلك يا حندس وأنا في القبر».
    - ـ أعوذ بالله .
- رأيتنى بعد ذلك أجالسه فى مكان غير محدد المعالم، وكنا نضحك عاليا كما كنا نفعل قبل أن تفرق بيننا البغضاء، وقال لى معاتبا أنت قتلتنى فقلت له وأنت توعدتنى بالانتقام فضحك طويلا ثم قال انس كل شيء، أنا نسيت، وأمس زرت ابنى وقلت له لا تفكر إلا فى الحياة ودع الموت والأموات للخالق، وجعلنا نضحك حتى استيقظت.

تجمدت ملامح المرأة، وغشيتها سحابة مظلمة من الذكريات، فقال حندس بصدر منقبض:

- أنت خائفة!
- أبدا، ولكنى أتساءل عن تفسير للحلم.
  - المهم أنه ذكرني بأشياء نسيتها.
- سألته عن «الأشياء» بهزة من رأسها وهي غارقة في التفسير فقال:
- ـ ذكرنى بما قيل يوم دفن حسونة من أن زوجته رفعت طفله فوق القبر ونذرت إن عاش الطفل أن يكون مقتلي على يديه .
  - ـ ولكن زوجة حسونة اختفت منذ دفنه.
  - ـ نعم، ولعل طفلها اليوم في عز الشباب!

قالت ملتمسة الطمأنينة له ولنفسها:

- أنت سيد الحي، رجاله رجالك، وربنا الحافظ.

فقال مقطبا:

ـ أنا لا أبالي بعدو ما دمت أعرفه، أما الذي لم أعرفه ولم أره. . !

جلست المرأة على كنبة واجمة فقال:

ـ الحلم يفسر بعكس ظاهره وهذا يعني أنه يحرض ابنه على الانتقام.

ـ كيف وهو ميت من خمسة عشر عاما؟

ـ كما خاطبني الليلة الماضية!

غالبت المرأة نكدها بابتسامة وقالت:

ـ حينا معروف لا يختفي فيه غريب، وأنت سيده، والله هو الحافظ.

وغادر المعلم حندس منزله يسير وسط هالة من الأتباع ويتقدمه سائق الكرته. ومال من درب الأعور إلى قهوة حلمبوحة فجلس على الأريكة التي لا يمسها أحد غيره. وراح المعلم يروى حلمه لأتباعه فضحك طمبورة باستهانة وقال:

- أي أم تحرض ابنها عليك يا معلم؟

ولكن سمكة كان أميل إلى الحذر وهو يقول:

ـ حارتنا يقتل بعضها البعض مذ خلق الله الأرض وما عليها.

ـ لكن أحدا لم يسمع عن ابن حسونة ولا أمه.

فقال القهوجي عنارة وكان لحندس بمنزلة الأب:

ـ هذا يعني أنه يستطيع أن يوجد في أي وقت وفي أي مكان!

وضحك المعلم حندس معلنا عن استهتاره فقال طمبورة:

ـ نحن حولك كالجدار.

ولكن عنارة قال وهو يرمش بعينيه الدامعتين المرمودتين:

- الحلم له معنى ، إنه يذكرك بما نسيت!

وذاع الحلم في الحي كله. وكثرت التأويلات. وتوثب الرجال للبطش. وجعل حندس يذهب ويجيء وكأنه لا يبالي شيئا. وذات مساء جاء القهوة الشيخ درديري وهو مقرئ ضرير، يتعيش من التلاوة في المقاهي والغرز وتروج سوقه في المواسم. صافح المعلم ثم تلا الصمدية وقال وهو يتخذ مجلسه بين يديه:

ـ يا معلم، إن كنت تريد ابن حسونة فأنا أعرفه!

سرعان ما تركزت فيه الأعين وأحدق به الرجال. حاز في ثوان أهمية لم يحظ بعشر عشرها طيلة عمره البالغ الستين. وانتبه إليه حندس لأول مرة في حياته وكأنما يكتشف عينيه الممطورتين وجبينه البارز كمشربية. وسأله:

- ـ متى عرفته؟
- ـ منذ عام أو أكثر .
  - ۔کیف؟
- ـ صدفة وأنا أتجول بين المقابر.
  - أين يقيم؟
- ـ لا أدرى، ولكنى دعيت للقراءة في المدفن بالمجاورين في موسم وهناك عرفته كما عرفت أمه.
  - ما اسمه؟
  - ـ لم يناد به على مسمع مني .
    - ـ ولم تر وجهه طبعا!
    - ـ ولكني أعرف صوته!
      - سأله بازدراء:
  - ـ متى زرت المدفن آخر مرة؟
    - ـ في عيد الفطر الماضي.
  - ـ ماذا يقولان وهما في المدفن؟
  - ـ يستمعان للتلاوة أو يتبادلان حديثا لا يستحق الذكر .
    - ألم يجر الحديث مرة عن الميت؟
      - ـ لم أسمع .
      - نفخ قائلا:
      - لم تقل شيئا يا أعمى!
    - ولكن عنارة قال بنبرة ذات مغزى:
      - ـ قال إنه يعرف المدفن.
    - ولما ذهب الشيخ درديري قال طمبورة:
    - ـ نذهب في العيد الكبير لنرى بأعيننا. .
      - ـ وبعد ذلك؟

- ـ دعوا الباقي لي!
- ـ أنقتله من غير أن يثبت لنا سوء نيته؟
- ـ إنه لن يزيد الميتين عدا ولن ينقص الأحياء!

وفى موسم العيد تفرق حندس وأعوانه فى البقعة حول المدفن الذى دلهم عليه الشيخ درديرى. وقد ذابوا فى الزحام الذى ناءت به الأرض بمنجى من الريب وظلت أعينهم تدور حول المدفن الذى تراءى وراء سوره المتهرئ قبر مكشوف ونخلة وحيدة على حين قام بابه الخشبى فى هزال منحوت القشرة مزعزع المفاصل خليقا بأن يقتلع لدى أول لطمة قوية من الهواء. ومر النهار كله دون أن يطرق الباب طارق. وكان الشيخ درديرى يسترزق هنا وهناك، وكلما جاء المدفن وجده مغلقا فيمضى فى تجواله. واقترب سمكة من الشيخ درديرى وهمس فى أذنه:

ـ كذبت علينا يا أعمى.

فهتف الشيخ:

ـ والله ما كذبت على أحد.

فلكزه بكوعه قائلا:

ـ اسأل الترابي ثم عد إلينا .

غاب الشيخ قليلا ثم عاد إليهم ليخبرهم بأن الترابي لا يعرف شيئا عما عاق الأسرة عن المجيء.

- ألم تسأله عن مسكنه؟
- ـ في باب الربع ولكنه لا يعرف أكثر من ذلك.

وبعد وقفة قصيرة استطرد الشيخ قائلا:

ـ ومن عجب أن الرجل لا يعرف اسمه ولا عمله وختم حديثه عنه بقوله: «حدالله بيني وبينه». فلما سألته عما جعله يقول ذلك دفعني قائلا: «توكل على الله!».

رجع الرجال إلى درب الأعور بوجوه متجهمة. وضح لهم أن الشاب غامض حقا أو أنه يحيط نفسه بالأسرار، وأنه خطير يجب أن يحسب له حساب. وتساءل طمبورة:

ـ إن يكن حقا كما يقال عنه فما الذي أقعده حتى الآن عن الانتقام؟

فقال عنارة بكابة:

- لا يهمنا ذلك بقدر ما يهمنا المستقبل.

ثم وهو يعصر عينيه الملتهبتين:

ـ والأحلام لا ترى عبثا!

عند ذاك قال الشيخ درديري:

- سأسأل عن مسكنه بحجة الاطمئنان عليه .

وغاب الشيخ يوما كاملا ثم رجع ليعلن فى ظفر اهتداءه إلى بيت الشاب. قال إنه جالسه وعلم بسبب تخلفه عن زيارة قبر أبيه وهو مرض أمه. وأخبرهم بأقصر طريق إلى المسكن من ناحية الخلاء إذ لا يدرى بهم أحد. ولكن هل يقتلونه أو يكتفون برؤيته وإرهابه؟

وأدرك الأعوان من صمت المعلم أنه يترك لهم الكلمة لغرض لم يعد يخفى عليهم بحكم معاشرته الطويلة، فقال طمبورة ساخرا:

ـ وجد المسكين مقتولا بيد مجهول!

فاعترض عنارة متسائلا:

ـ ماذا تدرون عن قوته وأعوانه؟

وتبادلوا نظرات قاسية، ثم استقر رأيهم على خطة عركوها منذ القدم.

وفى ليلة شديدة الظلام خرج حندس وأعوانه. وقد استقل هو وخلصاؤه الكرتة موسعين للشيخ درديري مكانا عند الأقدام. وأوغلوا في الصحراء حتى صعدوا ما يشبه التل عند مفترق تتجه طريقه الرئيسية نحو باب الربع، وعند ذاك قال السائق:

ـ لا يمكن أن تتقدم العربة قيراطا واحدا في هذا الخراب.

غادروا الكرتة. وحثهم الشيخ درديري على البحث عن سبيل ماء قائم على رأس منحدر طويل. وكان قائما على مبعدة أمتار منهم كما لاح شبحه تحت ضوء النجوم. وقال الشيخ:

ـ في نهاية المنحدر يقع البيت، وهو في عزلة إذ تحيط به الخرائب من جهتين ويحدق بالثالثة فناء واسع لوكالة، توكلوا على الله أما أنا فإني ذاهب.

قال له حندس:

- انتظر حتى لا تضل الطريق في الظلام.

فقال وهو يهم بالذهاب:

- الأعمى لا يضل طريقه في الظلام.

مضوا في الطريق متمهلين حذرين لوعورته ولكثرة ما يعترضه من أحجار ونفايات. وأحدقت بهم خرائب تفوح منها روائح عطنة وأحيانا نتنة كريهة كأنما تصدر عن جثث في جوف الليل. وغلظت الظلمة حين بلغوا ممرا مسقوفا بغطاء لم يتبينوه تقوم على جانبيه المتقاربين جدران مبان غير مرئية فكأنهم فقدوا الأبصار. مات كل شيء في ظلمة الممر حتى أشباحهم، وند عن أقدامهم ارتطامات كخشخشة زواحف وعن أفواههم زفرات كالفحيح. وعلى بعد سحيق تراءى نور خافت فقال عنارة:

ـ سنطرق الباب ثم نندفع كالمصيبة، ولا من سمع ولا من رأى.

فرددت أصوات بهيمية:

ـ ولا من سمع ولا رأى.

ثم ارتفع صوت حندس قائلا بوحشية:

ـ وينتهي الحلم!

وإذا بصرخة تنطلق من حلقه كالعواء، وإذا بجسمه الضخم يتهاوى على الأرض. صرخوا في صوت واحد «معلم حندس». وتطايرت زعقات الغضب والويل. وحملقوا في الظلمة المستحيلة ولكنهم لم يروا إلا العمى. ونادى سمكة بأعلى صوته السائق أن يحمل إليهم فانوس العربة. وتأوه حندس فساد الصمت، ثم قال بصوت متقطع محشرج:

ـ عنارة. قتلت. . بينكم. .

وعلى ضوء الفانوس تبدى المعلم حندس منكفشا على وجهه ، عارى الرأس ، مكشوف الساقين ، ودمه ينساب بطيئا بين الحصا . قتلهم الغيظ وأذلهم الحنق . لم يشعروا من قبل بعجز مهين كهذا العجز ، فهم لم يرفعوا نبوتا ولا سلوا خنجرا ولا قذفوا طوبة ، وخطف الرجل وهم يبادلونه الحديث . وأين القاتل ، بل أين منزله ؟ . . وجدوا مكان المنزل ضريح ولى فى خلاء تشتعل فى كوة بجداره شمعتان . ولم يشعر أحد منهم بالقاتل عند تسلله ولا عند انفلاته ، لم يسمع له حس ، ولا عثر له على أثر .

## الصـــدي

اعتمد على عصاه وانتظر. تلاشى رنين الجرس ولا صوت يجىء من وراء الباب كأن الشقة خالية. بعد لحظة سينفتح الباب عن الوجه القديم. الوجه الذى لم تره منذ عشرين سنة. والزمن لم يطمس صورته القديمة الباكية المتصبرة المتأففة. وهى وإن تكن اليوم فى الثمانين فما أكثر المعمرات فى أسرتنا. أما الرجال؟!.. الرصاص والمآسى والأعين التى لا تذرف الدمع.

وسمع صوت شبشب يزحف فوق البلاط فتهيأ للمفاجأة وعواقبها ولكن الشراعة

فتحت عن وجه ذابل عليل، أم محمد الخادمة. ارتاح لذلك ونظر إليها من عل وهي تتطلع إليه بحذر ونظر كليل:

- ۔مـن؟
- افتحى يا أم محمد.
  - ـ من حضرتك؟

قالتها بلهجة من لا ينتظر زائرا على الإطلاق، بيت مهجور كأن القطيع كله لم ينطلق منه إلى الساحات الدامية.

ـ حقا نسيتني يا أم محمد؟

رمشت عيناها طويلا ثم أضاءت بانتباهة مذهلة:

ـ سيدي عبد الرحيم! . . يا خبر!

دخل وهو يحبك عباءته السوداء حول قامته الفارعة، ثم ترك لها يده تلثمها بحرارة قائلة :

ـ من يصدق . . من يصدق . .

ثم وهي تضبط أنفاسها:

ـ سأذهب لاخبر ستى.

فاعترضها بعصاه قائلا:

ـ لا . . أين حجرتها؟

أشارت إلى باب في نهاية الصالة الممتدة إلى يمين الداخل وقالت:

ـ يجب يا . .

فقاطعها بحزم وهو يسير:

ـ أعرف ما يجب، أعرف كل شيء، ولا أريد أن يزعجني أحد.

دخل الحجرة متمهلا وبلا صوت وبقلب يزدرد انفعاله بصلابة معهودة، ثم أغلق الباب وراءه. وقف في وسط الحجرة وهو ينظر إليها بتمعن واستطلاع. ورغم غلظته تأثر بعض الشيء تسربت إلى أنفه الأفطس رائحة غريبة وأليفة معا، كما تنبلج ذكرى ضائعة، فدفعته إلى أحضان الماضي. ها هو يعود إلى صميم نفسه. وتربعت المرأة على كنبة قابضة بأصابعها على مسبحة طويلة لامست شرابتها البساط، ولكنها لم ترفع رأسها إليه وكأنها لم تشعر له بوجود. وقد تلفعت بخمار غامق لم يتضح لونه في جو الحجرة الغامض المحجوب عن النور بنافذتين محكمتي الإغلاق. إنها تتجاهلك بلا شك. لعلها سمعت ما دار من حديث في الصالة فتأهبت لتجاهلك. لا تعجب لبرودها فكم قاست وكم

عانت. وهي على أى حال أم المآسى فكيف تخلو من روح العنف! . . وماذا توقعت عندما اضطرتك الحال إلى العودة؟ . . وابتسم ليلين من قسوة وجهه الداكن كجلد مدبوغ ولكنها لم تأبه له ألبتة . وراحت تسبح بصوت مهموس ثم تثاءبت! . . اختفت الابتسامة من وجهه . إنها أشد مما تصور . إنها أقسى من تاريخ الأسرة الدامى . لكننى عنيد أيضاً . لم أقطع الوادى لأسلم بهزيمة عاجلة . توقعت سخطا ولعنا وبكاء ومرارة ولكن ليس الصمت والتجاهل . تلك صدمة أجلت فكرة تقبيل اليد إلى حين . والانسحاب أبعد ما يكون عن الخاطر . لم يبق إذن إلا طريق وسط . قال بهدوء :

ـ نهارك سعيد يا أمي.

واقترب خطوتين مادايده. ولكنها لم تشعر له بوجود. صدمة أشد من الأولى. الماضى بكل مآسيه لن يخفف من قسوة اللطمة. حق أنك آخر من يعجب لقسوة ما. وعليك أن تؤدى حساب عشرين عاما من المقت. وهي كما ترى لا تبرأ من صفة الضجر. وابتسم ابتسامة مفجعة وهو يتقهقر نحو الفراش ثم جلس على حافته. وضع طربوشه على الوسادة واعتمد براحته على العصا. ما دمت قد رجعت إلى مهدك فلا بأس من الجلوس على الفراش.

- الحق إنى لم أتوقع مقابلة لطيفة ولكنى لم أتصور هذه القدرة على الإعدام! وضحك ضحكة قصيرة ميتة وقال:

ـ نحن أسرة الأنياب والأظافر ولكني مشوق إلى معرفة النهاية.

رفعت رأسها قليلا ربما لتريحه ثم عادت إلى الانطواء على المسبحة في عالم لا يشاركها فيه أحد.

ـ من يدري فلعل حضوري خطأ من أساسه ولكني مصمم على ألا أندم عليه .

لاكلمة . . لا حركة . . لا اهتمام .

ـ أتتوقعين أن أعتذر؟ . . أن أعترف بخطأ . . أن أعلن الندم؟ . . إنك تعرفيننا خيرا مما نعرف أنفسنا ، والكلام لم يعد يجدى ، وكلانا قد تغير كثيرا ولكن صحتك مازالت بحمد الله جيدة ، لعلها أفضل من صحتى .

العبارة الأخيرة غير قابلة للتجاهل إلى ما لا نهاية. سوف تدب حركة. أجل ستنفجر أولا في غضب وتصب اللعنات ثم تلين رويدا وأخيرا ستسمع هذه الجدران دعاء!

- أعلم ماذا يقول صمتك، جاء اللص، جاء المجرم، جاء أخيرًا، بالله خبريني هل تطلبت حياتك هنا مالا أكثر مما لديك؟

وركبته رغبة يائسة في المزاح فتساءل:

ـ هل أردت مالا لتجربي حظك في الزواج من جديد؟

وضحك عاليا. لكنه ضحك وحده. وحده. لله هذه القدرة الجهنمية على الإعدام.

ـ ما مضى قد مضى، الدم والأرواح مضت، لسنا أول مجموعة دموية ولن نكون آخرها، وكم هلك لى من أعزة، وقطنت فى صدرى رصاصة إلى الأبد، ولا تعدى بقايا الطعنات فى الفخذ والبطن والرأس، وكنت تبكين وتمزقين شعرك وكنا وما زلنا نعانى حياتنا، ما الفائدة؟ . . ما مضى قد مضى .

ألم تعاهد نفسك على تجنب الذكريات؟ . . ولكن كيف؟ . . إنها مستمرة في قتلك . وأنت لم تقطع الوادي من أقصاه لتجلس أمام تمثال من حجر .

- إذن تودين أن أذهب! ، لا أعجب كثيرا ولكنى أتيت ، وهذا جزء لا يتجزأ من الحكاية ، ألم تغضبى بما فيه الكفاية ؟ ، لعنت الأبناء حتى جف صوتك ، هالك أن يخرج من بطنك هذا العدد العديد من الأعداء ، ولكنها بطنك على أى حال ، وخبرينى بالله كيف مات أبى ؟ وأعمامى ، وقيل لى لماذا تذهب بعدما كان ولكن لا أحد يعلم بسرى سواى ، وأنا أومن بالغيب إيمانى بالدم ، والوقت قد فات فيما بدا لهم ولكنى رأيت رأيا آخر ، غير أنى أود أن أعلم حتام تتعلقين بالصمت ؟!

آه. . فلتعجب بها بقدر ما تحنق عليها . ما أصدقها لنا من أم . لكنك تمثل عناد من تربص يوما في حقل الذرة ثماني ساعات دون حركة . وكم غنيت فوق أشلاء الجثث . وأيدى الإخوة التي قطعتها . وقولك الساخر عن ابني عميلك في البلد «يتحابان رغم أنهما أخوان!» .

- لا تطرديني دون كلمة ، اسأليني على الأقل عما جاء بي ، الغبار لم يعد يطلق والشوك أدمى الأقدام ، وأعترف بأن نفسى نازعتني إلى مأوى منسى لأسترد فيه أنفاسي ، شعور طبيعي بالحاجة إلى الظل بعد احتراق لعين ، وسمعت إن صدقا وإن كذبا أشياء وأشياء عن غرابة أطوار الأم ، أي أم كما قالوا ، ومع أن آخر صورة احتفظت بها منك كانت عابسة باكية لاعنة إلا أني غامرت بالتجربة .

يارب السماوات! ها هي تتثاءب مرة أخرى. من الضجر لا من التعب. ولكن طلاء القسوة سيتقشر عاجلا أو آجلا ثم يتساقط. والأحزان قد أنضبت في نفسك موارد سخية ولكنى أجلس أمامك بشخصى وشهادة ستين عاما من البنوة. وإن تكن بنوة مفلسة جدباء.

- أصغى إلى، أنا لا أسافر عبثا. هكذا خلقت، قيل لى لماذا تذهب بعد ما كان ولكن لا أحد يعلم بسر ذلك سواى، ومذ قدمت وأنا أتكلم وأنت تقتلين، سأذهب أقسى مما جئت، والساقية تدور ولا تحمل من باطن الأرض إلا العلقم، لم يجىء الأبناء خيرا منا، هيهات أن أعترض، اليوم يقطبون ويتبادلون نظرات ممتعضة، وغدا ينطلق

الرصاص، ها أنا أرى المستقبل بعين الماضى الدامية، واليوم تجمعهم صورة عائلية، كما جمعتنا صورة يوما ما، ولكن ماذا عن الغد؟ . . وكان أن ضجرت، ضجرت حتى الموت. ولكننا نكره الكلمات الطيبة ولا نصدقها، وإذن فلتمض القافلة مثيرة لغبار ولرشاش الدم. ولكن تمادى بى الضجر حتى وقعت، وبعد عشرين عاما من العقوق والنسيان ذكرنى الضجر بك! . . ولكن ماذا أريد؟ أن أرجع إليك؟ . . ولكن ماذا وراء ذلك؟ ونحن نخجل من العواطف ونتباهى بالكلمات، غير أنى أصبحت ماذا وراء ذلك؟ ونحن نخجل من العواطف ونتباهى بالكلمات، غير أنى أصبحت ذات يوم مقوس الظهر أزحف على أربع، وكتمت الألم خشية الشماتة، لا شيء سوى الشماتة، وما جاء الظهر حتى أعلمنى الطبيب بأنى مريض بكل معنى الكلمة، ولست أصدق الأطباء ولكنى لم أجد مفرا من تصديق الألم، وخصوصا وأنه لا يؤلنى إلا الألم الأليم، وانزويت في حجرتى أياما، وأحدقت بى نذر الشقاق بين الأبناء حتى رأيت صفحة المستقبل دامية كالصفحة المنطوية، وتجهمتنى الدنيا، وأبيت فى الوقت نفسه تذكر كلماتك القديمة، ولكنى رأيت حلما.

آه هل تستسلم لليأس؟ . . وما هذا الألم الذي يدب في أعماقك أهو نذير نوبة جديدة؟ . . إذن ماذا تفعل العقاقير ولم هي ليست حاسمة كالرصاص والفأس؟ . . وأنت أيتها العجوز ماذا بالله يمكن أن يحركك؟ . . أأقول إنك أقسى منا جميعا؟ . . لا تضطريني إلى هزك حتى تفيقي . إنى إذا صرخت تقوضت الجدران!

- حلمت حلما فلماذا لا تسألينني عما رأيت؟ هل فقدت ولعك بالأحلام وتأويلها؟ اعذريني إذا اعتقدت بأننا إغا ورثنا القسوة عنك، عنك أنت أكثر مما ورثناها عن أبي أو أي جد غابر، لا أحد يمكنه المحافظة على بروده كما تفعلين، وجهك لا يفصح عن شيء، أنت لا تتجاهلين وجودي ولكنك تجهلينه، تجهلينه بكل معنى الكلمة، أنت لا تسمعينني ولا ترينني من أين لك هذه القوة كلها؟

وانتفض واقفا في انفعال. ذهب مرة وجاء ثم وقف قبالتها معتمدا على عصاه بيمناه متجهم الوجه:

- أهذه طريقتك في العقاب، لا شك أنك تخيلت هذا اللقاء وتمنيت وقوعه وانتظرته طويلا، قلت سيجيء يوما، سيجيء إذا ألمت به كارثة أو صرعه مرض، سيذكر عند ذاك أمه المنسية ويهرع إليها سائلا العفو والبركة، وعند ذاك أجد فرصتي للانتقام، سيكفر عن السرقة والنهب والاعتداء والقتل، عن دموعي التي لم يجففها أحد، عن استغاثاتي التي قوبلت بالنهر، عن حبسي الطويل في هذه الغربة، هذه هي الحقيقة، وإنك لأمنا حقا، فأسلوبك هو أسلوبنا وقسوتك هي قسوتنا، وفي بعض أويقات الإرهاق والملل كنت أتساءل عما شكلنا بهذه الصورة الوحشية التي لا تعرفها

الكلاب ولا الحمير ولا البقر ولا الجاموس، وها هي الحقيقة تتكشف لي، إن السيل الذميم المنصهر ينحدر منك يا امرأة!

وضرب أرض الحجرة بعصاه مرتين حتى طقطق زجاج النافذة. وإذا بأم محمد تنقر على الباب المغلق مستطلعة مستأذنة فصاح بها غاضبا «اذهبي»، ثم التفت إلى المرأة التي واظبت على التسبيح في هدوء وقال:

- كفى، كفى عن التسبيح، نحن لا نعرف الله، ولا نذكره إلا عند شراء النقل أو صنع الكعك، الحق أننا لا نعرف الله ولا نريد أن نعرفه، والحلم الذي رأيت كان حلما كاذبا، وما كان ينبغي أن أحلم، أو أن أكترث للحلم إذا حلمت، وما كان ينبغي أن أمرض، على الذين يعيشون للرصاص والدم ألا يمرضوا أو يحلموا، وعليهم ألا يبحثوا عن راحة إلا في الموت، عليهم أن ينتحروا قبل أن يقتلوا، فأي شيطان دفعني إلى زيارتك يا امرأة؟

ولما لم تخرج عن تجاهلها الرهيب قطب في عزم، وتقدم منها خطوتين، ثم مديده فأمسك بيدها. ارتفع رأسها متراجعا في دهشة. تركت المسبحة في حجرها وأراحت يدها الأخرى على يده. تحسست ظهرها الجاف المعروق ومنابت الشعر الأبيض عند أصول الأصابع. ارتسم الفزع في وجهها ثم ندت عنها صرخة وصاحت:

ـمن؟ . . من؟ . . أم محمد!

وسرعان ما ألمت بها نوبة سعال، ثم عادت تصيح بصوت مخنوق شرق:

- أم محمد . . أم . . محمد . .

انفتح الباب في دفعة متمردة وهرولت المرأة إليها في اللحظة التي أخذ هو فيها يتراجع في وجوم شديد. احتوت الخادم يد سيدتها المرتعشة بين راحتيها في حنو ثم راحت تربت ظهرها النحيل في إشفاق. قال الرجل كالمعتذر:

ـ لا أدرى ماذا أفزعها!

فقالت الخادم بصوت خائف:

ـ أردت أن أقول لك فلم تسمع لي يا سيدي ثم منعتني من الدخول!

لبس طربوشه وتناول عصاه وهو يقول:

- ماذا أفزعها؟ . . كنت طوال الوقت أتودد إليها ، وكان أملى كبيرا في أن تلين إذا رأتني بين يديها .

أرخت الخادم جفونها وهي تقول بحسرة:

ـ يا سيدي إنها لا تري!

اتسعت عيناه الغامضتان في ذهول وراح يتفحص أمه وهو يقول:

- ـ تعنـــين . .
- ـ نعم يا سيدى إنها لا ترى . .

وحل بالحجرة خرس مقدار دقيقتين ثم تمتم:

لم أتصور ذلك، النور خافت كما ترين. .

ثم بنبرة مرة وكأنه يحادث نفسه:

ـ ولكنى حدثتها طويلا فتجاهلتني على نحو أليم.

قالت الخادم بصوت منكسر:

ـ يا سيدى إنها لا تسمع!

بذهول أشد:

- تعــنين . . ؟

ـ نعم يا سيدى، إنها لا تسمع . .

لطمه الفهم لطمة مفزعة أدارت رأسه:

- ـ كليــة؟
- . نعـــم . .
- ـ أإذا صرخت. .
- ـ لا فائدة يا سيدى.
- ـ لا بصر ولا سمع؟
- ـ لا بصرولا سمع.
- ـ يا ألطاف الله متى حدث ذلك؟
- ـ مـن أعـوام يا سـيـدى، بدأ أمـر الله بالعينين، ثم تلاه السـمع، ولم ينفع طب الأطباء.

تردد مليا ثم تساءل في حرج واضح:

- ـ ألم تكن هناك طريقة للاتصال بي؟
- ـ أردت ذلك عقب إصابة العينين ولكنها منعتنى ، منعتنى بشدة ورجاء معا ، فاحترمت رغبتها إلى النهاية .
- لم يكن الموقف كما تصورت ولكنه في الحقيقة أفظع. وأنت شريك في الجناية لا مفر. جئت تتخفف من أثقالك فضاعفتها أضعافا مضاعفة. وها هي أنفاسها تتردد على

يدك ولكنها أبعد من نجم. كالموت غير أنه ينضح بالعذاب. وها هو الصمت وها هو السد. وعليك أن تؤول حلمك بنفسك أو سوف يبقى الحلم بلا تأويل.

#### الخــــلاء

لتكن معركة حامية وحشية ولتشف غليل عشرين عاما من التصبر والتربص والانتظار. قدح وجه الرجل شررا وهو يحيط به الأعوان، وامتدت جموعهم خلفه قابضين على العصى ذوات العقد، كل عقدة تنذر بحفر ثغرة في العظام، وقد انخرط في أحضان الموكب حملة المقاطف المملوءة أحجارا وزلطا. تقدم الرجال في طريق الجبل المقفر بعزائم متوثبة للقتال، جاءك الويل يا شرداحة. وبين آونة وأخرى يتطلع زبال أو ترابي إلى الموكب الغريب مركزا بصره على الرجل الذي يحتل القلب في استطلاع ودهشة وإنكار. يتساءلون عن الفتوة الذي لم يره من قبل أحد، سوف تعرفونه وتحفظونه عن ظهر قلب يا ذباب الخليقة. وألقت الشمس المائلة على اللاثات المزركشة أشعة حارة ودار هواء خماسيني مجنون فلفح الوجوه ونفخ في الجو اكفهرارا ومقتا. ومال أحد الأعوان إلى أذن الرجل وسأله:

- معلم شرشارة، هل تقع شرداحة على طريق الجبل؟
  - ـ كلا، علينا أن نخترق إليها حي الجوالة.
    - ـ سيطير خبرنا إليها فيستعد عدوك
      - عبس وجه شرشارة وهو يقول:
- ـ عز المطلوب، فالغدر يحقق النصر ولكنه لا يشفى الغليل.

غليل عشرين عاما في المنفى. بعيدا عن القاهرة الساهرة وفي مجاهل الميناء بالإسكندرية. ولا أمل لك في الحياة إلا الانتقام. الأكل والشرب والنقود والنساء والسماء والأرض غرقت في عماء، وانحصر الإحساس في التحفز الأليم، ولا فكرة تخطر إلا عن الانتقام. لا حب ولا استقرار ولا إبقاء على ثروة، ضاع كل شيء في الاستعداد لليوم الرهيب. هكذا ذابت زهرة العمر في أتون الحنق والحقد والألم. لم تهنأ بتفوقك المتمهل الأكيد بين عمال الميناء. لم تجن ثمرة حقيقية من انتصارك على الجعافرة في معارك كوم الدكة. ما كان أسهل أن تعيش فتوة مهابا وأن تتخذ من الإسكندرية موطنا يدوى تحت سمائه اسم شرشارة ولكن عينك الدامية لم تر من الوجود إلا شرداحة بطريقها الضيقة وحاراتها المتفرعة الصاعدة وفتوتها الجبار البغيض لهلوبة. . الويل . .

انتهى طريق الجبل المقفر عند البوابة فمرق منها الموكب إلى حى الجوالة المزدحم. وصاح شرشارة بلهجة آمرة حادة كضرب الفأس في الحجر:

ـ لا كلام مع أحد و لا جواب.

أوسع المارة للموكب، واشرأبت إليه الأعناق من الحوانيت والمشربيات، وتطلعوا إلى القائد الجديد، ثم شاع الاضطراب والخوف. وقال صاحبه محذرا:

ـ سيظنون أننا نقصدهم بسوء!

قلب شرشارة عينيه في الوجوه الشاحبة وقال بصوت مسموع:

ـ يا رجال، لكم منا السلام.

انفرجت الأسارير وارتفعت الأصوات بالتحيات، وإذا به يقول مخاطبا القوم وهو يلحظ صاحبه بنظرة ذات معنى:

ـ نحن قاصدون شرداحة!

ولوح بعصاه المخيفة وهو يتقدم في طريقه. ما زالوا يتطلعون إليك باستغراب. كأنك لم تولد في هذا الحي. في صميم شرداحة. ولكن لا ذكر يبقى إلا للقتلة والمجرمين. شاب في العشرين، عامل في السرجة، هوايته لعب البلي تحت شجرة التوت. يتيم حتى مرقده لا يجده إلا في السرجة صدقة من عم زهرة صاحبها. وأول مرة حمل الزيت الحار إلى بيت لهلوبة صفعه هذا على قفاه، تلك كانت تحيته. وزينب ما كان أجملها. لولا جبار شرداحة لبقيت زوجتك منذ عشرين عاما. كان بوسعه أن يطلب يدها من قبل أن تطلبها أنت ولكنها لم تحل في عينيه إلا ليلة الزفة. وتحطمت الكلوبات وفر المطرب وتكسرت الات الطرب. وخطفت أنت كأنك وعاء أو قطعة من أثاث. لم تكن ضعيفا ولا جبانا ولكن المقاومة كانت فوق طاقتك. ورمى بك تحت قدميه وأحدقت بك عشرات الأقدام.

وضحك ضحكة كريهة وقال متهكما:

ـ أهلا بعريس الزيت الحار!

تمزق الجلباب الجديد وفقدت اللاثة وسرقت بقية تحويش العمر، وقلت:

ـ أنا من شرداحة يا معلم، كلنا رجالك وفي حماك. .

فصفعه على قفاه معلنا عطفه وخاطب رجاله قائلا في سخرية :

ـ أى معاملة يا أنذال؟!

ـ أنا خدامك يا معلم ولكن دعني أذهب. .

ـ العروس في انتظارك؟

- نعم يا سيد الحي، وأريد نقودي أما الجلباب فالعوض على الله.

قبض على قصتك وجذبك منها. وقال بلهجة جديدة جادة ومرعبة:

- شرشارة . . !
- -أمرك يا معلم؟
  - ـ طـــلّق!
  - \_م\_اذا؟
- ـ أقول لك طلِّق، طلق عروسك، الآن.
  - ـ لكـــن. .
  - ـ هي جميلة ولكن الحياة أجمل!
    - ـ كتبت كتابها العصر.
- ـ وتكتب طلاقها في الليل وخير البر عاجله!

ندت تأوهات يائسة. وركله ركلة قاسية. وفي ثوان جرده من ثيابه الممزقة. انطرح أرضا على أثر ضربة في الرقبة. وانهال عليه بخيزرانة حتى أغمى عليه. وغرز وجهه في نقرة مليئة ببول فرس. وعاد يقول:

ـ طـــلق!

بكي من الألم والقهر والذل ولكنه لم يعترض بكلمة. وقال الآخر بلهجة عطف ساخرة:

ـ لن يطالبك أحد بمؤخر الصداق.

فهزه رجل من الأعوان بعنف قائلا:

ـ أحمد ربنا واشكر سيدك!

الألم والهوان والعروس الضائعة. وها هى روائح العطارة بالجوالة ترجعك إلى الماضى أكثر مما أرجعتك العودة الحقيقية. الملاعب القديمة ووجه زينب الذى أحببته مذ كانت فى العاشرة. وطوال العشرين عاما لم يتحرك بغير الحقد قلبك. قبل ذلك لم يعرف إلا الحب واللهو. وبعد قليل فلن أتحسر على ضياع ما ضاع من عمر. عندما أطرحك يا لهلوبة تحت قدمى وأقول لك: «طلّق». . بذلك أسترد عشرين عاما مفقودة فى الجحيم. وأتعزى عن مالى الذى بعثرته على هذه العصابة. المال الذى دبرته بالشقاء والسرقة والنهب والتعرض للمهالك.

ولما لاح عن بعد قريب القبو المفضى إلى شرداحة التفت إلى رجاله قائلا:

ـ احملوا على الأعوان ودعوا لي الرجل ولا تمسوا بسوء أحدا من غير هؤلاء. .

لم يداخله شك في أن نبأ غزوته قد سبقه إلى شرداحة، وأنه عما قليل سيقف أمام لهلوبة وجها لوجه. ولم يعد يفصله عن هدفه إلا قبو قصير. تقدمهم في حذر ولكنه لم يصادف داخل القبو أحدا. واندفعوا مرة واحدة وهم يشدون على عصيهم ويطلقون صرخات مرعبة ولكنهم وجدوا الطريق خاليا. لاذ الناس بالبيوت والحوانيت. وامتد طريق شرداحة مقفرا حتى الخلاء الذي يحده من ناحية الصحراء. وهمس صاحبه في أذنه:

مكيدة! . . مكيدة وسيدى أبو العباس!

فقال شرشارة باستغراب:

ـ لهلوبة لا يستعمل المكائد!

وبأعلى صوته صاح:

ـ لهلوبة . . اظهر يا جبان!

ولكن لم يجبه أحد ولم يخرج إلى الطريق أحد. نظر فيما أمامه بترقب وذهول وهو يتلقى تيارا من الغبار الخانق الحار. كيف يفرغ شحنة عشرين عاما من الغضب والحقد؟! . . ورأى باب السرجة القصير المقوس المغلق فمضى إليه في حذر، وطرقه بعصاحتى جاءه صوت مرتعش النبرة وهو يهتف في ضراعة:

- الأمان!

فصاح بظفر:

ـ عم زهرة! . . تعال ولك الأمان . .

ظهر وجه العجوز من كوة في الجدار أعلى من الباب ورمي ببصر زائغ كليل.

ـ لا تخف، لا أحد يريد لك السوء، ألم تتذكرني يا رجل؟!

نظر العجوز إليه طويلا ثم تساءل في حيرة:

ـ من أنت يحفظك الله؟

- أنسيت صبيك شرشارة؟

اتسعت العينان الغائمتان ثم صاح:

ـ شرشارة؟! . . وكتاب الله هو شرشارة ولا أحد غيره!

وسرعان ما فتح الباب وهرع إليه فاتحا ذراعيه في ترحيب ظاهر وخوف باطن فتعانقا، وصبر شرشارة حتى انتهى ثم سأله :

- أين لهلوبة؟ . . ما له لم يجيء للدفاع عن حيّه؟

ـ لهـــلوبة!

- أين فتوتكم الجبان؟

شهق العجوز رافعا رأسه عن رقبة نحيلة معروقة ثم قال:

ـ ألم تدريا بني؟ . . لهلوبة مات من زمان! . . صرخ شرشارة من أعماق صدره وهو يترنح تحت ضربة مجهولة :

11

ـ هي الحقيقة يا بني . .

بصوت أقوى وأفظع من الأول:

ـ لا . . لا يا مخرف!

قال العجوز وهو يتراجع خطوة في خوف:

ـ لكنه مات وشبع موتا. .

تراخت ذراعاه وتهدمت قامته فعاد العجوز يقول:

ـ منذ خمسة أعوام أو أكثر..

آه. . ما بال جميع الكائنات تختفي ولا يبقى إلا الغبار .

- صدقني قد مات، دعى إلى وليمة في بيت أخته فأكل الكسكسي، ثم تسمم هو وكثيرون من أعوانه، ولم ينج منهم أحد.

آه. . إنه يتنفس بصعوبة كأن الهواء استحال طوبا. وهو يغوص في أعماق الأرض ولا يدرى ماذا بقي منه فوق سطحها. وحدج زهرة بنظرة ثقيلة خابية وتمتم:

- إذن مات لهلوبة؟

ـ وتفرقت البقية من أعوانه إذ سهل على الناس طردهم.

ـ لم يبق منهم أحد؟

ـ ولا واحد والحمد لله.

وصاح فجأة بصوت كالرعد:

- لهلوبة . . يا جبان . . لماذا مت يا جبان!

انذعر العجوز من عنف صوته فتوسل إليه قائلا:

ـ هون عليك ووحِّد الله .

همَّ بالتحول إلى أصحابه في حركة متهاوية ولكنه توقف في فتور وعاد يسأل:

ـ وماذا تعرف عن زينب؟

تساءل العجوز في حيرة:

ـزينب؟!

ـ يا عجوز أنسيت العروس التي أجبرني على تطليقها ليلة دخلتها؟

- آه . . نعم . . هي اليوم بياعة بيض في عطفة الجحش!

نظر إلى رجاله في انكسار وهزيمة. العصابة التي استنفدت عمره وماله وصبره. ها هو العمى يهبها للعدم. وقال بضجر:

ـ انتظروني عند الجبل.

تجمد نظره تجاههم وهم يختفون داخل القبو رجلا في إثر رجل. هل سيلحق بهم؟... متى يلحق بهم ولماذا؟!.. وهل يرجع من طريق الجوالة أو من طريق الخلاء؟.. ولكن زينب. أجل زينب. من أجلها احترقت عشرون عاما من العمر. أمن أجلها حقا؟!.. لن تصل إليها فوق جبار منهزم كما رسمت. مات ولا جدوى من نبش القبور، ما أفظع الفراغ. وها هي في دكانها. هي هي دون غيرها، من كان يتصور لقاء كهذا اللقاء الفاتر الغامض الخجلان!.. وجلس على مقعد في قهوة صغيرة في حجم زنزانة وراح يرقب الدكان الغاص بالزبائن. ها هي امرأة غريبة ممتلئة لحما وخبرة وقد أنضجت الأعوام قسماتها الساذجة. ملتفة بالسواد من الرأس حتى القدمين ولكن وجهها متشبث بقسط وافر من الوسامة. وهي تساوم وتناضل، وتلاطف وتخاصم، كامرأة سوق لا يمكن أن يستهان بها. ها هي إن أردت، وبلا معركة. بلا كرامة أيضا. فاتك إلى الأبد أن تقف فوق صدر لهلوبة وأن تأمره بالطلاق، ما أفظع الفراغ. ولم يحول عينيه عنها لحظة واحدة. وانهمرت عليه الذكريات في غرابة وحزن وحيرة قاتلة. ولا فكرة عنده عما سيفعل. كم آمن بأنها كل شيء في الحياة ولكن أين هي؟!

وهبط المغيب كآخر العمر. وذهب الزبائن تباعا. وجلست في النهاية على مقعد قصير من القش المجدول وراحت تدخن سيجارة. قرر أن يلقى بنفسه بين يديها هربا من حيرته. وقف حيالها وهو يقول:

ـ مساء الخيريا معلمة.

فرفعت إليه عينين مكحولتين مستطلعة . ولم تعرفه فتابعت دخان سيجارتها متمتمة : - طلباتك؟

ـ لا طلب لى.

أعادت النظر بشيء من الاهتمام المفاجئ فتلاقيا في نظرة ثابتة. ارتفع حاجباها وانحرف جانب فيها في شبه ابتسامة.

ـ هو أنا!

ـشرشارة!

- ـ هو نفسه ولكن بعد عشرين سنة!
  - ـ عمر طويل.
    - ـ كالمرض.
- حمدالله على سلامتك، أين كنت؟
  - ـ في بلاد الله.
  - ـ عمل وأهل وأبناء؟
    - ـ لاشيء.
  - ـ وأخيرا رجعت إلى شرداحة.
    - عودة الخيبة.

التمعت في عينيها نظرة ارتياب وتساؤل فقال بغضب:

ـ سبقني الموت!

تمتمت في غير ما ارتياح:

ـ كل شيء مضى وانقضى.

- دفن معه الأمل.

ـ كل شيء مضى وانقضى.

وتبادلا نظرة طويلة، ثم سألها:

ـ وكيف حالك؟

أشارت إلى مقاطف البيض وقالت:

ـ كما ترى، معدن!

بعد تردد:

- ألم . . ألم تتزوجي؟

ـ كبر الأولاد والبنات.

جواب لا يعنى شيئا. واعتذار واه كأنه مصيدة. ما جدوى العودة قبل أن تسترد الكرامة الضائعة؟ . . ألا ما أفظع الفراغ . وأشارت إلى مقعد خال في زاوية الدكان وقالت :

ـ تفضــل.

نغمة ناعمة كأيام زمان. ولكن لم يبق إلا الغبار قال:

ـ في فرصة أخرى.

وتردد في حيرة معذبة ثم صافحها وذهب. لن تتكرر الفرصة. هكذا وجدت نفسك قبل عشرين سنة ولكن الأمل لم يكن قد قُبر. وكره فكرة الذهاب إلى الجبل من طريق الجوالة. كره أن يرى الناس أو أن يروه، وكان ثمة طريق الخلاء فمضى نحو الخلاء.

# البارمـــان

مهما يكن من أمر فقد اقترن بأطيب الأوقات وجهك. وأنت معتمد على الطاولة الرخامية البيضاء بكوع يسراك وراحة يمناك، تنظر وتنتظر، ودائما تبتسم، وبين حين وحين تتناول منشفة صفراء كبيرة فتمسح السطح برشاقة ثم تعود إلى موقفك. وراء ظهرك على رفوف أربعة صفت زجاجات الخمور من كل صنف، مستكنة في خمول، ناضحة بسوائل ذهبية وبنية وحمراء، ولا مشابهة أو مقاربة بين ظاهرها الأنيس الوديع وخميرها العامر بالقوى الغامضة الملهمة المفجرة، ورأسك المستدير الكبير، وشعرك الأسود المفروق من الوسط، وحاجباك الغزيران المتباعدان، وشاربك الكث المتعرج كقوس، وذقنك العريض القوى، وعيناك الواسعتان الزرقاوان اللامعتان، وأنفك الأقنى، كل أولئك آيات منظر لا يمكن أن ينسى. أنت حقا ملك قهوة وبار افريقيا.

وفى بعض الأوقات كنا نغادر مكاتبنا بالوزارة فنتسلل إلى «افريقيا» لنشرب فنجالا من القهوة. ولم يكن من النادر أن يدور حديثنا عنك وأنت لا تدرى ومرة تساءلت بين إخوة من الموظفين:

- كيف يختارون البارمان؟
- فأجاب صديق من أهل الخبرة وهو يرمقك بإعجاب:
- ـ لعله في الأصل جرسون ولكنه ينتقى بمنتهى الدقة.
  - وقال ثان:
  - ـ إنهم يتقاضون مرتبات خيالية .
  - ـ وله دراية مذهلة بالنفس البشرية.
  - ـ وفي المعلومات العامة أستاذ بكل معنى الكلمة.
- ألا ترى كيف يحادث وكيف يضاحك وكيف يناقش؟
- ـ ولذلك فالشريب العتيق هو زبون البارمان قبل كل شيء.

ـ هو كل شيء، وكل ما يجيء من ناحيته طريف، حتى اسمه، فاسيليادس. . فاسيليادس. . أصغ إلى موقعه من الأذن!

فنظرت إليه بإكبار، واندفعت إلى الاعجاب به اندفاعا لا يصدر عادة إلا عن يافع الشباب. وكانت مودته قيمة أعتز بها حقا، ويستخفني الفرح كلما استقبلني بابتسامة متفتحة مشرقة تنجاب معها هموم القلب. وفي مساء العطلة الأسبوعية كان يدعوني إليه الشباب قبل السهرة، أي سهرة. وما أكاد أجلس على المقعد الطويل حتى تمتد يده إلى زجاجة الديوارس فيصب لي منها في الكأس المضلعة، ويتابعني وأنا أشرب، ثم يسأل باهتمام:

- أين تذهب هذا المساء؟

فأجيبه بما أنوى الذهاب إليه من سينما أو مسرح أو صالة غناء، فيقول:

- كل هذا جميل في عهد الشباب.

#### فأقول ضاحكا:

- شباب . . شباب . . لم التغنى الدائم بالشباب؟ . . أليس لكل فترة من العمر قيمتها؟
  - إنك تتطاول على الشباب لأنك شاب، بالله انتبه إلى قيمة الكنز الذي في قلبك.
    - ـ لا تبالغ يا فاسيليادس، الحياة ليست دماء وساعات ودقائق.
      - -إذن ما هي الحياة؟
      - ـ هي المال قبل كل شيء يا فاسيليادس.
      - ـ المال مهم جدا، ولكن الشباب أهم، ثم إن مظهرك.

#### فقاطعته:

- دعك من مظهرى، ماذا تعرف عن موظف صغير بتلك الوزارة المشئومة التي ترى مدخلها من موقفك وراء البار؟ . . الرغائب كثيرة واليد قصيرة فلا تحدثني عن الشباب .
  - ـ أتدرى كيف كان صاحب هذه القهوة عندما هاجر إلى مصر؟
- ـ جاء فقيرا معدما ثم شق سبيله في عالم غير عالم الوزارة والوظائف. جميع الترقيات والعلاوات موقوفة لأجل غير مسمى فماذا بقى للشباب؟
  - الموقوف اليوم يسير غدا، ولا يبقى شيء على حاله. . خذ.
- ويملأ الكأس من جديد فسرعان ما أصدقه وأستحلى منطقه، ثم أودعه بقلب ممتن

وفى صباح يوم عيد وأنا راجع من القرافة وجدت فى البيت بطاقة معايدة من فاسيليادس فطرت بها فرحا. وجلست حين المساء أمامه وأنا أقول:

- هذا يوم الشراب والورد والأفكار الطيبة.

ف ملاً الكأس وأهداني قرنفلة وابتسامة. وحلا كل شيء وطاب حتى نسيت فاسيليادس نفسه وجعلت أردد بصوت منخفض:

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم ولامك أقوام ولومهم ظلم وإذا به يتساءل:

ـ شــعر؟

فقلت وأنا أضحك من غفلتي:

ـنعــم.

ـ خبرني عن معناه؟

فرحت أشرحه له كلمة كلمة وهو يتابعني باسما، ثم قال:

ـ جميل حقا، ولكن أأنت عاشق أم شاعر؟

فقلت بنبرة اعتراف:

ـ عاشق!

ـ جميل حقا ولكن لماذا الكتم ولماذا الظلم؟

ـ هكذا الحب في بلادنا.

ـ الحب أن نتكلم وأن تحب وأن تمرح مع من تحب.

ـ هذا عند اليونان.

ـ والرومان . . وكل الناس . .

فهتفت منتشيا:

- بالله احكم العالم يا فاسيليادس.

- أنت شاب مهذب وقوى، أى بنت يمكن أن تحبك ولكن لا تكتم وإلا فكيف يعرف المحبوب أنك تحبه ولا تهتم بلوم الظالم. . خذ.

وملاً لى الكأس من جديد فآمنت بقوله واستعدت الثقة المفقودة ثم ذهبت بقلب مكور .

وتمر الأيام ولا تشيب لك شعرة يافاسيليادس أو يخبو لعينيك ضياء. وذات مساء سألته وأنا أرمقه بإعجاب:

- كيف تحافظ على شبابك؟

فأجاب مبتسما في لباقة:

- بمعاشرة الأحباب من أمثالك!

فتناولت الكأس قائلا:

- كلامك دائما حلو . .

فسألني بإشفاق:

ـ كيف حال الوليد؟

ـ يتقدم إلى الشفاء، وفي الطريق آخر فيما يبدو!

ـ مبارك، هذا عهد الإنجاب، أنت رجل محترم ولا عيب فيك إلا أنك سريع الشكوي!

- الحق أن الحياة لا تسر..

ـ كيف لا وأنت موظف محترم وزوج وأب؟

ـ أقصد البلد، وحياتنا السياسية، لعلك لا تهتم بذلك؟

- من بعيد، كثيرا ما أرى من موقفى وراء البار المظاهرات وأسمع الهتافات وأرى عساكر البوليس وهم يطاردون الطلبة، ثم تجيء اللوريات وعربات الإسعاف، كثيرا. . كثيرا، لماذا أنتم عصبيون هكذا؟

- بلد تعيس الحظ يا فاسيليادس.

\_ هكذا السياسة في كل مكان، عندنا في اليونان سالت دماء كثيرة. لا تحزن، أين كنت أمس وأين أنت اليوم؟ . . وستشرب هنا نخب انتصارات قادمة وسوف أذكرك، خذ.

وملاً الكأس من جديد، وزايل وجهى العبوس وطربت لغير ما سبب وغادرته وأنا أدعو لمودتنا المتبادلة بالخلود.

وازددت مع الأيام إعجابا بحيويته. وكنت أسترق إليه النظر مستطلعا ولكنى لم أعثر على آية من آيات الكبر. وها هما عيناه تشعان بقوة كبلورتين لا يعتورهما تلف، فمن أين تجيئه القوة المتجددة؟

ـ هل تشرب كثيرايا فاسيليادس؟

- كلا يا حبيبي، كأس واحدة قبل الغداء.

والعشاء؟

ـ عشائي لبن زبادي وخس وتفاحة.

- أليس في حياتك أحزان؟
- مثل جميع الناس ولكني لا أستسلم للحزن كأكثر الناس!

ولاحظ أنني هجرت مجلسي التقليدي إلى مقعد وراء البرافان الذي يفصل القهوة عن ركن الشراب فقال:

- ألاحظ أنك تفضل الاختفاء.

فضحكت عاليا وقلت:

- ابنى اليوم في سن الشباب وقد رأيته مرة وهو يمر أمام القهوة في رفقة بعض الصحاب.

- عجيب أن يخاف الأب ابنه!

- شد ما أعاني من الأبناء.

ـ لماذا يا سيدى وأنت الرجل الطيب؟

ـ لا نكاد نتفق في رأى أو ذوق وأشعر حقا بأني غريب.

ـ ولماذا تريدهم على أن يكونوا مثلك؟

ـ على أيامنا.

ولكنه قاطعني:

ـ أيام الترقيات والعلاوات الموقوفة!

فلم أتمالك من الضحك وقلت:

-إذن فأنت لا يزعجك تمرد الأبناء!

ـ تعلم منهم! . . تعلم منهم إن استطعت . . خذ .

فرفعت الكأس وأنا أهتف «في صحة التمرد والعصيان!».

ورغم أن الشخص هو آخر من يعلم بفعل الزمن في ذاته فقد أقنعتني علامات لا سبيل لإخفائها بمدى التغير الذي طرأ على. ومع ذلك لم أكد ألاحظ في فاسيليادس شيئا. وذهبت إليه ذات مساء فحدجني بإنكار لم أجهل بواعثه. وبادرني وهو يملأ الكأس:

ـ لست كعادتك .

فقلت وأنا أخفض جفني:

- أحلت أمس إلى المعاش!

فلوح بيده قائلا:

ـ براڤــو . .

- ـ ما معنى التحبة يا فاسبلبادس؟
- أنك أتممت رحلة موفقة لتبدأ رحلة أخرى.
  - ـ أى رحلة يا رجل؟
  - الحياة تبدأ بعد الستين.
    - ـ في قهوة افريقيا؟
    - فقال وهو يهز رأسه:
- ـ كنت تتعامل مع تفاصيل الحياة وآن لك أن تتعامل مع خلاصتها .
  - ـ الحق أنى وجدت نفسى لا شيء!
  - هكذا تكلمت يوما عن الشباب.
- ـ لم يعد أحد معى إلا المدام، ولولا الشعور بالواجب ما زارني أحد من الأبناء!
  - اهتم بأمر واحد هو كيف تستمتع بالحياة بعد الستين.
    - ـ وهل بقى من الحياة شيء.
    - الحياة القديمة انتهت أما الجديدة فلم تبدأ بعد.

#### فقلت واجما:

- أصاب أحيانا بالدوار فيخيل إلى أن كل شيء لا شيء.
- ـ صحتك حسنة، ولك أصدقاء، والحياة في البلد لم تعد تسير على وتيرة واحدة.
  - ـ في أعماقنا حزن دفين ينتهز الفرص غير المواتية ليطفو فوق السطح.
    - ـ ولكنه لا يستطيع أن يمحو أفراح الحياة الماضية والراهنة.
      - المسألة أن لسانك لا ينطق إلا بالشهد.
      - ـ ما زال أمامنا أيام كثيرة للقاء والحديث وتبادل المودة.
        - لتكن مشيئة الله.
    - ـ وزر من جديد حديقة الحيوان والأسماك والآثار . . خذ . .
      - وملأ الكأس فعجبت أي كنز هو فاسيليادس.
- ويوما وأنا أتأهب لاستقبال شهر رمضان هاجمني مرض الكلى، وعادني الأبناء. وعادني الأبناء. وعادني الأبناء وعادني الأصدقاء فتسلينا بأحاديث الأمراض والسياسة. وذات صباح جاءت زوجتي لتخبرني بأن «خواجا» يرغب في مقابلتي. وما هي إلا دقيقة حتى كان فاسيليادس يعانقني بحرارة وشاربه الكث ينهش فمي وخدى. رأيته بالبدلة الكاملة والقبعة لأول مرة. وقال ضاحكا:
  - ـ ما أوحش البار من غير ضحكتك . .

فقلت وأنا أتحسس أسفل الظهر:

- ـ المغص! . . أجارك الله يا فاسيليادس .
- دعابة سخيفة ولابدأن تنتهي، وأعترف لك أن فاسيليادس لا يساوى شيئا بدونك.
  - ـ وماذا أساوي أنا بدونك يا عزيزي؟
    - ـ ومتى ترجع لنا؟
  - ـ ربما في نهاية الأسبوع، أين الشباب أين؟
  - ـ قلت إنها دعابة سخيفة ثم نواصل حياتنا الطيبة. .

الحق أن زيارته أنعشت روحي أكثر من الأبناء أنفسهم وليلة عدت إلى «افريقيا» تعانقنا أمام الجميع، ورفعت الكأس وأنا أقول:

- ـ في صحة فاسيليادس رمز الحب والوفاء.
- وقصصت عليه، حلما زارني فيه الموت فقال:
- ـ لا تصــدق، الموت لا يجيء إلا مرة واحدة، وإذا جاء أعقبته سعادة كبرى.
  - ـ ها أنت تتحدث عما وراء الموت.

### فقال بثقة:

ـ من أين أتيت؟ . . ألا يشبه الظلام الذي أتيت منه الظلام الذي ستذهب إليه بعد عمر طويل؟ . . وقد أمكن أن خرج من الظلام الأول حياة فما يمنع من أن تستمر الحياة في الظلام الثاني؟!

# فصحت وأنا ثمل:

ـ براڤو فاسيليادس. . يا صوت القديسين. .

وقمت بجولة طويلة بين الحدائق والآثار. وجلست في الخلوات تحت أشعة الشمس المشرقة. ولكن شيئا لم يمنع الواقعة. وغبت عن الوجود زمنا لم أدره. ولما عدت إلى الوعى وجدتنى ممددا فوق الفراش كميت. وخطر لى أنها النهاية ولكن تعلقى بالحياة لم يهن. وقال صديق من العواد:

- ـ فاسيليادس يبلغك تحياته .
- فاختلج جفناي باهتمام حقيقي لأول مرة منذ الرقاد وسألته:
  - ـ ترى هل علم بحقيقة حالى؟
  - أجل، أخبره بعض الأصدقاء فحزن جدا.
    - وقلت لزوجي بعد ذهاب الصديق:

ـ إذا جاء الخواجا فأدخليه فورا. .

وقلت لنفسى إنه لمعجزة حقا وسوف يجدد حياتي بسحره العجيب. وكلما دق جرس الباب اختلج جفناي وتأهبت للقاء. وجاء كثيرون ولكن لم يجئ فاسيليادس. وتساءلت عما أقعده وعبثت بي الظنون وأرهقني القلق. وقلت للصديق ذات يوم.

- فاسيليادس لم يزرني . .

فقال كالمعتذر:

- الرجل مرهق بالعمل.

ـ ولكنه لم يتأخر عن زيارتي في مرضى السابق.

وصمت الرجل فقلت متأثرا:

ـ أبلغه أنني زعلان.

وقلت إنه سيجيء حتما مهما تكن شواغله. ولكن طال الانتظار بلا أمل. ومضى الحزن يتحول إلى غضب. وقلت إنه كان يجاملني ليس إلا. ولما عرف النهاية أسقطني من الحساب. وها هو الوغد يتكشف عهده الطويل عن أكذوبة سمجة، ومودته الحارة عن مهارة محترف.

وجاء الصديق لزيارتي مرة ثالثة وأنا بين الحياة والموت. وسمعنى أغمغم باسمه الرنان في أسى فأدنى رأسه مني وقال:

- البقية في حياتك في فاسيليادس. .

هتفت رغم ضعفى:

ـ لا . .

فقال:

ـ هكذا قلنا جميعا، لم نصدق أعيننا ونحن نراه وهو يتهاوى وراء البار، وقبيل ذلك بثوان كان يضحك ويتحدث وهو واقف كتمثال، ولكن بالله خبرنى كيف كان يمكن أن يموت رجل في مثل قوته إلا بضربة قاضية؟!

# المتهــــم

لأنه وحيد في سيارته الصغيرة لم يجد تسلية إلا في السرعة. طار فوق شريط الأسفلت المنساب وسط الرمال في طريق السويس. ولا تنوع في المنظر مما ضاعف من

شعوره بالحدة ولا جديد يذكر في سبيل يقطعه ذهابا وإيابا مرة كل أسبوع. وتراءت له عن بعد سيارة نقل ضخمة فقرر اللحاق بها ثم ضاعف من سرعة سيارته «رمسيس» ومضى يقترب منها. سيارة بترول ضخمة كقاطرة. وثمة راكب دراجة يمسك بركن مؤخرها، وينطلق بحذاء عجلتها اليسري الخلفية دون عناء وهو يغني. ترى من أين جاء راكب الدراجة وأين يقصد وهل كان يطوى الطريق بدراجته لو لم يجد سيارة تجره؟! . . وابتسم إعجابا وهو ينظر إليه في إشفاق. ومر بمجموعة من التلال عن يمينه تترامي وراءها بقعة خضراء زرعت ذرة واكتنفتها أرض معشوشبة ترعاها الماعز فهدأ من سرعته مؤجلا السباق حتى يتملى الخضرة اليانعة. وإذا بصرخة تمزق الصمت. انجذب وجهه إلى الأمام بعنف. رأى عجلة السيارة تدوس الدراجة وراكبها وتمضى في طريقها. صرخ فزعا. وصرخ ينادي السائق. وأوقف سيارته على مبعدة مترين من الدراجة ثم غادرها دون تفكير، ودون أن يكف عن مناداة السائق. واقترب في تهيب من مكان الحادث فرأي جسما ملقى على جانبه الأيسر، وذراعه اليمني منطرحة إلى جانبه سمراء صغيرة اليد بارزة من قميص أغبر نصف كم مغطاة الأديم بالسجحات والكدمات، لا يظهر من وجهه إلا عارضه الأيمن، ورجلاه مازالتا مطوقتين للدراجة داخل بنطلون رمادي متهتك ينز منه الدم، وقد هصرت العجلتان وتهشمت أسلاكهما وانكسر جانب المقود، وثمة حركة تنفس ثقيل عميق سريع تجتاح صدر الضحية الذي بدا شابا في العشرين أو فوق ذلك بقليل. تقلص وجهه وثبتت في عينيه نظرة حزن ورثاء ولكنه لم يدر ماذا يفعل. شعر بعجزه في الخلاء. ونبذ فكرة حمله إلى سيارته التي قد يكون فيها القضاء عليه. وأخيرا وجد المهرب من حيرته في أن يركب سيارته وينطلق بها في اثر السيارة الجانية حتى يلحق بها، ولعله يجد في الطريق نقطة مراقبة أو تفتيش فيبلغ عن الحادثة.

ورجع إلى سيارته وهم بالدخول فيمها عندما ارتفع صوت، بل أصوات، وهي صيح :

ـ قف . . لا تتحرك . .

التفت وراءه فرأى جمعا من الفلاحين يركضون نحوه. آتين من ناحية الأرض الخضراء. منهم من يحمل عصا أو يقبض على حجر. واضطر إلى العدول عن الركوب خشية أن تنهال عليه الأحجار والتفت نحوهم وهو يرجف من دقة موقفه. وأياسته الوجوه الغاضبة المتوثبة من أى أمل في التفاهم فمد يده بسرعة إلى الخزانة فاستخرج مسدسه ثم سدده نحوهم وصاح بنبرة مختلجة:

ـ مكانكم..

أدرك بسرعة خاطفة مضطربة أنه بحركته هذه قد قضى على أي أمل أيضا في التفاهم

مستقبلا ولكن لم يكن ثمة وقت لحسن التدبير. وهدأوا من اندفاعهم حتى توقفوا تماما على مبعدة عشرة أمتار. استقرت في أعينهم نظرة مكفهرة حاقدة. وأضرم من نيرانها العجز غير المتوقع حيال المسدس. وتبدت الوجوه غامقة جافة مرهقة تحت أشعة الشمس. وتهاوت الأيدى بالعصى والأحجار وتشبثت الأقدام الغليظة الحافية بالأسفلت. وقال رجل منهم:

- أتريد أن تقتلنا كما قتلته؟
- ـ لم أقتله، لم أمسه، ولكن داسته سيارة البترول.
  - ـ سيارتك أنت. .
  - ـ أنتم لم تروا شيئا. .
    - ـ رأينا كل شيء . .
  - ـ إنكم تمنعونني من اللحاق بالسيارة الجانية . .
    - ـ أنت تريد أن تهرب. .

ازدادوا حقدا وازداد خوفا. وأرعبته لحد الموت فكرة أن يضطر إلى إطلاق النار. أن يقتل وأن يجره القتل إلى مأزق لا نجاة منه. كيف حل الكابوس بلا نوم.

- ـ صدقوني ما مسسته، وقد رأيت السيارة وهي تدهسه.
  - ـ لم يدهسه أحد غيرك.
  - ـ كان يجب أن تبلغ أقرب مستشفى .
    - ـ حصل.
    - ـ ونقطة البوليس؟
      - ـ حصــل . .
  - ـ إذن أرجو أن ننتظر في سلام وسوف يظهر الحق.
    - ـ لا تهرب وسوف يظهر الحق.
    - بالله لماذا الإصرار على الباطل؟
      - ـ لماذا تقتله!

أى جحيم من العناء والكذب. ومتى تنقضى فترة الانتظار الجهنمية. العذاب البطىء والخوف والفكر المحموم. لماذا وقف؟ . . وكيف تظهر الحقيقة؟ . . حتى سائق السيارة الكبيرة لا يدرى. ولا أمل في أن يكون الموقف كله حلما مزعجا.

وندت عن الشاب الطريح تأوهة. أعقبتها آهة محشرجة وأنين طويل هبط حتى الصمت مرة أخرى. وهتف رجل:

- ـ الله ينتقم منك . .
- الله ينتقم من الفاعل.
  - أنت الفاعل!
- ـ الحق على لأنبي وقفت.
- ـ ظننت نفسك وحيدا. .
  - ـ بل ظننت أن أسعفه .
    - ـ تســعفه!
- ـ لا فائدة من الكلام معكم.
  - لا فائدة . .

لو أدار لهم ظهره ثانية واحدة لالتهمته الأحجار. لا مهرب من موقف العذاب. ولا سبيل إلى السيارة الكبيرة. هو وحده الفداء. ودون حلم النجاة أهوال وأهوال. ترى كيف تحدد المسئولية. وكيف تقدر العقوبة؟ . . وهل يمكن أن ينجو الشاب المسكين؟ . . وتجلى الحنق في نظرته تجاه حقد ثابت في نظراتهم.

\* \* \*

وتراءت فى أقصى الأفق سيارتان. وأخذتا تقتربان حتى تنهد فى ارتياح. وصلت إلى مكان الحادث سيارة الإسعاف وسيارة البوليس. انتقل رجال الإسعاف إلى الدراجة فورا وأحاط بهم الجميع. خلصوا الدراجة من بين ساقيه بأناة ثم حملوه بعناية إلى السيارة. ورجعوا من حيث أتوا. وأبعد العساكر الجمع عن الدراجة وراح الضابط يعاين المكان صامتا.

ثم التفت إليه قائلا:

ـ أنـت؟

فصاح الفلاحون بإيجاب حتى أسكتهم الضابط بإشارة من يده وهو ينظر إليه مستطلعا فقال:

ـ كلا، كنت أسير وراء سيارة بترول، وكان قابضا على مؤخرها، انتبهت إلى صرخة فرأيته تحت عجلتها الخلفية.

وصاح كثيرون:

- ـ هو الذي داسه. .
- ـ لم أمسه، كنت شاهدا فحسب.

وعادت الضجة فصاح الضابط:

- الكلام بنظام.

وساله:

ـ هل رأيت الحادث وهو يقع؟

ـ كلا، عندما التفت إلى مصدر الصرخة رأيت الدراجة تحت العجلة.

ـ ولكن كيف وقع تحتها؟

ـ لا أدرى . .

ـ وماذا فعلت؟

ـ أوقف السيارة لأرى ما حل به وما يمكن عمله، وأردت اللحاق بالسيارة ولكني رأيتهم يجرون نحوى بالعصى والأحجار فاضطررت إلى تهديدهم بمسدسي.

ـ هل تحمل رخصة؟

ـ نعم، إنى صراف بالسويس وكثير السفر . .

والتفت نحو الفلاحين متسائلا:

ـ لماذا تتهمونه؟

فاستبقوا هاتفين:

ـ رأيناه بأعيننا ومنعناه من الهرب. .

فقال الشاب حانقا:

ـ كاذبون، لم يروا شيئا. .

أمر الضابط جنديا بحراسة المكان، وآخر بإبلاغ النيابة، ثم مضى بالجميع إلى النقطة لكتابة المحضر. وأصر على موسى على أقواله كما أصر الفلاحون على أقوالهم. وجعل على يردد بأن التحقيق سيكشف عن الحقيقة. وعرف أن الضحية اسمه عياد الجعفرى وهو تاجر متنقل، وله معاملات متبادلة مع أكثر الفلاحين. وتساءل على موسى:

ما الذي يدعوني إلى الوقوف لو كنت حقا الجاني؟

فقال الضابط ببرود:

ـ ليس المفروض أن تدهس وتهرب.

ولبث الجميع ينتظرون. جلس الفلاحون القرفصاء وجلس على موسى على كرسى بإذن من الضابط. ومر الوقت ثقيلا كئيبا غليظا. وبانتهاء المحضر تناساهم الضابط ولم يعد يعنيه من الأمر شيء. وراح يتسلى بقراءة الصحف. ولماذا يصر الفلاحون على اتهامه؟.. والأدهى أنهم مطمئنون بشهادتهم كأنهم حقا صادقون. هل خدع البصر؟.. هل فسر أحدهم الموقف بما يحدث عادة لا بما حدث بالفعل ثم تبعه الآخرون بغريزة

عمياء؟ . . آه . . لا أمل إلا في نجاة عياد الجعفرى . هو قبل أي إنسان آخر الذي يستطيع أن يوقظه من الكابوس بكلمة واحدة .

وقال على موسى للضابط برقة ورجاء:

ـ أيمكن الاطمئنان على حال المصاب؟

فرمقه الضابط بنظرة لم يرتح لها غير أنه اتصل بالمستشفى بالتليفون ثم أعاد السماعة قائلا:

ـ في حجرة العمليات، نزف كثيرا، ولا يمكن التنبؤ بالنتيجة.

فتردد لحظات ثم سأل:

ـ ومتى تجيء النيابة؟

ـ ستعرف ذلك بنفسك عند مجيئها .

فقال وكأنه يخاطب نفسه:

ـ لماذا يجد أناس أنفسهم في مثل موقفي هذا؟

فأجاب الضابط وهو يعود إلى الجريدة:

ـ لعل عندك الجواب!

وارتمى فى وحدته الموحشة وهو يلقى على المكان نظرة مقت. هؤ لاء الفلاحون يودون القضاء عليه ولو تمكن هو من القضاء عليهم لفعل. وهذا الضابط يمارس مهنته كآلة. وثمة قوة عمياء مجهولة تطحنه وكأنها لا تدرى. وهو له أخطاء كثيرة ولكن من السخف ربط أطراف الفوضى بأسباب منطقية. وتنهد متمتما:

ـيارب.

فردد أكثر من صوت لأسباب مناقضة.

ـيارب!

وفقد أعصابه فصاح بهم:

ـ أنتم لا ضمائر لكم.

فصاحوا:

ـ ربنا بيننا وبينك يا ظالم.

ورفع الضابط وجهه من فوق الجريدة وقال بغضب:

- لا . . لا أسمح بذلك .

فقال على ممتعضا:

ـ لولا الكذب والزور لكنت الآن في بيتي آمنا.

فقال رجل:

لولا استهتارك لكان عياد المسكين في بيته آمنا.

رماهم الضابط بنظرة وعيد عقلت الألسنة . . وساد السكون فاستشرى ألم الانتظار . ومر الوقت كأنما يسير إلى الوراء . ومضى على في إرهاق غير محتمل حتى اضطر إلى الاستغاثة بالضابط من جديد فسأله بلهجة غاية في الأدب :

- سيدى، لا أخالك تجهل ما أعانيه من عذاب، هل يمكن أن أعرف متى تأتى النيابة؟ فأجاب من وراء الجريدة في ضجر:

- أتظن أن حادثتك شيء يذكر بالقياس إلى الحوادث؟

كل هذا العذاب شيء لا يذكر. الآمال المهددة بالتلف شيء لا يذكر. العداوة الغامضة الأسباب بينه وبين الفلاحين شيء لا يذكر. والسماء المترامية التي وقع تحتها الحادث أهي شيء أيضا لا يذكر؟.. وبمرور الوقت ركبه الإرهاق وخنقه. ولم يعد يكترث كثيراً للمجازفة فقال:

ـ سيدي الضابط . .

فقاطعه وكأنه كان يتربص به:

- أنت لا تريد أن تسكت!

ـ ولكني في الواقع معذب.

ـ لو شاركت في عذابات كل من يشرف النقطة لمت كمدا من أول يوم.

- ألا يمكن السؤال على الأقل عن حال المصاب؟

ـ سأبلغ بأى جديد عنه دون سؤال من جانبي .

حياتى رهن بحياتك يا عياد. وقد تهزأ الملابسات بذكاء النيابة. وهل إدخالى إلى السجن بلا ذنب شيء لا يذكر؟! . . ومن الخير إن أمكن أن ترمى بالأعباء من فوق كاهلك. وأن تبتسم في استهتار وبلاهة . وكانت الدموع تراودك وها هو الضحك يوشك أن يجتاحك . بالله تذكر ذنوبك الماضية لتتعزى عن مأزقك ولكن لا علاقة ولا رابطة . من قال إن الفوضى تعالج بالفوضى . وأعين هؤلاء الفلاحين ترى من خلال منظار أسود ركبته الأجيال فوقها ولكننى لم أسهم في صنعه . أو لعلني أسهمت وأنا لا أدرى . وها أنا فكر لأول مرة في حياتي . وسوف أفكر طويلا وراء الجدران . وقدتم التعارف اليوم بيني وبين أشياء لم أعرفها قبلا بالسماع . المصادفة! . . القدر ، الحظ ، النية والعمل . الفلاح والضابط والأفندى ، الرياح الموسمية ، البترول ، سيارات النقل ، قراءة الصحف في

النقطة، ما يذكر وما لا يذكر. كل شيء يجب أن يعاد التفكير فيه. كل شيء كشيء وككل. يجب أن نبدأ من الألف لنفهم كل شيء ولنسيطر على كل شيء وحتى لا يوجد شيء لا يذكر. وليس الزلزال بمسئول ولكن المسئول هو الجهل. وعليك ألا تذعن بعد اليوم لدكتاتورية المجموعة الشمسية ولا للغة النجوم الغامضة. فكيف ترهب الضابط الذي يقرأ صفحة الوفيات دون أن يعزى أحدا؟

وقال بصوت قوى:

ـشيء لا يطاق!

ظهر وجه الضابط فوق الجريدة حاملا نظرة إنكار فقال بحدة:

ـ حضرتك تقرأ الجريدة ولا تفعل شيئا!

ـ أنت تقول ذلك!

ـ كما سمعت . .

ـ ألا تخاف . . ؟

لا أخاف شىئا.

ـ إن كنت فقدت أعصابك فعندى لكل داء دواء!

ـ وأنا عندي لكل داء دواء.

وقف الضابط وهو يقول بغضب:

ـ أنت؟!

- أنت تؤخر حضور النيابة، أنت تمنع القانون.

ـ سأضعك في السجن.

ـ أهو أفظع من هذه الفوضى؟

ـ أتريد أن تدعى الجنون؟

ووقف على محتدا وفي عينيه نظرة زائغة. ونادى الضابط العسكرى. ولكن جرس التليفون رن. تناول الضابط السماعة وهو ينظر إلى على بشماتة وحقد ويدارى في ذات الوقت ابتسامة ثم قال:

ـ مات المصاب متأثرًا بجراحه!

وجم على موسى قليلا. تلقى النظرة الشامتة بغضب جنوني. وصاح بصوت مرتجف:

ـ القانون لم يقل كلمته بعد، وإني لمنتظره.

# السكران يغني

خلت الحانة من الزبائن تماما. ومسح الجرسون العجوز على صلعته وهو يتثاءب بصوت مرتفع كالتوجع ومضى يكوم المقاعد الخشبية والمناضد العارية. ومشى صاحب الحانة بين أرجائها المتقاربة متفقدا الأركان والمرحاض، وعد القروش على مهل، وأغلق الأدراج المدسوسة تحت الطاولة، ودرج منضدة الماركات، ثم أطفأ المصباح المدلى فوق الطاولة فانخفض الضوء بالمكان وزاده كآبة على كآبة. وقال مخاطبا الجرسون:

- أسرع فالساعة تدور في الثانية صباحا.

فانتهى الرجل من تكويم المقاعد والمناضد ثم خلع المريلة المتسخة في أكثر من موضع وعلقها بمسمار منغرز في الجدار وسار نحو الباب يجر قدمين ثقيلتين مدفونتين في حذاء من المطاط، وجسمه النحيل يتأرجح في جلباب فضفاض. وأطفأ صاحب الحانة المصباح الآخر فساد الظلام وغادر المكان إلى الخارج ثم أغلق الباب وذهب، باعثا من حذائه الثقيل أطيطا متواصلا كدر صمت الطريق.

ثمة رجل لابد تحت البرميل الأوسط يترقب ذهاب الرجلين بفارغ الصبر تسمع أطيط الحذاء حتى سكن. وتنهد فى ارتياح ثم زحف خارجا من تحت البرميل. وقف فى ظلام دامس، يحملق فى الظلام ولا يرى شيئا، ولا شبح شىء، أعمى بكل معنى الكلمة، وضائع كأنما ألقى به فى عالم الغيب. ولكن إذا كان البرميل الوسطانى وراءك فالبار إلى اليسار، وعند طرف البار يرقد صندوق النقود. وسار بحذر إلى اليسار ماداً ذراعيه حتى مست أصابعه الطاولة، ثم مشى بحذائها معتمدا عليها حتى المنضدة العالية، ورائحة قوية من مزيج من المخلل والسردين والجبن تملأ أنفه. ضائع تماما ولكن ها هو الدرج المنشود. ها هنا توجد نقود مانولى التي يكسبها من بيع أقداح النبيذ المقطر من نيران الجحيم. وأخرج من جيبه آلة كالمبرد ومضى يعالج بها القفل حتى فتحه. واقتحمته عطسة آتية من المظلم، الذى يضيئه فانوس واحد فى طرف منحدره عند اتصاله بشارع البواكى. ودس شيء ألبتة. يا مانولى الكلب، أتأخذ الايراد معك؟ ألا تترك مليما؟ أليست الحانة آمن على النقود من الطريق والبيت؟.. وقطب فى غيظ وحنق. واشتد ضيقه بالظلام. هل على النقود من الطريق والبيت؟.. وقطب فى غيظ وحنق. واشتد ضيقه بالظلام. هل تضيع المغامرة هباء! ويهزأ الفراغ من الحيلة والعدة ودهاء التدبير! ودفعه الغيظ إلى فتح عضيع المغامرة هباء! ويهزأ الفراغ من الحيلة والعدة ودهاء التدبير! ودفعه الغيظ إلى فتح تضيع المغامرة هباء! ويهزأ الفراغ من الحيلة والعدة ودهاء التدبير! ودفعه الغيظ إلى فتح

أدراج الطاولة جميعا ولكنه لم يعثر إلا على بقايا الجبن الرومي والزيتون والفول النابت. ولبثُّ واقفا وراء الطاولة بمكان العجوز الداهية يفكر في لا شيء ويتناول حبات من الفول بلا تذوق. وسلم أخيرا بهزيمته. ولكنه عزم على الترفيه عن نفسه قبل أن يعالج النافذة ليفر. مديده وراء ظهره إلى الرف فتناول زجاجة نبيذ. فض سدادتها وأطبق عليها فاه وراح يشرب بشراهة ونهم حتى أفرغها. وركز انتباهه ليتابع تقلب الدوامة في جوفه. رهيب. . جليل. . لا مثيل له. . ولا يقدر بشمن. ولا وجه لإنفاق النقود خير من الخمر فلا موجب للزعل. المؤسف حقا أن يفوت عربتك الكارو موسم القرافة غدا فلعنة الله عليك يا مانولي. ومديده فتناول زجاجة ثانية، ما أفظع الظلام والعماء. ليشرب حتى يروى وليؤجل الشروع في الهرب حتى يقوم العسكري بدورة المرور. ولكن الظلام يقوم كالسدوله أنفاس مخمورة وقبضة من الصخر. وها هي زجاجة ثالثة من المياه النارية. ويجب أن تجلس وليكن فوق البار. مضى مانولي والنقود معه فإلى الجحيم يا مانولي. وليس ألعن من الجحيم إلا الظلام. وتنحنح بلا حذر فسرت النحنحة في ظلام الحانة ولكنه لم يبال كثيرا. لا يبالي أن يبالي. والحق أنك عدو الظلام. إني أعمل في الشمس وأنام تحت النجوم وفي ليالي الشتاء يضيء فانوس الحارة حجرتي في البدروم. وضربت من الرجال عددا يفوق الحصر وأرمى بجسدي على العصى بلا خوف ولكني أخاف أن يمزق جلبابي الوحيد. وحماري يجرني وهو عار فلا يتعرض له أحد أما أنا فلا غني لي عن الجلباب والخمر. ورفع الزجاجة الرابعة فقرقر صوت الشراب وهو ينصب في حلقه ويجلجل بين الجدران الغارقة في الصمت والظلام. وقال لي الشيخ زاوي لا تسكر فقلت له أنا سلطان الترك والعجم فقال لي عليك لعنة الله فحلفت يمينا لأسمين حماري بالزاوي. وراح يدندن بصوت سرِّي «أوان الوصل» ولما تناول الزجاجة الخامسة اضطجع على راحتيه ومد ساقيه فوق الطاولة. وتذكر شاعر الربابة فتساءل لماذا تختفي الأشياء الجميلة. واندفع يغنى كأنه في بيته:

## أوان الوصل قرب بالتهاني

وتلوت النغمة المخمورة ولكنه هز رأسه في إعجاب. وعند الهنك ارتفع صوته إلى طبقة عالية. واعتدل في جلسته وراح يصفق بيديه.

وإذا بقبضة تهوى على الباب وصوت العسكري يصيح:

ـ من بالداخل؟

ولم يكف أول الأمر عن الهنك. ولكن تتابع الخبط أزعجه فأمسك وهو يتمتم بغيظ «لا منكم ولا كفاية شركم». وتساءل في عظمة:

ـ من أنت؟

- ـ أنا العسكري.
  - ـ وماذا تريد؟
- ـ عجيبة! . . قل من أنت؟
  - فأجاب وهو يضحك:
    - -زبـون!
- الدنيا نامت فكيف بقيت أنت في الداخل؟
  - ـ وما شأنك أنت؟
  - ـ يا سكير يا عربيد ستدفع ثمن وقاحتك.
    - ـ ليس معي مليم واحد!
- ـ إنى أعرف صوتك، رغم السكر فإنى أعرف صوتك.
  - ـ من الذي لا يعرف أحمد عنبة!
    - ـ عربجـي الكارو!
  - ـ بعينه . . هل من خدمة يا شاويش؟

وصفر العسكرى فأرهب سكون الليل. وتحسس الرجل الجدار فوق الطاولة حتى عثر على مفتاح الكهرباء فأضاء المصباح. وقطب وهو يضيق عينيه، ومضى يتفحص المكان بعناية حتى استقرت عيناه الحمراوان الجاحظتان على موقد الجاز وصفيحة الجاز. ودار رأسه ودارت به أفكار في سرعة فلم يكد يمسك بإحداها ثانية واحدة. وكاد ينسى العسكرى وصوته ولكن ترامت إليه من الخارج ضجة وضوضاء. آه. . ضابط النقطة ، وعساكر ، وسكان الأرصفة من جامعي الأعقاب وآخرون ، وميز صوت مانولي فصاح بغضب:

- ـ مانـولي!
- فقال الرجل باضطراب:
- ـ أنا مانولي يا عم أحمد. .
- ـ لا تفتح الباب. . عند أول حركة في الباب ستصبح حانتك شعلة من النيران.
  - ـ لا . . لا تحرق نفسك!
- ـ لا شأن لك بى يا مانولى، الجاز فى كل مكان، فوق الأرض والبراميل والمقاعد والمناضد، وها هو عود الكبريت فى يدى . . احذر يا مانولى .
  - قال الرجل باضطراب واضح:
  - ـ هدئ أخلاقك، لن أفتح حتى تأمر.

- ـ من أين لك هذا الأدب يا مانولى؟
- ـ طول عمري مؤدب. . هدئ أخلاقك وقل لي ماذا تريد.
  - ـ عندى كل ما أريد.
  - ألا تريد أن تخرج؟
  - ـ ولا أن يدخل أحد.
  - ـ لا يمكن أن تبقى في الداخل إلى الأبد!
    - ممكن جدا، عندى كل ما أريد.
  - أنا آسف، لقد أغلقت الباب عليك خطأ!
    - أنت تكذب وأنت تعرف أنك كاذب.
      - ـ ولكن ذلك حصل بالفعل.
        - ـ تعرف أنى هنا لأسرق.
      - ـ لا شيء عندك يستحق السرقة.
        - ـ وبراميل النبيذ السام؟
      - كل ما شربت هدية منى إليك.
        - و لا مليم في الدرج. .
        - ـ ليس الدرج للنقود. .
        - ـ لماذا تغلقه إذن يا مانولى؟
  - عادة سيئة، هدئ أخلاقك ولا تحرق نفسك.
    - ـ أنت خائف على؟
    - طبعا. . البراميل طظ ولكنك روح . .
    - ـ كذاب يا مانولي وسل العساكر حولك.

فى أثناء ذلك قام رجال الشرطة بنشاط واسع. أخلوا البيت الذى فى أسفله الحانة. واتصلوا بأصحاب الحوانيت الملاصقة للحانة من تجار الخشب والبوية والخردوات العاملين فى الطريق المهدد بالدمار. وسرعان ما أقبلت سيارات الحريق وأخذت أهبتها. وقهقه أحمد عنبة طويلا وصاح:

- العود في يدي يا مانولي. .
  - فقال الرجل بانكسار:
- لا ذنب لي، هدئ أخلاقك. .

- ـ شربت خمس زجاجات في صحة خراب بيتك.
  - اشرب السادسة ولكن لا تحرق نفسك.

وراقته الفكرة فمد يده إلى الرف ثم استأنف الشرب. وشعر بأنه يستمتع بآخر وقت طيب متاح. وجاءه صوت هادئ يقول وقد سكنت الضوضاء:

- يا أحمد!

آه. . لا يمكن أن يخطئ هذا الصوت العميق الغليظ.

ـ حضرة الضابط؟

ـنعــم..

ـ أهلا وسهلا. .

ـ يجب أن تعقل وتتركنا نفتح الباب.

ـ لـــم؟

ـ ليتسلمه صاحبه.

- الخمارة لمن يشرب!

- اعقل يا أحمد. .

ـ وأنــا؟

ـ ستخرج آمنا سالما. .

ـ وبعــد ذلك؟

ـ لا شيء ألبتة . .

ـ حتى أنت تكذب كمانولي!

ـ ستسأل عن وجودك في الحانة ولكن واضح أنك نمت من السكر، وفقدت وعيك، ولا ذنب عليك.

ـ والأدراج المكسورة؟

ـ فعلت ذلك دون وعى وتحت تأثير السكر.

ـ آه منك . . والصفح والضرب والسب والسجن؟!

ـ لا. . لا. . أعدك بأحسن معاملة .

وأفرغ الزجاجة أو كاد، ثم صاح:

ـ أحمد عنبة سلطان الترك والعجم وكلكم ركش.

- الله يسامحك . .

- ـ يا حضرة الضابط أنا فاهمك . .
  - ـ الله يسامحك.
- ـ أتذكر يوم بال الحمار أمام النقطة وأنت خارج؟
  - ـ لم أفعل شيئا .
  - ـ تركت الحمار وصفعتني أنا. .
    - ـ مجر د مداعبة . .
    - ـ جاء دوري في المداعبة!
      - ـ ولكن لا تقتل نفسك.
  - ـ نفسك! . . هل تهمك نفسي حقا؟
  - ـ طبعا! ، وتهمني سلامة الناس والدكاكين.
- ـ الناس في الخارج والدكاكين أشياء لا أتعامل معها.
  - ـ ولكنك تخاف الله. .
    - ـ أنت لا تخاف الله!
      - ـ وتكره الأذى.
    - أنت تحب الأذى . .
      - الله يسامحك.
  - ـ عود الكبريت في يدى فابتعدوا عن الباب.
- وأتى على بقية الزجاجة وراح يغنى «فى العشق ياما كنت أنوح». ولما انتهى من المقطع الأول جاءه صوت الضابط!
  - ـ أحسنت يا عم ولعلك عدت إلى عقلك.
    - فأجاب ساخرا:
    - ـ قضيت على الزجاجة السادسة.
      - ـ ستقتل نفسك . .
      - ـ اسمع، كلمة أخيرة..
        - ـنعــم؟
        - قل «أنا مرة» . .
        - ـ لا يرضيك ذلك.
  - ـ يرضيني كل الرضا، وهذا شرطي لكي أترككم تفتحون.

## فصاح مانولي:

- ـ أنا مرة . .
- أنت مرة بلا شرط ولكن على الضابط أن يقولها .
  - عيب يا أحمد.

وقهقه طويلا ثم صاح بلهجة آمرة:

ـ اهتفوا بحياتي . .

وانقضت دقيقة من الصمت ثم دوت عاصفة من أصوات الغلمان والأهالى "ليحيا أحمد عنبة!". وتواصل الهتاف فوثب إلى أرض الحانة وراح يرقص فى زهو وابتهاج، ودار فى الفراغ المحدود فدارت معه المقاعد والمناضد والسقف والدنيا جميعا. وانفتح الباب فجأة فى غفلة منه وانقض الجنود. ووقف يترنح بين أيديهم القابضة على جلبابه وساعديه وعنقه. ورغم ذلك كله ألقى على الجميع نظرة سلطنة متعاظمة كأنما هى هابطة من السماء. وقال بنبرة ثقيلة نائمة كأنها مسجلة بالتصوير البطىء:

ـ ليس معي عود كبريت واحد. .

### حنه الأطفهال

- ـبابا..
- ۔نعــم . .
- ـ أنا وصاحبتي نادية دائمًا مع بعض. .
  - ـ طبعا يا حبيبتي فهي صاحبتك.
- ـ في الفصل، في الفسحة، وساعة الأكل.
  - ـ شيء لطيف وهي جميلة ومؤدبة.
- ـ لكن في درس الدين أدخل أنا في حجرة وتدخل هي في حجرة أخرى؟
  - لحظ الأم فرآها تبتسم رغم انشغالها بتطريز مفرش فقال وهو يبتسم:
    - ـ هذا في درس الدين فقط. .
      - ـ لم يا بابا؟
    - ـ لأنك لك دين وهي لها دين آخر .
      - کیف یا بابا؟

- ـ أنت مسلمة وهي مسيحية.
  - ـ لم يا بابا؟
- ـ أنت صغيرة وسوف تفهمين فيما بعد.
  - أنا كبيرة يا بابا .
  - ـ بل صغيرة يا حبيبتي . .
    - ـ لم أنا مسلمة؟
- عليه أن يكون واسع الصدر وأن يكون حذرا و لا يكفر بالتربية الحديثة عند أول تجربة . قال :
  - ـ بابا مسلم وماما مسلمة ولذلك فأنت مسلمة .
    - ـ ونادية؟
  - ـ باباها مسيحي وأمها مسيحية ولذلك فهي مسيحية.
    - هل لأن باباها يلبس نظارة؟
  - ـ كلا لا دخل للنظارة في ذلك، ولكن لأن جدها كان مسيحيا كذلك. .
- وقرر أن يتابع سلسلة الأجداد إلى ما لا نهاية حتى تضجر وتتحول إلى موضوع آخر ولكنها سألت:
  - ـ مـن أحسـن؟
  - وتفكر قليلا ثم قال:
  - المسلمة حسنة والمسيحية حسنة.
    - ـ ضروري واحدة أحسن؟
    - ـ هذه حسنة وتلك حسنة.
  - ـ هل أعمل مسيحية لنبقى معا دائماً؟
  - ـ كلا يا حبيبتي، هذا غير ممكن، كل واحدة تظل كباباها وماماها.
    - ـ ولكـن لم؟
    - حق إن التربية الحديثة طاغية! . . وسألها:
      - ـ ألا تنتظرين حتى تكبرى؟
        - ـ لا يا بابا . .
- ـ حسن، أنت تعرفين الموضة، واحدة تحب موضة وواحدة تفضل موضة، وكونك مسلمة هو آخر موضة، لذلك يحب أن تبقى مسلمة.
  - ـ يعنى نادية موضة قديمة؟

الله يقطعك أنت ونادية في يوم واحد. الظاهر أنه يخطىء رغم الحذر. وأنه يدفع بلا رحمة إلى عنق زجاجة. وقال:

- المسألة مسألة أذواق ولكن يجب أن تبقى كل واحدة كباباها وماماها . .

ـ هل أقول لها إنها موضة قديمة وأنني موضة جديدة؟

فبادرها:

ـ كل دين حسن، المسلمة تعبد الله والمسيحية تعبد الله. .

ـ ولم تعبده هي في حجرة وأعبده أنا في حجرة؟

ـ هنا يعبد بطريقة وهناك يعبد بطريقة . .

ـ وما الفرق يا بابا؟

ـ ستعرفينه في العام القادم أو الذي يليه، وكفاية أن تعرفي الآن أن المسلمة تعبد الله والمسيحية تعبد الله.

ـ ومن هو الله يا بابا؟

وأخذ. وفكر مليا. ثم سأل مستزيدا من الهدنة:

- ماذا قالت أبلة في المدرسة؟

ـ تقرأ السورة وتعلمنا الصلاة ولكني لا أعرف. فمن هو الله يا بابا؟

فتفكر وهو يبتسم ابتسامة غامضة وقال:

ـ هو خلق الدنيا كلها.

ـ کلهـا؟

ـ كلهـا.

ـ ما معنى خالق يا بابا؟

ـ يعنى أنه صنع كل شيء.

ـ كيف يا بابا؟

- بقدرة عظيمة . .

ـ وأين يعيش؟

ـ في الدنيا كلها . .

ـ وقبل الدنيا؟

وق . .

ـ في السماء؟

```
ـ نعـــم.
```

- أريد أن أراه.

ـ غير ممكن.

ـ ولو في التليفزيون؟

ـ غير ممكن أيضا.

- ألم يره أحد؟

. كـــلا. .

ـ وكيف عرفت أنه فوق؟

ـ هو كذلك.

ـ من عرف أنه فوق؟

- الأنبياء .

- الأنبياء؟

ـ نعم . . مثل سيدنا محمد . .

ـ وكيف يا بابا؟

ـ بقدرة خاصة به .

ـ عيناه قويتان؟

ـنعم.

ـ لم يا بابا؟

ـ الله خلقه كذلك.

ـ لم يا بابا؟

وأجاب وهو يروض نفاد صبره:

ـ هو حريفعل ما يشاء. .

ـ وكيف رآه؟

عظیم جدا، قوی جدا، قادر علی کل شیء.

ـ مثلك يا بابا؟

فأجاب وهو يداري ضحكة:

ـ لا مثيل له .

ـ ولم يعيش فوق؟

- الأرض لا تسعه ولكنه يرى كل شيء.

وسرحت قليلا ثم قالت:

ـ ولكن نادية قالت لي إنه عاش على الأرض.

ـ لأنه يرى كل مكان فكأنه يعيش في كل مكان!

ـ وقالت إن الناس قتلوه؟!

ـ ولكنه حي لا يموت.

ـ نادية قالت إنهم قتلوه . .

ـ كلا يا حبيبتي، ظنوا أنهم قتلوه ولكنه حي لا يموت.

ـ وجدًى حي أيضا؟

ـ جدك مات .

ـ هل قتله الناس؟

- کلا ، مات و حده . .

۔کیـف؟

ـ مرض ثم مات . .

ـ وأختى ستموت لأنها مريضة؟

وقطب قائلا وهو يلحظ حركة احتجاج أتية من ناحية الأم:

- كلا . . ستشفى إن شاء الله .

ـ ولم مات جدى؟

. ـ مرض وهو كبير . .

ـ وأنت مرضت وأنت كبير فلم لم تمت؟

ونهرتها أمها فنقلت عينيها بينهما في حيرة، وقال هو:

- نموت إذا أراد الله لنا الموت.

ـ ولم يريد الله أن نموت؟

ـ هو حريفعل ما يشاء.

والموت حلو؟

- کلا یا عزیزتی..

ـ ولم يريد الله شيئا غير حلو؟

ـ هو حلو ما دام الله يريده لنا .

```
ـ ولكنك قلت إنه غير حلو.
```

- أخطأت يا حبيبتي . .

ولم زعلت ماما لما قلت إنك تموت!

ـ لأن الله لم يرد ذلك بعد.

ـ ولم يريده يا بابا؟

ـ هو يأتي بنا إلى هنا ثم يذهب بنا.

ـ لم يا بابا!

ـ لنعمل أشياء جميلة هنا قبل أن نذهب.

ـ ولم لانبقى؟

ـ لا تتسع الدنيا للناس إذا بقوا.

- ونترك الأشياء الجميلة؟

- سنذهب إلى أشياء أجمل منها.

ـ أيــن؟

- فـوق.

عندالله؟

ـنعــم.

ونسراه؟

ـنعــم.

ـ وهل هذا حلو؟

ـ طبعـا.

-إذن يجب أن نذهب؟

ـ ولكننا لم نفعل أشياء جميلة بعد.

ـ وجدى فعل؟

. نعـــم . .

ـ ماذا فعل؟

ـ بنى بيتا وزرع حديقة . .

ـ وتوتو ابن خالي ماذا فعل؟

وتجهم وجهه لحظة، واسترق إلى الأم نظرة مشفقة، ثم قال:

- ـ هو أيضا بني بيتا صغيرا قبل أن يذهب . .
- لكن لولو جارنا يضربني ولا يفعل شيئا جميلا.
  - ولدشقي.
  - ـ ولكنه لن يموت!
  - إلا إذا أراد الله . .
  - رغم أنه لا يفعل أشياء جميلة؟
- الكل يموت، فمن يفعل أشياء جميلة يذهب إلى الله ومن يفعل أشياء قبيحة يذهب إلى النار.

وتنهدت ثم صمتت فشعر بمدى ما حل به من إرهاق. ولم يدر كم أصاب ولا كم أخطأ. وحرّك تيار الأسئلة علامات استفهام راسبة في أعماقه. ولكن الصغيرة ما لبثت أن هتفت:

- أريد أن أبقى دائمًا مع نادية .

فنظر إليها مستطلعا فقالت:

ـ حتى في درس الدين!

وضحك ضحكة عالية. وضحكت أمها أيضا. وقال وهو يتثاءب:

ـ لم أتصور أنه من الممكن مناقشة هذه الأسئلة على ذاك المستوى!

فقالت المرأة:

ـ ستكبر البنت يوما فتستطيع أن تدلى لها بما عندك من حقائق؟!

والتفت نحوها بحدة ليري مدى ما ينطوى عليه قولها من صدق أو سخرية فوجد أنها قد انهمكت مرة أخرى في التطريز .

# فــــردوس

كل شيء يتحرك بلا ضابط والجدران على الجانبين تتموج. لا غرابة في ذلك ولكن الغريب حقا هو تهافت الأضواء التي كاد يبتلعها الظلام. وأغرب من كل شيء ذلك الصمت أو ما يشبه الصمت كأن النوم يلف الطريق. إما أن الذاكرة خداعة كاذبة تختلق ما لا أصل له، وإما أن الدنيا تتغير بقوة لا ترحم الذكريات. على ذاك لم يخطر له التراجع على بال. ولم يفتر حنينه ، حنينه إلى فترة من العمر ذهبت إلى غير عودة ، ولعن

من الأعماق إحساسا ملحا لم يعن بتسميته. ولكن أليس التغير أفدح مما تصور؟ ما معنى وقوف سيارات النقل هنا وهناك؟ . . أين المقاهى الكثيرة والحانات؟ وعلى أى ضوء تخطر النساء بحليهن الزائفة وملابسهن المتهتكة؟ . . تكلم يا طريق السرور والحزن، لا تقف متجهما كأنك لا تعرفنى . ها هى البواكى على الجانبين ولكنها لا تنطوى على ضوء يذكر ، ولا منظر ، ولا صوت ، ماذا جرى؟ . . وها هو السلم الصاعد إلى الدرب ولكن أين العسكرى؟ . . ولا حنجرة تغنى ولا وتر يعزف ولا شتمة واحدة . والصيدلى العجوز السيئ السمعة ودكان كل شيء لزوم الشيء أين؟ لا نكتة ، لا صرخة ، لا معركة ولا تهديد بمعركة ، لا قدم تزل ولا استغاثة ، لا سحنة غريبة ولا أحد يقىء ، لا أحد يرقص ولا أحد يحاول الانتحار ، لا خلاف على الحساب ولا نشال ولا نصاب ولا قواد ، لا عصا ارتفعت ولا كرسى طار في الهواء ، لا يوجد إلا سيارات النقل والحوانيت المغلقة ، والظلام الشامل وبضع فوانيس متباعدة .

عند مطلع الدرب رأى قهوة صغيرة فتحول نحوها كالمندفع. لعلها النقطة الوحيدة التي يلتقى عندها الماضى والحاضر. جلس فى نفس المكان، ربما على نفس المقعد، ولكن واضح أن صبى القهوة وجه جديد وكذلك المعلم صاحبها. لم ير من مجلسه شيئا يستحق الذكر وثمة شىء غامض فى الجو كالنذير. وقال للصبى الذى مثل بين يديه:

- أين أهل الحي؟

فأجاب الغلام الذي توقع سؤالا آخر:

- في بيوتهم.

ـ لا يوجد أحد في الطريق ولا توجد أنوار؟

دارى الغلام ابتسامة فقال الرجل لنفسه إنه قد أفرط وإن منظره ولا شك مثير للغاية. وسأله الغلام:

ـ ماذا تحب أن تشرب؟

ـ واحد كونياك!

لم يعد في وسع الغلام إخفاء ابتسامته ولبث متحيرا.

ـ واحد كونياك من غير مزة. .

ـ قهوة. . شاي . . قرفة . . جوزة . .

ـ قلت واحد كونياك . .

ـ لا يوجد. .

- ـ لكنى شربته هنا مرات ومرات.
- ـ غير مصرح بها في الأحياء البلدية .
- هذا الغلام أبله أو أن رأسه ـ هو ـ يتطور تطورا شاذا .
  - ـ ومن مطرب القهوة؟
  - ـ أي مطرب؟ . . لا مطرب للقهوة .

أشار له أن يذهب. ثمة سر سينجلى عن قريب. وأراد أن يناقش صاحب القهوة ولكن ظهرت أول امرأة في الطريق. جاءت من ناحية السلم ملفوفة في ملاءتها سافرة الوجه فانتزعته من هواجسه. هي نقطة الالتقاء الحقيقية لا القهوة الخربة. وثمة امرأة واحدة تمشى بملاءتها في الحي كله. فردوس. فردوس دون غيرها من نساء الحي. ولما اقتربت ابتسم إليها. هم بدعوتها لمجالسته ولكنها مضت داخل الدرب دون أن تعيره التفاتة تصاحبها دقات كعبها العالى فوق البلاط. لعلها لم تره. لا يمكن أن تنسى العشرة الطويلة والسرور والحزن والأحاديث التي لا تنتهى حتى مطلع الفجر. وغادر القهوة ليتبعها على الأثر. ومالت نحو ثالث باب فدفعته بيدها ودخلت. أوسع خطاه ثم دخل وراءها.

جعل يقترب منها في الطرقة في جو تغشاه الظلمة لولا بصيص من النور يترامي إليه من الدرب خلال الباب الموارب، التفتت متسائلة:

- مــن؟

أجاب بثقة:

ـ أنـا . .

فسألت بحدة وحذر:

ـ من أنت؟

ـ صاحب هذا الصوت. ألا تذكرين؟

. کلا . .

ـ فردوس.

۔ اذهب . .

ـ فردوس.

ـ فردوس في عينك يا قليل الحيا!

فضحك قائلا:

ـ هذه هي فردوس، إني أعرف ألاعيبك.

ومديده ليمسك بساعدها فأفلتت منه وهي تصرخ غاضبة ثم هوت على وجهه

بقبضتها. توقف منزعجا، وهرولت أقدام فوق السلم. وتلاطمت الجدران بزمجرة ولغط. ثم تجلت أوجه غاضبة على ضوء مصباح تحمله امرأة. وقال في جفول:

ـ ماذا جرى؟ . . أنا زبون!

أحيط به وانهالت عليه الصفعات:

- ـ لص . .
- ـ دعوني أتكلم . .
  - ـ تكلم يا جبان .
    - ـ أنا زبون.
- ـ زبون! . . من قال إن بيتنا قهوة .

وانهالت عليه الأكف حتى صرخ. وأمسكوا عن ضربه مليا، وهم يقربون المصباح من وجهه مستطلعين.

- ـ أفندي!
- ـ عجوز!
- ـ سكران!

توسل قائلا:

- ـ لنتفاهم بلا ضرب. .
- ماذا جاء بك إلى هنا؟
- ـ زبون والله . . ومستعد أدفع إلى آخر مليم!

وانهالت عليه اللطمات بشدة حتى سقط تحت الأقدام. وحال أحدهم دون الاستمرار في ضربة خشية أن يموت ثم جرى لاستدعاء البوليس. ترك ملقى فوق أرض تربة وهو يغمغم:

ـ الله يسامحك يا فردوس!

ووقف الجميع أمام ضابط القسم. أدلت المرأة والرجال بأقوالهم. وسأله الضابط:

ـ ما أقوالك؟

أطل وجهه النحيل المتجعد المتورم في هيئة زرية وقد انبسطت صلعته مكان الطربوش المفقود، وتدلى البابيون من بنيقة القميص الممزق، وتلطخت چاكتته السوداء بالجير والتراب، وتراقص شدقاه حول فم أثرم، وقال بصوت متعب:

ـ أقوالهم دليل عليهم، شهدوا بالاعتداء على بلا سبب، إنى أطالب بكشف طبى عاجل .

- إنك سكران لحد الموت.
- ـ هذا شأنى ما دمت لم أعتد على أحد.
  - ولكنك اعتديت على السيدة؟
- ـ بل ذهبت وراءها إلى البيت كما تقضى الأصول!
  - الأصول؟
  - ـ نعم، كأى رجل.
    - ـ بأى حق؟
  - ـ الحق المشروع وأنت سيد العارفين.
    - ـ تكلم ولا تضيع وقتى!
- ـ طلبتها وفي نيتي أن أدفع لها أجرها فانهالوا على ضربا.
  - ـ أتعترف بذلك؟
  - ـ طبعا، لست لصاولا نصابا، ولكنني زبون قديم.
    - ـزبون؟
- ـ نعم، ولا أطلب ذلك للهو أو الفجور، ولكنني أقدم للمجتمع خدمة مشكورة!
  - ـ ما شاء الله!
  - ـ إنى أدرس أحوال النساء بالحي وخدماتي مقدرة ومشكورة.
    - ـ من كلفك بذلك؟
    - ـ واجب إنساني تطوعت له بلا تكاليف.
    - ـ لا تتوهم أنك تخدع أحدا بسكرك الفاضح.

ابتسم الرجل ابتسامة بلهاء. ضرب كفا بكف. أجال بصرا زائغا متعبا في الوجوه ثم تهاوى مغمى عليه.

\* \* \*

فتح عينيه فوجد نفسه مستلقيا فوق سرير في حجرة صغيرة ناصعة البياض ذات رائحة طيبة. ومضت دقائق قبل أن يعرف أنه هو هو وأنه في مكان. ودخل رجل لم يره من قبل ولكنه ذو وقار وطابع رسمي. قال إنه المأمور فنظر إليه باستغراب. وقال إنه يعرفه من قديم ويذكر نشاطه مذكان يكتب في الجرائد والمجلات.

- الحق أننى كنت من قرائك المغرمين.

تمتم الرجل وهو يتحسس جبينه وفكيه:

- ـ فرصة طيبة.
- ـ عرفتك في القسم وأنت مغمى عليك فأمرت لك بالإسعافات الضرورية، أرجو أن تكون أحسن.
  - ـ أظن ذلك ولكن لا فكرة عندي عما جرى.
    - لذلك قصة مؤسفة ستتذكرها في حينها.
    - تجلت في عينيه نظرة ممتعضة فقال المأمور:
      - ـ دعني أولا أتلو عليك المحضر.
        - المحضر؟

تلا عليه المحضر بأناة ووضوح. تابعه مقطبا ذاهلا. أجل!.. شيء كذاك الجحيم قد لفحه على نحو ما. وسأله المأمور:

- ـ كيف حدث ذلك؟
- تمتم بارتباك وحزن:
  - ـ لا أدرى.
- ـ ثابت أنك كنت في حال سكر بين ولكن هذا لا يكفي.
  - لم ينبس.
- ـ وقد شك الضابط فيما هو أخطر من السكر واقترح على عمل تحليل للمعدة .
  - . لا . .
  - ـ لم يحصل.
  - ـ لا أدرى كيف أشكرك.
    - ابتسم المأمور وقال:
  - كنت من المتابعين لدراساتك القيمة، ولكن كيف حدث ذلك؟
    - تأوه الرجل قائلا:
    - ـ واضح أنني فقدت عقلي تماما.
    - ـ ولكنك اعتديت على امرأة في بيتها وتلك جريمة مزدوجة.
      - ـ لا أصدق.
  - ـ وسنجد مصاعب حقيقية في محاولة التفاهم مع المرأة وأهلها.
    - ـ يا له من مصير أسود.
    - حادث خرافي أرجو ألا يتسرب إلى الصحافة.

تنهد الرجل لدى ذكر الصحافة. قال إنه كان من أعلامها قبل الاعتزال. قبل أن يعتزلها منذ خمسة عشر عاما. رجع إلى قريته كهلا جفت به بواعث النشاط. عاش فى خمول دهرا ثم تاقت نفسه إلى زيارة القاهرة. ذهب إلى تافرنا كالأيام الخالية ثم ساقته قدماه ـ كالعادة ـ إلى الدرب إياه .

- ـ ولكنك أول من يعلم بأنه لم يعد حيا للبغاء، وأول من يعلم متى ألغي البغاء.
  - ـ غاب عنى ذلك تماما وأنا فاقد الوعى.
    - ـ وكان ما كان.
    - و كان ما كان!

ضحك المأمور بروح مطمئنة لن تتوانى عن مساعدته. وجعل ينوه بكتابه الضخم عن البغاء والبغايا فقال الرجل:

- ـ كان جولة رائعة، وزرت من أجل تأليفه بلدانا كثيرة في الشرق والغرب، كان دائرة معارف.
  - ـ وكنت تطالب بإلغاء البغاء والعناية الإنسانية بالبغايا!
  - ـ وعندما وقع الإلغاء توجت حياتي بالنصر وأقام لي الزملاء حفل تكريم في شبارد.
    - ـ أجل، كأني أذكر ذلك، ولكن لماذا هجرت الصحافة؟
- ـ كـان البغـاء المشكلة الجـوهرية التى كرست لهـا قلمى. تاريخه وأشكاله وضحاياه وجميع ما يتصل به، وجعلت من الغائه هدفى، فلما تحقق، ولما شبعت من النصر، وضح لى أنه لم يعد لى شيء يثير اهتمامى!
  - ـ ولكن قلمك. . أعنى أن البغاء ليس إلا مشكلة من مشكلات لا حصر لها .
    - ـ لم يعد لي قلم، مات ميتة غريبة، وتمزقت الأسباب بيني وبين الأشياء.
      - ـ الحق أني . .

## ولكنه قاطعه في ضجر:

لقد وقع الإلغاء على البغاء وعلى في آن، ذهبنا معا، أصبحت غير ذي موضوع، وبلا عمل ولا حماس ولا هدف.

### تبادلا نظرة، ثم استطرد:

- ـ رجعت إلى قريتي، وسرعان ما ابتلعني النسيان.
  - وتبادلا نظرة أطول ثم ابتسم المأمور قائلا:
- ـ كان الحي ضمن منطقتي وأنا ملازم وكنت أراك كثيرا في قهوة العربي!
  - ـ ذاك كان بعض عملى.

ـ ولكنك. . أعنى . . كنت تمرح وتلعب.

- أجل، كنت القلب الذي يصغى إلى أناتهن في الهزيع الأخير من الليل.

وخيل إليه أن المأمور يجد حرجا في الإفضاء بما لديه من ذكريات فقال:

ـ كأننا جزء من الشر الذي نحاربه . .

ومديده للمأمور فأعطاه يده فشد عليها ممتنا وهو يقول:

ـ أرجـو ـ بفضــلك ـ أن أعــود إلى قريتي مصونا، ولن أغادرها ما حييت.

# الرجل السعيد

استيقظ من نومه فوجد نفسه سعيدا. تساءل: ما هذا؟! . . لم يحظ بكلمة هي أدق وأصدق في التعبير عن حاله من «سعيد». وهي حال تعد غريبة بالقياس إلى الأحوال التي تنتابه عند الاستيقاظ من النوم. عادة ما يستيقظ مثقل الرأس من طول السهر في الجريدة، أو مرهق الأعصاب والمعدة لإفراط الأكل والشرب في حفلة ما، ودائما تنثال عليه هموم اليوم السابق وشواغل يومه الراهن فيستقبل الحياة في معاناة وتفكير ثم ينهض من فراشه وهو يشحذ همته لملاقاة المتاعب وتحدى المصاعب. أما اليوم فهو سعيد، مترع بالسعادة، وبحال لا تقبل المناقشة، ولا تمتحن ذكاءه للبحث لها عن صفة مناسبة، فهي من القوة والوضوح بحيث تفرض ذاتها فرضا على الحواس والعقل جميعا. أجل إنه سعيد، وإذا لم تكن هذه هي السعادة فماذا تكون؟ . . إنه يشعر بأن أعضاءه كاملة البناء كاملة الوظيفة ، وأنها تعمل بانسجام رائع مع بعضها البعض ومع الدنيا حوله، وهو يجد في باطنه قوة لا تحد وطاقة لا تفني وقدرة على تحقيق أي شيء بثقة وإتقان وفوز مبين، وقلبه يفيض بالحب للناس والحيوان والأشياء وبإحساس غامر بالتفاؤل والبشر، وكأنه لم يعد يحمل هما ـ أي هم ـ حيال الخوف والقلق والمرض والموت والمنافسة والرزق، وهناك ما هو أخطر من ذلك كله وما يتعذر تحليله في نفس الوقت، إنه إحساس متغلغل في كل خلية من خلايا جسده وروحه، يعزف لحن البهجة والرضى والطمأنينة والسلام، ويناغم في طربه البديع همسات الكون المضنون بها على غير السعداء.

ثمل بنشوته، تذوقها في تمهل وعجب، تساءل من أين وكيف جاءت، لا الماضى يفسرها ولا المستقبل يبررها. فمن أين وكيف جاءت؟!.. وحتى متى تبقى؟.. هل تصاحبه حتى الإفطار؟ هل تمهله حتى يذهب إلى الجريدة؟ ولكن مهلا، إنها حال لا تدوم، لأنها لا يمكن أن تدوم، ولو دامت لإنسان لانقلب ملاكا أو شيئا فوق ذلك،

فليمعن في تذوقها، في معايشتها، في تخزين رحيقها قبل أن تصبح ذكري لا سبيل إلى إثباتها أو حتى التأكد منها.

تناول إفطاره بشهية، لم يصرفه عنه شاغل ما، ونظر نحو عم بشير وهو يقوم على خدمته بوجه مشرق باسم حتى ساور الرجل شيء من القلق والتساؤل، فهو لا ينظر نحوه عادة إلا لإلقاء أمر أو استجواب وإن عامله في أغلب الأحوال معاملة لا بأس بها. وسأله:

ـ خبرني يا عم بشير، أأنا رجل سعيد؟

ارتبك الرجل. أدرك سر ارتباكه فهو يخاطبه ـ لأول مرة ـ كزميل أو صاحب. وشجعه على الخروج من ارتباكه فطالبه بالإجابة بإلحاح غير معهود حتى قال الرجل:

ـ سيدى سعيد بحمد الله و فضله.

ـ تعنى أننى يجب أن أكون سعيدا، فمن يشغل مركزى ويقيم فى مسكنى ويتمتع بصحتى يجب أن يكون سعيدا، هذا ما تود قوله، ولكن هل ترانى سعيدا حقا؟ وبإلحاح جديد منه أجاب الرجل:

ـ سيدي يجهد نفسه أكثر مما يحتمل البشر .

وتوقف كالمتردد فأشار إليه أن يأتي بما عنده فقال:

ـ ويغضب كثيرا، المناقشات الحامية التي تدور مع زوارك.

فقاطعه بضحكة عالية ثم سأله:

ـ وأنت . . أليس لديك هموم؟

ـ طبعا؟ . . لا يخلو الإنسان من هموم .

- تعنى أن السعادة الكاملة مطلب مستحيل؟

ـ هذا هو الغالب على حال الدنيا.

من أين له أن يتخيل سعادته العجيبة؟ هو أو سواه من البشر؟ . . إنها سعادة غريبة فريدة كأنها سر قد خص به وحده . وفي بهو الاجتماعات بالجريدة رأى منافسه الأول في هذه الدنيا جالسا يتصفح مجلة . الرجل سمع وقع قدميه ولكنه لم يرفع عينيه عن المجلة . لا شك أنه لمحه بطريقة ما ولذلك فهو يتجاهله محافظة على راحة باله . إن الخلاف يحتدم بينهما في الاجتماعات الدورية حتى يتطاير الشرر ويتبادلا أقسى الكلمات فلا تبقى إلا خطوة واحدة على التشابك . ومنذ أسبوع نجح منافسه في انتخابات النقابة وسقط هو ، باء بطعنة حادة سامة واسودت الدنيا في عينيه . ها هو يقترب من مجلسه فلا يستفزه منظره و لا تعكر ذكريات النضال صفوه . إنه يقترب بقلب خلى صاف . ثملا

بسعادته العجيبة، طافح النظرة بالتسامح والغفران، كأنما يقبل على إنسان آخر لم تقم بينهما عداوة قط، أو لعله يعد بصداقة جديدة. ولم يجد حرجا ألبتة وهو يحييه قائلا:

ـ صباح سعيد. .

رفع الرجل عينيه في دهشة، صمت لحظات قبل أن يفيق من دهشته، ثم ردَّ تحيته بإيجاز وكأنما لا يصدق أذنيه وعينيه. جلس على مقربة منه وهو يقول:

- الجو بديع اليوم . .

فقال الآخر بتحفظ:

ـ فعــــلا. .

ـ جو يقذف بالسعادة في القلوب.

تفحصه بإمعان وحذر ثم تمتم:

ـ يسرني أنك سعيد. .

فقال ضاحكا:

ـ فوق ما يتصور العقل.

فقال الرجل بلهجة مترددة بعض الشيء:

- أرجو ألا أعكر صفوك عند اجتماع مجلس الإدارة.

ـ كلا ألبتة، رأيي معروف ولكن لا بأس من أن يأخذ الأعضاء برأيك، لن يفسد ذلك على سعادتي!

قال الرجل باسما:

- لقد تغيرت كثيرا ما بين يوم وليلة .

- الحق أنى سعيد، فوق ما يتصور العقل.

سأله وهو يتفرس في وجهه بعناية:

- أراهن أن نجلك العزيز قد عدل عن فكرة الاقامة في كندا!

ضحك عاليا وقال:

-أبدا، أبدا يا عزيزى، مازال عند رأيه . .

ـ ولكن كان ذلك مصدر حزنك الأول.

- أجل، طالما رجوته أن يعود رحمة بوحدتى وخدمة لوطنه! . . ولكنه أخبرنى بأنه سيفتح مكتبا هندسيا مع شريك كندى، بل ودعانى إلى اللحاق به، فليعش حيث يطيب له المقام، وها أنا ـ كما ترى ـ سعيد . سعيد فوق ما يتصور العقل .

لم تخل نظرة الآخر من ارتياب ولكنه قال:

- ـ شجاعة نادرة المثال!
- ـ لا أدرى ما هي ولكني سعيد بكل معنى الكلمة .

أجل ها هي السعادة، دسمة متينة ذات وزن وكينونة. راسخة كقوة مطلقة، ذائعة كالهواء، عنيفة كالشعلة، ساحرة كالشذا، خارقة للطبيعة فلا يمكن أن تدوم.

وآنس الآخر إلى تودده فاستنام إليه وقال:

- الحق أنى أتصورك دائما إنسانا ذا طبيعة حادة عنيفة من شأنها أن تشقى صاحبها وأن يشقى بها.

ـ حقـــا؟

ـ لا تعرف المهادنة ولا الحلول الوسطى، تعمل بأعصابك، بنخاع عظامك، تقاتل قتالا عنيفا كأن أي مسألة إنما هي مسألة حياة أو موت!

ـ أجل، هذا حق.

تقبل النقد ببساطة ، بصدر واسع ، انداحت موجته في محيط من السعادة لا محدود . وغالب ضحكة صافية بريئة حتى غلبها أن يفسرها الآخر تفسيرا بعيدا عن بواعثها النقية . وتساءل :

- إذن فأنت ترى أنه لابد من قدر من التوازن أمام الأحداث؟
- طبعا، أذكر على سبيل المثال مناقشتك أول أمس عن العنصرية، إن رأينا فيها واحد، وهي جديرة بالحماس لحد الغضب، ولكن أى نوع من الغضب؟ . . غضب فكرى، غضب تجريدى لدرجة ما، وليس الغضب الذى يزلزل الأعصاب ويفسد الهضم ويهبط بنبض القلب، أليس كذلك؟

ـ واضح ومفهوم. .

وغالب ضحكة ثانية حتى غلبها. قلبه يأبى أن يفرط فى قطرة واحدة من أفراحه. العنصرية.. ڤيتنام.. أنجولا.. فلسطين.. أى مشكلة.. عجزت جميعا عن اقتحام حصن السعادة الذى يطوق قلبه.. لدى تذكر أى مشكلة يقهقه قلبه. إنه سعيد. سعادة جبارة. مستهينة بكل تعاسة، باسمة لأى شقاء، تريد أن تضحك، أن ترقص، أن تغنى، وأن توزع ضحكاتها ورقصاتها وأغنياتها على مشكلات العالم.

وضاق بحجرته في الجريدة ولم يجد أي رغبة في العمل، عاف مجرد التفكير في يومياته وعجز عجزا تاما عن استنزال عقله من معتصمه في ملكوت السعادة. وكيف يتأتى له أن يكتب عن غرق التروللي باس في النيل وهو ثمل بهذه السعادة المخيفة؟.. أجل إنها لمخيفة. كيف لا وهي بلا سبب، عنيفة لدرجة الإنهاك، مشلة للإرادة، فضلا

عن أنها مازالت تصاحبه نصف نهار دون أن تخف حدتها درجة واحدة؟! . . ترك الأوراق بيضاء وراح يقطع الحجرة ذهابا وإيابا وهو يضحك ويفرقع بأصابعه .

وساوره شيء من القلق. لم يغص القلق في أعماقه فيفسد سعادته ولكنه تردد فوق سطح العقل كفكرة مجردة. وخطر له أن يستحضر مآسي حياته ليمتحن أثرها في سعادته لعلها تعيده إلى توازنه أو تطمئنه في الأقل إلى أن سعادته قابلة للفتور. تذكر على سبيل المثال وفاة زوجه بكافة ظروفها وملابساتها فماذا حدث؟ . . تراءى له الحدث سلسلة من الحركات بلا معنى ولا تأثير كأنه حدث امرأة أخرى، زوج رجل آخر، وقع في عصر من عصور التاريخ البعيدة، بل لم يخل من أثر سار، داع للابتسام، بل مثير للضحك، وما تماك أن ضحك، وإذا به يقهقه ها . . ها . . ها . .

تكرر ذلك. وهو يتذكر أول خطاب جاءه من ابنه معلنا عن رغبته في الهجرة إلى كندا، أما عن قهقهاته وهو يستعرض مآسى العالم الدامية فلولا سمك جدران حجرته لجذبت إليه العاملين في الجريدة والسائرين في الطريق. لم ينل شيء من مناعة سعادته. لاطمته ذكريات الأحزان كما تلاطم أمواج البحر المستلقي فوق رمال الشاطئ تحت الشعاع الذهبي. وغادر الجريدة دون أن يكتب كلمة معتذرا في ذات الوقت من عدم حضور مجلس الإدارة. وهجع إلى فراشه ـ كالعادة ـ عقب الغداء ولكنه لم ينم. بل شعر أن النوم مستحيل. ليس ثمة ما يبشر باقترابه ولو على مهل. إنه يثوى في مقام مشتعل متوهج يضج باليقظة والأفراح، لابد له من هدوء وسكينة وشيء من فتور الحواس والأعضاء وأين منه ذلك؟ . . وضاق بالرقاد فغادر فراشه وراح يدندن وهو يتمشى في مسكنه. وقال لنفسه إنه إذا استمرت هذه الحال فسيتعذر عليه النوم كما تعذر عليه العمل أو الحزن. وأزف موعد ذهابه إلى النادي ولكنه رغب عن لقاء أي صاحب. ماذا يعني تبادل الرأى في الأمور العامة والهموم الشخصية؟! . . وكيف يكون الرأى فيه إذا وجدوه يضحك من كل كبيرة وصغيرة؟ . . ماذا يقولون؟ كيف يتصورون الأمر؟ كيف يفسرونه؟ كلا لا حاجة به إلى أحد، ولا رغبة عنده للسمر، عليه أن يخلو إلى نفسه، أن يمشى طويلا ليتخلص من بعض فائض حيويته، وأن يفكر في أمره، ماذا حل به، كيف دهمته هذه السعادة العجيبة، وحتى متى يحملها فوق كتفيه، وهل تصر طويلا على حرمانه من عمله وأصحابه ونومه وراحة باله؟! هل يستسلم لها، هل يترك نفسه للتيار يعبث به كيف شاء هواه؟ أو أن عليه أن يلتمس لنفسه مخرجا، بالفكر أو بالعمل أو بالمشورة؟

\* \* \*

وقد شعر بالحرج وهو يدعى إلى حجرة الكشف بعيادة صديقه الباطني الكبير . وشمله الطبيب بنظرة باسمة ثم قال :

ـ لا يبدو عليك أنك تشكو المرض؟!

فقال له بصوت متردد:

لقد جئتك لا لأنى مريض ولكن لأنني سعيد!

فنظر في أعماق عينيه متسائلا فقال مؤكدا:

- أجل، لأننى سعيد!

مضت فترة صمت مشحونة بالقلق من ناحية والتساؤل والدهشة من الناحية الأخرى.

ـ إحساس عجيب لا يمكن تعريفه بصفة أخرى ولكنه جد خطير.

ضحك الطبيب. مسه مداعبا وهو يقول:

ـ أتمنى أن يكون مرضك معديا.

ـ لا تأخذ الأمر ببساطة، إنه جد خطير كما قلت لك. وإليك قصته.

وقص عليه قصته مع السعادة منذ استيقاظه صباحا حتى اضطر إلى زيارته.

ـ ألم تتناول مخدرا أو شرابا أو عقارا من العقاقير المهدئة؟

ـ لا شيء من ذلك مطلقا.

ـ هل صادفك توفيق في مجال هام مثل العمل . . الحب . المال؟

ـ لا شــىء من ذلك مطلقــا، ولدى من أسباب الكدر أضعاف ما لدى من أسباب السرور.

ـ لعلك لو صبرت قليلا. .

ـ صبرت النهار كله، وأشفقت من قضاء الليل هائما.

كشف عليه بدقة وعناية وشمول. وقال له وهو يهز منكبيه في حيرة:

- إنك مثال جيد للصحة والعافية . .

ـ وإذن؟

ـ يمكن أن أنصحك بتناول منوم ولكن من الأفضل أن تستشير أخصائي أعصاب.

وتكرر الكشف في عيادة أخصائي الأعصاب بنفس الدقة والعناية والشمول. وقال له

## لطبيب:

- أعصابك سليمة وبحال تحسد عليه!

فسأله يرجاء:

- أليس لديك تفسير مقنع لحالى؟

فهز رأسه نفيا وقال:

- استشر طبيب غدد!

وتكرر الكشف لثالث مرة في عيادة أخصائي الغدد بنفس الدقة والعناية والشمول، وقال له الطبيب:

- أهنئك على سلامة غددك!

ضحك. اعتذر عن ضحكه وهو يضحك. وكان الضحك وسيلة للإعراب عن قلقه ويأسه.

غادر العيادة وهو يشعر بأنه وحيد، وحيد بين يدى سعادته الطاغية. بلا معين ولا مرشد ولا صديق. وإذا به يتذكر لافتة الطبيب التى يراها أحيانا من نافذة حجرته بالجريدة. أجل إنه لا يثق فى الأخصائيين النفسيين رغم اطلاعه على مضمون التحليل النفسى، فضلا عن ذلك فهو يعلم بأن حبالهم طويلة وأنهم يلزمون مرضاهم بنوع من المعاشرة الطويلة. وضحك وهو يتذكر طريقة العلاج بالتداعى الحر وما تكشف عنه فى النهاية من عقد. كان يضحك وقدماه تحملانه إلى العيادة النفسية. وتخيل الدكتور وهو يستمع إلى شكاته العجيبة من السعادة، هو الرجل الذى اعتاد الإصغاء إلى الشاكين من الهستيريا والفصام والقلق إلخ.

- الحق يا دكتور أنني جئتك لأنني سعيد!

ونظر في وجه الرجل ليمتحن أثر قوله فيه ولكنه رآه محافظا على هدوئه فباخ بعض الشيء وقال بلهجة اعتراف:

- إنى سعيد، فوق ما يتصور العقل.

وشرع في قص قصته ولكن الدكتور أوقفه بإشارة من يده وقال بهدوئه:

ـ سعادة غامرة، عجيبة، منهكة.

رمقه بذهول. هم بالكلام ولكن الطبيب سبقه إليه قائلا:

ـ سعادة جعلتك تضرب عن العمل، تزهد في الأصدقاء، تعاف النوم.

#### هتـف:

ـ أنت معجزة:

فتابع الرجل في هدوئه .

ـ وكلما ارتطمت بشقاء ما أغرقت في الضحك.

ـ سيدي . . أأنت مطلع على الغيب؟

ابتسم قائلا:

ـ كلا . لست من ذلك في شيء، ولكن عيادتي تستقبل حالة مماثلة مرة على الأقل كل أسبوع!

### فهتف:

- ـ أهو وباء؟
- ـ لم أقل ذلك، ولا أزعم أنه أمكن تحليل حـالة واحـدة حـتى الآن إلى عناصـرها الأولية.
  - ـ ولكنه مرض؟
  - جميع الحالات مازالت تحت العلاج.
  - ـ ولكنك مقتنع بلا شك أنها حالات غير طبيعية . . ؟
    - ـ هو فرض ضروري للعمل ليس إلا. .
      - فسأله بقلق:
  - ـ هل لاحظت على أحد منهم أن به خللا أو اضطرابا في . .
    - وأشار إلى رأسه بخوف، ولكن الدكتور قال بيقين:
  - كلا ألبتة. أؤكد لك أنهم جميعا عقلاء بكل معنى الكلمة.
    - وتفكر الدكتور مليا ثم قال:
    - ـ يلزمنا جلستان في الأسبوع؟

## فقال بتسليم:

- ليكــن . .
- ـ لا يصح أن تجزع أو أن تحزن. .

الجزع، الحزن؟! . . ابتسم، اتسعت ابتسامته لغير نهاية . أفلتت ضحكة منه، وما لبث أن أغرق في الضحك . صمم على ضبط نفسه ولكن مقاومته انهارت تماما فراح يقهقه عاليا .

## معجـــزة

سرى الدفء فى أطرافه. هفت النشوة إلى رأسه. لم يعد فى «ڤينيسيا» مقعد واحد خاليا. اختنق المكان بالأنفاس ودخان السجاير. تراءى له وجهه فى أكثر من مرآة. تتابعت على بصره وجوه النساء والرجال والشواء ودوارق النبيذ الأحمر والأبيض وأصص الأزهار وصحاف السلطة الخضراء. كان يجلس وحيدا، لعله الزبون الوحيد الذى انفرد بمائدته، وقد ولى الضجر، وانتعشت روحه، فتوثب فائض النشاط ينشد

أومأ إلى الجرسون فجاءه من فوره، فسأله:

ـ تعرف السيد محمد شيخون الماوردي؟

امتحن الرجل ذاكرته قليلا ثم أجاب:

- کلا یا سیدی.
- إنه من زبائن ڤينيسيا . .
- ـ لكنى لم أسمع باسمه من قبل.
  - ـ عجيبة!
  - ـ حضرتك على ميعاد معه؟
  - ـ كلا ولكنى أريده لأمر هام. .
    - ـ سأتحرى لك عنه .

ذهب الجرسون فغاب برهة ثم رجع ليؤكد له أن أحدا من موظفي المحل وعماله لا يعرفه، أو يسمع باسمه من قبل. شكره ثم تفرغ لدورق النبيذ الأحمر. راح يبتسم متسليا باستعراض الوجوه والتجسس على المداعبات اللطيفة الخفية.

وإذا بصوت يرتفع مناديا: السيد محمد شيخون الماوردى! . . التفت نحو مصدر الصوت التفاتة مذهول بالمفاجأة . رأى مدير المحل قابضا على سماعة التليفون وهو يكرر النداء، وعيناه تنتقلان من ناحية إلى أخرى . ولما لم يلب نداءه أحد أبلغ المتحدث في التليفون أن محمد شيخون الماوردى غير موجود ثم أرجع السماعة إلى موضعها .

ابتسم الجرسون إليه وقال:

ـ ثاني شخص يسأل عن نفس الرجل في ساعة واحدة!

دار رأس الرجل، لا من النبيذ هذه المرة، ولكن من النداء الذى لم يتوقعه، من سماعه اسم «محمد شيخون الماوردى». هو فى الحقيقة لا يعرف أحدا اسمه محمد شيخون الماوردى. ولا يتصور أن يتسمى شخص به، وعلى وجه اليقين لم يرد لقاءه كما زعم. أجل قد سأل عنه الجرسون، ولكنه أراد بذلك أن يسلى وحدته، أن يعبث عبثا بريئا، أن يفعل شيئا لا معنى له ولا ضرر منه، فقرر أن يسأل الجرسون عن شخص ما، بأى اسم يرد على ذهنه، فكان ذلك الاسم الغريب، الذى لوحظت الغرابة فى اختياره لتتم اللعبة. وكان محتملا أن يخترع اسما آخر، زيد زيدان زيدون مثلا، لذلك لم يدهش ألبته لجهل الجرسون به، ولكنه ذهل حقا عندما ارتفع النداء به، ذهل أن يسأل عنه سائل فى هذه الحانة التى لم تسمع به من قبل. كيف حدث هذا وكيف يكن تفسيره!

شرب قدحا جديدا وهو يفكر . إن معابثة جرسون ليست بمستحيلة ، ولا ضرر منها ، وهي تسلية لا بأس بها لمن ألحت عليه الوحدة أو ثقل عليه الضجر ، ولكن كيف تم تركيب اسم «محمد شيخون الماوردى»؟ . . محمد اسم شائع يرد على الذهن بسهولة ، أما شيخون فما أغربه من اسم ، أين ومتى سمعه؟ أتراه قرأه فى كتاب مدرسى قديم؟ ولكن كيف وثب إلى خاطره؟ . . ولماذا؟ وما يقال عنه يقال كذلك عن الماوردى ، وباجتماعهما - شيخون الماوردى - يبلغ عسر التركيب الملفق ذروته ، بل إعجازه ، فكيف يتبين بعد ذلك أنه اسم رجل حقيقى ، رجل يحتمل أنه زار الحانة لأول مرة هذا اليوم ، ثم يطلبه آخر بالتليفون فى نفس الساعة ، ألا يدعو ذلك للدهشة والتأمل؟!

وشرب قدحه الخامس فتطايرت نشوته مشعشعة بالدهشة والتأمل.

يجدر به منذ الساعة أن يولى نفسه ما تستحق من الاحترام، أن يتعجب ويتساءل، أن يحكى الحكاية لكل من هب ودب، أن يبحث لها عن تفسير. لقد وقعت معجزة، وقعت ببساطة بين جدران حانة، وسط السكارى والمعربدين من الجنسين. ولا سبيل للأسف لتنبيههم إلى مغزاها، أو التماس تصديقهم لها، فهم لم يفدوا إلى الحانة ليشهدوا معجزة أو ليتأملوا معناها، سيرمقونه -إذا حدثهم بها - باستغراب، ثم باستنكار، وسرعان ما يعرضون عنه راجعين إلى لهوهم، أو يتناولونه بألسنة الهزء والسخرية، ماذا يريد هذا الرجل؟ لعله لا يملك ثمن طعامه وشرابه، أو لعله نصاب أو مجنون. محمد شيخون الماوردى؟! أسمعتم عن المعجزة الجديدة؟ . . إنه لم يحى الميت ولم يسر إلى المسجد الأقصى ولكنه عرف بإلهام خارق أن محمد شيخون الماوردى اسم، وأنه اسم سكير من زبائن ڤينيسيا . أرأيتم؟! أعرفتم الآن في أي عصر نعيش؟!

ليكن من رأيهم ما يكون فلن ينال ذلك من قيمة المعجزة. ولو عن لأحد أن يعتبرها مصادفة لجاز أن نرجع المعجزات جميعا إلى مصادفات، لجاز أن نفسر الخلق بمصادفات لا معنى لها. ولكن ما عسى أن تكون هذه المعجزة؟.. نوع من قراءة الغيب؟.. موهبة غريبة بدأت تعلن عن نفسها؟.. لقد بلغ الأربعين دون أن يفطن إلى موهبته الحقيقية. قنع عمرا طويلا بأن يكون كاتب حسابات. بأن يقتصر عمله على التعليمات المالية، لا تحة المخازن والمشتريات، الأوامر المنفذة لها، الشطب والمراجعة والميزانية والحساب الختامى، على حين تستقر في أعماقه موهبة فذة. أن يحمل عبء أسرة، أن يرضى بالكفاف، أن يعتنق التقشف، على حين تستكن في قلبه جوهرة غالية. لندع السكارى جانبا فثمة آخرون سيدهشون لها حقا. ويقدرونها حق قدرها، هناك زوجه، وبعض الزملاء الطيبين، وهناك شيخ الزاوية التي يصلى بها من حين لآخر.

وأفرغ ثمالة الدورق في القدح الأخير فاقترب الجرسون من مائدته ليكون رهن إشارته. وما إن رآه حتى قال له بلا تدبير سابق:

ـ تعرف زيد زيدان زيدون؟

فأجاب الرجل وهو يرمقه بدهشة:

- ـ كلا يا سيدى، أهو أيضا من زبائن المحل؟
  - ـ أجل .
  - ـ حضرتك على ميعاد معه؟
  - كلا ولكني أريده لأمر هام أيضا.

وغاب الرجل برهة ثم رجع ليؤكد له أن أحدا من موظفى المحل أو عماله لا يعرفه، أو يسمع باسمه من قبل. شعر ـ بعد فوات الأوان ـ أنه تسرع بلا حكمة. ما كان ينبغى أن يتحدى موهبته الوليدة على هذا النحو. من يتصور أن تقع معجزتان في ساعة واحدة وفي حانة واحدة؟! . . وإذا فشلت التجربة الثانية كما هو متوقع فهل ينال فشلها من مغزى التجربة الأولى؟! . . كلا، مهما يكن من أمر فلن يسمح .

ورأى الجرسون مقبلا نحوه، فلما بلغ مجلسه قال له:

ـ تليفون يطلبك.

تساءل بدهشة:

ـ لا أحد يعرفني هنا، ولا أنت نفسك، فكيف عرفت أنني الشخص المطلوب؟

- اتصل صاحب حضرتك بالمدير و . .

قاطعه متسائلا:

ـ أي صاحب تعني؟

- السيد زيد زيدان زيدون!

زلزلته هزة عنيفة فغض بصره ليخفي عينيه عن الجرسون. وتابع الرجل قائلا:

- اتصل بالمدير ، عرفه بنفسه ، وسأله هل يوجد في الحانة أحد يسأل عنه؟

لم يجد بدا من الانتقال إلى التليفون وهو يتخبط في ذهوله وارتباكه:

- آلــو . .
- أنا زيد زيدان زيدون . . من حضرتك؟
  - إنى قادم إليك في الحال وشكرا.

هكذا أنهى المكالمة بلباقة دون أن يفطن أحد إلى ما دار فيها. وقرر أن يغادر المكان فورا تفاديا من وقوع مضاعفات جديدة. غادره وهو يترنح من الذهول والوجل والفرح.

لم يكن له من حديث فيما تلا ذلك من أيام إلا محمد شيخون الماوردى وزيد زيدان زيدون. قال البعض إنها مصادفة. مصادفة خارقة ولا شيء وراء ذلك، وما أكثر المصادفات الخارقة في دنيانا، ألا تذكر كيف تزوج رئيس القلم؟ ألا تذكر كيف قتل جارك في ليلة العيد؟ ألا تذكر كيف تولى وزير وزارة العدل لانطباق اسمه على اسم آخر كان

هو المقصود بالوزارة؟! . . وقال آخرون إنها ظاهرة عجيبة حقا ولكن يمكن إخضاعها للتفسير الطبيعي، فالأسماء الغريبة مأخوذة من مخزون الذكريات البعيدة، وغير مستحيل أن الرجلين كانا يجلسان على مقربة منك، وأن اسميهما لاطما وعيك رغم انشغالك طوال الوقت بدورق النبيذ فلما أغراك العبث بتلفيق اسمين وجدتهما طافيين على سطح شعورك أو عالقين بمسمعك، ولا غرابة بعد ذلك في دعوات التليفون فهي مما تقع كل يوم في المقاهى والحانات!

إذن فهي إما أن تكون مصادفة خارقة جدا وإما أن تكون ظاهرة طبيعية جدا.

ـ لا هذا ولا ذاك أرضاه.

إنه يطمح إلى تفسير جديد يواكب انفعاله المحلق فوق الطبيعة، تفسير خليق بأن يرفعه درجات، بأن يغير وجه حياته، بأن ينتشله من هموم الحياة ومازقها. ومن حسن الحظ أن كان لشيخ الزاوية رأى آخر. هو وحده الذى استعاده الحكاية مرات. وقرب منه وجهه وهو ينظر في أعماق عينيه وقال:

أتريد رأيي بالحق والصدق! . . أنت فيك شيء لله!

وامتحن أثر قوله في وجهه ثم تابع:

ـ لا أعجب لذلك فأنت رجل طيب، ولا تفوتك صلاة الجمعة.

وتفكر الشيخ قليلا ثم قال:

ـ ولكن أين اكتشفت الموهبة؟ في حانة! ألا تدرى ماذا يعني هذا؟

ـ كنت أتناول عشائي ليس إلا. .

ـ ولو، إنه امتحان وتحذير. .

فسلم برأيه حتى لا يشتت تيار أفكاره. فتابع الرجل:

ـ وهناك معنى لا يجوز أن يخفى عليك؟

ـ ما هو يا ترى؟

ـ إن من يوهب كنزا فعليه أن يستثمره لخير الناس ولخيره.

وتركه الشيخ لنفسه. روى له بعض سير الأولياء، ونوه ببعض الكتب ثم تركه لنفسه. وقرر هو أن يبدأ بالمعرفة فراح يطالع الكتب المأثورة. كلفه ذلك مالا ولم يكن يملك فائضا منه، ومشقة في الاستيعاب ولم يكن من المدربين على القراءة العسيرة. ومن بادئ الأمر لم يلق من زوجه تشجيعا. الحادثة عجيبة حقا قالت ولكنها لا تعنى أكثر من ذلك. مثلها كمثل العجائب الكثيرة التى تقع بين كل مطلع شمس وغروبها. ما كان يجوز أن يجعل منها نادرة في كل مجلس، ألا يخشى أن يصير هو في النهاية المجالس نادرة؟ وما

كان يجوز أن يجعلها شغله الشاغل، أن يقبع بسببها في حجرته ليقرأ ويقرأ. مهملا واجباته الحقيقية في هذه الحياة. وضرب كفا بكف وهو يقول: هذا هو منطق المرأة! وهل كان ينتظر رأى أفضل من امرأة؟! وفضلا عن ذلك كله فإن قسوة المعيشة قد أفسدت تفكيرها وألصقتها بتوافه الأرض.

ولكنه عرف سبيله ولن توقفه قوة. هناك أمل، عند الأفق، وراء حياته الذابلة التافهة الجدباء، أمل يعده بالقوة والنور والامتياز، سيتحول الرجل المسكين إلى شخص نوراني بالهريأتي بالمعجزات وسوف يوارى بعد عمر طويل في ضريح مبارك.

وازدادت معلوماته يوما بعد يوم ولكنه كان يدرك أن جوهر المسألة لا ينهض على العلم، وإنما على قطع طريق طويلة، خطوة خطوة، مقاما فمقاما، وحالا بعد حال. أين يجد الصبر؟ كيف يسعفه الوقت؟ ومن أين له بالقوة والعزم؟ ولكن هل ينسى أن المعجزة قد وقعت في «ڤينيسيا» بلا مقدمات ولا تمهيد، بلا معرفة ولا ثقافة، وبلا أدنى فكرة عن الطريق ومشاقه؟! حدث ذلك فعلا، بعد عمر طويل من الخمول واليأس، حدث أن تجلت موهبته فجأة في حانة وهو يشرب النبيذ الأحمر!.. وإذن فما عليه إلا أن يتابع قراءاته وتأمله. وأن ينتظر بعد ذلك المعجزات، وهي آتية لا ريب فيها. وكان عجيبا أن يرتفع صوت زوجه مرة أخرى لينعى عليه كفه عن العمل على الآلة الكاتبة في غير الأوقات الرسمية لزيادة دخله، ها هي تفكر في الآلة الكاتبة وما تدره من قروش في اليوم غافلة عن همومه الحقيقية، جاهلة بالحقائق الجدية في هذه الحياة. ها هي تنعى عليه مضاعفات الفقر التي اجتاحتهم. إنه يلقى نعيها بالصمت والصبر الجديرين به. تاركا الفصل في القضية للزمن وحده. ستصبح ذات يوم فإذا بها زوجة لولي من أولياء الله الفصل في القضية للزمن وحده. ستصبح ذات يوم فإذا بها زوجة لولي من أولياء الله وطال به عهد القراءة والتأمل حتى اقتنع بأنه آن له أن يجرب موهبته.

مضى إلى أقرب مقهى من داره متوكلا على الله. سأل الجرسون عن اسم شخص وهمى كما اتفق له النطق به. نفى الرجل معرفته به كما توقع. جلس ينتظر من التليفون أن يخف لنجدته. انتظر حتى ميعاد التشطيب ولكن دون ثمرة.

وتنقل من مقهى إلى مقهى. وخطر له أن المعجزة ربما لا تريد أن تتحقق إلا فى حانة فراح يطوف بالحانات ولكن بلا جدوى. لم يستسلم لليأس وإن شقى بتجاربه وهصرت التعاسة قلبه. وأخيرا قادته قدماه إلى حانة «ڤينيسيا» وكان طيلة الوقت يدور حولها ولا يقترب منها خوفا من إجراء تجاربه فيها إذ خيل إليه أن الفشل فى ڤينيسيا إنما يعنى فشلا نهائيا يسد أبواب الأمل. طلب دورق نبيذ أحمر، لا ليسكر، ولكن مجاراة لتقاليد

المحل. ومضى يتساءل عما يجدر به فعله. وفيما هو في حيرته إذ خطر له أن أحد الزبائن سيسقط عن مجلسه ميتا! أتكون هذه هي المعجزة المنتظرة؟!.. لقد وردت على ذهنه من تلقاء نفسها، وهي ليست باسمة ولا خيرة، ولكنها ستكون معجزة بلا ريب، ولعلها تخفى في طياتها خيرا غير منظور ولا ملموس. ومضى يجول ببصره بين الوجوه الضاحكة متسائلا عن صاحب الوجه الذي ستتحقق ولايته على يديه. وفيما هو يجول ببصره إذ لمح شخصا وهو ينفصل عن مجموعة معربدة ليستقر إلى مائدة خالية إلى جانبه. جذب سلوكه انتباهه فغلب على ظنه أنه الشخص الموعود. نظر نحوه فرآه يرنو إليه بعينين باسمتين، بسمة لا تخلو من قحة، فتوقع أن يمازحه على طريقة السكارى. كلما نظر نحوه طالعته ابتسامته الجريئة فسرعان ما يتحول عنه. ولاحظ إلى ذلك أن أصحابه المعربدين يسترقون النظر إليه -إليهما على الأصح - كأنهم يتابعون مشهدا مثيرا أو يتوقعون حدثا يتخذون منه زادا لعربدتهم. تولاه شيء من القلق فصمم على تجاهله يتوقعون حدثا يتخذون منه زادا لعربدتهم. تولاه شيء من القلق فصمم على تجاهله ومضى يجول ببصره بين الوجوه. وإذا بالآخر يهمس له متسائلا:

ـ لم لا تشرب؟

ها هو يبدأ لعبته. ليكن على حذر منه. وتجاهله تماما فعاد الآخر يقول:

ـ كان ينبغى أن نكون أصدقاء منذ زمن بعيد!

إنه يستدرجه ليثب من فوقه إلى عربدته فليصر على تجاهله.

- إننى أتذكرك جيدا، كنت تجلس في نفس المكان.

عم يتحدث السكران؟ . لو في المكان مقعد خال لانتقل إليه .

ـ كنت ليلتها تشرب وتبتسم، وكنت وحيدا، أنت دائما وحيد.

ترى هل شهد ليلة المعجزة؟! وأخذ يهتم به على نحو جديد.

ـ كنت أجلس إلى جوارك بين عدد من الأصدقاء .

متى يسكت؟ متى يذهب؟ متى يوت؟

ـ وسمعتك تسأل الجرسون عن شخص اسمه . . اسمه ؟ !

نظر إليه بحركة مفاجئة لا إرادية وقد طفح بصره بالاهتمام.

- كان اسما غريبا ومضحكا كأنه اسم رجل من الجاهلية!

غلب على أمره فخرج من صمته متسائلا:

ـ محمد شيخون الماوردي؟

ـ عليك نور، محمد شيخون الماوردي.

حدجه باهتمام، متلهفا على مزيد، ولكن الآخر مد ساقيه ولاذ بالصمت.

خانه الصبر فسأله:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

- لا شيء . .

تحول عنه متظاهرا بعدم الاكتراث. لزم الآخر الصمت دقائق ثم قال:

ـ لا تتظاهر باللامبالاة .

ـ ليس الأمر بذي بال.

ـ بل إنك تود أن تعرف، بخصوص التليفون مثلا؟!

دق قلبه بعنف ولم يتمالك أن يسأله:

ـ ماذا عن التليفون؟

ضحك ضحكة قصيرة وقال:

ـ سمعتك تسأل الجرسون عن محمد شيخون الماوردى وهو يعتذر عن عدم معرفته، وقع الاسم من آذاننا ـ أنا وأصدق ائى ـ موقع الدهشة، كنا سكارى كما تعلم، حسن . . . من يكون شيخون هذا؟ وهل ثمة مطابقة بين اسمه وشخصه؟ عندك فكرة طبعا عن عبث السكارى، قررنا البحث عنه، بأى ثمن أردنا أن نرى صاحب الاسم العجيب .

هز رأسه يستحثه على الاستمرار فقال الآخر:

ـ مـا العـمل؟ تطوعت لتنفيذ فكرة لا بأس بهـا، وهي أن أتسلل إلى المقـهي المجـاور للحانة، هناك طلبت رقم ڤينيسـيا، ورجوت المدير أن يدعو إلى التليفون محمد شيخون الماوردي!

17

ندت عنه كزمجرة منطلقة بشظايا الحنجرة. ذهل الآخر فتساءل:

\_مالك؟!

ـ أنــت!

انقطع صوته مختنقا بشدة انفعاله:

-أستاذ، هل أخطأت؟ ماذا حل بك؟!

رماه بنظرة غاضبة كاسرة متحفزة قاتمة من اليأس. انتفخ وجهه، احتقن بدم أسود، برزت عروق الجبين نافرة وانعقدت كدمات زرقاء. أراد أن يتكلم، أن ينفجر صارخا، ولكن شفتيه انطبقتا كأنهما ألصقتا بالغراء. إنه يصارع قوة خفية، يدافع هجمة ضارية غير مرئية، يقاوم زحفا حانقا. وبسرعة مذهلة قبض على دورق النبيذ وقذفه به بأقصى

قوة فأصاب رأسه فوق الجبهة تحطم الدورق. سال النبيذ على وجهه وعنقه ممزوجا بالدم. صرخ الرجل ألما وغضبا. انقض عليه وهو يترنح يريد أن يقبض على عنقه، فتناول الآخر الشوكة وطعن بها عنقه بكل قوة يأسه. انكفأ فوق المائدة وهو يصرخ، ثم تهاوى على الأرض.

# المجنونة

ما أكثر المعارك في حارتنا. للسبب الخطير والتافه على السواء تنشب المعارك في حينا. ما من ساعة من نهار أو ساعة من ليل إلا وتتطاير شتمة أو سخرية أو طوبة، يتشاجران اثنان أو أكثر. يستوى في ذلك الصغار والكبار. والويل لنا إذا طالت معركة فاتسعت دائرتها وانضم إلى كل شخص فريق فانتشرت كالنار والتهمت الأرجاء. وإذا كانت المعارك لا تدوم أو لا يمكن أن تدوم فإن رواسبها لا تزول أبدا، ومضاعفاتها تستفحل يوما بعد يوم، حتى أمسى جونا مشحونا بالتربص والحذر والكراهية والخوف. جو سريع الاشتعال قابل في أى لحظة للانفجار، ربما لمجرد نكتة أو غمزة عين أو نحنحة.

من بين المعارك التي ابتلينا بها برزت معركة بروزا داميا لا ينسى. معركة غريبة فظيعة غامضة غطت على جميع ما سبقها أو لحق بها من معارك، فلذلك سميت بالمجنونة، وجرت في تاريخنا أسطورة من الأساطير.

فى ذات يوم اجتاحت الحارة معركة شاملة. اشترك فيها جميع من اتفق وجودهم على أرضها من عاملين وعاطلين. تضاربوا بادئ الأمر بالأيدى والأرجل والرءوس. وكلما جذبت إليها أحدا بدافع من حب الاستطلاع أو الاطمئنان على عزيز أو المصالحة بين متخاصمين، وجد نفسه بعد حين مشتركا فيها بطريقة أو بأخرى. واشتد القتال وتضخم، واستعمل وسائل جديدة كالطوب والكراسي والعصى والآلات الحادة. وقد استمرت حوالي الساعتين قبل أن يترامى نبؤها إلى القسم، ولما جاء رجال الأمن وجدوا أرض الحارة مغطاة بالقتلي والمحتضرين والمصابين إصابات قاتلة، وقد علا الصوات واحتدم اللطم. لم يسلم رجل واحد، وما من أسرة إلا وفقدت رجلا أو أكثر. وكان للخبر وقع شديد لدى الجهات المسئولة، وبمجرد نشره في صحف تلك الأيام مصحوبا ببعض الصور الدامية اهتز الرأى العام هزة عنيفة حزينة غاضبة. ووقف رجال الأمن حيارى. هل تقتصر مهمتهم على دفن الموتى؟!. ما السبب، من البادئ، من المسئول، ومن عسى أن يجيب بعد أن سوى الموت بين المعتدى والمعتدى عليه، وحتى متى ترتكب ومن عسى أن يجيب بعد أن سوى الموت بين المعتدى والمعتدى عليه، وحتى متى ترتكب هذه الفظائع بلا خوف أو اكتراث أو تقدير للعواقب؟!

- علينا أن نصل إلى الحقيقة مهما كلفنا الأمر.

ولكن أى جدوى تنتظر من وراء ذلك، وأى جديد هناك؟!.. ثمة عداوات قديمة وجديدة، ومنافسات على الفتونة، ولكن قد هلك الجميع بلا استثناء، لم يبق شخص واحد من الذين اشتركوا في المعركة، لم ينج إلا من كان يسعى وراء رزقه خارج الحارة، ولدى أوبتهم اكتشف كل أنه فقد ابنا أو أبا أو عما أو خالا.

- يمكننا أن نتصور كيف تبدأ المعارك وكيف تتسع، ولكن من المحرك الأول؟ . . من المسئول؟

### قالت امر أة:

ـ خرجت من بيتي لأرمى ماء الغسيل في الحارة فرأيت العجل يجرى وهو يحلف بأيمانه ودينه لينتقمن .

ينتقم ممن ولمن؟ . . لم تسمع أكثر من ذلك، عادت إلى حجرتها، وبعد وقت قصير ارتفعت ضجة كبيرة .

ـ نظرت من الشباك فرأيت عددا من الرجال لا يعد ولا يحصى، يضربون ويضربون ويسقطون!

- أرأيت العجل بينهم؟

ـ كان يقاتل والدماء تغطى وجهه وصدره.

ـ ومن الآخر الذي قاتله؟

ـ كان من المستحيل أن أعرف من مع من أو من ضد من.

حسن. محتمل أن تكون المعركة قد بدأت بالعجل، ومحتمل أن تكون بدأت قبل ذلك وأنه جرى لينتقم للجانب المعتدى عليه، ولكن من هو العجل؟!. هو دقاق طعمية، ومن رجال عجرمة، فهل ترجع المعركة إلى العداوة التقليدية بين رجال عجرمة ورجال المناديلي؟!.. ولكن شهد كثيرون بأن العلاقات بين عجرمة والمناديلي كانت تنعم بما يشبه الهدنة، وإن يكن من المستحيل التأكد من هذه النقطة بعد أن قتل العجل وعجرمة والمناديلي جميعا.

ـ إذن من هم الأشخاص الذين يخاطر العجل بروحه للانتقام لهم. . ؟

أجاب كثيرون:

ـ شقيقه حتحوت.

وتبين أنه كان بياع بطاطا وقد قتل أيضا في المعركة.

ـ فمن هم أعداؤه؟

ـ جميع رجال المناديلي وقد قتلوا عن آخرهم.

وسئل من ضحايا المعركة من استطاع أن يتكلم قبل أن يسكته الموت. قال أحدهم:

ـ رأيت صديقا في المعركة فانضممت إليه ولكني لم أعرف أسبابها .

وقال ثان:

ـ ظننت أن المعركة تدور بين عجرمة والمناديلي فانضممت إلى رجال المناديلي بطبيعة الحال.

وقال ثالث إنه اشترك في المعركة لأنه لا يستطيع أن يشهد معركة ويقاوم إغراء الاشتراك فيها.

وقال رابع إنه لمح بين المتعاركين غريما له في حب امرأة فهاجمه بلا تردد. وخامس قال إنه كان يغادر بيته فأصابته طوبة عمياء فراح يرمى بالطوب على غير هدى حتى أصابته سكين. وهكذا وهكذا حتى تبين أن شخصا هاجم آخر لا لشيء إلا أنه يتشاءم برؤية وجهه. وعلى كثرة ما قيل فإن التحقيق لم يفد منها شيئا ذا بال، ظل دور العجل محوطا بالغموض وظلت الأسباب الأولى للمعركة مجهولة.

ـ ألم ير أحدكم العجل وهو يقتل أحد ضحاياه أو عندما قتل؟

قالت امرأة:

ـ رأيت العجل وهو يقتل القللي .

وقالت أخرى:

ـ رأيت العجل وهو يقع قتيلا بيد دقلة .

إذن فالعجل قد قتل القللي، ودقلة قد قتل العجل. وليس عجيبا أن يقتل دقلة، وهو من رجال المناديلي ـ رجلا كالعجل من رجال عجرمة، ولكن لماذا قتل العجل القللي وكلاهما من رجال عجرمة؟!

وتحاور المحققون:

- إنه للغز!

ـ إنه للغز!

- أجل ولكن قد نجد في حله الأخير للمسألة . .

تركز اهتمام الباحثين على القللي، فدلت التحريات على وجود شقيق له على قيد الحياة يدعى الزين. وسئل الزين عن علاقة شقيقه القللي بالعجل فأجاب ببساطة:

ـ ثلاثتنا من رجال عجرمة وكنا أصدقاء.

- ألم تتغير علاقتهما في الأيام الأخيرة؟

- ـ كانا صديقين حتى اللحظة التي تركت فيها الحارة في صباح اليوم المشئوم!
  - ثم أدلى بما لديه من معلومات فقال:
- ـ خرجت في الصباح الباكر بعربتي لأبيع الفول، وعادة ما يذهب معى حتحوت شقيق العجل وهو بياع بطاطا، فنسرح معا أو نستريح من تجوالنا معا.
  - ـ متى علمت بالمعركة؟
- رجعت إلى الحارة ظهرا، كان كل شيء قد انتهى، ووجدت أخى والعجل وحتحوت بين القتلى.
  - ـ قلت إن حتحوت كان معك فكيف قتل في المعركة؟
  - ـ وقع له حادث اضطره إلى العودة مبكرا عن ميعاده.
    - ـ كيف كان ذلك؟
- من عاداتنا أنا وهو أن نتسلى في أوقات الفراغ بالمصارعة، تصارعنا كالعادة وإذا به يسقط مغمى عليه، رششت الماء على وجهه حتى أفاق، وعند ذاك اعترف لى بأنه مسطول وأنه يشعر بخور، فلذلك رجع إلى الحارة وهو لا يدرى أنه ذاهب إلى حتفه!
- مازال اللغز لغزا. لم قتل العجل القللي وهو صديقه وكلاهما ينتميان إلى فتونة واحدة؟
- هل كان هو الرجل الذي أقسم العجل لينتقمن منه أو أن القللي تصدى للدفاع عن الآخر الذي اندفع العجل للانتقام منه؟!
  - وتطوع للشهادة رجل ليس في الأصل من أهل الحارة ولكنه من زبائن العجل، قال:
- ـ ذهبت إلى دكان العجل لأدق طعمية فرأيته يغادرها مسرعا غاضبا وهو يهتف: «يقتلك المجرم! . . الويل له»!
- ها هى شهادة أخرى تؤكد شهادة المرأة الأولى وتضيف إليها تفاصيل جديدة. العجل تبعا لهذه الشهادة يريد أن ينتقم لشخص قد قتل. شخص قتل قبل أن تبدأ المعركة. ربما فى اليوم السابق لها، أو فى أثناء الليل. وتابع الشاهد المتطوع قائلا:
- ـ جلست أنتظر في الدكان دقائق ثم حدثني قلبي بأن أحداثا ستقع، وكنت أعرف كيف تشتعل النار في الحارة لأوهى الأسباب فذهبت مؤثرا السلامة.
  - ألم تر أحدا في الدكان؟
- رأيت غلاما في العاشرة يقف في مدخلها فسألته عن المكان الذي ذهب إليه العجل ولكنه تراجع كالخائف ثم جرى بسرعة حتى اختفى .

وعرض عليه جمع من غلمان الحارة ولكنه لم يتعرف على الغلام المعنى. واتجه البحث إلى معرفة القتيل الذي هب العجل للانتقام له. من كان ذلك الرجل؟ هل قتل أحد من أهل الحارة أو من أصدقاء العجل قبيل المعركة؟ . . كلا، لم يقتل أحد من هؤلاء قبيل المعركة سواء بساعات أو بأيام!

ـ أنظل ندور وندور حول أنفسنا دون أن نتقدم خطوة واحدة؟!

وإذا بالتحريات الدقيقة تقطع بأن المحور الذى دارت حوله المعركة كان فى الخرابة الواقعة لقاء مقلى القللى فى المقلى الواقعة لقاء مقلى القللى . وإذن فمن المحتمل أن العجل جرى إلى القللى فى المقلى ليعتدى عليه فنشبت معركة . واتسعت مندفعة نحو مجالها الطبيعى فى الخرابة . وإذن فلعل القللى هو الذى قتل الشخص الذى جاء العجل للانتقام له ، ولكن كيف يؤخذ بهذا الاستدلال ولم يثبت بعد مقتل أحد قبل المعركة؟!

ـ لعلنا نقترب من الحقيقة وما علينا إلا أن نعثر على الخيط الذي يجمع أشتاتها.

لقد علم العجل بأن القللى قتل، أو حرض على قتل شخص ما عزيز عليه، فغادر دكانه إلى المقلى لينتقم من قاتله. لم يجد المكان خاليا ولا القللى لقمة سائغة فتدخل كثيرون بينهما. بدأت معركة، اشترك فيها كثيرون لأسباب شتى، انجر إليها عن سوء نية أو سوء فهم رجال عجرمة والمناديلى، ثم سرعان ما اجتاحت الحارة كلها حتى أهلكت جميع من اشتركوا فيها. حدث ذلك كله انتقاما لمصرع شخص مجهول لم يثبت مصرعه حتى الآن؟!

وتحاور رجال الأمن:

ـ ولكن من الغلام الذي كان في دكان العجل؟

ـ لقد جيء بغلمان كثيرين فلم يتعرف الشاهد على أحد منهم.

ـ لعله غلام غريب عن الحارة؟

ـ ولعله الخيط الذي نبحث عنه؟

ـ ماذا كان يفعل في الدكان؟

ـ ولماذا جرى كالخائف؟!

وأكد تلك الظنون رجل من غير أهل الحارة ولكنه يبيع الكنافة في المنعطف الموصل إليها.

قال في شهادته:

- رأيت غــ لاما في العاشــرة يجـرى نحـو الحـارة وهــو يصيـح يا عم يا عجل. . حتحوت أخوك قتل!

انفجرت تلك الشهادة كالقنبلة. جمعوا غلمان الحارة وعرضوهم عليه ولكنه لم يتعرف على الغلام المقصود. ماذا يعنى قول الغلام؟ إن حتحوت شقيق العجل قد قتل حقا ولكن في المعركة. لقد جاء والمعركة مستعرة بشهادة شهود كثيرين. ثم رأى جثة أخيه العجل، ولما علم بأن قاتله هو دقلة حمل عليه حتى قتله ثم قتل بعد ذلك!

وسئل بياع الكنافة:

ـ أرأيت الغلام قبل المعركة أم في أثنائها؟

ـ قبل المعركة . .

ـ أتستطيع أن تعطينا فكرة عن الوقت الذي مضى بين رؤية الغلام وبدء المعركة؟

ـ حوالي ربع ساعة . .

وتحاور رجال الأمن.

ـ لا شك أن ذلك الغلام هو الذي أشعل الفتيل!

- بلى، جرى إلى العجل فأخبره بمقتل شقيقه!

ـ ولكن شقيقه كان في ذلك الوقت حيا يرزق!

ـ كيف ولم كذب الغلام؟!

ـ لعل شخصا حرضه على ذلك لغرض في نفسه؟

ـ ولكن أين اختفى؟

ـ لعله ليس من غلمان هذه الحارة . .

ـ ولا شك أنه نفس الغلام الذي رئى في دكان العجل.

طال التحقيق وتشعب ولكنه لم ينته إلى نتيجة مريحة أو مقنعة. وأخيرا قال المأمور لرجاله وقد أنهكهم البحث والتفكير:

ـ لقد راجعت التحقيق والتحريات فاقتنعت بأن الحقيقة أفلتت منا إلى الأبد ولكني أتخيل أنها ربما جرت على الوجه الآتي :

الزين (شقيق القللي) وحتحوت (شقيق العجل) سرحا معا كعادته ما كل يوم، وكعادتهما أيضا تصارعا في وقت الفراغ طلبا للترويح عن النفس، اجتمع حولهما نفر من الغلمان ليتفرجوا على المصارعة، سقط حتحوت مغمى عليه من أثر المخدر الذي تعاطاه، رآه الغلام المجهول فاعتقد أنه قتل في المصارعة، جرى إلى الحارة ليبلغ العجل، أخبره أن الزين قتل أخاه، صدق العجل الخبر دون أن يتثبت منه فوقع فريسة للغضب والجنون، غادر دكانه لينتقم لأخيه، ولما لم يكن له من سبيل إلى القاتل الذي حدس هربه فقد قصد إلى شقيقه القللي ليصب عليه انتقامه. تعارك الرجلان، انضم إلى كل رجال

من صحبه، ظن رجال عجرمة والمناديلي أنهم المدعوون للمعركة فرموا بأنفسهم فيها، ثم اشترك كثيرون لأسباب شخصية أو عرضية حتى شملت المعركة الحارة كلها، ثم كان ما كان من هلاك جميع من اشتركوا فيها!

دهش رجال المأمور وهم يصغون إليه، ومع أن تخيله لم يكن إلا فرضا إلا أنه جاء مقنعا ورابطا بين الحقائق المتناثرة، ويمكن على أساسه حل لغز المعركة.

ـ يا له من خيال صادق!

وإذن هلكت الحارة لغباء غلام!

ـ أو غباء رجل وهو الأرجع!

ـ بل هو غباء الحارة وهو الأصدق!

وجرى خبر المعركة مجرى الأمثال والأساطير. وركز الرواة على دور الغلام المجهول فيها لا لاطمئنانهم إلى حقيقته ولكن لطرافته قبل كل شيء. أما سرها فقد ضاع إلى الأبد، مخلفا وراءه ذكرى مغلفة بالسواد والأحزان.

# خمَّارة القط الأسود

كانوا يرددون أغنية جماعية عندما ظهر في الباب رجل غريب.

لم يكن بقى فى الخمارة كرسى واحد خاليا. وهى ـ الخمارة ـ عبارة عن حجرة مربعة تقوم فى أسفل عمارة عتيقة بالية. تضاء نهارا وليلا لقتامة جوها المدفون. وتطل على حارة خلفية بنافذة وحيدة من خلال قضبان حديدية . طليت جدرانها بلون أزرق فاتح يرشح رطوبة فى مواضع شتى على هيئة بقع غامقة . ويفتح بابها على ممشى ضيق طويل يمتد حتى الشارع ، وعلى جانب منه تصطف براميل النبيذ الجهنمى . زبائنها أسرة واحدة تتوزع فروعها على الموائد الخشبية العارية ، منهم من يرتبطون بأسباب الصداقة أو الزمالة ، وجميعهم يتآخون بوحدة المكان والمعاشرة الروحية ليلة بعد أخرى ، ويجمعهم جامع السمر والنبيذ الجهنمى .

كانوا يرددون أغنية جماعية عندما ظهر في الباب رجل غريب.

ليس بالنادر أن يتلقى أحدهم هذا السؤال:

ـ لماذا تفضل خمارة القط الأسود؟

النجمة اسمها الحقيقى، ولكنها تسمى اصطلاحا بخمارة القط الأسود، نسبة لقطها الأسود الضخم، معشوق صاحبها الرومى الأعجف المدبب وصديق الزبائن وتعويذتهم.

- أفضل خمارة القط الأسود لجوها العائلي الحميم، ولأنك بقرش أو بقرشين تستطيع أن تحلق بلا أجنحة.

يتنقل القط الأسود من مائدة إلى مائدة، وراء لباب الخبز وفتات الطعمية والسمك، يتلكأ عند الأقدام ويتمسح بالسيقان بدلال من بطرته النعمة، وصاحبه الرومي يعتمد الطاولة بمرفقيه رانيا للاشيء بنظرة ميتة، أما الجرسون العجوز فيدور بالنبيذ أو يملأ الأكواب الصغيرة المضلعة من صنابير البراميل.

ـ وهي أرحم خمارة بذوى الدخول الثابتة.

وتتبادل الملح والنوادر، وتتوادد النفوس ببث الشكايات، ويترنم صاحب الصوت السالك بأغنية، فيطفح المكان المدفون الرطب بالسعادة.

ـ لا بأس من أن ننسى ساعة من الزمان كثرة العيال وقلة المال.

ـ وأن ننسى الحر والذباب.

ـ وننسى أنه يوجد عالم خارج القضبان.

ـ وأن ننعم بملاطفة القط الأسود.

فى ساعات اللقاء تصفو نفوسهم، تفيض بالحب لكل شيء، يتحررون من التعصب والخوف، يتطهرون من أشباح المرض والكبر والموت، يتصورون فى صورة منشودة، يسبقون الزمن بقرون كاملة.

وكانوا يرددون أغنية جماعية عندما ظهر في الباب رجل غريب.

نظر الرجل الغريب في أرجاء المكان فلم يجد مائدة خالية ، اختفى عن الأنظار في الممشى حتى ظنوا أنه ذهب إلى الأبد، ولكنه رجع حاملا كرسيا من القش المجدول ـ كرسي الخواجا الرومي نفسه ـ ثم وضعه لصق الباب الضيق وجلس .

جاء متجهما وعاد متجهما ثم جلس متجهما. لم ينظر نحو أحد، تجلت في عينيه نظرة حادة صارمة ولكنها غائبة، لائذة بعالم بعيد مجهول، لا ترى أحدا بمن يملئون المكان الصغير. منظره في جملته قاتم وقوى ومخيف كأنه مصارع أو ملاكم أو رافع أثقال. وملابسه متوافقة تماما مع قتامته، ومؤكدة لها بالبلوڤر الأسود والبنطلون الرمادى الغامق والحذاء المطاط البني. لم يشرق في ذاك البناء المظلم إلا صلعة مربعة توجت رأسا كبيرا صلبا.

أطلق حضوره غير المنتظر شحنة كهربائية نفذت إلى أعماق الجالسين. سكت الغناء، انقبضت الأسارير، خمد الضحك، ترددت الأبصار بين التحديق فيه وبين استراق النظر إليه، ولكن ذلك لم يدم طويلا. أفاقوا من صدمة المفاجأة وهول المنظر. أبوا أن يسمحوا للغريب بإفساد سهرتهم. وتداعوا بإشارات فيما بينهم للإعراض عنه واستئناف لهوهم.

عادوا من جديد إلى السمر والمزاح والشراب، ولكنه في الحقيقة لم يغب عن وعيهم. لم ينجحوا في تجاهله تماما، وظل يثقل على أرواحهم كالضرس الملتهب. وصفق الرجل بقوة مزعجة فجاءه الجرسون العجوز وحمل إليه النبيذ الجهنمي، وسرعان ما أفرغه في جوفه، وألحق به آخر، ثم أمر بأربعة أكواب دفعة واحدة وراح يشرب كوبا في إثر كوب حتى أتى عليها، ثم جدد الطلب. عاودهم الإحساس بالرهبة والخوف، ماتت الضحكات على شفاههم، تراجعوا إلى الصمت والوجوم. أي رجل هذا! . . إن ما شربه من النبيذ الجهنمي يكفي لقتل فيل، وها هو يجلس كالحجر الصلد، لا يتأثر ولا ينفعل، ولا تنبسط له أسارير، أي رجل هذا!

واقترب القط الأسود منه مستطلعا، انتظر أن يرمى له بشىء، ولما لم يشعر له بوجود مضى يتمسح بساقه، ولكنه ضرب الأرض بقدمه فتقهقر القط، متعجبا ولا شك لهذه المعاملة التى لم يعامل بها من قبل. وحول الرومى رأسه نحو الحجرة بوجهه الميت، رمق الغريب مليا، ثم عاد ينظر إلى لا شىء. وخرج الغريب عن جموده. حرك رأسه بعنف يمنة ويسرة. عض على أسنانه. جعل يتحدث بصوت غير مسموع، مع نفسه أو مع شخص فى مخيلته. تهدد وتوعد وهو يحرك قبضته. استقرت فى صفحة وجهه أقبح صورة للغضب. استفحل الصمت والخوف.

وسمع صوته لأول مرة، صوت غليظ كالخوار، تردد بقوة وهو يقول:

ـ اللعنة . . الويل . .

وكور قبضته وتابع:

ـ ليأت الجبل . . وما وراء الجبل . .

وصمت مليا ثم عاد يقول بصوت انخفض درجة:

ـ هذه هي المسألة بكل بساطة وصراحة . .

اقتنعوا بأنه لم يعد للبقاء من معنى. قضى على السهرة بالفشل ولما تكد تبدأ. فليذهبوا في سلام. تم التفاهم فيما بينهم بالنظرات ثم تفشت فيهم حركة تأهب وقيام. عند ذاك تنبه إليهم لأول مرة. خرج من غيبوبته. نقل عينيه بينهم في تساؤل. أوقفهم بإشارة وهو سأل:

ـ من أنتـم؟

يا له من سؤال جدير بالتجاهل والاحتقار ولكن أحدا لم يفكر في تجاهله أو احتقاره . وأجاب أحدهم متشجعا بكهولته :

ـ نحن زبائن المحل من قديم . .

ـ متى جئتم؟

- ـ جئنا مع المساء. .
- ـ إذن كنتم هنا قبل حضورى؟
  - ۔نعہ،،

أشار إليهم أن يعودوا إلى مجالسهم، ثم قال بحزم صارم:

ـ لن يغادر المكان أحد.

لم يصدقوا آذانهم. عقدت الدهشة ألسنتهم. ولكن أحدا لم يجرؤ على الرد عليه بما يستحق. وقال الكهل بهدوء مناقض تماما لمشاعره:

ـ ولكننا نريد أن نذهب.

فرماهم بنظرة وعيد كالحجر وقال:

ليتقدم المفرط في عمره!

لم يوجد بينهم من يفرط في عمره. تبادلوا نظرات ذاهلة حائرة. وتساءل الكهل:

ـ ولكن ما وجه اعتراضك على ذهابنا؟

هز رأسه بقسوة ساخرة وقال:

ـ لا تحاولوا خداعي، لقد سمعتم كل شيء. .

قال الكهل بعجب:

- أؤكد لك أننا لم نسمع شيئا. .

فصاح بغضب:

ـ لا تحاولوا خداعي، لقد عرفتم الحكاية!

ـ لم نسمع شيئا ولم نعرف شيئا!

ـ كذابون مخادعون!

ـ يجب أن تصدقنا. .

- أصدق سكيرين معربدين؟!

- إنك تسب أناسا أبرياء وتهدر كرامتهم!

ـ ليتقدم منكم المفرط في عمره.

وضح لهم أن الموقف لا يعالج إلا بالقوة، وأنه لا قوة لديهم. واضطروا تحت تأثير نظراته المخيفة إلى الجلوس. رجعوا إلى مقاعدهم بغضب مكتوم ومهانة لم يجربوها من قبل. وسأله الكهل:

ـ وحتى متى نبقى هنا؟

- ـ حتى يجيء الوقت المناسب.
- ـ ومتى يجيء الوقت المناسب؟
  - ـ اقطع لسانك وانتظر .

مضى الوقت فى توتر وألم. اجتاحهم الكدر والنكد فطارت الخمر من رءوسهم. وحتى القط الأسود استشعر فى الجو رائحة معادية فوثب إلى حافة النافذة الوحيدة، ثم رقد عاقدا ذراعيه تحت رأسه وأغمض عينيه طارحا ذيله بين القضبان. وألحت عليهم أسئلة واحدة، من الرجل، أهو سكران؟ أهو مجنون؟ وما الحكاية التى يتهمهم بسماعها؟! وطيلة الوقت ظل الخمار الرومى ملازما لصمته الميت على حين قام الجرسون بخدمته وكأنما هو لا يرى ولا يسمع.

وجعل الرجل الغريب ينظر إليهم بسخرية وشماتة، ثم قال متوعدا.

- إن يقدم أحدكم على غدر فسأعاقبكم جميعا بلا رحمة.

تشجعوا بمعاودته الخطاب على الكلام فقال الكهل بصدق:

- أقسم لك، نقسم لك جميعا.

ولكنه قاطعه متسائلا:

- بم تقسم إن طالبتك بقسم؟

دب أمل طفيف في النفوس وقال الكهل بحرارة:

- ـ بما تشاء، بأولادنا، بالله العظيم!
- ـ لا قيمة لشيء عند زبائن خمارة حقيرة كهذه الخمارة!
- لسنا كما تظن، نحن آباء صادقون ومؤمنون مخلصون، ولا يمنع ذلك. . أو لعله بسبب ذلك تشتد حاجتنا إلى الترويح عن النفس المثقلة.

### فصاح بصوت مدو:

- ـ أوغاد أنذال، تحلمون ببناء القصور بلا جهد ولكن بالاستغلال الدنيء للحكاية!
  - ـ نقسم بالله العظيم بأننا ما علمنا بالحكاية و لا فكرة لنا عنها .
    - ـ من منكم بلا حكاية يا جبناء؟!
  - ـ إنك لم تتكلم، كانت شفتاك تتحركان، ولكن لم يصدر عنهما صوت!
    - ـ لا تحاول خداعي يا مخرف. .
    - ـ يجب أن تصدقنا وتتركنا لحالنا. .
- الويل لكم إذا تحركتم، الويل لكم إذا غدرتم، وإذا وقعت الواقعة فسوف أهشم رءوسكم وأقيم منها متاريس أسد بها الممشى . .

الرجل مخيف حقا، ولعله خائف أيضا، وسيضاعف ذلك من سوء المصير. وزحف اليأس إلى القلوب كموجة من البرد المميت. ولم يكف عن الشراب، رغم أنه لا يسكر ولا يفتر ولا يهمد. وها هو يعترض المنفذ الوحيد للمكان، قويا عنيفا فولاذي المبنى مثل قضبان النافذة.

راحوا يتبادلون النظرات بلا أمل، كلما لمحوا شبح ما وراء القضبان هفت أنفسهم إليه ولكن دون أن تند عنهم حركة ما، وحتى القط الأسود بدا أنه هجرهم تماما ومضى ينعم بالسبات. واشتد الحصر بأحدهم فتساءل في إشفاق:

- أذهب إلى المبولة؟

فهتف الغريب غاضبا:

ـ من قال لك إنى مرضعة!

فتأوه الكهل قائلا:

ـ هل كتب علينا أن نبقى هكذا حتى الصباح!

- أنتم سعداء إذا طلع الصباح عليكم. .

المناقشة عبث. الرجل مجنون أو مطارد أو كلاهما معا. وقد تكون وراءه حكاية وقد يكون وراءه حكاية وقد يكون وراءه لا شيء. وهم سجناء رغم كثرتهم. وإنه لقوى شديد وهم لا قوة لهم ولا عزم. ولكن ألا يوجد سبيل للمقاومة؟ المقاومة من أي نوع كان؟

عادوا يتبادلون النظرات وقد تجسد النكد في أعينهم وجرى الهمس تحت مستوى سمع الغريب:

- ـ أى داهية؟
  - ـ أى ذل؟
- أى خزى؟

وإذا بنظرة عين تشي بما يشبه الابتسامة، بل هي ابتسامة، ابتسامة حقا؟

- ـ لم لا، إنه لموقف مضحك.
  - ـ مضحك؟!
- ـ تأمله بحياد مؤقت تجده مهلكا من الضحك!
  - ـ حقــا؟
  - ـ أخشى أن أنفجر ضاحكا. .
  - وقال الكهل بصوت مسموع بعض الشيء:
- ـ تذكروا أننا مازلنا بعيدين عن ميعاد انصرافنا المعتاد.

- ـ ولكن لم تعد هناك سهرة؟
  - ـ لأننا أوقفناها بلا سبب.
    - ـ بلا سبب؟!
- أعنى بلا سبب يمنع من مواصلتها «الآن».
  - ـ وبأي روح نواصلها بعد ما كان؟
  - ـ لننس إلى حين الباب ولنر ما يكون.

لم يرحب بالاقتراح أحد ولم يرفضه أحد. وجاءت الأكواب الجهنمية. على مرأى من الرجل الغريب ولكنه لم يعبأ بهم. وأفرطوا في الشراب. دارت الرءوس. استخفتهم النشوة. انزاحت الهموم بسحر ساحر. أخذ الضحك يتعالى. رقصوا فوق مقاعدهم. تبادلوا القافية. وغنوا معا:

#### عيد الأنس هلت بشايره

وطيلة الوقت تجاهلوا الباب. نسوا وجوده نسيانا تاما. استيقظ القط الأسود وراح يتنقل من مائدة إلى مائدة ومن ساق إلى ساق. شربوا بنهم، طربوا بنهم، كأنما يستمتعون بآخر لياليهم في الخمارة.

وحدثت معجزة إذ تقهقر الحاضر حتى ذاب فى مد من النسيان، وتحللت الذاكرة فنفضت من خلاياها كل مكنوزها. لم يكن الواحد يعرف صاحبه. إنه لنبيذ جهنمى حقا، ولكن، أجل ولكن.

- ـ ولكن أين نحن؟
- ـ خبرني من نكون أخبرك أين نحن؟
  - ـ كان ثمة غناء؟
  - ـ أو كان بكاء على ما أذكر . .
- وكان ثمة حكاية . . ترى أي حكاية ؟
- ـ وهذا القط الأسود، هو شيء محسوس لا شك فيه.
  - أجل إنه الخيط الذي سيوصلنا إلى الحقيقة.
    - ـ ها نحن نقترب من الحقيقة.
    - كان هذا القط إلها على عهد أجدادنا.
- ـ وذات يوم جلس على باب زنزانة ثم أذاع سر الحكاية.
  - ـ وهدد بالويل .
  - ـ ولكن ما الحكاية؟

- كان في الأصل إلها ثم انسخط قطا. .
  - ولكن ما الحكاية؟
  - ـ كيف لقط أن يتكلم؟
  - ألم يفض إلينا بالحكاية؟
- ـ بلي، ولكنا ضيعنا الوقت في البكاء والغناء.
- ـ ها قد اكتملت الخيوط وتمهد الطريق لاقتناص الحقيقة.

وارتفع صوت الجرسون العجوز وهو ينهر شخصا ما مهددا ومتوعدا ويصيح به:

- اصح يا كسلان وإلا هشمت رأسك.

وأقبل رجل ضخم محنى الهامة من الانكسار. راح يرفع الأقداح والصحاف، وينظف الموائد، ويجمع النفايات من فوق الأرض. كان يعمل دون أن ينبس بكلمة أو ينظر إلى أحد، وقد غشيه حزن عميق واغرورقت عيناه بالدموع.

تابعوه برثاء وإشفاق، وسأله أحدهم:

ما الحكاية؟

ولكنه لم يلتفت إليه وتابع عمله صامتا حزينا مغرورق العينين:

وتساءل الكهل:

ـ متى وأين رأيت هذا الرجل؟!

ومضى الرجل نحو الممشى بملابسه القاتمة المكونة من بلوڤر أسود وبنطلون رمادى غامق وحذاء بني من المطاط، فعاد الكهل يتساءل:

ـ متى وأين رأيت هذا الرجل؟!

# زيـــارة

ملقاة على الفراش بلا حول. عاجزة تماما عن أى حركة جديدة عدا حركة الجفنين والعينين أو رفع اليد إلى مستوى الصدر من حين لآخر. وقد امتص المرض حيويتها ولحمها فلم يبق إلا جلد أصفر مشوب بزرقة وعظام بارزة تكاد تميزق الجلد عند المفاصل. وهى تنظر إلى لا شىء أو تغمض عينيها، وفى أحسن الأحوال لا ترى أبعد من جدران حجرتها.

نادت بصوت ضعیف رفیع کصوت طفل:

-عدلية..

ولكن عدلية لم تسمع. ستدعى أنها لم تسمع. وستجد عذرا في ضعف الصوت أو بعد المطبخ أو وش موقد الغاز. وهي لا تستطيع أن ترفع صوتها. ولا تستطيع أن تهدر مطالبها الصغيرة. ونادت مرة ثانية:

عدليسة . .

ستجبن كالعادة عن لومها. إنها واقعة تحت رحمتها. تحت رحمتها تماما. هي لا تألو أن تسترضيها بالأجرة المحترمة والكساء والغذاء إلا أنها تستأثر بتدبير شئون البيت فهي سيدته الحقيقية. وما الحيلة في ذلك؟ إذا قررت عدلية يوما التخلي عن خدمتها تركتها للضياع والموت. وهي تتجنب أن تثقل عليها أكثر مما تقتضيه الضرورة الملحة ولكن ما العمل ونداء الحياة لا يكف عن التردد حتى النفس الأخير.

واستجمعت قواها الخائرة ونادت للمرة الثالثة :

عدلية!

وتجمع الغضب بين عظام صدرها ولكنها لم تستسلم لطغيانه. عدلية على أى حال مرهقة بالعمل. إنها تكنس وتغسل وتطبخ. تتسوق وتستبضع. وتقوم من شخصها مقام اليدين والقدمين والحواس جميعا. وهي كل شيء لها فهي تطعمها وتسقيها وتنظفها، تجلسها وتنيمها وتريحها من جنب لجنب.

وارتفع صوتها قليلا متشكيا متباكيا وهي تنادى:

عدلية!

ترامى وقع أقدام ثقيلة، ثم ظهرت عدلية عند باب الحجرة بوجه جامد يحمل طابع تذمر ثابت، وتساءلت بنبرة لا تخلو من جفاء:

ـ تنادینی یا ستی؟

ـ بح صوتى وأنا أناديك يا عدلية . .

اقتربت من الفراش فقالت المرأة:

ـ سيجارة يا عدلية . .

تناولت عدلية علبة السجائر من فوق الترابيزة، أشعلت سيجارة، ثم وضعتها بين شفتي سيدتها وهي تقول:

- أنت تعلمين أن التدخين مضر بصحتك . .

وغادرت الحجرة..

إذا ضاقت بها يوما قضى عليها بالهلاك. لا أحد لها في الواقع سواها. أما عن أبناء وبنات إخوتها فمنذا الذي يهتم بالخالة عيون؟! إنها ملقاة منسية، تتعلق بأذيال الحياة

بخوف ويأس، وتتمنى الموت بلسانها. والقلب قبل أن يهتصره الداء قتله الحزن لفقد الابن الوحيد في مظاهرة دامية. من عجب أنها لا تفقه للسياسة معنى ولا يتحرك في نفسها لها ساكن ورغم ذلك فقد التهمت وحيدها. وتوفى الأب بعد استشهاد ابنه بعام واحد. وهاهى ذكريات الأحزان تختلط بأنات المرض ومخاوف الضياع.

فى العيد زارتها بثينة ابنة المرحومة أختها. ناظرة مدرسة ابتدائية، والوحيدة التى تتذكرها فى المواسم. وقد أهدتها باقة ورد وعلبة حلوى وجلست على كرسى على كثب من الفراش. دمعت عينا عيون وهى تقول:

ـ أشكرك يا بثينة ، كيف حالكم؟ كيف حال الجميع؟ كم أنى مشوقة لرؤيتكم ولكن لا يسأل عني أحد . .

اعتذرت بثينة بابتسامة وقالت:

- الدنيا شواغل يا خالتي . .
- ـ لا أحد لي غيركم، وحتى الأموات يجدون من يتذكرهم. .
  - ـ كم تردين على خاطرى يا خالتي ولكن الدنيا شواغل . .
    - ـ نسوني تماما يا بثينة . .

لاذت بثينة بالصمت فقالت عيون:

- إنى خالتهم، الوحيدة الباقية على قيد الحياة، ولو تركتني عدلية لمت جوعا فوق فراشي . .

وزفرت لوعة ثم قالت:

- ـ كنا ـ أنا وأمك وخالتك ـ أخوات سعيدات ، وكانت أياما سعيدة . .
  - رحمهما الله!
  - ـ كنت الصغرى ولم يكن يعجبني العجب!
    - ـ ربنا يشفيك يا خالتي.
- ـ يا له من دعاء لم يتحقق يا بثينة ، إني وحيدة مهجورة ، وقد وكلت عني أحد الجيران لتسلم معاشي .
  - وجففت دمعة بيدها النحيلة المعروقة الزرقاء وقالت:
  - ـ إنى خائفة يا بثينة، وأعمل ألف حساب لليوم الذي تذهب فيه عدلية. .
    - هيهات أن تجد بيتا كبيتك يا خالتي . .
    - ـ إن خدمتي الشخصية شاقة وغير سارة، لذلك لا يفارقني القلق. .
  - إنها في الواقع تهيمن على بيتك ومعاشك فكيف يهون علينا أن تهجرك . . ؟

ولكنني قلقة. دائما قلقة، لا يتخلى عنى الوسواس وخوفي منها لا يقل عن خوفي عليها. .

وسكنت بثينة إما لأنها لا تجد ما تقوله، وإما لأنها ملت تكرار الأكليشيهات، فقالت عيون:

ـ آسفة يا بثينــة، نفد رصيــدى من الكلام الطيب، ولكن لا يصح أن أضــايق أكثر من ذلك الإنسانة الوحيدة التي حافظت على الوفاء لي. .

وغيرت لهجتها من التشكي إلى الحياد أو الإشفاق ثم سألت:

ـ خبريني الآن عن العلاقة بينك وبين زوجك؟

فتنهدت بثينة وقالت بإيجاز:

ـ بين بين يا خالتي .

- كيف وأنت شابة ولا كل الشابات؟!

ثم مستدركة وابتسامة باهتة ترف على شفتيها الجافتين المتعضتين:

ـ أنت جميلة يا بثينة ، وكما قالوا فأنت أشبه نساء الأسرة بخالتك عندما كنت في سنك!

أحنت بثينة رأسها بالإيجاب وهي تبتسم أيضا.

ـ عندما كنت أسير في الطريق أو أطل من نافذة كانت الأعين تلتهمني التهاما!

فضحكت بثينة وهي ترنو إليها بعطف.

ـ وتقولين إن حالك مع زوجك بين بين! . . متى يشعر بنعمة الله التي نعمه بها؟!

ـ هكذا هي الدنيا يا خالتي . .

ـ دنيا لعينة يا بثينة .

ـ ولا أمان لها يا خالتي . .

ها هي عدلية قادمة بصينية الغداء. أجلستها مسندة ظهرها إلى وسادة ثم شرعت في إطعامها.

وأرادت هي أن تتودد إليها فقالت:

ـ طعامك لذيذيا عدلية . .

لم تبتسم ولم تشكر وكأنها لم تسمع، وكالعادة تبدد ثناء الضعيف في الهواء.

ـ مالك يا عدلية؟

أجابت بنبرة لم تخل من خشونة:

ـ أفكر في بنتي . .

- ـ ربنا يسعدها يا عدلية . .
- ـ ولكنها شقية مع الرجل. .
- ـ مهما يكن من أمره فهو لن يفرط في أم أبنائه السبعة . .
  - ـ إنك لا تعرفينه يا ستى.
  - ـ عليك دائما أن تعقليها وتصبريها!
    - ـ ولكن ما العمل إذا طلقها؟

أجل ما العمل؟ ما العمل لو جاءتها بابنتها وعيالها؟ لو أرادت ذلك ما وسعها هي الاعتراض. إنها تحت رحمتها تماما. سيضيق المسكن الصغير بهم وسينقلب سوقا. كيف تتحمل الضوضاء والشقاوة ومن أين لها أن تطعمهم وتكسوهم! تهديد جديد يا عيون. ترى كيف قال لك الشيخ طه وهو يباركك ليلة دخلتك: «العز قدامك والسعد خدامك». ولم كانت أمها مزهوة بها لحد الهوس؟ وقد بادء ها الحظ بزيجة سعيدة حقا. ومن قاض أصيل تزوجت. رآها ذات يوم مع والديها في بنوار بسينما كوزمو جراف. كانت زوجة مدللة وأما سعيدة. وكان يتأبط ذراعها إلى الأوبرا متباهيا بجمالها. وغازلها مرة أحد الباشوات فكادت تنشب معركة من أجلها. وقد انتهى ذلك التاريخ كله فوق هذا الفراش الكئيب وتحت رحمة هذه المرأة الصلبة التعيسة التي تأبى أن تجود عليها بابتسامة. ودق جرس الباب الخارجي فاختلج جفناها بلهفة. هل من زائر جديد؟

ـ من يا عدلية؟

- السباك يا ستى . .

السباك أيضا! دائما السباك. لصنبور المطبخ جاء أو الحمام. أو لعلها الماسورة أو البالوعة. فلتتجنب السؤال فضلا عن الاستجواب اتقاء للعواقب الوخيمة. سيجىء السباك مرة ثانية وثالثة ورابعة كلما طاب له المجىء أو دعته الخنزيرة!

وأغلقت عدلية باب حجرتها كيلا تقع عيناه عليها! من قديم والشكوك تساورها ولكن ما الحيلة؟ هكذا تقع الحوادث في مسكنها الصغير . خارج الباب المغلق ، الذي يغلق بلا إذنها أو إرادتها باسم حمايتها ، وهي لا حيلة لها ولا قوة ولا معين . ولو طمع الرجل في أكثر مما بين يديه ، لو ظن يوما أنها عقبة في سبيله ، لو خطر له أي خاطر شيطاني فمنذا يدفع عنها الأذي؟! أرهفت السمع وهي في غاية من الكدر ، وغلى الدم في عروقها ، لا شك أن وحيدها الفقيد قد عاني انفعالا كانفعالها هذا هو الذي دفعه إلى الموقف الذي أودى بعمره اليافع ، ولكنها نصف ميتة وطريحة الفراش .

وفتحت عدلية الباب وهي تقول:

<sup>.</sup> ذهـب. .

ألم يستغرق من الوقت أكثر مما يتصور العقل! وسألتها دون أن تشير إلى ذلك:

ـ ماذا فعل؟

ـ ماسورة الحوض. .

غلبت الغيظ حتى غلبته ثم قالت:

ـ ولكن ماسورة الحوض. .

فقاطعتها بحدة:

- إنها قديمة وبحاجة إلى إصلاح متواصل!

لن تنتهى حاجتها إلى الإصلاح، ولو استبدلت بها أخرى جديدة، سيوجد دائما ما يستدعى حضوره فى أسبوع لأسبوع. فليأت كلما شاء هواه أو شاء هواها وليقنع بذلك. على أى حال فعدلية بمثابة يديها وقدميها وحواسها جميعا. ومهمتها فى هذا البيت ليست بالمريحة ولا السهلة ولا السعيدة. وإلى ذلك كله فالشقاء لا يعفيها من ضريبته ولن يخلو رأسها من أسباب الأرق.

وذات يوم طرق الباب طارق غريب. وقالت عدلية لسيدتها:

ـ شيخ ضرير يا ستى يدعى أنك تعرفينه من قديم . .

وقبل أن تضيف كلمة جاء من الخارج صوت الغريب وهو يهتف:

- الشيخ طه الشريف يا ست عيون هانم!

ذلك الصوت، ذلك الاسم. فلتسعفها الذاكرة المحتضرة. . وتلقى قلبها رعشة ثم انساب من شغافه المهزوز فيض من الذكريات كدفقة نسيم عطرة فاجتاحها إحساس بالسعادة غامر:

ـ تعال يا شيخ طه . خذى بيده يا عدلية .

أقبل مقودا، يتحسس الأرض بطرف عصاه، قد انحسرت عمامته البالية عن جبين بارز، وغار جفناه في محجريهما. منحنى الظهر من الكبر، تطوق جبته الباهتة المنجردة الأطراف جسدا مهزولا. وقالت له عيون بعد أن اتخذ مجلسه:

ـ هاك يدي ممدودة يا شيخ طه ولكن لا تشد عليها فهي ضعيفة. .

صافحها برقة وحنان وهو يقول:

ـ سلامتك يا ست عيون!

- حمدا لله على سلامتك يا شيخ طه، متى رأيتك آخر مرة؟

هز رأسه يمنة ويسرة وقال:

ـيا له من عمر!

- تلك الأيام الحلوة يا شيخ طه.
- ـ ربنا يجعل أيامك كلها حلوة .
- ـ ولكن كيـف. . ؟ إنى طريحة الفراش، وحيدة تمـاما يا شيخ طه. .
  - فأشار إلى فوق وتمتم.
    - ـ عنده الرحمة.
  - ـ وكيف اهتديت إلى مسكنى؟
  - صادفني عم آدم بواب البيت القديم.

رنت بعينيها الكليلتين إلى أخاديد وجهه وهو يقتعد الكرسى كتمثال للفاقة. كم كان قويا ممتلئا أيام كان مقرئ البيت القديم. يزورهم كل صباح فيشرب القهوة ويقرأ ما تيسر من القرآن ويفتى أمها فيما تستفتيه فيه. وهو الذى قال لها ليلة دخلتها «العز قدامك والسعد خدامك». ومن حنايا الماضى تدفق شعور ودود أليف ممزوجا بالحنين والدمع. وإذا به يسلت من قدميه الحذاء المتهرئ فيتربع فوق الكرسى ثم يتلو:

﴿ وَالضُّحَىٰ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾

ولما شرب القهوة وخلت لهما الحجرة راحت تقول له:

ـ إنى وحيدة يا شيخ طه.

فقال كالمحتج:

- ـ لكن الله موجود يا عيون هانم .
  - ـ دائما قلقة وخائفة. .
  - ـ الله موجوديا ست عيون. .
- ـ ليتك تزورني بقدر ما تستطيع!
  - ـ هي أمنية الأماني عندي.
- ـ وكيف تسير الأمور يا شيخ طه؟
- ـ جـرت مـشـيئـة الله بأن يقطع الراديو أرزاقنا ولكن الله لا ينسى عـبـده، المهم ألا تستسلمي للحزن ولا لليأس. .
  - ـ إنه القلق، لا أحد لي إلا عدلية، وإذا تخلت عني. .
    - ـ لن يتخلى الله عنك.
    - ـ ولكنى وحيدة بكل معنى الكلمة.
      - فلوح بيده آسفا وقال:
        - يا للخسارة!

- ـ أأنا مخطئة يا شيخ يطه؟
- كلا ولكنك غير مؤمنة!
- ـ ولكنى مؤمنة ، لقد فقدت ابنى ، وزوجى في عامين متعاقبين ولكنى ما زلت مؤمنة . .
  - ـ لست مؤمنة يا عيون هاخم.
  - غلبها الكدر فلاذت بالصمت فعاد يقول:
  - ـ لا تغضبي، المؤمن حقا لا يعرف الخوف ولا القلق ولا اليأس قلبه. .
    - ـ إنى مؤمنة ولكني طريحة الفراش، وتحت رحمة عدلية. .
      - المؤمن لا يكون تحت رحمة أحد إلا ربه.
      - ما أسهل الكلام ولكن ما أصعب العمل.
      - فاهتز رأسه يمنة ويسرة وقال بصوت ينم عن النصر:
      - أجل. . ما أسهل الكلام ولكن ما أصعب العمل!
        - ـ لم أعد أفهم شيئا. .
        - ـ اسمحي لي بزيارتك كل يوم!
          - أستحلفك بالله أن تفعل.
    - ـ ولكن بغير الإيمان لن تجدى خيرا في عجوز ضرير مثلي. .
      - ترددت قليلا ثم قالت بجزع:
      - أخشى أن تضيق بك، أعنى عدلية؟
        - ـ ولكنني سأجيء . .
        - ـ وإذا. . وإذا. . هبها. .
    - ـ صدقيني سأزورك كل يوم وإذا لم يعجبها ذلك فلتنطح الجدار!
      - فتمتمت بإشفاق:
      - ـ اخفض صوتك يا شيخ طه فعلينا ألا نغضبها. .
    - ـ انســي يا ســت عيون أنك تحت رحمتها، أنت تحت رحمة الله وحده. .
- أجل. . أجل. . كلنا تحت رحمة الله وحده، ولكن تصور ما سيحيق بي لو غضبت مني!
  - ـ لن يصيبك إلا ما كتب الله لك.
  - ـ هذا حق يا شيخ طه ولكن تصور بالله وحدتي إذا هجرتني!

- ـ لن تهجرك يا ست عيون فهي تعتمد عليك أضعاف ما تعتمدين عليها!
  - إنى عاجزة أما هي فقوية ويمكن أن تعمل في أي بيت!
  - ـ يمكن أن تعمل في أي بيت ولكن كخادمة أما هنا فهي ربة البيت!
  - كلامك جميل ومعقول ولكن الحقيقة مرة جدا فأنا عاجزة تماما. .
    - فضرب الأرض بعصاه الغليظة وقال:
    - إن نصف عجزك راجع إلى اعتمادك الكلى عليها!
    - ـ ولكن مرضى حقيقة ، حقيقة واقعة بشهادة الأطباء .
- أنا لا أومن بالأمراض ولا بالأطباء ولكنى سأجاريك في أفكارك إلى حين، إذا هجرتك ياست عيون كما تتوهمين فسوف أجيئك بابنتي الكبرى المطلقة.
  - شع من عينيها الغائمتين نور طارئ وتساءلت بلهفة:
    - ـحقا؟!
    - ـ سأستغنى عنها من أجل خاطرك.
    - فشعرت بخجل من نفسها وقالت:
    - ـ ولكنك لا تستطيع العيش بمفردك!
      - فضحك لأول مرة وقال:
  - ـ عجوز ضرير فكيف يعيش بمفرده؟! طالما عشت بمفردي قبل طلاقها!
    - ـ لا أريد أن أثقل عليك.
    - إنما تثقلين على نفسك كان الله في عونك.
    - وساد الصمت مليا. صمت مشبع بالطمأنينة والسلام.
      - وتنحنح ثم راح يتلو:
      - ﴿ تَبَارِكَ الَّذِي بِيدِهِ الْمُلْكُ ﴾ .
    - وآن له أن يذهب فصافحها بحنان ثم ودعها وانصرف.
  - شعرت عيون بأنس لم تشعر به منذ دهر طويل. ونادت عدلية ثم قالت لها:
    - عدلية ، إذا جاء الشيخ طه فاستقبليه بلطف وإنسانية .
      - قطبت عدلية ساخطة وقالت بتأفف:
        - ـ لكنه رجل قذريا ستى!
    - ـ إنه مقرئ بيتنا القديم وقد ورثت صداقته عن أمى وأبى. .
      - لقد رأيت قملة على جبته يا ستى . .

فقالت بحنق:

ـ لا يهمني ذلك، إنه رجل مبارك. .

فقالت المرأة بنبرة وشت بوعيد:

ـ ولكنني لا تنقصني المتاعب. .

فقالت عيون بإلحاح:

ـ صبرك بالله، إنها رغبتي وأنتظر أن تحترميها!

ـ قلت إنني رأيت. .

فقاطعتها بتصميم:

ـ إنه رجل مبارك، وعليك أن تنفذى مشيئتى. .

تجهم وجه عدلية وهمت بالكلام ولكن بادرتها عيون بإصرار:

ـ عليك أن تنفذي مشيئتي دون مناقشة!

تراجع وجه عدلية إلى صورته العادية في دهشة أو ذهول ورمقتها بنظرة قلقة مستطلعة، ترامقا طويلا فلم تجفل عيون تحت نظرتها النافذة. وجدت نفسها تصر على التحديق أو التحدي. واستهانت بعجزها ومخاوفها وتمادت في التحدي. وارتعدت في باطنها ولكن بحمى النصر فتهيأ لها أنها تتعملق.

واختلج جفنا عدلية مليا ثم غضت البصر. وغادرت الحجرة وهي ترطن بكلام غير مفهوم. ولكن عيون طمحت إلى مزيد من الطمأنينة والثقة فنادتها مرة أخرى. وجاءت عدلية وهي تقول بتذمر وضيق:

ـ الأكل فوق النار . .

فسألتها بإصرار وتحد:

ـ خبريني عما ستفعلين إذا جاء الشيخ طه؟

حدجتها المرأة بنظرة متسائلة ثم سألت:

ـ من هو الشيخ طه؟

اجتاحها الغيظ فقالت:

ـ تعبثين بي يا عدلية!

ـ ماذا أغضبك؟ إنى أسألك من هو الشيخ طه؟

ـ ألا تعرفين من هو الشيخ طه؟

ـ ما سمعت باسمه من قبل!

فقالت وهي تجمع عزيمتها على نضال مرير:

- ألم ترى الشيخ الذي كان يجالسني منذ دقائق؟ ألم تقدمي له القهوة بنفسك؟

تفرست المرأة في وجهها بريبة وقلق وقالت:

ـ لم يدخل بيتنا اليوم أحد، لا شيخ و لا أفندي، عم تتحدثين؟

هتفت بغضب:

ـ عم أتحدث! ما شاء الله، أتبلغ بك القحة . .

- إنك ترعبينني، من هو الشيخ طه؟

ـ جننت أم تريدين أن تجنيني؟

قالت عدلية وهي تزداد قلقا:

ـ أقسم بالله، برأس بنتي، ما رأيت الشيخ طه ولا سمعت عنه. .

ارتفع صوت عيون كما لم يرتفع منذ سنوات وهتفت:

- تقسمين أيضا، إذن فأنت تتآمرين على عقلى، توهميننى بأننى أرى أشياء لا وجود لها، بأننى مجنونة، أهذا هو غرضك؟ أهذا هو تدبيرك الأخير لسد الطريق في وجه الصديق الوحيد؟!

اتسعت عينا عدلية من فزع، تهاوي صلفها فتبدد، وهتفت بصوت متهدج:

ـ اسم الله على عقلك يا ستى!

- اخرسى، أنا لا أخشاك. لست تحت رحمتك، سيزورنى كل يوم، هذه هى مشيئتى وعليك أن تنفذيها بلا مناقشة. إياك وأن تعترضي سبيله، سأقطع عيشك!

اصفر وجه عدلية وجحظت عيناها، وقالت بضراعة:

ـ لا ترهقي نفسك، ليهدأ خاطرك، سأنفذ مشيئتك على العين والرأس!

#### صاحت بها:

- كذابة، مجرمة، لصة، زانية، تحملتك سنين بلا ضرورة، لست في حاجة إلى وجهك المطين، وأنت بدوني لا تساوين مليما خردة، لا أريدك، اذهبي في داهية، في ستين داهية، بطرتك النعمة، لم تقنعي بامتلاك كل شيء في بيتي فعملت ليل نهار على إذلالي وتخويفي وتعذيبي، إني أطردك، لا تريني وجهك بعد اليوم، اذهبي، في ألف داهية، في ألف مليون داهية.

تراجعت عدلية خطوات، ركبها الذعر حتى زعزع جذور عقلها، استدارت وهي تتلفت، ثم اندفعت كريح هوجاء وهي تصرخ بأعلى صوتها. .

# حلـــم

شجرة طويلة عريضة من الألقاب والأوصاف ولكن بلا ثمرة. فهو عامل ميكانيكى بشركة الشرق للمعادن، وله من الأولاد سبعة، ولكن يوميته ثلاثون قرشا. وهو لا يطلق لحيته توفيرا لتكاليف حلقها فحسب ولكن لأنه أيضا من رجال الطريق، ومريدى الشيخ. عند انطواء نهار العناء يهرع إلى زاوية الكومى ويجلس بين يدى الشيخ، ما أنبله وما أطيبه ذلك البحر الذى يزخر بعلم الله. إنه يلقنه آداب الدنيا والدين. ولكن برجوعه آخر الليل إلى البدروم يجد في انتظاره المتاعب. هناك المرأة التي أحدها الدهر، أحداً لسانها وأطرافها ومزاجها.

- ـ طبعاً لا تعرف ما فعل الأولاد وما حصل؟
- ـ يا سيدى يا كـومى أكان الأولاد يكدرون صفاء روحك؟ لماذا لا يحـدث الشيخ عن الأولياء في بيوتهم! .
  - إنى أعطيك جميع ما أملك فلا تبقى معى إلا اللعنات.

ويجمح به الغضب فيزل اللسان وينحرف عن أدب الدنيا والدين ويتبدد جهاد الليل سدي .

وذات صباح وجد نفسه أمام المدير وجها لوجه في الجراچ الكبير، حياه بخير ما يجود به الولاء. وهتف بالدعاء له. وقال:

ـ يا سعادة المدير ، رأيت لك حلما يجب أن تسمعه .

لكنه لم يوله أي اهتمام ومضى في سبيله .

أى حلم رآه ذلك الأحمق!

لم يعد للأحلام معنى. لم يعد للطمأنينة مستقر. الشركة وحديقة الموز بالشرقية وعمارة الخازندار انقلبت تهما موروثة. وتبخر الطموح السياسي. أي حلم أيها السنى القذر! والشائعات تنتشر في الجو مخلفة وراءها ذيلا طويلا من القلق. أليس عجيبا بعد ذلك أن يقول له صديق إن الغد هو الأمل؟ أي أمل يا صاحبي! وقال له:

ـ لنكن واقعيين.

فقال صاحبه:

- الأمل واقعى أيضا.
- ـ إن كل شيء مهدد بالزوال.

- إنك متشائم.
- كلا ولكنى لا أدرى ماذا أفعل؟
  - ـ افعل ما يفعله المطارد.
    - وما ذاك؟
- ـ لا تعتمد كل الاعتماد على الحديقة أو العمارة أو الشركة. لابد من خزانة في البيت واحرص على الحلى والجواهر..
  - ـ وماذا عن جو القحة الذي يحاصرنا؟
    - ـ ضع أعصابك في ثلاجة!

تذكر السنى بحنق. الخبيث الذي يحترف الطيبة على حين تقدح عيناه شرا متأصلا. ثم يزعم أنه رأى له حلما! وإذا بصاحبه يقول:

ـ دعني أحدثك عن حلم رأيته ليلة أمس!

فضحك ضحكة عالية لم يفطن الآخر بطبيعة الحال إلى مغزاها أو سببها!

\* \* \*

أصبح يؤمن بأن المدير يتجنب النظر نحوه بإزدراء صامت كلما مر به في طريقه إلى السيارة. ولا شك أنه يضيق به ويلعن وجوده. وأفضى بهواجسه إلى زميله في الجراچ فقال الرجل:

ـ إنك تخلق أوهاما لا أساس لها، وأقسم لك أنه لم يدر بك قط.

وحمل نفسه على تصديق ذلك. أجل فإن العدم الكامل خير من أن يكون مثار سخطه. وأراد أن يعترف بمخاوفه للشيخ ولكنه وجد نفسه يقول:

ـ حلت بركتك بابني فهد فهو يتقدم نحو الشفاء.

#### فقال الشيخ:

ـ لـو أصـاب مـرضـه أحد أبناء الأغنياء لحشـد له الأطبـاء، فالله جل جـلاله مع الفقراء.

#### فساله:

- لماذا كان المؤمن مصابا؟

فأجاب بثقة وإيمان:

ـ ذلك إنه لا يرتضي عن الجنة بديلا.

إن جلسات الليل في الزاوية أو في منظرة البيت شفاء للقلوب الجريحة. وكلمات الشيخ أثمن من أشياء كثيرة يعدها أهل الدنيا سعادة وزينة. والجوزة التي يستعملها

الضالون لإشباع الأهواء تعتبر هنا بحق وعاء للنور والحكمة الإلهية. وما أجمل أن تكون محبوبا كالشيخ. أن يهبك الناس حتى أغنياءهم القلوب. لذلك تتهادى إليه العطايا الطيبات، وهو يقبلها بسماحة نفس، إكراما لهم، لا حرصا عليها أو ولعا بها. وقد سأله ذات يوم أخ في الطريقة:

ـ لم لا يعطينا مما أعطاه الله؟

فغضب وقال له:

ـ يا أخى. إنه يعطينا ما لا يقدر بمال. .

\* \* \*

قوانین یولیه. . قوانین یولیه. الکل یردد: قوانین یولیة. وجعل یذهب ویجیء وهو کالمجنون. وقالت له زوجه:

ـ الصحة أغلى من أي شيء!

- أتدركين حقا ما الخسارة التي حلت بنا؟

ـ نعم، لست غرة ولا جاهلة، ولكن مازال عندك الشركة والعمارة والحديقة . .

- والضرائب الجديدة؟

ـ الصحة وحدها هي التي لا تعوض!

وتأمل شحوب وجهها الذي يشهد بعكس ما ينطق به لسانها وتمتم:

ـ لا أحد يدرى أين يقف الطوفان . .

ـ ربنا موجود.

لم ينتبه إلى قولها إلا بعد مرور وقت. والحق قد أذهله. وكاد رغم الكرب يبتسم. وتخيل مرحها الطويل فشعر بأسى. وتمتم:

ـ ربنا موجود ولكن أهو معنا أم علينا؟

فقالت بقوة:

ـ ليس في أموالنا مليم حرام. .

حتى ذلك لم يعد يصدقه بلا تحفظ. الأصوات التى ترتفع كل يوم وتؤكد أننا شر لصوص سعوا فوق ظهر الأرض، ذكاؤنا خبث، اجتهادنا انتهازية، سعينا أنانية، ربحنا سرقة، وجودنا شر واستغلال. كيف يصدق! الوجوه تبتسم لا للتودد ولكن لتدارى الشماتة. وأحيانا يتسلل إليه صوت وهو يدخل السيارة «على الباغى تدور الدوائر». وإنه لشر أن يغضب أو أن يجادل، وشر منه أن يفكر في رد الاعتداء بمثله. البوليس الذي كان درعه أمسى مطارده. ومعبد القانون تتهاوى أركانه فوق رأسه، ولكن هل يسعه إلا أن يردد مع زوجه:

ـ ربنا موجود.

\* \* \*

قال للشيخ بصوت متهدج من الفرح:

ـ يا له من يوم!

فقال الشيخ بود:

- لنبدأ الدرس.

ـ ولكن النفس . . أعنى أنه يجب أن نتكلم .

ـ لندع الخلق للخالق ولنمض في طريقنا.

- الدنيا تتغيريا مولانا . . من كان يظن . .

ـ ألا تود أن تسمع شيئا عن سيدنا الخضر؟

ولكنه وجد عند زوجه أذنا تسمعه فقال لها:

ـ أخذوا أموال الأغنياء!

لم تفهمني الغبية وتساءلت:

ـ أليست هي رزق الله لهم؟

لوح بيده مغيظا فعادت تسأل:

ـ ماذا أعطوا للفقراء؟

لا تريد المرأة أن تشاركه فرحه. رأته مسرورا فصممت كالعادة على تكدير صفوه. وقد ترامى إليه نبأ عن حال المدير التى رئى بها وهو يستقل سيارته ولكن فاته أن يراه بنفسه. ولم يغب الرجل عن ذهنه طويلا. ووجد زميله يصخب بالحماس. ولما رآه أقبل عليه قائلا:

\_ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ . . ﴾

ـ ماذا تقول يا ابن والدى؟

ـ أقول: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾

وأوشك أن يسأله عما أعطوه للفقراء مرددا كلام زوجه ولكنه لم يجد من نفسه مشجعا. وسرعان ما انهلت من السماء قرارات التحسين. أجل يا ابن والدي إننا نخلق من جديد.

وقال له الشيخ:

- أصغ إلى. .

وأراد أن يصغى ولكنه كان مكتظا بالمشاعر، فقال له الشيخ:

- احذر الشماتة. .

فقال إنه لا يشمت بأحد ولا عدو له في الحقيقة ولكنه بدا رغم قوله كالثمل فقال الشيخ:

ـ إنك تتقهقر في الطريق. .

فأغمض عينيه ليحجب عن بصره الدنيا التي تثيره فقال الشيخ:

ـ استغفر الله. .

فقال متشكيا:

ـ لم أذنب يا مولاي، والمال والبنون؟

واعتدل استعدادا للاستماع ولكن الشيخ قال:

ـ ما أبعدك عن مجلسي.

\* \* \*

ذلك السنى لا أمر به حتى يصر على الترحيب بى بصوت كأصوات المنشدين! لا يختلف باطنه عن الآخرين ولكن له طريقته الشريرة الخاصة به. ولا يبعد أن يفاجئنى ذات يوم بحلم جديد. لم أشغل نفسى به كأنه المكروه الأوحد فى هذه الدنيا؟ إن أمراض الأحزان تزحف على أصحابنا وعلى أن أقاوم، ألا أبالى، وغير ذلك من الكلمات التى لم يعد لها أى معنى ألبتة. وزوجه تبالغ فى إعلان المرح وبخاصة فى النادى. جدران النادى تضج بالضحك كل ليلة، ضحك المجانين. ويقولون ـ رغم ذلك ـ إننا وقعنا فى شرك كبير مازال به متسع للحركة ولكنه قدَّ من صلب لا ينكسر ولا يلين. وإذا به يقع فى شرك آخر من صنع يده. أجل قرر أن يعشق الراقصة الألمانية بملهى الكونتنتال الليلى.

-كنا ومازلنا الأسياد!

فقال لها بتأثر:

- إنى أعشق حزنك كما أعشقك.

وهى حادة كالنصل ولكنها مستكنة فى غطاء حريرى. أما زوجه فقد تدهور بها الحال رغم المرح التمثيلي. وقد رثى لها ولكن حبها مضى سريعا نحو موت غير متوقع. وعندما أممت الشركة جرى كل شيء نحو الموت. وقالت زوجه إنه يجب

الإسراع ببيع الحديقة والعمارة. هذا رأى ولكن أين الشارى؟ وأين يضعون الأموال؟ وقال :

ـ خير ما نفعل ألا نفعل شيئا.

واستسلم بكليته إلى غرامه. وقال إن عناصر بيولوچية وفسيولوجية تتعاون على تحطيمه من الداخل فلا يجوز أن يقويها بتعاسة إرادية في سلوكه الخارجي.

وخطر السني على باله وهو يحلق ذقنه ذات صباح فغمغم:

ـ أي حلم يا فاجر!

\* \* \*

سأله الشيخ:

ـ أتصغى إلى حقا؟

فأجاب بارتباك وحياء:

ـ نعم يا مولاي . .

رمقه بأسف وقال:

- إنك لا تواظب على الحضور.

- الحسق. .

ـ شغلتك الدنيا. .

ـ أبدا، ولكنني أبحث عن شقة فوق سطح الأرض.

بدا الشيخ فاترا على غير عادة فتمنى الرجل ألا يكون انقطاع العطايا ـ نتيجة لتغير الظروف ـ وراء ذاك الفتور . وعاد الشيخ يقول :

ـ عـ لاوات ومشــاركة في الأرباح، ماذا تفعل بما منَّ الله به عليك من نعم؟

ـ ما يفعل العطشان إذا وجد فنجال ماء.

ـ ولكن الدنيا لم تشبع طالبا لها.

ما طلبت إلا الستر.

- لقد غرتك الحياة الدنيا.

ـ أبدا، والله شهيد.

ـ أقول لقد غرتك الحياة الدنيا .

وفصل بينهما الصمت مليا، ثم قال الرجل بحذر.

ـ هل من بأس في أن أرشح نفسي لمجلس الإدارة؟

- الإدارة!

ـ عمل نافع، وأنا رجل محبوب بين الزملاء.

ـ لا تسل أهل الطريق عن ذلك.

ـ قال رجل صادق إن الحياة في عبادة كما في الخلوة.

فغض الشيخ بصره وهو يقول:

ـ لم يبق إلا أن تحلق لحيتك.

وفرق الصمت بينهما.

\* \* \*

ـ بلوانا أخف إذا قيست ببلوى الآخرين.

فسأل صاحبه عما يعنى فقال باقتضاب:

- الحراسة، على سبيل المثال.

ـ لا يدري أحد شيئا عما يقع غدا.

وتبادلا نظرة طويلة ثم سأل صاحبه:

ـ ماذا جنينا؟

- التاريخ حافل بالأحداث الدامية .

- إنى أكاد أصدق أحيانا ما يقال عن إجرامنا!

فرنا إليه صاحبه بنظرة متسائلة فقال:

- إذا لم يكن ذلك كذلك فلم قد تخلى الله عنا؟

وغرق في الغرام حتى أذنيه. وتدهورت حال زوجه من سيىء إلى أسوأ. وقرأ ذات صباح اسم السنى بين أسماء الناجحين في انتخابات مجلس الإدارة فهتف بحنق شديد:

- صاحب الحلم الفاجر!

وأضرب عن قراءة الصحف.

وأثار دهشته صديق بمرحه المتزايد رغم ما حاق به من خسائر مذهلة. وقال له:

ـ إنك تمثل دورا غير لائق.

فضحك الرجل عاليا وقال:

ـ حق إن أموالنا قد اغتصبت ولكن هل أدلك على رجل قد تنازل عن أموال لا تعد ولا تحصى بلا اغتصاب؟

وراح يستعرض في ذاكرته الصحاب من الباشوات والبكوات ولكن صاحبه عاجله قائلا:

- اسمه الجوتاما بوذا!

وحثه على السماع بإشارة من غليونه وقال:

ـ سأقص عليك قصته العجيبة .

# رحلـــة

لفت الأنظار. كان لابد أن يلفت الأنظار. فرجل طاعن في السن وغاية في الوقار - إذا جلس في قهوة بلدية صغيرة مزدحمة بالصعاليك - لابد أن يلفت الأنظار. ولما زالت الدهشة عنهم رجعوا إلى ما كانوا فيه وراح هو ينظر إلى الحارة من مجلسه ويلامس قدح الشاى بأغلته دون أن يفكر في تناول رشفة منه. لاشك أنهم يظنونه ضيفا غريبا طارئا لا تفسير له، أو عابر سبيل أقعده التعب، كلا. . إنهم هم الضيوف، هم الطارئون، أما هو؟

أما هو فقد كان في ذلك الموضع مولده.

لقد زال البيت القديم تماما. وقامت القهوة في مقدم الخرابة التي حلت محله. قامت مكان مدخل البيت القديم ودهليزه، وتحت موضع حجرة الجلوس التي كانت حجرة جلوس منذ سبعين سنة. وقد جاء لأن شيئا ما نزع به إلى رؤية الحي القديم. وها هي الحارة لم تكد تتغير. كلا. لقد تغيرت كثيرا. فعند مدخلها ترتفع عمارة جديدة. كذلك مهدت أرضها بالبلاط. ودكاكين كثيرة فتحت مكان الأدوار التحتانية من البيوت القديمة. لذلك اجتاحتها ضوضاء غريبة بعد أن لم يكن يسمع بها إلا أصوات الغلمان وهم يلعبون ويغنون ويتشاجرون. لقد تغيرت كثيرا ولم يكن يبقي من ذكراها المستكنة في النفس إلا القليل.

شيء ما نزع به إلى زيارة الحي القديم، ورغم اختفاء بيته فها هي البيوت الأخرى، قديمة كما كانت وازدادت قدما، أما سكانها؟!

لا أهمية للسؤال عنهم. تمزقت العلاقات القديمة وفنيت صلاتها الحميمة، كابدت جميعها تجربة صارمة حادة كالموت تماما. إن الشيء الذي نزع به إلى هنا لا يبحث عن الآخرين. ومع ذلك، أو رغم ذلك، فإنه استوقف صاحب القهوة وهو يمر أمامه وسأله:

- ـ من يقيم في ذلك البيت؟
  - إنه وكالة خشب.
    - و ذلك البيت؟

- عائلات كثيرة ، كل عائلة في حجرة .
  - ـ وذلك البيت؟
  - آيل للسقوط.

كان لأرباب البيوت هيبة فإذا ظهر أحدهم في الحارة سكت ضجيج الغلمان وتوقفوا عن اللعب أو تواروا عن الأنظار .

- ـ وأين الكتَّاب والسبيل؟
  - ـ لا يوجد، ولم يوجد.
- ـ كان هناك كتاب وسبيل.
- ـ ولكنني أعمل هنا منذ عشرين سنة!

يحسب أنه ملك التاريخ! . . وابتسم ابتسامة لم يرتسم منها شيء على تجاعيد وجهه . وسأله الرجل باهتمام:

ـ أتريد شراء أرض؟

فشكره وهو يعجب لغرابة الفكرة. ولحظه وهو يبتعد بجانب عينه كما ينظر الأصيل إلى المحدث.

لماذا جاء؟ . . لقد مات كل شيء أو أصبح في حكم الميت . وبعدت الذكريات لدرجة لم يعد يخفق القلب لها إلا قليلا. ومن الخير له ألا يخفق فوق ما يحتمل. أما ذلك الغلام الذي مات في صباه فلأمر ما لم يمحه النسيان . حتى اسمه ـ رفاعة ـ لم ينعدم . كان يقيم في البيت الآيل للسقوط، ينتعل التراب توفيرا لصندله، وينظر إليك بعينين واسعتين ناعمتين لا أثر فيهما للعنف أو الشقاوة. ويلعب الحجلة في ذاك المكان تحت تلك النافذة، نافذة زينب. لتهنأ الذاكرة بما حفظت من أسماء قليلة نادرة ولكن مفعمة بحيوية خارقة تتحدى الزمن. لا يذكر من زينب إلا اسمها، ولا يذكر من جمالها إلا سحره الباقي كعبير مستحيل الوصف، وإنها كانت «كبيرة» بالقياس إلى أعمارهم وقتذاك، وكانت تطل من فرجة في شيش الشباك وهم يلعبون تحتها. وأحيانا تناديه بنبرة دسمة مؤثرة قد تغير مع الزمن حتى جهاز السمع الذي كان يطرب لها. عشقها في العاشرة كما يعشق ابن العاشرة. عندما يرفع عينيه ليرى وجهها! أجل عندما يرى وجهها. وقالت له ذات يوم: «يا ولد إنك تثير الغبار فاحتشم». يا له من يوم ذلك اليوم. ولعلها اليوم في الثمانين من العمر إن تكن معدودة من الأحياء، أو لعل النباتات والهواء امتصت مخلفاتها من النتروچين وثاني أكسيد الكربون والماء وبرادة الحديد والنحاس والكلسيوم، أجل لا يبعد أن يكون ـ هو ـ قد استنشق بعضها أو أكل البعض الآخر وهو لا يدري . كان يغسل وجهه ويمشط شعره ويتأنق في جلبابه وينتعل حذاءه المطاط ويبدى أقصى ما عنده من مهارة في اللعب والقفز والشقلبة تحت عينيها ليسرها ويحظى بإعجابها. ويتيه زهوا إذا سمع همسها الضاحك «أنت بهلوان يا ولد!» فيضاعف من الشطارة والعفرتة، وقد لازمته تلك العادة في أطوار متأخرة من حياته وهو يعرض لألاعيبه في ركاب الوزراء والحفلات العامة ليستجلب التصفيق الحاد من الجنسين. حدث ذلك تحت النافذة التي لم يعد يطل منها أحد والتي تنتظر بين حين وآخر من يقتلعها ويرمى بها فوق ركام من الأخشاب والحجارة والتراب. ولم تكن هذه القهوة قائمة ولم يكن أحد يحلم بها. وهي الآن خلية للشبان الذين لا يرحمون عجوزا من زعقاتهم وضحكاتهم وضرب الموائد الخشبية بقبضاتهم.

وذات صباح فتح عينيه فرأى جدته تنظر إليه باستغراب وتسأله:

ـ من ه*ي* زينب؟

فدعك عينيه ولم يجب أو بالأحرى لم يفهم، فقالت:

- تنادى زينب وأنت نائم فمن هي زينب؟

ولما لم يجب حركت يدها برثاء:

ـ تسقط في الحساب والديانة وتحلم بزينب! . . يا خيبتك القوية .

ولما قرأ ﴿ يَوْمَ يَفُرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٠) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ٣٠) وَصَاحِبَته وَبَنيه ﴾ في وصف القيامة أرعبته الصورة، وبخاصة ما يتعلق بإمكان الفرار من زينب وتركها لشأنها، واستقرت الصورة في قلبه طويلا كمأساة لا شفاء منها. ومن عجب أنه جاء الحارة وهو لا يذكر زينب ألبتة، حتى رأى النافذة! . . أما رفاعة فكان يلعب تحت النافذة . وكان نحيلا لدرجة تستثير الضحك فكان يبتسم لضحكاتنا ولا يحنق أو يغضب. لا يذكره حانقا أو غاضبا قط. ولكنه كان يذعر إذا تحرش به الشربيني. ولم يكن الشربيني يتحرش به لسبب محدد ولكن لأنه كان من طبعه أن يتحرش بالجميع وبخاصة الضعفاء منهم، كان باختصار فتوة العصابة. وقلت له مرة «حرام عليك. . يجب أن تخاف ربنا» فأعاد كلماتي بصوت كالنهيق وكان ذا قدرة غريبة على الاستهزاء بكافة القيم رغم أنه لم يجاوز العاشرة. ولم يكن التحدي ليجدي معه ولو اجتمعنا عليه كلنا. فقوته وجرأته كانتا كالإعصار الذي يطيح بأي شيء يعترض سبيله. كان رئيسنا بالانتخاب الطبيعي ولكن بلا خلق ولا مبادئ ولا يهاب أبا ولا أما. ولا أذكره إلا ضاحكا أو غاضبا أما العواطف الرقيقة فلم تعرف مكانا في قسمات وجهه، ولكنه كان رجلنا عند الشدائد، عند أي اقتحام لحارتنا، أو اعتداء على أحد منا، وكان أيضا كريما لا يستأثر بمليم وحده. وكان أمامنا في التجارب الجديدة، يشدنا إليها واحدة بعد أخرى، والآخرون يلهثون وراءه مشدوهين.

ـ هل سمعتم عن السيرك؟

ـ وما السيرك يا شربيني؟

فيمضى بنا إليه ونكشف بفضله دنياه الساحرة. أو يقول باستعلاء:

ـ طبعا أنتم لا تعرفون الجبل!

ويقودنا إلى المقطم فنرقى في معارجه فوق العالم كله حتى يئن رفاعة متشكيا:

ـ كفاية . . تعبت . .

فيقول له بازدراء:

ـ تقدم يا بنت!

ويوم جاءنا قابضا على ذيل قط ميت وسألنا:

ـ ما فائدة هذا؟

فأجاب رفاعة:

ـ ندفنه فنكسب ثوابا!

ـ يا تربى يا حقير!

وأمرنا أن نتبعه فسرنا وراءه والمغيب يهبط فوق المآذن والقباب، حتى وقفنا في عطفة تنحدر إلى شارع الخليج. وقف مخفيا القط وراء ظهره حتى رأى الترام قادما من بعيد. انتظر حتى مر الترام أمام العطفة ثم رمى القط في مقصورة الدرجة الأولى فارتطم بالرءوس وأسقط الطرابيش ثم انطلقت العصابة بأقصى سرعة في الظلام. ومازال يقودنا من فتح إلى فتح حتى قال لنا ذات يوم:

- إنكم لا ترون المرأة إلا وراء الشيش أو في ملاءة مثل زكيبة الفحم!

تطلعنا إليه باهتمام ـ عدا رفاعة الذي لم يبق منه وقتذاك إلا ذكري ـ أجل تطلعنا إليه باهتمام فقال:

ـ سترونهن بلا حجاب ولا حاجز ولا تمنع!

تجلى الشك في الأعين فقال بمباهاة:

ـ موعدنا يوم السينما، وليرتد كل منكم چاكته فوق جلبابه.

وقد غاب الشربيني عنى دهرا حتى كنت فى جولة تفتيشية بجرجا فصادفته على غير انتظار. عرفته من أول نظرة كما عرفنى. كان معتما بعمامة خضراء مطلق اللحية، يدعى «عبد الله المدنى» ويزعم أنه مهاجر من جيرة رسول الله، ويبيع للبسطاء ترابا فى لفافات من الورق قال إنه من تراب القبر النبوى وإنه يشفى من جميع الأمراض. رآه وسط حلقة من مريديه فترامقا مليا، ثم لحق به فى نادى الموظفين، وما كاد يخلو إليه حتى صاح:

- بالأحضان!

فتعانق. وتساءل الرجل عن صناعته الغريبة فقال الشربيني:

ـ الرزق له أحكام!

ولكنن.

- طول عمرك تقول «لكن» . . الحق إن كل شيء سخيف .

وجعل الرجل يضحك حتى قال الشربيني:

ـ لي زوجة وأولاد في القاهرة ولكن ضاق بي الحال مذولت أيام الفتونة فهاجرت إلى البلاد أعمل طبيب أسنان أو وليا من أولياء الله. . وهو خير على أى حال من القتل! ـ ومستقبل أو لادك؟

فضحك كأيام زمان وقال:

ـ لا خوف عليهم ما دام أولاد الكلب يرتفعون إلى أعلى المناصب.

وعندما تصافحنا للوداع بسط لي يده دون أن ينبس فدسست يدي في جيبي وأنا أقو ل :

ـ لك في ذلك حق، فطالما جدت علينا بسخاء.

ترى ماذا لقى من الحياة بعد ذلك اللقاء الذي مضى عليه ربع قرن من الزمان؟ . . ماذا لقى يا زينب؟ . . كلا . . لقد تغيرت الحارة تماما ، أين الحوض الذي كانت تسقى منه بغال عربات الرش؟ . . أين كشك الحنفية العمومية؟ . وهؤلاء الزبائن المزعجون ألا يريدون أن يسكتوا؟ . . وكيف تشعر أنت بهذه الغربة وأنت جالس في مسقط رأسك وبين ذكرياتك الحميمة؟

ورفاعة يخجل مؤثرا السلامة على أي شيء. إنه يخاف الشربيني ويضاعف من تودده إليه. وزرنا القرافة في أحد المواسم قبيل وفاة رفاعة بأيام. كنا نفرح كثيرا بزيارة القرافة في المواسم. ونلعب في الحوش أما إذا ترامي إلينا نبأ ميت جديد فنهرع إلى القبر لنشهد الدفن ولو من بعيد. ووقفنا عند قبر أم رفاعة نتبادل الأحاديث. وسأل سائل لم أعد

ـ ماذا يفعل الأموات في القبور؟

فأجاب رفاعة بإيمان:

-إنهم يروننا ويسمعونا، أمي تراني الآن وتسمعني، كانت تقول لي ذلك وهي صادقة .

ـ والظــ لام؟

ـ يذهب بتلاوة القرآن وتوزيع الرحمة على المساكين.

وتلا الصمدية.

والحساب؟

ـ يكون في أول ليلة فقط.

ـ والمـرزبة؟

- فظيعة ولكن القرآن! ولأنها تركتني صغيرا يتيما فذلك خفف من الحساب، هكذا قال أبي.

ـ وكلنا سنموت!

فتساءل الشربيني بارتياب:

۔کلنا؟

- نعم كلنا، حتى سيدنا النبي مات.

وهز الشربيني رأسه هزة غامضة. .

ـ وهي الآن في الجنة؟

- الجنة لا توجد قبل يوم القيامة.

ـ ويعاد الحساب مرة أخرى؟

ـ قال سيدنا ذلك في الكتَّاب وأكده.

وتمتم الشربيني باسما:

ـ عليه العوض. .

كم كان مؤثرا محزنا مذهلا أن نقف في نفس المكان بعد ذلك بأيام لنشهد دفن صديقنا الرقيق المهذب العزيز رفاعة. رأيناه في كفنه وهو يحمل من النعش، وهم يختفون به في القبر ليضعوه إلى جانب أمه. لم أصدق وبكيت طويلا. وعدت أنا والشربيني وآخرون ونحن لا نمسك عن الكلام. وقلت إنه لن يحاسب لصغر سنه فقال لي أحدهم إن الحساب يبدأ من العاشرة. واختلفنا في ذلك وطال الشد والجذب.

ـ على أي حال فحسابه يسير .

ـ وسيكون من السقاة في الجنة.

عكفنا على ذلك حتى رجعنا إلى الحارة. والظاهر أنى بكيت أكثر مما احتمل الشربينى فقال وهو يرمقنى بحدة:

ـ أنت خائف!

فقلت:

- إنني حزين .

فعاد يقول:

ـ أنت خائف..

فغضبت فقال:

ـ يجب على أي حال أن نلعب!

ووقفنا في المكان الذي ألف أن يلعب فيه ومربعات الحجلة ما تزال مرسومة على سطح الأرض. وشيء جعلني أرفع رأسي فرأيت زينب في النافذة تطل بوجه غير باسم. وتلاقت عينانا ولكنها لم تبتسم وحولت عنى وجهها. تمنيت أن أجرى إليها لأبكى بين يديها وأقول لها إنى حزين يا حبيبتي!

ولكن الصحاب كانوا كثيرين. كانوا عصابة تملأ الحارة، لكنهم ضاعوا من الذاكرة فلم يعد لهم وجود. ولم يعد من المهم أن أسأل عن مصائرهم. ولا أدرى إن كنت ما أزال حيا في بعضهم أم أننى ميت أكثر مما أتصور. على أى حال عشنا في الحارة حياة الحضور الكامل وهي أقصى ما نستطيع أن نمارس من الخلود. حياة حاضرة تبدو عادة راسخة ممتنعة عن التغيير أو الاضمحلال فضلا عن الزوال. ولم تخل من مقومات الحياة الجوهرية بين طرفى العبث والغيبيات. وامتلأت بالحب ولكنى آمنت بأنه بلا ثمرة. وعرفت الموت كفراق مروع فظيع لا يخفف من بلواه شيء، ولا الإيمان نفسه ولم أشعر غالبا بما بين أبعاد دنياى من تناقضات ولكنني عشت السرور بلا حدود كما عشت الحزن بلا عزاء.

\* \* \*

وتثاءب.

ولفت الأنظار مرة أخرى بتثاؤبه .

وخلع النظارة الذهبية فجلاها ببفرتين ثم لبسها. وغامت السماء فحجبت شمس الظهيرة عن أرض الحارة. وتمتم صاحب القهوة «لا إله إلا الله». والرحلة وإن تكن عبثا إلا أنها أيقظت القلب دقائق. وقرر ـ فيما يشبه نشوة الانتصار ـ أن يزور الحى القديم من حين لآخر . ولكنه عندما غادر الحارة، ومضت به السيارة إلى المدينة، استيقظ من غفوته، من سطوة الماضى . وتذكر مواعيده، واسترد اهتماماته اليومية .

تحرر تماما، وتمتم:

ـ بعيد أن تتكـرر .

وتثاءب للمرة الثانية ثم تمتم مرة أخرى.

- النافذة لم تكد تتغير.

# المسطول والقنبلة

ليس الطريق هو الطريق. ولا الدنيا هي الدنيا. الناس في عجلة ولهوجة. الطوار مزدحم. والشارع يموج بحركة لا تنقطع. والجنود يرمون بنظرات جهنمية من تحت الخوذات. ما الخبر؟ وكلما رغب أن يركز ذاكرته تطايرت كغبار الأعاصير. كل ما يذكره أنه ذاهب إلى دكان صديقه محسن الكواء. يا عم محسن أين أنت؟ . . الطريق لا نهاية له. كأنه يسير إلى القمر. وهو ثقيل جدا تكاد تخذله قدماه. والشمس ترسل أشعة سوداء ورغم حيرته ابتسم. وندت عنه ضحكة. ونظر إلى الناس باستغراب. أي شئ يستحق هذه العجلة! وتساءل ترى هل لبس طربوشه؟ إنه يشعر بقشعريرة في دماغه ولكنه ليس متأكدا من الطربوش. ولم يجد لا القدرة ولا العزيمة ليرفع يده ليتأكد من وجود الطربوش ولكنه صادف دكان أثاث قديم فمال إليه ونظر في مرآة مسنودة إلى ضلفة بابه فرأى طربوشه منطرحا إلى الوراء كاشفا عن مقدم شعره الأسود. وسوى رباط رقبته وهو ينظر وخيل إليه أن عينيه منتفختان وأنهما شبه مغلقتين. وأشتدت الحركة بالطريق وانتشرت الضوضاء. ما الخبر؟ وفتح فاه ليدندن أغنية ولكنه سرعان ما نسيها. وساءه ذلك جدا ونغص صفوه. ولكن حركة زئبقية رقصت في باطنه فانبسط وابتسم. وقال إنه بما يملك من قوة يمكنه أن يطير وأن يغوص في الأرض وأن يخاطب ساكني القطب. وها هو أخيرا دكان محسن الكواء. ونسى تماما أسئلة الطريق وحيرته. ولما صار أمام عم محسن انحني تحية كأنه حيال ملك. ولبث منحنيا إعرابا عن امتنانه وكسلا. وابتسم الكواء فقال ويده لا تكف عن العمل:

- ـ أستغفر الله يا أيوب أفندي . .
  - ـ أنت تستحق أكثر من ذلك.

ووضع له الصبى كرسيا عند باب الدكان فاعتدل في موقفه، وكرر التحية برفع اليد ثم مضى إلى الكرسي فانحط عليه. وأشار إلى رأسه وهو ينظر إلى الكواء وقال:

ـ ليس بالإمكان خير مما كان . .

فقال الكواء بفخار:

- ألم أقل لك؟
- ـ صنف لا مثيل له.
- ـ وقلت لك خذ أوقية قبل أن ينفد ولكنك لم تصدقني.

وبالجلوس في الشارع عاد مرة أخرى إلى الحيرة والأسئلة، وتساءل عن معنى ذلك فقال الكواء:

- ـ عما قليل ستشهد الموكب.
  - الموكب؟!
- هوووه . . عاد الرجل من لندن وها هم الجنود ينتشرون للصيد الحرام! ودارت عينا أيوب بلا إرادة . واشتد شعاع الشمس إظلاما . واكتظ الطريق تماما . وتساءل :
  - ـ لـاذا؟

لم يفهم الكواء المقصود بالسؤال ولكنه قال:

ـ عودة مظفرة سيعقبها سقوط الوزارة. .

ونظر أيوب إلى السماء فانطرح رأسه على ظهر الكرسي بلا حراك فابتسم الكواء وتساءل:

- إلا يسرك أن تغور الوزارة؟

لم يبد أيوب حركة أو اهتماما فكتم الكواء ضحكة وسأله:

ـ خبرني من الذي يحكمنا الآن؟

أرجع رأسه إلى وضعه الطبيعي وكأنه لم يسمع فعاد الأخر يتساءل:

ـ ألا يسرك أن يعود الدستور؟

فراح يدندن بنغمة غامضة فضحك الكواء قائلا:

ـ يا بختـك!

وترامى هتاف من بعيد فانطلقت شرارة الحماس فى الطريق وصاح المأمور بصوت ملؤه الوعيد «النظام». وخرج الكواء من الدكان واندفع يهتف مع الهاتفين. ضحك أيوب دون أن يبرح مجلسه. ومر الموكب كزلزال. وجرى فى أثره ألوف، وألوف. ولم يبق قاعدا فى الطريق كله إلا أيوب. وتراجع لصق الجدار ليتفادى من الراكضين. وراح يغنى بصوت لم يسمعه أحد:

# البخت لو مال حتعمل إيه بشطارتك

ووقف المأمور ببدلته البيضاء وشريطه الأحمر في وسط الطريق، والتيار المندفع يتجنبه فينحرف إلى يمينه أو يساره. ولم يحدث من الجنود اعتداء إلا حوادث شبه فردية. وإذا بشاب ينقض على المأمور فجأة ويوجه إلى بطنه لكمة ضارية. ترنح المأمور ثم سقط وفر الشاب كالريح. ووقفت النغمة في حلق أيوب. وحملق وهو يداري إغراء بالضحك. ورأى الجنود وهم ينفجرون فيهوون بهراواتهم على الناس جزافا. وطارد المخبرون الشاب ولكن فصلت بينهم وبينه موجات متلاطمة من البشر. وتتابعت الأحداث بسرعة

جنونية. دوت طلقات نارية. وفي ثوان تفرق الناس في كل عطفة حتى خلا الطريق. وأغلقت الدكاكين. ونهض المأمور معتمدا على ذراع ملازم وصاح برئيس المخبرين:

ـ الويل لك إذا لم تأت به . .

وأرهقت الأحداث عينى أيوب. ولم يبق فى الطريق أحد سواه حتى الجنود ركضوا فى أعقاب الهاربين. وأغمض عينيه ليستريح. وأخذته نوبة من الضحك فى الطريق الخالى. والتفت إلى دكان الكواء فوجده مغلقا. ورغب فى تذكر الأغنية ولكنه لم يفلح. وأغلق عينيه مرة أخرى غير أن وقع حذاء ثقيل دعاه إلى فتحهما. رأى المخبر يقبل نحوه بنظرة صلدة. كيف انشقت عنه الأرض؟ ومضى يقترب منه حتى أخفى عنه الطريق والسماء. وحملق أيوب فيه دون أن ينبس وهو يعانى قساوة الوحدة. وصاح المخبر بصوت كالسوط:

ماذا يضحكك يا مجرم؟

فانكمش أيوب فوق الكرسي مغمغما:

ـ لم أضحك . .

فصاح وهو يقرب منه وجهه:

ـ تضرب المأمور ثم تضحك؟

فمد أيوب ذراعيه كأنما ليتقى الشر وقال:

ـ معاذ الله. أنا لم أبرح مكاني. .

- فاهمني أعمى يا ابن الحية؟

ولطمه لطمة شديدة طرحته أرضا وأطاحت بطربوشه عشرين مترا. تأوه أيوب دون أن يحاول النهوض ولكن المخبر شده من رباط رقبته حتى احتقن وجهه، ثم قام وهو يترنح وقال بصوت منكسر:

ـ حرام. . والله ما تركت مكاني طول الوقت. .

ـ اخرس. . . عيني لم تتحول عنك لحظة . .

وصفعه مرة أخرى. وأخرج صفارته ونفخ فيها. وجاءت قوة من الجنود فأشار إلى أيوب قائلا:

- اقبضوا على المجرم الذي ضرب مأموركم . .

ودوى انفجار شديد فتجمدوا في أماكنهم، وقال جندى:

ـ صوت قنبلة . .

وأرهفوا السمع صامتين، ثم أفاقوا من دهشتهم فقبضوا على أيوب وهو يصيح بأعلى صوته: - أنا برىء . . لم أضرب أحدا ولم أتحرك من مكانى . .

وساقوه إلى القسم، ثم أدخلوه حجرة المأمور، وأدى المخبر التحية وقال:

- الجاني يا فندم . .

وهتف أيوب:

ـ حرام عليك، أنا برىء. .

وسأل المأمور المخبر وهو يحدج أيوب بنظرة قاسية :

- أين قبضت عليه؟

ـ لحقت به فى ميدان عابدين ، جريت وراءه دون أن أرفع عينى عنه ، قاوم مقاومة شديدة ولكننى ارتميت عليه حتى أسعفنى الجنود . .

واستمر المأمور في طعنه بنظرته ثم قال بحنق:

ـ تضربني يا كلب!

وهتف أيوب يائسا:

- أقسم بالله . .

ولكنه لطمه لطمة أسكتته ثم أشار إلى المخبر إشارة خاصة وهو يقول:

ـ لا تترك به أثرا يكن أن تراه النيابه.

أحنى المخبر رأسه إحناءة الفاهم ودفع أيوب إلى الخارج. ودعا بمعاونيه فأوثقوا يديه وراء ظهره وانهالوا على وجهه بأكفهم وهو يصرخ من العذاب حتى سقط مغشيا عليه.

وأفاق فوجد نفسه مطروحا على أريكة خشبية في نطاق من الجنود. وجذبه المخبر من ذراعه فاستجاب في إعياء وذهول، وسيق إلى حجرة المأمور. وأجلس هذه المرة أمام مجموعة من الرسميين في ملابس مدنية، وهو يشعر بأن وجهه منتفخ حتى ليوشك أن يكلأ الحجرة، وكل موضع في جسده وروحه انهار انهيارا. وسأله من ظنه رئيسهم:

ـ أنت مستعد للتحقيق؟

فقال باستسلام:

ـ أنا بــرىء . .

وطلب أن يشرب فجيء له بكوب. وسأله المحقق عن اسمه فأجاب:

- أيوب حسن طمارة.

- عملك . . ؟

ـ كاتب بالدفتر خانة . .

```
عمرك؟
```

ـ ثلاثون عاما. .

ـ رآك الجنود والمخبرون. .

فصاح مقاطعا:

ـ أنا برىء. . وحق كتاب الله بريء . .

قال الرجل بحزم:

ـ أجب على أسئلتي دون ضوضاء. .

ـ لـم أفعل شيئا. . ولا أدرى لماذا جيء بي إلى هنا. .

ـ أجمع الشهود على أنك أنت الذي ألقيت القنبلة أمام المحكمة المختلطة!

لم يفقه شيئا. إنهم مجانين أو مساطيل. وقال مكذبا أذنيه:

ـ لم أغادر الكرسي أمام دكان محسن الكواء، ولم ألمس المأمور..

- إنك تهذى، هذا سيعقد الأمور في وجهك.

ـ ولم أفعل شيئا. .

- أنت الذي ألقيت القنبلة!

- قنبلة! . . حضرتك تقول قنبلة؟!

- عشرات من الجنود والمخبرين رأوك بأعينهم.

ضرب جبهته بكفه وصاح:

ـ لا أفهم شيئا مما تقول!

ـ كلامي واضح جدا. مثل فعلتك الشنعاء...

- يا حضرة البك أنا لم يقبض على بتهمة إلقاء قنبلة ، لقد قبض المخبر على بلا سبب ، ثم ألصق بي ظلما وعدوانا تهمة الاعتداء على حضرة المأمور .

ـ أعترف فالاعتراف في صالحك، وإذا اعترفت بمن دفعك إلى الجريمة فلن تندم. .

فهتف أيوب بصوت محشرج:

- يا ناس حرام عليكم، أنا رجل مسكين لم أعتد في حياتي على أحد، اسألوا عم محسن الكواء. .

ـ أعترف ولن تندم.

وقال رجل يجلس إلى يمين المحقق:

ـ نحن نعرف الذين وراءك، سنذكر لك أسماءهم ونطلعك على صورهم لتتأكد من

صدق كلامنا، وأنت مسكين حقا، ولاشك أنهم غرروا بك، لم تكن في أيديهم سوى لعبة لعبوا بها بسفالة، وسوف يخفف ذلك من ذنبك، سيجعله لاشيء، ولكن يجب أن تعترف. .

- أعترف! . . ولكنني لم أضرب المأمور . .
  - ـ من أين أتيت بالقنبلة؟
  - ـ يا رب السموات والأرض. .
  - -إذن فأنت لا تريد أن تعترف!
  - أعترف بماذا؟ . . ألا تخافون الله؟
    - ـ أحذر العناد العقيم.

نظر إلى الوجوه المحدقة فيه فرآها سورا صلدا يسد أبواب الرحمة والأمل. وخطر له خاطر يأس في أعماق محنته فقال:

ـ أتريدون حقا أن أعترف؟

فعكست أعينهم اهتماما كاد أن يكون ودا وقال المحقق:

ـ تكلم يا أيوب.

فقال بصوت منخفض:

ـ أعترف بأنني مسطول..

فحل محل الاهتمام غيظ وحنق:

ـ أتهز أبنا؟

ربع قرش في معدتي، وبيني وبينكم الطبيب الشرعي. .

- إنك تحرق مستقبلك . .

- أنا مسطول، ككل يوم، هل سمعتم عن مسطول ألقى قنبلة؟

ـ حيلة صبيانية للهرب. .

- أنا أيضا مدمن، ولم أضرب المأمور أو ألقى قنبلة؟!

ـ حـ ذاريا أيـوب.

ـ لماذا. . لماذا، عمرى ما شغلت نفسى بسياسة، ولا بدستور ٩٣٠ أو دستور ٩٢٣، ولا هتفت مرة واحدة، هاتوا الطبيب الشرعي. .

ـ طاوعني واعترف، والأسماء تحت يدك والصور..

- صدقوني لا عمل لى في الدنيا إلا حفظ الوثائق القديمة واستحلاب ربع قرش كل يوم، هاتوا الطبيب الشرعي واسألوا الناس جميعا. . وانقضى عام قبل أن يرجع أيوب مرة أخرى إلى دكان عم محسن الكواء. وجهت إليه تهمة إلقاء قنبلة أمام المحكمة المختلطة. نشرت صورته في الجرائد. عده الشعب بطلا فدائيا. تقدم للدفاع عنه نخبة من كبار المحامين. حكمت المحكمة ببراءته ودوت القاعة بالهتاف. ولما عاد إلى دكان الكواء تعانقا عناقا حارا طويلا، ثم اتخذ مجلسه المعتاد أمام الدكان. وقال محسن تحية ومودة.

ـ عندي صنف يا هوه!

فضحك أيوب وقال:

ـ مضى عام بلا كيف حتى نسيته . .

- آن لك أن تتذكر . .

فلم ينبس بكلمة فقال محسن بدهشة:

- الله يجحمهم! . . لقد تغيرت حتى ما أكاد أعرفك يا أيوب أفندي . .

فابتسم دون أن يتكلم فقال الآخر مشجعا:

ـ ولكن كثيرين يحبونك اليوم ويعظمونك!

فضحك ضحكة بريئة سعيدة فاستطرد عم محسن:

ـ ولا يصدق أحد بأنك مدمن ولكنهم يؤمنون بأنك ضربت المأمور وألقيت القنبلة. .

فقال بفخار!

- كانت المحاكمة قنبلة!

فتساءل محسن با رتياب:

ـ وماذا تنوى بعد ذلك؟

فتفكر الرجل قليلا ثم قال:

- أشار على بعضهم بأن أرشح نفسي في الانتخابات القادمة!

نظر محسن نحوه بذهول وقال:

ـ لكنهم يعرفون صاحب القنبلة!

ـ ولو! . . قالوا إنني رفضت أن أشترك في تلفيق تهمة ضد أحد منهم. .

ـ ولكنك لا تهتم بشيء في هذه الدنيا؟!

فقال وهو يبتسم:

لقد تزوجت الاهتمام في الحبس الاحتياطي والمحكمة.

### صـــورة

يسرى عبد المطلب يتناول فطوره المكون من قطعة من الجبن القريش والخبز المحمص وفنجال قهوة، وفي قبالته جلست زوجته منهمكة في مطالعة الجريدة. وتنفس جو الشقة هدوءا كهدوء الشيخوخة، هو طابعها دائما أبدا. عدا أيام الزيارات التي يحييها الأبناء. وقربت المرأة الجريدة من عينيها في اهتمام طارئ ولكن الرجل رمقها في غير اكتراث، ونادرا ما يثير اهتمامه شيء مذ أحيل إلى المعاش. وتمتمت المرأة في رثاء:

ـ مسكىنة!

وقال لنفسه: دائما صفحة الحوادث أو صفحة الوفيات! ومدت له يدها بالجريدة وهي تقول في حسرة:

ـ شابة، وجميلة، . . انظر . .

يا فتاح يا عليم. جثة ملقاة على الرمال، الوجه واضح المعالم، وسيم يافع، مغمض العينين إلى الأبد. ونظر في الجريدة دون أن يتناولها وتساءل:

ـ قتيــــلة؟

ـ فى الصحراء، وراء الهرم، مؤخر الرأس مهشم، لم يسرق منها شيء، مجهولة. . فقضم لقمة وهو يقول:

ـ قصة قديمة معادة.

ـ لكنها لم تسرق!

ـ حب، زفت، أى شيء، لم تقتل طبعا بلا سبب.

- جميلة وشباب المسكينة.

وامعنت النظر في الصورة وقالت:

ـ يا قلب أمها!

ووضعت الجريدة على السفرة واستطردت:

- إنى أعجب كيف يقدم إنسان على قتل إنسان!

فقال باسما:

ـ لا تنكرى . . إنك عاصرت حربين عالميتين وعشرات الحروب المحلية .

- الحرب شيء آخر، ليس كأن تقتل إنسانا وجها لوجه، بقصد وغدر وقسوة، والمسكينة ولا شك ذهبت مع القاتل وهي مطمئنة.

- اللعنة، ولماذا ذهبت معه؟

تنهدت المرأة قائلة:

ـ الله أعلم، والله غفور.

\* \* \*

وفي شقة بالعمارة رقم ٥٠ بشبرا كانت فتاة تنظر إلى صورة القتيلة بذهول، لا تكاد تصدق عينيها، ثم هرعت إلى أمها بالجريدة هاتفة:

ـ ماما . . انظرى!

نظرت الأم إلى الصورة، وقرأت الخبر، ثم رفعت عينيها إلى ابنتها متسائلة فقالت هذه بانفعال:

- شلبية يا ماما، ألا تذكرين شلبية؟!

أعادت المرأة النظر إلى الصورة بإمعان حتى اتسعت عيناها دهشة وانزعاجا وصاحت:

ـ يا ربي! هي هي شلبية، شلبية دون غيرها. .

قالت الفتاة برثاء وتأثر:

ـ كانت عندنا منذ خمس سنوات. .

ـ أجل، ترى كيف ولم قتلت؟!

غمغمت الأم بكلام غير مفهوم، ولم يسكن انفعال الفتاة فقالت:

ـ كانت طيبة جدا يا ماما، تتلقى أى أمر بصبر وابتسام، وكانت تغنى في الحمام أغاني ريفية بصوت ساذج لطيف. .

ثم بنبرة كالعتاب:

ـ وقد طردناها بلا سبب!

ـ هي مسكينة، ربنا يرحمها، ولكنا لم نظلمها. .

ـ كانت لطيفة وساذجة ومؤدبة ولكني لم أدر لأي سبب طردت. .

فقالت الأم بوجوم:

ـ لم تطرد بلا سبب، وكل شيء قسمة ونصيب.

فتنهدت الفتاة قائلة:

ـ لعلها لو بقيت عندنا لما . . .

#### فقاطعتها يحدة:

ـ أنت مجنونة! . . أليس كل شيء بإرادة الله؟

فانخفض صوتها وهي تقول:

ـ مسكينة، كنت أحبها، وبابا لم يرغب أبدا في طردها. . .

وقطبت الأم عند ذكر «بابا» وغامت عيناها بذكريات مقلقلة فيما بدا وقالت بصوت جاف:

ـ كفي، الله يرحمها وكفي. .

وأعادت النظر إلى الصورة وتمتمت:

ـ ليست الملابس عملابس خادمة . .

ـ لعلها . .

#### فقاطعتها قائلة:

ـ ليكن السبب ما يكون، ولكنني لم أظلمها، والله يرحمها. .

وساد صمت، ثم قالت الفتاة:

ـ البوليس يناشد من يتعرف على الصورة أن يتقدم للإدلاء بمعلوماته .

# فقالت الأم بحزم:

ـ لقـد أنقطعت صلتها بنا منذ خمسة أعوام، ولن نفيد التحقيق شيئا، وأنت لا تتصورين المتاعب التي يتعرض لها من يذهب إلى البوليس.

ورمت بالجريدة بعيدا وهي تقول:

ـ أى صباح هذا يا ربى:

\* \* \*

ووقع بصر السيد أنور حامد على الصورة وهو يتصفح الجريدة في فترة استراحة قصيرة في أثناء عمله بإدارة التفتيش . حملق فيها بانزعاج لم يخف عن زميله في الحجرة فسأله :

ـ خيرا إن شاء الله!

فطوى الجريدة وهو يتمالك نفسه قائلا:

ـ صديق توفي.

ولكن اجتاحه اضطراب لم يفارقه طوال الوقت. شلبية العاملة بالمشغل. الجميلة العذراء. التي اضطر آخر الأمر إلى أن يتزوج منها زواجا عرفيا. وبسوء نية

اشترط عليها ألا تنقطع عن العمل. ولما حملت اغتصب منها موافقة على الإجهاض. وقالت وهي تبكي:

ـ أنت لا تحبني ولا تعدني زوجة .

فقال ملاطفا:

ـ بل أنت زوجتي ولكنني لا أريد خلفا!

ولما تنغص العيش في الأيام التالية حزم أمره وسرحها وصديقه عبيد رئيس الحسابات كان الشاهد وحافظ السر. ومن شدة اضطرابه انتقل إلى حجرته فأطلعه على الصورة. وهز الرجل رأسه وتمتم:

ـ مسكينة، ترى كيف قتلت؟

ـ سنعرف غدا أو بعد غد. وليس من العسير تخيل ذلك.

وتبادلا نظرة لم يرتح لها أنور حامد كثيرا فقال:

- كانت عنيدة فماذا كان يمكن أن أفعل؟!

فقال المدير بنبرة مخففة:

- كانت تحبك جدا ورغبت في الأمومة . .

ـ ولكن الناس والأهل! . . لا يخفي عليك ذلك .

ـ طبعا. فليغفر الله لنا جميعا!

امتعض مليا، ثم تساءل:

ـ هل أذهب إلى البوليس!

ـ أظن هذا. .

ـ ولكن ألا يجر ذلك إلى متاعب وأنا شارع في الزواج.

فتفكر الرجل قليلا ثم قال:

ـ إذن لا تذهب، وإذا جاء ذكرك في التحقيق مستقبلا فادع أنك لم تر الصورة.

\* \* \*

ولم يطلع حسونة المغربي على الصورة إلا حوالي العصر وهو موعد استيقاظه من النوم عادة كل يوم. وفرك عينيه كأنما لا يصدق، وقال:

ـ درية! . . يا للشيطان . .

وأدام النظر إلى الصورة ثم غمغم:

ـ لماذا قتلت؟!

ومضى إلى الحمام وهو يتجشأ حموضة الخمر، وسرعان ما استرد هدوءه فقال:

ـ ولكنك شيطانة مجرمة!

ثم مواصلا وهو يغسل وجهه:

- الجزاء من جنس العمل.

وراح يحلق ذقنه ويقول وكأنه يخاطب صورته في المرآة:

- عرفتك مطلقة ذليلة ، بعد أن جربت شهامة الأفندية ، أعطيتك الحب وجعلتك نجمة في هذا البيت ، وعشقك أحسن ناس في البلد ، وماذا كان الجزاء ؟ . . هربت ، أجل هربت لكي تقتلي في الصحراء ، فإلى الجحيم . .

وحوالى التاسعة مساء جاء الرجال وجلسوا حول مائدة القمار . ودارت عنايات وبهيجة بالويسكي والمزات . وعلموا بالخبر فقال فهمي رمضان .

ـ قد تجر إلى التحقيق يا حسونة:

فقال باستهانة:

ـ لكنني لم أرها منذ عام. .

- ولـو . .

وقال سعيد الأمام بحذر:

ـ من الحكمة أن نمتنع عن الحضور حتى يقبضوا على القاتل..

فصاح حسونة بقلق:

ـ لا شأن لي بالجريمة . .

فقال حسنى الدينارى:

- اذهب إلى البوليس وأدل بمعلوماتك . .

فتساءل الرجل بذهول:

ـ أتريدني على أن أعترف بأنها كانت تعمل هنا؟ . .

فقاطعــه:

ـ كلا . . قل فقط إنها كانت صديقتك واختفت منذ عام . .

ـ وإذا سئلت عن عملي. . أو بطاقة الشخصية . . أو تحروا عن مسكني؟!

ـ في السكوت خطر أفدح. .

فلوح بيده بغضب وسخط وهتف:

ـ كان ضرورى تقتل لتربك حياتي!

فقال الرجل في غيظ:

ـ ياما نصحتك! . . ولكنك كنت وحشا في معاملتها! كنت وحشا رغم تفانيها في حيك . .

\* \* \*

واستيقظت فتحية السلطاني حوالى المغرب في الحجرة التي تقيم فيها مع دولت ونعمات وأنسية وعلية. وكانت درية (شلبية) أول ما خطر ببالها. وانفجر في رأسها بركان من الغضب لم يفارقها طليلة الوقت الذي قضته في الحمام، وهي تغير ريقها، ثم وهي واقفة أمام المرآه تتبرج:

- الخنزيرة . . الكلبة . . ماذا تظن بنفسها!

وتثاءبت دولت وقد أدركت من تعنى وقالت كأنما تعتذر عن الأخرى:

- كانت سكرانة!

ـ ولو! . . إنها تشرب البرميل فلا يدور لها رأس.

ونسيت الموضوع دقائق وهي تروض شعرها المتمرد ثم عادت تقول:

- نظرت إلى من فوق! . . العفو . . . العفويا مولاتي! . . أنسيت عرشك تحت الجاموسة؟

وقالت نعمات:

ـ كانت سكرانة وهي غير معتادة، ورغبت في مداعبتك، ترى أين باتت ليلتها؟

ـ في أي داهية مع أي جربوع، وستعرف الليلة من أنا!

وذهبت أول الليل فتجولت طويلا على كورنيش النيل دون ثمرة، ثم قصدت حلوانى كوكب الشرق فاتخذت مجلسها المعهود بالدور الثانى. وأخذت ترامق الموجـودين وتنتظر. ومن آن لآخر تنظر نحو المدخل وهي تتوثب للقاء غريمتها. ولما مر النادل سألته:

ـ ألم تر درية؟

فأجاب دون أن يتوقف:

ـ زمانها جاية.

\* \* \*

وأمضى عادل اليوم متسكعا بين الحدائق على شاطئ النيل. لم يذهب إلى الكلية ولم ينم ليلة أمس ساعة واحدة. وتأبط الجريدة وكلما وجد نفسه في خلاء فتح صفحة الحوادث وأدام إلى الصورة النظر. وقال إنه سيسقط آخر الأمر من شدة الإعياء، وقال إن ريقه جاف ومر وتنفسه بطيء. وها هي الزوبعة الهوجاء قد سكتت، والأسئلة المندلعة قد خمدت، والنية المبيتة قد نفذت، ومع ذلك فلا يشعر مطلقا أنه حقق مطلبا أو بلغ أملا. لا شيء، خواء، انهيار، وقد قضى عليك. ولا مهرب، فإن يكن البقاء خطرا فالهرب أشد، أين تهرب. وكم من راء يحتمل أن يكون رآك وأنت ماض بها، وخيل إليك أن صوتا ناداك في المرقى إلى الهرم، وفضلا عن هذا وذاك البوليس كالهواء يملأ الأماكن المغلقة.

- إلى أين تسير بي؟
- ما أجمل أن نبتعد في الصحراء.

هم يسألون عنك في الكلية. وينتظرونك حول البيت. ما أعجزنا عن أن نرجع دقيقة واحدة إلى الوراء.

- درية . . أنت دائما تكذبين!
- ـ أنا لا أكذب ولكنك لا تصدق.
- كم أحببتك من كل قلبي ولكنك لا قلب لك.
  - ـ ما أشد الظلام حولنا.
    - ـ قاسية كالحجر . .
- عادل. . صوتك متغير . . وأنا لا أحب الظلام .
  - ـ لن ترى بعد الساعة إلا الظلام. .

انتهى كل شيء. وها أنت تنكلين بي في موتك كما نكلت بي في حياتك. لم تكوني امرأة، ولا آدمية، ولم ينبض قلبك بالحب أبدا. قوة شريرة خلقت من الشر لتمارس الشر.

## صـــوت مزعــــج

كان بمجلسه الصباحى بكازينو الشجرة. يحتسى القهوة ويدخن السيجارة. ينظر إلى مياه النيل الساكنة أو ينظر إلى سماء يوليو الصافية والباهتة من حدة إشعاع الشمس، ويفكر بقلق، ويغمض عينيه إمعانا في التفكير، ثم يفتحهما فيرى كراسته المفتوحة على صفحة بيضاء وقلمه الرصاص مطروحا عليها بالعرض رهن الإشارة. ويجيل بصره في الحديقة فيرى اثنين هنا واثنين هناك، ولا أحد ثمة غيرهم، والنادل نفسه قعد فوق السور المطل على النيل في شبه عطلة. هو وحده يجيء للعمل، ليستوحى نهار يوليو المشاكس المعاند موضوعا جديدا يملأ به صفحة «أمس واليوم» بمجلته الأسبوعية. وهو موضوع

يجب أن يتجدد أسبوعا بعد أسبوع، وإلى مالا نهاية، وعلى توفيقه فيه تعتمد سعادة شقته الأنيقة وزوجته وطفله البالغ عامين وسيارته الأوبل فضلا عن جرسنييرة بعمارة الشرق معدة للطوارئ.

ـ يا سماء جودي بالأفكار . .

وامتد بصره من خلال النظارة إلى قصر قائم قبالته على الشاطئ الآخر. مغلق النوافذ والأبواب، متوهج الجدران بالأشعة المتدفقة، ولا حركة واحدة تدب في ركن من أركانه، حتى أشجاره استكنت وجمدت كأنها تماثيل.

- ـ أن تعيش في قصر! غير مطارد بمطالب الرزق، ولا هم لك إلا التأمل! وتنهد وقال وهو ينظر إلى نفاية القهوة الراسبة في قعر الفنجان:
- عندى أفكار، عندى مشروعات، ولكننى أبدد العمر فى تسجيل ملاحظات فارغة واقتراح حلول معروفة لمشكلات معروفة، . . أف . . وباغته صوت رقيق من فوق رأسه قائلا!
  - ـ أستاذ أدهم، صباح الخير..

التفت إلى الوراء مداريا انزعاجه بابتسامة ثم قام مستخلصا نفسه من أفكاره.

ـ نادرة! . . فرصة سعيدة حقا .

تصافحا ثم جلست تجاهه وهي تضع حقيبتها البيضاء فوق الصفحة البيضاء.

ـ رأيت ظهرك من الطريق فعرفتك.

ـ متى تعرفينني من وجهى كما تعرفينني من ظهرى؟

فقالت مازحة:

ـ ولكن وجهك مطبوع في صدري!

ورنا طيلة الوقت إلى بنائها الدقيق التكوين، ووجهها المتألق بالصبا، ورغم تلاحم الطفولة بالشباب في عمرها فإن الزخرف شمل بشرتها والعينين والجفنين والرموش والأظافر والحاجبين. وسألها دون اكتراث لمزاحها:

- ـ كنت ذاهبة إلى ميعاد أم راجعة؟
- لا أحب مواعيد الصباح ولكنى كنت أتسكع بالسيارة بلا هدف. بلا هدف! اصطلاح وبائى. غير أنك فى الخامسة والثلاثين وهى فى السابعة عشرة. وهى متحررة لدرجة تثير إعجاب أى شخص يملك جرسنييرة. وقارئة مولعة بفرانسوا ساجان. وكم أثارت دهشته ليلة تعرف بها فى مجلس من الزملاء بسان سوسى. محدثة بارعة فى الفن والحياة ولا تجد بأسا عند الضرورة من التندر بنكتة مكشوفة.

وهى تدرس السيناريو مذ أهملت دراستها الجامعية ولعلها تتطلع إلى سماء النجوم. ولها محاولات فنية فشلت رغم جمالها فى نشرها بالمجلة أو الأذاعة. وفى آخر لقاء معا وبحضور بعض الزملاء أعلنت إعجابها بالوجودية الإلحادية!.

ماذا أطلب لك؟

ثم مستدركا بلهجة شبه جدية:

- أم نؤجل ذلك لحين ذهابنا إلى شقتى الخصوصية؟

ـ اطلب قهوة، ولا تحلم. .

قدم لها سيجارة وأشعلها، وراحت تشرب القهوة غير مكترثة لإلحاح عينيه حتى سألها مداعبا:

ـ كيف حال القلق الوجو دى؟!

ـ عال، ولكنني لم أنم أكثر من ساعتين.

ـ فكر وفلسفة؟

ـ شجار مع ماما وبابا كما تعلم.

تذكر بقلق الموضوع الذي جد في البحث عنه أما هي فاستطردت مقلدة لهجة الوالدين:

- كملى تعليمك . . تزوجي . . لا تسهرى كالشبان . .

أسطوانة معادة. لكن البنت جميلة والجلسة موحية. ومن يدرى؟!! غير أنه يجب الانتهاء من الموضوع اليوم ولو ألغيت مواعيد المساء. وتساءل:

ـ من أين لهما أن يفهما فيلسوفة صغيرة؟

حذرته بتقطيبة من التمادي في العبث، وقالت:

ـ لا يريد أحد أن يعترف بأنني أجاهد لتكوين نفسي، ولكنني أعاشر أهل الكهف!

وتذكر أكثر من حديث لوالدها في التليفزيون فقال:

ـ ولكن والدك رجل عصري.

ـعصری!

ـ على الأقل بالمقياس إلى والدي.

وهي تداري ضحكة:

- بالقياس إلى العصر الحجرى؟

رمى بنظرة إلى بعيد كالحالم وقال بافتتان:

- العصر الحجرى! . . لو نرجع إليه ساعة واحدة لحملتك على كتفى دون زاجر ولمضيت بك إلى كهفى بعمارة الشرق!

ـ قلت لك لاتحلم، ودعني أحدثك فيما جئت من أجله. .

-آه. . إذن لم نتقابل مصادفة؟

- أنت تعرف أنني أعرف أنك تكتب هنا كل صباح.

فقال بجدية مازحة:

- إذن هيا بنا إلى عمارة الشرق لنجد مكانا مناسبا لحديث هام!

أشعلت سيجارة من سيجارة وقالت:

- ألا ترى أننى لا أهزل؟

ثم وهي تحدجه بنظرة ثاقبة من عينيها الصافيتين كالشهد:

ـ وعدتني مرة بأن تعرفني بالأستاذ على الكبير.

فقال باهتمام:

-أكنت حادة؟

- كل الجد.

ـ لاشك أنك معجبة به كممثل!

ـ طبعـا. .

وتبادلا نظرة ثم قال:

- إنه في الخامسة والأربعين!

ـ مفهوم، ألم تسمع عن سحر الزمن؟

- كلا، ولكنني سمعت كثيرا عن مأساة الزمن.

ـ قد تحتمل كواعظ في صفحة «أمس واليوم»، أما هنا. . ؟!

ـ وما دوري أنا في القصة؟

- أنت صديقه الأول.

ـ له بنت في سنك.

- أجل. أظنها بكلية الحقوق..

وتفكر مليا ثم سأل:

ـ كـاشـفيني بأفكارك، هل تفكرين مثلا في تخريب بيته والزواج منه؟ ندت عنها ضحكة وقالت:

ـ لا أفكر بتاتا في الخراب.

ـ مجرد حب؟

فهزت منكبيها دون أن تنبس.

- طريق إلى الشاشة؟

فقالت باز دراء:

ـ لست انتهازية .

وإذن؟!

ـ عليك أن تفي بوعدك.

وثمل رأسه بفكرة طارئة فهتف:

ـ ألهمتني موضوعا!

ـ ما هـو؟

فكر بأناة ثم قال:

ـ حرية الحب بين الأمس واليوم.

ـزدنــى.

فقال مدفوعا بعنف لم يحاول هدهدته:

- إليك مثالاً من نقاط الموضوع، قديما عندما كانت تزل فتاة كان يوصف سلوكها بالسقوط، اليوم يوصف بأنه قلق العصر، أو قلق فلسفى.

#### فقالت بحدة:

ـ أنت متحجر رغم ادعاءاتك المتقدمة.

ماذا تتوقعين من خلف لسلف من العصر الحجرى؟

- ألا تستطيع أن تنظر إلى كإنسان مثلك تماما؟

- إذا كنت نرجسيا.

ـ ها أنت تهزل كما أن أبي يزعق.

وأنت؟

مازلت أطالبك بالوفاء بوعدك.

دعيني أعطك فكرة عنه أولا، هو فنان كبير، ممثل الشاشة الأول في تقدير الكثيرين، وله سياسة معروفة لا يحيد عنها، فإذا تعرف إلى فتاة مثلك أخذها من فوره إلى مسكنه الخاص بالهرم ثم يبدأ من حيث ينتهى غيره.

ـ أشكرك على جميل وصايتك.

- أما زلت عند طلك؟
  - بــــلى . .
  - فقال متحديا:
- ـ حسن، ولكني أطالب بالثمن مقدما!

فتساءلت بحركة من رأسها اضطربت لها خصلة سوداء من شعرها معقوصة في دائرة فوق حاجبها .

- ـ أن تشفيني بزيارة في عمارة الشرق.
- ابتسمت دون تعليق، ودون تصديق.
  - ـ موافقـة؟
- أنا واثقة من أنك أنظف تفكيرا من ذلك.
- ـ لكنى مصاب بشيء من القلق العصرى!
  - ـ لا . . لا تخلط بين الهزل والجد .
    - ثم بأسف:
    - ـ بددت وقتك الثمين.

وأشعلت سيجارة ثالثة. وتبادلا نظرة طويلة. وابتسما معا. وعاود التفكير قليلا في موضوعه. وصفا الجو تماما من سوء الظن. ورجع الاحساس المضطهد بالحرارة والرطوبة. وداعبته قائلة:

- ـ أنت رجعي بقشرة عصرية.
- كلا، أنت لا تصدقين نفسك، ولكنك ممتعة وتلذ مداعبتك، سيتم التعارف في مكتبى بالمجلة فتعالى يوم الأربعاء ـ مصادفة ـ الساعة التاسعة مساء .
  - ـشـکرا.
  - ـ أنا مدين لك بمقالة الأسبوع القادم.
    - ـ سأرى كيف تعالجه.
  - ـ ولكنى عند الكتابة أتقمص شخصية جديدة!
    - فضحكت قائلة:
  - ـ وتراعى حتما ما يجب أن يقال ولو بالكذب على ضميرك.
    - ربما. الحق إن خير ما في لم يعبر عن ذاته بعد.
- ولما رأته ينظر في الكراسة أقلعت عن مناقشته، وأخذت حقيبتها إلى كرسي خال. ومد بصره مرة أخرى إلى القصر النائم الغارق في فخامته المغلقة. أعجب بشرفته المتصلة

بالحديقة، وأعجب أكثر بشرفة الدور الأعلى القائمة على عمودين كمسلتين. ما أحلى الجلوس في الشرفة في ضوء القمر. والتفكير الحر غير المقيد بمواعيد ولا بتقاليد. أو يخت يطوف بك البحار لتعرف أناسا وبلدانا بلا حدود وتحت شرط أن تبقى زوجتك في القاهرة. واللعب بالورد في جزر هاواي. ونبذ موضوعات الأمس واليوم وسائر مشكلات الفقر والجهل والمرض. والتطلع للمجهول وطي التاريخ البشري في لحظة واحدة. وأنت لا تخلو من شك في موهبتك ولكن الانفجارات تغطى على الشك. انفجارات غريبة مثيرة للدهشة متخطية لأي مسئولية، لا تُفهم ولا تسأل ويتعذر الحكم عليها ويتطوع المفسرون لتفسيرها من الحانات والغرز.

ـ ما رأيك يا نادرة في اللامعقول؟

فقالت بحماس:

ـ معقول جدا!

- إنه يلاعبني كحلم.

ـ وأنا أفكر في كتابة مسرحية لا معقولة لمسرح العرائس.

وتنهدت في حسرة وقالت:

ـ لولا أبي لكتبت قصة جنونية عن تجاربي.

وغلبه المزاح فقال:

ـ ويا حبذا لو تضميني إلى التجارب!

ـ لا تهزل وتخيل النجاح الجدير بها.

وانطوت فترة تخيل ممتعة. وغابا في صمت طويل.

وبغتة انفجر صوت حاد انخلع له قلباهما في لحظة واحدة. صوت آدمي صاح «هو». ورأيا رجلا يشد مركبا مطوى الشراع، كأنه واقف لا يتحرك، أو يتحرك في بطء شديد ثقيل كالوقوف، يكاد يلتصق بالسور من الخارج، متأخرا عن مجلسهما مترين، ويجذب المركب بحبل طويل ملفوف حول منكبيه، وهو يلقى بنفسه إلى الأمام، شادا على عضلاته بكل قوة وإصرار، والمركب تزحف أبطأ من سلحفاة فوق ماء راكد وفي هواء ميت، وقد نهض في مقدمتها عجوز مجلب معمم تابع صراع الآخر ببصر كليل وإشفاق. ذهب الرعب وحل محله في صدريهما حنق وغيظ ولكنهما لم ينبسا بكلمة. وظل الرجل يهب عمله الشاق جميع حيويته في عناء مضن حتى حادى مجلسهما. شاب في العشرين، غامق اللون، غليظ القسمات، عارى الرأس حليقه، حافي القدمين، يرتدى جلبابا لا لون له، يكشف عن أعلى الصدر. وينحسر عن ساقين بارزتي العروق من الحزق. وقد جحظت عيناه، وتصلب شدقاه، وأحنى رأسه ليجنب وجهه شمسا حامية. وكلما أعياه الجهد توقف لحظة ليأخذ نفسا عميقا فيصيح به العجوز:

ـ شد حيلك.

فيصيح بدوره:

. هـــو .

ويواصل نضاله القاسى الفظ. وفى الدقائق التى حاذاهما فيها لفحتهما رائحته الآدمية الملبدة بالعرق والتراب فتقلص وجهاهما، وأخفت نادرة أنفها الدقيق فى منديل معبق بشذا جميل، ولكنهما تجاهلا تقززهما وانزعاجهما وهما يراقبان النضال الأليم. وراقباه خطوة خطوة حتى أرهقتهما المشاركة فحولا عنه عينيهما. وتبادلا نظرة، ثم ابتسما فى رثاء، وأشعلا سيجارتين.

شـــهر زاد

١

- ـ ألـو.
- الأستاذ محمو د شكرى؟
- ـ نعم يا فندم، من حضرتك؟
- ـ لا تؤاخذني على إزعاجك دون سابق معرفة.
  - العفو . ممكن أتشرف؟
- الاسم غير مهم، ولكني واحدة من الآلاف اللاتي يعرضن عليك مشاكلهن. .
  - ـ تحت أمرك يا آنسة .
    - ـ سيدة من فضلك.
  - تحت أمرك يا سيدتى .
  - ـ ولكن حكايتي طويلة.
  - ـ لعل من الأفضل أن تكتبي لي؟
    - ـ ولكنى لا أحسن الكتابة.
  - ـ هل تتفضلين بزيارتي في المجلة؟
  - ـ لا أجد الشجاعة الكافية ، على الأقل الآن!

وقف انتباهه عند «الآن» لحظات، ابتسم وهو يستطعم صوتها الرخيم، ثم تساءل:

- ـ وإذن؟
- ـ أطمع في أن تأذن لي بدقائق كل يوم أو كلما سمح وقتك الثمين.
  - ـ طريقة طريفة، تذكرني بطريقة شهر زاد!
- ـ شهر زاد! . . اسم جذاب، اسمح لي باستعارته اسمالي مؤقتا .

فضحك وقال:

- ـ ها هو شهريار يصغى إليك.
- ضحكت أيضا فوجد ضحكتها ممتعة كصوتها، أما هي فتابعت:
- ـ لا تتوقع أن أعرض عليك مشكلة معينة محددة ، إنها حكاية طويلة كما قلت لك ، وهي تعيسة أيضا .
  - ـ أرجو أن تجديني عند حسن ظنك .
  - وأرجو أن توقفني بأي طريقة إذا جاوزت الوقت الذي تهبه لي .
    - ـ تحت أمرك.
- ـ ولكنى أخذت اليوم من وقتك قدرا لا يستهان به فلنؤجل الحديث إلى غد، حسبى الآن أن أعترف لك بأن قلمك الإنساني هو الذي جذبني إليك.
  - ش\_كراً.
  - ـ ليس قلمك فقط ولكن صورتك أيضا!

تساءل باهتمام زائد:

- ـ صـورتى؟
- أجل، قرأت في عينيك الواسعتين نظرة ذكية رحيمة وإنسانية جديرة بأن تدعو الملهوفين على العزاء
  - ـ أكرر الشكر . . (ثم وهو يضحك) . . كلامك لطيف كأنه غزل .
    - إنه إعراب عن أمل إن يكن في الدنيا بعد أمل .
    - أعاد السماعة. ابتسم. قطب مفكرا، عاد يبتسم.

### ۲

- ألو . .
- ـشهر زاد!
- ـ أهلا، أنا في انتظارك.
- ـ سأدخل في الموضوع رأسا كيلا أضيع وقتك.
  - ـ ها أنا مصغ إليك . .
- نشأت يتيمة الأم، وقد تزوج والدنا أعنى أنا وشقيقة تصغرني بعامين فأمضينا طفولتنا وصبانا محرومتين من الحنان والعطف، ولم ننل من التعليم إلا القليل، ولما مات والدنا انتقلنا إلى بيت خالنا وكان لكل منا معاش حوالى الخمسة الجنيهات.
  - ـ لعله تاريخ قديم؟
- ـ بعض الشيء ولكنه ضرورى لا غنى عنه، لم نكن سعداء في بيت خالنا، كان يعدنا عبئا حقيقيًا، شعرنا بغربة وألم، نزلنا عن آخر مليم من معاشنا، وقمنا بخدمة البيت دون اعتراض، المسألة كانت سوء حظ لا أكثر ولا أقل.
  - ـ مفهوم ويا للأسف. .
- ثم كان أن تقدم لطلب يدى ضابط، وكنا ورثنا عن أبينا بيتا قديما فباعه خالى، وجهزنى بنصيبى جهازا عاديا، وقد فهم زوجى من أول الأمر حقيقة وضعنا فلم يتراجع، والواقع أننا عشنا قصة حب كما تقولون واستمرت حتى فيما بعد الزواج.
  - ترى هل ينم حديثك عنها قصة الحب على شيء من التحفظ؟
- ـ ما علينا، المصيبة أنه كان مسرفا، ينفق ما في الجيب بسفه ودون تقدير للعواقب، ولم أعرف كيف أعالجه. حاولت وحاولت ولكن بلا نتيجة.
  - ـ عن هذه النقطة . . أعنى . . ألا تتحملين شيئا من المسئولية؟
- ـ كلا ، صدقنى كنت راغبة في الحياة الزوجية حريصة عليها بكل قوة حبى وما قاسيت قبل ذلك من بؤس وذل ويأس .
  - ـ معقــول!
- ـ كأنك لا تصدقني، مازلت أذكر آراءك عن مسئولية الزوجة عن انحراف زوجها،

ولكن ماذا كان بوسعى أن أفعل؟ . . توسلت إليه بالملاطفة والتحذير والاحتجاج، طالبته بإعطائي المصروف الضروري للبيت في أول الشهر، وكان جوابه المعتاد أن يجيئني بزمرة من أصدقائه، وهات يا أكل وهات يا شرب حتى مطلع الفجر، نمسى في وليمة ونصبح على الحديدة!

- وكيف كانت تمضى الأمور بقية الأيام؟

- يطالبنى بأن ألجأ إلى خالى وكان ذلك مستحيلا، أو أن أقترض من أختى وكان ذلك مستحيلا أيضا إذ كانت موشكة على الزواج، ومن ناحية أخرى كان هو يقترض من أهله، فانقلبت حياتنا مسخا مزريا يستحق الرثاء!

ـ هذا حق. .

- فشل الزواج وانتهى إلى مصيره المحتوم وهو الطلاق، فانتقلت إلى بيت أختى وقد خسرت معاشى لأعانى حياة مريرة ذليلة .

ـ لعل هذه هي المشكلة؟

- صبرك، نحن مازلنا في الماضي، ولن أطيل عليك فقد دعاني زوجي ـ مطلقي ـ بعد مرور عام على طلاقنا لمقابلته، كاشفني برغبته في استئناف حياتنا الزوجية مؤكدا لي أن الحياة أدبته وهذبته، ومضى بي إلى بنسيون يقيم به شارع قصر النيل لنرسم خطة المستقبل، وبمجرد أن رد باب حجرته ضمني إلى صدره مرددا أنه لم يذق للحياة طعما بعد فراقي.

ـ واستسلمت؟

ـ لم أشعر بأننى أعامل رجلا غريبا، وجعلنا نناقش أكثر الوقت إجراءات زواجنا من جديد، وافترقنا وهو يعدني بزيارة خالي في اليوم التالي مباشرة.

ـ صوتك يهبط ويتغير؟

- أجل، ثبت لى بعد ذلك أنه دعانى إلى مقابلته وهو كاتب كتابه الثانى، وتمت دخلته بعد لقائنا بأسبوع، وأن المسألة كانت مجرد نزوة أراد أن يتحرر منها قبل أن يبدأ حياته الجديدة.

ـ يا له من وغد.

- أجل، ولكني لن أثقل عليك أكثر من ذلك، فإلى اللقاء.

#### ٣

- ـ ألــو . .
- شــهر زاد.
- ـ ترى هل أضايقك؟
- ـ بالعكس، استمرى من فضلك.
- ـ أقمت عند أختى زمنا ولكنني شعرت مع الأيام بأنها اقامة غير مرغوب فيها!
  - -لـم؟
  - ـ ذاك كان شعوري وهو لم يخطئ. .
  - ـ كيف وهي أختك التي قاسمتك في الماضي العذاب؟
    - ـ قدِّر فكان!
    - ـزوجها؟!
      - ـ تقريبا!
    - ـ ضاق بوجودك في مسكنه؟
  - تقريبا. المهم أنني اضطررت إلى مغادرة البيت إبقاء على رابطة الأخوة.
    - ـ ولكنك لم تذكري السبب صراحة. دعيني أخمن لعلها الغيرة؟!
      - ـ وهم الغيرة وهو الأصح!
        - ـ ذهبت إلى خالك؟
      - ـ كان قد توفى، فاستأجرت شقة صغيرة.
        - ـ ولكن من أين لك بالنقود؟
- بعت ما يمكن بيعه من جهازى، ورحت أبحث عن عمل، أى عمل، كانت فترة بحث عقيم وجوع، صدقنى لقد عرفت وحشية الجوع، كان اليوم يمضى بلا طعام، أو بلا طعام يذكر، ووجدتنى سألبى مرة ما إحدى الدعوات ـ إياها ـ التى توجه إلى فى الطريق ولكنى كنت أؤجل الاستسلام آملة أن تدركنى رحمة الله قبل أن أهوى، وكنت أطل من النافذة فى سكون الليل فأنظر إلى السماء وأهتف من أعماقى «يا إلهى الرحيم، إنى جائعة . . إنى أموت جوعا»، وكنت أزور أختى كلما خارت

قواى لأتناول وجبة متكاملة، ولكن أحدا لم يسألني عن حالى خشية أن يحمله الجواب مسئولية يريد أن يتجاهلها!

- ـ فظاعة لا تصدق. .
- ـ ويوما قرأت إعلانا يطلب مدبرة منزل لرجل عجوز نظير أجر غير الاقامة والغذاء والكساء.
  - نجدة من السماء.
  - ـ سارعت إليه بلا تردد، وأجرت شقتي . .
  - ـ نهاية رحيمة وبخاصة إذا كان العجوز في حاجة للرعاية وحدها، أعني دون غيرها!
- ـ كان طاعنا في السن، فخدمته بإخلاص، وأنا ماهرة بكل معنى الكلمة في شئون البيت، كنت الطاهية والخادمة والممرضة وحتى الجريدة كنت أقرأها له.
  - جميل . . جميل . .
  - ـ شبعت بعد جوع، واطمأننت بعد خوف، ودعوت الله أن يمد في عمره إلى الأبد.
    - ـ ترى ماذا جدَّ بعد ذلك؟
- ـ كنت أقرأ له الجريدة عندما وقع بصرى على إعلان يطلب مدبرة منزل لرجل عجوز ، ويحيل قارئه إلى عنوان منزلنا؟!
  - .كـلا؟!

## ندت عنه بدهشة واستنكار:

- ـ بلى، وقد ذهلت، تلوت عليه الإعلان فحول عنى عينيه ولكنه لم ينكره، سألته لم يريد الاستغناء عنى، ماذا ضايقه منى، ولكنه لم يفتح فمه.
  - ـ شيء غريب حقا، ولكن لابد من سبب؟
    - لا سبب من ناحيتي إطلاقا!
  - ألم يكن بينك وبينه سوى التدبير المنزلي؟!
    - ـ تقريبا!
  - ـ ما معنى تقريبا؟! . . صارحيني من فضلك؟
  - ـ كان يطلب منى أحيانا أن أقف أمامه عارية!
    - ـ ورفضت؟
    - ـكلا. . أذعنت لإرادته.
    - إذن لماذا يطلب أخرى؟
- ـ من أين لي أن أعلم؟ ، قال إنه رغب في التجديد، وأيا ما كان أمره فقد توسلت إليه

أن يعدل عن رأيه، قلت له إنني وحيدة وفقيرة وليس لى في الدنيا سواه، ولكنه أصر على الرفض والصمت، بدا لى كريها كالموت، فلم أجد بدا من الذهاب.

\* \* \*

٤

- ألــو .
- ـشهر زادتحييك يا أستاذ!
- أهلا أهلا، حكايتك أصبحت شغلى الشاغل يا شهر زاد.
- شكرا يا أستاذ، الحق أن قلبى لم يخدعنى عندما دلنى عليك، والآن فلنواصل حكايتنا، عدت إلى مسكنى وقلت لمستأجره موظف بسيط فى الأربعين إننى فى حاجة إليه، رفض فكرة إخلاء الشقة، ولما وقف على حقيقة حالى قال لى ببساطة: «أقيمى معى!»، فلم أتردد فى القبول، الواقع أن إرادتى تحطمت وهان أى شىء.
  - ـ أفهمت من دعوته؟
- ـ نزل لى عن إحدى الحجرتين اللتين تتكون منهما الشقة وكان كل شيء مفهوما بعد ذلك!
  - المرة الأولى؟
  - ـ نعم، والحق أنه كان رجلا لطيفا ودودا وإنسانا.
    - عظيم.
    - ـ صبرك، فهي السجايا التي بسببها فقدته!
      - ـ حكايتك حكاية!
  - ـ قال لى ذات يوم: «أنت متعلقة بي وأنا كذلك، وعليه فيجب أن نفترق!».
    - ۔نفتہ ق؟!
    - ـ أجل «نفترق». . توقعت أن يقول «نتزوج» ولكنه قال: نفتـرق.
      - ـ فوق ما يتصور العقل!
- استوضحته عما يعنيه فقال بلهجة قاطعة: «عندى من الأسباب ما يمنعنى من الزواج وعليه فيجب أن نفترق»، فقلت له بضراعة: «لم أطالبك بالزواج ولن أطالبك به فلنبق كما نحن»، فقال: «كلا، إنها حياة شاذة، وستجدين نفسك يوما وحيدة طاعنة في السن بلا مورد ولا حقوق فلا مفر من الافتراق».

- ـ رجل غريب، ظاهره طيب، ولكنه أناني أو ماكر.
- ـ المهم أنه ذهب فوجدت نفسي مرة أخرى وحيدة مهددة بالجوع.
  - يا للأسف . .
- ـ ومررت بتجارب مرة، أنت فاهم طبعا، ولكنني سمعت عن قانون جديد للمعاشات يسمح بإعادة المعاش للمطلقة أول مرة، وتبين أنه ينطبق على. .
  - ـ حمــدا لله!
- ـ هو دون الكفاية بلا شك ولكننى اعتدت التقشف، وقد تعلمت التفصيل، فأصبح لى مورد رزق بسيط. ولكنه ـ بالإضافة إلى المعاش ـ حمانى من الموت جوعا أو التدهور في الطرقات.
  - ـ وصلنا أخيرا إلى بر السلامة. .
  - الحمد لله ، غير أني وصلت أيضا إلى المشكلة الحقيقية!
    - المشكلة الحقيقية؟!
    - ـ إنها تتلخص في كلمة واحدة: الوحدة.
      - الوحدة؟
- ـ لا زوج ولا ابن ولا صديق ولا حبيب لى، نهارى وليلى حبيسة شقة صغيرة محرومة من كافة أنواع التسلية، وقد يمر شهر طويل لا أتبادل فيه كلمة مع مخلوق، دائما كثيبة متململة مقطبة، أخاف أحيانا أن أجن وأخاف أحيانا أن أنتحر.
- ـ لا لا، لقد تحملت ما هو أمر من ذلك بشجاعة، وسوف يرزقك الله يوما بابن الحلال.
- ـ لا تكلمنى عن ابن الحـ لال، لقـ د طلب يدى رجل، أرمل وأبو طفلين، ولكننى رفضته بلا تردد. لم تعدلى ثقة في أحد. والطلاق الثاني يعنى قطع المعاش وهو رأسمالي الحقيقي.
  - ـ ولكن رجلا هو أب لطفلين لا شك يحرص على الزوجة بقدر حاجته إليها.
    - ـ إنى أمقت فكرة الزواج، إنها تقترن في ذهني بالغد والجوع.
      - ـ عاودي التفكير.
  - ـ مستحيل، أي شيء إلا الزواج، لا شجاعة عندي لدخول التجربة من جديد.
    - ـ وكيف إذن تتخلصين من الوحدة!
      - ـ هذه هي المشكلة!
      - ـ ولكنك ترفضين حلا موفقا؟

ـ أى شيء إلا الزواج!

وتفكر قليلا ثم سألها:

ـ ما رأيك في أن نتقابل؟

ـ يحصل لي عظيم الشرف!

ابتسم. سرح به الخيال وهو يبتسم. إنه بكل بساطة تدعوه إلى مصادقتها وتطمئنه فى ذات الوقت بأنها لن تطالبه يوما بالزواج. إنه ليس غبيا، وهبو فى حاجة إلى مغامرة جديدة أيضا. لم لا؟ المهم أن تكون جميلة كصوتها. ولكن ما حقيقة قصتها؟ قد تكون حقيقية، لا شبىء بمستحيل. وقد تكون مختلقة من أساسها أو فى بعض مضاعفاتها. السينما فجبرت القوى الخلاقة فى النساء. قد وقد وقد. المهم أن تكون جميلة كصوتها وعند ذاك سأقدم لها تجربة جديدة تضيفها إلى تجاربها السابقة، لن تخلو من حلاوة وستنتهى بالمرارة التى لابد منها لكل شيء فى هذه الدنيا. وجعل يبتسم وهو ينقر على سومان مكتبه بإصبعه.

\* \* \*

وجاءت شهر زاد.

تفحصها بنظر ثاقب وهو يستقبلها ثم وهو يدعوها للجلوس. في الثلاثين من عمرها. لا بأس بها بصفة عامة، يلفها جو ينضح بالمرارة بطريقة ما. حتى نظرتها الباسمة لا تخلو من حزن ونضج أليم ولكنها في جملتها لا بأس بها، بل هي مقبولة لدرجة محترمة. ليس ببعيد أن تكون قصتها حقيقية، ولعلها لم تكذب إلا في صياغة رأيها عن الزواج، فهي لا يمكن أن تمقته ولكنها مضطرة لإعلان ذلك التماسا للصداقة التي تودها بحنين صادق غالبا.

لكن ما له هو وذلك كله؟ . . هي ليست بالمرأة التي تليق به . لا شكلا ولا موضوعا . لا فكرة لها ـ المسكينة ـ عن الفرص المتألقة المتاحة له . وإذن فعليه أن يداري خيبة أمله وأن يعاملها بجدية .

ـ أهلا أهلا، الحق أن قصتك أثرت في أعماقي.

تنهدت قائلة:

ـ إنى ممتنة يا أستاذ.

ـ ولكن عليك أن تواجهي حياتك بشجاعتك المعهودة.

ولكنى . .

فقاطعها قائلا وقد ألحت عليه رغبة مفاجئة في إنهاء المقابلة بأسرع ما يمكن:

- أصغى إلى ، إنك سيدة عظيمة ، من فضل الشقاء علينا أحيانا أن يجعل منا عظماء ، إنك سيدة عظيمة ، وكنت عظيمة حتى في عثراتك العابرة ، وأنت عظيمة في وحدتك ، وستتحقق عظمتك أكثر عندما تقضين على وحدتك بضربة شجاعة فائقة ، سيدتى لا قيمة لحياتنا ، لا معنى لها ، لا جدوى من استمرارها إلا بالإيمان بالناس مهما يصيبنا من الناس ، والإيمان بالله سبحانه وتعالى إيمانا لا يتزعزع مهما وكيفما جرت مقاديره!

ونظر في عينيها فتلقى نظرة مغرورقة بالخيبة والإخفاق، إنها ذكية أيضا. أذكى مما قدر. وها هي تبتسم ابتسامة خفيفة ولكنها أخجلته لدرجة ما. وتمتمت:

ـ إنى مؤمنة بالله يا أستاذ.

فلوح بيده في حماس وقال:

ـ كل ما عداه باطل، سبحانه وتعالى . .



## المحتويسات

P7V	الوجه الآخر	<b>V11</b>	تحت المظلة
۷۳۸	الحاوى خطف الطبق	V1V	النوم
٧٤٤	ثلاثة أيام في اليمن	778	الظــــلأم

#### تحست المظلة

انعقد السحاب وتكاثف كليل هابط ثم تساقط الرذاذ. اجتاح الطريق هواء بارد مفعما بشذا الرطوبة. حث المارة خطاهم غير نفر تجمعوا تحت مظلة المحطة. وأوشكت الرتابة أن تجمد المنظر لولا أن اندفع رجل. اندفع راكضا كالمجنون من شارع جانبى واختفى في شارع آخر على الجانب الآخر. تبعه على الأثر جماعة من الرجال والغلمان وهم يتصايحون «لص . . أمسكوا اللص». وما لبثت الضجة أن خفت رويدا حتى ماتت وتتابع الرذاذ. وخلا الطريق أو كاد أما المتجمعون تحت المظلة فبعضهم ينتظر الباص والبعض لاذ بها خوف البلل. وبعثت ضجة المطاردة مرة أخرى وتدانت في اشتداد وتضخم ثم ظهر المطاردون وهم يقبضون على اللص ومن حولهم الغلمان تهلل بأصوات رفيعة حادة. وعند عرض الطريق في المنتصف حاول اللص الإفلات فأمسكوا به وانهالوا عليه صفعا ولكما فمن شدة الضرب قاوم وضرب كيفما اتفق. وشدت أعين الواقفين عليه صفعا ولكما فمن شدة الضرب قاوم وضرب كيفما اتفق. وشدت أعين الواقفين تحت المظلة إلى المعركة.

- ـ يا لها من ضربات قاسية عنيفة!
  - ـ ستقع جريمة أشد من السرقة!
- انظروا. . الشرطي واقف في مدخل عمارة يتفرج.
  - ـ بل أدار وجهه إلى الناحية الأخرى . .

واشتد الرذاذ فتواصل أسلاكا فضية برهة ثم انهمر المطر. خلا الطريق إلا من

المتعاركين والواقفين تحت المظلة. نال الإعياء من الرجال فكفوا عن تبادل الضربات ولكنهم أحاطوا باللص. وتبادلوا كلمات غير مسموعة معه وهم يلهثون. ثم انغمسوا في مناقشة هامة لم يميزها أحد دون مبالاة بالمطر. التصقت الملابس بأجسادهم ولكنهم واصلوا النقاش بإصرار وبلا أدنى اكتراث بالمطر. ووشت حركات اللص بحرارة دفاعه ولكن لم يصدقه أحد. ولوح بذراعيه فكأنما يخطب ولكن ضاع صوته في البعد وانهلال المطر. إنه بلا شك يخطب. وها هم يصغون إليه. تطلعوا إليه خرسا تحت المطر. وظلت أعين الواقفين تحت المظلة مشدودة إليهم.

- ـ كيف أن الشرطى لا يتحرك!
- لذلك خطرت فكرة . . أن يكون الحدث منظر تصوير سينمائي!
  - ـ لكن الضرب كان حقيقيا.
  - ـ والمناقشة والخطابة تحت المطر؟!

شيء طارئ جذب النظر. فمن ناحية الميدان انطلقت سيارتان في سرعة جنونية. مطاردة حامية فيما بدا. المقدمة تطير طيرا والأخرى توشك أن تدركها. وإذا بالمتقدمة تفرمل بغتة حتى زحفت فوق أديم الأرض فصدمتها الأخرى صدمة عنيفة مدوية. انقلبتا معا محدثتين انفجارا وسرعان ما اشتعلت فيهما النيران. وارتفع صراخ وأنين تحت المطر المنهمر. ولكن لم يهرع أحد من المحدقين به إلى بقايا السيارتين اللتين أدركهما الخراب على بعد أمتار منهم. لم يبالوا بهما كما لا يبالون بالمطر. ولمح الواقفون تحت المظلة آدميا من ضحايا الحادث يزحف ببطء شديد من تحت سيارة ملطخا بالدم. حاول النهوض على وجهه سقطة نهائية.

- كارثة حقيقية بلا أدنى شك.
- الشرطي لا يريد أن يتحرك!
- ـ لابد من وجود تليفون قريب.

ولكن أحدا لم يبرح مكانه خشية المطر. وقد انهل انهلالا مخيفا وقعقع الرعد. وانتهى اللص من خطابه فوقف ينظر إلى مستمعيه بثقة واطمئنان. وفجأة راح يخلع ملابسه حتى تجرد عاريا. رمى بملابسه فوق حطام السيارتين اللتين أطفأ نيرانهما المطر. دار حول نفسه كأنما يستعرض جسمه العارى. تقدم خطوتين وتأخر خطوتين وبدأ يرقص في رشاقة احترافية. وإذا بمطارديه يصفقون له تصفيقات إيقاعية على حين تشابكت أذرع الغلمان وراحوا يدورون من حولهم في دائرة متماسكة. وذهل الواقفون تحت المظلة ولكنهم رغم ذلك استردوا أنفاسهم.

- إن لم يكن منظرا تصويريا فهو الجنون!

- ـ منظر سينمائي بلا ريب وما الشرطي إلا أحدهم ينتظر دوره.
  - ـ وحادث السيارتين؟
- ـ براعة فنية وسوف نكتشف المخرج في النهاية وراء إحدى النوافذ.

فتحت نافذة في عمارة مواجهة للمحطة محدثة صوتا لافتا للنظر. لفتت الأنظار رغم التصفيق وانهمار المطر. ظهر بها رجل كامل الزى فصفر صفيرا متقطعا. وفي الحال فتحت نافذة أخرى في نفس العمارة فظهرت بها امرأة متأهبة الزينة والملابس فاستجابت لصفيره بإشارة من رأسها. اختفيا معا عن أنظار الواقفين تحت المظلة. وبعد قليل غادرا العمارة معا. سارا متشابكي الذراعين بلا مبالاة تحت المطر. وقفا عند السيارتين المهشمتين. تبادلا كلمة. أخذا يخلعان ملابسهما حتى تعريا تماما تحت المطر. استلقت المرأة على الأرض طارحة رأسها فوق جثة القتيل المنكفئ على وجهه. ركع الرجل إلى جانبها. بدأ غزل رقيق بالأيدى والشفاة. ثم غطاها الرجل بجسده ومضى يمارس الحب. وتواصل الرقص والتصفيق ودوران الغلمان وانهمار المطر.

- ـ فضحــة!
- ـ إن لم يكن تصويرا فهو فضيحة، وإن يكن حقيقة فهو جنون.
  - الشرطى يشعل سيجارة.

واستقبل الطريق شبه الخالى حياة جديدة. جاءت من الجنوب قافلة من الجمال. يتقدمها حاد ويقودها رجال ونساء من البدو. عسكرت على مبعدة قصيرة من حلقة اللص الراقص. شدت الجمال إلى أسوار البيوت ونصبت الخيام. وتفرقوا فمنهم من تناول طعامه أو راح يحتسى الشاى أو يدخن وبعضهم غرق في السمر. ومن الشمال جاءت مجموعة من سيارات السياحة محملة بالخواجات. توقفت فيما وراء حلقة اللص ثم غادرها راكبوها من الرجال والنساء فتفرقوا جماعات تستطلع المكان في نهم دون مبالاة بالرقص أو الحب أو الموت أو المطر.

ثم أقبل عمال بناء كثيرون تتبعهم لوريات مثقلة بالأحجار والأسمنت وأدوات البناء . وبسرعة مذهلة شيدوا قبرا رائعا، وعلي مقربة منه أقاموا من الأحجار سريرا كبيرا، فغطوه بالملاءات وزينوا قوائمه بالورد، كل ذلك تحت المطر . ومضوا إلى حطام السيارتين فاستخرجوا منه الجثث، مهشمة الرءوس محترقة الأطراف، وضموا إليها جثة المنكفئ على وجهه من تحت العاشقين اللذين لم يكف عن ممارسة الحب، ثم رصوا الجثث فوق السرير جنبا إلى جنب، وتحولوا إلى العاشقين فحملوهما معا وهما لا ينفصلان فأودعوهما القبر ثم سدوا فوهت وأهالوا عليهما التراب حتى سووها بالأرض.

استقلوا بعد ذلك اللوريات فانطلقت بهم في سرعة عاصفة وهم يهتفون بكلام لم يميزه أحد.

- ـ كأننا في حلم!
- ـ حلم مخيف، ويحسن بنا أن نذهب.
  - ـ بل علينا أن ننتظر.
    - ـ ماذا ننتظر ؟
  - النهاية السعيدة؟!
    - السعدة؟!
  - ـ وإلا فبشر المنتج بكارثة!

فى أثناء الحديث تربع فوق القبر رجل يرتدى روب القضاء. لم ير أحد من أين أتى . من عند الخواجات أو من عند البدو أو من حلقة الرقص لم يعرف أحد . بسط صحيفة بين يديه وراح يتلو نصا كأنما ينطق بحكم . لم يميز كلامه أحد إذ غطى عليه التصفيق وضوضاء الأصوات بشتى اللغات والمطر . ولكن كلماته غير المسموعة لم تضع فانتشرت في الطريق حركات كالأمواج الصاخبة في عنف وتضارب . نشبت معارك في محيط البدو وأخرى في مواقع الخواجات . واشتعلت معارك بين بدو وخواجات . وجعل البدو وأخرى في مواقع الخواجات . واشتعلت معارك بين بدو وبواجات . وجعل أخرون يرقصون ويغنون . وأقبل كثيرون حول القبر وراحوا يمارسون الحب عرايا . وأخذت النشوة اللص فتفنن في رقصه وأبدع . واشتد كل شيء وبلغ غايته . القتل والرقص والحب والموت والرعد والمطر .

واندس بين الواقفين رجل ضخم. عارى الرأس يرتدى بنطلونا وبلوفر أسود وبيده منظار مكبر. شق مكانه بينهم بعنف واستهتار. وجعل يراقب الطريق بمنظاره متجولا به بين الأركان. وتمتم:

ـ لا بأس . . لا بأس . .

تعلقت به أعين المتجمعين تحت المظلة باهتمام:

- ـهـو؟
- ـ نعم. . هو المخرج.
- وعاد الرجل يخاطب الطريق مغمغما:
- ـ استمروا بلا خطأ وإلا اضطررنا لإعادة كل شيء من البدء. . .
  - عند ذاك سأله أحدهم:
    - ـ هل سيادتك . . .

ولكنه قاطعه بإشارة عدائية وحاسمة فازدرد الرجل بقية سؤاله وسكت ولكن آخر استمد من توتر أعصابه شجاعة فسأله :

ـ حضرتك المخرج؟

لم يلتفت إليه وواصل مراقبته. وإذا برأس آدمى يتدحرج نحو المحطة فيستقر على بعد أذرع منه والدماء تتفجر من مقطع العنق بغزارة. صرخ الرجال فزعا أما الرجل فحدق بالرأس مليا ثم غمغم:

ـ برافو . . برافو . .

وصاح به رجل:

ـ ولكنه رأس حقيقي ودم حقيقي.

فوجه الرجل منظاره نحو رجل وامرأة يمارسان الحب ثم هتف نافد الصبر:

ـ غير الوضع . . حذار من الملل . . .

ولكن الآخر صاح به:

ـ ولكنه رأس حقيقي، فمن فضلك فهمنا.

وآخر قال:

ـ كلمة واحدة منك تكفى لنعرف من أنت ومن هؤلاء. . .

وثالث قال بتوسل:

ـ لا شيء يمنعك من الكلام!

ورابع تضرع قائلا:

ـ يا أستاذ لا تضن علينا براحة البال.

ولكن الأستاذ تراجع فى قفزة مباغتة. كأنما كان يدارى نفسه خلفهم. ذاب الصلف فى نظرة مترقبة. وتوارت نفخته. كأنما طعن به السن أو تردى فى مرض. رأى المتجمعون تحت المحطة نفرا من الرجال ذوى هيئة رسمية يتجولون غير بعيد من المحطة كأنهم كلاب تشمم. واندفع الرجل راكضا مجنونا تحت المطر. انتبه إليه رجل من المتجولين فاندفع أيضا صوبه يتبعه الآخرون كعاصفة. وسرعان ما اختفوا جميعا عن الأنظار. مخلفين الطريق للقتل والحب والرقص والمطر.

- ـ يا ألطاف الله! . . لم يكن المخرج كما توهمنا .
  - ـ من يكون؟
  - ـ لعله لص. .
  - ـ أو مجنون هارب!

- ـ أو لعله ومطارديه ضمن المنظر السينمائي.
- ـ هذه أحداث حقيقية لا علاقة لها بالتمثيل.
- ـ ولكن التمثيل هو الفرض الوحيد الذي يجعلها معقولة على نحو ما .
  - ـ لا داعي لاختلاق الفروض.
    - فما تفسيرك لها؟
    - ـ هي حقيقة بصرف النظر.
      - ـ كيف أمكن أن تقع؟
        - ـ هي واقعــة.
    - ـ يجب أن نذهب بأى ثمن.
  - ـ سندعى للشهادة عند التحقيق.
    - ثمة أمل باق. .
  - قال ذلك واتجه ناحية الشرطي وصاح:
    - ـ يا شــاويش. .
- كرر النداء أربعا حتى انتبه إليه الرجل. فقطب متنحنحا فأشار إليه يستدعيه قائلا:
  - ـ من فضلك يا شاويش. .

نظر الشرطي إلى المطر متسخطا ثم حبك المعطف حول جسمه ومضى نحوهم مسرعا حتى وقف تحت المظلة. تفحصهم بقسوة متسائلا:

- ما شأنكم؟
- ـ ألم تر ما يحدث في الطريق؟
  - لم يحول عينيه عنهم وقال:
- ـ كل من كان في المحطة استقل سيارته إلا أنتم فما شأنكم؟
  - انظر إلى هذا الرأس الآدمى!
    - أين بطاقاتكم؟

ومضى يتحقق من شخصياتهم وهو يبتسم ابتسامة ساخرة قاسية ثم سألهم:

- ـ ماذا وراء اجتماعكم هنا؟
- تبادلوا نظرات إنكار وقال أحدهم:
  - ـ لا يعرف أحدنا الآخر!
    - ـ كذبة لم تعد تجدى. .

تراجع خطوتين. . سدد نحوهم البندقية . أطلق النار بسرعة وإحكام. تساقطوا واحدا في إثر الآخر جثة هامدة . انطرحت أجسادهم تحت المظلة أما الرءوس فتوسدت الطوار تحت المطر.

# النـــوم

هذه النخلة الوحيدة في الفناء الترب تذكر بحوش قرافة، يجرى ذلك في خاطره كلما مر عبر الفناء إلى باب البيت الخارجي واعترضه صاحب البيت وهو يرش الأرض بالخرطوم، ناداه قائلا:

ـ أســتاذ.

اللعنة. أبغض يوم عنده يوم يصبح على وجهه. عجوز ناعم، يفتر فوه أحيانا عن ابتسامة كشق في لحاء شجرة.

- أنت شاب وحيد ولكنك مهذب طيب السمعة، لا شكوى من ناحيتك. فبالله ما معنى الجلسات التي تعقد في شقتك لتحضير الأرواح؟!

ـ هل أستجوب عما يدور داخل شقتى؟

- نعم، إذا امتد أثره إلى من حولك، ثم إن لى حقا في مخاطبتك باسم صداقتي القديمة للمرحوم والدك . .

انطبع الامتعاض في صفحة وجهه فقال صاحب البيت:

لم أرك مرة واحدة في صلاة الجمعة!

ـ وما دخل ذلك في موضوعنا؟

- المؤمن لا يهتم بهذه الألاعيب، هذا ما أعنيه!

ضحك الشاب ضحكة قصيرة وقال:

ـ ولكن الاهتمام بذلك يعنى الإيمان بالأرواح.

ـ كلا. يعنى الشك أولا وأخيرا.

فغير الحديث قائلا:

ـ أذكرك بجدار دورة المياه .

ـ لا تتهرب، الحق أن هذه الجلسات تحدث بين السكان اضطرابا غير مستحب.

ـ أنا لا أرتكب فعلا مخالفا للقانون، وأرجو أن الجدار..

- من الأفضل أن نبقى على وفاق.

ثم قال وهو يدفع بماء الخرطوم إلى بعيد:

ـ أما عن أي إصلاح فعليك أن تقوم به بنفسك .

ما أبغض أن يصبح على وجهه يوم العطلة. والطريق شبه خال كشأنه في بواكير العطلات. وثمة سقيفة من السحاب الثابت تمتد فوق الضاحية. واشتد عليه ثقل رأسه عقب ليلة لم ينم فيها أكثر من ساعتين. فبعد انفضاض حلبة التحضير قال لزميله مدرس التاريخ:

- يطيب الآن الحديث في المصير..

وتقضى الليل دون أن يجنوا من النقاش ثمرة. وقال له صديق ضاحكا وهو يغادر الشقة قبيل الفجر:

ـ خير حل أن تتزوج!

وآوى إلى فراشه قلقا ووجه محبوب يتراءى لعينيه. لا ينبغى أن تبقى النخلة وحيدة إلى الأبد. ولم كانت أمه تؤكد له دائما قبيل وفاتها بأيام بأن كل شيء يدعو للحمد؟.. وجد الكازينو خاليا في تلك الساعة المبكرة. واتخذ مجلسه عند مدخل الحديقة الفاصلة بين الكازينو ومحطة الديزل. حياه الجرسون وجاءه بالجرائد. أعد له مع القهوة سندويتش فول فبعد أن شبع ثقل رأسه أكثر وأكثر حتى عجب أين كان النوم وهو يستجديه في فراشه. وتذكر درس المفعول المطلق الذي سيلقيه غدا صباحا على تلاميذه فتذكر بالتالى زميله مدرس التاريخ، قرينه في المناقشات الجنونية.

ـ ولكن ما معنى ذلك؟

ـ أنت مدرس عربي، حسن هل عرفت فعلا بلا فاعل. . ؟

ـ اللغة بحر بلا حدود.

ـ مات محمد، محمد فاعل، ولكن أي فاعل هذا؟!، ولذلك فإني أبحث عما أريد خارج نطاق اللغة. .

وجاء الجرسون لينظف الرخامة فسأله:

- كيف تبرر مطالبتك الزبائن بأثمان الطلبات؟

ابتسم الرجل ابتسامة المعتاد لهذه الأسئلة الغريبة، ثم تناول قروشه ومضى. وقال هو لنفسه: «إنه يبتسم ابتسامة العقلاء، ومع ذلك فما لم نعرف كل شيء فستظل معرفتنا الأشياء الصغيرة القريبة ناقصة وغير مبررة». ورنا إلى السحب حتى ابيض كل شيء في عينيه. ولكن البياض لم يثبت على حال، لعبت به يد ساحرة، تميع وتموج، واستحال

لونا معتما بلا شخصية و لا شكل. واختفى قطار الديزل الواقف فى المحطة أو ذاب فى السحاب. وبدافع من رغبته فى الهدوء المطلق مثل بين يدى بوذا فى الحديقة اليابانية. وسمع صديقه مدرس التاريخ يقول وهو يشير إلى بوذا «الهدوء والحقيقة والانتصار»، ثم أكد قوله مكررا: «الهدوء والحقيقة والهزيمة». وجمع عزيمته على المناقشة ولكن أوراق الشجر اهتزت بصرخة حادة. صرخة طفل أو لعلها صرخة امرأة. وخفق قلبه وانتعش بروح الغزل. وأراد أن يستشهد ببيت من عمر الخيام ولكن هيهات. وناداه صوت. التفت نحو مصدره فرأى صديقه الآخر وقد بادره قائلا: «خير حل أن تتزوج». وأطبق عليه وقع أقدام راكضة. وركض ليلحق بالديزل فزلت قدمه وتهاوى من فوق الطوار. وباه كيف اكتظ المكان بهؤ لاء الناس!.. عشرات وعشرات وعشرات يقفون خارج سور الحديقة الصغيرة. وقوة من الشرطة تعسكر فوق طوار المحطة. حدث تحت السحاب الراكد؟.. وها هـو الجرسون راجعا من الزحام إلى الكازينو. وقد مال الرجل نحوه قائلا:

ـ حضرتك رأيت كل شيء طبعا؟

فقطب متسائلا ومنكرا في آن فواصل الرجل:

ـ سوف تدعى فورا إلى المحقق!

ـ أي محقق يا هذا؟

- ارتكبت الجريمة في المحطة على بعد أمتار من مجلسك.

تساءل ذاهلا:

ـ جريــة؟!

ـ أين كنت يا سيدى؟ ، جريمة القتل فظيعة ، ألا تعرف الآنسة «المولدة»؟

- المـولدة!

ـ قتلها شاب مجنون الله ينتقم منه . .

تقلص وجهه في ألم وذهول، وغمغم:

ـ قتلت. . لا أصدق. . وأين هي؟

ـ حملوها إلى المستشفى لإسعافها ولكنها ماتت في الطريق.

ـ ماتت!

ـ ألم ترها وهي تقتل على بعد أمتار منك؟

وبعد صمت عاد يقول:

ـ كيف لم ترها؟! أما أنا فكنت مشغولا في الداخل ثم خرجنا على صوت الصراخ، كان الملعون يطاردها وهي تجرى أمامه حتى طعنها في المكان الذي يقف فيه المحقق.

ـ والقاتل؟

- استطاع الهرب، حتى الآن على الأقل، شاب صغير، رآه ناظر المحطة وهو يثب فوق السور ويستقل دراجة بخارية، ولكن سيقبض عليه عاجلا أو آجلا.

اشتد تقلص وجهه بالألم حتى تقوض في مجلسه. ومضى الجرسون عنه وهو يقول:

ـ كيف لم تر الحادثة التي وقعت بين يديك؟!

وأقبل شرطى فدعاه إلى لقاء المحقق. قرر أن يركز فكره المشتت مهما كلفه ذلك من عناء. نظر في ساعته فأدرك أنه نام ساعة على الأقل. ومضى مع الشرطى وهو يجر رجليه. بدأ السؤال كالعادة بالاسم والسن والعمل.

ـ متى جلست في الكازينو؟

ـ في السابعة صباحا على وجه التقريب.

ـ ألم تغادر مجلسك طيلة الوقت؟

.كــلا.

ماذا رأيت، حدثنا بالتفصيل من فضلك؟

ـ لـم أر شيئا!

ـ كيف؟! لقد ارتكبت الجريمة في هذا الموضع، فكيف لم تر شيئا؟

ـ كنت نائمًا!

ـ نائمــــًا!

أجاب باستحياء:

۔نعــم.

ـ لم توقظك المطاردة؟

ـ كـــلا.

ـ ولا الصراخ؟

هز رأسه نفيا وهو يعض على شفتيه .

ـ ولا استغاثتها وهي تناديك باسمك؟

تأوه هاتفا:

اسمى!

- أجل لقد نادتك مرارا، ورجح الشهود أنها كانت تجرى نحوك مستغيثة بك!

حملق في وجهه بذهول وتمتم في توسل:

```
ـ كـــلا!
```

- هو الواقع.

أغمض عينيه ولم يعد يلقى بالا إلى المحقق أو أسئلته حتى قال له هذا في ضجر:

- أجب . . عليك أن تجيب . .
  - إنى في غاية من التعاسة . .
- أكانت ثمة علاقة بينك وبينها؟
  - ـ كـــلا.
  - ـ ولكنها نادتك باسمك!
- ـ نحن من ضاحية واحدة ونقيم في شارعين متجاورين. .
- ـ شهد شهود بأنهم كثيرا ما رأوكما تقفان متقاربين في انتظار الديزل؟
  - ـ توافق في المواعيد بحكم العمل ليس إلا. .
    - أليس لاستغاثتها بك دلالة ما؟
    - ـ لعلها كانت تشعر بإعجابي بها!
    - إذن كانت هناك علاقة من نوع ما .
      - ـربـا.
      - ثم بانفعال قاهر . .
  - كنت أحبها . . كنت أفكر كثيراً في طلب يدها .
    - أو لم تفعل شيئا في سبيل ذلك؟
    - كلا . . لم أكن اتخذت قرارا بعد . .
      - ـ ووقعت الواقعة وأنت نائم؟
        - أطرق في خزى أليم:
  - والآخر . . أعنى القاتل . . أليس لديك فكرة عنه؟
    - ـ كــــلا.
    - ألم تسمع عن علاقة لها بآخر؟
      - ـ كـــــلا.
      - ألم تر أحدا يحوم حولها؟
        - ـ كـــلا.
        - ـ هل لديك أقوال أخرى؟

ـ كــــلا .

مازالت السماء محجوبة وراء سقيفة السحاب الجامد. وتساقط رذاذ دقيقة واحدة ثم انقطع. هام على وجهه طويلا.

انقضى النهار وهو يهيم على وجهه. كأنما يداوى أزمته الطاحنة بالحركة المرهقة. وصادفه مدرس التاريخ أمام الحديقة اليابانية. هز يده مصافحا وهو يقول:

ـ تعال نجلس سويا، بي رغبة في الحديث.

فقال بفتور:

ـ من غير مؤاخذة لا رغبة لي في الأحاديث الميتافيزيقية .

مط الرجل بوزه آسفا وتساءل:

ـ أحق ما يقولون من أن المولدة قتلت أمامك وأنت نائم؟

فسأله غاضبا:

ـ من أدراك بذلك؟

أجاب بنبرة المعتذر:

ـ سمعت به عند الحلاق!

- أمن العجب أن ينعس إنسان متعب؟ . . وما ذنبه إذا قامت القيامة في أثناء ذلك؟ ضحك الزميل وقال ملاطفا :

ـ لا تغضب ولكني لم أكن أعلم بالعلاقة بينك وبين المولدة.

ـ أى علاقة! . . أنت مجنون . .

ـ أعتذر . . أعتذر . . هذا ما سمعتهم يقولونه في دكان الحلاق . .

مضى فى سبيله الذى لا هدف له. اللعنة، ستنتفخ الشائعات كالمناطيد. ولن ترد قوة الجميلة اليانعة إلى الحياة، حسرة لا دواء لها. واستغاثتها اليائسة ارتطمت بجدار النوم ولكنها نفذت بطرق سحرية إلى آذان الضاحية. أيتها التعيسة إنى أتعس منك. وقال له بائع السجاير وهو يعطيه العلبة:

ـ لا بأس عليك يا أستاذ، البقية في حياتك.

اللعنة. لا يبدو أن أحدا يجهل الواقعة. وها هم يقدمون له العزاء مسلمين بداهة بعلاقته بها، ها هي الخطبة تعلن بعد الوفاة. وربما تمادت الظنون وراء ذلك.

ورماه البدَّال بنظرة ذات معنى. ما البدَّال! . . يخيل إليه أن الأعين كلها تتعقبه . إنه فى الواقع مطارد، متهم، مجرم . إنه مسئول عن الاستغاثة الضائعة لا مفر . وغدا فى المدرسة تنهال عليه الأسئلة . الجحيم الحقيقى ستندلع نيرانه فى حوش المدرسة . تخبط طويلا. تلقى أقوالا كثيرة كلها مثيرة مؤلمة. إنه حديث الضاحية. لا حديث للضاحية إلا الجريمة والنوم. «قبض على القاتل وهو تلميذ بالثانوى». إذن قتلها العبث وجنون العيال. «كان القاتل يحبها ولكنها لم تشجعه». لذلك بدت له دائمًا رزينة وجادة. «من المؤكد أنها كانت تحب مدرس اللغة العربية». يا للحسرة. . شغل عن إسعادها بجلسات تحضير الأرواح ومنعه من إنقاذها النوم. «قال في التحقيق إنه كان نائمًا، أليس عجيبًا ألا يوقظه الصراخ والمطاردة والاستغاثة»، إنه لعجيب حقا ولكنهم لا يعلمون أنه قضى الليل في تحضير الأرواح وأحاديث المصير. اعتصر الألم قلبه فتجرعه سما بطيئا. واضطر أخيرًا إلى الرجوع إلى البيت وهو كاره. كان المساء يغشى حجاب السحاب بغلالة معتمة. وجد صاحب البيت يقتعد أريكة تحت النخلة الوحيدة. استقبله بلطف وقال:

ـ تبدو متعبا، أرجو ألا يكون حديثي معك في الصباح قد ضايقك؟

هز رأسه نافيا فخفض الرجل صوته وهو يسأله:

ـ أحق ما يقال . . . ؟

فقاطعه بحدة:

- أجل. . قتلت المولدة على بعد أمتار من مجلسي في الكازينو وأنا نائم، هذه هي المعجزة الثامنة!

ـ لم أقصد يا بني أن . .

فقاطعه مرة أخرى:

ـ ولم أسمع استغاثتها، وفي قول آخر أني سمعته ولكني تناومت. . .

أقبل عليه الرجل معتذرا متأسفا، وأخذه من ذراعه فأجلسه إلى جانبه قائلا:

ـ كان المرحوم والدك صديقي، لا تؤاخذني يا بني. . .

ومضت فترة غير قصيرة في صمت وحذر ثم استأذن في الانصراف فأوصله الرجل حتى الباب الداخلي. وهناك همس في أذنه:

ـ أكرر الرجاء فيما قلته لك في جلسات تحضير الأرواح .

استلقى على الفراش وهو من العناء في غاية، ثم غمغم مغمض العينين:

ما أحوجني إلى نوم طويل، طويل بلا نهاية! . .

# الظــــلام

كثيف الظلام كأنه جدار غليظ لا يمكن أن تخترقه عين. لا شيء يرى ألبتة. إنهم يجتمعون في عدم، ولا صوت إلا قرقرة الجوزة، والجوزة تدور حتى تتم دورتها في الظلام فترجع إلى المعلم بطريقة ميكانيكية. وكثيرا ما كان المعلم يقول:

ـ إني أرى في الظلام، اعتدت ذلك لطول معاشرة السجون والخــلاء. .

إذن فهو يراهم على حين أنهم لا يرونه ولا يرون شيئا. وبسبب الظلام يعيش كل منهم في عالم خاص به مغلق الأبواب عليه. يجيئون من أماكن مختلفة، متباعدة ومتقاربة، لا يدرى أحد عن الآخر شيئا، يشدهم إلى هذه الحجرة داء واحد. والمعلم يدعوهم واعدا إياهم بالأمان والستر، وكلما دعا أحدهم قال له:

- في عزبة النخل دارى. وفي حوشها الخلفي فيما يلى الحقول شيدت حجرة مرتفعة ، معزولة عن الأرض بلا موصل يفضى إليها ، ستصعد إليها على سلم خشبي سرعان ما يطرح تحت أكوام التبن ، فهي حصن لا يكبس ، ولها من الظلام حولها حصن آخر .

أجل، ها هم معلقون في الهواء، غائصون في الظلام، كأنما يعيشون في الزمن الذي لم تكن الأعين قد خلقت فيه بعد. وكل يد تلامس اليد المجاورة عند تناول الجوزة ولكن يد من هي؟ أي شخص وأي هوية؟

ويضحك المعلم ويقول:

ـ نحن مدينون للظلمة بالسلام الذي ننعم به صدقوني فإنني رجل مجرب!

لم يتوقع يوما أن يناقشه أحد خشية أن يفضحه صوته لدى آخر عمن يكفنهم الظلام. وكان يقول لهم:

- ـ لو تعارفتم على ضوء شمعة لتبادلتم أحاديث لا نهاية لها، ولاحتد الخلاف بينكم، ولانقلب المجلس جحيما لا يطاق، وطالب اللذة لا يحب ذلك أما أنا فأمقته مقتا.
  - وندت من الظلام همس ضحكات مكتومة فقال:
- ـ أعرف بينكم أناسا مختلفي الأديان والآراء وها أنتم تمضون وقتا طيبا في سلام بفضل الظلام والصمت!

ند الهمس من جديد. لعلهم يسخرون كعادتهم ولو في سرهم. يا لها من طريقة

طريفة لمعالجة التفرقة الدينية والفكرية! . . يسخرون وهم لا يعرفون للحجرة التي يترددون عليها شكلا إلا مس الشلت والحصيرة المفروشة بينها! . . وهو يسعل كثيرا ثم يقول بصوت كالقرقرة :

ـ إن أحدكم قد يلقى جليسه فى مكان فلا يعرفه، قد يكون زميلا فى مصلحة أو عضوا فى أسرة، قد يريد له الخير أو يضمر الرغبة فى قتله، كل ذلك طريف للغاية!

إنهم جميعا غارقون في الإثم، وحامل الإثم جبان، ولذلك فهم يكتمون الضحكات فتضغط وتمط في صوت فحيح زاحف في الظلمة، ويضحك عاليا ويقول:

- إنى أعرفكم جميعا، الاسم والعمل والمكانة، أما أنا فلا يهمنى شيء، لا يكبل الإنسان مثل حرصه المضحك على حسن السمعة، وما سر الحرية التي أتمتع بها إلا السجن والخلاء وسوء السمعة!

يا له من صوت كالقرقرة، ونبرة لا تخلو أبدا من السخرية والثقة بالنفس، وسوء سمعته جدير بتخويف الناس من مجلسه لولا دبلوماسيته في معاملة السلطات. وعنده يجد المصاب ما لا يجد عند غيره من الصلف والطمأنينة. ويقبع في الظلام محتكرا الكلام والرؤية. ومرة قال ضاحكا:

ـ إنكم جميعا من السادة ، لكم منزلة تخافون عليها . أما الفقراء فلا يخافون على شيء ولذلك فلا مكان لهم عندي ، ولذلك فهم لا يؤمنون بالظلام والصمت . .

هذا الرجل رغم حقارته ذو مكانة يؤمن بها المصابون بالأدواء. يتلقون أياديه بامتنان. ولا ينتشلهم من العدم إلا عيناه المحطمتان لجدار الظلمة. وهو أحدب مغضون الوجه قصير القامة، نيف على السبعين ولكنه ذو حيوية شيطانية. ويسألهم ضاحكا:

ـ لمَ لا تجعلون من حياتكم كلها امتدادا جميلا لهذه الجلسة؟

ثم قال وكأنه يجيب على سؤاله:

ـ ستقولون العمل. . الأسرة. . الواجب.

وضحك ساخرا ثم واصل قائلا:

ـ لكنه لا شيء إلا الظلام والصمت!

وتنقضي فترة طويلة في صمت ثم يعود قائلا:

- إنى أسخر منكم بالكلام الفارغ وأنتم تسخرون منى فى قلوبكم بالصمت، وهذا يعنى أنكم لا تتعلمون، أما أنا فقد حققت لنفسى المعجزة، رغم أنف الدنيا، فلا أسرة لى ولا عمل إذ إن الموزع فى الحقيقة لا عمل حقيقيا له، وفى غمرة الذهول وجريان الأيام على وتيرة واحدة تبدو لى الحياة طويلة كثيفة مثقلة بالملل فلا أخاف الموت، من منكم لا يخاف الموت!

وبرغم حقارته، برغم ما يثيره في النفوس من سخرية خرساء، فقد مس وترا حساسا. ولكن من يصدق أنه لا يخاف الموت؟ . ولِمَ إذن بني هذه الحجرة المعزولة في الهواء والخلاء؟

وفي ذات ليلة قال لهم بثقة:

- في هذه الحجرة خلاصة مركزة لحكمة الحياة.

وكف عن الكلام طويلا. وإذا بالجوزة تتوقف عن الدوران. ظنوه ينشد شيئا من الراحة بخلاف عادته. وانتظروا فطال بهم الانتظار في الصمت والظلام. انتظروا وانتظروا ولكن لم يجد جديد. استهلكوا قدرتهم على الانتظار. تنحنح بعضهم استحثاثا له على العمل ولكن دون جدوى، هل نام الرجل؟ هل أغمى عليه؟ هل مات؟ وأقربهم إلى موضعه مد يده متحسسا مكانه ثم همس بقلق:

ـ ليس الرجل في مكانه!

وألصقهم بالباب قام ليفتحه ولكنه همس في اضطراب:

- الباب مغلق بإحكام.

واضطر أحدهم إلى رفع صوته قائلا:

ـ لا بد من وجود نافذة فليفتش عنها كل فيما يليه من الجدار . ومضت فترة في التفتيش ثم تتابعت الأصوات :

ـ لا توجد نافذة. . لا توجد نافذة. .

واستهانوا بالستر فقرروا إشعال أعواد الثقاب ليتبينوا موقفهم. ولكن أحدا لم يجد علبة ثقابه. علبة السجار بمكانها أما الثقاب فلا أثر له! لا يمكن أن يقع ذلك مصادفة. سرق الثقاب! ولكن من السارق ولم سرقه؟ وماذا يراد بهم؟! ونادوا المعلم، نادوه بأصوات غاضبة، نادوه بأصوات رعدية ولكن لا مجيب، لا مجيب على الإطلاق، ولا صوت.

- أين ومتى ذهب؟
- ـ من أي منفذ تسلل؟
  - ـ ما معنى اختفائه؟
- كيف ولم سرق الثقاب؟
- ـ لعله ذهب لقضاء أمر فدهمه حادث.
  - ـ ولم أغلق الباب؟
  - ـ ولم سرق الثقاب؟

- ـ أهزر وراء ذلك أم شر؟
- ـ نحن مهددون في الظلام . . .

وعادوا ينادون الرجل فترتطم أصواتهم بالجدران الصماء. بحت حناجرهم، وكلت قبضاتهم من دق الحيطان. وأطبق عليهم اليأس في الظلام. ما عسى أن نفعل؟ هل ننتظر إلى ما لا نهاية؟ نستسلم حتى يتقرر مصيرنا؟. وما مصيرنا؟ هل جن الرجل؟ استكانوا إلى مقاعدهم فوق الشلت وهم في نهاية من الإعياء، كأنهم جروا شوطا قطع منهم الأنفاس أو خاضوا معركة مزقت الأوصال، حتى الخوف باخ تحت وطأة التلبد الذي أخلفه الوهن، وتثاءب شخص بصوت مسموع فجرى التثاؤب من فم إلى فم. وتساءل صوت:

ـ ترى هل سرقت علبة الثقاب وحدها؟

وفتشت الأيدى الجيوب حتى صاح أحدهم:

- بطاقة الشخصية! . . لا أثر للبطاقة . .

وتتابعت الأصوات:

ـ وبطاقتي أيضا. .

ـ النقود موجودة أما البطاقة فلا أثر لها.

ـ ما معنى هذا اللغز؟!

وأكثر من شخص أراد معاودة النداء فخذله صوته. وعاد التثاؤب يتردد في نغمة ممطوطة مسترخية. ثم ساد في الظلام صمت ثقيل كأنه النوم أو الموت.

وإذا بصوت يشق الظلام متسائلا في هدوء:

ـ كيف حالكم؟

تردد الصوت في الظلام وحده ولكن دون رد فعل فعاد يتساءل مرتفعا درجات:

ـ هوه. . كيف حالكم؟

وندت حركة ضعيفة في الظلام أعقبها صوت يقول بنبرة فازعة للأمل:

المعلم! . . من؟ . . المعلم؟

واستبقت الأصوات مرددة: المعلم. . المعلم. . فعاد الصوت يتساءل متهكما:

ـ كيف حالكم؟

ـ تسأل عن حالنا! . . أنت! . . أي دعابة سمجة؟!

ـ كيف حالكم، هذا ما أسأل عنه.

ـ أين كنت يا رجل؟

- ـ أنا لم أبرح مكاني . . .
- ألا زلت مصرا على العبث بنا؟
- صدقوني فأنا لم أبرح مكاني طيلة الوقت.
- كذاب . . تحسسنا موضعك فلم نجد لك أثرا .
  - ـ لم يحرك أحد منكم ساكنا . .
- ـ أيها المكابر . . لقد ناديناك حتى بحت أصواتنا ودققنا الجدران حتى كلت أيدينا .
  - ـ لم يحرك أحد منكم ساكنا، صدقوني، وكنت طيلة الوقت بينكم!
    - ـ ما زلت متوهما أنك قادر على العبث بنا!
  - ـ صدقوني . . لم أفعل شيئا سوى أن أخذت بطاقاتكم وعلب الثقاب .
  - ـ ها أنت تعترف . . كف عن العبث . . لم نكن نعرف أنك نشال ماكسر .
    - ـ بل أخذتها وأنتم نيام. .
      - ـنيـام!
      - ـ أجل وأنتم نيام . .
    - ـ لم يغمض لأحد منا جفن.
    - بل نمتم ساعة كاملة على الأقل أنجزت فيها مهمتي.
      - أنت مطالب بأن تفسر لنا سلوكك الشاذ.
- ـ طيب . . خطر لي أن أقوم بتجربة فذة . . خدرتكم بخلطة عجيبة من ابتكاري . .
  - -إنك تهذى. .
  - ـ ستفقدون ذاكرتكم قبل طلوع الفجر.
    - ـ رد إلينا مسروقاتنا وافتح الباب.
- ـ واستغرقتم في النوم ساعة كاملة تبعا للخطة، ثم استيقظتم، وتثاءبتم، وندت عنكم همسات لا معنى لها، ثم تكلمت أنا!
  - ـ لن يجدى خداعك. .
  - ـ نمتم ساعة بدليل أنني أخذت ما أردت أخذه منكم وأنتم لا تشعرون.
    - ـ ولكننى تحسست مكانك بيدى فلم أجدك.
      - لم يكن باستطاعتك أن تحرك يدك.
      - ـ ودققنا الجدار ونادينا بأصوات كالرعد. .
- عجزتم عن ذلك كما تعجزون عنه الأن، ولكنكم توهمتم أفعالا لم تخرج في

- حقيقتها عن نطاق رءوسكم، كانت أفعالكم كالظلام الذي يلفكم لا وجود حقيقيا لها. .
  - ـ ألا ترى أننا غير مستعدين للهزل؟
  - ـ ستفقدون الذاكرة قبل الفجر، لن يعرف أحدكم نفسه فضلا عن الآخرين!
    - ـ ألا تــرى..
  - ـ لذلك استوليت على بطاقاتكم، لن يعرف أحدكم نفسه وهيهات أن يعرفه أحد.
    - اغسل رأسك بماء بارد . . أسرع . .
    - ـ غدا صباحا لن يوجد منكم أحد، ستختفون كما اختفت بطاقاتكم. .
      - ـ هل جننت يا رجل؟
- ـ ليكن، ماذا جنيتم من عقلى؟، فلتجربوا جنونى، سوف أخدر نفسى بابتكارى العـجـيب، ومن حـسن الحظ أننى لا أملك بطاقـة من الأصل، فلنشكر للظلام والصمت والليل أياديها. .
  - ـ يا مجنون يا مخرف. .
- ستفقدون القدرة على الكلام كما فقدتم القدرة على الحركة، سوف ألحق بكم أعدكم بذلك، انطرحوا جثثا فوق الشلت فغدا سيستقبلكم الخلاء أجسادا فتية مبللة بندى الحقول.

وساد الصمت. لم ينبس أحدهم بكلمة، وترددت أنفاس نوم عميق. وجعل ينقل بصره من واحد لآخر ثم تنهد بارتياح متمتما:

ـ مبللة بندى الحقول.

# الوجــه الآخــر

زارنى عثمان بعد غياب طال بسبب خدمة طويلة فى الأقاليم. تعانقنا بحرارة. تذاكرنا عهدا ماضيا امتد من الطفولة مارا بالشباب حتى الكهولة. وقد عاد ليشغل وظيفة هامة رئيسية فى جهاز الأمن عقب انتصارات خطيرة أحرزها فى مطاردة المجرمين. وبعد أن شرق بنا الحديث وغرب سألنى:

ـ هل ترى رمضان؟

توقعت هذا السؤال طيلة الحديث. حدثني قلبي بأنه آت لا ريب فيه. وأجبت بأمانة:

- ـ أجل، بين حين وآخر..
  - ـ مازلتما صديقين؟
- ـ أليس غريبا أن تظلا صديقين وأنت المربى الفاضل؟!
- الأمر لا يخلو من غرابة ولكنها عشرة عمر، ثم إنه يلقاني إذا جاء كشخص أليف مستأنس كأنما لا يمت بصلة إلى الشخص الآخر المثير للفزع. .
  - ـ لا أتصور ذلك!
- ـ ولكنها حقيقة، وعلاقته بي هي العلاقة الإنسانية الوحيدة في حياته فلا عجب أن يحرص عليها. .
  - ـ قد يدهمك بغدره على غير انتظار.
    - لا سبب يدعو إلى ذلك البتة . .

تنهد بحزن عميق. وشاركته مشاعره. إنه شقيقه. وهو يمثل نقطة سوداء دامية فى حياته وحياة أسرته. نشآ فى بيت واحد. نشأنا فى حارة واحدة تحت ظل جيرة حميمة.. ولكن رمضان كان دائما ريحا هوجاء تعصف الوجوه بالطين والتراب. وسألنى:

ـ هل تستطيع أن تهيئ لي لقاء معه في بيته؟

تفكرت مليا في قلق فعاد يقول بإلحاح:

- ـ لا بد من ذلك، إنى مسئول عن الأمن، وأنت أدرى بما في موقفي من حرج. .
  - ـ ولكنه . . . أعني . . .
  - ـ ولكنه يمقتني ويسيء بي الظن، غير أنه سيثق في كلمتك . .
- أعدك بالسعى إلى تحقيق رغبتك، ولكن عدني بالتزام الحلم إلى أقصى حد مهما لقيت من استفزاز.
- ـ ليس في نيتي طبعا أن أعرض بيتك المنعزل في الضاحية الهادئة للفضيحة . . إني أعطيك كلمة شرف وأنت أدرى بقدرتي على ضبط النفس .
  - ـ وقد وعدتك. .
  - ـ تبدو غير متحمس؟
    - ـ فعــــلا. .
    - ـ وتراه لقاء عقيما؟
      - ـ أى نعــم .
    - ـ ولكن لا بد منه. .

ـ أي نعــــم .

وتبادلنا نظرة طويلة حزينة. وتلبدت سماؤنا بغيوم الذكريات المتجهمة. الصداقة الحميمة وقوى الهوس الصبياني التي انقلبت مع الزمن شرا كاسرا. وقال بنبرة كئيبة:

ـ لم أكن أتخيل أنه سيتردى إلى هذه الدرجة من الحضيض!

ـ ولا أنا، ولو أن العمر والتجربة ومزاولة التربية لم تدع لي مجالا واسعا للدهشة.

ـ وكم أرقتني أنباء تدهوره وأنا بعيد عن العاصمة.

ـ لم يكن في الوسع صنع شيء.

ـ لا أشك في أنك حاولت الإصلاح ما وسعك ذلك!

ـ طبعا، ولكن النصيحة تؤجج ناره، فتجنب الحديث الشائك.

ـ واحتفظت بصداقته رغم ذلك؟

- كان الذي بيننا أعمق من أخوة حميمة، ثم إن الإنسان الذي يجيء لمقابلتي إنسان آخر، طيب المعشر عامر بأجمل الذكريات، يفيض بالود قلبه. .

ـ وكيف تفسر ذلك؟

- إن الحيّة الغادرة لا تخلو من عواطف أمومة!

ـ ولكنك تعلم أنه وحش قذر وعار إنساني!

لن أدافع عن نفسى فإنى صديقه كما أنك شقيقه . .

ـ لازلت أعجب أنك لم تقطعه!

داريت ابتسامة كئيبة وقلت:

ـ إنه ليس كائنا من جنس آخر غير جنسنا، الحكاية أنه أسير الأهواء التي وفقنا إلى كبحها. .

ـ هو الفرق بين المدنية والوحشية . .

- إنى لا أدافع عن انحرافه . .

ولذنا بالصمت مليا ثم عاد يسأل:

ـ هل زرت مخبأه في الجبل؟

تساءلت بدوري ضاحكا:

ـ هل تبدأ التحقيق معي؟

فضحك ضحكة فاترة ولم ينبس فقلت:

ـ لا أدرى شيئا عن هذا المخبأ المزعوم.

### فقال بامتعاض:

- ـ اعتداء، برمجة، بلطجة، مخدرات، عربدة، سرقة ونهب، هتك أعراض. .
  - أما المبالغات فقد خلقت منه أسطورة . .
    - إنى أعرفه من المهد، وأنت كذلك. .
      - ـ أى نعــم!
      - ـ كنا ثلاثة، وكنا واحدا. .
        - أجــــل . .
      - ـ انظر كيف انشق وانحرف. .
        - ياللأسف . .
        - ـشرير بطبعه!
  - ـ الأفضل أن نقول إن ثمة معاملات صادفته داخل البيت وأخرى في الطريق.
    - ـ لا هذه ولا تلك يمكن أن تبرر هذا المصير الأسود.
      - ـ أنا لا أدافع عنه، ولا جدوى من ذلك. .
  - نهض وهو يقول إنه آن له أن يذهب، ذكرني بوعدي، ثم ودعني وانصرف.

\* \* \*

وقلت لرمضان ونحن نحتسي الشاي بعد العشاء:

ـ أحدهم يروم مقابلتك.

حدجنى بنظرة ثاقبة. نظرة ينفذ بها إلى باطن محدثه إذا تشمم وراء كلماته أمرا. وقال متهكما:

- إن تكن امرأة فأهلا وسهلا بها. .
  - وأدركت أنه أدرك بساطة:
  - إنه رجل، ومن رجال الأمن.
    - فقال مقطبا:
- ـ توقعت ذلك مذ علمت بعودته إلى العاصمة .
  - ـ هذا يقطع بحسن ظنك به . .
- فتقلص وجهه غضبا ـ وما أسرع انفعالاته ـ وقال :
- اللعنــة! . . إنه مثــال العقل كما يقولون، ولعله ازداد مع الأيام ثقل ظل. .
  - ـ لا شك أن وراء رغبته بواعث طيبة. .

- ـ منذ المهد وهو يود القضاء على "!
- كان يود لك أن تسلك في الدنيا مسلكه . .
- العقل. . الاتزان. . الاعتدال. . النظام. . الاجتهاد. . الأدب، إنه رمز الموت في عينيّ!

يا للذكرى. شدّ ما تبادلا المقت. وبازدراء متقزز كان عثمان يقول عنه «عاصفة مجنونة.. نزوة بلا ضابط.. ثور هائج معصوب العينين.. مجموعة من الأكاذيب والخرافات». شد ما تبادلا المقت ولكن من الغريب أننى أحببتهما معا. عثمان كان الرفيق الذى شجعنى على الدرس والخلق والوطنية وأما رمضان فكنت أهرع إليه ليروى ظمئى المكبوت إلى الانطلاق والأسطورة والغاية. وقلت له:

- إنه أخوك على أي حال.
  - ـ ماذا يريد منى؟
- ـ ليس من الصعب أن نتخيل . .
  - ـ لعلها مكيدة!
  - فقلت محتجا:
  - كلا . . ألف مرة كلا . .
- العقل يعنى الحكمة والأنانية والجبن!
  - ـ لك أن ترفض إذا شئت. .
  - ـ يجب أن يعرف أنني لا أخشاه .
    - ـ إذن فلنجدد موعدا؟
    - ـ ولكنى لن أقع كذبابة . .
      - والرأى؟
      - ـ لعله يريد أن ينتقم؟!
- لقد انقضى الماضي واختفى وهو اليوم زوج وأب سعيد.

تذكرت عروس عثمان الأولى التي هربت مع رمضان موقعة بالأسرة زلزالا. وكيف عاملها بعد معاشرة أسبوع بوحشية حتى اضطرت إلى الاختفاء مجللة بالعار واليأس. وعدت أقول:

- لقد مضى ذلك وانقضى! ولك أن ترفض إذا شئت.
  - فتفكر مليا ثم قال:
- ـ ادْعُه . . وسوف أحضر متأخرا بعد أن آخذ حذري . .

وجاءنا رمضان ونحن ندخن في حجرة المكتب. ووقف عثمان لاستقباله فالتقيا وجها لوجه بعد فراق ربع قرن من الزمان. نظرت إليهما باهتمام محموم وقلبي يخفق. تقابلا بوجهين جامدين لم يتحركا باختلاجة عاطفية واحدة. وتصافحا مصافحة رسمية باردة، وقال عثمان:

ـ أشكرك على قبول دعوتي . .

وجلس عثمان على حين جلس رمضان إلى جانبي على الكنبة. واقترحت أن أنصرف ولكنهما أصرا ـ معا ـ على استبقائي. وقال عثمان مخاطبا أخاه:

ـ لا أظنك تجهل السبب الذي دعوتك من أجله . . ؟

قال رمضان ببرود:

ـ صارحني بما لديك.

ـ طيب نحن نعمل الآن في مدينة واحدة، ويحسن بنا أن نتجنب ـ ما وسعنا ذلك ـ وقوع المأساة .

- المأساة؟!

لم يخدع بتجاهله إذ كان على يقين من إدراكه لما يعنيه، ولذلك واصل حديثه قائلا:

ـ عندى اقتراحان. .

فتساءل رمضان وهو يرمقه بتحد:

- أولهما؟

ـ أن تسلم نفسك معلنا توبتك، ولعل ذلك يخفف من عقوبتك. .

وثانيهما؟

ـ أن تبتعد عن طريقي بالوسيلة التي تختارها .

ضحك رمضان ضحكة هازئة ولاذ بالصمت. انتظر عثمان مليا ثم تمتم:

ـ الحق أنى لم أتوقع خيرا!

ـ إذن فلم دعوتني؟

ـ لكي أبرئ ذمتي.

قطب رمضان غاضبا وقال:

ـ طالما رغب كلانا في القضاء على الآخر!

ـ هذا حق فيما يتعلق بك.

ـ وفيما يتعلق بك أيضا ولكن كان لك أسلوبك الخاص.

- ـ لا جدوى من الجدل، والأفضل أن تفكر فيما عرضته عليك.
  - لن تظفروا بدليل ضدى ولا شاهد . .
    - أنصحك بألا تطمئن إلى ذلك.
      - ـ جرب حظك إذا شئت.
        - ـ سأجربه بلا أدنى تردد.

بدهتنى حقيقة طريفة . إنهما كانا يقتتلان طيلة العمر ومذ كانا فى المهد . لم يجدّ جديد سوى أنهما سيتلاقيان وجها لوجه . سيكتشف كلاهما عما قريب أنه كان يقاتل شقيقه أو جزءا من نفسه .

نهض رمضان قائما. لوح بيده محييا، ومضى عابسا عصبي الخطوات.

\* \* \*

بدأت المعركة بين الشقيقين عقب ذلك الاجتماع بأيام. دهمت قوات الأمن جميع الأماكن المسبوهة في المدينة والجبل والخلاء. قبض على جميع من ظن أن لهم بالرجل علاقة من الرجال والنساء. واستجوبوا بعنف فتتابعت الاعترافات. وتضاعف عدد المقبوض عليهم بعد أن ثبت أن أعوانه منبثون في أماكن لا حصر لها كالملاهي والأندية والمقاهي والمصالح الحكومية، حتى أماكن العبادة لم تخل منهم. وتدفقت القوات بكل ثقلها في مطاردة عنيفة جللت المدينة بطابعها الإرهابي فذكرت الناسين بأيام الطوارئ وليالي الغارات. فتشت العيون السيارات والتاكسيات والناقلات، ومسحت الكشافات زوايا الجسور ومنعطفات الطرق والخرابات، وطوفت القوارب الشراعية فوق سطح النيل واقتحمت الخلوات على العاشقين. ومكالمة تليفونية عابثة كانت خليقة بأن تحرك فرقة كاملة من الشرطة وتزلزل عمارة آمنة. وندبة في أنف رجل برىء أو بروز غير عادى في حاملة من الطريق صيحة، تعقبها أصوات أقدام راكضة، ثم تنطلق رصاصات. فيخلو الطريق في ثوان. وتنقض على أديمه مطاردة عنيفة لا تنتهي إلى شيء. وأظلت المدينة سحابة في ثوان. وتنقض على أديمه مطاردة عنيفة لا تنتهي إلى شيء. وأظلت المدينة سحابة قاقة تقطر رعبا.

تابعت أخبار المعركة باهتمام لم أشعر بمثله من قبل. وكنت على يقين من الخسران الشخصى مهما تكن نتيجة المعركة. فلا مفر من أن أفقد أحد أحب رجلين إلى قلبى. وموقف الحياد بينهما لا يهضمه ضميرى فلا بد من الانحياز إلى عثمان. غير أن عواطفى تمردت على واقتتلت بمرارة ومزقتنى تمزيقا. فكلما أحرز رجال الأمن انتصارات حاسمة داخلتنى كآبة وأشفقت من خلو عالمى من رمضان ومرحه وأساطيره ومغامراته فى دنيا الجنس والتحدى. وكلما فاز الرجل فى مطاردة ونشر الرعب من حوله وهدد أخاه

انقبض قلبى واستشعرت خوفا من تسلط قوى الهدم والعربدة وتمكنها من تقويض دعائم الأمن والحضارة. وانبهم أمرى على نفسى ولم أعد أدرى أى رجل أكون، ولا ماذا أروم، ولا كيف أبلغ التوازن المنشود. هكذا تابعت أنباء المعركة باهتمام وانفعال وخجل وحيرة.

#### \* \* \*

وانتهت المعركة إلى خاتمتها المحتومة. وطلعت علينا الصحف ذات صباح بصورة رمضان وقد خر صريعا مضرجا بدمه. انقضت المطاردة الجهنمية وأيام القلق ولياليه. رنوت إلى الصورة طويلا حتى شعرت بالدمع يدب في أعماق عيني. وحنقت، امتلأت بالحنق، ولكني لم أدر علام أحنق. وازدحمت مخيلتي بالقوى الكونية المدمرة كالزلازل والبراكين والأعاصير والشهب والفيضانات والجراثيم. ولم أدر هل أتذكرها على سبيل التشفى أو لأعرف موضعها بين الخير والشر.

وزارني عثمان بعد ذلك بأيام. كان كل شيء في الدنيا قد انقلب رأسا على عقب. في دنياى على الأقل. وبخلاف العهد وجدت نحوه نفورا مرضيا بذلت قصاراى لأروضه وأهذبه. وشعرت في ذاتي بعديد من الشخوص تتصارع وتتجاذب بعنف جنوني. جلسنا على مقعدين متقاربين وهو يطالعني بنظرة ثقيلة تنم عن روح ميت. وفصل بيننا صمت غامض لا يريد أن ينقشع. وأخيرا تململ في مجلسه قائلا:

- إرادة الله و لا راد لإرادته. .

فقلت أو قال لساني بلا وعي:

ـ إنى أرمل وحيد وقد امتلأ البيت بالأشباح . .

تفحصني بقلق ثم قال:

- إنك لا تبدو كما عهدتك. أأنت مريض؟

ـ لا أشكو إلا من الأشباح . .

ـ أنت لا تعنى ما تقول؟

فقلت وأنا أضحك ضحكة رجل نسى تماما كيف يسيطر على نفسه:

ـ عشت عمري متوهما أن سلوكك كان المثل الذي قادني إلى طريق النجاح حتى تبوأت مكاني المرموق في عالم التربية!

ـ لعلك تبالغ . .

- فعلا . . إني نجحت بفضله هو ، هذه هي الحقيقة!

**ـ هــو**؟

- الرجل الذي عبأت قوى الأمن لقتله . .
  - ـ حديثك يقلقني. .
  - ـ شبح من الأشباح أكد لى ذلك!
    - ـ عــزيزى!
- صه. . وقال لى أيضا إن رمضان انطلق من قاعدة لا يمكن الدفاع عنها ولكنه اتبع أسلوبا رائعا، أما نحن ـ أنا وأنت ـ فلنا قاعدة لا يمكن الهجوم عليها ولكننا نتبع أسلوبا سمجا ميتا . .
  - ـ لا أفقه لقولك معنى. .
  - ـ من العسير فهم لغة الأشباح . .
  - ـ صديقي . . إنك في حاجة إلى نوم عميق . .
  - إنى في حاجة إلى يقظة مجنونة. . هكذا قالت الأشباح.
    - ـ جئتك بعد أن أضناني الغم. .
- وسقوني جرعات ضخمة من شراب الأعاصير . . وقالوا لي إن من يهدم مدينة خير من يحافظ على جدار قديم . .
  - ونهضت فجاة ورحت أتمشى في الحجرة متوكئا على عصا، فهتف بي :
    - إنك تعرج. .
    - فأشرت إلى ركبتي وقلت:
    - ـ التهاب أصابني صباح اليوم المشئوم . .
      - ـ زرت طبيبك؟
      - كلا سأجد دوائي عند الأشباح . .
      - اربد وجهه باليأس فهتفت متشفيا:
- سأنبذ التربية والقواعد والطقوس، ابتعت لوحة وعلبة ألوان وأقلاما وفرشاة، سأعمل مصورا، مصورا أعرج، وقد جئت بامرأة عارية كنموذج..
- وأزحت الستار عن باب الحجرة المجاورة فتبدت عارية وهي تنظر إلينا بهدوء وتحد! . . ردد عينيه عثمان بينها وبيني في ذهول فصحت ضاحكا :
- ـ لعلك تسألني عما أدراني بقواعد الرسم وأصوله؟ . . حسن، لن يعرقلني شيء، سأقبض على الأدوات وأدمر كل شيء . .
  - ورميت عينيه المحملقتين بنظرة متحدية وقلت بهوس:
- لقد أضعت أيامي في صحبة العقلاء، سألهو بالأشياء العميقة، سأنصب شراعي في

مهب العاصفة. سأسحق مقتنياتي وأقذف بها للرياح، سأعرض عن العقلاء الشرفاء، وليجرفني الدوار، فليكونوا سعداء نافعين ولأكن مجنونا مخربا وليتقبلني الشيطان، وتسألني عن القواعد والتقاليد فأقول لك إنه لن يعرقلني شيء، سأقبض على الأدوات وأدمر كل شيء!

ومضيت بعزم نحو الفتاة العارية وأسدلت الستار ورائي.

## الحاوى خطف الطبق

قالت لى أمى:

ـ آن لك أن تكون نافعا .

ودست يدها في جيبها وهي تقول:

ـ خذ هذا القرش واذهب لتشتري الفول، لا تلعب في الطريق وابتعد عن العربات.

تناولت الطبق ولبست قبقابي وذهبت وأنا أترخم بأغنية. وجدت زحاما أمام بياع الفول فانتظرت حتى عثرت على منفذ إلى الطاولة الرخامية وهتفت بصوتي الرفيع:

ـ بقرش فول يا عم.

سألنى بعجلة:

- فول خالص، بزیت، بسمن؟

لم أجد جوابا فقال لي بخشونة:

ـ وسَّع لغيرك.

تراجعت مسحوبا بخجلي وعدت إلى البيت خائبا فصاحت بي أمي:

ـ راجع بالطبق فارغا، دلقت الفول أم ضيعت القرش يا شقى؟

فتساءلت محتجا:

ـ فول خالص، بزيت، بسمن، لم تخبريني!

يا خيبة، ماذا تأكل كل صباح؟

- لا أعرف. .

ـ خيبة . . خيبة ، قل له فول بزيت . .

مضيت إلى البياع وقلت له:

ـ بقرش فول بزيت يا عم.

سألنى مقطبا نافد الصبر:

ـ زیت حار، زیت طیب، زیت زیتون؟

بهت فلم أحر جوابا أيضا فصاح بي:

ـ وسَّع لغيرك. .

رجعت مغيظا إلى أمى فهتفت داهشة:

عدت كما ذهبت، لا فول ولا زيت.

فقلت بغضب:

ـ زيت حار . . زيت طيب . . وزيت زيتون . . لم لم تخبريني؟

ـ فول بزيت يعني فول بزيت حار .

ـ إيش عرفني؟

ـ أنت خيبة وهو رجل متعب، قل له بزيت حار .

ذهبت مسرعا وهتفت بالبياع وأنا على مبعدة أمتار من دكانه:

ـ فول بزيت حاريا عم.

وقفت ورأسي بحذاء الطاولة الرخامية وأنا ألهث. وكررت بانتصار:

ـ فول بزيت حاريا عم.

دس المغرفة في القدر قائلا:

ـ ضع القرش على الرخامة.

وضعت يدى في جيبي فلم أعثر على القرش. فتشت عنه بقلق. قلبت الجيب ظهرا لبطن ولكني لم أجد له أثرا. استرد الرجل المغرفة فارغة وهو يقول بقرف:

ـ ضيعت القرش، أنت ولد لا يعتمد عليك.

نظرت فيما تحت قدمي وحوالي وأنا أقول:

ـ لم أضيعه . . كان في جيبي طول الوقت .

ـ وستَّع لغيرك وقل يا فتاح يا عليم.

عدت إلى أمي فارغا فصرخت في وجهي:

- يا خبر أسود، أنت يا ولد عبيط؟

ـ القــر ش .

ـ مـاله؟

ـ ليس في جيبي .

- اشتریت به حلوی؟

- أبدا والله.
- ـ كيف ضاع؟
- لا أعرف.
- تقسم على المصحف أنك لم تشتر به شيئا؟
  - أقسم . .
  - ـ جيبك مثقوب؟
    - ـ أبـــدا.
- ـ ربما تكون أعطيته للبياع في المرة الأولى أو الثانية؟!
  - ـ يمكـــن .
  - ألست متأكدا من شيء؟
    - -أناجائع!

ضربت كفا بكف وقالت:

ـ أمرى لله، سأعطيك قرشا آخر ولكني سآخذه من حصالتك، وإن عدت بالطبق فارغا سأكسر رقبتك.

وذهبت جريا وأنا أحلم بفطور لذيذ. وعند المنعطف المفضى إلى حارة البياع رأيت حلقة من الصبيان والأطفال وسمعت تهليل أفراح. ثقلت قدماى وشد قلبى إليهم. على الأقل ألقى نظرة عابرة. اندسست بينهم، فإذا بالحاوى يطالعنى. غمرتنى فرحة مذهلة. نسيت نفسى تماما. استمتعت بكل قوة بألعاب البيض والأرانب والحبال والثعابين، ولما اقترب الرجل ليجمع النقود تراجعت هامسا «لا نقود معى» انقض على متوحشا. تخلصت منه بصعوبة. جريت ولكمته تشق ظهرى، ولكنى سعدت للغاية، وذهبت إلى البياع وأنا أقول:

ـ بقرش فول بزيت يا عم.

جعل ينظر إلى ولا يتحرك فكررت الطلب فسألنى بغيظ:

- ـ هـات الطبـق. .
- الطبق! . أين الطبق؟ . سقط منى وأنا أجرى؟ . خطفه الحاوى؟
  - أنت يا ولد عقلك ليس في رأسك!

عدت أفتش فى الطريق على الطبق المفقود. وجدت موضع الحاوى خاليا، ولكن أصوات الأطفال دلتنى عليه فى حارة قريبة. درت حول الحلقة، لمحنى الحاوى فصاح بى مهددا:

ـ ادفع أو فاذهب أحسن لك.

فهتفت بيأس:

- الطبــق!

ـ أى طبق يابن الشياطين؟

ـرد إلى الطبق.

- اذهب وإلا جعلتك طعاما للثعابين.

إنه سارق الطبق. ولكنى ابتعدت عن مرمى عينيه اتقاء لشره. ومن القهر بكيت. وكلما سألنى مار عما يبكينى قلت له «خطف الحاوى الطبق». وانتبهت من كربى على صوت يقول: «اتفرج يا سلام». نظرت خلفى فرأيت صندوق الدنيا قائما، ورأيت عشرات من الأطفال تهرع إليه. وتتابع وقوف المشاهدين أمام عينى الصندوق وراح الرجل يشرح الصور بإغراء «عندك الفارس الهمام، وست الكل زينة البنات». جفت دموعى وتطلعت إلى الصندوق بشغف. نسيت الحاوى تماما والطبق. لم أستطع مقاومة الإغراء. دفعت القرش ووقفت أمام العين إلى جانب بنت وقفت أمام العين الأخرى. تسلسلت أمام ناظرى صور الحكايات الخلابة. ولما عدت إلى دنياى كنت فقدت القرش والطبق ولم يعد للحاوى من أثر، لم أفكر فيما فقدت واستغرقتنى صور الفروسية الحب والصراع. نسيت جوعى. حتى المخاوف التي تتهددنى في البيت. نسيتها. تراجعت والصراع. نسيت جوعى. حتى المخاوف التي تتهددنى في البيت. نسيتها. تراجعت خطوات لأستند إلى جدار أثرى كان يوما ما مبنى لبيت المال ومقرا للقاضى، واستسلمت خطوات يلم على عليتي للأحلام. حلمت طويلا بالفروسية وزينة البنات والغول. وتكلمت في حلمى بكليتي للأحلام. حلمت طويلا بالفروسية وزينة البنات والغول. وتكلمت في حلمى بصوت يسمع ولوحت بيدى بأكثر من دلالة. وقلت وأنا أدفع بالحربة الخيالية:

ـ خذيا غول في قلبك.

وجاءني صوت رقيق قائلا:

ـ ورفع زينة البنات خلفه فوق الحصان!

نظرت إلى يمينى فرأيت الصبية التى زاملتنى فى الفرجة. تبدت فى فستان متسخ وقبقاب ملون وهى تعبث بضفيرتها الطويلة. وفى يدها الأخرى حبات بيضاء وحمراء من «براغيث الست» تستحلبها على مهل. تبادلنا النظر. مال قلبى إليها فقلت لها:

ـ نجـلس لنستريح.

بدت مستسلمة لاقتراحى فأخذتها من ذراعها ودخلنا من بوابة الجدار الأثرى فجلسنا على درجة من سلمه الذى لا يفضى إلى شيء. سلم يرتفع درجات حتى ينتهى إلى بسطة تلوح وراءها السماء الزرقاء والمآذن. جلسنا صامتين جنبا إلى جنب. قبضت على يدها وجلسنا صامتين لا ندرى ماذا نقول. وتناوبتني مشاعر غريبة وجديدة ومبهمة. قربت

وجهى من وجهها فشممت رائحة شعرها الطيبة تخالطها رائحة ترابية وعبير أنفاس معزوج بشذا الحلوى. قبلت شفتيها. ازدردت ريقى الذى اقتبس مذاقا حلوا من ذوب براغيث الست. أحطتها بذراعى دون أن تنبس بكلمة، وأقبل خدها وشفتها، فتسكن شفتاها عند تلقى القبلة ثم تعودان إلى استحلاب الحلوى. وقررت أخيرا أن تقوم. قبضت على ذراعها بجزع وأنا أقول:

- اجـلسي.
- فقالت ببساطة:
  - أنا ذاهبة.
  - فسألتها بضيق:
    - إلى أين؟
- إلى أم على الداية.
- وأشارت إلى بيت يقيم أسفله كواء بلدى.
  - ـ لــاذا؟
  - ـ لأقول لها أن تأتي بسرعة.
    - ـ لماذا؟
- أمى تصرخ في البيت، قالت لي اذهبي إلى أم على الداية وقولي لها أن تأتي بسرعة . .
  - ـ وستعودين بعد ذلك؟

فهزت رأسها بالإيجاب وذهبت. تذكرت بذكر أمها أمى. انقبض قلبى. غادرت السلم الأثرى عائدا إلى البيت. بكيت بصوت مرتفع وهى طريقة مجربة أدافع بها عن نفسى. توقعت أن تجيئنى ولكنها لم تأت. تنقلت بين المطبخ وحجرة النوم فلم أعثر لها على أثر. أين ذهبت الأم؟ ومتى ترجع؟ وضقت بالبيت الخالى. وخطر لى خاطر طيب. أخذت من المطبخ طبقا ومن حصالتى قرشا وذهبت من فورى إلى بياع الفول. وجدته نائما على أريكة أمام الدكان مغطيا وجهه بذراعه. اختفت قدر الفول وأعيدت قوارير الزيت إلى الرف وغسلت الرخامة، اقتربت منه هامسا:

- يا عـــم. .

فلم أسمع إلا شخيره. لمست كتفه فرفع ذراعه في انزعاج وطالعني بعينين حمراوين:

ـ يا عـــم. .

انتبه إلى وجودي وعرفني فسألني بخشونة:

ـ ماذا ترید؟

ـ بقرش فول بزيت حار . .

. هــه؟

ـ معى قرش ومعى الطبق.

صرخ في وجهي:

أنت مجنون يا ولد، اذهب وإلا كسرت دماغك.

ولما لم أتحرك دفعني بيده دفعة قوية ألقتني متقهقرا على ظهري. نهضت متألما وأنا أقاوم البكاء الذي يلوي شفتي، ويداي قابضتان إحداهما على الطبق والأخرى على القرش. رميته بنظرة غاضبة. فكرت في عودة خائبة يائسة، ولكن أحلام الفروسية عدلت من خطتي. صممت واتخذت قرارا سريعا. وبكل قوة ساعدي رميته بالطبق. طار الطبق فأصاب رأسه. ركضت بسرعة لا ألوى على شيء. وملأني اليقين بأنني قتلته كما قتل الفارس الغول. ولم أتوقف عن الجرى إلا على مقربة من الجدار الأثرى. نظرت خلفي وأنا ألهث فلم أر أثرا لمطاردة. وقفت حتى تمالكت أنفاسي ثم ساءلت نفسي ما العمل وقد ضاع الطبق الثاني. وشيء يحذرني من العودة المباشرة إلى البيت. وما لبثت أن استسلمت إلى موجة من الاستهانة تحملني إلى حيث تشاء. هي علقة لا أكثر ولا أقل وسأنالها لدى العودة، فلتؤجل العودة إلى حينها. وها هو القرش في يدى، ويمكن أن أحظى بمتعة لا بأس بها قبل العقاب. قررت أن أتناسى جريمتي ولكن أين الحاوي، وأين صندوق الدنيا. فتشت عنهما هنا وهناك بلا ثمرة. أرهقني البحث العقيم فمضيت إلى السلم الأثرى وراء الميعاد. جلست أنتظر وأتخيل اللقاء. تاقت نفسي إلى قبلة أخرى معبقة بشذا الحلوي. واعترفت فيما بيني وبين نفسي بأن الصبية وهبتني مشاعر لم أجرب أطيب منها من قبل. وفيما أنتظر وأحلم ترامي إليّ همس من الجهة الخلفية. رقيت في الدرج بحذر وعند البسطة الأخيرة انبطحت على وجهى لأرى ما وراءها دون أن يلمحني أحد. رأيت خرابة مطوقة بسور عال، وهي آخر ما بقي من بيت المال ومقر قاضي القضاة. وتحت السلم مباشرة جلس رجل وامرأة. هما مصدر الهمس، أما هو فأشبه بالمتشردين، وأما هي فغجرية ممن يرعين الأغنام. صوت باطني مريب قال لي بأنهما يجتمعان في «ميعاد» كالذي جاء بي . بذلك تنطق الشفاة والنظرات والأعين ولكنهما على خبرة مدهشة ويفعلان أمورا لا يحيط بها الخيال. شد بصرى إليهما مشدوها في استطلاع ودهشة ولذة ولم يخل من انزعاج.

وجلسا أخيرا جنبا إلى جنب، لم يعد يهتم أحدهما بالآخر. وبعد فترة ليست بالقصيرة قال الرجل:

- النقود!

فقالت بضيق:

- أنت لا تشبع.

بصق على الأرض، ثم قال:

ـ أنت مجنونة .

ـ أنت لص. .

بظهر يده لطمها لطمة قوية. قبضت حفنة تراب وقذفتها في وجهه. انقض عليها بوجه مغبر فأنشب أصابعه في زمارة رقبتها. بدأ صراع جهنمي مرير. ركزت قواها عبثا لتخليص رقبتها من يده، احتبس صوتها، جحظت عيناها، ضربت بقدميها الهواء. حملقت فزعا أخرس حتى رأيت خيطا من الدم يتسلسل من أنفها. فرت من فمي صرخة. زحفت إلى الوراء قبل أن يرفع الرجل رأسه. هبطت السلم وثبا وعدوت كالمجنون إلى حيث تحملني قدماي. لم أتوقف عن العدو حتى انقطعت منى الأنفاس. جعلت ألهث دون أن أرى شيئا مما حولي، ولما انتبهت إلى نفسي وجدتني تحت قبو مرتفع يتوسط مفترق طرق. لم تطأه قدماي من قبل ولا فكرة لي عن موقعه بالنسبة لحينًا. وكان يقتعد جانبيه شحاذون لا يبصرون. ويعبره في شتى نواحيه أناس لا يلتفتون إلى أحد. أدركت بخوف أنني ضللت الطريق، وأن متاعب لا حصر لها تتربص بي حتى أهتدي إلى سبيلي. هل ألجأ إلى أحد المارة لأسترشد به؟. ولكن ما العمل لو ساقني الحظ إلى رجل كبياع الفول أو متشرد الخرابة؟! هل تقع معجزة فأرى أمي مقبلة فأهرع إليها بكل وليي؟ هل أجرب السير وحدى فأتخبط حتى أعثر على أثر أستدل به على طريقي؟

وقلت إن على ًأن أحزم أمرى، بسرعة ودون تردد، فقد أخذ النهار يولى، وعما قليل سيهبط الظلام من مجاهله.

ثلاثة أيام في اليمن

۱ الأديـــب

ها هي السيارة تنطلق والقاهرة تبتعد. تطايرت الهموم وخفقت القلوب في طريق السويس. وقال في صوت حنون:

ـ لن نفتـرق زهاء أسبوعين، كم تمضى أيام طـويلة دون أن يرى أحدنا الآخر. .

أحدقت بنا لا نهائية الصحراء من الجانبين فأهدت إلينا هواء منعشا رغم حرارة يوليو. وصلنا إلى ميناء الأدبية مع المساء. تعلقت أعيننا بالسفينة الراسية عند الشاطئ حينا ثم أخذنا سبيلنا بين صفوف من الجند وأكوام من المؤن والذخيرة. مضى بنا المرشد إلى مركز التشهيلات. تم التعارف بيننا وبين الضابط، ثم جلسنا ننتظر. إنه ليس بضابط كلا، إنه دوامة مكهربة. يحرك الجنود والموظفين بأصابعه العشرة وبحاجبيه وأنفه وشفتيه ويتكلم من خلال عشرة تليفونات. وكلما مر بنا بصره تفحصنا باسما وهز رأسه هزة تدعو للتساؤل والفضول. آلو. ليتقدم حملة صناديق الذخيرة، يا عم حسنين، أنت مسئول عن توصيل البطاطس. هات الساركي، اسمعني يا يسرى السطح الأمامي من الدور الأول للسرية الثالثة، عليوة راجعت شهادات التطعيم؟ ، مرحبا بضيوفنا الأدباء مرحبا. . سمعت عبد الوهاب وهو يغني قصيدتك يا أستاذ، انتهيتم من التيفود؟ . . والكوليرا؟ . . آلو . . انتهى التطعيم؟ ، أما مقالاتك أنت يا أستاذ فهي السحر الحلال، والكوليرا؟ . . آلو . . انتهى الأدباء . .

- ـتم تطعيمنا ضد الكوليرا والجدري!
  - ـ والتيفود؟
- أكدوا في البلدية ألا ضرورة لذلك.
- التيفود مهم جدا. . دعوني أتصرف فأنا منذ الساعة مسئول عن الحركة الأدبية في المصر . .
  - ـ ولكنكم تعطون الحقن بطريقة عسكرية . . أعنى . .
- يا رب السماوات! . . أيخاف من الحقن أصحاب «البيداء تعرفني» و «علو في الحياة وفي الممات»؟!

استسلمنا. اجتزنا فترة عصبية لم تخل من التأوهات. ولما انتهى التطعيم قال:

- انتهينا من الكوليرا والجدري والتيفود. .

ثم وهو يتفحص وجوهنا بنظرة غامضة:

- أما بقية الحميات هناك فلم يكشف الطب سرها بعد . .

تبادلنا نظرات ارتياب وتوجس على حين انصرف عنا في غير مبالاة. وجرى التهامس بيننا في إشفاق:

- ـ أحـق ما يقـول؟
- ـ يبدو الأمر جدا.
- إذن ما معنى هذه الرحلة؟

- ـ لننفعل بالأحداث.
- أليس من الأسلم أن ننفعل في القاهرة؟
  - ـ وهؤلاء الجنود أليسوا بشرا مثلنا؟
    - ولكنهم جنود!
    - ـ لعله بمازحنا. .
    - وإذا به يلتفت نحونا هاتفا:
- ـ ستنفعلون أولا وقبل كل شيء بالحميات المجهولة!

وضحكنا طويلا. ضحكنا وكأننا نتسول تكذيب الظنون. ضحكات في الأصوات المسموعة للقلق المتطاحن في أعماقنا. ولكنه استقبل هدنة راحة في زحمة العمل فرمقنا بنظرة جادة حقيقية لأول مرة. جادة وودودة. ثم قال بنبرة أخوية:

- أهلا بكم، فرصة طيبة وسعيدة، وهنيئا لكن زيارة بلد شقيق ثائر، ستجدون له مزاقا خاصا وجمالا ذا سحر غير منكور، فاذهبوا بسلام آمنين. .

شددنا على يده بامتنان وذهبنا وراء حقائبنا المحمولة إلى السفينة. ودعانا القبطان إلى العشاء. وطيلة الوقت ترامى إلينا غناء الجنود من سطح السفينة الأمامى، ودار حديث عن ميعاد الإبحار والجو. وأعلمنا الرجل الكريم الظريف بأننا سنكون ضيوفه طوال الرحلة.

وفى أثناء ذلك اختفى من الصحاف الدجاج والشواء والملوخية والبطاطس والسلطة الخضراء والمش والبطيخ. ودعانا إلى قضاء السهرة فى جناحه المطل على البحر ثم مضى إلى عمله. أطفأنا المصباح واهبين الليل أنفسنا. أنعشنا شراب البرتقال ونسمة معبقة بجو الميناء. وما زالت أغنية تتردد متهادية إلينا من معسكر الجنود فوق مقدم السفينة.

- ـ ترى فيم يفكرون حول بنادقهم؟
  - الحرب. . إنها الحرب. .
    - ـ أقدم حرفة في الوجود.
- ـ لكنها تنشب هذه المرة في سبيل التحرير والحرية .
- إنها الحرب، وهي ككل حدث خطير تدفعنا إلى مواجهة لغز الوجود، وجها لوجه. .
- وتذوقنا حينا النسمة الملاطفة. استسلمنا بكل قوانا للحظة طيبة خالية من الكدر، ثم تفرق الحديث واختلف كأنما يدور بين أجيال. وأوشك أن يستقل كل اثنين بفكرة ما.
  - ـ ستكون الحرب القادمة خاتمة الحروب!

- ـ ولكن هل تستمر الحضارة بلا حروب؟
- الحق أن العالم مقبل على عصر عليه أن يخلق فيه كل شيء من جديد.
  - ـ وربما وجد أن عليه أن يعتاد الحياة بلا معنى ولا آمال كبيرة!
- ـ أظنه بسكال الذي قال إننا مبحرون في هذا العالم، ليس لنا خيار في أمر السفر فلم يبق لنا سوى اختيار السفينة . .
  - ـ ولكن كيف نختار سفينة مناسبة إذا لم يكن لدينا فكرة عن الرحلة؟

الأفكار مغلقة ولكن الأصوات راضية تندعنها غبطة المستمتع بعشاء لذيذ وشراب منعش. والغناء لا يتوقف، يحمل إلينا أنغام حماس وحنين. وثمة تساؤلات عما ينتظرنا هناك عند المأكل والمشرب والمنام. ومخاوف أوشكت أن تتضخم لولا أن ارتفع صوت قائلا:

ـ ما هي إلا أيام ثم تنقضي بسلام. . دعونا نشارك الجنود حياتهم ولو بدون قتال. .

شعرت برغبة في الحركة. غادرت جناح القبطان إلى السطح ماضيا حتى الشرفة المطلة على مقدم السفينة. رأيت الجنود على ضوء الكلوبات ما بين مستلقين وواقفين وجالسين. جال بصرى بينهم في جد وانفعال. اجتاحنى طوفان من الذكريات الوطنية، حماسية وأليمة على السواء، لكنه طوفان حمل في النهاية هذه السفينة، التي تحمل بدورها هؤلاء الجنود، ثملة بنشوة النصر والأمل، ملوّحة براية الأخوة والكرامة، فأيقنت أن تاريخنا الطويل المثقل بأحلك الذكريات يتكشف عن صفحة جديدة بيضاء. وخيل إلى أن اسمى يتردد في نداء صاعد من بين أمواج الغناء. حقا!. أجل إن صوتا يناديني. تحرك رأسي هنا وهناك حتى رأيت جنديا يشق طريقه نحو أسفل الشرفة ملوحا بيده. أمعنت النظر فيه بدهشة. تذكرته. انحنيت من فوق السور في غاية من الابتهاج. لوح لى بيده تحية فلوحت له بيدى.

## الجنـــدى

دعتنى للجلوس فجلست. توقفت عن الكتابة على الآلة الكاتبة وقالت لى مجاملة: ـ شكلك ظريف في البدلة العسكرية.

نفخني السرور، رحب بي الزملاء القدماء في الإدارة. على مكتبي السابق المجاور لكتب خطيبتي جلس شاب جديد هو الذي حل محلى بعد تجنيدي، سألتني:

ـ هل اعتدت الآن الهبوط بالبارشوت؟

همست في أذنها:

ـ عندما أقذف بنفسي أبسمل وأتذكر وجهك فيتم الهبوط على أحسن حال.

وناقشنا بعض المشكلات التى تلابس زواجنا كالأثاث والمسكن فاتفقنا على الإقامة «مدة» في بيت والديها وبذلك نؤجل مشكلة المسكن ونكتفى بتأثيث حجرة واحدة. وتركتها واعدا بزيارتها في القريب في بيتها. مضيت من فورى إلى الثكنة بمنشية البكرى. ولم أكد أمكث ساعة هناك حتى صدرت أوامر بتجهيز سفريات الميدان. تجمعنا في الحال. سألت جارى عما هناك فقال لى علمى علمك. اصطفت سريتنا الثالثة. وزعت علينا البنادق. انتقلنا إلى السيارات فانطلقت بنا إلى هايكستب. كان ثمة قطار في انتظارنا، وثمة حركة نشيطة لنقل الذخيرة. همست في أذن صاحبي:

-اليمـن!

هز رأسه فخيل إلى أنه يوافقنى على رأيى. تحرك القطار. اجتاحنى شعور بالغربة والحيرة. لم أودع خطيبتى ولم أودع أمى. منذ عام كنت موظفا، مجرد موظف على مكتب. وبفضل شبابى وصحتى أحببت وخطبت ثم جندت. ها هو القطار يحملنا إلى الميدان. سنهبط من الطيارات إلى ميدان حرب حقيقية. . لا تمرين و لا مناورة. يوم دعيت إلى التجنيد قال لى رئيس السكرتارية «ها أنت ذاهب. . وها هو تدريبنا لك يضيع في الهواء . . ساء حظ الرئيس الذى يوظف شابا قبل تجنيده بعد اليوم» . كنت موضع ثقته وكنت بذلك فخورا . أنا طول عمرى من المتوكلين على الله المعتمدين على دعاء الوالدين . والحب عجيب كالقدر نفسه فذات يوم عهد إلى بتدريب موظفة جديدة . لم تكن أول فتاة أدربها في السكرتارية ولكنها كانت الأولى في حياتى .

ساءلت زميلي مرة أخرى:

- اليمن . . أليس كذلك؟

ـ أظــن ذلك.

ـ متى نعـرف؟

- كل آت قريب.

إذن هى الحرب. كما نراها أحيانا على شاشة السينما. وحتى فى السينما لم أشاهد معركة بارشوت إذ إننى أفضل عادة أفلامنا الغنائية. كانت الأولى فى حياتى فلم أعرف الحب قبلها بصفة جدية وقلت لها عليك بالانتباه فإن رئيس القلم يمزق أى خطاب لأقل هفوة!. ما أحلى ارتباكها إذا ارتبكت. ما أجمل نظرتها وهى ترنو إلى مدربها. وهى تستهديه المعونة والثقة فيهدى إليها قلبه ومستقبله.

### وقال زميلي:

- القطار يهدئ من سرعته. ستعرف كل شيء. .

وقف القطار. أكثر من صوت ردد اسم الأدبية. أجل. أجل. غادرنا القطار. انتظمنا الصف. سرنا إلى الميناء. جرى تطعيمنا ضد الكوليرا والجدرى والتيفود. وكل حمل لوازمه ومضى نحو سفينة راسية بالميناء. تناولنا العشاء. أناس استغرقهم النوم وآخرون راحوا يغنون. الحق أننى لم أركب سفينة من قبل. لا فى البحر ولا فى النيل. بل إننى لم أر البحر قط. ولم أستطع أن أرى منه شيئا فى الظلام.

- أين الأمواج التي يقال إنها كالجبال؟

ـ نحن في الميناء يا رجل يا طيب. .

لفحني هواء لطيف فملأت صدري ثم سألته:

ـ وماذا تعرف عن دوار البحر؟

فسألني بدوره:

ـ لماذا لا نغني مع من يغنون؟

تمشيت مستطلعا. لاحت منى نظرة إلى أعلى. رأيت على ضوء كلوب وجها ينظر إلى أو بدا كذلك. من؟!. أستاذى القديم. أستاذى بمدرسة مكارم الأخلاق الإعدادية بشبرا. هو دون غيره. ترى ماذا جاء به إلى سفينتنا. . وجعلت أنادى وألوح بيدى وأنا أشق طريقى بين البنادق والنيام. وأخيرا عرفنى فلوح لى بيده. التقينا عند منتصف السلم تماما فتصافحنا بحرارة.

- ـ أنت جندى؟! . . ما تصورت ذلك .
- ـ جندى منذ عام فتركت وظيفتي إلى حين.
  - ـ متــزوج؟
  - ـ كلا ولكني خاطب.
- ـ مبارك (ثم وهو يتفحص ملابسي) لا أعرف لغة ملابسكم.
  - ـ من قوة المظلات يا فندم.
  - ـ فرصة طيبة، أتمنى، لك حظا سعيدا.
    - ـ وماذا جاء بك يا أستاذي؟
  - ـ رحلة . . زيارة . . في ضيافة الجيش .
  - أهلا أهلا. . إنى أقرأ مقالاتك . . هل تركت التعليم؟
    - .نعــم.

وتصافحنا مرة أخرى وهو يقول:

ـ أرجو أن أراك كثيرا.

انفصلنا. عدت إلى مقدم السفينة وصعد إلى السطح.

# ٢ الأديـــب

أخيرا تراءت لنا ميناء الحديدة .

تهادت سفينتنا في الممر المائي الذي شقه الروس في الصخر. عقب رحلة طويلة أذابتنا فيها الحرارة وأنهكتنا الأحاديث. فوق سطح بحر كظيم صامت، تحت سماء باهتة تترامى في الآفاق بلا تعبير، بين جماعات متواثبة من الدرافيل. لا تسلية لنا إلا الكلام والسجائر والذكريات ولا عمل لنا إلا الاستجمام وتجفيف العرق.

أخيرا تراءت لنا ميناء الحديدة.

تطلعنا بشغف نحو الأرض التي ظلت دهرا طويلا متقوقعة . حتى ثارت ثورتها فحطمت القشرة الصلبة التي تحبسها فيما وراء التاريخ .

ـ تذكروا أن وطننا تلقى موجات في إثر موجات من مهاجري هذا البلد!

ـ لا يبعد أن نصادف أجدادا وأصولا ونحن لا ندري.

قلبت وجهى فى مجموعتنا فرأيت وجوها تشى بأكثر من أصل تتراوح جذورها ما بين البلقان والسودان مارا بالشام ومصر . قلت لنفسى إن أضمن وأعرق أصل للإنسان هو الأرض .

#### \* \* \*

استقبلنا مندوبا القيادتين العربية واليمينة. انتقلنا إلى مركز قائد الميناء حيث قدمت لنا المرطبات. قائد ضخم كتمثال، وطراز من الرجال يضيف أصلا جديدا إلى مجموعتنا المتعددة الأصول. دعانا لمشاهدة خريطة لليمن.

- ـ أرض مجهولة لا يعرفها إلا المرشدون. .
- انتقل المؤشر من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب.
- ـ جميع هذه المدن ثائرة وموالية أما الجبال فلا تخلو من جيوب!
  - ـ اعتقدنا أن الحرب قد انتهت.

ـ هي كذلك بالمعنى العسكري ولكن علينا أن نطهر الجبال من المتسللين!

دعانا إلى جولة في المدينة. زرنا المستشفى. تجولنا في أحياء ردتنا بقدرة قادر إلى أزقة القاهرة وحاراتها القديمة. شاهدنا دكاكين حافلة بسلع من جميع أنحاء المعمورة. طالعتنا وجوه صامتة مغلقة غامضة، لا ينظرون نحونا، وإذا نظروا لم يرونا.

ـ يا حضرة القائد. . أهم يكرهوننا؟

ـ كلا يا أستاذ ولكننا في عز وقت التخزين!

أجل. . إنه القات! . الدنيا تنساب في حلم كبير يرفرف فوق المدينة ولم نعد إلا أشباحا لا حقيقة لها. وثمة تاجر مستلق على أريكة أمام دكان سأله القائد عن مكان ما ولكنه لم يبد حراكا ولم ينبس بكلمة . . ما فعل إلا أن رفع يده ببطء شديد مشيرا نحو المكان كأنما هي صورة متحركة مصورة بالتصوير البطيء، أما ظاهر الرجل اليمني فيتلخص في لحية وخنجر وبندقية . والتجول بين الحوانيت مثير للغاية . وكان مدعاة للتساؤل عن بدل السفر ومتى يصل . وقال القائد:

ـ ستجدون في صنعاء سلعا أطرف وأجمل. أما تَعزّ فحدث عنها. .

ولفتت الأنظار الحقائب والأقمشة، ثم احتكرتها الهرمونات والمقويات. وتسلل من القائد إلى النفوس إعجاب ودود. تضاعف عندما دعانا إلى العشاء في مقر القيادة اليمنية. اجتمعنا هناك بكهول وشبان من اليمن، منهم من يرتدى البدلة ومنهم من يرتدى الزى الوطنى. تبادلنا الأحاديث عن الحرب والثورة والتاريخ والأدب. كشفت الروح اليمنية عن كنوزها فاستعدنا شعورنا بالأنس والألفة وتفتحت قلوبنا بلا حدود. وملت نحو زميل هامسا:

- أشعر كأنما رأيت هذا المكان من قبل!

فرد على هازئا:

ـ هذه نتيجة عقدة نفسية سأحدثك عنها فيما بعد.

وضعت الموائد حول بركة كانت مسبحاً للجواري ذات يوم. وعزفت لنا جوقة موسيقية وغني لنا مهرج الإمام. وقال لنا القائد ونحن عائدون:

ـ ستبيتون الليلة في الباخرة وغدا صباحا تذهبون إلى صنعاء. .

وتساءلنا عن وسيلة المواصلات فقال:

ـ ثمة طريق جديدة شقها الصينيون في الجبل، تقطعها السيارة في ثماني ساعات، وسوف ترافقكم قوة مسلحة . .

ولدى سماع هذه العبارة الأخيرة ساورنا القلق، وسأله سائل:

ـ وما الداعي لمرافقة القوة المسلحة لنا؟

فأجاب مواريا ابتسامة:

ـ تعرضت الطريق لهجمة عدوانية فاشلة منذ أسابيع!

وأكثر من صوت قال في نفس واحد:

ـ حدثنا يا قائد عن وسيلة مواصلات أخرى.

فضحك ضحكة عظيمة وقال:

ـ ستأخذون الطيارة وستصل بكم في ساعة أو أقل.

عدنا إلى الباخرة. سهرنا في جناح القبطان في جو حار رطب خرق المألوف لنا. ولما آويت آخر الليل إلى القمرة قلت لزميلي فيها:

- أشعر من الحر والرطوبة بأنني سأموت عما قليل.

فأجابني بصوت ملؤه النعاس:

ـ لكل أجل كتاب!

## الجنـــدى

السفينة تقترب من الشاطئ. جمهور ضخم ينتظرنا. ولكن أى جمهور؟!. نساء!. أجل نساء لا حصر لهن في أزياء مزخرفة بالحمرة والزرقة. ما الذي أخرجهن من البيوت؟. وفي لهفة حزم كل جندى متاعه وعدته وحمل بندقيته. ورأينا ضيوفنا من الأدباء وهم يهبطون وراء حقائبهم. وبحثت عيناى عن أستاذى السابق حتى رأيته. وددت أن أودعه ولكن الزحام والنظام حالا دون ذلك. وصدرت لنا الأوامر بالنزول فسرنا نحو السلم في ترتيب عسكرى. ها أنا أستقبل بلدا غريبا بعد أن ركبت السفينة لأول مرة. وفوق الأرض تكشفت لى حقيقة المتجمهرين. إنهم رجال لا نساء كما توهمت من بعيد. يرتدون لباسا كالجونلة ويطلقون اللحى. تنغص حماسي وفتر فرحت أغشى فوق رصيف الميناء. وتذكرت أمي التي لم أودعها. وتذكرت خطيبتي التي زرتها ولم أودعها أيضا. وقلت لو أنني ودعت أمي لتلقيت من دعواتها ما ينفعني. ونودي علينا فهرعنا إلى الصف. ثم اتجهنا إلى سيارات معدة لتوصيلنا إلى صنعاء. وخرجت السيارات من حارات متربة حتى اجتزنا بوابة كبيرة. وإذا بنا ندخل في طرق مهدة، تأخذ السيارات من حارات متربة حتى اجتزنا بوابة كبيرة. وإذا بنا ندخل في طرق مهدة، تأخذ في الارتفاع كلما تقدمنا. وسألت زميلي:

ـ أين مملكة سبأ؟

فسألنى بدوره دون اهتمام بسؤالي:

ـ أنحن ذاهبون إلى الميدان؟

وجذبت الجبال المتشابكة عينى. ألقيت بنظرة إلى أسفل فأدركت مدى الارتفاع الذى نصعد إليه بلا توقف. ومضت الحرارة تخف والجو يلطف والدنيا تتغير. وتساءلنا حتى متى نواصل الصعود فأجاب دليلنا اليمنى:

ـ سنصعد فوق الجبل.

لا فرق بين السيارة والطيارة في هذا البلد. ودار بنا طريق دائرى فتطالعنا الشمس المائلة حينا وتغيب عنا حينا آخر. وبهرنا السحاب وهو يزحف نحونا حتى روعنا. ودخلنا فيه فغاب الوجود وبتنا من أهل السماء. حتى أنفسنا غابت عنا. وارتفعت الأصوات وتبادلنا الألقاب الضاحكة. ولما خرجنا من السحاب استوى الجبل إلى يسارنا على هيئة مدرجات تكسوها الخضرة المتألقة فهتفنا في دهشة. لم أكن رأيت من الجبال إلا المقطم فيما وراء مسجد الحسين وضى الله عنه فتلوت فاتحة الكتاب. أما إلى اليمين فينحدر الجبل صانعا مدرجات واسعة من السهول تنبت في جنباتها القرى، وتتناثر الأكواخ، وتهيم القطعان والأطفال، من تحتها خضرة ومن فوقها قطع من السحب متفاوتة الشفافية تتلاقى في احتدام وتنتشر كقبة هائلة ثم تلاطم سفح الجبل تحتنا فتفور كالأبخرة، وها نحن ننطلق فوق السحاب كأنما تقلنا إليوشن المظلات. قال الزميل:

ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

فقلت بوجد:

- صدق الله العظيم.

قبيل الغروب اجتزنا بوابة صنعاء. وعلمنا أننا ذاهبون إلى كلية الطيران للمبيت فاستبشرنا خيرا ومنينا أنفسنا بليلة نوم ناعمة. غادرنا السيارات ومضينا نحو الكلية دون أن نتين المبنى من الخارج لغلبة الظلام على الدنيا. ولكننا وجدنا أنفسنا في مكان هو أشبه ما يكون بالإصطبل. لا مقعد ولا فراش ولا حتى حصيرة. وقفنا ذاهلين نتبادل النظرات. وأمرنا أن ننام كيفما كان الحال حتى الصباح. نمنا ليلتنا على الأرض بكامل ملابسنا. وفي الصباح صدرت أوامر بأن ننشئ معسكرا حول مطار صنعاء فانهمكنا في العمل. ولم يكن بين أيدينا من الطعام إلا القليل ومن الماء إلا النادر. وندرة الماء أزعجتنا بصفة خاصة. ونمنا ليلتنا في المعسكر. وفي الصباح صدرت الأوامر بالتوجه إلى مدينة عمران. خرجنا من بوابة صنعاء الخلفية. وترامي أمامنا طريق صخرى يتنقل بين جبال عاتية. إني أغوص في المجاهل. أصبح الماضي بعيدا جدا. ترى هل علمت أمي بأمرى عاتية. إني أغوص في المجاهل. أصبح الماضي بعيدا جدا. ترى هل علمت أمي بأمرى وهل علمت به خطيبتي؟. إنهما أعز ما يشدني إلى عالمي القديم. أما العالم الصخرى المكفهر المترامي أمامي فلا أدرى شيئا عما يخبئ لي من أقدار الغيب. ورأيت عن بعد المكفهر المترامي أمامي فلا أدرى شيئا عما يخبئ لي من أقدار الغيب. ورأيت عن بعد

سيارة مدرعة تقود قافلتنا فتطلعت نحوها بثقة ولكنى قلت لنفسى إن الله وحده يحفظنا ويرعانا .

- ـ كل شيء غريب هنا.
- ـ وقافلتنا العسكرية تسير كما كنا نشاهد في السينما.
  - ـ ولكن الفرجة شيء وخوض المعارك شيء آخر .
    - ـ لا يوجد إنسيّ.
      - ولا جان!

وأخيرا تراءت لنا عن بعد بوابة حجرية تقوم على مبعدة منها إلى اليسار قلعة ذات أسوار وأبراج للمراقبة. تبودلت كلمات لم نسمعها بين السيارة المدرعة ورجال الأبراج فتح على أثرها باب البوابة فتهادت منه قافلتنا.

- مدينة عمران؟
- ـ أجل. . لعلنا نجد مقهى أو ملهى.

وجدنا قرية كقرانا في الريف. تقع وسط سهل ومراع تطوقها سلسلة من الجبال الصخرية من ثلاث جهات.

- ـ مدينة عمـر ان.
- ـ مدينة عمران!

غادرنا السيارات. تناولنا الطعام من العلب وشربنا بحيطة وحذر. أحاط بنا الغلمان والأطفال شبه عرايا. حملقوا في وجوهنا بأعين داهشة ثم تبادلنا الابتسام. ومرح الأطفال حول السيارات وتحتها. رغم البؤس أطل علينا من الأعين البريئة جمال فطرى ونظرات ذكية. ترى من من هؤلاء تربطني به صلة قربي ترجع في تاريخها إلى ألف عام؟.

ولم نمكث في عمران إلا ساعات ثم صدرت الأوامر بالذهاب إلى حجّة. تحركت القافلة دون أن تترك وراءها ذكريات. دخلنا في السحاب مرة أخرى حتى غاب عنا كل شيء. وندت أصوات متفرقة في المسيرة الطويلة.

- أهى أرض عدوة أم صديقة؟
- ـ ربما انهال علينا المطر أو الرصاص.
- قريب من هنا هبط سيدنا آدم إلى الأرض.

تلوت الفاتحة والصمدية. ولما انجاب السحاب عنا ترامى أمامنا الطريق الصخرى مرة أخرى. ثم انفسح فيما يشبه الدلتا عن أرض رملية تغطى الحشائش بعض رقعات منها متباعدة. وتوقفت القافلة فجأة فاشرأبت القلوب. دارت السيارة المدرعة في حركة

مناورة. وجرى التهامس من سيارة إلى أخرى كمين. كمين. تناولنا البنادق في حركة استعداد. برز علم أبيض من وراء أكياس الرمل المطوقة للكمين. خرج جندى يمنى ملوحا ومرحبا. نزل إليه من السيارة المدرعة ضابط فتصافحا. زار الكمين ثم عاد إلى السيارة. دخلنا حجّة ، القرية الجديدة ، يا للقرى! إن قلبي يحلم بشيء لا يتحقق. التقينا بجنود مصريين من المشاة. تفرقنا في الخلاء والشمس على وشك المغيب. الجو مائل للبرودة كأيام الخريف يا مصر.

- ـ جنود مظلات؟
  - ـ نعـــم .
  - صرواح!
  - صرواح؟
- ـ هبط الجنود في واد ضيق تكتنفه الجبال.
  - ـ في صرواح؟
- ـ نعم . . ثم انهال عليهم الرصاص من الجبال!
  - ـ في أي وقت؟
    - الفجر.
- ـ وقت يسهل فيه الاختفاء، هل وقع ضحايا كثيرون؟
  - ـ غير قليلين ولكنهم طهروا المنطقة. .
    - ـ ليرحم الله الشهداء.

بلد كأنه شبكة من الجبال المتقاطعة. من كان يتصور ذلك؟!. كحارات خان الخليلي، كحجرة جحا، كالتعليمات المالية والإدارية. السحاب يركض وعما قليل تختفي السماء. وقيل إن المطر سينهمر. وارتفع النداء داعيا إلى إقامة المعسكر.

# ٣ الأديــب

استيقظت بعد نوم ساعتين. غادرنا السفينة إلى مطار الحديدة. اتخذنا مجالسنا في طيارة إليوشن ناقلة للجنود. سنرى اليمن من فوق. صحراء وجبال ومراع. أما المنظر الجديد حقا فهو منظر الوديان الخضراء في سفح الجبل. وقال أحدنا للمرافق لنا:

- الجبال عالية جدا:
- ـ وتنطلق الطيارة بحذاء بعض القمم أحيانا.
- ـ لو أن عدوا ربض فوق جبل فلن يتعذر عليه إصابة الطيارة بالبندقية العادية؟ فضحك قائلا:
  - ـ ولا يخلو بعض طياراتنا من آثار عديدة للرصاص. .
    - ولما رأى وجومنا استطرد:
    - ـ لا تزيد نسبة الإصابة القاتلة عن واحد في الألف. .

أسلمت ناظرى إلى الجبال تحتنا. القرى الخضراء والفجاج المتلوية. حتى لاحت صنعاء. من الجو بدت مدينة عمران ومجمع أحياء ومقر قباب ومآذن. وعندما حملتنا السيارة من المطار إلى الفندق خاضت بنا زمنا موغلا فى القدم. وتراصت على جوانب الطرقات المتربة بيوت غريبة مزركشة. زركشتها أيدى أطفال فنسجتها من خيوط الأحلام وألقت بها فى قلب مدينة سحرية. انشق سطح الأرض عن دنيا عابرة تطوف بها القلانس والوزرات والخناجر والبنادق واللحى. لفحتنا غربة، لاطفتنا نسمة، تجاذبتنا عواطف مبهمة، ثم لذنا أخيرا بأطيب المشاعر البشرية التى جئنا بها. وفى الفندق ارتددنا إلى ذكريات الطفولة، درجات السلم العالية، رائحة الكلس العطنة، الأسقف العالية. فندق قديم كقلعة بالية يديره غلام ذكى. جلسنا على الأسرة فى عنبر جمعنا. وتبادلنا أحاديث لا نهاية لها. وإذا بالغلام يجلس على الكرسى عند باب العنبر بلا استئذان. جعل يقلب عينيه اللماحتين فينا بهدوء عجيب. ولما تركزت الأبصار عليه قال:

- ـ أنتم مصريون؟
- نعم يا أهل اليمن . .
- ـ أتريدون فطورا؟ . عندي بيض من اليمن وفول من مصر ومربة من أوروبا . .
  - أأنت صاحب الفندق؟
  - ابن صاحبه ولكني مديره.
    - كم عمرك؟
    - اثنا عشر عاما .
  - إذا غالطناك في الحساب؟
    - إنى أغالط الجن.
  - عفارم عليك، وما رأيك في الثورة؟
  - ـ كلنا متجمهرون وثوار واللعنة على الأعداء. .

ودخل رجل غامق السمرة مترنح المشية، يرتدى بدلة ويطالعنا بنظرة مسطولة من عدن عينين جاحظتين. قدمه الغلام باعتباره عمه ثم ذهب تأدبا. وقال الرجل إنه من عدن ولكنه في الأصل يمنى، وإنه شريك في ملكية الفندق. وجلس على الكرسي الذي أخلاه الغلام.

- ـ حضرتك مقيت؟
  - ـ كــلا.
  - ـ مسطول؟

فضحك وأجاب بالنفي. سرعان ما أغرانا مظهره بممازحته فأثبت أنه أوسع صدرا مما تصورنا .

- إن كنت حقا من عدن فهل تعرف لغة أجنبية؟
- عشت في عدن ومصر وسوريا وإنجلترا وفرنسا.
  - ـ هل تستعمل القات؟
  - ـ كلا فإنه يضعف القوة الجنسية .
  - ـ إذن فأنت حريص على قوتك الجنسية؟
    - ـ إن قرة عيني في التجارة والفسق!

ضحكنا طويلا. وانطلق يتكلم عن الفسق في شتى أشكاله وألوانه ومتناقضاته، وعقد مقارنات عنه في البلاد التي عاش بها ولكي يقيم الدليل لنا على صحة مراجعه حدثنا عن مصر حديث العارف الدائر، حتى قال له شيخنا:

- إنك معجم فسق البلدان!

غادرنا الفندق لزيارة القائد العام ورئيس الجمهورية. طفنا بمخازن الإمام وبيت الرهائن ثم شهدنا في المساء ندوة أدبية بالقصر الجمهوري. وقابلنا بعض الموظفين المصريين المنتدبين لعمل أول ميزانية للجمهورية اليمنية وإقامة نظام مالى كأساس لحياتها الاقتصادية. وقد دعوني لزيارة جناحهم في القصر فذهبت معهم وأنا أداعبهم قائلا:

- إذن فأنتم أول من بشر بالروتين في أرض اليمن.
- وجلسنا نتحدث وأصوات الشعراء في الندوة تترامي إلينا. وقال أحدهم:
- ـ لقد أغلقت اليمن الأبواب على نفسها ألف سنة فلم يختف منها الشعر ولكن المشكلة الحقيقية هي متى يغزوها العلم؟!

### الجنـــدى

على السرية الأولى أن تستعد وتتجهز بأدوات الميدان. شملتنا حركة نشاط متدفقة وعصبية.

ـ لماذا؟

ـ للقفز في مدينة صعدا.

أمرت أن أذهب مندوبا عن ف ٢ للتعيين. ذهبت إلى مركز التعيين. تسلمت مجموعة كافية من الفانلات والكلسونات وطواقى صوف وجرابات وأحذية وعلب سردين وبلوبيف. إلى صعدا. وما صعدا؟ . . مدينة أم قرية؟ . . غزو أم إمداد؟ . . لن يكون القفز هذه المرة في ميدان تدريب كالمرات السابقة .

لندع الله أن تكون صعدا خيرا من صرواح.

هتفت مقطبا لأتمالك أعصابي:

- الأعمار بيد الله.

ـ معى أربعة وعشرون ريالا وهي ثقيلة .

ـ لفها حول وسطك كما فعلت.

ذهبنا إلى مبنى المطار لتسلم المظلات. أخذت مظلة أساسية بدون احتياطى. ليكن طريقا سهلا آمنا حتى نهبط فوق الأرض. لبست ما يلزمنى فى الحرب من بدلة مموهة وبدلة اسموكس فوق بدلة كاكى قفز والخوذة والبندقية وحقيبة خزن ومحفظة قنابل وحقيبة الجراية وبها ذخيرة ومطواة. وانهمكت فى إعداد أشرطة المظلة. وإذا بيد تساعدنى. رفعت رأسى فرأيت زميلى بمدرسة مكارم الأخلاق بشبرا. تعانقنا. عانقت فيه مصر وأهلها.

ـ سأكون معك في الطيارة .

ـ جـان مستر؟

ـ نعم وسأساعدك على القفز.

-أشكرك، هل تتذكر شبرا؟

فضحك ويداه لا تكفان عن مساعدتي. وقبل أن أسترسل في الذكريات دعينا إلى طابور. استعرضنا القائد العام وقائد المظلات. وكان القائد يقف أمام كل جندي ويسأله:

ـ ألك أي طلبات؟

رأيته لأول مرة عن قرب. ذكرنى وجهه بوجه ستالين. وسرحت رغما عنى فلما عدت إلى الحاضر سمعته وهو يعطى إرشادات عن المنطقة. واصطفت الفصيلة أمام طائرة إليوشن رقم ١٤، الضابط أول الأستك يمين وأنا آخر الأستك شمال. وهذا يعنى أننى سأكون أول القافزين. ولكن ألا يستوى الأول والأخير أمام القدر؟.. وصعدنا إلى الطيارة واحدا في إثر واحد. بدأت محركات الطائرة تدور. كان معنا اثنان من جان ماستر الذين يساعدون على القفز. وانطلقت الطيارة فلم تتحول أفكارى عن مصر. ولما استوينا فوق السحاب أشعلت سيجارة. ظلت أفكارى منغرسة في مصر. النيل والخضرة والأم والفتاة. ولمحت طائرات تطير إلى جانبنا. وإذا بجرس النور الأحمر يدق معلنا وصول الطائرة إلى صعدا. وظهر النور الأخضر داعيا إلى القفز في الحال.

- ستهبطون في منطقة إسقاط بالمطار، توجد طائرة بيضاء في وسط المطار، على كل فرد أن يتجه إليها.

تقدمت من باب الطائرة. توثبت للقفز بقلب خافق. دفعني الزميل القديم بشدة ليبعدني عن جسم الطائرة. لم أنتبه لنفسي إلا وحبال المظلة تشدني في الجو. نظرت إلى أعلى فرأيت المظلة مفتوحة بيد أن حبالها التفت حول بعضها البعض. درت حول نفسي بسرعة فائقة حتى استقامت الحبال. مضيت أهبط في الظلام وحركة إنسيابية هادئة تسرى في أعصابي وأنا في غاية من اليقظة والترقب. ولمحت شبح جبل غير بعيد، ما لبثت أن صرت في كنفه، وجعل يرتفع كلما أمعنت في الهبوط. اخترقت أذني أصوات طلقات نارية. اجتاحني القلق وشدت يدي على الحبال. ضرعت إلى الظلام أن يخفيني عن أعين الصائدين وأنا أتوقع رصاصة تصيبني في أي لحظة. انتهت الرحلة التي أعتبرها أطول رحلة في حياتي فاصطدمت بالأرض صدمة شديدة ورحت أتدحرج منقلبا على نفسي مرات حتى استقربي المكان. غرزت ركبتي على أرض معشوشبة مصمما على النجاة. فتحت قفل المظلة فأخليتها بسرعة ثم انبطحت على بطني. وبحذر شديد تخللت الظلام بعيني. وإذا بي أجد شبحا على مقربة مني فسددت نحوه بندقيتي في ذات الوقت الذي صاح بي «يا أخي المصري . . أنا من الحرس الوطني» أنهضني وهو يعانقني . حدثته عن الطلقات النارية فأكد لي أن الجبل بعيد نسبيا. نظرت حولي فميزت مجاميع من أشجار التين الشوكي. انطلقت في الجو إشارة خضراء فمضينا نحوها، وانضممت مرة أخرى إلى السرية. نادى الضابط علينا فتبين غياب اثنين من السرية.

- أصيبا؟

لاحظت وجود جنود من غير سريتنا. وعلمت أن ثمة قوة سبقتنا إلى هنا ولكنها حوصرت فطلبت نجدة فأرسلنا إليها من السماء. ولم يكن بصعدا أحد سوى الجنود.

ـ أو هبطا في أرض العدو.

ولم نسترح دقيقة فتوزعنا في أماكن من السور المحيط بالبلد وسرعان ما اشتركنا في إطلاق النار. واستمر الضرب من ناحيتنا حتى توقف الضرب الآتي من الناحية الأخرى.

وصدر أمر بالاستعداد للهجوم على الجبل الأسود المطوق لجانب كبير للمدينة. حصل تجمع لا أعرف مداه. وترامى إلينا أزيز طياراتنا وهي تهاجم الجبل وترميه بقنابلها. تواصل الضرب ساعة ثم صدر الأمر بالتحرك. تقدم سريتنا ضابط حاملا مدفعا رشاشا فتبعناه في حركة انتشار. تقدم الضابط لنا بث فينا روحا عاليا فأخذنا في الصعود ونحن نطلق النار وقد شعشع ضوء النهار الباكر. وتساقط رذاذ في أثناء تقدمنا ثم لم يلبث أن انهمر المطر. وصوت صاح:

ـ يجب أن نصعد قبل أن تعيقنا السيول.

الحق أزعجنا المطر وتسلل منا إلى الأجساد على حين غاصت أقدامنا فى الوحل. لم نكف عن الضرب حتى كف العدو عنه مما يقطع بتقهقره. ومضينا فى صعود عسير تكاد تجرفنا السيول حتى بلغنا القمة. أعلن الضابط احتلال الجبل. تسلينا دقائق بمشاهدة آثار قنابل الطائرات.

تلقينا أنباء عن فقد شهداء منهم ثلاثة من المجموعة التي استقلت معى الطيارة رقم ١٤. تذكرت وجوههم وبخاصة أحدهم الذي كان يحدثنا في أوقات الفراغ بالفصحي متفكها.

ـ ماذا يصنعون بالجثث؟

فسمعت إجابة مقتضبة لا تخلو من أسى:

ـيدفنونها!

ولكن الميت يظل حيا في وجدان أهله بمصر حتى يبلغهم خبره. وفكرت في مصر . بكل وجداني الحزين . من فوق قمة الجبل الأسود وتحت سيل من المطر المنهمر فكرت فيك يا مصر . وسمعت نداء باسمى . وقفنا ثلاثة أمام الضابط :

- كونوا نقطة إنذار على بعد كيلو ونصف.

حددنا الموضع بالقياس الدقيق. حفرنا حفرة سرعان ما امتلأت بمياه المطر. غصنا فيها حتى الرقاب ومعنا جهاز لاسلكي صغير R/06.

- ـ راقبـوا جيـدا وعند أي اشتباه نبلغه ثم ننسحب في ثوان قبل إطلاق النار.
  - ـ قد يلمحنا العدو ونحن ننسحب.
  - ـ أى تأخير معناه الموت بقنابل جنودنا.
  - اختص كل منا بناحية والمطر يكاد يجرفنا.
    - ـ لكن الجبل طهر، أليس كذلك؟

- الزم الصمت.

ركزت عيني في المراقبة والمطر ينهلّ بغزارة وقوة لم أتخيلها من قبل.

# ٤ الأديب

غادرنا صنعاء بالطيارة إلى مأرب. من المطار استقللنا سيارة روسى فى حجم لورى متوسط، فى مقدمتها مدفع، لتحملنا إلى القلعة والآثار. قطعت بنا طريقا وعرة متلاحقة العقبات. وكان فى هندستها مرونة لتواجه بها المرتفعات والمخفضات ولكن لم يكن بنا مثل مرونتها. تأرجحنا بقوة وتصادمنا فخففنا البلوى بالفكاهة ما أمكن. اخترقنا أرضا فضاء إلى ما لا نهاية، قاحلة جرداء، إلا من نباتات شوكية موسومة بطابع الهلاك والفناء.

- ـ مكان الجنتين خال!
- أجل. أين العمران والخضرة أين؟!
- ـ وجه الأرض يتغير كوجه الإنسان.
- ـ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان.
- ـ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم.

زرنا الآثار القليلة الباقية. عرش سبأ ومقاعد مجلس الحاشية. تكشف عنها وجه الأرض ثم تركت وحيدة وسط يباب يكتنفها من جميع الجهات. وقفنا ننعم النظر وثارت رومانسية الشعراء ولكن ماذا يعنى أى أثر لقوم آتين من بلاد الآثار؟

وذهبنا إلى القلعة. وجدنا حامية مصرية معزولة عن العالم بآلاف السنين. حفروا بئرا ليشربوا، وأقاموا فرنا ليخبزوا، وبدوا كأسرة مستقلة مكتفية بذاتها ضائعة فى الفراغ. قابلونا بمرح وقدموا لنا الشاى. ولم يكن يصلهم بالدنيا إلا راديو وبعض أفلام قصيرة من مصر. وأشاروا إلى مدينة صامتة مقامة فوق هضبة، مدينة غارقة فى الجمود والصمت.

ـ مدينة مهجورة، هجرها أهلوها في أثناء المعارك.

ميتة لا حركة فيها ولا صوت ولا خيال لحى. كانت مقاما للأشراف، وخارج أسوارها عاش الرعاة.

ـ ثمة مفاوضات معهم وسوف يعودون.

- ـ يا له من منظر ، المدينة الخالية . حتى المقابر توحى بطريقة ما بالراقدين داخلها .
  - ـ وكيف حال مصر؟
  - ـ عال، قلوبها تخفق معكم.
    - ـ وكيف حال الأدب؟
  - وضحكنا. وفي أثناء ذلك جاءونا بنسخ من كتبنا تهرأت من كثرة التداول.
- ـ أنتم لا تتصورون مدى الأثر الذي يحفره في نفوسنا قراءة بضعة أسطر عن وصف مكان أو عادة أو زمان في مصر .
  - حقا لا يمكن أن نتصور. وقال أحدنا:
  - ـ ولكن عددكم قليل ومراكز المراقبة معدودة؟
    - ـ لا يهم. . أصبحت المنطقة موالية . . .

تخيلت نفسي مقيما في هذا الخلاء. يوما بعد يوم، بلا عمل ولا تسلية. وكلما تخيلت عجبت للمرح البسيط الصادق الذي يطالعنا في الوجوه. وغزاني شعور بالإكبار لا يقاوم.

رجعنا إلى اللورى الروسى. كابدنا الطريق فى الإياب كما كابدناه فى الذهاب. عدنا إلى صنعاء. دعينا إلى زيارة مندوب الحكومة المصرية. جلسنا فى بهو استقبال فخم وشربنا المرطبات. وتكلم أهل العلم عن مستقبل اليمن الواعد بكل خير. عن الشباب الثائر المؤمن بالتقدم. عن التأخر الأسيف المتراكم من أبعد العصور. إيمان المسئولين اليمنيين بوجوب سير الإصلاح جنبا إلى جنب مع الحرب ودون تأجيل. ولدى عودتنا إلى الفندق وجدنا فى انتظارنا وفدا من الأدباء الثائرين. جالسونا على الأسرة فشرق بنا الحديث وغرب. وكان لكل منهم مغامرة مع الإمام فراح يروى مغامرته.

# الجنـــدى

غادرنا الجبل على أثر قدوم قوة من المشاة لتحتله. نمت نوما عميقا في المعسكر. في الصباح منحنا عطلة قصيرة فقصدت قرية غراز. سرت في طرقاتها الضيقة فاستقبلني أهلها ببسمات إنسانية كنت في نهم إليها. لاعبت الأطفال حيثما وجدتهم. وشربت القهوة في مقهى ريفي كالكوخ. أذهلني جمال النساء. جمال العيون بصفة خاصة يبعث الدفء في القلوب التي أذابها المطر. صادفت في تجوالي بئرا وقفت حولها أم وابنتاها يملأن الجرار. تلكأت عندهن فنظرت إلى الأم بحنان ذكرني بأمى التي لم أودعها.

۔ مص<sub>ـــ</sub> ی؟

ـ نعـم يا خالة.

ويخليك لأمك.

سررت وابتسمت الفتاتان. اجتاحني شعور عائلي وتذكرت قريتنا بأسطنها. قلت:

ـ نحن نحبكم.

وإذا بصوت عال يقول في غير جدية :

ما شاء الله!

أديت التحية للضابط فقال مقطبا:

ماذا تفعل؟ . . ألا تعرف التعليمات؟

وابتعدت من فوري والمرأة تقول له شبه غاضبة:

ـ أفزعتـ ه يا رجـ ل!

عند الظهر صدرت الأوامر بالتحرك إلى قرية البيضا على بعد ثلاثة كيلو مترات من صعدا. ولدى مشارف الموقع الجديد هاجمناه على شكل كماشة تتقدمنا ثلاث عربات مدرعة. وثار الضرب من الجانبين كأعنف ما يكون. اشتد الضرب علينا بغزارة وشت بضخامة القوة التى تتصدى لنا. انطلق الرصاص من مركز المراقبة، من أسوار القلعة، ومن أكثر من كمين، انفجرت قنابل وراءنا وبين صفوفنا. وصدر الأمر بالانسحاب ونحن نقاتل. انسحبنا مقاتلين بعنف. انغرزت إحدى سياراتنا المدرعة فى حفرة وتعذر عليها المسير. انهمر عليها الرصاص كالمطر فلم يجرؤ أحد ممن فيها على رفع رأسه وتوقف الدفاع، أحاط بها العدو من كل جانب ونحن نقاتل مقهقرين لا نستطيع أن نمد لها يدا، ثم أطبق عليها الأعداء بالبلط والخناجر.

ساعات مرت دون أن تتوقف العملية دقيقة واحدة. أنهكنا التعب. قل زادنا من الطعام والذخيرة والماء. وضاعف من إرهاقنا إحساسنا بالقذارة ونحن نتقلب في الطين. الساعات تمر بثقلها فوق أجسادنا وأرواحنا. وساءلت نفسي حتى متى أحتمل العناء الذي يفوق البشر.

وهتف صوت:

ـ صوت دبابات!

ـ وطــائرات!

هل جاءت نجدة حقا؟

ارتفعت روحي المتهافتة. اشتد إطلاق النار. دارت الدبابات من حولنا وهي تقذف

بقنابلها. ثم دوت انفجارات قنابل الطائرات. تراخت القبضة الخانقة لرقابنا. تحولنا من الدفاع المتقهقر إلى الهجوم. اقتحمنا البيضا ونحن نتساقط من الإعياء. علمت باستشهاد أحد زميلي بنقطة الإنذار فوق الجبل الأسود. تذكرت أحاديثنا منذ ساعات عند مشارف قرية غراز. قال إنه رأى وجوها تشبه بعض أفراد أسرته بدرجة مذهلة. اقتنع بأنه ينحدر من أصل يمنى. وقال لى:

ـ لا تدهش إذا قررت - بعد الحرب - الإقامة في اليمن إلى الأبد!

٥

## الأديب

طارت بنا الطائرة إلى تعز. ودون توقع أحد منا وجدنا أنفسنا في جنة. تهادت بنا السيارة من المطار إلى القصر الجمهوري في جنة.

ـ ماذا ترون أيها الإخوة؟

ـ سويسرا. . لبنان . . حلم الخيال .

الحقول خضراء، المراعى خضراء، الطرقات مجللة بالأشجار، الحدائق أكثر من البيوت عدا، سلسلة من الجبال كالأنغام المتموجة مكسوة بالزمرد مزركشة بالأزهار، الجو لطيف يريق السحر معبقا بشذا الورود والثمار. وصاح صائح مشيرا إلى القمة:

ـ يا له من فندق سياحي!

إنه يلوح كوكر نسر فوق قمة جبل وسيط بين التموجات الجبلية غير أن الدليل قال مصححا بهدوء:

ـ بيت الرهائن، وهو اليوم خال.

وضحكنا ونحن نتأمله في أسى. واخترت شاعرا من بين الزملاء وهمست له:

- ألا تعذرني إن طلبت الإقامة في تعز؟

فأجاب بشيء من الامتعاض:

ـ دلني على ملهي واحد.

ولما آنس مني دهشة استرد:

ـ دفء الجمال الحقيقي إنما ينبعث من المرأة . . .

ثم بعد دقيقة صمت:

ـ والويسكى . . لا يجوز أن ننسى الوقود .

استرحنا في القصر الجمهوري ساعة. دعا الداعي إلى التسويق. ذهبنا إلى السوق كل يحمل بدل سفره. وتساءل صوت في براءة:

ـ أليس من الأفضل أن نحتفظ بالعملة الصعبة لوطننا؟

انهالت عليه مختارات من السباب شعرا ونثرا. تجولنا في السوق. الوجوه ناضرة جميلة. الحوانيت يديرها غلمان هم آيات في النشاط والذكاء. اخترنا محلا متوسطا فانقضضنا عليه كمجموعة من الفئران. زاغت الأبصار بين لعب الأطفال والساعات الأتوماتيكية والأغطية والمفارش والبلوزات والإشاربات والشالات. من جميع بلاد المعمورة. وابتاع كل حقيبة متوسطة ليودع بها هداياه. عدنا ولا عملة معنا صعبة ولا سهلة. ذهبنا عقب الغداء - إلى ميدان الشهداء لشهود ندوة أدبية. استقبلنا بهتاف واتخذنا مجالسنا وراء مائدة مستطيلة. ازدحم الميدان بالجمهور. استبق الشعراء إلى الترحيب بنا والإشادة بثورتنا. وألقى شعراؤنا قصائد عن العروبة والجهاد والثورة والاشتراكية. وجدتني طيلة الوقت أقارن بين أحاديثنا الفردية وكلماتنا أمام الجمهور. بين تجوالنا في السوق وموقفنا وراء المنصة. إن الصوت الذي يتحدث أمام الجماهير هو صوت الجماهير. وخيل إلى أنني أدركت شيئا مما ينقصنا. لعله محور التناقض بين ما يقال وما يجب أن يقال. أن نتبني في خلوتنا صوت الجماهير. ها هي أشداق مستقبلينا متكورة بالقات إذ قامت الحفلة في وقت التخزين. هكذا اجتمع خازنو القات بخازني الهدايا في سباق الحماس لتقرير المبادئ المثالية للأمة العربية. وعند إبداء ملاحظة من هذا النوع ستسمع من يرد عليك قائلا: «يا أخي . . نحن بشر . . لم نرتكب شرا . . ونحن مخلصون. . » ولكن أين الروح التي تشعل القلوب؟ . . أين لحظات الانتصار على النفس التي تخلق المعجزات على مدى التاريخ؟ . . ماذا ينقصنا؟ . . لماذا نبقى كأننا متفرجون حسنو النية أمام فيلم يموج بجليل الأحداث؟ . . وخيل إلى أن شيئا يتحرك عند ساقى تحت المائدة. طويت طرف الغطاء ونظرت إلى أسفل فرأيت صبية في الثامنة أو دون ذلك، متلفعة بشال أبيض، تتفرج على الحفل من تحت المائدة، شعرت بعيني فأدارت نحوى عينيها فرأيت وجها صغيرا نقى البشرة يحدق فيّ بعينين سوداوين كأجمل ما رأيت في حياتي من عيون. وجب قلبي ممتنا لرؤيتها. وفاض به نبع من الحنان والحب. ورفعت عيني إلى قطع السحاب الأبيض المشعشع بنسائم مخضلة برذاذ يجيء قليلا وينقطع قليلا فاطمأن القلب إلى وجود شيء صغير على هامش الجمع، عند ساقي، ولكنه كامل الصدق والنقاء. وسهرنا في حديقة القصر حتى الهزيع الأخير من الليل. الهواء بارد دسم ولكنه مفعم بالأمان والسحب تبهر العين بضياء القمر. وقال محدثنا: - المدن معنا، أما الجبال فمارقة ولا سبيل للتفاهم بين الاثنين.

وقلب عينيه في وجوهنا مستطلعا ثم واصل:

ـ فإما أن نلتزم موقف دفاع إلى الأبد وإما أن نبيد العدو إبادة!

وقال قائل:

- الإبادة!

وقال آخىر:

- الحضارة . . نغزوهم بالحضارة!

وثالث قال:

ـ نعترف بالواقع!

وتواصل الحديث تحت ضوء القمر. وتجلت لنا الحقيقة صخرية صلبة مستقلة بذاتها عن الأحلام.

#### الجنـــدى

إلى وادى نشوز .

تحركنا بالعربات المدرعة R + R شارفنا الوادى. تقدمت دبابتان للاستكشاف تتبعهما مدرعتان للحراسة. دخلنا ممرا ضيقا تقوم على جانبيه هضبتان صخريتان وكنا فى المدرعة عشرة. بعد توغل نصف كيلو متر انهمر علينا الرصاص. تصدت دروع السيارة للرصاص واستمرت عملية الاستكشاف. انحشرت سيارتنا فى مطب أو التحمت بشىء مرتفع فتوقفت. عجزت عن التحرك وضاع كل جهد لتخليصها.

ـ على دبابة أن تدفعنا من الخلف.

ليذهب أحدنا إلى إحدى الدبابتين.

وقعت القرعة على زميل فغادر السيارة ليزحف على بطنه فى الظلام. انتظرنا فى غاية من القلق. وبعد دهر رجع إلينا وهو يقول:

دبابة المقدم مشتبكة في قتال على بعد خمسة كيلو مترات. أما الأخرى فقد تعطلت! صعقنا الخبر. وهمس صوت:

ـ نحن عشرة والعدو آلاف.

والعمل؟

#### ـ مصير سيارة البيضا!

من داخل السيارة رأينا الأشباح تهبط في حذر من الجبل. فتحنا سقف السيارة وأخذنا أهبتنا بالبنادق والقنابل اليدوية. طلبنا النجدة باللاسلكي ولكن الاتصال انقطع. أمرنا أقدمنا في الخدمة بمغادرة السيارة. مرت لحظات رهيبة ممزقة بالخوف. قاومت موجة من المضحك تريد أن تجتاحني. وثب أحدنا. تبعناه بلا تردد. نفر من الموت إلى الموت. انهال الضرب. انبطحت على وجهي. استعملت البندقية والقنابل اليدوية. في هنيهة صمت رفعت رأسي فلم أجد أثرا لأحد من زملائي. دعوت القمر أن يختفي. لم أدر أين أتجه ولا كيف تفرق الزملاء. خيل إلى أنني محاصر. اتجهت وجهة بلا خطة ولا علم لي بما ينتظرني. دهمتني لحظة مباغتة فوجدتني حيال ثلاثة أشباح من العدو بلا تدبر أو وعي فتحت الأمان وضغطت على الزناد فانطلقت مطرة من الرصاص خر على أثرها الثلاثة. انطلقت أعدو على غير هدى تحت ضوء القمر. سمعت صوتا يناديني فاتجهت نحوه بلهفة من يفلت من قبضة الموت. وجدتني مع مجموعة من الزملاء ماضية في حذر نحو شبح الدبابة المعطلة. ولما بلغناها صحنا معا.

#### -افتحوا. . نحن مصريون!

لم نتلق من الداخل استجابة من أى نوع كان. كررنا النداء بلا أمل. يئسنا فدفعنا أنفسنا في الحشائش متفرقين وأصوات الرصاص لا تنقطع. وأخذ الضرب يخف حتى سكت. نهضت في حذر مقتربا من الدبابة وهتفت بتوسل:

#### ـ افتحوا . . إني مصرى . . ألا تسمعون؟

ظلت الدبابة غارقة في صمت متحد مرهق رهيب حتى تطايرت اللعنات من فمى ثم رجعت مغيظا يائسا إلى قبر الحشائش. وإذا بالضرب يتركز على الدبابة كالسيل. مست رصاصة خوذتى فتشهدت. ترقبت الرصاصة التالية بيأس وقهر. هاتف قال لى إننى سأعود إلى مصر. أقسم لى على ذلك.

اشتد الضرب لدرجة غير محتملة. ثم يهدأ ويخف لسبب لا أدريه. لم يبق منه إلا طلقات متباعدة وأنا مغروز بكل قوتى بين الحشائش. وخيل إلى أن الظلام يخف ويبهت رويدا. أجل، الظلام يخف رغم اختفاء القمر وراء الجبل. سوف تلوح تباشير الضياء وينقشع الظلام الذى يخفيني عن عين العدو المتربص. سيجدني صيدا سهلا وسينهال الرصاص الحانق الغاضب على من جميع الجهات. الصباح يقترب ولا مكان للمعجزات. لعل أمى تصلى في هذه اللحظة ولكن لا أمل في المعجزات. واشتد الضرب فجأة. اشتد أكثر من أى وقت مضى. أصبح الضوء يسمح بالرؤية. أقدام العدو تتراجع نحو الجبل والضرب يجيء من الناحية الخلفية. ترامي إلى سمعي صوت دبابة أو

دبابتين. جاءت النجدة. إن القذائف تطير فوقى لتنفجر خلف سفح الجبل. لم تدم فرحتى إلا ثانية واحدة ثم تساءلت كيف أعلن عن حقيقتى المدفونة لبنى وطنى؟. كيف أتجنب الموت برصاصهم أو شظايا قنابلهم؟.. أطلقت النار نحو العدو المتقهقر. وتركز الخوف من الموت فيما ورائى. أثقلنى التعب وثقل على بصفة خاصة فوق كتفى اليسرى. وغاصت الأرض بلا سبب واضح. إلى أين تغوص الأرض ولماذا؟.. إننى أهبط فى هوة ثم يرفعنى شىء مجهول إلى أعلى. وعاد ضوء الصباح يضعف بسرعة عجيبة حتى غاب كل شىء فى الظلام.

# ٦ الأديب والجندى

غادرنا القصر الجمهوري في الصباح الباكر. والسيارة تميل بنا نحو طريق المطار. اعترض سبيلنا قطيع غنم ترعاه فتاة . . فتاة جميلة لخص وجهها وقوامها جمال تعز بكافة أشكاله وألوانه . اهتز الشاعر وجعل يهلوس بها بقية الرحلة . عدنا إلى الحديدة . إلى الحرارة الذائبة في الرطوبة الخانقة . قال :

ـ الارتفاع في المكان يحدث المعجزات، كذلك الروح فإنها إذا شاءت أن ترتفع فإنها تعانق المعجزات، ما رأيك في هذه الفكرة؟

#### قىلت:

ـ لخيرك ولخير الشعر لا تكتب إلا عن المرأة!

ودعانا القائد إلى العشاء فوق سطح مسكنه على شاطئ البحر الأحمر . لطف الجو على شاطئ البحر . طاب السمر حول المائدة الحافلة بما لذ وطاب من طعام وشراب . تجاوبت فى الفضاء ضحكاتنا . هل سمعتم نكتة الرجل الذى . هل تعرفون حكاية الزوجة التى ، هل وهل وها وها وها . وتنوع الحديث واختلط جده بهزله . وتعدد المتحدثون فى وقت واحد، وانقسموا إلى وحدات مستقلة .

- الجبليون أشداء. عندما يحكم على أحدهم بالموت يتقدم إلى السياف مطلق اليدين على مشهد من أهله، لو خاف أو صرخ ركبهم العار إلى الأبد، يحنى رأسه بثبات، يهوى عليه السيف دون بادرة خوف من ناحيته، ينفصل رأسه عن جسده وكأنه رأس رجل آخر.

ـ رجال أشداء حقا، من سلالة غزت العالم ذات يوم، وقوة مدخرة للخير مستقبلا!

ترى أين تلميذي القديم، جندي المظلات، ماذا يفعل الآن، وماذا يفعل غدا؟

#### \* \* \*

- ـ وينفذون أوامر شيخ القبيلة بلا تردد، في المعقول وفيما يجاوز أي معقول، حتى الموت نفسه يهجمون عليه دون مبالاة، ويؤمنون بأنهم من طينة غير طينة البشر، وأن الدنيا جميعا تحت وأنهم فوق، كالجبال التي تؤويهم!
  - ـ ستعود فرقة من الجنود معنا على ظهر الباخرة.
  - ـ ما أجمل أن تؤدي واجبك في حرب ثم تعود إلى الوطن سالما!
- الإنسان يحارب منذ وجد على ظهر الأرض، ومن خلال الحرب خلق الحياة والحضارة!
  - ـ متى انقلبت إلى مارد فلسفى؟
  - ـ لا فلسفة ولا دياولو، فكرة تذهب بي وأخرى تجيء بي.
    - ـ سبق أن قلت إنك لم تحارب ولن تحارب.
      - ـ والحمد لله على ذلك!
- ـ ومرة تزوج جندى دون إذن فقدم للمحاكمة وحكم عليه بالحبس سبعة أشهر. ثم أرسل إلى مصر لتنفيذ الحكم ولكنهم أرسلوا معه زوجته اليمنية.
  - ـ دماغي يدور ويجب أن نتبادل الرأى!
    - ـ سيتسع المجال فوق ظهر السفينة.
  - العالم غريب مليء بالمتناقضات ولا معنى لشيء إذا لم نعرف لماذا نعيش!
    - ـ شربت أكثر مما ينبغي.
    - ـ إنى أشرب زجاجة كاملة وأستطيع بعد ذلك أن أحاضر إذا شئت.
      - ـ متى تجمع محاضراتك في كتاب؟

ak ak ak

ترى أين ضابط الشئون العامة لأسأله عن جندي المظلات؟

\* \* \*

- وتلاقينا مع قوة معادية ولكن حجز بيننا صخرة كبيرة في ممر جبلى، تحصنت كل جبهة في مكانها واستحال علينا القتال، دخلنا معركة كلامية، قلنا لهم يا عبدة الإمام يا أعداء الإصلاح فقالوا لنا يا كفرة يا فجرة يا عبدة الشيوعية، ثم تمادينا في السب والقذف!

ـ لا أعرف مكانه الآن، اكتب له خطابا وأعدك بإيصاله إليه في أي مكان في الميدان.

\* \* \*

- ـ هل جربت مواجهة الموت؟
- الحياة كلها كفاح وليس الجندي وحده الذي يحارب.
  - ـ ولكـــن.
- سأقص عليك قصة حب عانيتها زمنا، بطلتها فتاة متمردة وحشية، وسوف تقتنع بأن ما كان بيني وبينها لا يختلف عن القتال في شيء.

\* \* \*

هل ثمة فرصة لأكتب كلمة سريعة؟

أخى العزيز . .

كم وددت أن أودعك قبل الرحيل. أذكرك بالحب والإكبار وأنا على وشك العودة إلى أرض الوطن. ستعود إليه ذات يوم منتصرا راضيا بإذن الله. اهنأ الآن بأنك تحارب في سبيل قضية عادلة، قضية التقدم للإنسان العربي. ومهما تكن العوائق ومهما تكن العواقب فإنك بذرت في الأرض بذرة من طبيعتها النمو والازدهار. أستودعك الله وإلى اللقاء.

«المخساس»

الم	
	نے مجھ خ
	مجيجوط

<u>п</u>		
1947	ترجمة	١ _ مصر القديمة
۱۹۳۸	مجموعة قصصية	۲ _ همس الجنون
1949	رواية تاريخية	٣ _ عبث الأقدار
1988	رواية تاريخية	٤ ـ رادوبيـس
1988	رواية تاريخية	<ul> <li>۵ - كفاح طيبة</li> </ul>
1980	روايــــة	٦ _ القاهرة الجديدة
1987	روايــــة	۷ ۔ خان الخلیلی
1984	روايــــة	٨ _ زقاق المدق
1981	روايــــة	٩ _ الســراب
1989	روايــــة	١٠ _ بداية ونهاية
1907	روايــــة	١١ ـ بين القصرين
1904	روايــــة	١٢ _ قصر الشوق
1904	روايــــة	١٣ ـ الســكرية
1771	روايــــة	١٤ ـ اللص والكلاب
777	روايـــة	١٥ _ السمان والخريف
777	مجموعة قصصية	١٦ _ دنيا الله
1978	روايــــة	١٧ ـ الطـــريق
1970	مجموعة قصصية	١٨ _ بيت سيئ السمعة
1970	روايـــة	١٩ ـ الشــحاذ
1977	روايـــة	٢٠ ـ
1978	روايـــة	۲۱_ میسرامسار
1978	روايـــة	۲۲_ أولاد حارتنا

1979	مجموعة قصصية	٢٣ _ خمارة القط الأسود
1979	مجموعة قصصية	٢٤ تحت المظلة
1971	مجموعة قصصية	٢٥ _ حكاية بلا بداية ولا نهاية
1971	مجموعة قصصية	٢٦ - شـهر العســل
1977	روايــــة	٢٧ ـ المــــرايا
1974	روايـــة	۲۸_ الحب تحت المطر
1974	مجموعة قصصية	٢٩_ الجـــريمــة
1978	روايــــة	٣٠_ الكـــرنـك
1940	روايـــة	۳۱_ حکایات حارتنا
1940	روايــــة	٣٢ قلب الليل
1940	روايــــة	٣٣ _ حضرة المحترم
1977	روايــــة	٣٤ الحسرافيش
1979	مجموعة قصصية	٣٥_ الحب فوق هضبة الهرم
1979	مجموعة قصصية	٣٦ ـ الشيطان يعظ
194.	روايـــة	٣٧_ عصر الحب
1911	روايــــة	٣٨ ـ أفسراح القبــة
1911	روايــــة	٣٩ ليالى ألف ليلة
1911	مجموعة قصصية	٤٠ _ رأيت فيما يرى النائم
1921	روايــــة	٤١ ـ الباقى من الزمن ساعة
۱۹۸۳	روايـــة	٤٢ ـ أمام العرش (حوار بين الحكام)
۱۹۸۳	روايـــة	٤٣ _ رحلة ابن فطومة
1918	مجموعة قصصية	٤٤ ـ التنظيم السرى
1910	روايـــة	٤٥ _ العائش في الحقيقة
1910	روايـــة	٤٦ _ يوم قتل الزعيم
1914	روايــــة	٤٧ _ حديث الصباح والمساء
1911	مجموعة قصصية	٤٨ _ صبساح السورد
۱۹۸۸	روايــــة	٤٩ _ قشـــــتمر
١٩٨٨	مجموعة قصصية	٥٠ _ الفجر الكاذب

1990	مجموعة قصصية	٥١ _ أصداء السيرة الذاتية
1997	مجموعة قصصية	٥٢ ـ القــرار الأخيـر
1999	مجموعة قصصية	۵۳ مسدى النسيان
71	مجموعة قصصية	٥٤ _ فتــوة العطــوف
45	مجموعة قصصية	٥٥ _ أحـلام فترة النقاهة

## رقم الإيداع 4 • • ٧ • / ٢ • ٠ • ٢ الترقيم الدولي 4 - 1783 - 09 - 977

#### مطابع الشروقـــ

القاهرة: ٨ شــارع سيببويه المصــرى ـ ت: ٢٠٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٠) بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٨١٥٢١٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧١٥٥

مكتبع بغرار

